التفسيرُ العَصري لِلْقُرآن الكريمِ

الإعْجازُ الْعِلْمِيُّ وَدَحْض شُبُهَاتِ الْمُشَكِّكِينَ وَالْمُلْحِدِينَ

المجلد الأول



الدُكتور/ أحمد إسماعيل زيد

رَصِين لِلنَّشْرِ الرَّقْمِيّ

التفسير العصري للقرآن الكريم

الإعجاز العلمي ودحض شبهات المشككين والملحدين

التصنيف الموضوعي: الكتب الإسلامية - التفسير وعلوم القرآن

المؤلف: د. أحمد إسماعيل زيد

مراجعة لغوية وتحقيق: أ. أيمن محمد الدهراوى

بيانات الإصدار:

رقم المجلد: المجلد الأول (من سورة الفاتحة إلى سورة البقرة)

رقم الطبعة: الأولى (٢٠٢٦م / ١٤٤٧هـ)

فريق العمل:

تصميم الغلاف والتنسيق والإخراج الفني: فريق رصين

الناشر: رصين النشر الرقمي

سياسة النشر وحقوق الاستخدام

يُسمح بإعادة طباعة هذا الكتاب، أو توزيعه، أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحاجة لإذن مسبق من المؤلف، وفق الشروط التالية حصراً:

- عدم البيع: يُحظر حظراً تاماً استغلال الكتاب أو ترجماته تجارياً أو بيعه بأي مقابل مادي.
- الأمانة العلمية: يُحظرتعالديل أو تحريف أو حذف أي جزء من نص الكتاب الأصلي عند الطباعة أو الترجمة.
- نسب العمل لصاحبه: يجب الإشارة بوضوح إلى اسم المؤلف والمصدر في جميع النسخ والترجمات.

للتواصل والاستفسارات

البريد الإلكتروني: raseen.publishing@gmail.com

منصة إكس: @RaseenHub



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

أما بعد:

فإن من أجل النعم على العباد أن يوفقهم الله - سبحانه وتعالى - للعمل مع كتابه الكريم قراءة وحفظه وعملا، ومن أجل ذلك أيضا أن يوفقهم لتعليم للناس وتبليغه لهم عملا بقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه). وقوله صلى الله عليه وسلم: (بلغوا عني ولو آية).

فهذا تشريف ما بعده تشريف أن يصبح العبد بفضل الله ممن يمكنهم الله ووفقهم لتبليغ الناس آيات الله تعالى

ونحمد الله تعالى أن استعملنا وجعلنا حلقة في سلسلة العلماء الربانيين الذين شملهم بكرمه وعلمهم تأويل كتابه ومن علينا ووفقنا فقمنا بهذا العمل المبارك

وكان منهجنا فيه كالتالي:

اولا: ما توافق عليه علماء التفسير ممن رضى الله عنهم من أمثال القرطبي والطبري والبيضاوي والنسفي والبغوى والشعراوي وطنطاوي وغيرهم اثبتناه

ثانيا: قمنا بتصريف يسير لما يوافق العصر من كلمات أو أحداث ووضحناها

ثالثا: قمنا بفضل الله بالذود عن القرآن ضد شبهات الملحدين والمشككين

رابعا: أثبتنا ان القرآن الكريم سبق ما يعرف بالإعجاز العلمى ووضحناه فى مكانه

خامسا: بينا أن القرآن الكريم إنما هو رأسا من عند الله تعالى وليس مقتبسا من كتب أهل الكتاب

سادسا: بينا صدق القرآن الكريم فيما اخبر به عن بنى اسرائيل يهودا أو نصارى وأثبتنا ذلك من كتبهم

سابعا: بينا بما لا يدع مجالا للشك أن القرآن الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ولله الحمد والمنة والفضل فهو جل شأنه إلى ذلك والقادر عليه فنحمده أن وفقنا لذلك وندعوه سبحانه أن يفتح لهذا العمل قلوب العباد وأن ينفع به الناس وأن نجد ثوابه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا.

تمت كتابته بتاريخ

٧ ذوالحجة ١٤٤٤هـ

الموافق: ٢٥ يونيو ٢٠٢٣م

جدول المحتويات

المقدمة ---------- ١

جدول المحتويات ---------- ٣

هدايات سورة الفاتحة ---------- ١٨

سورة الفاتحة ---------- ١٩

حقيقة الإيمان بالأسماء الحسنى والصفات العلى ---------- ٢٢

أنواع تربية الله تعالى لخلقه ---------- ٢٣

اجتماع أنواع التوحيد الثلاثة ---------- ٢٥

لطائف سورة الفاتحة ---------- ٢٦

السر في تيسير حفظ سورة الفاتحة ---------- ٢٧

هدايات سورة البقرة ---------- ٢٨

هدايات سورة البقرة ---------- ٢٩

أخطاء بني اسرائيل التي وقعوا فيها ---------- ٣٠

سبب تسمية سورة البقرة ---------- ٣١

شروط الاستخلاف في الأرض ---------- ٣١

التوجيهات الربانية لأمة الاستخلاف ---------- ٣٢

نواحي الإصلاح لأمة الاستخلاف ---------- ٣٢

أجزاء منهج الاستخلاف ---------- ٣٣

سبب تأخر آيات أحكام الأسرة عن أحكام الصيام ---------- ٣٤

قصة طالوت وجالوت ---------- ٣٤

دلالات آية الكرسي ---------- ٣٤

السر في اجتماع ثلاث قصص في السورة ---------- ٣٥

ماشتملت عليه خاتمة سورة البقرة ---------- ٣٦

فضائل سورة البقرة ---------- ٣٧

خصائص سورة البقرة ----------٣٩
التفسير العصري لسورة البقرة----------٤٠
الحروف المقطعة في سورة البقرة ----------٤١
أنواع الهدايات ----------٤٣
حقيقة الإيمان ---------- ٤٤
أبرز مايميز المسلم عن الكافر----------٤٥
نشأة الكون---------- ٤٧
الانفجار العظيم ---------- ٤٨
مرتكزات نظريات تفسير نشوء الكون ---------- ٤٨
أزلية المادة ---------- ٤٩
أبرز نظريات نشوء الكون---------- ٤٩
نظرية المصادفة ---------- ٥٠
شبهة: من خلق الخالق ----------٥٢
صفات يتميز بها الخالق الحق سبحانه---------- ٥٣
لماذا يصر المسلمون على أن إلههم هو الإله الحق؟----------٥٤
مالذي يميز إله المسلمين عن آلهة غيرهم---------- ٥٥
مالفرق بين من يعبد الشمس ويوحد الله تعالى ---------- ٥٧
آلهة من بشر ---------- ٥٨
هل المسيح إله ----------٥٩
الأماكن التي نشأت فيها فكرة الإله ----------٦٠
سبب نشوء فكرة تعدد الآلهة ----------٦١
أنواع الإيمان بالغيب ---------- ٦٢
أسباب سعادة الإنسان---------- ٦٤
الرسالة الخالدة---------- ٦٤
هل اليهود والنصارى مؤمنون----------٦٥
كيف قطع القرآن الكريم الطريق على الملحدين المنكرين للبعث ------- ٦٦
أنواع الكفر: ---------- ٦٧

الختم على القلوب وصوره: ---------- ٦٩
شبهات عصرية والرد عليها ---------- ٧١
شبهة: إذا كان الله قد طبع على قلوبهم فلماذا يعذبهم ---------- ٧٢
شبهة وجوابها: سورة البقرة حكمت على بعض الناس بانهم لن يؤمنوا، ولكن اهل مكة
أسلموا يوم الفتح، وغيرهم بايع النبي الأكرم عام الوفود ---------- ٧٣
المنافقون وأوصافهم ---------- ٧٤
أمثلة الوجوه والنظائر في سورة البقرة ---------- ٧٤
أنواع النفاق ---------- ٧٦
سبب نزول صفات المنافقين في السّور المدنية---------- ٧٦
كيف يكون المنافق مخادعاً لله وللمؤمنين برغم أنه لايُظهِر نفاقه ----٧٨
أساليب المشاكلة في القرآن..... ٧٩
الحكمة من امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم ٨٢
بطلان ادعاء المفسدين بأنهم مصلحين---------- ٨٥
المشاكلات اللفظية في سورة البقرة ---------- ٩١
هل الضلالة تُشترى ---------- ٩٤
معاني الضلال في القرآن الكريم ----------٩٥
شبهة: كيف يدعو نوح على قومه بالضلالة برغم دعوته لهم بالتوبة والاستغفار ٩٧
أقسام المنافقون----------٩٨
كيف تكون رغبة أهل النفاق في الضلالة رغبة المشتري للسلعة------- ١٠٠
كيف ينسى الإنسان نفسه ---------- ١٠٢
المثل الناري والمثل المائي في سورة البقرة---------- ١٠٢
أنواع النور وصوره---------- ١٠٤
أنواع العمى ----------١٠٧
أصول الانحراف عن الحق----------١٠٨
السر في اجتماع (صم بكم عمي) في نفس الآية ---------- ١٠٩
لماذا شُبِه إيمان المنافق كالذي استوقد نارا، وكصيب من السماء ---- ١١٠
أشكال الظلمات التي وقع فيها المنافقون---------- ١١١

تشبيه زواجر القرآن وبراهينه وحججه بالرعد والبرق ---------- ١١٢
أسرار بلاغية في جمع الظلمات وتنكير الرعد والبرق في الآية ---------- ١١٤
لطيفة لغوية في دعاء المؤمنين(واجعله الوارث منا) ---------- ١١٦
متى ينتفع المسلم بالوحي ومواعظ القرآن---------- ١١٦
معاني التقوى---------- ١١٨
مسميات الأرض في القرآن ---------- ١٢٠
معاني الأنداد ---------- ١٢٠
السر في تكرار ذِكر المخلوقات في القرآن ---------- ١٢٢
مهارات الحوار---------- ١٢٣
الحوار مع الملحد ---------- ١٢٣
من ينكر الوحي والنبوة ---------- ١٢٤
أوجه عجز الخلق عن الإتيان بمثل القرآن ---------- ١٢٧
معنى قوله تعالى: (فَمَا فَوْقَهَا)---------- ١٣٠
ما هو الفسوق؟ ومن هم الفاسقون؟ ---------- ١٣١
هل القصود به من خرج عن طاعة الله من أهل الإيمان أن الله يضلهم بهذه الأمثال؟ ١٣٢
صفات تميز بها الكفار---------- ١٣٢
الرد على كل من يجحد وجود الله وقدرته ---------- ١٣٥
سبب إيراد قضية إنكار وجود الله برغم عدم وجودها في العرب آنذاك--- ١٣٥
المقصود بالموت الوارد في الآية: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا) -- ١٣٥
استدلال أهل الأهواء بقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) لإباحة كل شيء
---------- ١٣٧
المقصود في قوله تعالى: (خلق لكم ما في الأرض)---------- ١٣٨
سماء أم سماوات ---------- ١٣٩
معانى دحي الأرض: ---------- ١٤٢
معاني الخليفة---------- ١٤٥
كيف عرفت الملائكة أن الخليفة الجديد سيسفك الدماء؟ ---------- ١٤٦
الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام، وكيف تنال الإمامة-- ١٤٩

لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله ----------١٥٠
هل اعترض الملائكة على خلق ءادم عليه السلام ---------- ١٥١
شبهة وجوابها: هل كان إعلام الله سبحانه للملائكة بخلقه لآدم مشاورة:١٥٢
كيف يجتمع مدح أهل الكتاب وذمهم ----------١٥٣
السر في تكرار قصة ءادم عليه السلام:---------- ١٥٦
كيف عرفت الكتب القديمة بالحقائق المشابهة لما ورد في القران الكريم عن أصل خلق آدم وخصائصه الجسدية----------١٥٨
خلو العهدين القديم والجديد عن استخلاف ءادم عليه السلام في الأرض ١٦١
اسطورة خلق آدم بوجهين---------- ١٦٣
{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} ماهي هذه الأسماء ---------- ١٦٣
أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، ورفض إبليس. ---------- ١٦٨
المُفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر ----------١٧٠
السر البلاغي في قوله تعالى: (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ)----------١٧١
سبب فقدان اليهود والنصارى الكثير من الحقائق ----------١٧٥
شبهة وجوابها: هل توجد أنثى قبل حواء ---------- ١٧٦
شبهة وجوابها: حفل زواج آدم وحواء المزعوم ---------- ١٧٦
ماهي الجنة التي دخلها ءادم عليه السلام----------١٧٨
سبب مجيء النهي بصيغة (وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) ولم يقل: ولا تأكلا - ١٧٩
مالمراد بالشجرة في قوله تعالى: (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) ----------١٨٠
اين تقع الجنة التي سكنها ءادم وحواء عليهما السلام----------١٨١
توقيت دخول الجنة ----------١٨١
وسوسة الشيطان لهما، وقسمه لهما وإغوائهما---------- ١٨٢
من المقصود بقوله تعالى: (اهْبِطَا مِنْهَا) ----------١٨٣
غواية الشيطان لآدم وحواء عليهما السلام ---------- ١٨٤
مقارنة بين القرآن والكتب السابقة في حادثة أكل ءادم عليه السلام من الشجرة المحرمة ----------١٨٥
ظهور سوءاتهما، ومحاولتهما سترها بورق الجنة ----------١٨٥

اجتباء الله تعالى لآدم، وتوبته عليه، وهدايته له ---------- ١٨٦
الأمر بالهبوط للأرض والاستقرار فيها---------- ١٨٦
مسألة الخروج من الجنة---------- ١٨٧
تميز النص القرآني بذكر الحقائق على عكس خرافات الكتب السابقة--- ١٨٨
القرآن يصحح أخطاء هذه الكتب السابقة ---------- ١٨٩
دحض عقيدة "الخطيئة الأصلية" ---------- ١٩٠
حقيقة الدين الإبراهيمي---------- ١٩٢
شبهة وجوابها: لا أحد يملك الحقيقة المطلقة، فلماذا نختار الإسلام على غيره ١٩٣
بلاغة أسلوب الالتفات في القرآن الكريم ---------- ١٩٤
أسباب السعادة الكاملة، والراحة الكاملة ---------- ١٩٦
سبب تسمية بنو إسرائيل ---------- ١٩٧
نسل بني إسرائيل ---------- ١٩٩
البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتب أهل الكتاب ----- ٢٠٣
حسد النصارى: ---------- ٢٠٧
البلاغة في قوله تعالى: (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) ---------- ٢١٣
المراد بقوله تعالى: (مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ) ---------- ٢١٣
السر في دخول أهل المدينة المنورة في الإسلام قبل هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- إليها
---------- ٢١٤
صور إلباسهم الحق بالباطل---------- ٢١٦
أساليب دعوية لاغنى للمحاور المسلم عنها ---------- ٢٢٠
شبهة وجوابها: كيف يأمرهم الله بالصلاة والزكاة وهم غير مسلمين - ٢٢١
لمحات تاريخية عن ---------- ٢٢٤
اليهود والنصارى وشبهاتهم---------- ٢٢٤
كيفية الصلاة عند اليهود ---------- ٢٢٥
سبب منع ملوك الفرس لليهود من الصلاة---------- ٢٢٦
آية التوحيد فى اليهودية ----------٢٢٧
شروط وأوقات الصلاة فى اليهودية ----------٢٢٧

قبلة اليهود وشروط الصلاة في اليهودية ----------٢٢٨
لماذا يسجد اليهود فى صلاتهم على وجه واحد من وجوههم؟--------٢٢٨
وجود الزكاة والصلاة فى الكتب السابقة ----------٢٢٩
معاني الزكاة في الإسلام----------٢٣٤
السر في اقتران الصلاة بالزكاة فى القران الكريم---------- ٢٣٥
حال الذي لا يُصلي ولا يُزكي ---------- ٢٣٥
الأمة تتلو الكتاب، فأين أثر الكتاب على أمة محمد ﷺ؟ ---------- ٢٤٢
أسباب ضعف التدين والاستقامة والاستجابة ----------٢٤٣
النعم التي أنعمها الله على بني إ'سرائيل---------- ٢٦٠
وصف غرق فرعون ونجاة موسى عليه السلام في العهد القديم: ---- ٢٦٣
من هو السامري---------- ٢٦٤
حقيقة التوراة---------- ٢٧٠
آيات تدل على نعم الله تعالى إلى على بنى اسرائيل:----------٢٨٢
معنى الاستسقاء ---------- ٢٨٥
معانى مصر----------٢٨٩
كيف يغضب الله تعالى---------- ٢٩٠
حقيقة النصارى ---------- ٢٩٣
من هم الصابئون---------- ٢٩٤
حقيقة جبل الطور ---------- ٢٩٥
معنى قوله تعالى: (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)----------٢٩٦
كيف تكون تقوى الله عز وجل ----------٢٩٨
سبب ترك النصارى العمل بالتوراة ---------- ٣٠٢
يوم السبت---------- ٣٠٤
معنى قوله تعالى: (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين) ٣٠٥
كيفية إفساد اليهود لأيام السبت والاحتيال فيها ----------٣٠٨
سبب أمر موسى عليه السلام لقومه بذبح البقرة---------- ٣١٠
شددوا فشدد الله سبحانه عليهم ---------- ٣١١

طريقة عرض قصة البقرة في كتب أهل الكتاب---------- ٣١٢
شبهة وجوابها: تشابه القصة القرآنية مع غيرها في صفة البقرة بكونها سليمة، خالية من كل عيب---------- ٣١٥
تفسير قوله تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) ---------- ٣١٧
تفسير قوله تعالى: (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ) ---------- ٣١٩
تحريف البشارات ---------- ٣١٩
تفسير قوله تعالى: (فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)---------- ٣٢٧
هل الانتساب اسماً إلى شريعة موسى أو المسيح، وسيلة النجاة ---- ٣٢٨
هل الهداية الحقيقية، في اعتناق اليهودية أو النصرانية---------- ٣٢٩
شبهة: هل كان إبراهيم عليه السلام يهودياً أو نصرانياً ----------٣٣٠
شبهة: إقرار الإسلام لشرعية الشرائع السابقة يدل على صحتها------- ٣٣١
توراة موسى عليه السلام وتابوت العهد---------- ٣٣٤
من هو كاتب أسفار موسى الخمسة في التوراة---------- ٣٣٦
عدد كتبة التوراة بعد موسى عليه السلام ----------٣٣٧
التناقضات في الرواية التوراتية في قصة الطوفان ---------- ٣٣٩
مصادر التوراة ومحتوياتها---------- ٣٤١
أسرار سفر التثنية بعد العثور على مخطوطته ----------٣٤٢
دوافع جمع المخطوطات وصنع التوراة---------- ٣٤٤
معنى الخطيئة في قوله تعالى: (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) ---------- ٣٤٧
الحكمة من اجتماع الوعد والوعيد في الآيات---------- ٣٤٨
العهود الأربعة ---------- ٣٥٦
سبب إضافة عيسى إلى أمه عليهما السلام ----------٣٥٨
المقصود بالبينات في قوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) ----------٣٧٠
مدينة الجبارين ----------٣٧٣
السر البلاغي في قوله تعالى: (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ)---------- ٣٧٦

سبب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى المباهلة ----- ٣٨٠
سبب تسمية هذه المباهلة تمنياً ---------- ٣٨٣
سبب زعم اليهود أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم---------- ٣٨٥
تفسير: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ)---------- ٤٠١
الآية التي تصف حال اليهود الذين تركوا ما جاء به أنبياؤهم -عليهم الصلاة والسلام ٤٠٥
هاروت وماروت ---------- ٤٠٧
النهي عن قول راعنا في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا)٤٠٩
تفسير قوله تعالى: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تعلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)---------- ٤١١
تعريف النسخ ---------- ٤١٣
أمثلة النسخ عند اليهود ---------- ٤١٧
النسخ عند النصارى ---------- ٤١٧
أحكام قرآنية وأسرار بلاغية ---------- ٤١٨
الحكمة من وجود النسخ ---------- ٤١٩
وقوع النسخ فى خمس دعاوى في ست آيات---------- ٤٢١
نسخ عقوبة الزنى من الحبس والإيذاء بحد الجلد---------- ٤٢٤
نسخ التوجه في الصلاة ---------- ٤٢٦
الناسخ: في قوله تعالى: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم} ------- ٤٢٧
الناسخ: في قوله تعالى: {وأن احكم بينهم بما انزل الله} ---------- ٤٢٩
تحريم النساء على الرسول صلى الله عليه وسلم ---------- ٤٣٠
النسخ في مهور المرتدات ---------- ٤٣١
نسخ عقد الزناة---------- ٤٣١
نسخ السُكر في غير الصلاة: ----------٤٣٢
شبهة وجوابها: النسخ والبداء الواردان في الشريعة ليسا بمنزلة الرأي الجديد أو علم بعد جهل ----------٤٣٢
الحكمة من النسخ----------٤٣٦
تحويل القبلة----------٤٤١

البلاغة القرآنية في الالتفات من ضمير المتكلم المعظم نفسه ------- ٤٤٢
النهي عن سؤال النبي الأكرم----------٤٤٥
الكفارات في الإسلام ----------٤٤٧
رأس العبادات البدنية والمالية ----------٤٥٢
شروط دخول الجنة----------٤٦٠
صور اشتمال دعوى صحيحة بدعوى غير صحيحة ---------- ٤٦١
إذا صح توجه القلب تبعته الإرادة ---------- ٤٦٢
فرق النصارى ---------- ٤٦٦
تطور العلاقة بين اليهود والنصارى ---------- ٤٧٠
تاريخ اليهود----------٤٧٢
مصادر دين اليهود ---------- ٤٧٥
تاريخ النصارى ----------٤٧٦
تاريخ إقرار ألوهية المسيح----------٤٧٦
بقاء المسيحيون ما يقرب من اربعة قرون دون قانون موحد للايمان - ٤٧٧
مصادر دين النصارى---------- ٤٧٧
فرق النصارى ---------- ٤٧٨
أهم ما تتميز به طائفة الارثوذكس----------٤٧٩
أهم ما يتميز به البروتستانت----------٤٧٩
موقف اليهود من عيسى عليه السلام ---------- ٤٨٠
موقف اليهود من أتباع عيسى عليه السلام---------- ٤٨٠
موقف النصارى من اليهود ---------- ٤٨٠
كيف انقلبت العداوة بين اليهود والنصارى إلى صداقة وتعاون؟------ ٤٨١
محتويات الأدبيات اليهودية إلى صميم العقيدة والفكر المسيحي ----٤٨٦
أشكال دعم أمريكا (البروتستانتية) لليهود منذ قيام دولتهم ---------- ٤٩١
واجب الحكومات الإسلامية ضد المد اليهودي والنصراني ----------٤٩٥
الواجب على الشعوب المسلمة ---------- ٤٩٦
القول في تأويل قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي

خَرَابِهَا) ---------- ٤٩٦
معنى قوله تعالى: (وَسَعَى فِي خَرَابِهَا) ---------- ٤٩٧
شبهة وجوابها: (اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)---------- ٥٠٤
الاستنكار في قول الله تعالى: (وقالوا اتخذ الله ولدا) ---------- ٥٠٥
معاني الآيات ودلالتها ---------- ٥١٣
القول في تأويل قوله تعالى: (وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) ---------- ٥١٤
القول في تأويل قوله تعالى: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى) ----- ٥١٥
الحق واحد وطريقه واحد بخلاف الباطل متعدد وطرقه متعددة ------ ٥٢٤
القول في تأويل قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ) ---------- ٥٢٦
القول في تأويل قوله تعالى: (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) -- ٥٢٧
المعيشة الضنك لكل من أعرض عن ذكر الله ---------- ٥٤٨
أنوار من دعاء إبراهيم مع ولده إسماعيل---------- ٥٥٥
معاني التواب---------- ٥٥٦
شبهة وجوابها: كيف يكون إبراهيم مسلما واليهود يدَّعون يهوديته - ٥٨٧
شبهة وجوابها: في كل موضع يقول: لا أحد أظلم ممن فعل كذا، ويذكر عملاً غير العمل الآخر؟
---------- ٥٩٤
أوصاف القرآن ---------- ٥٩٧
الإعجاز في قوله تعالى: {سَيَقُولُ السفهاء}---------- ٦٠٠
سبب صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس قبل تحويل القبلة ٦٠٣
معنى قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيدا) ---------- ٦٠٤
معنى وسطا في قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) ---------- ٦٠٥
هدايات قوله تعالى: (وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) ٦٠٨
سبب استحقاق اليهود للطرد واللعن ---------- ٦٣٣
معنى قوله تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)
---------- ٦٥٣
أنواع الابتلاءات التي يتعرض لها المؤمن---------- ٦٥٧

شبهة وجوابها: المسلمين يسعون بين الصفا والمروة مثل الجاهلية التي كانت تسعى بين الصفا والمروة ---------- ٦٦٤
كيف يكون اتخاذ الأنداد من دون الله تعالى ----------٦٦٨
معنى قوله تعالى: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) ----------٦٧٢
معنى قوله تعالى: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع)٦٧٣
أصول المُحرمات الأربعة----------٦٧٤
معنى قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ) ---------- ٦٧٧
من هم الذين اختلفوا في الكتاب ---------- ٦٨٠
شبهة وجوابها: كيف يكون في القصاص حياة ----------٦٨٢
سبب نزول قوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)----------٦٨٢
معاني الصيام وصوره عند الأمم الأخرى----------٦٨٤
شهر رمضان وعلاقته بالقرآن الكريم ---------- ٦٨٧
طرق آكل المال بالباطل----------٧٠١
معنى قوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَاتعالتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ----------٧٠٣
معنى قوله تعالى: (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) ---------- ٧٠٤
معنى قوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) ----------٧٠٥
معنى قوله تعالى: (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ---------- ٧٠٦
العبادة التي بَسَطَ الله تعالى تفاصيلها وأحوالها، مع تغيير ما أدخله أهل الجاهلية فيها ٧١٠
معنى قوله تعالى: {فمن فرض فيهن الحج} ----------٧١١
معنى قوله تعالى: (ولا فسوق) ----------٧١١
معنى قوله تعالى: (ولا جدال في الحج) ---------- ٧١٢
معنى قوله تعالى: {وما تفعلوا من خير يعلمه الله} ---------- ٧١٢
معنى قوله تعالى: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ----------٧١٣

معنى قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)---------- ٧١٥
معنى قوله تعالى: (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) ٧١٦
معنى قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ---- ٧١٧
معنى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) ----- ٧٢٣
معنى قوله تعالى: (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) ---------- ٧٢٤
معنى قوله تعالى: (زين للذين كفروا الحياة الدنيا) ---------- ٧٢٦
معنى قوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة) ---------- ٧٢٨
معنى قوله تعالى: (من بعد ما جاءتهم البينات) ---------- ٧٢٩
معنى قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ) ---------- ٧٣٠
معنى قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ) ---------- ٧٣١
كيف يكون القتال من البأساء ---------- ٧٣٤
معنى الكره في قوله تعالى: (وهو كره لكم) ---------- ٧٣٥
الحكمة في جعل الأشياء النافعة مكروهة والأشياء الضارة محبوبة - ٧٣٨
تولد الفضائل من النواقص ---------- ٧٣٩
تعليم المسلمين تلقي أمر الله تعالى إلى باعتقاد أنه الصلاح والخير---- ٧٤٠
معنى قوله تعالى: (يسألونك عن الشهر الحرام) ---------- ٧٤٢
معنى قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)---------- ٧٤٣
معنى قوله: (والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله)---------- ٧٤٤
أسباب نزول قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) ---------- ٧٤٥
التدرج في تحريم الخمر ---------- ٧٤٦
حقيقة الميسر وكيفيته في الجاهلية---------- ٧٤٨
أحكام اليتيم ---------- ٧٤٩
معنى قوله تعالى: (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ) ---------- ٧٥٠
أحكام جاهلية في التعامل مع المرأة الحائض ---------- ٧٥٢

تفسير قوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ) ---------- ٧٥٢
معنى قوله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) ---------- ٧٥٣
معنى قوله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم)---------- ٧٥٤
معنى قوله تعالى: (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) ---------- ٧٥٥
معنى قوله تعالى: (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر)------ ٧٥٦
معنى قوله تعالى: (وإن عزموا الطلاق) ---------- ٧٥٨
أجكام المطلقة ---------- ٧٦٠
معنى قوله تعالى: (وبعولتهن) ---------- ٧٦١
معنى قوله تعالى: (الطلاق مرتان) ---------- ٧٦٣
تفسير قوله تعالى: (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنَّ) ---------- ٧٦٥
معنى قوله تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ اولا:دَهُنَّ) ---------- ٧٦٧
من هو الوارث في قوله تعالى: (وعلى الوارث مثل ذلك) ----------٧٦٩
معنى قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم)---------- ٧٧٠
معنى قوله تعالى: (وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ) ٧٧٤
تفسير قوله تعالى: (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح)---------- ٧٨٠
معنى قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم)---------- ٧٨٢
معنى قوله تعالى: (فإن خرجن) ---------- ٧٨٢
معنى قوله تعالى: (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)-- ٧٨٣
معنى قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) ---------- ٧٨٦
معنى الرؤية في قوله تعالى: (ألم تر) ---------- ٧٨٨
المقصود بالملأ في قوله تعالى: (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل)---- ٧٩٠
تفسير قوله تعالى: (فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ) ----------٧٩٩
معنى قوله تعالى: (تلك الرسل)----------٨٠١
كيف صرف الوعيد إلى الكفار، والآية مبتدأة بذكر أهل الإيمان؟ ------ ٨٠٤
معنى قوله تعالى: (لا تأخذه سنة ولا نوم)---------- ٨٠٦
معنى قوله تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ---------- ٨٠٩
معنى قوله تعالى: (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) ---------- ٨٢٣

معنى قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيى الموتى) ---- ٨٢٥
الإعجاز في قوله تعالى: (قال: فخذ أربعة من الطير) ---------- ٨٢٨
معنى قوله: (لهم أجرهم عند ربهم) ---------- ٨٣٢
سبب تسمية الله المنفق رياء الناس، والناذر في غير طاعته ظالما ---- ٨٤٧
السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا---------- ٨٤٨
تفسير قَوْلُهُ تعالى: (تعرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ)---------- ٨٥٤
السر في تقديم الليل على النهار والسر على العلانية ---------- ٨٥٤
السر البلاغي في الجمع بين السر والعلانية ---------- ٨٥٥
تفسير قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) ---------- ٨٥٧
المراد بالأكل في قوله تعالى: (الذين يأكلون الربا)---------- ٨٥٧
تفسير قوله تعالى: (فمن جاءه موعظة من ربه)---------- ٨٦١
ماهو الإيمان الذي يعصم صاحبه من النار ----------٨٦٢
مالمقصود بالكفار في قوله تعالى: (والله لا يحب كل كفار أثيم)----- ٨٦٥
معنى قوله تعالى: (أَقْسَطُ)---------- ٨٧٠
معنى قوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ) ----------٨٧١
تفسير الآية: (لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ) ---------- ٨٧٢
سبب نزول الآية: (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)٨٧٢
مسائل العقيدة الكبرى ---------- ٨٧٦
خاتمة سورة البقرة ---------- ٨٧٧


هدايات سورة الفاتحة

سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)

سورة الفاتحة: وهي أوّل سورة في ترتيب سور القرآن الكريم، ولها عدّة أسماءٍ، وتمتاز بالكثير من الفضائل التي اختصّها الله تعالى بها عن سائر سور القرآن.

ولقد اختلف العلماء في تحديد وقتٍ دقيقٍ لنزول سورة الفاتحة؛ فقيل إنّها نزلت في مكّة، وقيل في المدينة المنورة، وقيل نزلت مرّتين مرّة في مكّة ومرة في المدينة؛ ولذلك سمّيت سورة المثاني، ولكنّ أرجح الأقوال أنّها سورة مكّيّة.

والدّليل على ذلك أنّ آية وردت في سورة الحجر هي: «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ»، والمقصود بالسّبع المثاني سورة الفاتحة، وسورة الحجر سورةٌ مكيّة بلا خلاف؛ فاستدلّ بذلك على أنّ سورة الفاتحة سورةٌ مكيه.

فإن الله جل وعلا شرع لعباده في كل ركعة من الصلاة أن يقرأوا فاتحة الكتاب، وهي أم القرآن، وهي أعظم سورة في كتاب الله، كما صح بذلك الخبرعن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال:إنها أعظم سورة في كتاب الله، وإنها السبع المثاني، والقرآن العظيم، وهي الحمد.

هذه السورة العظيمة اشتملت على الثناء على الله وتمجيده جل وعلا وبيان أنه سبحانه هو المستحق لأن يعبد وأن يستعان به، واشتملت على تعاليم العباد، وتوجيه العباد إلى أن يسألوه الهداية إلى الصراط المستقيم.

فمن نعم الله العظيمة على عباده هذه السورة العظيمة، وأن شرع لهم قراءتها في كل ركعة في الفرض والنفل، بل جعلها ركن الصلاة في كل ركعة؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب.

وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﷺ أنه قال:يقول الله تعالى إلى:

قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين،

فإذا قال: العبد: الحمد لله رب العالمين، قال: الله سبحانه: حمدني عبدي،

وإذا قال: العبد: الرحمن الرحيم، قال: الله جل وعلا: أثنى عليّ عبدي،

وإذا قال: العبد: مالك يوم الدين، قال: الله سبحانه: مجَّدني عبدي؛ -لأن التمجيد هو: تكرار الثناء والتوسع في الثناء- فإذا قال: العبد: إياك نعبد وإياك نستعين، يقول الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل

فقوله: إياك نعبد، حق الله؛ فإن حق الله على عباده أن يعبدوه، وإياك نستعين حق للعبد أن يستعين بالله في كل شيء، يقول الله جل وعلا: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات:٥٦]،حق الله عليهم أن يعبدوه، وفي الحديث الصحيح يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ﷺ: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا هذا حق الله على العباد؛ أن يعبدوه بطاعة أوامره وترك نواهيه، ويحذروا الشرك به.

{١ - ٧} {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}.

والله تعالى امرنا ان نستغيذ به جل وعلا من الشيطان الرجيم. قبل قراءة القران فقال: تعالى:{ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآن فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ مِنْ الشَّيْطَان الرَّجِيم } وهذا لان عداوة الشيطان اخطر بكثير من عداوة الانسان ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله.

ولذا فالله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطان لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى: {يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة} وقال تعالى: {إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير} وقال:{أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا} وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام أنه له لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا

وقد قال:{فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين} وقال تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ الله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون}.

{بِسْمِ اللَّهِ} أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، فهى اشرف بداية واتم واكمل استعانة، لأن لفظ {اسم} مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء [الحسنى]. و لاننا قد يحتاج الفرد منا ان يهبه الله الحكمة وفصل الخطاب فيسال الله باسمه الحكيم، وان اراد العلم استعان باسم الله العليم، ولان الله تعالى رحيم بعباده وهو اعلم بما يريدون واكثر. فامرهم أن يسالوه

وبسم {اللَّهِ}: هو الاسم الجامع لكل اسماء الله الحسنى، وهو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال. {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله. فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها فبرحمة الله يفتح الله قلوبهم واعينهم ويبصرهم بما ينجيهم من عذاب يوم القيامة، كما انه جل وعلا برحمته لا يعجل للناس العقوبة بل برحمته يمهلهم ويفتح لهم الابواب التي تؤدى بهم إلى الايمان به

حقيقة الإيمان بالأسماء الحسنى والصفات العلى

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات. فيؤمنون مثلا بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم. فالنعم كلها، أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. يقال: في العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم [به] كل شيء، قدير، ذو قدرة يقدر على كل شيء.

وابتداء السّورة بالبسملة فيه إشارة للمسلم أن يبدأ أي عمل يقوم به صغيراً كان أم كبيراً بالبسملة؛ ليكون عمله مُباركاً فيه

{الْحَمْدُ لِلَّهِ} [هو] الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل، بجميع الوجوه. وهذا من اجل نعم الله علينا، لأنه تعالى رحم خلقه العالم منهم والأمي فعلمهم جميعا صيغة واحدة يحمدونه بها وهى. (الحمد لله) فبهذا جل وعلا رحم الخلق من التنافس فى الثناء وترك العمل بل امرهم ان يجتهدوا بالعمل اما الثناء عليه سبحانه فلن نجد لفظ اجل مما اثنى به جل وعلا على نفسه، ولذا فلفظ (الحمد) يتطلب منا ان نحمده جل وعلا عليه

والحمد هو الثناء بجميل محاسن المحمود، مع الرضى القلبيّ والمحبة، فالشكر لا يكون إلّا على النعم أمّا الحمد فيكون على النعم وغيرها، مثل الحمد على الابتلاءات والمصائب والأمراض

{رَبِّ الْعَالَمِينَ}الرب، هو المربي جميع العالمين -وهم من سوى الله- بخلقه إياهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء. فما بهم من نعمهتعالى إلى و تربيته

أنواع تربية الله تعالى لخلقه

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا. لا فرق بين مؤمنهم وكافرهم انسهم وجنهم الطائع منهم والعاصى، لأنه جل وعلا هو الذى اوجدهم فى هذه الدنيا، ولذا اوجب سبحانه على نفسه رزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم فمن اهتدى فلنفسه ومن عاند فبرحمته يمهله لعله يتوب او يبصر الحقيقة يوما ما.

وإلا فيكون العبد هو الذى حكم على نفسه بالعذاب المهين، وهذا جزاءا وفاقا له، لانه انما عاش فى أرض الله وفى خير الله ونعيمه، ثم هو يجحد كل هذا ويحمد غير الله، فالعدل يقتضى أن يأخذ جزاءه ممن حمده وشكره، ساعتها سيجده فى سواء الجحيم.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر. ولعل هذا [المعنى] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب. فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة. فدل قوله {رَبِّ الْعَالَمِينَ} على انفراده بالخلق والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يدان الناس فيه بأعمالهم، خيرها وشرها، لأن في ذلك اليوم، يظهر للخلق تمام الظهور، كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق. حتى [إنه] يستوي في ذلك اليوم، الملوك والرعايا والعبيد والأحرار. كلهم مذعنون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

كما انه سبحانه اراد ان يطمئن عباده وبخاصه الضعفاء منهم انه لن يحاسبهم غيره ولن يجازى الخلق على اعمالهم غيره سبحانه ولذا فلا داعى ان يضعف العباد امام الجبابرة او امام

اغراءات الدنيا، فحين يتذكر العبد أن الله تعالى وحده هو (مالك يوم الدين) ساعتها تتساوى عنده الامور فلا يعبد الا الله ولا يستعين الا به.

فقال تعالى: معقبا ومعلما لعباده فاتحا امامهم الطريق المستقيم ان يقولوا {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} أي: نخصك وحدك بالعبادة فلا شئ ولا احد يستحق العبادة والتبجيل غيرك سبحانك لان لك الأمر والخلق ولأنك وحدك الذى تجازى الخلق على ما قدمت ايديهم والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه. فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدم العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده.. **و{العبادة}** اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة. و {الاستعانة} هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما. وإنما تكون العبادة عبادة، إذا كانت مأخوذة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصودا بها وجه الله.

فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر {الاستعانة} بعد {العبادة} مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى إلى. فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريده من فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

ولان العبد ضعيف بذاته فلابد له من ان يسال الله الرشاد فهو وحده يعلم كل شيئ ولذا امرهم سبحانه ان يسالوه فيقولوا كما قال: تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، و إلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط. فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ} من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. {غَيْرِ} صراط {الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ} الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم. وغير صراط {الضَّالِّينَ} الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

اجتماع أنواع التوحيد الثلاثة

فهذه السورة على إيجازها، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: {رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: {اللَّهِ} ومن قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى إلى، التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله من غيرتعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ {الْحَمْدُ} كما تقدم. وتضمنت إثبات النبوة في قوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافا للقدرية والجبرية. بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع [والضلال] في قوله: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} لأنه معرفة الحق والعمل به. وكل مبتدع [وضال] فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى إلى، عبادة واستعانة في قوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} فالحمد لله رب العالمين

لطائف سورة الفاتحة

آخر سورة الفاتحة قوله تعالى: (غير المغضوب عليهم ولا الضآلين) وجاءت سورة البقرة بعدها تتحدث عن المغضوب عليهم (بني إسرائيل) وكيف عصوا ربهم ورسولهم وجاءت سورة آل عمران لتتحدث عن الضآلين (النصارى).

وآخر كلمات سورة الفاتحة الدعاء جاءت مرتبطة ببداية سورة البقرة (هدى للمتقين) فكأن (اهدنا الصراط المستقيم) في الفاتحة هو الهدى الذي ورد في سورة البقرة. بداية السورة (الحمد لله رب العالمين) وهذه أول كلمات المصحف، يقابلها آخر كلمات سورة الناس (من الجنة والناس) ابتدأ تعالى بالعالمين وختم بالجنة والناس بمعنى أن هذا الكتاب فيه الهداية للعالمين وكل مخلوقات الله تعالى من الجنة والناس وليس للبشر وحدهم او للمسلمين فقط دون سواهم.

السر في تيسير حفظ سورة الفاتحة

فقد جاءت أحكام التجويد في سورة الفاتحة ميسرة وليس فيها أياً من الأحكام الصعبة وهذا والعلم عند الله لتيسير تلاوتها وحفظها من كل الناس عرباً كانوا او عجما.

والله تعالى هو الرحمن الرحيم وهو مالك يوم الدين وعلينا أن نحذر عذابه يوم القيامة ويوم الحساب. والناس هم بحاجة إلى معونة الله تعالى لعبادته فلولا معونته سبحانه ما عبدناه (إياك نعبد وإياك نستعين). وندعو الله تعالى للهداية إلى الصراط المستقيم (اهدنا الصراط المستقيم) وهذا الصراط المستقيم ما هو إلا صراط النبي صلى الله عليه وسلم وصراط السلف الصالح من الصحابة والمقربين (صراط الذين أنعمت عليهم) وندعوه أن يبعدنا عن صراط المغضوب عليهم والضآلين من اليهود والنصارى وكل الكفار الذين يحاربون الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والاسلام والمسلمين في كل زمن وعصر (غير المغضوب عليهم ولا الضالين).

الآن وقد عرفنا أهداف سورة الفاتحة التي نكررها ١٧ مرة في صلاة الفريضة يومياً ما عدا النوافل لا شك اننا سنستشعر هذه المعاني ونتدبر معانيها ونحمد الله تعالى ونثني عليه وندعوه بالهداية لصراطه المستقيم.


هدايات سورة البقرة

هدايات سورة البقرة

إن سورة البقرة هي أول سور المصحف ترتيباً وهي أول ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة مع بداية تأسيس وتكوين دولة الإسلام الجديدة فكان يجب أن يعرف المسلمون ماذا يفعلون ومما يحذرون. والمسؤولية معناها أن نعبد الله كما شاء وأن نتبع أوامره وندع نواهيه.

الاستخلاف في الأرض

من أهداف هذه السورة العظيمة:

الاستخلاف في الأرض: (وأن البشر هم المسؤولون عن الأرض) ولذا جاء ترتيبها الاول في المصحف. فالأرض ملك لله عز وجل وهو خلقها وهو يريد ان تسير وفق إرادته فلا بد أن يكون في الأرض من هو مسؤول عنها وقد استخلف الله تعالى الكثير من الأممَ فمنهم من فشل في مهمة الاستخلاف ومنهم من نجح.

والسورة مقسمة إلى أربعة أقسام: مقدمة – القسم الاول القسم الثاني – خاتمة.

المقدمة: واشتملت على عدة مواضيع.

أصناف الناس المذكورة في السورة

وفيها يبين لنا الله تعالى: أصناف الناس وهم:

١. المتقين (آية ١ – ٥):

٢. الكافرين (آية ٦ – ٧)

٣. المنافقين (آية ٨ – ٢٠) وهذا العدد الكثير من الآيات لأنهم أشد خطرا على الامة من الكافرين كما سنرى

ثم تبين لنا الآيات استخلاف آدم عليه السلام في الأرض (كتجربة تمهيدية) (وَإِذْ قال: رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) (الآية ٣٠)

واللطيف أنه سبحانه أتبع هذه الآية بـ (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا، فهذا دليل على ان الاستخلاف مناطه العلم. وهذا إرشاد لأمة الاسلام إن أرادوا ان يكونوا مسؤولين عن الأرض فلا بد لهم من العلم مع العبادة فكأن تجربة سيدنا آدم عليه السلام هي تجربةتعالليمية للبشرية

ثم جاءت الآية (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ الآية ٣٦

لنعلم أن النعمة تزول بمعصية الله تعالى. وتختتم قصة آدم عليه السلام بآية مهمة جداً (قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) آية ٣٨ وهي تؤكد ما ورد في أول سورة البقرة (هدى للمتقين) ومرتبطة بسورة الفاتحة (اهدنا الصراط المستقيم).

ثم بعد ذلك تبين لنا الآيات نموذجا اخر من الاستخلاف فى الارض ولكنه غير ناجح

قصة بني اسرائيل الذين استخلفوا في الأرض فأفسدوا (لآية ٤٠)

أخطاء بني اسرائيل التي وقعوا فيها

فقد بينت السورة أخطاء بني اسرائيل التي وقعوا فيها، وفى هذا توجيه لأمة محمد صلى الله عليه وسلم واصلاحها:

ومن هذه الأخطاء:

أن بني اسرائيل لم يرضوا تنفيذ شرع الله تعالى إلى– المادية – الجدل الشديد – عدم طاعة رسل الله – التحايل على شرع الله – عدم الإيمان بالغيب.

اما قصة البقرة مع بنى اسرائيل

انما هى برهان مادي لبني اسرائيل وغيرهم على قدرة الله جلّ وعلا في احياء الخلق بعد الموت. وذلك أن بنو اسرائيل كانوا ماديين جداً ويحتاجون إلى دليل مادي ليصدقوا ويؤمنوا.

وهذه السورة تقول لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم مسؤولون عن الأرض وهذه أخطاء الامم السابقة فلا يقعوا فيها حتى لا ينزل عليهم غضب الله تعالى إلى ويستبدلهم بأمم أخرى

سبب تسمية سورة البقرة

وتسمية السورة بهذا الاسم (البقرة) إحياء لهذه المعجزة الباهرة وحتى تبقى قصة بني اسرائيل ومخالفتهم لأمر الله وجدالهم لرسولهم وعدم إيمانهم بالغيب وماديتهم وما أصابهم جرّاء ذلك تبقى حاضرة في أذهاننا فلا نقع فيما وقعوا فيه من أخطاء أدت إلى غضب الله تعالى إلى عليهم.

كما تبين لنا الآيات فى هذه السورة المباركة نموذجا ناجحا للاستخلاف في الأرض (قصة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة و السلام وهي آخر تجربة ورد ذكرها في السورة.

اولا: ابتلى سبحانه وتعالى سيدنا آدم عليه السلام في أول الخلق (كتجربة تمهيدية) ثم بني اسرائيل فكانت تجربة فاشلة

ثم ابتلى ابراهيم عليه الصلاة و السلام فنجح (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال: إني جاعلك للناس إماما قال: ومن ذريتي قال: لا ينال عهدي الظالمين)

شروط الاستخلاف في الأرض

وفي هذه الآية اثبات أن الاستخلاف في الارض ليس فيه محاباة فالذي يسير على منهج الله وطاعته يبقى مسؤولا عن الأرض والذي يتخلى عن هذا المنهج لا ينال عهد الله (لا ينال عهدي الظالمين). امتحن الله تعالى إلى سيدنا ابراهيم عليه الصلاة و السلام بكلمات فلما أتمهن قال تعالى: (اني جاعلك للناس اماما)

وملخص القول في القسم الاول من السورة أن بداية القصص الثلاث: قصة آدم (إني جاعل في الارض خليفة)

وقصة بني اسرائيل (واني فضلتكم على العالمين) وقصة سيدنا ابراهيم عليه الصلاة و السلام (إني جاعلك للناس إماما)

التوجيهات الربانية لأمة الاستخلاف

وتمثلت في القسم الثاني من السورة: وفيه الأوامر والنواهي للأمة المسؤولة عن الأرض

وفي هذا القسم توجيه للناس الذين رأوا المناهج السابقة وتجارب الامم الغابرة يجب أن يتعلموا من الأخطاء، وسنعطيكم أوامر ونواهي كي تكونوا مسؤولين عن الارض بحق وتكونوا نموذجا ناجحا في الاستخلاف في الارض. وينقسم هذا القسم إلى:

تغيير القبلة. قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ آية ١٤٤-١٤٣)

واستكمالا لامر القبلة التى تغيرت بأمر الله اختبرهم الله بالإبقاء على الصفا والمروة

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شعائر اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) آية ١٥٨.

ثم وضع الله تعالى إلى منهجا للمسلمين فقال تعالى: (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ آية ١٧٧) فهذا منهج اصلاح للامة وكيف يتعاملون.

نواحي الإصلاح لأمة الاستخلاف

ثم تتابع الايات بالاوامر والنواهي الشاملة لنواحي الاصلاح:

اولا:: التشريع الجنائي:آية ١٧٩(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الألبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

ثانيا:: التركات والوصيات آية ١٨٠(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

ثالثا: التشريع التعبدي آية ١٨٣ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) التعبد واحكام الصيام

رابعا:: الجهاد والانفاق فيها دفاع عن المنهج ولا دفاع بدون مال وانفاق.(وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) آية ١٩٥

أجزاء منهج الاستخلاف

وناتئ إلى باقي أجزاء منهج الاستخلاف:

اولا:: الجهاد والانفاق(آية ١٩٠ – ١٩١) (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَتعالىتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ* وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ)

ثانيا:: الحج وأحكامه (١٩٦ - ٢٠٠)

لماذا جاء آيات أحكام الحج بعد الجهاد؟ لأن الحج هو أعلى تدريب على القتال واعلى مجاهدة النفس. وآيات الحج بالتفصيل وردت في سورة البقرة استجابة لدعوة سيدنا ابراهيم (وأرنا مناسكنا) آية ١٢٨

ونلاحظ أن سورة البقرة اشتملت على أركان الاسلام الخمسة: الشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج ولم تفصّل هذه الاركان في القرآن كما فصّلت في سورة البقرة.

ثم بينت السورة الكريمة أن الإسلام منهج متكامل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) آية ٢٠٨

والسلم هو الاسلام وهو توجيه للمسلمين ان لا يكونوا كبني اسرائيل الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض(أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) آية ٨٥

وأن يأخذوا الدين كاملا غير مجتزأ فكأنما يوجهنا الله تعالى إلى في سياق السورة إلى الطاعة والتميز ثم يعطينا بعض عناصر المنهج. ثم يأمرنا أن نأخذ الاسلام كافة و لا نفعل كما فعل بنو اسرائيل.

ونتابع الآيات فى السورة الكريمة وهى تبين لنا اكتمال المنهج (الآيات ٢١٩ – ٢٤٢)

وفيه اكمال المنهج من أحكام الاسرة من زواج

وطلاق ورضاعة وخطبة وخلع وعدة وغيرها وسياق كل ذلك التقوى ونلاحظ نهاية الآيات بكلمة تقوى او مشتقاتها.

سبب تأخر آيات أحكام الأسرة عن أحكام الصيام

وقد تأخرت آيات احكام الاسرة عن احكام الصيام؛ لأن الله تعالى إلى بعدما أعد المسلمين بالتقوى وبطاعته جاءت أحكام الاسرة التي لا ينفذها إلا من اتقى وأطاع ربه فالمنهج الاخلاقي والعملي متداخلين في الاسلام. لا ينفع أن يبدأ بأحكام الاسرة ما لم يكن هنالك تقوى في النفوس البشرية.

قصة طالوت وجالوت

قصة طالوت وجالوت (آية ٢٤٦ – ٢٥١): وهي قصة أناس تخاذلوا عن نصرة الدين وجاء ذكرها في موضعها لأن المنهج يجب أن يحافظ عليه ولا يتم ذلك إلا بوجود أناس يحافظون عليه.

دلالات آية الكرسي

لأن موضعها في السورة مهم جدا وتدلنا إلى أنه اذا اردنا تطبيق المنهج يجب ان نستشعر قدرة الله وعظمته وجلاله (الله لا إله الا هو الحي القيوم) فالمنهج ثقيل ويتطلب الكثير من الجهد لكنه يستحق التطبيق لأنه منهج الله تعالى إلى (الله لا اله إلا هو)

. ثم تأتي بعدها آية غاية في كرم الله وعدله (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ثم تتابع الآيات لتبين لنا قدرة الله تعالى إلى في الكون (دلائل احياء الموتى):من الآية (٢٥٨ – ٢٦١

السر في اجتماع ثلاث قصص في السورة

٠ قصة ابراهيم مع النمرود آية ٢٥٨

٠ قصة عزير والقرية الخاوية آية ٢٥٩

٠ قصة ابراهيم والطير آية ٢٦١

وفي القصص الثلاث تأكيد على قدرة الله تعالى إلى وأنه (لآ اله إلا هو) فكيف لا نقبل بتنفيذ المنهج او نكون مسؤولين عن الارض بعدما أرانا الله تعالى إلى قدرته في الكون؟

٠ثم تأتى آيات الإنفاق (الآيات ٢٦١ – ٢٨٣)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ *فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ)آية ٢٧٨

وهو آخر جزء من المنهج وفيه حملة شديدة على جريمة الربا التي تهدد كيان المحتمع وتقوض بنيانه وحملت على المرابين باعلان الحرب من الله تعالى إلى ورسوله على كل من يتعامل بالربا او يقدم عليه. وعرض للمنهج البديل فالاسلام لا ينهى عن أمر بدون ان يقدم البديل الحلال. وقد جاءت آيات الربا بين آيات الانفاق لتؤكد معنى وجود المنهج البديل للمال والرزق الحلال.

ماشتملت عليه خاتمة سورة البقرة

فهي أروع آيات السورة: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وملائكته وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) آية ٢٨٥

فالتكاليف كثيرة والتعاليم والمنهج شاق وثقيل فكان لا بد من ان تأتي آية الدعاء لله تعالى إلى حتى يعيننا على أداء وتنفيذ هذا المنهج

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) آية ٢٨٦

اي أعنا يا ربنا على تنفيذ المنهج لأنه سيوجد اعداء يمنعوننا من ذلك ولن نقدر على تطبيق المنهج بغير معونة الله.

واشتملت الخاتمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والانابة والتضرع إلى الله عزّ وجلّ برفع الأغلال والآصار وطلب النصرة على الكفار والدعاء لما فيه سعادة الدارين (رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

وقد ختمت السورة بدعاء المؤمنين كما بدأت بأوصاف المؤمنين وبهذا يلتئم شمل السورة أفضل التئام فسبحان الله العلي العظيم.

فضائل سورة البقرة

سورة البقرة هي أطول سور القرآن، آياتها ٢٨٦، وترتيبها الثاني في المصحف بعد سورة الفاتحة، وقيل هي أول سورة نزلت في المدينة، إلا قوله تعالى إلى.، وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون

فإنها آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى، وآيات الربا أيضا من أوائل ما نزل من القرآن. ويقال: لها فسطاط القرآن؛ قال:ه خالد بن معدان. وذلك لعظمتها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها

وسميت سورة البقرة بهذا الاسم لأنها تحتوي على قصة البقرة وبنى إسرائيل في عهد نبي الله موسى في الآيات من ٦٧ إلى الآية ٧٣.

عدد الآيات (٢٨٦) آية في المصحف المكتوب والمطبوع والمضبوط على ما يوافق رواية حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي الكوفي.

عدد الآيات (٢٨٥) آية في المصحف المكتوب والمطبوع والمضبوط على ما يوافق رواية أبي سعيد عثمان بن سعيد المصري الملقب بورش.

وجاءت تلك الفروق من أن قراءة" حفص" رقمت حروف فواتح السور برقم الآية (١) مثال (ألم) في البقرة و(ألمص) في سورة الأعراف وغيرها من تلك الحروف في بدايات الآيات، أما قراءة" ورش" فلم ترقم تلك الحروف كآية مستقلة وأدمجتها في الآية التي تليها.

عن النواس بن سمعان في صحيح مسلم رقم ١٩١٢: قال:سمعت رسول الله يقول: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ». وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ -- ثَلاَثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ قال: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا

عن أَبي مسعود الأنصارِي قال:قال: النبِي ﷺ: «الآيتان من آخرِ سورة البقرة من قرأَ بهِما في ليلة كفتاه».

عن أبي هريرة أن رسول اللهﷺ قال:«لا تجعلوا بيوتكم قبورا فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان».

وعن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال:«إنَ لكل شيء سناما، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال».

وعن أبي أمامة قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه شافعٌ لأهله يوم القيامة، اقرأوا الزهراوين (البقرة وآل عمران) فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو كأنهما فَرَقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة، ثم قال:اقرأوا البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة».

خصائص سورة البقرة

وقد سُمِّيت سورة البقرة بهذا الاسم لورود قصة بقرة بني إسرائيل فيها، وفيها إشارة إلى وجوب المسارعة إلى تطبيق شرع الله، وعدم التلكؤ فيه كما حصل من يهود.

إن من مقاصد سورة البقرة إعداد الأمة لعمارة الأرض والقيام بدين الله، وبيان أقسام الناس، وفيها أصول الإيمان وكليات الشريعة.[

ومن أهم خصائص سورة البقرة:

١. أنها أطول سورة في القرآن.
٢. أن فيها آخر آية نزلت من القرآن الكريم.
٣. أن فيها أطول آية في القرآن (آية المداينة).
٤. أن فيها أعظم آية في القرآن (آية الكرسي).
٥. ورد في السيرة النبوية أنها تحاج عن صاحبها يوم القيامة
٦. وفيها اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وأن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة.

وبعدما قدمنا ملخصا للسورة الكريمة هيا بنا نبين آياتها اية اية كما ارادها الله سبحانه وبما يفتح الله لنا به، كما نود ان نبين اننا اذا مررنا بأية لبنى اسرائيل ووجدنا ما يؤكدها من كتبهم سنذكره بإذن الله، وهذا ليس تقليلا من شان القران الكريم حاشا لله ولكن لتوضيح الامر من لسانهم واقامة الحجة عليهم ومن باب من فمك ادينك.

فهناك الكثير من الآيات فى القران الكريم ينكرونها او يكذبون على ابناءهم وهم يؤلونها وبخاصة ما يتعلق بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وكذا بالبشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك لتحريفهم لكتاب الله وتغير وتبديل احكامه فان وجدنا فى كتبهم ما يبطل اقوالهم ويؤكد ما جاء به القران الكريم سنبينه بإذن الله تعالى إلى وكذلك ان مررنا بأية للملحدين فيها شبهه بإذن الله سنرد على شبهاتهم.


التفسير العصري لسورة البقرة

الحروف المقطعة في سورة البقرة

بسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(ألم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)

اختلف أهل التأويل فى الحروف التى فى أوائل السور، على أقوال أهمها:

أنها مما استأثر الله بعلمه، بمعنى ان البشر مهما بلغوا من علم وفصاحة وفهم فلن يصلوا إلى مراد الله الا بما يفتح الله لهم به فكانت هذه الحروف ليعلم الجميع ان للعقول منتهى ينبغي ان تتوقف عنده، و انها اعجاز للعرب الذين بلغوا فى الفصاحة واللغة منتهاها فاعجزهم الله تعالى إلى، بمعنى أن الله تعالى إلى قال: لهم أليست هذه حروف لغتكم العربية والتى منها نظمنا هذا القران فلم ناتى بحروف اعجمية فهل فى مقدوركم ان تاتوا بمثل هذا القران او بعشر سور من مثله وتحداهم ولو بسورة واحدة ولكنهم عجزوا

وانها مما يختبر الله به عباده لان من الايمان بالله تعالى إلى ان يؤمنوا بالغيب، فكانت هذه الحروف بمعنى، هل سيؤمنوا بما لم يفهموه من كلام الله ويرجعون فيه الامر لله ويقولون كما قال: الراسخون فى العلم، امنا به كل من عند ربنا ام انهم سيكونوا مثل بنى اسرائيل لا يؤمنوا الا بما يفهمون او يرونه راى العين فلله الحمد ان امة محمد صلى الله عليه وسلم امنت بما انزل الله تعالى إلى وقال:ت كل من عند ربنا،

وانها قد تكون بدايات للفت الانتباه بمعنى ان الكلام الواضح والمفهوم كانت قريش تلغوا فيه وتصرف الناس عنه فكانت هذه الحروف التى ليس لها معنى واضح فيتوقفوا لعلهم يفهموها مما يأتي بعدها من كلام وبهذا يكونون قد سمعوا واقيمت عليهم الحجة.

وفوق ذلك مما يجعلنا نفخر بالقران الكريم وبهذه الحروف المقطعة هو ان ما من بشر كتب كتابا فى أي تخصص الا واعلن عن عجزه عن الكمال وطلب ممن يقرا كتابه التماس العذر له ان اخطأ

ألا القران الكريم بدأ بتحدي الجن والانس و إلى يوم القيامة ان يأتوا بمثله او بعشر سور من مثله او بسورة من مثله فلا يتأتى هذا الا اذا كان القران الكريم حقا تنزيل من حكيم حميد.

(ذلِكَ الْكِتابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ)، الاية ٢

قوله:" ذلِكَ الْكِتابُ" أَى: هَذَا الْكِتَابُ وَهُوَ الْقُرْآنُ، قال: الْفَرَّاءُ: كَانَ اللّٰه تعالى إلى قَدْ وَعَدَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابًا لَا يَمْحُوهُ الْمَاءُ وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ،

فَلَمَّا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ قال:هَذَا ذَلِكَ الْكِتَابُ الَّذِى وَعَدْتُكَ أَنْ أُنْزِلَهُ عَلَيْكَ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَعَلَى لِسَانِ النَّبِيِّينَ مِنْ قَبْلِكَ،

. قوله تعالى:" لَا رَيْبَ فِيهِ" ، أَيْ: لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّهُ من عند اللّٰه وَأَنَّهُ الْحَقُّ وَالصِّدْقُ،

قوله تعالى:" هُدىً لِلْمُتَّقِينَ" ،

" هُدىً لِلْمُتَّقِينَ" ، أَى: هُو، هُدًى، أَى: رُشْدٌ وَبَيَانٌ لِأَهْلِ التَّقْوَى، أَيْ: هَادِيًا تَقْدِيرُهُ لَا رَيْبَ فِى هِدَايَتِهِ لِلْمُتَّقِينَ، وَالْهُدَى مَا يَهْتَدِى بِهِ الْإِنْسَانُ،

" لِلْمُتَّقِينَ" ، أَيْ: للمؤمنين قال: ابن عباس: الْمُتَّقِى مَنْ يَتَّقِى الشِّرْكَ وَالْكَبَائِرَ وَالْفَوَاحِشَ،

وَفِى الْحَدِيثِ: كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللّٰه عليه وسلّم. أى: إِذَا اشْتَدَّ الْحَرْبُ جَعَلْنَاهُ حَاجِزًا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْعَدُوِّ، فَكَأَنَّ الْمُتَّقِى يَجْعَلُ امْتِثَالَ أَمْرِ اللَّهِ وَالِاجْتِنَابَ عما بهاه حَاجِزًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَذَابِ.

الهدى هو الدلالة على طريق يوصلك إلى ما تطلبه، والهدى يتطلب هاديا ومهديا وغاية تريد أن تحققه، فاذا لم يكن هناك غاية أو هدف فلا معنى لوجود الهدى، لأنك لا تريد أن تصل إلى شيء، وبالت إلى لا تريد من أحد أن يدلك على طريق.

أنواع الهدايات

و لله تعالى إلى للبشر هدايتان الاولى هداية للدلالة عليه سبحانه للإيمان به جل وعلا وهـذه بينها الله تعالى إلى للخلق اجمعين على لسان الرسـل صـلوات الله وسـلامه علـيهم حـتى، لايكـون للناس على الله حجة بعد الرسل،

فان اهتدوا وامنوا بالله فلهم نعيم وهداية اخرى من الله تعالى إلى وهى ان يعينهم عـلى طاعته ويهديهم إلى طريقه المستقيم وفى هذا يقولتعالى إلى، والذين اهتدوا زادهم هدى،

واما من رد على الله الهداية واصر على العناد والكفر فعلى انفسهم لقوله تعـالى إلى واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى

ثم ان الله تعالى إلى وعد ان يعين كل مخلوق على اختياره كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ليتحمل كل فرد نتيجة اختياره وحده فقال تعالى: وكل انسان الزمناه طائره فى عنقـه ونخـرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِمَـا أُنْـزِلَ إِلَيْـكَ وَمَـا أُنْـزِلَ مِـنْ قَبْلِـكَ وَبِـالْآخِرَةِ هُـمْ يُوقِنُـونَ (٤) أُولَئِـكَ عَـلَى هُـدًى مِـنْ رَبِّهِـمْ وَأُولَئِـكَ هُـمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

" الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون" ثم وصفت الآيات المتقـين المـؤمنين بالله ورسـوله بتمسـكهم بالعقائـد والأعمـال الباطنـة، والأعمـال الظـاهرة، لتضـمن التقوى لذلك فقال: "الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ" .

حقيقة الإيمان

هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح.

ومن معنى: { يُؤْمِنُونَ } يخشون.

قال: ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولا واعتقادًا وعملا قال:وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القول بالعمل،

والإيمان كلمة جامعةٌ للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل

أما الإيمان في اللغة فيطلق على، التصديق المحض

وقد يستعمل في القرآن، والمراد به التصديق، كما قال تعالى: { يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ } [التوبة: ٦١]

وكما قال: إخوة يوسف لأبيهم: { وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } [يوسف: ١٧]،

فأما إذا استعمل مطلقًا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولا وعملا.

وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر.

إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لخبر الله وخبر رسوله.

والغَيب هو ما غاب عن العباد من أمر الجنة، وأمر النار، وما ذكر في القرآن عن الملائكة والملا الاعلى واليوم الاخر والسابقين وغيرهم

أبرز مايميز المسلم عن الكافر

فالإيمان بالغيب هو الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله. ومن اجمل ما قرانا فى هذا المعنى الحديث الذي رواه الحسن بن عرفة العبدي قال:حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصي، عن المغيرة بن قيس التميمي، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال: رسول الله:" أي الخلق أعجب إليكم إيمانا؟" . قالوا: الملائكة. قال:"وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟" . قالوا: فالنبيون. قال:"وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟" . قالوا: فنحن. قال:"وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟" . قال:فقال: رسول الله:" ألا إن أعجب الخلق إليّ إيمانا لَقَوْمٌ يكونون من بعدكم يَجدونَ صحفا فيها كتاب يؤمنون بما فيها" .

فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده، أو لم يشاهده وسواء فهمه وعقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه.

بخلاف الزنادقة والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم.


شبهات الملحدين

نشأة الكون

وإلى حضراتكم بعضا مما يفكر فيه الملحدون فيتسألون مشككين فى الخالق سبحانه وتعالى، ما الذى أوجد الكون؟ وإن كان الله كما تزعمون فمن خلق الله؟

ونقول سبحان الله وتعالى عما يقولون لأن هذا التساؤل ما كان ينبغي أن يكون ولكن الملحدين وأعوانهم إنما أرادوا أن يشككوا فى وجود الله

لكي يهربوا من المسألة والحساب فى الدنيا والآخرة لانهم ضلوا وأضلوا، والعجيب أنه ليس لديهم بديل أو نظرية تبين نشأة الكون لعدة أسباب: منها أن العلم أقصى ما يستطيع الوصول إليه في الماضي هو خمسة آلاف سنة أو عشرة آلاف سنة على الأكثر، لأن

الإنسان الحديث اكتشف الكتابة على أكثر تقدير فى الألفية الرابعة قبل الميلاد وكان قبل ذلك لا يستطيع تسجيل الأحداث وغيرها،

وماذا عن قبل هذه المدة من نشأة الكون والتي يقدرها العلماء إلى مايزيد عن ١٤ مليار سنة إلى عشرة آلاف سنة مضت من المستحيل أن تجد عالماً أو كتاباً يجزم بشيء من الماضي فكلها تكهنات

وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)

ونحن على يقبن بأنهم عاجزون عن وجود دليل على نظرياتهم لقول الله تعالى إلى: (مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)

الانفجار العظيم

وحتى حين انبرى تفكيرهم وقالوا: بأن نشأة الكون كانت بدايتهاالإنفجار العظيم

ونحن نسألهم وماذا قبل الإنفجار العظيم؟

أو بالدقة من تسبب فى هذا الإنفجار؟

أو من أمر بنشأة الكون من هذا الإنفجار؟

حتى نظرياتهم غريبة مثل أفكارهم والعجيب أنها لاتقنع طفلاً ويرفضون أدلة ديننا الواضحة فعلى سبيل المثال يقولون بأن هناك العديد من النظريات لتفسير نشأة الكون

مرتكزات نظريات تفسير نشوء الكون

وتدور النظريات التي تحاول تفسير نشوء الكون، وفق أحد الاتجاهات التالية:

أ. أن يكون الكون ظهر بفعل قوة إلهية.

ب. أن يكون الكون ظهر بصورة تلقائية.

ت. أن يكون الكون أزلي.

ث. أن يكون الكون مجرّد وهم.

وواضح أن الاتجاه الأخير غير عقلائي، ولا يُعتدّ به. وأما القول بأن الكون ظهر تلقائياً أي أنه خلق نفسه، فأيضاً غير مقبول، إذ كيف يخلق ما هو غير موجود نفسه أو أي شيء آخر !

فإذا كان غير المخلوق (المعدوم) قادراً على خلق نفسه فهو يكون أيضاً قادراً على خلق غيره ! فأي ميزة لمعدوم على خلق نفسه دون غيره؟

وبذلك يكون هناك احتمالان:

إما أن يكون الكون قد خلق نفسه عندما كان معدوماً أو خلقه معدوم آخر ! ولا نعرف على وجه الدقة أي المعدومين قد خلق الكون، مع إنه لا ميزة لمعدوم على آخر ! وإذا كان غير المعدوم يمكنه أن يخلق شيئاً فمن خلق المعدوم؟

إذن يبقى أن يكون أمر نشوء الكون وظهوره في عالم الوجود المادّي محصوراً بين أن يكون قد ظهر بفعل قوة إلهية أو أنه أزلي !

أزلية المادة

والقول بأزلية المادة غير معقول:

. وللتوضيح نعرض أهم النظريات التي تدور حول نشأة الكون:

أ - نظرية الإنفجار العظيم Big Bang وتسمى أيضاً الإنفجار الكبير.

وهي النظرية الأشهر في تفسيرها لكيفية ظهور الكون.

ب - أزلية الكون ونظرية الحالة الثابتة.

ج - الصدفة أو المصادفة.

أبرز نظريات نشوء الكون

سنحاول أن نستعرض هذه النظريات باختصار:

أ - نظرية الإنفجار العظيم Big Bang وتسمى أيضاً الانفجار الكبير:

حسب نظرية" الإنفجار العظيم" فقد كانت هناك مادة صغيرة جداً يقدر حجمها بـ ١× ١٠- ٣٤ سم (نقطة أو جرم إبتدائي تختزن داخلها كل الطاقة والمادة التي نراها الآن)

و هذه المادة تسمى" بروتو الكون" (proto-universe or protoverse). وبما أن هذه المادة موجودة بغض النظر عن صِغَرِ حجمها فإنها بلا شك تشغل حيزاً معيناً، هذا الحيز هو المكان. لكن بعض علماء الفيزياء يقولون أن حجمها كان صفراً !].

وربما الملحدون من علماء الفيزياء يريدون بوصفه بالعدم التهرب من التساؤل عمن خلق" بروتو الكون" وعمن خلق المكان الذي احتوى" بروتو الكون" ، ومشكلة عجز علماء الفيزياء عن تفسير خلق المكان فيزيائياً لا تقل أهمية عن مشكلة عجزهم عن تفسير ظهور المادة فيزيائياً بدون تدخل إلهي !

فعندما تسأل أحد الملاحدة عمن أوجد المادة؟ يجيب: المادة أزلية موجودة منذ الأزل، فليست بحاجة إلى خَلْق وخالق، وعندما تسأل أحدهم عمن خلق الكون؟

يجيب: الكون وُجد منذ الأزل، والكون ليس إلا مادة وطاقة، ومادة الكون أزلية، والكون أزلي ليس بحاجة لخالق، ويستدل بعضهم بأن المادة لا تفنى ولا تستحدث من عدم، ويستدل بعضهم

بنظرية الحالة المستقرة، وبعضهم يستدل بفرضية الكون المتذبذب، وبعضهم يقول: إن المفردة التي نشأ منها الكون أزلية، وكل هذه الأقوال ظُنونٌ وأوهام لا تغني من الحق شيئًا.

ومن المعلوم أن المادة يمكن أن تتحول إلى طاقة، والطاقة يمكن أن تتحول إلى مادة - طبقًا لقوانين معينة، وهذا يدل على أن الوجود ليس صفة ذاتية ملازمة للمادة أو الطاقة؛ إذ لو كان الوجود صفة ذاتية ملازمة للمادة، لَمَا انفك عن المادة وفارقها بأي حال من الأحوال، ولو كان الوجود صفة ذاتية ملازمة للطاقة، لَمَا انفك عن الطاقة وفارقها بأي حال من الأحوال، أي: إن الوجود صفة عارضة للمادة والطاقة،تعالىرِضٌ للمادة أو الطاقة في بعض الأحوال، وتنفك عن المادة أو الطاقة في بعض الأحوال، وهذا يستلزم أن يكون لوجود المادة بداية، أي: المادة مُحدَثة ليست أزلية، وكل محدَثٍ له محدِثٌ. كما أن القول بأزلية الكون يستلزم وجود أحداث لانهائية تمَّتْ في الكون، وهذا باطل.

نظرية المصادفة

أما عن المصادفة: فيحتج بعضهم بأن الكون قد يأتي مصادفة وهذا أمر غاية فى الغرابة وقد رد على ذلك الدكتور عمر الأشقر فقال: الشيخ رحمه الله تعالى إلى في كتابه المهم: (العقيدة في الله):" يبدو القول: إنّ هذا الكون خلق مصادفة من غير خالق ليس قولاً بعيدًا عن الصواب فحسب، بل قول بعيد عن المعقول، يُدخل صاحبه في عداد المخرفين الذين فقدوا عقولهم أو كادوا، فهم يكابرون في الدليل الذي لا يجد العقل بُدّاً من التسليم به. لقد وُجد من يقول:" لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها بلايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبتها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك الكون الموجود الآن، إنما وجد نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في ((المادة)) لبلايين السنين" ،

يقول وحيد الدين خان بعد نقله لهذه الفقرة من كلام (هكسلي) [صاحب نظرية الصدفة]:" إنَّ أيّ كلام من هذا القبيل لغو مثير بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان، فإنّ جميع علومنا تجهل - إلى يوم الناس هذا - أية مصادفة أنتجت واقعاً عظيماً ذا روح عجيبة، في روعة الكون" .

وينقل عن عالم آخر إنكاره لهذه المقال:ة قوله:" إنّ القول إن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة إنفجار صُدفي يقع في مطبعة" .

ويقرر وحيد الدين خان:" أنّ الرياضيات التيتعالبطينا فكرة المصادفة، هي نفسها التي تنفي أيّ إمكان رياضي في وجود الكون الحالي بفعل قانون المصادفة" .

وخذ هذا المثال الذي نقله وحيد الدين خان عن العالم الأمريكي (كريستي موريسون) يبين فيه استحالة القول بوجود الكون مصادفة، قال:"لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة، ثم رميتها في جيبك، وخلطتها جيداً، ثم حاولت أن تخرج من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي بحيث تلقي كلّ درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى، فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه واحد في المحاولة الأولى هو واحد في العشرة، وإمكان أن نخرج الدراهم من (١-١٠) بالترتيب واحد في عشرة بلايين" . وعلى ذلك فكم يستغرق بناء هذا الكون لو نشأ بالمصادفة والاتفاق؟ إنَّ حساب ذلك بالطريقة نفسها يجعل هذا الاحتمال خيالياً يصعب حسابه فضلاً عن تصوره. إنَّ كلَّ ما في الكون يحكي أنَّه إيجاد موجد حكيم عليم خبير،

ولكنَّ الإنسان ظلوم جهول: { قُتِلَ الْإِنسٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ (١٧) مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلْيَنظُرِ الْإِنسٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَآءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) } [سورة عبس: ١٧ إلى ٢٩].

كيف يمكن أن تتأتى المصادفة في خلق الإنسان وتكوينه، وفي صنع طعامه على هذا النحو المقدّر الذي تشارك فيه الأرض والسماء، وصدق الله في وصفه للإنسان (إنَّه كان ظلوماً جهولاً) [الأحزاب: ٧٢]" ا.هـ. من كتاب: (العقيدة في الله).

شبهة: من خلق الخالق

وهنا نأتى للنقطة الثانية والتى يثيرها الملحدون وهي، من خلق خالق الكون؟ وهذا سؤال غير منطقي:

فلو قلنا بأن كلَّ خالق له مَن خلَقه، أي: خالق الكون له مَن خلقه، ومَن خلَق خالقَ الكون له مَن خلَقه، ومَن خلَق خالقَ خالقِ الكون له مَن خلَقه، وهكذا إلى ما لا نهاية - فهذا يستلزم أنْ لا خالقَ للكون، وهذا باطل لوجود الكون؛

فوجود الكون يستلزم عدم تسلسل الفاعلين إلى ما لا نهاية؛ إذ لا بد أن تصل سلسلة الفاعلين إلى علة غير معلولة، ولا بد مِن سبب تنتهي إليه الأسباب، وليس هناك أسباب لا تنتهي إلى شيء، وإلا لم يكن هناك شيء؛ أي: إن التسلسل في الفاعلين ممنوع، بل لا بد أن نصل إلى نهاية، وهذه النهاية في الفاعلين أو المؤثرين هي إلى الله - سبحانه وتعالى-و يدلُّ عليه قوله تعالى: (وَأَنَّ إلى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى) [النجم: ٤٢].

وللتقريب نأخذ مثال الجندي والرصاصة، الجندي يريد أن يطلق النار، ولكن حتى يطلق النار، يجب على الجندي أن يستأذن من الجندي الذي خلفه، وهذا الجندي حتى يعطي الإذن يجب أن يستأذن من الجندي الذي خلفه، وهكذا إلى ما لا نهاية، السؤال: هل سيطلق الجندي النار؟ الجواب: لا؛ لأنه لن يصل إلى الجندي الذي سيعطيه الإذن بإطلاق النار، أما إذا انتهت السلسلة إلى شخص لا يوجد فوقه أحد ليعطيه الإذن بإطلاق النار، فستنطلق الرصاصة وبدون هذا الشخص،

ومهما كثُر عدد الأشخاص، لن تنطلق الرصاصة؛ فهم كالأصفار إذا وضعتها بجانب بعضها البعض، فمهما كثرت وبلغت حدًّا لا نهاية له، فستظل لا تساوي شيئًا، إلا أن يوضع قبلها رقم: ا فأكثر.

صفات يتميز بها الخالق الحق سبحانه

إن الأصل في الخالق الوجود؛ إذ لو كان الأصل فيه العدم لما أوجد الكون؛ لأن فاقد الشيء الذي لا يملِكه ولا يملِك سببًا لإعطائه - لا يعطيه، وإذا كان الأصل في الخالق الوجود، فلا يصح أن نسأل عن سبب وجوده.

وأيضاً لابد أن يكون الخالق واحد لا يتعدد، لقوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)

{الأنبياء: ٢٢}،

قال: ابن كثير: أي لو قُدِّر تعالى تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض، في غاية الكمال" مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ"

وفوق كل هذا لم نجد أحد حتى في الأساطير القديمة من ادعى أنه خلق السموات والأرض لأن كل الآلهة التى تحدثت عنها الأساطير مثل زيوس فى اليونان ومردوخ بالعراق وبتاح وأمون فى مصر وغيرهم كلهم إنما وجدوا بعد نشأة الكون، ولذلك نعجب للملحدين فى افتراءاتهم على الله فهم الوحيدون فى الكون الذين يشككون فى وجود منشيء وخالق للكون،

وهذا لسبب مهم جداً هو أنهم يريدون أن يضللوا أتباعهم لأكثر مدة ممكنة فأوهموهم أن العلم مازال يبحث وسنظل وراءه حتى نكتشف الحقيقة وهم يفعلون هذا ليصرفوهم عن القرآن الكريم والذي يذكر ويبين هذه الحقائق بوضوح لأنه سبحانه وتعالىبمنتهى البساطة

الإله الوحيد الذى أعلن أنه خلق الكون بما فيه هو الله رب العالمين

فلو أن هناك خالقاً آخر خلق الكون ونسي أنه خلق فلايصح أن يكون إله، ولو أن هناك

خالق آخر ومات فلايصح أن يكون إله، ولم يظهر للآن من يكذب ذلك ويقول بأنه هو الإله الخالق

فمادام الأمر كذلك فالخلق يثبت لله جل وعلا، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوٰى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعٰلَمِينَ }[سورة الأعراف: ٥٤].

لماذا يصر المسلمون على أن إلههم هو الإله الحق؟

للإجابة على هذا السؤال الت إلى نقول وبالله التوفيق:

اولا:: نحن المسلمين نؤمن بالله رب العالمين ليس إيماناً أعمى كما يظن ويتخيل الآخرون ولكن الحمد لله أننا نؤمن بربنا سبحانه وتعالى رؤيا عين من خلال آثاره وقدرته وعظمته جل وعلا ونفخر بذلك ونسعد: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

وأيضاً أمنا بالله تعالى إلى لأننا كمتخصصين بحثنا فيما يدعيه كل فريق فى إلهه ونظرنا فى كل إله تعبده طائفة ما وبفضل الله وجدنا أن إلهنا سبحانه وتعالى رب العالمين هو الإله الحق وحتى لايكون الكلام مرسلاً نبين لحضراتكم عدداً من الآلهه المزعومة ونقارنهم بإلهنا سبحانه وتعالى ونحن نعلم أن هذه المقارنة لا تليق بجلال الله تعالى إلى ولكن الله يعلم أنها من باب (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) وليعلم الجميع أننا لم نؤمن إيماناً أعمى بل إيمان بيقين ونحمد الله على ذلك:

ثانيا:: أهو إله واحد، أم هناك أكثر من إله؟!!

نحن المسلمين نؤمن بأنه سبحانه وتعالى إله واحد لأنه من البديهي لو كان فى الكون أكثر من إله لما رأينا الكون بهذا التناسق العجيب والاتزان الرائع الذى أبهر العلماء فى كل زمان ومكان لأنه محال أن يكون رأى الآلهه رأى واحد ثم من سيكون فيهم الأعلى وصاحب القرار وهل سيتركه الآخرون ليأخذ هذه الميزة وما الذى يميزه عنهم إذن كنا سنرى خللا لاحدود له ولرأينا اضطراباً فى الكون بين لحظة وأخرى ولكن الحمد لله أن إلهنا إله واحد.

وفى هذا قال: الله تعالى إلى في القرآن الكريم: { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا اللَّهُ

لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ } ([٢]).وقال تعالى: {.. ومَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ

لهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } ([٣]). إذن: هـذا الوجـود بمـا فيه يدل على أن له موجداً واحداً لا شريك له.

مالذي يميز إله المسلمين عن آلهة غيرهم

ولكن كل طائفة تدعي أن إلهها هـو إلـه واحـد فمـا الـذي يمـيز إلهنـا سـبحانه وتعـالى عـن آلهتهم؟

قال: الله تعالى إلى في القرآن الكريم: حاكياً عن بعض مـن هـذه الطوائـف: { هَـؤُلَاء قَوْمُنَـا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَـأْتُونَ عَلَـيْهِم بِسُـلْطَانٍ بَـيِّنٍ فَمَـنْ أَظْلَـمُ مِمَّـنِ افْـتَرَى عَـلَى اللَّهِ كَـذِباً } (الكهف: ١٥) فبعض الطوائف يعبدون النار ويزعمون أنها إله واحد ولكن مالفـارق بـين إلهنـا جـل وعلا والنار التى يعبدونها؟! نحن نرى أن النار مقهورة من بـدايتها فـلا تسـتطيع الظهـور إلا بعـد أن يجمع الإنسان لإيقادها الحطب والخشب، ويشعلها في ظروف محـددة، ثـم يحميهـا حـتى لا يقهـر ضعفها الهواء ولا الماء فيمنع وصولهما إليها، ثم يذل لها ويخضع !! ثم إذا جـاع أخـذها وجعلهـا وقوداً لطعامه ! أيُعقـل أن تكـون هـي الله، يستنصر بهـا الإنسـان مـن ظلـم، أو يتقـوى بهـا مـن ضعف؟ وفى هذا يقول تعـالى: { وَالَّـذِينَ تَـدْعُونَ مِـن دُونِـهِ لاَ يَسْـتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَـهُمْ يَنْصُرُونَ } (الأعراف: ١٩٧)

أما إلهنا فهو سبحانه وتعالى الغني عن عباده لايحتاج لخلقه لا من بعيد ولا من قريب وفى هـذا يقـول تعـالى: (يـا أَيُّهَـا النَّـاسُ أَنـتُمُ الْفُقَـرَاءُ إلى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُـوَ الْغَـنِيُّ الْحَمِيـدُ) وهنـاك طوائفتعالىبد أصناماً من خشب أو حجر وخلافه والعجيب أنهم يزعمون أيضاً أنها إله وأنه إله واحـد فما الفارق بين إلهنا جل وعلا، ومايعبدون من أصنام وأحجار؟

فالأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تتحرك ! ولا تنفع ولا تضر. إلى آخر هذه الصفات التي لا يستطيعونها ولا يملكونها بحال من الأحوال وفى هذا يقولتعالى إلى عن أصنامهم فى حوار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وقومه: { وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ الظَّٰلِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَال: لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ: بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا

فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّٰلِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ: أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا

يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) } [سورة الأنبياء: ٥٧ إلى ٦

والعجيب ما كان يفعله الإنسان العربي قديماً في سفره، حيث كان يحمل إلهه الذي صنعه من تمر، أو من حجر، فإذا جاع في الطريق أكل إلهه الذي من التمر! أو حول إلهه المصنوع من الحجر إلى مركب؛ ليضع عليه إناء طعامه، ليطهى ما يحتاجه من طعام !! ثم إذا أكل وشبع حمل حجره الإله، وركع له وسجد !! أيعقل أن يكون الصنم هو الله؟!

أما إلهنا سبحانه وتعالى: (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢).

مالفرق بين من يعبد الشمس ويوحد الله تعالى

وهناك طائفة تعبد الشمس وتظن وتزعم أنها إله واحد فما الفارق بينها وبين الله سبحانه وتعالى رب العالمين؟

من المعلوم أن الشمس أحد ملايين النجوم التي من صفاتها الغياب عن الأبصار والاختفاء ! وهي تسير في فلك ثابت لا تملك لنفسها قدرة على تغيير مسارها بل هى آية من آيات الله وفى هذا يقول الحق سبحانه: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُتعالىبْدُونَ (٣٧) فكيف تملك للإنسان نفعاّ أو ضراً وهى لاتملك لنفسها نفعاً ولا ضراً؟

وفى هذا يحكى القرآن الكريم قصة قوم كانوا يعبدون الشمس فما أغنت عنهم شيئاً: { وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ. أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَاتعالىلِنُونَ } (النمل:٢٤- ٢٥)

أما إلهنا سبحانه وتعالى وحده فهو المالك للكون المسير له: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)

آلهة من بشر

ما سبق كانت آلهه من الطبيعة وبفضل الله بيّنا أنها لاتصلح مطلقاً أن تكون آلهه بحال من الأحوال ولكن هناك أقوام آخرون كانوا يعبدون بشراً فربما يظن أتباعها أنهم أفضل من إلهنا سبحانه وتعالى وطائفة أخرى قد تختار الإنسان لتعبده.. وتختاره جميل الصورة، قوي العضلات، ذكي العقل، غني؟

و توهم نفسها أنه إله وأنه يستحق العبادة ويزعمون أنه إله واحد فهل يستطيع الإنسان كائناً ما كان أن يمنع المرض عن نفسه، وأن يخلد نفسه في الدنيا ولا يموت؟!

وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: { أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قال: إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قال: أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قال: إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (البقرة: ٢٥٨).

ومن الناس من أبهره عقل الإنسان وفكره فجعله (إله)فكيف يليق بأن نجعل هذا العقل القاصر (إلهاً)؟! سبحان الله وتعالىعما يقولون علواً كبيراً { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وتعالىعَمَّا يُشْرِكُونَ } (الروم: ٤٠).

وكل ما سبق ذكره مما يدعي بعض البشر إلهيته، ولا يستطيع أحد من عبادها أن يقدم برهاناً واحداً على قدرتهم على خلق أي شيء في الأرض ولا في السماء وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: { وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً } (الفرقان: ٣).

هل المسيح إله

فكيف يعقل أن يعظم الإنسان ما صنعه هو بيديه؟! أو يُعظِّم من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؟! بل كيف يرجو عنده النفع؟! وكيف يخاف منه الضر؟! قال: الله تعالى إلى في القرآن الكريم: { قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }. إن هذا الكون العظيم ليدل على عظمة خالقه. وأنه واحد أحد.

وطوائف أخرى تعبد ثلاثة إلهه وتزعم أنها إله واحد فهل يصح أن يكون الله ثالث ثلاثة كما يقول المسيحيون؟

الأب (الله)، والابن (عيسى)، و(روح القدس)، ومنهم من يعتقد بإلهية الأم (مريم). فيكون واحد في ثلاثة ! وثلاثة في واحد !

فبداية: أنا أشهد أمام الله من خلال تخصصي أن المسيح عليه السلام هو عيسى ابن مريم رسول الله، خلقه الله تعالى إلى كما خلق آدم عليهما السلام، وأن عيسى عليه السلام إنما هو استكمال و توضيح لقدرة الله تعالى إلى على الخلق.

ولبيان ذلك نقول: أن الله تعالى إلى خلق آدم عليه السلام من غير أب أو أم، ثم خلق زوجته من ضلع آدم عليه السلام فكأنها خلقت من أب دون أم، وخلق البشر جميعاً من أب وأم، بقى لكي تكتمل الدائرة ونرى رأي العين أن الله على كل شيء قدير أن يخلق الله تعالى إلى بشراً من أم دون أب فخلق المسيح عليه السلام، ولذلك فالمسيح عيسى عليه السلام بشر وهو عبد الله ورسوله، وأيضاً أشهد بأن المسيح عليه السلام لم يقل أبداً أنه الله أو أنه إله أو أنه ابن الله، وأشهد أنه لم يقل لبني إسرائيل أن يعبدوه

وهذه الشهادة بفضل الله تعالى إلى عندي من الأدلة ما يوضحها ويثبتها ومن كتبنا وكتبهم وستأتي فى حينها بإذن الله، وبالتالي فإن دعوى النصارى بأن المسيح عليه السلام إله دعوى باطلة والمسيح عليه السلام منها براء.

الأماكن التي نشأت فيها فكرة الإله

ومن أشهر الشخصيات الأسطورية التي عبدها بشر واتخذت صيتاً واسعاً هو:، زيوس، أحد أكبر آلهة اليونان القدامى ونحن نعجب ممن عبدوه، فتاريخه معروف وبدايته ومولده وأين نشأ ومافعله بأبيه وأمور كثيرة لاتستحق الذكر فيكفي أنه الآن لايذكر ولاقيمة له، وإذا سألت الآن

الأماكن التي نشأت فيها فكرة الإله زيوس هل تعبدونه الآن سيضحكون ويسخرون وسيقولون أين هو لقد كان أسطورة من الأساطير القديمة.

وكذلك آلهة مصر القديمة والتي تجاوزت الثمانين إلهاً ومن أشهرها أمون ورع وبتاح وغيرهم أين هم الآن وأيضاً إن سألت مصرياً هل مازلتتعالبد أمون سيسخر منك وسيعتبرك مجنوناً.

ومن الآلهة التي أخذت صيتاً واسعاً فى الشرق مردوخ ببابل وعشتار والنمرود وفرعون ناهيك عن الآلهة التي كانت فى الشرق الأقصى لدى الصينين واليابانيين وغيرهم، أين هم الآن وأين آثارهم وصدق فيهم قول ربنا: { قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَٰتِ ۖ ائْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ } [سورة الأحقاف: ٤]

ونحن بدورنا نسأل من يعترض على أننا نفتخر بربنا رب العالمين ونؤمن به أن الكون وما فيه قدرة وخلق وإبداع ربنا سبحانه وتعالىفهو: { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } (السجدة: ٤).

{ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ } (الرعد: ١٦)

سبب نشوء فكرة تعدد الآلهة

ثم إن كل الآلهة المدعاة انتهت وانتهى زمانها وانتهت معابدها، لأنها من الأصل لم تكن لتوجد ولكنها مصالح أقوام ومنافع هي التي دعتهم على اختلاق فكرة الألوهية ثم استخفوا أقوامهم فاستعبدوهم.

وما إن أكرم العالم بالإسلام وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم حتى تلاشت كل هذه الترهات أمام الحقيقة الجلية الواضحة وهو الله رب العالمين: وأوضحنا للعالم بأن إلهناً إله واحد لا ولد له ولا ند له ولا أب له ولا زوجة له ولايحتاج لخلقه: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) }[سورة الإخلاص: ١ إلى ٤]

وهو سبحانه: { اللَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ } [سورة البقرة: ٢٥٥]

وليس هذا فحسب بل تأملوا معي هذه الآيات ونسأل كل من يعترض علينا نحن المسلمين أن يأتينا بإله له هذه القدرة والفضل والمنة: { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَٰلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَؤُا۟ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ (٦٦) }[سورة النمل: ٥٩ إلى ٦٦]

أنواع الإيمان بالغيب

والحمد لله أن زكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله. ويدخل في الإيمان بالغيب، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، وما أخبرت به الرسل من ذلك. فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها، وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال:" وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ" لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة.

فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهرا، بإتمام أركانها، وواجباتها، وشروطها. وإقامتها باطنا، بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها. فهذه الصلاة هي التي قال: الله فيها" إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ" وهي التي يترتب عليها الثواب. فلا ثواب للعبد من صلاته، إلا ما عقل منها. ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال:" وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب، والمماليك ونحو ذلك. والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير.

ولم يذكر المنفق عليهم، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي، قربة إلى الله. وأتى بـ" مما" الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءا يسيرا من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم.

وفي قوله" رَزَقْنَاهُمْ" إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله، الذي خولكم، وأنعم به عليكم. فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيرا ما يجمع تعالى إلى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة، متضمنة الإحسان على عبيده.

أسباب سعادة الإنسان

إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق. كما أن عنوان شقاوة العبد، عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

{ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) }

قال: ابن عباس: { وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ } أي: يصدقون بما جئت به من الله، وما جاء به مَنْ قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون ما جاؤوهم به من ربهم { وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ } أي: بالبعث والقيامة، والجنة، والنار، والحساب، والميزان

وهذه الآية اختصرت مسالة الايمان وحددته بمعنى ان النجاة والفوز يوم القيامة انما مشروط بالإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم،

وكذا الايمان بما سبقه من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، ان الايمان بالرسل السابقة دون الايمان برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم لا يعد ايمانا مطلقا لقوله صلى الله عليه وسلم و الذي نفْسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ، لا يهوديٌّ، و لا نصرانِيٌّ، ثُمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النارِ

الراوي: أبو هريرة | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم: ٧٠٦٣ | خلاصة حكم المحدث: صحيح | التخريج: أخرجه مسلم (١٥٣)

الرسالة الخالدة

والمعنى أن النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أُرسِلَ إلى النَّاسِ كافَّةً، وشَمِلَتْ دعوتُه اليَهودَ والنَّصارى، وفي ذلك يُخبر أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال:والَّذي نَفْسُ محمَّدٍ بيدِه، وهو قَسَمٌ منَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كقولِه: واللهِ؛ وذلك لأنَّ الله هو الَّذي بيدِه أَنْفُسُ جميعِ الخلائقِ، وكثيرًا ما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُقْسِمُ به. وقوله:" لا يَسْمَعُ بي" ، أي: لا يَعلمُ برِسالتي، أحدٌ، أي: مِمَّن هو موجودٌ في زَمَني وبَعدي إلى يَومِ القيامةِ؛ فكُلُّهم مِمَّن يجبُ عليه الدُّخولُ في الإسلامِ والإيمانُ به صلَّى الله عليه وسلَّم، من هذه الأُمَّةِ، أي: النَّاس جميعًا، وهم أُمَّةُ الدَّعوةِ، يهوديٌّ ولا نَصرانيٌّ، أي: أهلُ الكتابِ خاصَّةً وباقي العالَمينَ كافَّةً، فإذا

كان هذا شَأْنَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع مَنْ لهم كتابٌ، فغيرهم مِمَّن لا كتابَ له أَوْلى. ثُمَّ يموتُ ولَمْ يُؤمنْ بالَّذي أُرْسِلْتُ بـه، أي: مـات كـافرًا، إلَّا كـان مـن أصـحابِ النَّـار، أي: جَـزاؤُوهُ أنْ يدخُلَ النَّارَ عِقابًا على كُفرهِ برَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وبِما أُرْسِلَ به صلَّى الله عليه وسلَّم.

وفي الحديثِ: وجوبُ الإيمانِ برِسالةِ نبيِّنا محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى جَميعِ النَّاسِ ونَسْـخِ المِللِ بمِلَّتِه؛ فمَن عَلِم بمَجيءِ رسولِ اللَّهِ محمَّدٍ صلَّى الله عليـه وسـلَّم ولـم يُـؤمِنْ بـه ولا بالـذي أُرْسِلَ به، ليس بمُؤمِنٍ وهو مِن أهلِ النَّارِ، حتَّى لو ادَّعى أنَّه يُؤمِن باللهِ وببعضِ الرُّسُـل كمـوسى وعيسى عليهما السلام.

هل اليهود والنصارى مؤمنون

وهذا لان اليهود يزعمون انهم يؤمنون بموسي عليه السـلام ويكفـيهم ويرفضـون الايمـان بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام فبهذا لايعدون مـؤمنين بـل ان اصروا عـلى ذلـك ومـاتوا على ذلك ماتوا كافرين.

وكذا النصـارى يزعمـون انهـم يؤمنـون بعيسي ابـن مـريم عليـه السـلام ويرفضـون الايمـان بمحمد صلى الله عليه وسلم وهم بهذا لايعدون مؤمنين بل بهذا اصبحوا كافرين

لان تكذيب احد الرسل الكرام هو تكذيب للجميع لان رسالتهم جميعا واحدة لقول الله تعالى إلى، : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِك مِنْ رَسُول إلَّا نُوحِي إلَيْهِ أَنَّهُ لَا إلَه إلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ }

ومثالا على ذلك القران الكريم اخبرنا عن المكذبين من قوم نوح عليه السلام فقال تعالى: ، كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ وهذا رغم ان نوح عليه السلام اول الرسل الكرام فتكذيب احد الرسل هو تكذيب للجميع وبخاصة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لانه خاتما للرسل ومصدقا لهم ولما جاؤوا به من عند الله

كيف قطع القرآن الكريم الطريق على الملحدين المنكرين للبعث

وكذلك (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) هذه هي الصفة الخامسة من صفات المتقين، وهي إيقانُهم بالآخرة، ونص عليه وخصَّه بالذِّكر مع دخوله في الإيمان بالغيب؛ لأهميته؛ لأن الإيمان بالآخرة من أعظم ما يَحمِلُ على امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ لأن فيه المجازاة على الأعمال، وبهذا يكون القران الكريم قد قطع الطريق على الملحدين وامثالهم ممن ينكرون اليوم الاخر والحساب رغبة منهم فى ان يفعلوا ما يحلوا لهم بحجة انه ليس هناك جزاء ولا حساب

وفى هذا روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: " لولا الإيمان باليوم الآخر، لرأيتَ من الناس غير ما ترى" ؛ أي: لَتهالَك الناس على الشهوات والمناهي، وتَنكَّر بعضهم لبعض.

والآخرة: الدار الآخرة التي بعد الدنيا والبعث، سمِّيت بذلك؛ لأنها متأخرة من حيث الزمن بعد الدنيا، وهي الدار الحقة، التي ينبغي أن يعمل ويستعد لها، ويُحسَب لها كلُّ حساب؛ لأنها هي الحياة الحقيقية، كما قال تعالى: (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) [العنكبوت: ٦٤].

واليقين: الإيمان والعلم الجازم الذي لا يتطرق إليه شكٌّ؛ أي: يؤمنون إيمانًا جازمًا بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء على الأعمال، بالثواب والعقاب، والجنة والنار، ويستعدُّون لذلك بفعل المأمورات وترك المنهيَّات.

(أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) " أُولَئِكَ" أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة" عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ" أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم. وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة؟!!.

وهل الهداية في الحقيقة، إلا هدايتهم وما سواها مما خالفها، فهي ضلالة. وأتى بـ" على" في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ" في" كما في قوله" وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

ثم قال:" وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

حصر الفلاح فيهم، لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل، فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار، التي تفضي بسالكها إلى الهلاك.

وبعدما فصلت لنا الآيات صفات المؤمنين تنتقل بنا الآيات لصفات الكافرين بالله ورسله

فقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)

قوله تعالى إلى (إن الذين كفروا) يعني مشركي العرب وقال: الكلبي: يعني اليهود. والكفر هو الجحود وأصله من الكفر وهو الستر ومنه سمي الليل كافرا لأنه يستر الأشياء بظلمته وسمي الزراع كافرا لأنه يستر الحب بالتراب والكافر يستر الحق بجحوده

أنواع الكفر:

والكفر على أربعة أنحاء:

١. كفر إنكار
٢. وكفر جحود
٣. وكفر عناد
٤. وكفر نفاق

فكفر الإنكار أن لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به كالملحدين واشباههم

وكفر الجحود هو أن يعرف الله تعالى إلى بقلبه ولا يقر بلسانه ككفر إبليس وكفر اليهود. قال: الله تعالى إلى:" فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به" (٨٩ - البقرة)

وكفر العناد هو أن يعرف الله بقلبه ويعترف بلسانه ولا يدين به ككفر أبي طالب حيث يقول

ولقد علمت بأن دين محمد

من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة

لوجدتني سمحا بذاك مبينا. وأما كفر النفاق فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب وجميع هذه الأنواع سواء في أن من لقي الله تعالى إلى بواحد منها لا يغفر له

وقال: علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ }

قال:كان رسول الله يحرصُ أن يؤمن جميع النَّاس ويُتَابعوه على الهدى، فأخبره الله تعالى إلى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادةُ في الذكر الأوّل، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأوّل.

ومع هذا ارسل البهم الرسول وانزل معه القران ودعاهم للايمان ولكنهم ابوا الا الكفر وهذا من تمام عدل الله ورحمته فكان من الممكن ان ياخذهم بعلمه وانهم كافرون وانهم من اهل النار ولكن برحمته ابقاهم واقام عليهم الحجة ولكن لكونه سبحانه وتعالاعلم بهم، وكذالك يعلم مدى رغبة الرسول الكريم فى ان يؤمنوا وحزنه عليهم اراد الله تعالى إلى ان يبين لرسوله حقيقة هؤلاء

فقال تعالى: مسليا لنبيه مبينا له (سواء عليهم) أي متساو لديهم (أأنذرتهم) خوفتهم وحذرتهم والإنذار إعلام مع تخويف وتحذير

(أم) حرف عطف على الاستفهام (لم) حرف جزم لا تلي إلا الفعل لأن الجزم يختص بالأفعال (تنذرهم لا يؤمنون)

كما قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [يونس: ٩٦، ٩٧]

وقال: في حق المعاندين من أهل الكتاب: { وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ }، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، وبلّغهم الرّسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزن عليهم؛ { فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } [الرعد: ٤٠]، و { إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ } [هود: ١٢].

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

قوله تعالى: (خَتَمَ اللَّهُ) والختم مصدر ختمت الشيء ختما فهو مختوم ومختم، شدد للمبالغة، ومعناه التغطية على الشيء

الختم على القلوب وصوره:

والاستيثاق منه حتى لا يدخله شي، ومنه: ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك، حتى لا يوصل إلى ما فيه، ولا يوضع فيه غير ما فيه.

وقال: أهل المعاني: وصف الله تعالى إلى قلوب الكفار بعشرة أوصاف:

بالختم والطبع والضيق والمرض والران والموت والقساوة والانصراف والحمية والإنكار.

، فقال: فى الإنكار: (قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) [النحل: ٢٢].

، وقال: فى الحمية: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ) [الفتح: ٢٦]

، وقال: فى الانصراف: (ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ) [التوبة: ١٢٧].

،وقال: فى القساوة: (فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) [الزمر: ٢٢]. وقال:(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ) [البقرة: ٧٤].

وقال: فى الموت: (أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ) [الأنعام: ١٢٢]. وقال:(إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ) [الأنعام: ٣٦].

،وقال: فى الران: (كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ) [المطففين: ١٤].

وقال: فى المرض: (فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) [محمد: ٢٩] وقال: فى الضيق: (وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) [الأنعام: ١٢٥]. وقال: فى الطبع: (طُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ) [المنافقون: ٣]. وقال:(بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ) [النساء: ١٥٥]. وقال: فى الختم: (خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ) [البقرة: ٧]

اذن ما حدث لهم انما هو جزاءا وفاقا فلم يظلمهم الله تعالى إلى حين ختم على قلوبهم انما هو بما قدمت ايديهم جَعَلَ (عَلَى قُلُوبِهِمْ) عَلَامَةًتعالىرِفُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بِهَا،

(وَعَلى سَمْعِهِمْ)، أَيْ: عَلَى مَوْضِعِ سَمْعِهِمْ فَلَا يَسْمَعُونَ الْحَقَّ وَلَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَأَزَادَ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ كَمَا قال: عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَإِنَّمَا وَحَّدَهُ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ وَالْمَصْدَرُ لَا يُثَنَّى وَلَا يُجْمَعُ. (وَعَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ)، (غِشَاوَةٌ)أَيْ: غِطَاءٌ فَلَا يَرَوْنَ الْحَقَّ.

. (وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ)، أَيْ: فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ فِي الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الدَّائِمُ فِي الْعُقْبَى، والعذاب: كل ما يعيى الْإِنْسَانَ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ، قال: الْخَلِيلُ بن أحمد: الْعَذَابُ مَا يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ عَنْ مُرَادِهِ،


شبهات عصرية والرد عليها

شبهة: إذا كان الله قد طبع على قلوبهم فلماذا يعذبهم

وهنا للملحدين سؤلان

الاول: اذا كان الله قد طبع على قلوب العباد فحرمهم من الايمان وبالت إلى اصبحوا كافرين فما ذنبهم؟

الجواب:

نقول ردا على السؤال الاول: بانهم كعادتهم يقلبون الحقائق فيوهمون الناس ان الله هو الذى طبع على قلوبهم ابتداءا مما حرمهم الايمان وهذا خطا تماما، لان الحقيقة انهم كفروا وجحدوا ورفضوا الايمان بالله وبالرسول ومع هذا لم يتوانى الرسول صلى الله عليه وسلم لحظة فى محاولة منه ان يؤمنوا بالله وبرسوله ولكنهم لم يجدى معهم انذار الرسول صلى الله عليه وسلم وكانه لم ينذرهم وأصروا واستكبروا وعاشوا على الكفر وماتوا وهم كفار ومن ثم استوجبوا ان يطبع الله على قلوبهم فيحشرهم على الكفر

ولنا على ذلك أدلة منها هل ختم الله تعالى إلى على قلب حيى بن اخطب فمات كافرا ابتداءا أم أنه هو الذى بدا بالعداء والكره والرفض، الم يقل لاخيه، ياسر بن اخطب حين سأله عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم أهو هو؟ قال: نعم هو هو قال: اتثبته؟ قال: نعم، قال: فما قلبك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت

وفعلا عاش معاديا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤلبا عليه القبائل حتى قتل بعد غزوة الخندق حين غدر بالمسلمين وكاد ان يستأصلهم لولا ان الله سلم وحفظ رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين

والدليل الثانى: هو ابو جهل الذى اعلن من البداية كفره وحقده حين ساله الاخنس بن شريق عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا: يا ابا الحكم ليس معنا احد وانى سالك عن الرجل يقصد، رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فاصدقنى هل جربتم عليه كذبا؟ قال: لا والله ما

جربنا عليه كذبا قط بل وكنا نلقبه بالصادق الامين اذن فماذا؟ قال: تنافسنا نحن وبنى عبد مناف الشرف فى الجاهلية فاطعموا الحجيج فأطعمنا، وسقوا فسقينا حتى تحاذينا فى الركب قال:وا منا نبي، فلن نؤمن لنبيهم. قال: اذن هو الجحود يا ابا الحكم، قال: نعم

وفى هذا قال تعالى: (إنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وبهذا يكون قد وضح لنا بان الله تعالى إلى لم يظلمهم ولكنهم ظلموا انفسهم وعاشوا على الكفر وماتوا وهم كفار

شبهة وجوابها: سورة البقرة حكمت على بعض الناس بانهم لن يؤمنوا، ولكن اهل مكة أسلموا يوم الفتح، وغيرهم بايع النبي الأكرم عام الوفود

هذا هو السؤال الثانى للملحدين ويتعلق بالآية فى سورة البقرة وهى اول سورة نزلت بالمدينة وقد حكمت على بعض الناس بانهم لن يؤمنوا ولكن راينا اهل مكة اسلموا يوم الفتح والجزيرة معظمها بايع الرسول صلى الله عليه وسلم فى عام الوفود.

وبعد الاجابة والتوضيح فى السؤال الاول يتضح ان الكافرين فى الاية هم من عاشوا على الكفر وماتوا عليه، اما من ابصر الحقيقة واستجاب لله وللرسول ونفع معه انذار الرسول وتحذيره لهم، ودخل الايمان قلبه فلم يصبح كافرا، وبالتالي فلا خلاف ولا تناقض بين الآية وبين الواقع

المنافقون وأوصافهم

وبعدما وضحت الآيات أوصاف الكافرين انتقلت بنا لتوضيح صفات الصنف الثالث وهم المنافقون فقال تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) }

أمثلة الوجوه والنظائر في سورة البقرة

وكلمة الناس هى من" الوجوه والنظائر" بمعنى أن تكون الكلمة الواحدة قد ذكرت في مواضع متفرقة من القرآن العظيم على لفظ واحد وحركة واحدة، ولكن يراد بها في كل مكان ذكرت فيه معنى يخالف معناها في المكان الآخر. فكل كلمة ذكرت في موضع وذكر نظيرها في موضع آخر هو ما يعرف أو يسمى بالنظائر.

أما تفسير الكلمة بمعانيها المختلفة فهو ما يعرف أو ما يسمى بالوجوه. وبناءً على هذا، يكون المراد بالنظائر إنما هو اسم للألفاظ، ويكون المراد بالوجوه إنما هو اسم للمعاني.

فأحيانا تذكر كلمة الناس: وتعني جميع الناس أي البشر جميعا:

كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [الحجرات: ١٣].

وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) [البقرة: ٢١].

وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) [الحج: ١].

وقوله تعالى (لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) [غافر: ٥٧].

وقد تذكر كلمة الناس وتعني عدداً محدوداً من الناس:

(الَّذِينَ قال: لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً) [آل عمران: ١٧٣]. فالذين هنا هم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم الذين خرجوا معه صبيحة غزوة احد لملاقاة المشركين فيما يعرف بغزوة حمراء الاسد،

و الناس هنا هم المنافقون فى المدينة يخوفون المسلمين من المشركين، الناس المقصود بهم ابو سفيان ومن معه من مشركى مكة

وقد تذكر كلمة الناس وتعني المؤمنين من الناس:

كما فى قوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [البقرة: ١٦١]. وقوله تعالى (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً) [آل عمران: ٩٧].

وقد تذكر كلمة الناس وتعني الكافرين من الناس:

كما فى قوله تعالى (فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) [البقرة: ٢٤].

وقد تذكر كلمة الناس وتعني أهل مصر خاصة:

كما فى قوله تعالى (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) [يوسف: ٤٩]. وكان ذلك تأويل يوسف لرؤيا ملك مصر.

وعليه فان، الناس هنا فى الآية تعني جماعة المسلمين فى المدينة فمنهم جماعة قليلة اظهرت الاسلام وابطنت الكفر ولان الايمان محله القلب ولايطلع على القلوب الا الله وحده، فاطلع الله تعالى على قلوبهم فوجدها خاليه من الايمان فكشف امرهم دون ان يعلم احد بأسمائهم لعلهم يرتدعوا او يتوبوا او يخشون من فضيحة امرهم وهذا التصرف يسميه القران النفاق ويسمى اصحابه، المنافقون،

أنواع النفاق

والنفاق: أنواع:

اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار،

وعملي وهو من أكبر الذنوب،

وهذا كما قال: ابن جريج: المنافق يخالف قَوْلُه فِعْلَهُ، وسِرّه علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مَغِيبه.

سبب نزول صفات المنافقين في السّور المدنية

وإنما نزلت صفات المنافقين في السّور المدنية ؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلاف النفاق وهو، من الناس من كان يظهر الكفر مُسْتَكْرَها، وهو في الباطن مؤمن، فلمَّا هاجر رسول الله إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام، على طريقة مشركي العرب،

وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قَيْنُقَاع حلفاء الخزرج، وبنو النَّضِير، وبنو قُرَيْظَة حلفاء الأوس، فلمَّا قدم رسول الله المدينة، وأسلم من أسلم

من الأنصار قبيلتي الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سَلام، رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا ؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان، عليه الصلاة والسلام، وَادَعَ اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة،

فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال: عبد الله بن أبيّ بن سلول، وكان رأسا في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال:هذا أمر قد تَوَجَّه فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثمّ وجد النفاق في

أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكـن أحـد يهاجر مكرَهًا، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

قال: محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكْرِمة، أو سعيد بـن جُبَـيْر، عـن ابـن عباس: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُـؤْمِنِينَ } يعـني: المنـافقين مـن الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم.

ولهذا نبَّه الله، سبحانه، على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار، أن يظن بأهل الفجور خَيْر، فقال تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ } أي: يقولون ذلك قولا ليس وراءه شيء آخر،

كما قال تعالى: { إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قال:وا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ } [المنافقون: ١] أي: إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط، لا في نفس الأمر ؛ ولهذا يؤكدون في الشهادة بإن ولام التأكيد في خبرها ؛ كما أكَّدوا قولهم: { آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ } وليس الأمر كذلك، كما أكْذبهم الله في شهادتهم، وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم، بقوله: { وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } [المنافقون: ١]، وبقوله { وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ }

وقوله تعالى: { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا } أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يستطيعون خداع الله تعالى إلى، حاشاه ظنا منهم انهم فعلوها فى الدنيا ومرت، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين،

كما قال تعالى: { يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ } [المجادلة: ١٨] ؛

ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: { وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } يقول: وما يَغُرُّون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم،

كما قال تعالى: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } [النساء: ١٤٢].

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

كيف يكون المنافق مخادعاً لله وللمؤمنين برغم أنه لايُظهِر نفاقه

قال: ابن جرير: فإن قال: قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعًا، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟ قيل: لا تمتنع العرب أن تسمي من أعطى بلسانه غير الذي في ضميره تقية، لينجو مما هو له خائف مخادعا، فكذلك المنافق، سمي مخادعا لله وللمؤمنين، بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية، مما تخلص به من القتل، او الاسر والعذاب العاجل، وهو لغير ما أظهر، مستبطن، وذلك من فعلِه - وإن كان خداعًا للمؤمنين في عاجل الدنيا - فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يُظْهِر لها بفعله ذلك بها أنَّه يعطيها أمنيّتها، ويُسقيها كأس سرورها، وهو موردها حياض عطبها، ومُجرّعها بها كأس عذابها، ومُزيرُها من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبَلَ لها به، فذلك خديعته نفسه، ظنًا منه - مع إساءته إليها في أمر معادها - أنه إليها محسن،

كما قال تعالى: { وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ } إعلامًا منه عِبَادَه المؤمنين أنّ المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسْخَاطهم عليها ربهم بكفرهم، وشكهم وتكذيبهم، غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون

وقال: ابن أبي حاتم: أنبأنا عليّ بن المبارك، فيما كتب إليّ، حدثنا زيد بن المبارك، حدثنا محمد بن ثور، عن ابن جُرَيْج، في قوله تعالى: { يُخَادِعُونَ اللَّهَ } قال:يظهرون" لا إله إلا الله" يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم، وفي أنفسهم غير ذلك.

وقال: سعيد، عن قتادة: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ }

المنافق: يصدّق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله، يصبح على حال ويمسي على غيره، ويمسي على حال ويصبح على غيره، ويتكفأ تكفأ السفينة كلما هبَّت ريح هبّ معها. وقوله تعالى إلى، يخادعون الله وهو خادعهم،

أساليب المشاكلة في القرآن

بمعنى ان تأتى في القرآن الكريم صفات منسوبة إلى الله تعالى إلى وهو متنزه عنها، و تلك الصفات أتتْ وصفًا لله تعالى إلى من قبيل المشاكلة، وليست منسوبة إليه حقيقة.

-منها المكر: قال: الله تعالى إلى: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ) الأنفال ٣٠

فالمكر عمل ينطوي على خداع واستعمال للحيلة والدهاء والتآمر، وهو التدبير للوقيعة وايذاء المؤمنين بخفاء.

ولان الله ولى المؤمنين ويعلم ما يحيكه لهم المنافقون فى الخفاء فتولى سبحانه الرد عليهم فى الخفاء من وجزاء سيئة سيئة مثلها، فهذا ما يسمى مكر

والله سبحانه وتعالى عن كل ذلك منزه وإنما جاءت الصفتان مسندتان إلى الله من قبيل المشاكلة،

فالمقصود بمكر الله وكيده أنه سيجازي الماكرين من العالمين عقابًا من جنس عملهم وما يستحقونه من العذاب.

-ومنها، السخرية: كقوله تعالى: (فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ)التوبة ٧٩

فالله سبحانه وتعالى يستحيل أن تصدر منه صفة السخرية، وهو سبحانه الذى نهانا عن ذلك فى قوله تعالى إلى، يا ايها الذين ءامنوا لا يسخر قوم من قوم عسي۔ ان يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسي ان يكن خيرا منهن. وجزاء الساخرين منه عز وجل بما يناسب عملهم الشنيع يعتبر عدلا وردعا لهم، وإنما وصف هذا الجزاء بالسخرية لوقوعه في صحبة سخر الساخرين.

-ومنها الخداع: (يخادعون الله وهو خادعهم) البقرة١٤٢)، وهو خادعهم أي يجازيهم على خِداعهم

- ومنها الكيد: قال الله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا. وَأَكِيدُ كَيْدًا)الطارق ١٥- ١٧

-ومنها النسيان: قال الله تعالى: نسوا الله فنسيهم)التوبة٦٧

فنسيهم معناه تركهم في العذاب إن إسناد صفة النسيان إلى الله في الآية من قبيل المشاكلة لأن الله سبحانه وتعالىمنزه عن هذه الصفة قال: الله تعالى إلى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)مريم ٦٤

فليس المقصود من هذه الآيات، وصفه سبحانه بالخداع والمكر و الكيد و النسيان، فالله سبحانه منزه عن مثل هذه الصفات وما شابهها، وإنما الآيات جاءت على أسلوب المشاكلة والمقابلة والمجاراة، وهو أسلوب معهود في كلام العرب، بحيث يذكرون الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته. أن اللفظ يشبه اللفظ وأنه جاء من قبيل الجزاء من جنس العمل. فهو في جهة الله تسمية العقوبة باسم الذنب فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) }

قال: السدي، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرّة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية: { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } قال:شَكٌّ، { فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } قال:شكًّا.

وقال: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ } قال:هذا مرض في الدين، وليس مرضًا في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخلهم في الإسلام { فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا }، قال:زادهم رجسًا، وقرأ: { فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ } [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]

قال:شرًا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم. وهو الجزاء من جنس العمل، وكذلك قاله الأولون، وهو نظير قوله تعالى أيضًا: { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد: ١٧].

وقوله" فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ" المراد بالمرض هنا: مرض الشك، والشبهات، والنفاق.

وذلك أن القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية.فالكفر والنفاق، والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات.

والزنا، ومحبة الفواحش والمعاصي وفعلها، من مرض الشهوات.

كما قال تعالى: " فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ" وهو شهوة الزنا.

والمعافي، من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فرفل في أثواب العافية. وفي قوله عن المنافقين" فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا" بيان لحكمتهتعالى إلى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوبتها كما قال تعالى: .

" وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ" .

وقال تعالى: " فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ" .

وقال تعالى: " وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ" .

فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها.

قال تعالى: " وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى"

ويؤكد هذا قول الله تعالى : (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}،

إلا من أتى الله بقلب سليم، كناية عن أنّه لن ينجو من العذاب يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم، وقال: المفسّرون إنّ المقصود بالقلب السليم هو السالم من دنس الشّرك، وقيل إنّ المقصود بالقلب السليم هو الذي يوقن أنّ الله حقّ وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وكذلك يؤمن أنّ الله سيبعث الأموات إلى يوم الحساب يوم القيامة،

وقيل إنّ القلب السليم هو قلب المؤمنين لأنّ الله -تعالى- وصف الكافرين والمنافقين أنّ في قلوبهم مرض ، وقال: بعض السلف إنّ المقصود بالقلب السليم هو السليم من الشرك؛ لأنّ الذنوب لا يسلم منها أحد، وقال: الإمام القرطبي إنّ هذا القول عليه أكثر المفسّرين، ونقل الإمام القرطبي عن الحسن البصري أنّه قال: إنّ المقصود بالقلب السليم هنا هو السليم من آفة المال والبنين،

ومن لطائف التفسير ما روي عن الإمام الجنيد أنّه قال: إنّ السّليم في اللغة هو اللديغ، فكأنه تعالى إلى يقصد أن يكون قلب المؤمن كاللديغ خوفًا من الله تعالى إلى، وروي عن الضحّاك بن مزاحم الهلالي إمام التفسير أنّه قال: إنّ القلب السليم هو الخالص، ورأى الإمام القرطبي أنّ هذا القول يجمع أشتات الأقوال السابقة؛ فهو الخالص من الأوصاف الذميمة المتّصف بالأوصاف الحسنة

، وقال: بعض المفسّرين إنّ القلب السليم يشبه وصفًا ورد في حديث رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أنّه قال:"يَدْخُلُ الجَنَّةَ أقْوامٌ، أفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أفْئِدَةِ الطَّيْرِ" ، فكأنّ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- أراد أنّ يقول إنّ هؤلاء القوم قلوبهم خالية من كلّ ذنب، والله اعلم

الحكمة من امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم

وقوله { بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ }، وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة يكذبون بالحق يجمعون بين هذا وهذا. وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه، عليه الصلاة والسلام، عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم،

وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت في الصحيحين: أنه قال: لعمر:" أكره أن يتحدث العرب أن محمدًا يقتل أصحابه" ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر، فإنهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمدًا يقتل أصحابه،

وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي إسماعيل والأبهري وابن الماجشون. ومنها: ما قال: مالك، رحمه الله: إنما كف رسول الله عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه.

قال: القرطبي: وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه،

وإن اختلفوا في سائر الأحكام، قال:ومنها ما قال: الشافعي: إنما منع رسول الله من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم ؛ لأن ما يظهرونه يجبّ ما قبله.

ويؤيد هذا قوله، عليه الصلاة والسلام، في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما:" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قال:وها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله، عز وجل" ومعنى هذا: أن من قال:ها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهرًا، فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار. الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه في الآخرة جريان الحكم عليه في الدنيا، وكونه كان

خليط أهل الإيمان ففى يوم القيامة { يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قال:وا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ } الآية [الحديد: ١٤]،

فهم يخالطونهم في بعض المحشر، فإذا عرف كل امرئ جزاء عمله تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم { وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ } [سبأ: ٥٤]

ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث، ومنها ما قال:ه بعضهم: أنه إنما لم يقتلهم لأنه كان يخاف من شرهم مع وجوده، عليه الصلاة والسلام، بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبينات

(تنبيه) قول من قال:كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقًا في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله في ظلماء الليل عند عقبة فى عودتهم من تبوك هناك ؛ عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله إليه أمرهم فأطلع على ذلك حذيفة. ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم.

فأما غير هؤلاء فقد قال تعالى: { وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِن الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاتعالىلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ } الآية

وقال تعالى: { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا }

ففيها دليل على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كانت تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى: { وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ }

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قال:وا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)

تنوعت أقوال المفسرين في المقصود بالآيتين، فبعضهم قال: هم المنافقون في عصر النبي صلى الله عليه وسلم، وبعض آخر قال: إن أصحابها لم يأتوا بعد، بل سيكونون في المستقبل. وجمع بعض ثالث بين القولين، بأن المقصود بهاتين الآيتين هم المنافقون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ومن سيكون مثلهم في المستقبل؛ نفاقاً أو إفساداً فيالأرض،

وحول طبيعة الفساد الذي يقوم به المنافقون، تنوعت عبارات المفسرين بين: الكفر والمعصية، أو اعتبارهم المعصية هداية حين ينكر عليهم المصلحون، أو نصرة الكفار وموالاتهم على المؤمنين. وذلك أنه بالطاعة؛ من الصلاة والصوم والتجارة الحلال والزواج الصحيح والصدق والأمانة والتعاون والتسامح والعدل ورفع الظلم ورعاية المخلوقات والحفاظ على البيئة وبقية الطاعات، يعمر الكون.

وبضد ذلك؛ من الكفر والمعصية والظلم والربا والزنا والجشع والطمع والقتل والعدوان والأنانية والعدوان، يهلك الكون ويدمر، وتحدث الحروب العالمية، ويُستعبد ملايين البشر طمعا بالثروات، وتشيع الأمراض القاتلة، وتضطرب الأحوال البيئية،

والاخطر من ذلك ان يرافق هذ الكفر وارتكاب المعاصي، رفض النصيحة والتذكير من أهل الخير والإيمان. ويصر أهل الفساد على تبرير معاصيهم بأنها

" إصلاح" ، ولا يجدون عندها لهم سندا في وجه تذكير ونصيحة أهل الإيمان إلا مظاهرة ومساندة أهل الكفر والطغيان.

بطلان ادعاء المفسدين بأنهم مصلحين

أما تفسير دعوى المفسدين بأنهم مصلحون، فهو يدور بين ثلاثة معانٍ:

ينكرون حقيقة إفسادهم نتيجة نفاق قلوبهم، أو اعتبار علاقتهم بالكفار ضد المؤمنين من الإصلاح، أو زعمهم أنهم ساعون بالصلح بين المؤمنين والكفار.

ولكن الله عز وجل كذبهم وكشف الحقيقة فقال تعالى: :" أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ" ، بالكفر والمعصية وموالاة الكفار ظلماً وعدواناً؛" وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ" أن فسادهم مكشوف مفضوح عند الله عز وجل وعند رسوله وعند المؤمنين، أو لا يشعرون أن ذلك من الفساد لجهلهم وتفريطهم في معرفة الحق والصلاح. فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم وتضييعهم فرائضه، وشكّهم في دينه الذي لا يُقْبَلُ من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا. فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها

لان من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ } [الأنفال: ٧٣]

فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا } [النساء: ١٤٤] ثم قال:{ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا } [النساء: ١٤٥]

فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين، فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل؛ لأنه هو الذي غَرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له، وو إلى الكافرين على المؤمنين، ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح ؛ ولهذا قال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قال:وا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ }

أي: حين كان يراهم المؤمنون يوالون اليهود ويساعدونهم ويتعاونون ويتعاملون معهم فيعاتبونهم قائلين لهم، لاتفسدوا فى الارض لان مولاة الكفار واليهود فساد فى الارض لانهم بهذا يثبتون للكفار انهم على حق وانهم شاكون فى الاسلام الا انهم ساعتها من فجرهم وكفرهم التصرف، نريد أن نداري الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء، كما قال: محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قال:وا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ } أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب. يقول الله: { أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ } يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قالوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣). وإذا قيل للمنافقين: { آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ } أي: كإيمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنَّة والنَّار وغير ذلك، مما أخبر المؤمنين به وعنه، وأطيعوا الله ورسوله في امتثال الأوامر وترك الزواجر { قال:وا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ }

يعنون - لعنهم الله - أصحابَ رسول الله، رضي الله عنهم، قال:ه أبو العالية والسدي في تفسيره، بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة، وبه يقول الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، يقولون: أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء!!

وإنما قيل لهم هذا القول؛ لأن إيمانهم كان مجرد دعوى، وقول بلا عمل، وهم يعلمون ذلك من أنفسِهم؛ ولهذا لم يُنكِروا ذلك، بل قال:وا إقرارًا منهم، وأنفة أن يكونوا مع المؤمنين بمنزلة واحدة، وعلى طريقة واحدة: (أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) والسفهاء: جمع سفيه، وهو من لا يُحسِن التصرف، والسفهُ ضد الرشد والعقل، والسفه قد يكون في الدِّين، كما قال تعالى: (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) [البقرة: ١٣٠]،

وقال تعالى: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ) [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا اولادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) [الأنعام: ١٤٠]، وقال:ت الجن فيما حكى الله عنهم: (وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا) [الجن: ٤].

كما قد يكون السفه في المال؛ فالسفيه في المال من لا يحسن التصرف فيه، ولا يعرف وجوهَ المصالح فيه، كما قال تعالى: (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) [النساء: ٥].

وقد يكون السفه في الولاية، فالسفيه في الولاية من لا يحسن التصرف فيها، سواء كانت من الولايات العامة، أو الولايات الخاصة. ومراد المنافقين في قولهم: (أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ) رميُ الصحابة وغيرِهم من المؤمنين. بالسفه في الدِّين، الذي هو أعظم أنواع السفه؛ ولهذا ردَّ الله عز وجل عليهم بقوله: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ)

وهذا دأب المكذِّبين ودعاة الباطل؛ يصفون أهل الحق ومن يدعوهم إلى الله من الرسل وغيرهم، ويرمونهم بأبشع الصفات؛ لينفِّروا الناس منهم ومن اتباعهم، فيرمونهم بالسفه والجنون والسِّحر والكهانة والشِّعر وغير ذلك، كما قال تعالى: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قال:وا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) [الذاريات: ٥٢]،

وقال تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا له: (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) [الشعراء: ١١١]، وقال:وا أيضًا: (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) [هود: ٢٧]

(أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ)[البقرة: ١٣]. أكَّد عز وجل في هذه الآية السفهَ وحصَرَه فيهم، كما أكَّد وحصر الإفساد فيهم بقوله: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ) [البقرة: ١٢].فهم السفهاء حقًّا؛ لأنهم كفروا بالله وكذَّبوا بما جاءهم من الحق؛ مما يدل على جهلهم بمصالح أنفسهم، وسعيِهم فيما يضرُّها، وهذا هو عين السفه، وفي هذا ردٌّ عليهم ودفاع عن المؤمنين،

(وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) أي: لا يعلمون العلم الذي ينتفعون به، ولا يعلمون أنهم هم السفهاء؛ لعمى قلوبهم، وانطماس بصائرهم، وجهلهم المطبق. وقال: هنا: (وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) فنفى عنهم العلم؛ لأن السفه والجهل أمرٌ معنوي، بينما قال: في الآية السابقة: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) [البقرة: ١٢]؛ لأن الإفساد في الأرض أمرٌ حسي يُدرَك بالحواس.

فبسبب ضعف إدراكهم، وموت حواسّهم، وجهلهم المطبق، وعدم علمهم، وانطماس بصائرهم؛ يدَّعون الإيمان وهم كاذبون، ويخدعون أنفسهم وما يشعرون، ويُفسِدون في الأرض ويزعمون أنهم مصلحون، وهم في الحقيقة هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ويَرْمون المؤمنين بأنهم السفهاء، وهم في الحقيقة هم السفهاء.{ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ } يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل، وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى، والبعد عن الهدى.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قال:وا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قال:وا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) ما زال الحديث متصلاً بهذه الآيات التي تحدثت عن المنافقين في صدر هذه السورة الكريمة، والتى بينت صفاتهم انهم كاذبون وغير مؤمنين، كما انهم مفسدون فى الارض بمعصيتهم لله ولرسوله، وهذا لان قلوبهم مريضة بالشك والحقد مما ظهر فى تصرفاتهم وعلى السنتهم مصداقا لقول ربنا جل وعلا، قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفى صدورهم اكبر،

وما كانوا يخفونه فى قلوبهم وظهر من فلتات السنتهم ما اظهره الله تعالى إلى لنبيه وللمسلمين بقوله تعالى إلى حاكيا عنهم، وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قال:وا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ قال:وا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ

فهؤلاء إذا قابلوا أهل الإيمان قال:وا آمنا، يُخبرون عن إيمان لا حقيقة له، لكنهم إذا رجعوا إلى شياطينهم من مردة الكفار أكدوا لهم أنهم ما زالوا على غيهم وضلالهم وكفرهم، وإنما كانوا يقولون ما قال:وا سُخرية واستهزاء بأهل الإيمان إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ.

فحين خاطبوا أهل الإيمان قال:وا آَمَنَّا، دون توكيد خشية ان يلتفت المؤمنون وينتبهوا لتأكيدهم وحينما خاطبوا إخوانهم من هؤلاء المردة والشياطين من الكفار قال:وا.، إِنَّا مَعَكُمْ

بتأكيد الكلام بقولهم انا معكم مع ان الامر كان يقتضى خلاف ذلك لان الشك فيهم انما من المؤمنين ولكن احتاجوا ان يؤكدوا لإخوانهم الشياطين لانهم وهم يخاطبون اهل الايمان او يخالطوهم

فهم يظهرون بصورة أهل الإيمان بطريقة لربما تجعل إخوانهم من المردة والشياطين يتصورون أنهم فعلاً دخلوا في الإيمان، فاحتاجوا إلى أن يؤكدوا لهم أنهم إنما يفعلون ذلك سُخرية واستهزاء، ويقولون: اطمئنوا نحن نستهزئ فقط، وإلا فإننا معكم أكدوا لهم؛ لأن هؤلاء دخلهم الريب حينما رأوا هذا التمكن في التمثيل وقولهم،" آمنا" ،للمؤمنين هى من الفعل الماضى امن مما يدل على قصر مدة ايمانهم بخلاف

قولهم" إنا معكم" ، هكذا بالجملة الاسمية مما يدل على الثبوت فدل ذلك على أن هذا الإيمان المُدعى قصير المدى، أما الكفر فهو الأصل الثابت المُتجذر في نفوسهم، إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ.

مما يدل على ان ركونهم إلى هؤلاء الشياطين دائم مستمر، فهو راسخ في نفوسهم، إِنَّا مَعَكُمْ يعني: في كل شيء على الكفر والمُحادة لله -تبارك وتعالى- وعداوة أهل الإيمان،

وقولهم، انما نحن مستهزؤون، الاستهزاء بمثل هذه القضايا لا شك أنه يُنبئ عن نفس قد مُلئت بالخُبث والسوء والفساد، وانطوت على الشر والعِناد،

فهو يستهزئ بهذه الحقائق الكبرى، قضية الإيمان التي تنبني عليها النجاة؛ ولهذا رد الله -تبارك وتعالى- عليهم بقوله: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ فالجزاء من جنس العمل وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون

- فمن استهزائه بهم -تبارك وتعالى: أن الله يُمهلهم، ويُعطيهم، الأموال والاولاد، ويمد لهم في الأعمار، ويظنون أن هذا من المِنح والفضائل، ولم يعلموا أن ذلك هو من قبيل الاستدراك ليزدادوا كفرًا وغيًا، فيزدادوا من الأحمال والأوزار التي يستحقون بها الدرك الأسفل من النار بكل جدارة.

فالمنافقون كما قال: الله -تبارك وتعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ [سورة النساء:١٤٥] فهم في قعرها، فالله -تبارك وتعالى- يُملي لهم، ويُجري عليهم أحكام الظاهر في الدنيا، فتُحقن دمائهم وتُحرز أموالهم، ثم بعد ذلك يصيرون إلى عذاب الله -تبارك وتعالى- وبئس المصير.

هذا بالإضافة إلى ما يقع لهم في هذه الحياة الدنيا، وقد صور الله -تبارك وتعالى- حالهم، وما هم فيه من القلق الدائم والخوف المُستمر، كما قال: الله تعالى: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ [سورة المنافقون:٤]

فهم لأنهم يعيشون على الكذب، ويقتاتون على الكذب يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ [سورة المنافقون:٤]. فهم قلقون دائمًا، فالذي لا يعيش على الصدق يكون في حال من القلق؛ لأنه يشعر أنه سيُكشف في كل لحظة. فهم يعيشون في خوف مُستمر، والخائف يظن كل نداء يوجه وخطاب، أو آيات تنزل أنها تنزل فيه، وأن هذا النداء، أو الحشد إنما يوجه إليه يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ [سورة المنافقون:٤]

فهؤلاء بهذه الحال في الدنيا، ثم يموت شر ميتة، لا مكارم، ولا فضائل، ولا إنجازات، ولا أعمال صالحة، ولا إيمان، ثم بعد ذلك يصيرون إلى حال في البرزخ لا يُحسدون عليها، ولا يُحمدون، ثم يصيرون بعد ذلك إلى ما وصف الله -تبارك وتعالى- في القيامة حيث ينطفئ النور، ويتخبطون دون الصراط، في ظلمة لا يُبصرون معها شيئًا،

فيقولون لأهل الإيمان: انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ [سورة الحديد:١٣، ١٤] يعني: في الدنيا، انتظروا نقتبس من هذا النور، فهذا من استهزاء الله -تبارك وتعالى- بهم.

المشاكلات اللفظية في سورة البقرة

(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ [سورة البقرة:١٥] وهذا فيه إثبات صفة الاستهزاء لله -تبارك وتعالى- على ما يليق بجلاله وعظمته، وهي من المشاكلات اللفظية التى تحدثنا عنها والتى يتطلبها المقال: ويقتضيها فدل ذلك أيضًا على أن الاستهزاء بالمُستهزئ الذي يستهزئ بأهل الحق لا يُعاب، الأصل أن الاستهزاء لا يُحمد هكذا بإطلاق، ولكنه إذا كان بمن يستحق بذلك المُستهزئ المُستهتر، فإنه يكون محمودًا.

مع العلم بان المستهزئ الاول اظلم لانه البادئ بالاستهزاء اما من يرد عليه فانما هو القضاء والعدل فى ان يعامل بالمثل. فـ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ولاحظ أنه جاء بالفعل المضارع يستهزئ، هم يقولون إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ.

فاستهزاؤه -تبارك وتعالى- يتجدد بهؤلاء وقتًا بعد وقت وحينًا بعد حين، فالله يُرسل عليهم من ألوان العقوبات في الدنيا والآخرة ما يكون من مُقتضيات هذا الاستهزاء، كما قلنا مما يحصل لهم في الدنيا من المخاوف والمصائب.

وكذلك أيضًا ما يحصل لهم في الآخرة من انطفاء النور، ثم بعد ذلك يصيرون إلى الدرك الأسفل من النار. وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [سورة البقرة:١٥] يعني: كما قال: الله تعالى: وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [سورة الأعراف:١٨٣]

فهؤلاء حينما يُعطيهم الله من طول الأعمار ويوسع عليهم في الأرزاق، ويُكثر لهم من الاولاد؛ فإن ذلك يزيدهم غيًا وضلالاً وكُفرًا فيستمرئون ما هم عليه، ويظنون أن ذلك هو الطريق والمسلك الصحيح، فيموتون على هذه الحال السيئة، ولا يرجعون، ولا يرعوون، أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ [سورة المؤمنون:٥٥، ٥٦].

وهنا سؤال للملحدين : (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون).

يتساءلون، إذا كان رد المنافقين في وجه المؤمنين الذين يدعونهم إلى الإسلام هكذا، فكيف في الآية التي تجيء بعدها، وهي الآية رقم: (١٤) التي تقول (وإذا لقوا الذين آمنوا قال:وا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قال:وا إنا معكم إنما نحن مستهزئون).

فكيف يقولون في وجه المؤمنين أنهم مؤمنون معهم، وهم أظهروا أنهم كافرون في الآية رقم: (١٣) فكيف يكونون منافقين، وهم أظهروا وقال:وا أنؤمن كما آمن السفهاء؟

والجواب قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قال:وا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ، ليس فيه إظهار المنافقين لسرائرهم، وما خفي من أحوالهم للمسلمين، لأن هذا إنما

كـانوا يقولونـه فيمـا بيـنهم فـي الخفـاء، أو عنـد مـن لا يفشي- سرهـم مـن المسـلمين، أو يقولون عند المسلمين ما يقتضيه دون تصريح به.

قال: ابن عطية في المحرر الوجيز: هذا القول إنما كانوا يقولونه في خفاء، فأطلع الله عليه نبيه والمؤمنين. وكذلك قال: البغوي والقرطبي والخازن وغيرهم من المفسرين.

وقال: الواحدي في «التفسير البسيط»: إن قيل: كيف يصح النفاق مع المجاهرة بقولهم: {أنؤمن كما آمن السفهاء}؟ قيل: إنهم كانوا يظهرون هذا القول فيما بينهم، لا عند المؤمنين؛ لأن الله تعالى إلى قد قال:{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قال:وا آمَنَّا} أو أنهم لم يفصحوا بهذا القول، وإنما أتوا بما يفهم عنهم به هذا المعنى، ولا يقوم به حجة توجب الحكم من جهة المشاهدة، كقوله تعالى: {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [محمد: ٣٠]، وهو خلاف الإفصاح.

وقال: الرازي في مفاتيح الغيب: القائل: {آمنوا كما آمن الناس} إما الرسول أو المؤمنون، ثم كان بعضهم يقول لبعض: أنؤمن كما آمن سفيه بني فلان، وسفيه بني فلان، والرسول لا يعرف ذلك. وقال: الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: ليس في هاته الآية دليل على حكم الزنديق إذا ظهر عليه وعرفت زندقته، إثباتا ولا نفيا؛ لأن القائلين لهم آمنوا كما آمن الناس هم من أقاربهم أو خاصتهم من المؤمنين الذين لم يفشوا أمرهم. فليس في الآية دليل على ظهور نفاقهم للرسول بوجه معتاد، ولكنه شيء أطلع عليه نبيه صلى الله عليه وسلم، وكانت المصلحة في ستره، وقد اطلع بعض المؤمنين عليه بمخالطتهم وعلموا من النبيء -صلى الله عليه وسلم- الإعراض عن إذاعة ذلك. (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)

هل الضلالة تُشترى

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى) قال: أبو جعفر الطبري ما مختصره: وعن ابن عباس وابن مسعود فى قوله تعالى: (اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى):اى أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. وذلك أن كل كافر بالله فإنه مستبدل بالإيمان كفرًا، باكتسابه الكفرَ الذي وُجد منه، بدلا من الإيمان الذي أمر به. فالله تعالى إلى يقول فيمن اكتسب كفرًا به مكان الإيمان به وبرسوله: (وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ)

وذلك هو معنى الشراء، لأن كلّ مشترٍ شيئًا فإنما يستبدل مكانَ الذي يُؤخذ منه من البدل آخرَ بديلا منه. فكذلك المنافقُ والكافر، استبدلا بالهدى الضلالةَ والنفاق، فأضلهما الله، وسلبهما نورَ الهدى، فترك جميعَهم في ظلمات لا يبصرون.

وقال: القرطبي في تفسيره:" واشتروا: من الشراء. والشراء هنا مستعار. والمعنى استحبوا الكفر على الايمان، كما قال:(فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى) [فصلت: ١٧] فعبر عنه بالشراء، لان الشراء إنما يكون فيما يحبه مشتريه. فأما أن يكون معنى شراء المعاوضة فلا، لان المنافقين لم يكونوا مؤمنين فيبيعون إيمانهم.

وقال: ابن عباس: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى. ومعناه استبدلوا واختاروا الكفر على الايمان. وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسعا، لان الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال، والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئا بشيء ولفظ (ضلل) وما اشتق منه ورد في القرآن في واحد وتسعين ومائة موضع (١٩١). ورد منه بصيغة الفعل في سبعة عشر ومائة موضع (١١٧)

منها قوله عز وجل: {ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل} (البقرة:١٠٨) وورد منها بصيغة الاسم في أربعة وسبعين موضعاً (٧٤) منها قوله سبحانه: {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال} (الرعد:١٤).

معاني الضلال في القرآن الكريم

ولفظ (ضلل) وما اشتق منه ورد في القرآن على عدة معان، نذكر منها:

اولا:: الضلال الذي هو ضد الهدى، من ذلك قوله تعالى: {ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا} (الأنعام:١٢٥).

ثانيا:، الضلال بمعنى الصد عن الهدى، من ذلك قوله سبحانه: {ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام} (الأنعام:١١٩)

ثالثا:: الضلال بمعنى الخسران، من ذلك قوله تبارك وتعالى: {وما كيد الكافرين إلا في ضلال} (غافر:٢٥)

رابعا: الضلال بمعنى الذهاب عن الحق، من ذلك قوله سبحانه: {ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير} (الملك:٩) خامسا:، الضلال بمعنى إحباط العمل وإبطاله، من ذلك قوله سبحانه: {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم} (محمد:١)

سادسا: الضلال بمعنى الخطأ، من ذلك قوله سبحانه: {فلما رأوها قال:وا إنا لضالون} (القلم:٢٦) يعني: أخطأنا الطريق إلى البستان. ونحوه قوله عز وجل: {يبين الله لكم أن تضلوا} (النساء:١٧٦) أي: لئلا تجوروا عن الحق في ذلك، وتخطئوا الحكم فيه،

سابعا، الضلال بمعنى النسيان، وذلك قوله سبحانه في آية المداينة: {أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى} (البقرة:١٨٢) قال: ابن عاشور:" الضلال هنا بمعنى النسيان" .

ثامنا: الضلال بمعنى الهلاك، من ذلك قوله سبحانه: {ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون} (آل عمران: ٦٩).

تاسعا: الضلال بمعنى الجهل، من ذلك قوله تعالى: {قال: فعلتها إذا وأنا من الضالين} (الشعراء:٢٠)

عاشرا:، الضلال بمعنى الغفلة، من ذلك قوله عز وجل: {ووجدك ضالا فهدى} (الضحى:٧) أي: غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك: أي أرشدك. والضلال هنا بمعنى الغفلة. وقال: في حق نبيه: {وإن كنت من قبله لمن الغافلين} (يوسف:٣).

شبهة: كيف يدعو نوح على قومه بالضلالة برغم دعوته لهم بالتوبة والاستغفار

تفسير دعاء نوح عليه السلام على قومه بالضلال مع دعوته لهم بالاستغفار والإيمان بالبعث، فقد دعى عليهم في قوله تعالى: {ولا تزد الظالمين إلا ضلالا} (نوح:٢٤) قال: ابن عاشور:" (الضلال) هنا بديلا وتوضيحا لعدم الاهتداء إلى طرائق المكر، الذي خشي نوح غائلته في قوله: {ومكروا مكرا كبارا} (نوح:٢٢) أي: حل بيننا وبين مكرهم، او امنع بيننا وبين مكرهم، ولا تزدهم إمهالاً في طغيانهم علينا، إلا أن تضللهم عن وسائله...

وليس المراد بـ (الضلال) الضلال عن طريق الحق والتوحيد؛ لأنه ينافي دعوة نوح قومه إلى الاستغفار والإيمان بالبعث، فكيف يسأل الله أن يزيدهم منه" ، قال:"ويجوز أن يكون (الضلال) أُطلق على العذاب، المسبَّب عن الضلال

قوله تعالى: (فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ) أسندتعالى إلى الربح إلى التجارة على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، وقولهم: ليل قائم، ونهار صائم، والمعنى: ربحت وخسرت في بيعك، وقمت في ليلك وصمت في نهارك، أي فما ربحوا في تجارتهم"

(فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) قال: الحافظ ابن كثير في بيانها -رحمه الله-: أي: ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة، (وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) أي: راشدين في صنيعهم ذلك. [وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال، واعتاضوا عن الهدى بالضلالة، وهو معنى قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى}

أي: بذلوا الهدى ثمناً للضلالة، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر، كما قال تعالى: فيهم: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [المنافقون:٣]، أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم؛ فإنهم أنواع وأقسام، ولهذا قال تعالى: {فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} [البقرة:١٦]].

أقسام المنافقون

المنافقون أقسام:

فمنهم من كان مؤمناً ثم ارتد

ومنهم من كان عنده إيمان ضعيف يأتي مرة ويذهب أخرى

ومنهم من عنده شك وتردد وريب

ومنهم من هو كافر ثابت على الكفر، نسأل الله السلامة والعافية.

{وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} أي: راشدين في صنيعهم ذلك. وقال: ابن جرير: حدثنا بشير حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة: {فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} قد -والله- رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

فالله -تبارك وتعالى- يذكر فيها أوصاف المنافقين، وبعد أن تم ذكر تلك الأوصاف، بين الله -تبارك وتعالى- حقيقة الحال التي اختاروها لأنفسهم، وأن هؤلاء الذين كانوا يعتقدون أنهم على شيء من الحصافة والفِطنة، وأن أهل الإيمان هم السفهاء فقال:وا، أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُون،

فالله -تبارك وتعالى- يقول عنهم هنا: أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ). هؤلاء أهل النفاق باعوا أنفسهم في صفقة خاسرة، فاختاروا الكفر، وتركوا الإيمان، فكانت صفقتهم في غاية الخسارة والغبن، وهذا هو الخُسران الحقيقي، وهؤلاء أبعد ما يكون الواحد منهم عن الاهتداء، وهذه حاله.

تأمل قول الله -تبارك وتعالى: (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى) جاء هنا بالإشارة إلى البعيد؛ لبُعد. حال هؤلاء عن الهدى؛ لأنهم في منزلة من السفول والانحطاط سحيقة، فجاءت الإشارة بذلك، كما يقول بعض أهل العلم، والعلم عند الله تعالى إلى.

ثم تأمل كيف عبّر عن هذه الحال بأنهم، اشتروا، فالله -تبارك وتعالى- قد سمى المُعاملة معه تجارة، فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، [سورة الصف:١٠]

وسمى ذلك بيعًا، (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ) [سورة التوبة:١١١]

وسماه تجارة، وسماه شراء، (اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى) [سورة البقرة:١٦]

وكذلك أيضًا سمى الخسارة في هذه المعاملة سماها خسارة، وسمى يوم الجزاء والحساب: بيوم التغابن، والغبن في الأصل إنما يكون في البيع والشراء ونحوهما.

فهؤلاء كانوا في غاية الغبن؛ وذلك أن ربنا -تبارك وتعالى- أعطى كل واحد رأس مال، هذه الأنفاس، هذا العمر ليتجر مع ربه -تبارك وتعالى- بالأعمال الصالحة،

فهؤلاء جدوا واجتهدوا في تحصيل المنازل، في الدرك الأسفل من النار، أما أهل الإيمان جدوا واجتهدوا في تحصيل المنازل العالية في الجنة، فدخل أهل الإيمان الجنة، وأيضًا أورثهم الله -تبارك وتعالى- منازل أهل النار التي في الجنةو وأولئك أدخلهم الله النار، وأورثهم أيضًا منازل أهل الجنة التي في النار.فهذا لا شك أنه غاية في الغبن،

كيف تكون رغبة أهل النفاق في الضلالة رغبة المشتري للسلعة

فهؤلاء أهل النفاق رغبوا في الضلالة رغبة المشتري للسلعة، الذي يكون من رغبته فيها أنه يبذل فيها الأثمان والأموال، وهذا تصوير لشدة إقبالهم على الضلال والكفر والانحراف، فجعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن،

(اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) ولبعض العلماء رأى اخر فيقولون مع أن هؤلاء لم يكونوا على هدى، فبذلوه مُقابل أخذ الضلالة، ولكن: إن ذلك بتركهم نور الفطرة، فكل مولود يولد على الفطرة، وأحسن من هذا -والله تعالى إلى أعلم- أن يُقال:إن إيثارهم الضلالة على الهدى هو بهذه المثابة (اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى) فهذا الاختيار منهم والإيثار للضلالة هو بمنزلة الاشتراء، وإنما يشتري الإنسان ما يرغب فيه، فهؤلاء فسدت فطرهم وتدنست،

وهنا لفته هامه وهى أن هذه الآية أيضًا تدل على الإنسان قد يتصور أنه على حال من التمام والكمال، والاستقامة في الحال والعمل، ولا يشعر بما هو فيه من الإساءة والضياع، فانظر إلى هؤلاء كيف اشتروا بالضلالة بالهدى؟ ظنًا منهم أنهم على صواب، وأنهم رابحون؛ ولهذا قال: الله -تبارك وتعالى: فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

ومثل هذا التركيب يدل على العموم، ما ربحت بحال من الأحوال، وبصورة من الصور، فهم خاسرون خسارة مُحققة من كل وجه حتى في الدنيا، حيث ظنوا أنهم قد أحرزوا أموالهم، وحقنوا دماءهم، فهم ينغمسون في الضلالة، وهم مُتحققون بالخسارة، وكذلك أيضًا: وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ يعني: بحال من الأحوال.

كيف ينسى الإنسان نفسه

فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين) فهم لم يكونوا على شيء من الاهتداء، لا في هذا الاختيار، ولا فيما هم عليه من الاعتقاد، ومع ذلك يرون أنهم أهل معرفة، وحُسن نظر في الأمور، ويصفون أهل الإيمان بالسفهاء. فهكذا إذا طُمست البصائر يختار الإنسان ما يضره، كما قال: الله -تبارك وتعالى: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ [سورة الحشر:١٩]

وإذا أنسى الله -تبارك وتعالى- العبد نفسه صار إقباله على ما يضره، فيبذل الأموال فيما يكون فيه ضرره المُحقق، ويكون عمله على غير اهتداء، وسعيه في غي، وانظر فيما تراه، وما تُشاهده في هذه الأوقات، وفي غيرها من الأوقات، كيفتعالىمى البصائر؟

ثم ضرب القران الكريم لهم مثلا فقال تعالى: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ) هذا مثل ضربه الله تعالى لهؤلاء المنافقين بعد أن بين حالهم، وما هم فيه من الخسارة المُحققة، وما هم فيه من مُجانبة الاهتداء.

،مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، وهذا من الأمثال الصريحة في القرآن، فإن الأمثال في القرآن منها ما هو صريح مُصرح فيه بلفظ المثل، ومنه ما يُذكر فيه أداة التشبيه، ومنه ما لا يُذكر فيه هذا.

المثل الناري والمثل المائي في سورة البقرة

فهنا صرح الله -تبارك وتعالى- بأن ذلك من قبيل المثل، وهذا المثل هو أحد المثلين الناريين في كتاب الله -تبارك وتعالى- فهذا الذي في سورة البقرة

،مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا،

والمثل المائي هو الذي بعده.

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ،

وذكر المثلين أيضًا المائي والناري

في قوله تعالى إلى : أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا

ثم ذكر المثل الناري بعده وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ [سورة الرعد:١٧]

فالله -تبارك وتعالى- يقول:، مَثَلُهُم. حال هؤلاء الذين أظهروا الإيمان، ولم يكن ذلك في قلوبهم بأنهم بهذه المثابة، كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا،

هذا إنسان في مكان مُظلم، فاستعار نارًا استوقدها، ثم بعد ذلك، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَه

ُ وانتفع بهذه الإضاءة، ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُون فبقوا في الظلام بعد أن انتفعوا بهذا النور شيئًا من الوقت.

تأمل في هذا المثل المضروب لهؤلاء، مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا،" استوقد" السين والتاء للطلب، يعني: كأن هذا قد استعاره من غيره فهو لا يكون نابعًا من داخله وإنما هو شيء اجتلبه، اسْتَوْقَدَ نَارًا فهؤلاء أهل النفاق هم لا يملكون الإيمان، ولم يتحققوا به، وإنما هو شيء ادعوه فهو خارج عن ذواتهم،، اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِم،

ُ لاحظ، ما أضاءت قلوبهم، ونفوسهم، ودواخلهم، وإنما أضاءت ما حوله، فجعل هذا خارجًا عنهم مُنفصلاً عن ذواتهم، ولو اتصل الضوء بهم ولابسهم؛ فإنه يبقى، ويستنير به القلب، ويتحقق بذلك الإيمان، ولكنه ضوء مجاورة لا مُلابسة ومُخالطة، فهو ضوء عارض، والظُلمة أصلية ثابتة في نفوس هؤلاء وقلوبهم.

فلما انكشفت الحقائق رجع الضوء إلى معدنه، والظلمة إلى معدنها (فَذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَات) بقوا على الأصل، انتفعوا بعض الوقت بهذه الدعوى -دعوى الإيمان- فحصل لهم من حقن الدماء وإحراز الأموال، فذهب ذلك النور، وبقيت الظلمة.

وتأمل التنكير في قوله: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا، قد يُفهم من هذا التنكير التعظيم استوقد نارًا عظيمة فانتفع بها، فدعوى الإيمان هذه التي ادعوها هي دعوة كبيرة، لكنها لا تُمثل حقيقة في نفوس هؤلاء.

ثم إن ذلك أيضًا يدل على أن الإيمان له نور، لكن هذا النور لم يكن في نفوس هؤلاء، وإنما كان من حولهم. فإن الإيمان يحصل به استنارة القلب، ويحصل به من المنافع في الحياة الدنيا، وفي البرزخ، وفي القيامة وفي الجنة، ويكفي ما جاء في ذلك من أنه: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال: حبة من خردل من إيمان فهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من الإيمان، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ؛ إِذَا لم يكن ذلك في قلوبهم ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ لاحظ، " استوقد نارا" ثم لم يقل ذهب الله بنارهم

أنواع النور وصوره

قال تعالى: (فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ؛ لم يقل ذهب بضوئهم، وإنما قال:ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِم

° فهذه ثلاثة أشياء:

النار التي استوقدوها،

، والنار فيها الإحراق

، وفيها أيضًا الضياء، فهذا النور الذي يكون معه حرارة يُقال: له ضوء، هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا، [سورة يونس:٥] فهذا النور الذي يكون من الشمس يُقال: له ضياء؛ لأن معه حرارة ولهذا قال: النبي صلى الله عليه وسلم: الصلاة نور... والصبر ضياء، الصبر لما فيه من الحرارة، وأما الصلاة فهي نور، ليس فيها حرارة وجُعلت قُرة عيني في الصلاة

قُرة العين، القُرة البرودة، قرت عينه لانه حينما يفرح الإنسان يحصل له بسبب ذلك شيء من برودة القلب، والجوف، وتكون دموع الفرح باردة، وأما إذا كان الإنسان في حال من الحُزن فإنه يشعر بحرارة في جوفه، وتكون دموع الحُزن ساخنة، بل إنه يجد مع الحُزن السخونة في نفس العين، يجد فيها حرارة.

فهنا اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَت،° أثر هذه النار هو الضوء؛ لأن فيه حرارة، ما الذي ذهب؟

لم تذهب النار، ولم يذهب الضوء، وإنما ذهب النور فقط،

فالنور من غير حرارة ولا إحراق، فذهب النور، وبقيت الحرارة والإحراق -نسأل الله العافية-

انظر إلى حال هؤلاء، وهذا من استهزاء الله -تبارك وتعالى- بهم، يذهب النور، وتبقى الحرارة، لو قال:ذهب الله بضوئهم، فإنه يذهب الحرارة وكذلك أيضًا النور،

لو قال:ذهب الله بنارهم تذهب الحرارة ويذهب النور، ولكنه قال:ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ.

إذًا: ما الذي بقي حينما ذهب النور؟ بقي الإحراق والحرارة.

هكذا كل من تمتع بشيء يبذل في سبيله دينه، ولكنه يكون من سخط الله -تبارك وتعالى- ومُحادته وحرب أوليائه، فإنه يتمتع به قليلاً بمال أو وظيفة أو جاه، أو نحو ذلك، لكن سُرعان ما يذهب هذا النور، ثم بعد ذلك تبقى الحرارة والإحراق، يبقى عليه ذلك سُبة في الدنيا وعذابًا في الآخرة، إن لم يغفر الله له.

ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ، ولاحظ هنا أن الله -تبارك وتعالى- قال:ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ فوحد النور لكن جمع الظلمات وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُون

- تركهم في ظلمات فجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والضلالات كثيرة جدًا، ومن أزاغ الله -تبارك وتعالى- قلبه لم يُبال به بأي وادٍ هلك، فقد يركب أي ملة، أو نِحلة أو ضلالة، لكنه في النهاية سالك طريق الغواية، والشر والضلال، والانحراف الذي يؤدي به إلى سخط الله ومقته وعذابه، فطُرق الضلال كثير وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ.

وبهذا نعرف أن الطريق الموصل إلى الله واحد، ومن أراده فعليه أن يتبع، ويلزم الصراط المستقيم الذي رسمه الله تعالى لعباده

وتأمل في قوله -تبارك وتعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ [سورة البقرة:٢٥٧].

ثم أيضًا تأمل ما ذكره الله -تبارك وتعالى- هنا: وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ [سورة البقرة:١٧] قد يكون الإنسان في ظُلمة لكنه يُبصر معها إبصارًا ضعيفًا أما هؤلاء في عمى تام، نفى عنهم الإبصار بالكلية؛ لئلا يتوهم أن هذه الظلمات يكون معها شيء من الإبصار، وهذا يُبين حال هؤلاء أهل النفاق، وكذلك أيضًا حال أهل الكفر فهم يتخبطون في ظلمات.

وقد ضرب الله المثل لهذه الظلمات كما في سورة النور أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا [سورة النور:٤٠] هذه ظلمة القلب، وظلمة الكفر، وظلمة الطبع، وظلمة المعاصي، هي ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها

أنواع العمى

فدل ذلك على عمى هؤلاء المنافقين، فإن الضلال يكون عمى -كما هو معلوم- وقد وصف الله -تبارك وتعالى- هؤلاء الضُلال في كتابه بأنهم عُمي

فقال تعالى: ، صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، فهذه الأبصار إنما يُبصرون بها المُتشخصات، لكنهم لا يُبصرون بها الحقائق، والبصر الحقيقي هو بصر القلب.

فالعمى عمى القلب، وليس عمى البصر، ولهذا عقب الله ذلك بهذه الآية: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ، هؤلاء وصلوا إلى حال من الغي والضلال فطبع على قلوبهم، فصاروا بهذه المثابة، ،فهم صُم عن سماع الحق، لا ينتفعون به، بُكم عن النُطق به، عُمي عن إبصار الهُدى، مهما كان ظهور أعلامه، وبراهينه وشواهده، فهم يعمون عن ذلك كله، ومن كان بهذه المثابة لا يرجع إلى الإيمان، ولهذا قال تعالى: ، فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ،

لا يرجعون إلى الحق اذا خوطبوا، إذا وجه إليهم الخطاب، فإن هذا الخطاب يطرق أسماعًا قد صُمت، وحينما تظهر دلائل الحق وشواهده، فإن هؤلاء لا يرونها، فهم اشبه بالخفافيش التى أعماها النهار بضوئه،

فلا يرون الحق الذي يراه أهل الإيمان، ومهما يُقدم لهم من الدلائل والبراهين؛ فإن ذلك لا يُحرك فيهم ساكنا فمن استحكمت ضلالته فلا سبيل إلى هدايته، ومن أضله الله -تبارك وتعالى- فلا هادي له، وهذه حقيقة ينبغي أن نُدركها؛ ولذلك فإن بعض الخطاب حينما يوجه إلى من زاغ قلبه، واتبع هواه، فإن ذلك يكون من قبيل العبث، كالذي يصيح في واد، وينفخ في رماد، إلا أن ذلك يكون فيه ما فيه من إقامة الحجة على هؤلاء، ولكنهم لا ينتفعون به؛

لهذه الأمور الصمم والبكم الذي فيهم، فهذا الأبكم هو لا ينطق بالحق، ولا يتكلم به

ولذلك لا يُستغرب حينما يلهج بالباطل صباح مساء، ويفيض هذا الباطل على قلمه وكتاباته، إنما الذي يُستغرب لو أنه تكلم بالحق أو كتبه.

فمن رُزق الهداية فينبغي أن يتمسك بأهدابها، ويخاف أن يُسلب ذلك منه، وأن يشتغل بإصلاح نفسه، ولا يكون شغله بغيره ويغفل عن قلبه وحاله، وتفقد عمله وخطراته، ونياته ومقاصده.

أصول الانحراف عن الحق

هكذا يفعل الضلال بأهله، لاسيما من ترك الحق عن معرفة، بخلاف من ترك الحق عن جهل به؛ فإنه قريب المأخذ يمكن أن يُبين له ويرجع، ولكن الانحراف إنما يرجع إلى أصلين، أو ثلاثة:

الأول: سوء القصد، فهذا سيء القصد مهما رأى من الدلائل والشواهد والبراهين، هو يأبى الحق، لسوء قصده، فهو لا يقبله.

الثاني: سوء الفهم، قد يبحث ويقرأ ويُطالع، ولكنه يخرج بنتائج مقلوبه، الدليل الواضح الظاهر يفهم منه خلاف المقصود، او عكس المقصود، فهذا لا طب فيه.

الثالث: الجهل، وهذا أمر قريب، يمكن أن يُعالج بالعلم،

لكن صاحب القصد الفاسد، والفهم الفاسد هذا يُجادِل الحق، فإذا تكلم أهل العلم سخر منهم، وسخر من فهومهم وعلومهم ومعارفهم وأقوالهم وفتاواهم؛ لسوء قصده، أو لسوء فهمه وقد يجتمع في العبد وهذا يجتمع في العبد هذا وهذا، نسأل الله العافية، يعني: يجتمع فيه سوء القصد وسوء الفهم معًا، فمثل هذا يطير في الضلالة، ويكون اصل في الفِتن، فلا يُبالِ الله به في أي واد هلك رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ [سورة آل عمران:٨]. كأنه قال تعالى: وتركهم صما بكما عميا، فعلى هذا المذهب لا يحسن الوقف على" يُبْصِرُونَ"،

السر في اجتماع (صم بكم عمي) في نفس الآية

والصمم فى كلام العرب: الانسداد، يقال:قناة صماء إذا لم تكن مجوفة، فالأصم: من انسدت خروق مسامعه، والأبكم: الذى لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس.

، والعمى: ذهاب البصر، وقد عمى فهو أعمى، وقوم عمي، وأعماه الله. ومنه قوله تعالى:" فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ" [القصص: ٦٦].

، وقال: قتادة: " صُمٌّ" عن استماع الحق، " بُكْمٌ" عن التكلم به،" عُمْيٌ" عن الأبصار له.

قوله تعالى:" فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ" أى إلى الحق لسابق علم الله تعالى إلى فيهم.

. وقوله تعالى:" يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ الْقَوْلَ" [سبأ: ٣١] أى يتلاومون فيما بينهم،

لماذا شُبِه إيمان المنافق كالذي استوقد نارا، وكصيب من السماء

هذه الآية تفضح وتبين حقيقة إيمان المنافقين كالذي استوقد نارا، وكصيب مع رعد وبرق، فقد قال تعالى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

فهذا المثل بدا ب" أو" فإن" أو" هذه يحتمل أن تكون للتنويع، بمعنى أن المثل الأول الناري قد ضُرب لفئة من المنافقين لنوع من المنافقين، وهذا المثل المائي يكون قد ضُرب لفئة أخرى فحال هؤلاء المنافقين منهم من يكون كذاك الذي:، اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِم

ويكون حال طائفة أخرى كأولئك الذين ذكر الله وصفهم هنا في هذا المثل وضربه لهم: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْق وأما الذين قالوا: بأن" أو" هنا هي بمعنى" الواو" ، وأن هذين المثلين مضروبان للمنافقين فحالهم تكون كذاك الذي استوقد نارا، وإن شئت فمثل حالهم بذاك الصيب الذي يسير فيه هؤلاء في هذه الظلمات مع البرق والرعد

والمعنى والله اعلم: فيكون المعنى في المثل الأول أن مثل حال هؤلاء في دعوى الإيمان وما حصل لهم من الانتفاع المؤقت بذلك كذاك الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله، انتفع بهذه الدعوى فحقن دمه، وأحرز ماله وحصل له ما حصل من المكاسب القريبة العاجلة المُتقضية،

وحال هؤلاء مع القرآن ومع براهينه ووعده ووعيده كمثل حال هذا الصيب الذي ينزل ويصوب بشدة وقوة مع ما يحتف بذلك من الرعد والبرق، وهؤلاء يسيرون بهذه الصفة من التردد في سيرهم والخوف، وما إلى ذلك.

أشكال الظلمات التي وقع فيها المنافقون

فهذا يصور حالهم حينما يظهر لهم الحق تارة ويشكون فيه تارة حينما تظهر لهم براهين الحق: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ [سورة البقرة:١٩]

فهذه الظلمات

ظلمات الكفر،

ظلمات الجهل،

ظلمات المعاصي،

ظلمات النفاق،

كظلمة الليل، وظلمة المطر، وظلمة السحاب فهي ظلمة مُستحكمة يسيرون في هذه الظلمات التي يكون بعضها فوق بعض، إنسان يسير في طريق يكون في ليل بهيم وفوقه سحاب مع مطر ينزل بشدة والبرق صوته يملأ المكان والبرق يبهر الأبصار فيكاد أن يخطفها، هذا يكون في حال من التردد في هذا السير،

فهم كما قال: الله -تبارك وتعالى: فِيهِ ظُلُمَاتٌ هذه الظلمات الحسية هي ظلمة السحاب والليل وكذلك أيضًا المطر، والمعنوية الكفر، والنفاق، والمعاصي، والجهل فهي ظلمة قلوب نفوس، وأعمال، وأحوال من تلون، وتقلب.

تشبيه زواجر القرآن وبراهينه وحججه بالرعد والبرق

فهنا: فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ، وهذا الرعد المقصود به زواجر القرآن، فإذا سمعوا هذه الزواجر والوعيد فإنه لا تتمالك نفوسهم من الخوف والهلع، وأما بالبرق فتلك براهينه وحُججه القوية التي تكاد أن تخطف أبصارهم وتذهب بها فهم أصحاب بصائر ضعيفة لا تحتمل هذه الحُجج القوية الباهرة التي تكاد أن تأتي على تلك الأبصار الضعيفة التي لا تحتمل هذا النور الشديد، وهؤلاء المساكين في هذه الحال يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ

فهم يجعلون رؤوس الأصابع في الآذان فكأنهم لشدة خوفهم، كأنهم جعلوا الأصابع بأكملها في الآذان لشدة ما ينتابهم من الخوف والهلع فهذا يصور ما هم فيه يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ

ثم انظر إلى هذا الفعل الذي لا غناء فيه، ولا دفع، فهذا الذي يحذر الصواعق فيكون غاية ما هنالك من الجُهد والدفع والامتناع والتحصن هو أن يضع أُصبعيه في أُذنيه فهذه الأصابع لا ترد الصاعقة، لا ترد عنه المكروه.

كذلك حال المنافقين فصلاتهم وقرهم من المؤمنين مع الاصرار على نفاقهم لا بدفع عنهم غضب الله وعذابه فنفاقهم اودى بهم إلى الدرك الاسفل من النار فما اغنت عنهم اعمالهم من الله شيئا. فهؤلاء يخافون من الصواعق فيكون غاية الجهد في التحصن منها أن يضع الواحد أُصبعيه في أُذنيه محتميًا بذلك، وذلك لا يُغني عنه شيئًا، ولا يدفع عنه الهلاك:

(يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْت) فوضع الأصابع في الأذان خوفًا من الهلاك يخشون أن تنزل الصاعقة، والصاعقة ذكر المفسرون فيها معانٍ من أقربها أنها ما قد عُلم مما ينزل من السماء يكون كما يقول المعاصرون بأنها شُحنة كهربائية قوية،

والسابقون كانوا يُعبرون عنها بنار حارقة ؛ لأن من أصابته هذه الصاعقة فإنه يحترق، ففسروها بأثرها وإلا فإن أصلها حينما تنزل هذه الصاعقة هي لا تُرى نار في السماء وإنما هي شُحنة فإذا نزلت وفُرغت لقوتها فإن ما وقعت عليه يحترق من إنسان أو بهيمة، أو غير ذلك.

يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ

محيط بهم علمًا وقدرة فهم لا يستطيعون أن ينفذوا من أقطار السماوات والأرض ولا أن يردوا عنهم من قدر الله -تبارك وتعالى- شيئًا وهم لا يُعجزونه ولا يفوتونه.

تأمل في هذه الآية،: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ) حيث نُكر الصيب هنا وهذا التنكير قد يُشعر بالتعظيم، هناك: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا [سورة البقرة:١٧]

فنُكرت النار قال: بعض أهل العلم هذا يدل على التعظيم، دعوى الإيمان هذه الكبيرة التي ادعوها هي بمنزلة هذه النار التي استضاءوا بها استضاءة مؤقتة،

هنا: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ،الشيء النازل يُقال: له: صيب، فقيل: للمطر صيب، فما ينزل من أعلى إلى أسفل يُقال: صاب يصوب فهو صيب، وذلك يُقال: للمطر الكثير الشديد: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فنكره هنا وذلك يُشعر بالتعظيم؛ لأن المطر الخفيف لا يتأذى منه الناس ولا ينزعجون، ولا يحصل معه عادة مثل هذه المخاوف، فهذا مطر شديد هائل.

أسرار بلاغية في جمع الظلمات وتنكير الرعد والبرق في الآية

ثم أيضًا تأملوا،: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ يصوب من السماء، ينزل من السماء فِيهِ ظُلُمَاتٌ هنا جُمعت الظلمات وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ أُفرد الرعد والبرق، فبعض أهل العلم يقول: ذلك باعتبار أن المُقتضي للرعد والبرق واحد وهو السحاب، وأما المُقتضي للظلمة فهو مُتعدد فهناك الليل، وهناك السحاب، وهناك المطر فهذه الظلمة قد اجتمعت من هذه الأمور جميعًا فجُمعت أَوْ كَظُلُمَاتٍ كما قال: الله -تبارك وتعالى- في سورة النور لما ذكر الظلمات أيضًا: أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ [سورة النور:٤٠].

يكاد البرق، يعني: يُقارب، من شدة لمعانه وبريقه أن يسلب أبصار هؤلاء من ذوي البصائر الضعيفة، ومع ذلك: يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيه

يمشون في ضوئه، وإذا ذهب قاموا اى وقفوا، فقام بمعنى وقف هنا، الماشي إذا قام يُقال: ذلك بمعنى الوقوف، يقومون في أماكنهم،

ولولا إمهال الله لهم لسلب سمعهم وأبصارهم وهو قادر على ذلك كله فهو على كل شيء قدير.

-كَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ هـذه حُجـج القـرآن لقوتهـا، بـراهين القـرآن، تكـاد تخطـف أبصـار هؤلاء لشدتها كُلَّمَـا أَضَـاءَ لَهُـمْ مَشَـوْا فِيـه أضـاء لهـم اتضـح لهـم الطريـق، اسـتنارت نفوسـهم وبصائرهم استنارة محدودة مؤقتة لشدة بريقه ولمعانه فإنهم يمشون،

والقول الآخر: أنه كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ إذا وجدوا في ضوء البرق ما يساعدهم على السير فإنهم يسلكون وينقادون ويستجيبون ويُقبلون،وإذا جاء وهو الغالب ما يكون على خلاف نفوسهم المُظلمة فإنهم يتوقفون ويتحيرون فهم ليسوا على سير مُتحد، وسلوك للصراط

المُستقيم. وهذه الحاله الحسبة هى تماما كحالهم مع الوحي المُنزل وما فيه من الحُجج والبراهين والوعد والوعيد وما أشبه ذلك،

فتراهم إذا جاء الوعد انتظمت نفوسهم معه، واستروحت له، وإذا جاء الوعيد أو جاءت حُجج القرآن حصل لهم الانقباض والانكماش والخوف والتحير.

لطيفة لغوية في دعاء المؤمنين(واجعله الوارث منا)

وهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، هذا يؤخذ منه أن العبد ينبغي له أن يسأل ربه -تبارك وتعالى- أن يُمتعه بسمعه وبصره، وأن يجعل ذلك هو الوارث منه، ومعنى، واجعله الوارث منا فدوما الوارث يكون اطول عمرا من المورث فهذا يعنى ان يحيا الانسان المؤمن مستمتعا بفضل الله عليه وان يمتعه بسمعه وبصره إلى اخر عمره حتى يموت الانسان وهو مستمتع بهم لا مفتقدهم

ثم أيضًا قد خص الله -تبارك وتعالى- هنا ذكر السمع والبصر أنه لو شاء لأذهبها مع أن الله لو شاء لأهلكهم، لكنه خص السمع والبصر دون سائر المنافع والأعضاء وذلك أنه ذكر ما يرتبط

قال تعالى: يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وقال:يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ)، فذكر ما يتعلق بالسمع وما يتعلق بالبصر، ولهذا قال:وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وإلا فإن الله قادر على إذهابهم مع سمعهم وأبصارهم.

ثم أيضًا تأمل وصف الله -تبارك وتعالى- نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضوع، وذلك لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته، وأخبرهم بأنه مُحيط بهم، وأنه قادر على إذهاب سمعهم وأبصارهم إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [سورة البقرة:٢٠] فمن متعه الله -تبارك وتعالى- بالسمع والبصر فهذه نعمة تستوجب الشكر.

متى ينتفع المسلم بالوحي ومواعظ القرآن

ومن متعه الله -تبارك وتعالى- بالبصيرة فإن ذلك أعظم النِعم فبها يعرف مراد الله -تبارك وتعالى- وبها يُميز بين الحق والباطل، وبها ينكشف له معدن الحق من معدن الشبهات فلا يكون الحق مُلتبسًا عليه فيضل. هذه البصيرة إذا رُزقها العبد فإنه ينتفع بالوحي ومواعظ القرآن، والأمثال المضروبة في ذلك، وما يتبع ذلك من الهداية والعمل والإيمان والاستقامة على أمر الله تعالى وتقدست أسمائه

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تعلَمُونَ (٢٢) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)

" يا أَيُّهَا النَّاسُ، بعدما تحدثت الايات عن اختلاف الناس في الدين وذكر ثلاث طوائف ممن يعيشون حول النبي صلى الله عليه وسلم: المؤمنين، والكافرين والمنافقين،

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يبعث للجزيرة العربية وحدها بل للبشرية كلها إلى يوم القيامة ولذلك كان لزاما ان يتبع ذلك بدعوة الخلق جميعا إلى عبادة الله، وجاء بالدعوة عامة لجميع الخلق و إلى يوم القيامة،

فقال تعالى: ، يا ايها الناس" وفى هذا اشارة إلى ان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم هم مركز دائرة الارض فبعدما استقر المركز واطمان لنشر دين الله، نادى الحق سبحانه البشرية كلها لتعبده وتوحده كما عبده محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم ، (محمد رسول الله والذين معه)

وقال تعالى: لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة) وراينا هذا واضحا حين ارسل الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم رسائله إلى الملوك والحكام فى عصره صلى الله عليه وسلم يدعوهم للدخول فى الاسلام فكان هذا بمثابة اعلان واعلام البشرية كلها بان الاسلام انما جاء للناس جميعا وهذا تدرج طبيعى ورائع للايات اذ انه كان ينبغى ان يكون هناك نموذجا ممتازا وسليما مطبقا لاوامر الله تحتذى به البشرية فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ثم تاتى الايات بعدها تنادى الناس ان اتبعوا هؤلاء الكرام فى عبادتكم لله تعالى

وقوله تعالى: اعْبُدُوا رَبَّكُمُ: هذا أول أمر في القرآن بحسب ترتيب المصحف، وهو الأمر بعبادة الله تبارك وتعالى، وقد جاء ذلك مع، ربكم، جل وعلا ، وذلك أن الرب هو الخالق الرازق المحيى المميت المدبر، فهو الذي يستحق أن يُعبد دونما سواه،

وقال تعالى: الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم،) ولقد ذكرهم سبحانه وتعالىبانه خالقهم ومن قبلهم فهو وحده موجدهم ورازقهم، وبهذا يكون القران الكريم قد قطع الطريق على المشككين فى الله وان هناك الهة اخرى مزعومة، فبين لهم القران الكريم انه لا اله الا الله ولا رازق غيره ولا خالق ولا مدبر للكون غيره،

ولذا فهو أحق بالعبادة واحق ان لا تُصرف العبادة إلى غيره مما لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر. وليس له وجود اصلا وصدق الله حين قال: تقريعا للملحدين والمشككين، افمن يخلق كم لا يخلق هل يستوى عندكم من خلق الكون ويديره بمن لا يخلق ولا وجود له الا في اذهانكم المريضة، ولذا قال: سبحانه لهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين

وايضا قال: سبحانه، هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه، وقوله تعالى إلى" ،اعْبُدُوا رَبَّكُمُ، يدخل فيه الإيمان به سبحانه وتوحيده وطاعته، فالأمر بالإيمان به لجميع البشر ايا كان توجهاتهم او اعتقادهم كل على حسب حالته، فمن كان جاحدًا دعاه للايمان به جل وعلا والتبصر بالحقائق، ومن كان مشركًا دعاه للتوحيد وليعلم انه ليس له رب سواه يتولى امره فلا يضيع عمره هباءا، ومن كان مؤمنًا دعاه للطاعة اى للمزيد من الطاعات والاستمرار عليها رغبة فى مزيد من الاجر والثواب وكذا شكر وحمدا لله ان هداه لطاعته وعبادته".

معاني التقوى

و قوله تعالى: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، يحتمل أن يكون المراد بـ: اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ: يعني أنه خلقكم من أجل أن تتقوه، بمعنى أنه تعالى إلى خلقكم من أجل العبادة، قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات:٥٦]،

فهذا المعنى صحيح يشهد له القرآن الكريم كثيرا كما فى قوله تعالى إلى، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون، أي لأنكم فى الصيام تتعلمون مراقبة الله وخشيته وتؤمنون حقا بانه مطلع على خفاياكم فلا يجرؤ احد ان يتناول شيئا سرا يفسد صيامه، وتتقون عذابه وغضبه سبحانه فان تحقق ذلك فى الصيام فتكونوا قد افلحتم وحققتم المراد

فقوله تعالى إلى لعلكم تتقون اى اعبدوا ربكم واتقوه فهو كما خلقكم ورزقكم واحياكم سيميتكم واليه وحده ترجعون، ووحده يحاسبكم فااعدوا لهذا الموقف عدة، بماذا؟ بتقواكم لله تعالى إلى

وهذا الموقف اى، اليه وحده ترجعون هو الذى يجعل الملحدين يتهربون ويشككون فى وجود الله اذ انهم لايريدون بعثا ولا نشورا فهم يبغونها عوجا

فهم لانهم لم يراعوا لله حرمة ولا للبشرية ولم يرحموا احدا وعلموا ان هناك يوم يلقون الله فيه. فيحاسبهم على ما اقترفت ايديهم ووجدوا ان اتباعهم ان علموا بذلك خافوا ورجعوا للصواب فسولت لهم انفسهم وشياطينهم ان يوهموا اتباعهم انه لا اله وانه ليس هناك يوم اخر وقال:وا، ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر . وللأسف لأن اتباعهم مجرمون امثالهم ويبغون الفساد فى الارض فعاون بعضهم بعضا

ففى البداية نادى الله الجميع وامرهم ان يعبدوه وان يتقوا عذابه، فان استجابوا ساعتها عفا الله عما سلف ولذلك قال تعالى: (لعلكم تتقون)لفظ لعل انها لمقاربة الأمر نحو: عسى، فإذا قال:ها الله:تعالى فمعناها اطماع العباد، لانه لايجوز ان نقول فى الحق سبحانه انه يترجى خلقه وهكذا القول فيها حيث ما وردت في كلام الله تعالى .

عسى أيضًا كذلك هي للإطماع، عسى أن يحصل، وللترجي، فإذا كان ذلك في كلام الله من قوله وليس حكاية عن قول قائل وإنما الله يقول: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً [الممتحنة:٧]،

مسميات الأرض في القرآن

جاء عن ابن عباس وغيره: أن، عسى- ولعل من الله واجبة اى متحققة الوقوع، لان الله تعالى إلى ليس لديه ما يمنع او يوقف ما امر به، ثم بين الله سبحانه وتعالىفضله وكرمه لعباده فقال تعالى: الذى جعل لكم " الْأَرْضَ فِراشًا تمثيل لما كانوا يقعدون وينامون عليها كالفراش فهو مجاز وكذلك السماء بناء" .وهذا جاء ما هو أبلغ منه وهو أنه سماها مهادًا، والمهاد هو ما يمهد ويوضع للصبي الصغير، ممهدة، فهذا من أجل أن تقوم مصالحهم، وتستقر معايشهم، فهي كالفراش لهم،

وهذا كما قال: الله تعالى أيضًا سماها بساطًا، وكل ذلك لا يتنافى مع كونها كروية، والعلماء منذ القدم، بل قبل الإسلام كانوا يقررون هذا، ومعروف عند الفلاسفة قبل الإسلام،

فهو من الأمور المعلومة: كروية الأرض، لا إشكال فيه، القضية مقررة عند المسلمين بلا نكير، لكن لكبر حجم الارض وضخامتها لا يتبين فيها التدريج في الكروية بنظر الناظر، فتكون في نظره: كالبساط، كالفراش، هذا باعتبار ما نشاهده، والله أعلم.

وقوله تعالى (مِنَ الثَّمَرات)، لبيان الجنس، لأن الثمرات هو المأكول من الفواكه وغيرها، والباء في، به، سببية" . اى اخرج بالماء من المطر الزرع والشجر والثمار كذلك

يعني ليس المقصود أنه أخرج به بعض أنواع الثمرات وإنما أخرج به الثمرات، كما قال: الله تعالى: فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا [فاطر:٢٧] فهذه الثمرات إنما تخرج بهذا -والله أعلم-

وفيه إضافة الشيء إلى سببه، يعني بعض الناس يتحرج أن يُقال:أنبت المطر الربيع. يقولون: الله هو الذي أنبته وهو الذي أخرجه. نعم لكن لا بأس أن يضاف الشيء إلى سببه مع اعتقاد أن المدبر والمتصرف هو الله وحده دونما سواه،

معاني الأنداد

وقوله تعالى إلى" أَنْدادًا يراد به هنا الشركاء الذين اتخذهم ضعاف العقول معبودات مع الله جلّ وعلا" ، النّد، يقال: للنظير المناؤئ، ولذلك نهى الله سبحانه عباده من اتخاذ، الند فقال

تعالى: فلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تعلَمُونَ ، فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تعلَمُون اى وانتم تعلمون انهم لا يملكون لكم نفعا ولا يدفعون عنكم ضرا، ولذا ان كنتم اصحاب عقول مميزة فلا تجعلوا لله اندادا، وهنا فوائد ثلاث:

الأولى: هذه الآية ضمنت دعوة الخلق إلى عبادة الله بالبرهان. فذكر سبحانه اولا: ربوبيته لهم، ثم ذكر خلقته لهم وآبائهم؛ لأن الخالق يستحق أن يعبد، ثم ذكر ما أنعم الله به عليهم من جعل الأرض فراشًا والسماء بناء، ومن إنزال المطر، وإخراج الثمرات؛ لأن المنعم يستحق أن يعبد ويشكر، فى ملاطفة وخطاب بديع.

الثانية: المقصود الأعظم من هذه الآية: الأمر بتوحيد الله وترك ما عبد من دونه لقوله في آخرها: فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا، وذلك هو الذين يترجم عنه بقولنا: لا إله إلا الله. فيقتضي ذلك الأمر بالدخول في دين الإسلام الذي قاعدته التوحيد، وقول لا إله إلا الله.

الثالثة: تكرر في القرآن ذكر المخلوقات، وان الله وحده له الخلق لدحض افكار الملحدين والمناؤيين والتنبيه على السير والنظر والاعتبار في الأرض والسماوات والحيوان والنبات والرياح والأمطار والشمس والقمر والليل والنهار،

السر في تكرار ذِكر المخلوقات في القرآن

وذلك لأنها تدل بالعقل على عشرة أمور وهي:

اولا: أن الله تعالى إله موجود؛ لأن الصنعة دليل على الصانع لا محالة،

ثانيا: وأنه واحد لا شريك له؛ لأنه لا خالق بحق إلّا هو

ثالثا: أنه تعالى إلى حيّ قدير عليم مريد؛ لأن هذه الصفات الأربع من شروط الصانع. إذ لا تصدر صنعة عمن عدم صفة منها" .

رابعا: وأنه سبحانه قديم المقصود بها. انه سبحانه اول بلا ابتداء وقبل مخلوقاته لأنه صانع للمحدثات، فيستحيل أن يكون مثلها في الحدوث"

والعلماء يُعبرون ذلك على سبيل الإخبار يقولون: قديم. لكن حينما نأتي للكلام على أوصاف الله -تبارك وتعالى- كما قال: النبي صلى الله عليه وسلم: هو الأول والآخر، فالأول الذي ليس قبله شيء، لكن القديم يمكن أن يكون مسبوقًا؛ ولذلك التعبير الذي جاء في القرآن: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ [الحديد:٣]،

خامسا: وأنه تعالى إله باق؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه" ،

سادسا: وأنه تعالى إله حكيم؛ لأن آثار حكمته ظاهرة في إتقانه للمخلوقات وتدبيره للملكوت،

سابعا: وأنه تعالى إله غنى عن خلقه فلا يحتاج لشريك يعينه

ثامنا: وأنه تعالى إله رحيم؛ لأن في كل ما خلق منافع لبني آدم سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض" .

تاسعا: وأنه تعالى إله وحده القادر على ان يميتهم كما احياهم

عاشرا: وأنه تعالى وحده جامع الناس ومحاسبهم

فالعقل والنقل يدلان على ثبوت هذه الصفات لله تعالى

" فإن قيل: هل لعلكم تعبدون، مناسبة لقوله: اعْبُدُوا؟ فالجواب أن التقوى غاية العبادة وكمالها، فكان قوله: لعلكم تتقون أبلغ وأوقع في النفوس" .

وقوله تعالى" وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ، الآية إثبات لنبوّة محمد -صلى الله عليه وآله وسلم- بإقامة الدليل على أن القرآن جاء به من عند الله، وهذا من بدائع القران الكريم رغم نزوله منجما وفى اوقات مختلفة الا اننا حين نقرأه نجد ترتيب اول ما يدل يدل على انه حقا، تنزيل من حكيم حميد لانه لما قدّم إثبات الألوهية أعقبها بإثبات النبوّة، فإن قيل: كيف قال: إن كنتم في ريب، ومعلوم أنهم كانوا في ريب وفي تكذيب؟"

مهارات الحوار

وهنا درس مستفاد لمن يقومون بالرد على الملحدين والمشككين ينبغى عليهم ان يكون حوارهم متدرجا كما جاء به القران الكريم وكالاتي:

الحوار مع الملحد

اولا: فإن كان ملحدًا فيحتاج إلى إثبات وجود الله ، لان الملحد هو من ينكر وجود الله تعالى إلى وبالت إلى فهو ينكر الوحى والرسل والبعث والنشور. فمثل هذا لا يجدى معه الحديث عن النبوات وما يتعلق بها ولكن يجب الحديث عن الالوهية وما يتعلق بها وان نتحدث معه عن دلائل وجود الله ، حتى نثبت له بالعقل والمنطق وجود الله وننفى من عنده الانكار ثم بعدها ياتى الحديث عن الانبياء والوحى فهم المبلغون عن الله تعالى إلى

ثانيا: اما **اذا كان المخاطب مثبتًا** اى يعلم ان هناك اله كما كان المشركون الذين جاء فيهم قول ربنا، ولئن سالتهم من خلقهم ليقولن الله اذن فلا يُشتغل بإثبات وجود الله ، وإنما يُنتقل

من هذا الأمر المسلم به إلى ما بعده، فيثبت له بأن الله هو الخالق الرازق. فان اثبت ذلك فينتقل منه إلى ما بعده وإثبات توحيد الإلهية، أنه الواحد دونما سواه،

ثالثا: فإذا أثبت هذا وتيقن منه انتقل إلى قضية الوحي، فإذا أثبت الوحي بعد ذلك يمكن أن تنتقل منه إلى النبوة لان النقاش والجدال مع المنكر الجاحد لوجود الله، غير النقاش مع من يثبت وجوده ولكن يُشرك معه غيره،

من ينكر الوحي والنبوة

وكذلك النقاش مع من ينكر الوحي والنبوة ويثبت وجود الله أو وحدانيته أو ربوبيته أو نحو ذلك غير النقاش مع من يُنكر هذا،

وقوله تعالى إلى" عَلى عَبْدِنا، هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم

الله -تبارك وتعالى- أثبت لعباده أنه هو الواحد: ولا اله غيره فلماذا تصرفون العبادة لغيره ولذا امرهم بقوله تعالى إلى، اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ،

والعبادة تكون بما امر به سبحانه عن طريق الانبياء

رابعا: النبوة يقول الله تعالى إلى لهم: وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ، يعني: هذا التحدي قائم إلى اليوم و إلى قيام الساعة،

الانسان الذى امن وعرف وتثبت من وحدانية الله ، نقول له: بقى لك ان تؤمن بما يتعلق بالوحدانية وهو المبلغ عن الله وهو الرسول ساعتها نقول له النبوة بيننا وبينك

شيء واحد يفرق بيننا وبينك وهو ان تات بسورة واحدة ولو أقصر سورة من القرآن، هات مثلها. فلن يستطيع، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فما بقي

إلا: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ فلا تكن من جملة هذا الوقود، إن كنت تكابر وتجادل في هذه الحقيقة وهي النبوة والوحي فعندنا هذه المعجزة للنبي هو هذا القرآن الذي

فيه إثبات الوحي، ونبوة النبي صلى الله عليه وسلم في آن واحد، هات سورة واحدة فإن لم تستطع فينبغي أن تُقر وتُذعن،

خامسا: فإذا أثبتنا له ذلك وكان يُنكر بعض الأمور كأن يقول:مثلا إن القران حُرّف، أو زيد فيه ونُقص. فيقال:بأن هذا هو كلام الله . الذي اقتنع وامن به من قبل

فالله تعالى إلى يقول: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ [فصلت:٤٢]،

سادسا: **إذا قال:أنا اؤمن بنبوة النبي على انها للعرب خاصة.** ولاهل زمانه فقط

. تُذكر له الآيات التي تدل على عموم رسالته من نصوص الكتاب والسنة، مستندا على ايمانه بنبوته: اذن فالنبي عنده صادق لكن المشكلة فى عموم الرساله

عليك ايها المحاور إذن ان تبين له النصوص الدالة على عموم البعثة وصدق الله تعالى إلى حين قال: وجاهدهم به جهادا كبيرا اى بالقران وما فيه من حجج قوية بالغة عبدنا " والعبودية هنا تشريف للنبي صلى الله عليه وسلم " فَأْتُوا بِسُورَةٍ أمر يراد به التعجيز مِنْ مِثْلِهِ الضمير عائد على ما أنزلنا وهو القرآن، و،من، لبيان الجنس،

ولا يلتفت لمن يقول ان مثله تعود على النبي -صلى الله عليه وسلم-،

ف الأقرب والاوضح في تفسيرها -والله أعلم- فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ: يعني مثل القرآن وليس مثل النبي صلى الله عليه وسلم بدليل ما ذكر فى سورة يونس وهو قول الله تعالى إلى

: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ [يونس:٣٨]: هنا لا يحتمل أن يرجع ذلك إلى النبي وإنما مثل القرآن، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [يونس:٣٨]، فهذا واضح، والقرآن يُفَسر بالقرآن، وكذلك في سورة هود: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ [هود:١٣]،

وبمعنى مثل القران في فصاحته وفيما تضمنه من العلوم والحكم العجيبة والبراهين الواضحة" ،شهداءكم بمعنى استعينوا بآلهتكم أو أعوانكم أو من يشهد لكم. ولن يستطيعوا لقول الله تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا [الإسراء:٨٨].

مِنْ دُونِ اللَّهِ، أي: غير الله، ولن تفْعَلُوا، اعتراض بين الشرط وجوابه فيه مبالغة وبلاغة، وهو إخبار بغيب ظهر مصداقه في الوجود إذ لم يقدر أحد أن يأتي بمثل القرآن، مع فصاحة العرب في زمان نزوله، وتصرفهم في الكلام، وحرصهم على التكذيب، وفي الإخبار بذلك معجزة أخرى.

المعجزة الأخرى: أنه سبحانه قال:وَلَنْ تَفْعَلُوا، ولم ينبري أحد لكسر هذا الإخبار، حيث قطع أنه لن يحصل ذلك، ولن يفعل أحد، فما قال: أحد: أنا أفعل.

أوجه عجز الخلق عن الإتيان بمثل القرآن

او نحن نفعل، أو اجتمعوا جميعًا، فلم يحصل ذلك، فبقوا معلنين عجزهم، وهذا إعجاز آخر باعتبار أنه أخبر عن أمر غيبي فكان كما أخبر، وقد اختلف في عجز الخلق عنه على قولين:

أولهما وهو الصحيح: أنه ليس في قدرتهم الإتيان بمثله مع فصاحتهم وبلاغتهم فظهر عجزهم

والثاني وهو غير صحيح كان يقول قائل انه كان في قدرتهم ان ياتوا بمثل القران ولكنهم صرفوا عنه" هذا الذي يسمى الصرفة، القول بالصرفة، ما هو القول بالصرفة؟

يعني أن الله صرف همم العرب عن معارضته، وإلا فهو من جنس كلامهم، وهم بقدرتهم أن يأتوا بمثله، ولكن صرف دواعيهم وهممهم عن معارضته والإتيان بمثله، هذا قول بعض المعتزلة، وهذا قول باطل،

فالقرآن أبلغ من كلامهم ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، ولم يكن عجزهم؛ لأن الله صرف دواعيهم؛ بل لأنهم لا يستطيعون أن يرتقوا بكلامهم إلى هذا الحد في الفصاحة والبلاغة،

ودليل عجزهم انه لم يتركوا مجالا لمحاربة الاسلام الا وسلكوه فلما عجزوا تماما حاربوه وفقدوا ارواحهم وشبابهم فكان الايسر ان يأتوا بسورة من مثله ويبطلوا التحدى.

ولكن صدق الله والحمد لله رب العالمين

فاتقوا النَّارَ أي فآمنوا لتنجوا من النار، وعبر باللازم عن ملازمه، لأن ذكر النار أبلغ في التفخيم والتهويل والتخويف.(فَاتَّقُوا النَّارَ، بماذا؟ بالإيمان والعمل الصالح، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قال:وا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

ثم بعدما خوف الله تعالى إلى من يتجرا على الله بالنار والعذاب ذكر تعالى إلى ما بشر به أهل الجنة. فذكر تعالى إلى هنا وصفا لصنف من نعيم الجنة وهو أنهم، كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قال:واْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً.

هل يقصدون به رزقنا به من قبل في الدنيا، وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً، أي يشبه ما في الدنيا من الفواكه والثمار وما أشبه ذلك؟

أو أنهم يقصدون هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ في الجنة، بمعنى أنهم في كل مرة يأتيهم من هذا النعيم، والطعام المستلذ من هذه الثمار، يقولون: هذا الذي رزقناه قبل ذلك في الجنة، فهو يشبه ما كان فى الدنيا او يشبه بما رزقناه من قبل فى الجنة

وهو الارجح لان اغلب اهل الجنة فقراء ومعظمهم لاتصلهم كل انواع الثمار التى فى الدنيا اذن فهم حين يرزقون فى الجنة رزقا يقولون قد رزقنا من قبل

والرد على هذا بسيط لان نعيم الجنة لا يشبه نعيم الدنيا، كما جاء في الأثر عن ابن عباس بأنه ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فقط أما الحقائق فهي مختلفة، فهذا كمثرى، وهذا عنب، فهم عرفوه في الدنيا لكن حقيقته في الجنة وطعمه يختلف تماماً عما في الدنيا،

وقد وردت بعض الآثار عن بعض السلف أن ثمار الجنة كلما قطف منها شيء رجع مكانه غيره، فهو نعيم لا ينقضي ولا ينفد.

وقوله تعالى:، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ،

قوله: أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ حذف فيه المتعلق، فما قال:مطهرة من الحيض مثلاً، والأصل في ما حذف منه المتعلق أن يحمل على أعم معانيه، فهنا يقال:أزواج مطهرة من كل دنس حسي ومعنوي، ولذلك قال: سبحانه: أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ.

وقوله تعالى: وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون، هذا هو تمام السعادة، فإنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع، فلا آخر له ولا انقضاء بل في نعيم سرمدي أبدي على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم، إنه جواد كريم بر رحيم.

هذا التعقيب، وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون - في غاية المناسبة؛ لأن الإنسان مهما عظمت لذاته فإنه ينغصها ويكدرها الموت، وإذا كان في حال اللذة واجتماع الأحباب فإنه يتذكر المفارقة، وإذا كان يعيش في أعظم نعيم للدنيا، فإنه يتنغص إذا تذكر أنه يفارقه.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

عن ابن عباس وابن مسعود وعن ناس من الصحابة -رضى الله عنهم أجمعين انهم قال: وا فى سبب نزول هذه الآية انه - لمّا ضرب الله هذا المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا وقوله: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ

قال: المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله هذه الآية إلى قوله: هُمُ الْخَاسِرُونَ

وقال: سعيد عن قتادة: أي إن الله لا يستحيى من الحق أن يذكر شيئًا مما قل أو كثر،

ومعنى الآية: أنه تعالى إلى أخبر أنه لا يستحيى أي: لا يستنكف، أن يضرب مثلا ما، أي: أيّ مثل كان، بأي شيء كان، صغيرًا كان أو كبيرًا

و صفة الحياء ثابتة لله تعالى: إن الله حيى ستّير ولكنها هنا بمعنى انه سبحانه لا يستنكف ان يضرب الامثال ليجلى الامور ويوضحها

معنى قوله تعالى: (فَمَا فَوْقَهَا)

وقوله تعالى: (فَمَا فَوْقَهَا): أي: ما هو أكبر منها، لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة،

ولتوضيح ذلك نقول روى مسلم عن عائشة -رضى الله عنها وأرضاها، أن رسول الله قال:ما من مسلم يشاك شوكةً فما فوقها إلا كتبت له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة؛ لأن قوله تعالى: فَمَا فَوْقَهَا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: فَمَا فَوْقَهَا يعني فما هو أعظم وأكبر منها، أكبر من البعوضة.

والمعنى الثاني: الذي تحتمله: وهو أن ما فوقها أي ما هو أدق وأصغر منها، فتقول مثلاً: هذه الإبرة فوق هذه الإبرة يعني أدق منها، أو أن هذا السن فوق هذا السن، يعني أنه دونه وأصغر منه، فتطلق هذه اللفظة بالاشتراك على معنيين اثنين متقابلين تمام المقابلة:

فأخبر سبحانه أنه لا يستصغر شيئًا يَضْرب به مثلا ولو كان في الصغر كالبعوضة، كما انه جل وعلا لم يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف من ضرب المثل بها

فالله سبحانه كما ان له وحده ان يخلق ما يشاء وكما ان له سبحانه وحده ان يقسم باى شئ من خلقه فليس هناك ما يمنع ان يضرب المثل بما يشاء

والحمد لله اننا نحن المؤمنين نؤمن بان الأمثال صغيرها وكبيرها انها من عند الله ونعلم أنها الحق من ربنا وندعوه سبحانه ان يهدينا بها.وان يلهمنا مراده سبحانه وتعالى منها

روى السدي في تفسيره عن ابن عباس، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة عن قوله تعالى إلى،: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا يعني: المنافقين، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا، يعني المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم لتكذيبهم بما قد علموه حقًّا يقينًا من المثل الذي ضربه الله بما ضربه لهم، وأنه لما ضربه له موافق، فذلك إضلال الله إياهم به، وَيَهْدِي بِهِ، يعني بالمثل كثيرًا من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانًا إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقًّا يقينًا أنه موافق لما ضربه الله له مثلا، وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلا

الْفَاسِقِينَ.هنا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا يضل به المنافقين، ويضل به أيضاً الكافرين، كل من في قلبه رجس، كما قال: الله تعالى: فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ سورة التوبة:١٢٥،

وأخبر عن المنافقين كيف يكون حالهم إذا سمعوا آية أنزلت على النبي: أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا [سورة التوبة:١٢٤]،

فأهل الإيمان تزيدهم هذه الامثال والآيات المنزلة على النبي -عليه الصلاة والسلام ايمانا-

بخلاف غيرهم من الكفار والمنافقين، ولهذا قال: بعدُ،: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلا الْفَاسِقِينَ وصفهم بقول الله تعالى إلى: الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ

ما هو الفسوق؟ ومن هم الفاسقون؟

، الفسق يطلق على كل من خرج عن طاعة الله خروجًا أصغر أو خروجًا أكبر، فالخروج الأكبر يشمل أهل النفاق، ويشمل الكفار، والخروج الأصغر هم أهل المعاصي

وجاءت كلمة الفسوق من قول العرب: فسقت الرطبةُ إذا خرجت من قشرتها؛ وعليه يقيس العلماء ان كل ما خرج عن الجادة يقال: له: فاسق، وفَسَقَ، كما حكى سبحانه وتعالىعن ابليس فقال تعالى: فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ سورة الكهف:٥٠يعني خرج عن أمر ربه بالسجود لآدم وهذا كثير ومعروف حتى في كلام العرب وأشعارهم:

فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسْق الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر -والله أعلم، بدليل أنه وصفهم بقوله: الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

هل القصود به من خرج عن طاعة الله من أهل الإيمان أن الله يضلهم بهذه الأمثال؟

الجواب: لا، ليس هذا هو المراد، فالقاعدة أن الآية قد تحتمل معنيين او اكثر لكن لابد ان تكون هناك قرينة تؤكد المعنى المراد

فهنا فى الآية قرينة وهى وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِين، ليس المقصود به من خرج عن طاعة الله من أهل الإيمان، وإنما الكفار وأهل النفاق، ما القرينة في الآية؟

قال:الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ سورة البقرة: ٢٧

ليست هذه صفة الفسقة من أهل الإيمان انما هذه صفات الكفار كما جاء ذلك في آيات أخرى.وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين، كما قال تعالى: في سورة الرعد: أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ۝ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ .. الآيات،

صفات تميز بها الكفار

إلى أن قال تعالى: وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ، سورة الرعد:١٩-٢٥.

انظر: نفس الأوصاف المراد بها الكفار هنا لأمرين:

الأمر الأول: أنه قابلها بصفة أهل الإيمان، والمقابلة العادة أن تكون بين المؤمنين والكفار.

الأمر الثاني: ما عقب به" لهم اللعنة ولهم سوء الدار" وهذا إنما يكون للكافرين.

والعهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه: هو وصية الله إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رسله، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به.

وقوله -تبارك وتعالى- هنا:، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِه، أي: عهود، كل عهد لله يصدق عليه ذلك، فالتوبة عهد بين الله وبين العبد، والنذر عهد، والوعد عهد، والإسلام عهد، وما أخذه الله على بني آدم حينما استخرجهم من ظهر آدم عليه السلام عهد، وهكذا ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو عهد من الله لخلقه، فهذا كله -والله تعالى إلى أعلم- يدخل في معنى الآية، والعلم عند الله، ، مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِه، معني الميثاق تقول: وثّق الشيء يعني قواه وأكده.

وهناك رأى اخر يقول بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذه الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم إذا بعث، والتصديق به، وبما جاء به من عند ربهم.

نقول بان هذا ايضا من جملة العهد، فيدخل فيه ما أخذه الله على أهل الكتاب فهذا من العهد، عهد إليهم إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم، لتؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قال: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قال:وا أَقْرَرْنَا قال: فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ سورة آل عمران:٨١- ٨٢فهذا كله من العهد وهو داخل فيه، فلا تختص هذه الآية بأهل الكتاب بخصوص هذا العهد الذي أخذه عليهم، والله تعالى إلى أعلم.

ونقضهم ذلك هو جحودهم به ونكرانهم اياه بعد معرفتهم بحقيقته وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فأخبرتعالى إلى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنًا قليلا.

وقيل: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعهده إلى جميعهم في توحيده: ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه: ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها الشاهدة لهم على صدقهم،

وقول بعض العلماء: وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات

ولكن ليس هذا هو المتبادر من معنى الآية، والآية يجب أن تحمل على المعنى المتبادر دون المعنى الخفي المغمور إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فإذا أطلق مثل هذا" يصلون ما أمر الله به أن يوصل" فمباشرة يتبادر إلى الأذهان أنها صلة الأرحام، وعيدُ أهل القطيعة أو الفسق أو الانحراف بما جاء بوصفه بهذه الآيات شيء آخر.

لكن الكلام هنا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ۝ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ سورة البقرة:٢٦-٢٧هؤلاء هم الكفار

وقال: الضحاك عن ابن عباس -ا: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل" خاسر" فإنما يعني به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذنب.

وقال: ابن جرير في قوله: أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الخاسرون: جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم وحظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته، كما يخسر الرجل في تجارته بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، وكذلك الكافر والمنافق خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته، يقال: منه: خسِر الرجل يخسَر خَسْرًا وخُسْرانًا وخَسارًا، كما قال: جرير بن عطية:

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

الرد على كل من يجحد وجود الله وقدرته

يقول تعالى الى كل محتجٍّ على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ أي: كيف تجحدون وتنكرون وجوده سبحانه أوتعالىبدون معه غيره، وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ أي: قد كنتم عدمًا فأخرجكم إلى الوجود؟

سبب إيراد قضية إنكار وجود الله برغم عدم وجودها في العرب آنذاك

قضية كيف تنكرون وجوده؟ هذا عند من يجحد وجوده مثل الملاحدة، ولكن هذا رغم انه لم يكن في المخاطبين من العرب لأول وهلة لكن الله تعالى إلى يعلم ما سيزعمه الملحدون يوما ما والقران انما جاء للبشرية كلها على مختلف افكارهم، واما من يكفرون به سبحانه بأن يجعلوا معه إلهًا آخر.

المقصود بالموت الوارد في الآية: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا)

وهنا في هذه الآية: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ لماذا عقب الأولى بالفاء والفاء تدل على التعقيب المباشر" ثم يميتكم" جاء بـ" ثم" ؟

كنتم أمواتًا سواء قيل: في عالم العدم، أو قيل: النطفة والعلقة والمضغة، فنفخ الروح يبعث إليه الملك حينما يكون له أربعة أشهر فتأتيه الحياة مباشرة كنتم أمواتًا فأحياكم، لهذا عقب بالفاء.

أما الموت بعد هذه الحياة فإنه يكون بعد ذلك يعيش خمسين، ستين سنة، عشرين سنة، أكثر، أقل،" ثم يميتكم ثم يحييكم" فإذا أماتهم بقي الإحياء الآخر وهو البعث كما هو المتبادر يميتكم فيبقون في عالم البرزخ في حياة قبل حياة الآخرة التي هي البعث من القبور -بعث الأجساد-" ثم يحييكم" فكانت بهذا الاعتبار للتراخي.

وقوله: وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ الآن الموت عندنا كم موتة؟ في هذه الآية عندنا موتتان وإحياءتان، وذلك أيضاً صريح في قوله تعالى إلى عنهم: رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ سورة غافر: ١١)، فما هي هذه الإماتات والإحياءات وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا؟

بعض أهل العلم يفسر الموت هنا حينما كانوا في عالم العدم، فالمعدوم يقال: له: ميت، وبعضهم يقول: ليس المراد به حينما كانوا في عالم العدم، وإنما في عالم النطفة ثم العلقة ثم المضغة، وقد يقول بعضكم: كيف تكون هذه بحكم الموت والمعروف أن النطفة فيها الحيوانات المنوية وأنها تسبح؟

يقال:هذا ينبغي أن يفهم بناء على معهود المخاطبين، فالمخاطب بهذا القرآن العرب وهم يقولون عن كل ما لا روح فيه: ميت، ولذلك النطفة يعتبرونها ميتة، فالمقصود أنها إماتتان وإحياءتان

ويؤكد القران الكريم قول الله تعالى بانه هو خالق الخلق من عدم وانه يميت ويحى

قوله تعالى: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لا يُوقِنُونَ سورة الطور:٣٥-٣٦.

هذا يذكّر الله تعالى به عباده مما يلزمهم به توحيده، كيف تكفرون وهو الذي خلقكم والذين من قبلكم كما سبق وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ فينبغي أن تكون العبادة فيمن خلق ولا تكون في أحد سواه.

وقال تعالى: هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا سورة الإنسان:اوالآيات في هذا كثيرة.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ سورة البقرة:٢٩،

لما ذكر الله تعالى إلى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاء أي: قصد إلى السماء، والاستواء هاهنا تَضَمَّن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عُدي بـ" إلى" فَسَوَّاهُنَّ أي: فخلق السماء سبعًا، والسماء هاهنا اسم جنس، فلهذا قال:فَسَوَّاهُنَّ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

استدلال أهل الأهواء بقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) لإباحة كل شيء

إن هذه الآية يحتج بها الأصوليون في موضع معروف وهو أن الأصل في الأشياء الإباحة - وكذلك الفقهاء- وليس التحريم هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا بخلاف من قال: كبعض المعتزلة: الأصل في الأشياء المنع والتحريم لماذا؟

قالوا: لأن هذه الأشياء هي ملك لله ولا يجوز التصرف في ملك الغير إلا بإذنه، فلابد من إذن خاص في كل شيء أنه يحل لنا خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وما ذُكر اولا: هو قول أهل العلم من المعتبر بهم والمحتج بقولهم فكأنه إجماع.

وكذلك يحتج بها بعض أصحاب الأهواء في العصر الحديث الذين يتتبعون الرخص، ويسهلون على الناس في الفتوى. يقولون: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فما لم يدل دليل واضح وصريح على تحريمه فينبغي أن لا نمنع الناس منه، فاستحلوا ألوان المعاملات المحرمة، والحيل على الربا، وأشياء كثيرة مماتعالمرفون، كل ذلك احتجاجًا بمثل هذه الآية خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا.

المقصود في قوله تعالى: (خلق لكم ما في الأرض)

هنا الظاهر العموم، نص" خلق لكم ما في الأرض" كل ما في الأرض فهو خلقه لكم، أي من أجل الانتفاع به وإن خفي عليكم وجه ذلك، يعني هناك أشياء يحصل بها التعادل في هذا الكون تظهر فيها حكمة الله في الخلق، وأشياء يعود نفعها إلى الإنسان ولو بوسائط لكن نحن قد لا ندرك هذا.

فقوله: خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا لو قلت لي. مثلاً: الآن هذه الوزغ ما الفائدة منها هي مضرة؟ نقول لك: أما ترى أنها تأكل الحشرات البعوض والذباب وما إلى ذلك؟ الهرة تأكل الفأرة، وتأكل الحشرات تتغذى عليها، تقتلها حتى لو ما أكلتها، مع أن الإنسان إذا نظر إليها يقول ما الفائدة منها؟ فالمقصود أن هناك أشياء يستفيد منها الإنسان دون ان يدرى او ينتبه لذلك، وأشياء يستفيد منها مباشرة، وهذا كثير جدًّا هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ

سماء أم سماوات

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا فسر" استوى" بمعنى قصد في هذا الموضع فقط، وهذا التفسير لم ينفرد به ابن كثير بل قال: به غيره، ولكن المشهور عند عامة أهل العلم من أهل السنة خلاف ذلك في هذا الموضع،وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم، ٌ أي: وعلمه محيط بجميع ما خلق، كما قال:أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ سورة الملك:١٤.

الآن هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَات يقول: فخلق السماء، والسماء هنا اسم جنس فلهذا قال:فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ، يعني كيف قال:ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ ثم جمع فقال:فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ كيف ذكر واحدة ثم ذكر الجمع؟.

الجواب بكل سهولة هو أن السماء جنس يصدق على الواحد والكثير، ولهذا قال:فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وقوله تعالى إلى، أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاء، سورة الملك:١٦،

وتفصيل هذه الآية كما يلى،

وهو قوله تعالى : (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأرض فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَال: لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قال:تَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ سورة فصلت:٩-١٢.

يعني الآن آيات البقرة،، خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ يعني بالضرورة خلق الأرض وخلق ما فيها ثم استوى إلى السماء، فظاهر آية البقرة أن خلق السماء كان بعد الفراغ من خلق الأرض وما فيها. وكم كان قد استغرق خلق الأرض وما فيها؟ تدل عليه آية فصلت، (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، فخلق ذات الأرض في يومين، ثم قال:وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ،، يعني خلقها في يومين، ودحاها في يومين، (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا، سورة النازعات:٣١، فظاهر آية البقرة أنه قد فرغ من ذلك جميعًا ثم خلق السماء، وآية فصلت قال: بعدما ذكر هذا وهذا أربعة أيام قال:ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ أي: أن خلق السماء كان بعد ذلك جميعًا.

ففي هذا دلالة على أنه تعالى إلى ابتدأ بخلق الأرض اولا: ثم خلق السموات سبعًا، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك، وقد صرح المفسرون

فأما قوله تعالى: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا سورة النازعات:٢٧-٣٢.

الآن في آية البقرة خلق السماء كان بعد خلق الأرض، وآية فصلت خلق السماء بعد خلق الأرض وما فيها أيضاً، وهذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، لاحظ ما قال:والأرض بعد ذلك خلقها قال:وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا بعد خلق السماء، بعد ذلك، فلاحظ في آية فصلت جاء بـثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ، وفي آية البقرة ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ.

ولتوضيح ذلك إن، ثُم، هاهنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر، لا لعطف الفعل على الفعل، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس -ا.

هذا الكلام هو جواب عن هذا الإشكال لكن هناك أجوبة أقوى من هذا.

وقال: مجاهد في قوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا قال:خلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ، فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ قال:بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين، يعني بعضهن تحت بعض.

وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء، وفي صحيح البخاري: أن ابن عباس -ا- سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديمًا وحديثًا.

معانى دحي الأرض:

وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله: وَالأرضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا

ففسر العلماء الدحي بمعنى اخر فقال: بإخراج ما كان مودعًا فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحَى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعًا فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، -والله أعلم.

الآن انظر إلى هذه الآيات مجتمعة، خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاء،

أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا، إلى أن قال:وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ،

وفي الآية الأخرى: وَالأرضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا

فبعض أهل العلم تخلص من هذا الإشكال، فقال:إن" ثم" بمعنى الواو، و" ثم" قد تأتي بمعنى بالواو يعني ليست للترتيب، المعنى المتبادر من" ثم" الترتيب مع التراخي فتخلصوا من هذا الإشكال فقالوا: إن" ثم" المقصود بها معنى الواو، فالله يذكر أشياء مما خلق ولا يقصد به الترتيب هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات

قال:ثم بمعنى الواو فلا ترتيب، إذًا لا إشكال عندنا بأن هذه بعد هذه في بعض الآيات، وهذه بعد هذه بالعكس في بعض الآيات، نقول:" ثم" بمعنى الواو وانتهينا.

ونخلص من هذا الإشكال، فمن قال:إنها للترتيب لكن ترتيب خبر على خبر، ومن قال:هي تأتي بمعنى الواو، ويستدلون على هذا بأمثلة من القرآن فيها ذكر" ثم" ويقولون: هي ليست للترتيب

في الخارج وإنما هي ترتيب خبر على خبر فى قوله تعالى إلى، فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ سورة البلد:١١-١٣ إلى أن قال:ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا... سورة البلد:١٧

هل بعدما يتصدق ويفك رقبة إلى آخره يكون بعد ذلك في الواقع يكون مؤمنًا، هل الإيمان يعقب هذه الأشياء؟

أو الإيمان قبلها ولا تصح إلا به؟ بالطبع هو كذلك، فليس هذا من باب ترتيب الأمور كما تحصل في الواقع، وإنما هو من باب ترتيب خبر على خبر،

تقول مثلاً: أكرمت زيدًا ثم سافرت معه ثم جلست معه ثم قدمت له هدية

وقد تكون الهدية هي أول شيء أو الجلوس معه أول شيء، ثم أكرمته ثم سافرت معه، فأنت لا تقصد ذكر هذه الأشياء كما حصلت وإنما ترتب بـ" ثم" تقصد ترتيب خبر على خبر، أو تقصد بها معنى الواو، هكذا أجاب بعض أهل العلم.

وأحسن ما يجاب به عن ذلك هو ما ذكره ابن عباس -ا- هنا: أن الله خلق الأرض في يومين ثم استوى إلى السماء فخلقها في يومين، ثم بعد ذلك دحى الأرض في يومين،

والمراد بالدحو كما فسره بعده، أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا هذا في يومين وذلك قوله - تبارك وتعالى: وَالأرضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا يعني بعد خلق السماء،

وَإِذْ قال: رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قال:وا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قال: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاتعلَمُونَ(٣٠)

فقوله - تبارك وتعالى،:وَإِذْ قال: رَبُّك: يخبرتعالى بامتنانه على بني آدم، واذ قال: رَبُّكَ أي: واذكر يا محمد إذ قال: ربك للملائكة، فدائماً" إذ" هذه تكون منصوبة، ومسبوقة بفعل مقدر تقديره: واذكر،

فالتقدير: واذكر إذ قال: ربك، وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ الأعراف:١٧٢، اى، واذكر إذ أخذ ربك من بني آدم، بعضهم يقول: إذا دخلت على فعل ماضٍ فهي للمستقبل، وإذا دخلت على المضارع فهي للماضي، وَإِذْ قال: رَبُّكَ، واذكر إذ قال: ربك للملائكة، إِذْ قال: دخلت عليه، لكن هذا إذا نظرت إليه في التطبيقات تجد أنه غير دقيق، ستجد أن الواقع يخالفه في أمثلة كثيرة، إِذْ قال: اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ آل عمران:٥٥، يعني في المستقبل،

وَإِذْ قال: رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً، يخبرهم عن شيء في المستقبل، لكن هذا ليس في كل الأمثلة، بل حتى في نفس المثال هو يخبر عن أمر مضى- وانقضى-، سواء في المثال الأول، أو في المثال الثاني، لكن حينما قال:ها الله ذكر شيئاً يكون في المستقبل.،ومن امثلة ذلك،

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ الأحزاب:١٢. هنا دخلت على المضارع، يقولون: يعني وإذ قال: المنافقون، يخبر عن شيء مضى-، خلاف وَإِذْ قال: رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً يعني سأجعل فيها خليفة، لكن كما قلت: إذا تتبعت الأمثلة لا تجده مطرداً.

معاني الخليفة

ومن معانى خليفة، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ، يعني أن هؤلاء من المخلوفين، خلف من بعدهم أناس، جاء من بعدهم أناس يخلفونهم أي يكونون خلفاً لهم،

فالخليفة بمعنى المخلوف أي: أن الناس يخلف بعضهم بعضاً في الأرض كما هي سنة الله في خلقه،

ولا يقال:خليفة الله في أرضه، وقد صرح جماعة من أهل العلم بأن ذلك لا يصح ان يقال: خليفة الله فى ارضه، ولا يجوز إطلاقه.

،وهنا لفته هامة، لا شك أن خلق الملائكة كان سابقا على خلق آدم عليه السلام، فقد أخبرنا الله تعالى إلى في أكثر من موضع من كتابه العزيز أنه أعلم الملائكة بأنه سيخلق بشرا من طين، ثم أمرهم بالسجود له حين يتم خلقه، وذلك دليل ظاهر على أن الملائكة كانوا موجودين قبل خلق البشر.

حيث يقول الله تعالى إلى: (إِذْ قال: رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) ص/٧١-٧٢

كيف عرفت الملائكة أن الخليفة الجديد سيسفك الدماء؟

وللملحدين سؤال هنا وهو اذا كانت الملائكة خلقت قبل الانسان فكيف عرفت ان الخليفة الجديد سيسفك الدماء؟

والجواب: اختلف في ذلك أهل العلم على أقوال، :

القول الأول: أنهم علموا ذلك بإعلام الله تعالى إلى لهم، وإن كان ذلك لم يذكر في السياق

مثل قوله تعالى إلى حين اخبر جبريل عليه السلام سيدنا محمد صلى الله عليه والسلام وان منا الا له مقام معلوم فدل على ان الله تعالى إلى اخبرهم بمقامهم ومكانتهم التى لا يتجاوزونها ولم يخبرنا عنها فى القران وانما دل عليها السياق

قال:ه ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد وابن قتيبة. كما في" زاد المسير" لابن الجوزي (٦٠/١)

ويقول ابن القيم -رحمه الله-:" وفي هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بني آدم سيفسدون في الأرض، وإلا فكيف كانوا يقولون ما لا يعلمون، والله تعالى إلى يقول وقوله الحق (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)، والملائكة لا تقول ولاتعالىمل إلا بما تؤمر به لا غير، قال: الله تعالى إلى (ويفعلون ما يؤمرون)" انتهى." مفتاح دار السعادة" (١٢/١).

القول الثاني: أنهم قاسوه على أحوال من سلف قبل آدم على الأرض، وهم الجن، فقد سبقوا الإنسان في الأرض وكانوا يفسدون فيها ويسفكون الدماء، فظنت الملائكة أن البشر سيكونون على حال من سبقهم.روي نحو هذا عن ابن عباس وأبي العالية ومقاتل. انظر" زاد المسير" (٦١/١)

القول الثالث: أنهم فهموا من قوله تعالى إلى (خليفة) أنه الذي يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم، قال:ه القرطبي" الجامع لأحكام القرآن" (٣٠٢/١).والمعنى: أنه إذا كان هناك خليفة يحكم بين الناس في المظالم، فإنه يلزم من ذلك أن هؤلاء الناس تقع منهم المظالم.

وقولهم، ونحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ)، فالحاصل أنهم يقولون: وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ أي: ننزهك ونطهرك عن كل ما لا يليق بجلالك وعظمتك، وأخرج مسلم عن أبي ذر أن رسول الله ، سئل أي الكلام أفضل؟ قال:ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده: سبحان الله وبحمده.

قال: الله تعالى إلى لهم مجيباً لهم على هذا السؤال: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاتعالمُونَ، أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لاتعالمون أنتم، فإني جاعل فيهم الأنبياء، وأُرسلُ فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد

والأولياء والأبرار والمقربون، والعلماء العاملون، والخاشعون والمحبون له -تبارك وتعالى، المتبعون رسله -صلوات الله وسلامه عليهم.

، وقيل معنى قوله تعالى ، جوابًا لهم: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاتعلَمُونَ: إن لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء، والحالة ما ذكرتم لاتعلَمُونَها.

وقيل: بل تَضمّن قولهم: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدلاً بني آدم، فقال: الله تعالى إلى لهم: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاتعلَمُونَمن أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق لكم، ذكرها الرازي مع غيرها مع الأجوبة، والله أعلم.

قال: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاتعالمُونَ، لا شك أنه جواب على قولهم،: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وذلك أن الله له حكمة من خلق آدم وذرية آدم، فيكون منهم هؤلاء الأصفياء من الأنبياء، ومَن كان من أتباعهم من الشهداء والصالحين إلى غير ذلك.

,وكذلك أيضاً لإقامة العبودية لله في الأرض.

وكذلك أيضاً ما علمه -تبارك وتعالى- مما سيقع في هؤلاء الذرية حيث إنهم سينقسمون إلى فريقين: أهل الإيمان وأهل الكفر، ويحصل الصراع بين الخير والشر، فتظهر معاني أسماء الله وصفاته، فيُنزل نقمته بأعدائه، وينصر أولياءه، وتنزل ألطافه ورحماته بهؤلاء المصطفَيْن، إلى غير ذلك من المعاني التي لا تخفى، فكل ذلك من حكمته ، ثم يصيرون بعد ذلك إلى دار كرامته، وأولئك الأشقياء يصيرون إلى النار.

وهنا لفته هامه: وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه. وأهل السنة يقولون: إن ذلك واجب بالشرع، ويستدلون بمثل هذه الآية: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً،

ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم، ويقيم الحدود، ويزجر عنتعالىاطي الفواحش، إلى غير ذلك من

الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام، وكيف تنال الإمامة

وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب،

اولا: يجب ان نعلم انه لو كان هناك نص بتعيين خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما خالفه احد لان مخالفته ستكون مخالفة لله وللرسول وليس هذا فحسب بل ان هذا الخليفة سيكون له جانب من الصواب ان يعين هو ايضا وبالن إلى يصبح الخليفة والامام على مر الزمان مقصور على طائفة معينة لا يستطيع احد مخالفتهم وان كان فى الناس افضل منهم علما ودينا

وينبغي ان لا ينظر إلى ابى بكر الصديق فان رسول الله صلى الله عليه وسلم اشار إلى اسبقيته حين جعله اماما لهم فى الصلاة ولم يكن احد حينها افضل من ابى بكر الصديق

وكما ينبغى ان لا ننظر إلى ما قام به ابو بكر رضى الله عنه حين عين عمر بن الخطاب خليفة لأسباب منها ان ابا بكر رضى الله عنه يعلم انه ليس فى الناس من هو افضل من عمر رضى الله عنه، ورغم هذا لم يعينه الا بعدما استشار فيه اهل الحل والعقد

ولذا فان ما فعله عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين موته. من انه اختار عددا ممن رضى الله عنهم وجعل منهم محلس شورى يختارون الخليفة منهم هو عين الصواب لانه ليس فى الناس رسول الله ليوحي الله تعالى إلى له بمن يستحق هذا المنصب وليس فى الناس ابو بكر من له الافضلية المطلقة

و الشورى تكون في جماعة صالحين، وليست شورى في كل الناس الطيب والرديء، والفاسد والصالح، ليس كل هؤلاء يستشارون في أمر الخليفة، وإنما يكون ذلك بين أهل الصلاح، والفضل، والعلم، والسداد، هؤلاء هم الذين يستحقون أن يؤخذ رأيهم في مثل هذه الأمور،، وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا النساء:٢٧،

فإن أولئك إذا استشرتهم فإنهم لا يدلونك إلا على ما فيه الخبال والضياع للأمة، والبلاد والعباد. والعلماء يذكرون شروط لاختيار الخليفة، من أبرزها أن يكون مجتهداً، يعني عالماً، بلغ رتبة

الاجتهاد، ومن أبرزها أن يكون سليماً من الإعاقات والعاهات، لا يكون أعمى مثلاً، أو غير ذلك من الأمور التيتعاليقه،

لو فسق الخليفة او الحاكم: يعني عندما بايعوه كان صالحاً، ثم تغير صار فاسداً، هل ينعزل أو لا ينعزل؟

فيه خلاف، والصحيح، أنه لا ينعزل لقوله -عليه الصلاة والسلام: إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان، وهل له أن يعزل نفسه؟ فيه خلاف، وقد عزل الحسن بن علي نفسه، وسلّم الأمر إلى معاوية - وأرضاه، لكن كان هذا لعذر.

لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله

فإذا وُجد المقتضي أو غلبت المصلحة في هذا فله أن يعزل نفسه، وأما عثمان رضى الله عنه فالأمر عنده يختلف لان من قاموا عليه كانوا مجرمين وكاذبين افتروا عليه اخطاء لم يفعلها ثم ان عثمان بن عفان رضى الله عنه لم يكن فى الناس وقتها من هو افضل منه وهو من هو فى المكانة والدين والورع

ولذلك ثبت رضى الله عنه لرأي رآه. ؛وهو،لئلا يفتح للناس باباً، فهؤلاء لمّا خرجوا على عثمان رضى الله عنه، وطالبوه أن يعزل نفسه أبى كل الإباء، وقال:"لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله" مع أنه أزهد الناس في الدنيا، لكنه أراد أن لا يفتح بابًا للناس، كلما رأوا شيئاً يكرهونه من إمامهم، قاموا عليه وطالبوه بأن يعزل نفسه فتبقى الأمور والناس فوضى. لكن كان هذا لعذر، وقد مدح على ذلك. فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر، فلا يجوز لقوله -عليه الصلاة والسلام: من جاءكم وأمركم جميع، يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان وهذا قول الجمهور،

ويجوز نصب إمامين أو أكثر، إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقال:يم بينهما، او حدث تفتت للأقطار الاسلامية كما هو حادث فى زماننا فينبغي على كل قطر ان يختار من يدير له اموره. اما اذا زال العدوان واصبحت كلمة المسلمين واحدة وليس بين اقطارهم حدود ساعتها وجب العودة إلى فكرة الخليفة العام وما سبق انما هي استنباطات لأهل العلم، قد تصيب وقد تخطئ، والله اعلم

هل اعترض الملائكة على خلق ءادم عليه السلام

تنبيه هام: نعود لقصة ادم عليه السلام وسؤال الملائكة لله رب العالمين فليس في هذا السؤال من الملائكة المكرمين لرب العزة سبحانه، عن خلق آدم وذريته اعتراض على الحكمة، أو معارضة لله سبحانه، فإنهم منزهون عن ذلك.

قال: ابن كثير رحمه الله: وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه البعض، وقد وصفهم الله تعالى إلى بأنهم لا يسبقونه بالقول، أي: لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه.

وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك ؛ يقولون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء، مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك، أي نصلي لك... ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهل وقع التقصير منا؟

قال: الله تعالى إلى مجيباً لهم عن هذا السؤال: إني أعلم مالاتعالىلمون أي: إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف، على المفاسد التي ذكرتموها، مالاتعالىلمون أنتم ؛ فإني جاعل فيهم الأنبياء، وأرسل فيهم الرسل، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء والعاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالىالمتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم.) تفسير ابن كثير (٦٩/١).

ونقول، ان الله تعالى إلى انما اراد ان يطلع الملائكة والسموات والارض انه سبحانه سيخلق خلقا يعبدونه ويسجدون له ويعظمونه رغم انهم مخيرون بين الطاعة او المعصية وليسوا مجبرين على الطاعة مكرهين عليها مثلهم، والحمد لله ان صدق فينا قول ربنا، انى اعلم مالاتعالىلمون فلله الحمد والمنة، وايضا لان هؤلاء الملائكة سيكلفون بمتابعة هذا المخلوق الجديد فمنهم الكرام الحافظين ومنهم الكرام الكاتبين ومنهم الموكل بالأرزاق ومنهم من سيوكل بقبض روحه، ولذا من المفروض ان يكونوا حاضرين شاهدين لهذا المخلوق ومتابعين حياته من مبدءها لمنتهاها

شبهة وجوابها: هل كان إعلام الله سبحانه للملائكة بخلقه لآدم مشاورة:

ولكننا نجد اقوالا للملحدين وغيرهم لا يقبلها عقل ولا منطق فبعضهم يقول فى قوله - تبارك وتعالى: وَإِذْ قال رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرضِ خَلِيفَةً

وقولهم ان هذا للمشاورة، بالطبع لا يحسن أن يقال: ذلك، فالله أجل، وأعظم من هذا؛ لأن الذي يحتاج للمشاورة هو مَن قصر علمُه أو قصر بصره في الأمور، يعني جهة الحكمة في وضع الأمور في مواضعها، وإبقائها في مواقعها، أو لقصور العلم، فيحتاج إلى أن يشاور ليعرف ما جهل، أو ليضع الشيء في محله، فيستشير، وقد يفعل ذلك تطييباً للقلوب، والله ليس بحاجة إلى شيء من ذلك، هو الغنيُّ الغِنى المطلق (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِه، البقرة:٢٥٥، فكمال ملكه وغناه بحيث لا يحتاج إلى الخلق، عرض الأمانة على السماوات والأرض:

وهنا لفته هامة، نعلم جميعا ومن القران الكريم ان الله سبحانه وتعالى عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال إلا أنهم أعلنوا الخضوع لله وانه لا طاقة لهم بحملها فيقول جل وعلا(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) الاحزاب٧٢-.

ثم بين سبحانه وتعالى أنهم أعلنوا الطاعة فقال: سبحانه: (ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقال: لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قال:تَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) فصلت١١.

وأعطى سبحانه وتعالىالإنس والجن حرية العقيدة فقال: جل وعلا (وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) الكهف٢٩.

فإذا بهم أكثر من فريق فمنهم من آمن بالله وملائكته وكتبة ورسله واليوم الآخر وعمل لذلك ومنهم من ضل عن سواء السبيل(وَقال:وا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)(الجاثيه٢٤.

وحين أرسل الحق سبحانه وتعالى رسلا مبشرين ومنذرين وانزل معهم كتبا ليعلم الناس مراد الله جل وعلا منهم ولينظم بهذه الكتب حياتهم فلا يظلم بعضهم بعضا، فإذا ببعض الأمم تتجرأ على الله جل وعلا وتحرف كلامه سبحانه عن مواضعه وتلبس الحق بالباطل ووصل بهم الأمر إلى كتمان الحق وهم يعلمـــــون.

ولذا انزل الحق سبحانه وتعالى كتابا كريما ختم به الرسالات وهو القرآن الكريم وتكفل سبحانه وتعالىبحفظه فقال:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر٩) فعجزت الإنس والجن على أن يأتوا بسوره من مثله كما بينا ووضحنا من قبل

وبين سبحانه وتعالى في القران الكريم خبر الأمم السابقة وما فعلوه مع أنبيائهم كما ذكر الحق سبحانه وتعالى الكثير من الأمور التي ستحدث في المستقبل حتى يوم القيامة وما بعدها فأصبح القران الكريم فوق أنه كتاب كريم فيه تبيان كل شئ، وفيه تنظيم الحياة على أعلى مستوياتها وقوانين راقيةً قدر منزلها ومشرعها سبحانه وتعالىنجده خير شاهد على أحداث الأمم السابقة.

كيف يجتمع مدح أهل الكتاب وذمهم

فهناك آيات تتحدث عن بنى إسرائيل مثل قول الحق جل وعلا مبيناً مكانة التوراة والإنجيل(إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُور) المائدة ٤٤. وقوله تعالى إلى(وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) المائده٤٧.

وقوله سبحانه (وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)المائده٤٣.

وهناك آيات أثنى الحق سبحانه وتعالى فيها على أتباع نبي الله موسى عليه السلام فقال: سبحانه(وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف ١٥٩.

واثني سبحانه وتعالىعلى اتباع نبي الله عيسى عليه السلام فقال: جل وعلا (وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً) الحديد٢٧.

ولكن نقرا آيات أخرى تظهر فساد أهل الكتاب كقوله تعالى إلى (وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) – (البقره٧٥).

ومثل قوله تعالى إلى (لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لبئس مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ) – (المائده٦٣)

وقوله تعالى إلى (ولقد علمنا الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) (البقره٦٥)

وقوله سبحانه وتعالى(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ-كَانُواْ لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لبئس مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) المائدة ٧٨-٧٩.

وقد يخيل إلى قارئ هذه الآيات و أمثالها التي تتناول أهل الكتاب وما قاموا به يخيل إليه أن بينها تضاد، إذ كيف يذكر الحق سبحانه وتعالى أن أهل الكتاب أمة يهدون بالحق وأن في قلوب بعضهم رأفة ورحمة ثم في موضع آخر يقول جل وعلا أن قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعة ويستحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله

وحين تطلع على أحوال وتاريخ أهل الكتاب وتقرأ كتبهم وما أضافوه وما غيروه وكتمانهم الحق وإلباسهم الحق بالباطل تجد نفسك دون أدنى تردد تقول صدق الله ولذا رأيت أن استعين بالله جل وعلا أن يوفقني في تبيان وتوضيح صدق الحق جل وعلا فيما اخبر به عن بنى إسرائيل.

وأنا اعلم أنى لست شيئا حتى أبرهن على صدق الله جل وعلا ولكن من باب (بلغو عنى ولو آية) وبخاصة أن كل ما ذكره القران الكريم عن بنى إسرائيل صدق

فالتوراة في زمن سيدنا موسي عليه السلام كانت على حالتها الصحيحة التي انزلها الله جل وعلا بها فكانت حقا، هدى ونور، وامن بسيدنا موسي عليه السلام رجال مخلصون من قومه فكانوا يهدون للحق وبه يعدلون.

كما أن الإنجيل في زمن سيدنا عيسي عليه السلام كان كما انزله الله جل وعلا فكان أيضا، هدى ونور، وامن بسيدنا عيسي عليه السلام رجال مخلصون أوفياء فجعل الحق في قلوبهم،

رأفة ورحمه، وظل الأمر كذلك حتى انتقل موسي عليه السلام إلى جوار ربة، ورُفِع المسيح عليه السلام إلى السماء.

وما إن مرت الأيام وتعاقبت السنون حتى قست قلوبهم فبدلوا وغيروا وحادوا عن الطريق المستقيم، بل عاندوا وكفروا وعصوا ربهم فاستحقوا اللعنه والطرد من رحمة الله

ولذلك رأيت أن استعين بالله سبحانه وتعالى بكتب السابقين من العلماء.وادعوه سبحانه وتعالى أن يعينني بقدرته وأن يوفقني بعظمته ويستعملني فيما يرضيه وينفع بهذا الكتاب العباد ويفتح به بصيرة قوم لا يعلمون فهو ولى ذلك والقادر عليه (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) يونس٩٩.

ولكي اثبت صدق القران الكريم فيما اخبر به عن بنى إسرائيل رأيت أن أوضح ما ذكر فى كتب اليهود والنصارى والتيتعالىرف بالعهد القديم والعهد الجديد مقارنا ذلك بما جاء فى القران الكريم وما أردت بهذه المقارنة الا كما يقال: (بضدها تضح الأشياء)

لأنه حين يقف القارئ على أخبار بنى إسرائيل موثقة من كتب السابقين من العلماء مؤكدا ذلك بما حكاه القران الكريم حتى نعلم أن (صدق الله)

فنحمد الله الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور،ومن علينا بكرمه وانزل علينا خير كتبه وتكفل سبحانه وتعالىبحفظه حتى يظل إلى قيام الساعة مرشدا و نورا للعباد بإذن الله تعالى

ولنعلم انه مادام القران الكريم قد صدق فيما حكاه عن الأمم السابقة إذن فليس هناك شك في صدقه جل وعلا فيما اخبر به عن يوم القيامة وعن البعث والنشور والحساب والجنة والنار ومن ثم فعلينا أن نعمل لذلك اليوم لقوله جل وعلا (وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)البقرة٢٨١

وبالقران الكريم المحفوظ بفضل الله نستطيع ان نرد ايضا على من ينكر البعث والنشور والقيامة لأنه ظهر فى هذا العصر ملحدون كثر يريدون ان يشككوا الناس فى كل الثوابت ويبغونها عوجا مستغلين ندرة الثقافة والفقه بين الناس وكذا مستغلين سرعة انتشار المعلومات على شبكات التواصل الاجتماعي،

فقاموا بنشر افكار ضاله ومزيفة وبخاصة عن ما جاء فى القران الكريم مستغلين الضعف الدينى لدى كثير من الناس ظانين انهم ان نجحوا فى ذلك فيكونون قد اضروا بالإسلام وبالمسلمين بدلا من خوض الحروب العسكرية المكلفة فى المؤن والارواح

ونحن بدورنا طالما وصلت الينا افكارهم الضالة ونستطيع بفضل الله تفنيدها اصبح لزاما علينا ان نبينها للناس ليعرفوا الغث من الثمين امتثالا لأمر ربنا حل وعلا، واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس، واقتداء بالقران الكريم حين قال تعالى: (ان الله لا يستحى ان يضرب مثلا ما بعوضة)، فكما ان الحق سبحانه لا يستحى ان يضرب الامثال ولو بالبعوض ليوضح ويبين للناس وفى قرانه الكريم

فنحن لن نستحى ان ننقل كلام الملحدين وغيرهم من اليهود ونفنده ونبين زيفه وبطلانه حتى لا يلتبس الامر على من يطلع عليه او يظن انه حق لان احدا لم يرد عليهم

السر في تكرار قصة ءادم عليه السلام:

وبما اننا فى صدد الحديث عن ادم عليه السلام فينبغى ان اذكر ان ادم عليه السلام من الشخصيات التي تعرضت لتشويه كثير سواء من اليهود او من الملحدين

ولذا كان لزاما علينا ان نبين زيفهم وباطلهم بالحق الذى حكاه رب العالمين فى القران الكريم. وقصة آدم عليه السلام في القرآن كبقية القصص عدا قصة يوسف عليه السلام نجدها ترد في أكثر من موضع على هيئة لقطات يتكرر بعضها والبعض لا يتكرر، وقد كان هذا التكرار معجزًا ففي كل موضع تعرض القصة بأسلوب يناسب جو السورة (أو الفقرة) المعروضة بها علاوة على لقطة أو جزئية يتفرد بها كل عرض مكرر، وكل لقطة غير مكررة لا تناسب إلا الموضع الذي ذكرت فيه.

فالقصة في سورة البقرة كان محورها استخلاف آدم في الأرض ؛ لأن موضوع السورة كلها الخلافة ؛ خلافة آدم، خلافة بني إسرائيل، ثم خلافة المسلمين (تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة).

أما في سورة الأعراف فالقصة تعرض في إطار قصة البشرية الطويلة من الجنة وإليها ودور إبليس في ذلك، ففريق من الناس يعود إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها، وفريق ينتكس إلى النار

وأما في سورة الإسراء فمحور الرواية وسبب ذكرها هو التخويف فقد ذكر قبلها { وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً } [الإسراء: ٥٩]؛ لذلك كان مناسبًا عند ذكر حوار المولى عز وجل مع إبليس أن يقول تعالى: { وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالاولا:دِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً } [الإسراء: ٦٤]، وقس على ذلك سائر المواضع

كيف عرفت الكتب القديمة بالحقائق المشابهة لما ورد في القران الكريم عن أصل خلق آدم وخصائصه الجسدية

فهناك ألوان أخرى من الإعجاز في هذه القصة لا ندركها إلا بمقارنة ما ورد من مادة قصصية في القرآن الكريم وما ورد في كتب أهل الكتاب، فبضدها تتميز الأشياء

سواء منها ما يُتَعبَّد به كالتوراة أو ما ورد في المخطوطات المكتشفة حديثًا

وكذلك النصوص المخفية" السوديبيجرافا" Pseudepigrapha

ومثل كتاب" آدم وحواء" التي لم يطلع عليه إلا شديدي التخصص من علماء الدين عند اليهود أو النصوص القديمة مثل:

– كتب" التلمود(" Talmud: وهو يعني في حرفية الكلمة التعاليم، وهيتعالياليم قدامى حاخاماتهم فيما قبل البعثة المحمدية.

– وكتب الترجوم Targum: وتعني الترجمات الآرامية للتوراة.

– وكتب الميدراش Midrash: وتعني دراسات حول قدامى الربيين حول التوراة، وهي سلسلة كبيرة من الكتب نختلف كثيرًا مع التوراة نفسها (من أهمها هنا كتابا" بسكيتا رباتي" ،" جنيسيز ربَّا". ** وهذه الدراسة التي نحن بصددها بمقارنة ما ورد في القرآن في هذه القصة بما ورد في الكتب سالفة الذكر وناتى بالقصة من اكثر من مصدر من بدايتها لتضح الامور

اولا:،

ا – خلق ادم عليه السلام

في القران الكريم يقول تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦ } [الحجر ٢٦

وفى(العهد القديم، فى سفر التكوين) (٢: ٨) ما يتفق مع القرآن الكريم في بيان أن آدم عليه السلام خلق من التراب

فيقولون فى سفر التكوين، " وَجَبَلَ الرَّبُّ الإلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأرضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً." (تك ٢: ٧).

بينما لا يذكر العهد القديم شيئا عن كيفية خلق الجن كما ذكر القران الكريم فى قوله تعالى إلى، والحان خلقناه من قبل من نار السموم

ويذكر كتاب" آدم وحواء" من كتب السوديبجرافا، لفظ الطين مثل القرآن الكريم، وأنه نفخ فيه من روحه لكن العهد القديم لم تذكر أن الله خلقه بيده كما ذكر القرآن

بينما نجد ذلك في بعض كتب اليهود القديمة Yerahmeel " كما يتفق هذا الكتاب مع الأحاديث النبوية في ذكره أن آدم خلق من جميع الأرض (مع اختلاف الألوان والأماكن) ذكر ذلك أيضًا في بعض كتب الصابئة.

بينما تذكر" تعاليم أمنوبي" المصرية القديمة (١٠٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م) أن الإنسان من طين وقش

أما مصطلح" الصلصال" كما ورد في بعض الآيات القرآنية فنجد له نظيرًا في الأدب اليوناني القديم (كتاب:" الثيوجونيا" لهزيود – غالبًا) حيث يذكر أن الإنسان الأول واسمه (إيبيميتيه) خلق من الصلصال

اما كتب الهنود المقدسة (الفيدا) تذكر الإنسان الأول وتسميه" ياما" ولم تذكر أصله.

أما الأساطير الأكادية فتذكر أن الإنسان خلق بقتل أحد الآلهة وخلط دمه بشيء من الطين، وفي مواضع أخرى يشار إلى خروج الإنسان من باطن الأرض كما تخرج النباتات

في معرض كلامنا عن أصل آدم وخصائصه الجسدية لا نغفل أن بعض كتب التلمود (Tanhuma وغيرها تذكر أن طول ادم عليه السلام يصل من السماء إلى الأرض وهذا غير صحيح

بينما يذكر الحديث الشريف أن طوله عليه السلام ستون ذراعًا في السماء، فقد ذكر البخاري ومسلم في صحيحيهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعًا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن" .

والجواب للسؤال السابق:

فقد تبين لنا مما سبق أن كثير من الكتب تتحدث عن خلق ادم من تراب وطين فكيف عرفت هذه المصادر الاخرى غير القران هذه الحقيقة؟

او من اين جاءت هذه الكتب بالحقائق المشابه لما فى القران الكريم؟

نقول بان الله سبحانه وتعالى أخبرنا فى القران الكريم بقوله تعالى : (وإن من أمة الا خلا فيها نذير)، وهذا يعنى أنه ما من أمة من لدن ادم عليه السلام حتى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلا بعث الله تعالى إلى اليها رسول ومن المعلوم أن رسالة جميع الرسل واحدة وهى قوله تعالى إلى وما ارسلنا قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا انا فاعبدون

وقوله تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسي وعيسي ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)

فمن هذه الآيات يتبين لنا ان جميع الامم وصلتها الحقائق مثلنا تماما ولكن ائتمن الله علماءهم بحفظ كتبهم فعجزوا عن حفظها فضاع منها الكثير ولم يبقى منها الا النذر اليسير

ولذلك ما نجده فى كتب السابقين موافقا للقران الكريم ليس ابداعا من اصحابها او تكهنا وانما هو بقايا الكتب السماوية التى نزلت عليهم يوما ما

ولذلك سيقابلنا كثير من هذه الامور فما وجدناه موافقا لما عندنا فى القران الكريم بيناه ومالم نجده موافقا صححناه وبينا الصواب، لان قرآننا هو المهيمن على ما سبقه من الكتب وهذا ليس ذكاء منا ولكنه بفصل الله وبرحمته لان حفظ لنا هذا القران فلله الحمد والمنة

خلو العهدين القديم والجديد عن استخلاف ءادم عليه السلام في الأرض

ثانيا: – جعل ادم عليه السلام في الأرض خليفة.ذكرت فى القران الكريم على النحو الت إلى

{ وَإِذْ قال: رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } [البقرة: ٣٠] وقد استوفينا الكلام عن هذه النقطة فى موضعها ولله الحمد ، بيننا يخلو العهدين القديم والجديد من ذكر أي شيء عن هذه الجزئية بل حينما تحدثوا عن هبوط الانسان للأرض انما كان طردا من الجنة وان الرب قام بطرده بعدما اكل من شجرة المعرفة واصبح مثل الاله عارفا كل شيء فطرده الرب قبل ان ياكل من شحرة الحياة ويصبح مخلدا وساعتها سيكون مثل الاله تماما فى العلم والخلود ولذلك تخلص الرب منه بسرعة

فقالوا، وقال: الرب الإله: «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد فطَرَدَ الإنسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ.” (تك ٣: ٢٤).

حاشا لله ولا نقول الا، سبحانك هذا بهتان عظيم

، و نجد فى كتاب بسكيترباتي ٨.٣.٩BR (من كتب الميدراش) وغيره يذكروا أن الله عرض موضوع خلق الإنسان على السموات والأرض ثم على الملائكة الذين اعترض أغلبهم على ذلك،، حاشاهم ذلك، بل يزيدون الامر سؤءا بزعمهم أن الله ألقى بمَلَك السلام من السماء إلى الأرض

لاعتراضه على خلق الإنسان !! فصرخ بعض الملائكة على هذا التصرف من الله سبحانه

لا نملك الا ان نقول الا، سبحانك هذا بهتان عظيم

لان الملائكة، لا يسبقونه بالقول فمن المستحيل ان يصل بهم الامر إلى هذا الحد ولكن الملحدين والمغرضين انما يقصدون بذلك ان يشجعوا ابناءهم على الاعتراض على احكام الله كما اعترضت الملائكة من قبل ولاحول ولاقوة الا بالله

سبب رد الملائكة واثباتهم انهم مسبحون لله دوما مقدسين لله تعالى

فكانوا يخشون ان يكون حدث منهم تقصير

فكان جواب الملائكة: كما وضحنا من قبل انه حين اخبرهم الله تعالى بان هذا المخلوق سيكون مخيرا بين الايمان والمعصية لما ركب فيه من شهوة وغريزة وبالتالي فان بعض ذريته سيؤمنون وبعضهم سيكفر وسيحدث بينهم خلاف مما قد يؤدى بهم إلى التناحر والقتال ف { قالوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ } [البقرة: ٣٠]

هذا كان رد الملائكة واثباتهم انهم مسبحون لله دوما مقدسين اياه فكانوا يخشون ان يكون حدث منهم تقصير، بينما لانجد لهذا الرد الجميل اثرا فى العهدين القديم والجديد ولا فى أي من كتبهم، كعادتهم لا يذكرون الحسن من القول فهم لا يطيقونه ولا حول ولاقوة الا بالله

رابعا:، رد الله تعالى إلى عليهم. { قال: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاتعلمون [البقرة: ٣٠]. وايضا لم نجد لهذا اثرا فى كتبهم بينما نحن استوفينا فيها الكلام فى موضعه فلله الحمد

اسطورة خلق آدم بوجهين

خامسا: اسطورة خلق آدم بوجهين فُصِلا عند ميلاد حواء !!!

هذه الرواية لا نجدها في القرآن الكريم.

وكذلك لا نجدها في العهد القديم.

ولا في المصادر اليهودية القديمة، بل نجدها في المصادر الوثنية البابلية القديمة، وهي خلق آدم أصلًا بوجهين فُصِلا عند ميلاد حواء

{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} ماهي هذه الأسماء

سادسا: تعليم الله تعالى لآدم الأسماء كلها {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا } [البقرة: ٣١].

وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقال: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قالوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قال: يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قال: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

هذا مقام ذكَر الله تعالى إلى فيه شرف آدم على الملائكة بما أختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له،

وإنما قدم هذا الفضل على ذلك لمناسبة ما بين المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سئلوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى إلى بأنه يعلم مالا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقب هذا؛ ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى: وَعَلَّمَ آدَمَ الأسمَاء كُلَّهَا. قال: الضحاك عن ابن عباس (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا: قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودابة وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها.

ويدل على ذلك هذه الآيات وغير هذه الآيات أيضاً، فهذه الدواب والحيوانات تتفاضل بالعلم، ولهذا قال: الله تعالى: وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تعلمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ [سورة المائدة:٤]

فهذه الكلاب هي لا شك من أحط درجات الحيوانات ومع ذلك إذاتعلمت فإنه يحل لنا ما صادت، بحيث إذا عدا الكلب على الصيد فصاده فإن كان معلماً حل ولو وجدناه ميتاً، وإن كان غير معلم فإنه لا يحل، فانظر كيف أثر هذا التعليم في مثل هذه القضية -

لكن الشاهد هنا أن هذا العلم هو علم بأسماء الأشياء، ومن هنا يقال:إن العلم النافع يشرف به الإنسان ولو كان من العلوم الدنيوية، ثم إن من اشتغل بعلوم تتعلق بالله وأسمائه وصفاته لا شك أنه أشرف ممن يشتغل بعلوم دون ذلك، وهكذا فالعلم شريف، وهو يتفاضل ويتفاوت.

ويقول الحافظ ابن كثير:" بما أختصه من علم أسماء كل شيء دونهم" : كل شيء يعني من المسميات، فلا يختص ذلك بشيء دون شيء؛ لأنه لا يوجد دليل يقوم على هذا التخصيص، فالله تعالى يقول: وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا [سورة البقرة:٣١]، فأسماء جمع اسم ودخلت عليه (أل) وذلك يفيد العموم، ثم أكد ذلك العموم بما هو صريح في العموم بقوله: الأَسْمَاء كُلَّهَا أي: كل الأسماء.

يقول ابن كثير: وهذا كان بعد سجودهم له: لاحظ الترتيب فيما ذكره الله

في إخباره اولا: الملائكة بأنه سيخلق بشراً،

قال تعالى: وَإِذْ قال: رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً

ثم ذَكر تعالى تعليمه الأسماء، ثم بعد ذلك أمرهم بالسجود، فهذا هو ترتيب الآيات، فإذا سرنا على هذا الترتيب سيقال:إن تعليمه الأسماء كان قبل الأمر بالسجود، أي: علمهم شرفه بعد أن أخبرهم بخلقه

فبين لهم شرفه جواباً على استشكالهم وسؤالهم عن الحكمة، ثم بعد ذلك أمرهم بالسجود له، أي: بعد ما تبين لهم مكانه ومنزلته، وأن الله كرمه عليهم ورفعه.فقط ابن كثير -رحمه الله- يرى غير هذا، فيقول: إنتعالىليمه وإخبارهم عن خلقه كان اولا:

ثم أمرهم بالسجود له بعد ذلك، ثم بين بعد ذلك شرفه ومكانته، فيكون ذلك كقوله -تبارك وتعالى: وَإِذْ قال: مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّه يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً [سورة البقرة:٦٧]،

ثم ذكر بعد ذلك ما ذكر من سؤالهم وتوصيفها، ثم قال: وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا [سورة البقرة:٧٣].

لا شك أن قتلهم للنفس كان هو السبب لأمر موسى عليه السلام أن يذبحوا بقرة، وهذا لا شك أنه هو السبب، ولا يمكن أن يقال: غير هذا، وهذا ما يسمونه بالمؤخر الذي حقه التقديم،

وإن نظرت إلى قوله تعالى: وَإِذْ قال مُوسَى)، فهذا من المقدم الذي حقه التأخير، ولكن الله تعالى يبتدئ بالشيء بمعنىً؛ إما لأنه هو المقصود أو الأهم أو غير ذلك.

وعلى كل حال لا يوجد في ظاهر الآيات ما يدل على أن ذلك كان اولا:، يعني أنه أمرهم بالسجود اولا: ثم علمه الأسماء، لا يوجد ما يدل على هذا، والأصل بقاء السياق القرآني على حاله وظاهرة، فلا يدَّعى فيه تقديم وتأخير إلا بدليل يجب الرجوع إليه، فهذا هو الأصل جرياً مع الظاهر والعلم عند الله تعالى.

يقول تعالى في الآية الأخرى: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ [سورة الحجر:٢٩] الفاء هنا تدل على التعقيب المباشر، وهذا يمكن يستفاد منه، ولكنتعالىقيب كل شيء بحسبه، فمثلاً الله تعالى يقول: أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا [سورة الرعد:١٧]، هل بمجرد نزول المطر تسيل الأودية أم أن ذلك يحتاج إلى وقت حتى يجتمع الماء.

كذلك في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّه أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً [سورة الحج:٦٣]، فلا تكون الأرض مخضرة بمجرد نزول الماء عليها بل

لا بدَّ أنها تحتاج إلى فترة لتصبح مخضرة.

وعلمه أسماء كل شيء فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات، ولهذا قال:ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائكةِ [سورة البقرة:٣١]

يعنى المسميات كما قال: عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال:ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة فقال:أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [سورة البقرة:٣١]،

ومعنى ذلك فقال:أنبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء [سورة البقرة:٣٠] من غيرنا أم منَّا، فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك.

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [سورة البقرة:٢٣] في قيلكم: إني إنْ جعلت خليفتي في الأرض من غيركم عصاني وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء، وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس، فإذا كنتم لاتعالملمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين.

وقوله تعالى: إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ هو على ظاهره، أي: إن كنتم صادقين في ما قلتم: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ أنبؤنى بأسماء هؤلاء

والمراد من قوله: من غيرنا أم منا: يعني أنهم قالوا: الخليفة هل سيكون من غيرنا أم منا، فنحن الذين نسبح بحمدك ونقدس لك؟

قال:وأْ سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى إلى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن يعلموا شيئا إلا ما علمهم الله تعالى إلى ولهذا قالوا: سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيم

أي العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك، وفيتعالليمك من تشاء ومنعك من تشاء، لك الحكمة في ذلك والعدل التام.

اما العهد القديم فيه روايتان واحدة منهم تبين ان الله علم ادم الاسماء وهى فى سفر (التكوين ٢: ١٩) يقولون" وكان الرب الإله قد جبل من التراب كل وحوش البرية وطيور الفضاء وأحضرها إلى آدم يرى بأي أسماء يدعوها، فصار كل اسم أطلقه آدم على كل مخلوق حي اسمًا له"

بينما نجد نصا اخر يدل على جهل ادم عليه السلام وعدم معرفته بدليل ان الرب نهاه ان يمد يده إلى شجرة المعرفة والحية هى التى وضحت لهم ان هذه شجرة المعرفة وان اكلوا منها اصبحوا كالرب عارفين كل شئ فقال:وا،

،وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الاله. فقال:ت للمرأة أحقا قال: الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. فقال:ت المرأة للحيّة من ثمر شجر الجنة نأكل. واما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال: الله لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا. فقال:ت الحيّة للمرأة لن تموتا. بل الله عالم انه يوم تأكلان منه تنفتح اعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة ان الشجرة جيدة للأكل وانها بهجة للعيون وان الشجرة شهيّة للنظر. فأخذت من ثمرها واكلت واعطت رجلها ايضا معها فأكل. فانفتحت اعينهما وعلما انهما عريانان. فخاطا اوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر

وكذلك ذكرت بعض كتب" السوديبجرافا" و" الميدراش" السابقة للإسلام:" جمع الله بهائم العالم أمام آدم وكذلك الملائكة وسئلت الملائكة أن تذكر أسماء تلك الأنواع فلم تقدر، أما آدم فذكر الأسماء بدون تردد: يا إله العالمين، الاسم الصحيح لهذا الحيوان ؛ ثور.. حصان.."

وتعليقا على ماسبق فقد وضحنا من قبل انه قد يوجد فى بعض الكتب السابقة شيئا من الصدق لأنها قد تكون بقايا كتب سماوية نزلت على انبياء سابقين

أمر الله الملائكة بالسجود لآدم، ورفض إبليس.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)

ما زال الحديث متّصلاً بخبر الله -تبارك وتعالى- عن آدم عليه السلام وبعدما اطلع الله تعالى إلى ملائكته على فضل ادم بالعلم امرهم بالسجود فسجدوا الا ابليس

فالله -تبارك وتعالى- لما بين فضل آدم عليه السلام بتعليمه الأسماء كل الأسماء، وكما عرض هذه الأسماء على الملائكة فلم يعرفوها، وفوضوا علم ذلك إلى الله وتقدست أسماؤه، فلما ظهر فضله بالعلم أمر الله -تبارك وتعالى- ملائكته أن يسجدوا لهذا المخلوق المُكرم: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ

فالله -تبارك وتعالى- أمر الملائكة أن تسجد سجود تكريم لآدم وليس بسجود عبادة،

وكما قص الله من خبر يوسف عليه السلام واخوته حينما رفع أبويه على العرش وخروا له سُجدا تصديقًا لرؤياه التي قصها على أبيه من قبل: إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ [سورة يوسف:٤] فتحقق هذا بسجود أبويه وإخوته له، فكان ذاك من قبيل سجود التكريم.

والله -تبارك وتعالى- قد شرع لنا في هذه الشريعة ألا نسجد لغيره، لا سجود تكريم، ولا سجود عبادة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها،

لعِظم حق هذا الزوج وما يتطلبه هذا الحق من التكريم والنهوض بحقوقه والخضوع الكامل له، فيما لا يُعارض خضوعها لربها -تبارك وتعالى- ولا يُزاحمه.

فهذا واذكر إذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، منعه الكِبر من أن يسجد امتثالاً لأمر الله -جل جلاله، وتقدست أسماؤه.

لاحظوا هذا الخطاب: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ بصيغة الجمع" قلنا" واذكر إذ قلنا للملائكة، وقبل ذلك، وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً

ففي سياق قص الخبر على النبي صلى الله عليه وسلم: وَإِذْ قال: رَبُّكَ بالإفراد، وإضافة اسم الرب -تبارك وتعالى- إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﷺ.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ فما الفرق بين المقامين؟ هناك في سياق خبر للنبي

والفرق بين المقامين ظاهر، هنا أمر بالسجود، وهو عنوان الخضوع، أن يسجد الملائكة الذين كانوا يقولون: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

فلم يقف الأمر عند خلق آدم بل أُمروا أيضًا بالسجود له، فهذا مقام يقتضي تعظيم الآمر وهو الله -تبارك وتعالى- ؛ ليكون ذلك أدعى إلى تنفيذ أمره وتحقيقه لما له من العظمة في النفوس ولذا قال تعالى: واذ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ) وليس في مقام الأمر، وإنما هو مقام خبر يُخبر الله نبيه عن غيوب مضت قبل أن يخلقه، وقبل أن يخلق آدم فقال تعالى: (وَإِذْ قال رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً

فهذا فيه تفنن في الخطاب، هذا بالإضافة إلى ما ذكرت من الفرق بين المقامين، ينضاف إلى ذلك أيضًا أن ذكر هذا الاسم الكريم" الرب" في الموضع السابق وَإِذْ قال: رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً

فاسم الرب يتعلق بتدبير أمور المربوبين من أهل العالم العلوي، والعالم السفلي، فيدخل في ذلك خلق آدم ويدخل في ذلك أيضًا الأمر أمر الملائكة بالسجود له، فكل ذلك من معاني ربوبيته، ومن مُقتضياتها فهو يتصرف بخلقه ويُدبر شؤونهم أمرًا ونهيًا وفعلاً وخلقًا، كل ذلك يرجع إلى ربوبيته

المُفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر

هذا الموضع أيضًا أخذ منه طوائف من أهل العلم: تفضيل آدم على الملائكة، باعتبار أن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، والسجود إنما يكون من المفضول للفاضل، وتكلم العلماء في هذا الموضع من كتب التفسير، وألم به طوائف منهم في كتب الاعتقاد وغيرها في الكلام على مسألة معروفة، وهي المُفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر، إذا أُمروا بالسجود لآدم

 فالنبي صلى الله عليه وسلم أفضل من آدم عليه السلام فإذا كان آدم أفضل من الملائكة؛ فإنه يوجد في ذرية آدم من هو أفضل من آدم ومعلوم أن رسول الله -عليه الصلاة والسلام- هو أفضل البشر، وأفضل الأنبياء والمرسلين، وهو أشرفهم، فإذا كان الأمر كذلك فيكون أيضًا غير آدم ممن له فضل ومنزلة كآدم، أو أفضل من آدم -عليهم صلوات الله وسلامه- فيكونون أيضًا أفضل من الملائكة.

فالعلماء يتكلمون على هذا، ويتكلمون على عبودية الاختيار، وهي عبودية البشر، ومن ثَم قيدوا ذلك بالصالحين من البشر، لكنها مسألة لا طائل تحتها، ولا يترتب عليها عمل؛

وذلك كان المُحققون من أهل العلم ينأون بأنفسهم عن الخوض في ذلك، والاشتغال به؛ لأنه لا يترتب عليه عمل، وإنما يشتغلون بالمسائل التي ينبني عليها عمل، فإذا عرفت أن صالحي البشر أفضل من الملائكة، أو أن الملائكة أفضل من صالحي البشر ما الذي يترتب على هذا؟

لا شيء، من الناحية العملية، لا شيء، لكن يكفينا هذا السجود أنه يدل على تشريف آدم وكما ذكرنا من قبل بأن المِنة والنِعمة الواصلة إلى الآباء تلحق الأبناء؛ ولهذا فالله يقص علينا هذا القصص امتنانًا وإخبارًا، وأيضًا لنقوم بمُقتضيات هذا التكريم، من عبادته وحده، وعدم طاعة الشيطان، والله المستعان.

ثم تأمل قوله -تبارك وتعالى: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا) الفاء تدل على التعقيب المُباشر، فهذا يدل على سرعة الامتثال والاستجابة بلا تردد،

السر البلاغي في قوله تعالى: (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ)

السر البلاغي في قوله تعالى: (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ) انها تدل على الاستزادة والتطاول في الاستكبار

فالذي توقف وامتنع؟ هو إبليس، كما قال الله -تبارك وتعالى: إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ، فهذا الاستكبار يعني الاستزادة والتطاول، والتمادي في الكِبر، فالسين والتاء هنا في استكبر بعض أهل العلم يقولون: هي للمُبالغة، وليست للطلب، يعني: تمادى في تكبره، فحصل منه هذا الامتناع، فجاءت بهذه الصيغة الاستفعال الاستكبار.

. ومن هنا ذهب بعض أهل العلم إلى أن هذه المادة:" الكِبر" لا تأتي في القرآن إلا بهاتين الصيغتين استكبر وتكبر، بمعنى أنه كأنه يتكلف ذلك وليس بكبير،

لكن هذا ليس على إطلاقه؛ لأن أصل هذه المادة فيما يُعبر به ويوصف به المعبود يُقال: الله المُتكبر وهو كبير حقًا، وهو أكبر من كل شيء فجاءت على هذه الزِنة والبناء،

ولكن بالنسبة للمخلوق لا شك أنها نقص؛ لأنه عبد لا يصلح له الترفع والكِبر، إلا أن ذلك قد لا يتأتى في ما يتصل بوصف الله فإنه يُشكل على ما ذكر.

ثم تأمل قوله -تبارك وتعالى: إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ) يعني لم يأب فقط؛ بل استكبر وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وهذا يدل على أن إبليس كان مع الملائكة حينما أُمروا بالسجود دخل في الأمر معهم، ومن هنا فهم بعض أهل العلم أن إبليس كان من الملائكة فكفر، وهذا أمر، وإن قال: به جمع من أهل العلم بما فهموا من هذه الآيات التي جاء فيها الاستثناء،

وقالوا: إن الأصل في الاستثناء الاتصال، وليس الانقطاع، ومعنى الاتصال في مثل هذا الموضع والمواضع الأخرى بمعنى أنه حينما يكون استثناء فالأصل أن المُستثنى من جنس المُستثنى منه

تقول: جاء القوم إلا رجلاً، فالرجل من القوم، تقول: رأيت المُصلين إلا زيدًا، فزيد من المصلين، ومن جُملتهم لكني ما رأيته، وهكذا، فالأصل أن المُستثنى من جنس المُستثنى منه، لكن لما تقول جاء القوم إلا بعيرًا، فالبعير ليس من القوم، فهذا يسمونه الاستثناء المُنقطع الذي لا يكون المُستثنى من جنس المُستثنى منه، تقول: أخذت النقود إلا صاعًا من تمر، صاع التمر ليس من النقود، فهذا استثناء مُنقطع، بمعنى لكن، لكن صاعًا من تمر لم آخذه، جاء القوم لكن بعيرًا لم يصل، بهذا المعنى، هذا يُقال: له استثناء مُنقطع.

فبعض أهل العلم لما نظروا إلى القاعدة، وأن الأصل في الاستثناء هو الاتصال وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ فهذا أمر للملائكة اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ،

قالوا: فالأصل في الاستثناء أن المُستثنى من جنس المُستثنى منه، إذًا: إبليس من الملائكة،لكن هذا يُشكل عليه ويُرد عليه هذا الفهم الذي لا شك أن هذه القاعدة تؤديه، لكن القرآن يُفسر بعضه بعضا، ففي جميع المواضع جاء الاستثناء هكذا

إلا في آية الكهف، إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ فهذه صريحة، ولكن بقي أولئك على قولهم أنه كان من الملائكة، طيب وكان من الجن؟

قالوا: الجن قبيل من الملائكة، صنف من الملائكة يُقال: لهم الجن، وأن ذلك هو المُراد بقوله -تبارك وتعالى: وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا [سورة الصافات:١٥٨]

قال:وا الملائكة، أن المشركين نسبوا الملائكة إلى الله -تبارك وتعالى- وهذا الكلام غير صحيح؛ لأنه خلاف الظاهر المُتبادر، والأصل حمل الكلام على الظاهر المُتبادر إلا لدليل يوجب الرجوع إلى معنى آخر، وهو التأويل، كما يقولون، فهنا لا يوجد دليل.

فيُقال:هذه الآيات تُفسرها آية الكهف، فإبليس لم يكن من الملائكة، لكنه كان معهم في الملأ الأعلى؛ ولذلك أمره الله بالخروج وطرده وأبعده وأهبطه، فهبط من السماء إلى حيث شاء الله -تبارك وتعالى-

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ما سبب هذا الإباء؟ هو الكِبر استكبر، فهذا الكِبر هو سبب البلاء والشر والشقاء، هو الذي جعل هؤلاء الكفار الذين عرفوا صدق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم

يردون دعوته، ويؤثرون الخلود في النار على الاستجابة، يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ [سورة البقرة:١٤٦]

إذا كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، إذًا هم يعلمون أنهم سيدخلون النار، وسيُخلدون فيها، ومع ذلك أصروا؛ فإن الكِبر يدفع صاحبه دفعًا، ويستفزه إلى ركوب المعاطب والمهالك، ويُعميه عن النظر فيما يُصلحه وينفعه ويرفعه.

وهكذا كان أولئك الكفار منذ أمد طويل وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا [سورة هود:٢٧]

لو كان هذا الذي جاء به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- حقًا خيرًا، يقولون: ما سبقونا إليه، يرون أن المقاييس والمعايير هي بمقاييسهم هم لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [سورة الزخرف:٣١] ينزل على هذا اليتيم! أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [سورة الزخرف:٣٢

ها هو أبو سفيان لما سمع هرقل يقول ما قال: بعد السؤالات المعروفة التي وجهها إليهم يسألهم عن النبي وعن دعوته، وعرف أن ذلك حق، وأنه سيملك ما تحت قدميه، ماذا قال: أبو سفيان حينما خرج من عنده؟ قال:"لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر"

ولاحظ الاختيار بعناية الاسم ابن أبي كبشة، وهو زوج حليمة السعدية مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ذلك ابو سفيان يريد أن يغض من النبي صلى الله عليه وسلم فالذي منعهم هو الكِبر، فهذا هو الذي في صدورهم كما أخبر الله تعالى: إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ [سورة غافر:٥٦] فهذا التعالي والترفع والتعاظم يجعل الإنسان يرد الحق،

و الإنسان قد يرد الحق؛ لأنه يرى أنه قد جاء عن طريق من هو دونه، أو يراه دونه، أو لئلا يشعر أحد أو يشعر هذا الذي جاء بالحق أن ذلك أفضل منه، فيتكبر، أو أن يُنسب إلى ضلالة في سالف دهره، قضى دهرًا وهو يدعوا إلى هذا ثم بعد ذلك يخرج أنه كان على ضلال.

أو أنه يرجع إلى المُربع رقم صفر بمعنى أنه كل هذه المآثر التي حصلها، والمكاسب التي جمعها، والمنزلة الاجتماعية التي حصلها ستضمحل؛ لأنها بالباطل، فهذا صار له في الباطل شُهرة ومعيشة، فيرد الحق بسبب هذا، وهكذا أيضًا يرد الحق لئلا يُعير بهذا، كما فعل أبو طالب عم النبي صلى الله عليه و سلم فكان كما ذكر الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في قصيدته المشهورة أنه يقول:

ولقد علمت أن دين محمد من خير أديان البرية دينا، لكنه يعتذر عن اتباعه؛ لئلا يلحقه مسبة، ويُعير أنه ترك دين الآباء والأجداد، فأخذته الأنفة والحمية، لكن هل نفعته هذه الحمية؟ أبدًا، فمات وهو يقول: هو على دين عبد المطلب.

إذًا: الحق ينبغي أن يُقبل ممن جاء به، وقد أخذ أهل العلم في قصة سليمان مع الهدهد وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ [سورة النمل:٢٢] بخبر سبأ، وسليمان ما منعه أن يرد هذا الخبر الذي ترتب عليه هذه الآثار الكِبار بسبب حقارة الهُدهد، أنه جاء بطريق هُدهد فلم يمنعه ذلك من النظر والتثبت والتحري، ثم بنى عليه ما قد علمتم مما أخبرنا الله -تبارك وتعالى.

لاحظ هنا قال:وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ [سورة البقرة:٣٤] لاحظ لم يقل وكان كافرا، وإنما جعله في جُملتهم؛ وبعد هذا التفصيل من القران الكريم وعلماء الاسلام عن موضوع السجود لادم فاننا لم نجد شيئا عنه لا فى العهد القديم ولا الجديد ولا عن اباء ابليس وكفره وطرده إلى الارض بينما ذكرته بعض كتب السوديبجرافا" كتاب آدم وحواء مما يدل على انهم اظهروا ما يشاؤون واخفوا ما يشاؤون

سبب فقدان اليهود والنصارى الكثير من الحقائق

وصدق فيهم قول ربنا، (تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا مما علمتم) ومن كثرة الاخفاء ضاع منهم الكثير ونسوا حظا مما ذكروا به فكانت النتيجة ان ابناءهم فقدوا الكثير من الحقائق، ولذا كان من الضرورى ان ينزل الله تعالى إلى كتابا يبين فيه حقيقة السابقين كاملة دون نقص ليوفيهم حقهم وليعلم الجميع ان الرسل فعلا ابلغوا رسالات ربهم

فيقول كتاب، ادم وحواء " وذهب ميكال ودعا الملائكة قائلًا:تعالىبدوا لصورة الله كما أمر.. وكان ميكال أول متعبد" ثم يذكر الكتاب رفض إبليس وأتباعه متعللًا بكونه يسبقه في الخلق فطرده الله

ويذكر ذلك أيضًا بعض الربيين Moses Hadarschan ()حين خلق الله آدم قال: للملائكة العالين" قعوا له ساجدين"

كـذلك نجـده فـي بعـض كتـب طائفـة النصـارى اليهـود Nazarene ()ألا وهـو كتـاب" Codex Nazaraeus٦V" ملوك النور العالين أعلنـوا ليقـدم ملـوك النـار فـروض العبـادة لآدم ورفـض واحـد فقط فطرحه الله في القيود.

" The Highest Kings of Light declared: let the kings of fire serve Adam.(٢٢)

هذا يقترب جدًّا من القرآن ؛ نجد في كتاب Beskita Rabbati: علة أخرى لعدم سـجود إبلـيس (غير كونه خلق اولا: كما ذكر كتاب آدم وحواء) ألا وهي أن آدم خلق من تراب الأرض (تمامًـا كمـا روى القـرآن) ولكـنهم اخطـاؤا حـين زعمـوا أن إبلـيس مثـل الملائكـة خلـق مـن بريـق السـكينة، فالحقيقة انه من الجن والجن خلقوا من نار

شبهة وجوابها: هل توجد أنثى قبل حواء

ثامنا: وجود أنثى قبل حواء: هذه الرواية لا نجـدها فـي القـرآن الكـريم ولا يـذكر فـى العهـد القديم. بينما تذكر بعض المصادر اليهودية القديمة (الميدراش) وجـود زوج أولي لآدم قبـل حـواء سمتها المصادر، ليليث

وذكرت تلك المصادر (أن الملائكة وبقية المخلوقات كانت أول الامـر لا تمـيز بـين الـرب وبـين آدم فيقدمون له فروض العبادة، فزعموا ان الرب اراد أن يضع حدًّا لهذا اللبس !! فقـام بعملـين ؛ أولهما: أن يجعل آدم ينام (والرب لا ينام)، وثانيهما: أن يجعل له زوجًـا وولـدًا (والـرب لا زوج لـه ولا ولد). فخلق له (ليليث) من التراب مثله ولما كانت ندًّا له هربت منه فبعث الرب بالملائكـة يبحثـون عنها فوجدوها في البحر الأحمر، وعاقبها الرب بفقـد مائـة مـن أطفالهـا يوميًّـا !! ولكنهـا فضـلت هذا العقاب على العودة لآدم)

وهذا باطل وغير صحيح تماما

شبهة وجوابها: حفل زواج آدم وحواء المزعوم

تاسعا: حفل زواج آدم وحواء المزعوم

هذه الرواية لا نجدها في القرآن الكريم

وكذلك لا نجدها في العهد القديم

عاشرا: سكنى آدم وزوجه الجنة.

– { وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّـجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ } [البقرة: ٣٥].

– { وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِـنَ الظَّالِمِينَ } [الأعراف: ١٩].

– روى البخاري ومسلم عن أبي ذرٍّ وابن عباس رضي الله تعالى إلى عنهم في حـديث المعـراج أن آدم في السماء الأولى.

يُؤخذ من هذه الآية وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّة،

- هذا الأمر لا شك أنه في حقيقته يدل على أن هذه السكنى مؤقتة؛ لأن الله -تبارك وتعـالى- قال: قبل ذلك: وَإِذْ قال: رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً [سورة البقرة:٣٠]

فخلقه الله -تبارك وتعالى- لذلك، وامتحنه بهذا الامتحـان، فكـان الله -تبـارك وتعـالى- يعلـم قبل خلقه أنه سينتقل من الجنة، ويصير إلى الأرض اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ [سورة البقرة:٣٥].

بينما فى العهد القديم يقولون بان الرب وضـعه فى الجنـة ليعملهـا ويحفظهـا" وأخـذ الـرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها"

اما فى القران الكريم يقول تعالى (اسكن) هذا أمر، والمقصود بـه هنـا الامتنـان بـالتمكين والتخويل بسُكنى الجنة، وليس هذا الأمر باعتبـار أنـه مُطالـب بـأن يسـعى بنفسـه لسُـكنى الجنـة، فهذا أمر لا قُدرة له عليه، هل يستطيع أحد أن يذهب ويسكن في الجنة؟ الجـواب: لا، ولكـن حينمـا قال الله لآدم (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ،

فهذا يُقال: على هذا السبيل، لا أن يسعى هو ليبحث عن الطريق الذي يتوصل به إلى الجنـة، فيتخذ ذلك سكنًا، وإنما هو أمر تمكين له، وتخويل بسُكنى الجنة، وامتنان عليه بذلك.

ثم أيضًا حينما أمره بهذا قال: وَكُلا مِنْهَا، يعني: من الجنة، رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا هذه الجنة كلام أهل العلم فيها معروف، وهل هي الجنة المعروفة، أو أنها جنة أخرى؟ الذين يقولون: إنها جنة أخرى، لا دليل على قولهم هذا،

ماهي الجنة التي دخلها ءادم عليه السلام

على كل حال هذا يدل على أن الجنة موجودة، وكذلك النار أيضًا مخلوقة وموجودة الآن، وقد وصفها النبي صلى الله عليه وسلم ورأى بعض ما فيها، رأى فيها عمرو بن لُحي الخُزاعي، الذي غير دين إبراهيم عليه السلام

 وهو أول من جاء بالأصنام إلى جزيرة العرب، وأول من سيب السائبة، ورأى فيها صاحب المِحجن الذي كان يسرق الحاج، ويسرق المتاع بمحجنه، وهي عصا لها نهاية معكوفة، يضعها خلفه، فيسرق متاع الناس، فإذا تفطنوا له، قال:هذا مماتعالىلق بالمحجن، يعني: من غير قصد، فإن لم يتفطنوا له انطلق وذهب به، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه رآه في النار

وربما تكون جنة اعدها الله تعالى إلى خصيصا لهذا الاختبار لانه معلوم ان الجنة فى الاخرة قال: عنها ربنا جل وعلا وما هم منها بمخرجين يدل على ان من يكرمه الله تعالى إلى بالدخول فيها لا يخرج منها ابدا

ومعروف ان ادم عليه السلام قبل ان يدخلها، ونحن نعلم انه سبخرج منها لانه خلق للأرض

وليس هناكتعالىارض فالجنة معناها فى الحالتين واحد وهو مكان ملئ بالاشجار يستر من دخل فيه

وخروجا من هذا الخلاف نقول بان الجنة مكان اعده الله تعالى إلى لاختبار ادم عليه السلام وهذا ليس صعبا او معجزا فالله على كل شي قدير

فهنا قال: وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا، الأكل من أعظم أنواع النعيم والملاذ التي تطلبها النفوس، وهنا أباح الله -تبارك وتعالى- لآدم ولزوجه أن يأكلا من الجنة من حيث شاءا، فـ(حيث) هنا تدل على المكان المُبهم، يعني من غير تحديد ولا حصر، فهذا يدل على الإطلاق في الإباحة

من أجل أن يأكلا من ثمر الجنة، من أي نوع، ومن أي صنف، ومن أي موضع، سوى الشجرة التي نهى الله -تبارك وتعالى- عن الأكل منها، فهذا يدل على التوسعة في الأكل.

سبب مجيء النهي بصيغة (وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) ولم يقل: ولا تأكلا

ويلاحظ أن النهي هنا جاء بهذه الصيغة، وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ، ولم يقل: ولا تأكلا، وإنما قال:وَلا تَقْرَبَا والقاعدة: أن النهي عن قُربان الشيء ومُقاربته أبلغ من النهي عنه، فإذا قيل: لا تقرب كذا، فهو نهي عنه وزيادة، مُبالغة في النهي، ويكون ذلك أيضًا نهيًا عن كل سبب يُوصل إلى هذا المنهي عنه.

ولا شك أن مُقاربة الشيء المحظور والممنوع أدعى إلى فعله، وانجذاب النفس إليه، فهذه المُقاربة يوجد معهما من دواعي النفس، لا سيما مع محبة الشيء، والرغبة به، والنفس الأمارة، وما تأمر به، وما يأمر به الشيطان، ويُزينه من الخواطر والوساوس، وكذلك شياطين الإنس، فإن ذلك يكون داعية إلى الوقوع فيه، ومُقارفته، فإذا كان الإنسان يألف مُقاربة هذا الشيء، فهذه المُقاربة حينما يألفها تكون سببًا للمحبة، وتدعوه نفسه إلى مواقعة ذلك، ويغفل عن نهي الله -تبارك وتعالى- وتحريمه؛

ولهذا قال: النبي صلى الله عليه وسلم بأنه: كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه وقد ذكر أهل العلم كالشاطبي -رحمه الله- بأن التوسع في المُباحات يُفضي إلى الوقوع في المُشتبهات، وأن الوقوع في المُشتبهات يُفضي بصاحبه إلى مواقعة ما حرم الله -تبارك وتعالى

وخلاصة ما سبق انه لما خلق الله آدم وفضله؛ أتم نعمته عليه؛ بأن خلق منه زوجه؛ ليسكن إليها؛ ويستأنس بها؛ وأمرهما بسكنى الجنة؛ والأكل منها رغدا؛ أي: واسعا هنيئا.

" حَيْثُ شِئْتُمَا" أي: من أصناف الثمار والفواكه؛ وقال: الله له:" إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَاتعرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى" .

مالمراد بالشجرة في قوله تعالى: (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

" وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ" نوع من أنواع شجر الجنة؛ الله أعلم بها.

وإنما نهاهما عنها امتحانا وابتلاء؛ أو لحكمة غير معلومة لنا.

" فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ" دل على أن النهي للتحريم؛ لأنه رتب الظلم عليه.

يفهم من سياق قصة آدم في سفر التكوين أن الجنة أرضية، خاصة قولها في آخر القصة:" وهكذا طرد الإنسان من جنة عدن، وأقام الملائكة الكروبيم وسيفًا ونارا، متقلبًا شرقي الجنة لحراسة الطريق المفضية إلى شجرة الحياة !! (تكوين ٣:٢٤).

اين تقع الجنة التي سكنها ءادم وحواء عليهما السلام

مسألة سكنى آدم وحواء الجنة متفق عليها في كثير من الكتب، وإن اختلف في مكانها ؛ يفهم من نصوص القرآن أنها في السماء، يؤيده في ذلك بعض" الكتب المخفية Apocryha" وبعض كتب اليهود القديمة

Zohar Hadash ; Recanati, gen.٣.٢٤.

تذكر هذه الكتب أن الجنة التي دخلها آدم في السماء الأولى

كذلك نجد في كتاب" آدم وحواء" أن هذه الجنة في السماء الثالثة وقد استقر فيها آدم بعد موته، كما ورد في نص آخر للكتاب – وهو النص الأرميني – أنها السماء الثانية

توقيت دخول الجنة

{ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ } [البقرة: ٣٥]

أما عن توقيت دخول الجنة فذكر العهد القديم (سفر التكوين) أن آدم دخلها قبل أن توجد حواء، وقبل أن يعلم أسماء المخلوقات على عكس ما يذكر القرآن من أن خلق آدم تبعه تعليمه الأسماء ثم خلق حواء فدخولهما الجنة معًا.

يتفق في ذلك مع القرآن – ومختلفًا مع التوراة في ذات الوقت – العديد من كتب Apocrypha وغيرها. وهكذا صوب القرآن هذا الخطأ في الكتب الحالية وهذا من هيمنته على سابقيه من الكتب.

وسوسة الشيطان لهما، وقسمه لهما وإغوائهما

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا [سورة البقرة:٣٦] يصح أن يكون الضمير في قوله: عَنْهَا عائداً إلى الجنة، فيكون معنى الكلام كما قرأ حمزة: فأزالهما، أي: فنجَّاهما. ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين، وهو الشجرة، فيكون معنى الكلام كما

قال: الحسن وقتادةُ: فَأَزَلَّهُمَا أي: من قبل الزلل، فعلى هذا يكون تقدير الكلام فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا أي: بسببها، كما قال تعالى: يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ [سورة الذاريات:٩] أي: يصرف بسببه من هو مأفوك، ولهذا

قال تعالى: فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ [سورة البقرة:٣٦] أي: من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنيء والراحة.

فقوله -تبارك وتعالى: وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ هذا الخطاب جاء بصيغة الجمع وَقُلْنَا اهْبِطُواْ، وجاء أيضاً بصيغة التثنية في قوله تعالى: قال: اهْبِطَا مِنْهَا [سورة طه:١٢٣]، وجاء أيضاً بصيغة

الإفراد مخاطباً به إبليس، فيحمل ما جاء بصيغة الجمع كما هنا وَقُلْنَا اهْبِطُواْ على أن المخاطب بذلك الثلاثة، آدم وحواء وإبليس.

وقوله: بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ أي أن الآدميين يمثلهم أبواهم آدم وحواء أعداء لإبليس وإبليس عدو لهم.

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ: هذا عدو لهذا، وهذا عدو لهذا، فهي عداوة من الطرفين مشتركة، وليست من طرف واحد، ليس إبليس هو الذي يعادي الآدميين فقط، بل نحن نعاديه، فهو أشد الأعداء لنا وإنما نعادي غيره؛ لأنهم يتفرعون منه، وينضوون تحت لوائه بين مقل ومكثر.

من المقصود بقوله تعالى: (اهْبِطَا مِنْهَا)

وما جاء بصيغة التثنية اهْبِطَا مِنْهَا فبعض أهل العلم يقولون: المراد به آدم وحواء.

وقوله: بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ) يعني أنكما أعداء لإبليس، فالهبوط يكون لآدم وحواء والعداوة مع إبليس.

وبعض أهل العلم يقولون: قوله: اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ [سورة طه:١٢٣] المراد بذلك هو آدم وإبليس، فإن قيل: وأين حواء؟ يقال:هي تبع لآدم، ولذلك نجد أن الله يخاطب آدم فيقول: وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ [سورة الأعراف:١٩]، فجعلها تبعاً له.

وكذلك حينما عاتبه على الأكل من الشجرة خاطبه هو، وقال: أيضاً في توبته: فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ [سورة البقرة:٣٧]، مع أن الله تاب على آدم وحواء فهي تبع له.

وعلى كل حال فالمعنى الآخر في قوله: اهْبِطَا مِنْهَا أي آدم وإبليس، وحواء تبع لآدم، وبالنسبة للعداوة فهي بين الآدميين وبين إبليس وحزبه.

قوله تعالى: وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ [سورة البقرة:٣٦]: المراد بقوله: إلى حِينٍ إما أن يكون إلى الموت، أي: لهم في الأرض مستقر ومتاع إلى أن يموتوا، أو إلى قيام الساعة.

وعلى كل حال إذا نظر إلى الأفراد كآدم بشخصه فإن ذلك المتاع ينقضي بالموت، وإذا نظر إلى جنس الآدميين فإن ذلك يكون إلى قيام الساعة، فالأرض مستقر لهم وفيها يتمتعون.

غواية الشيطان لآدم وحواء عليهما السلام

– { فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ } [الأعراف: ٢٠، ٢١].

– { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قال: يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى } [طه: ١٢٠]

– { فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ } [البقرة: ٣٦]

غواية الشيطان هنا تختلف حيث تروي أن الحية – التي تفسر عندهم بأنها هي الشيطان مع أن العهد القديم لا يذكر شيئًا عن ذلك – أخبرت حواء – حاشاه – لم يصدقها وزوجها حين أخبرهما بأنهما سيموتان إن أكلا من الشجرة المحرمة وأن الحقيقة هي أنهما إن أكلا منها سيصيران مثله قادرين على التفرقة بين الخير والشر (تكوين ٣: ١-٥)،

والعجيب أن العهد القديم يثبت بعد ذلك صحة قول الحية فلم يمت آدم وحواء، ثم قال: الرب:" هوذا الإنسان قد صار كواحد منا يميز بين الخير والشر (كأن هذا قد حدث ضد مشيئته سبحانه) وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد، فأخرجه من جنة عدن (حتى لا يحدث ذلك)." (تكوين ٣:٢٢، ٢٣)، والاغرب من ذلك ان تقسم الحية بعرش الرب على صدقها (فيكتب الميدراش والسوديبجرافا وكتب الربيين)(٣٣)

مقارنة بين القرآن والكتب السابقة في حادثة أكل ءادم عليه السلام من الشجرة المحرمة

ذوقهما من الشجرة المحرمة وأكلهما منها

– { فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ} [الأعراف: ٢٢].

– { فَأَكَلَا مِنْهَا } [طه: ١٢١].

حدد العهد القديم نوع تلك الشجرة المحرمة فذكرت أنها شجرة المعرفة. وكذلك حكت عن شجرة المعرفة كتب أخرى، فالمولى عز وجل – حاشاه – تناول منها ثم خلق العالم لذلك حرم على الإنسان الأكل منها حتى لا يخلق عوالم أخرى!!.

ظهور سوءاتهما، ومحاولتهما سترها بورق الجنة

– { بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ } [الأعراف: ٢٢].

– { فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ } [طه: ١٢١].

نجد فى العهد القديم" وكان آدم وامرأته عريانين، ولم يعترهما الخجل" (تكوين ٢: ٢٥) هناك اتفاق كذلك في خصفهما" خياطة" من ورق الجنة ما يستر العورة.

نداء الله وتذكيره لهما بنصائحه

{ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ } [الأعراف: ٢٢].

بينما ذكر فى العهد القديم" ثم سمع الزوجان صوت الإله ماشيًا في الجنة عند هبوب ريح النهار !! فاختبأ من حضرة الرب الإله بين شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم: أين أنت؟!! فأجاب سمعت صوتك في الجنة فاختبأت خشبة منك لأني عريان، فسأله: من قال: لك أنك عريان؟ هل أكلت من ثمر الشجرة التي نهيتك عنها؟!! (تكوين ٣: ٨-١١).

ندمهما على ما فعلاه واستغفارهما الله

{ قال:آ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الأعراف: ٢٣].

لا يرد.فى العهد القديم شئيا عن ذلك - بينما تذكر كتب اخرى انه استمر آدم في الاستغفار أربعين يومًا في مياه نهر الاردن

اجتباء الله تعالى لآدم، وتوبته عليه، وهدايته له

– { ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى } [طه: ١٢٢].

– { فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } [البقرة: ٣٧].

وفى العهد القديم يذكر سفر الحكمة" والحكمة هي التي خلصت كل من أرضاك يا رب منذ البدء هي التي حفظت أول من جبل أبا للعالم لما خلق وحده، وأنقذته من زلته " .(الحكمة ٩: ١٩، ١٠: ١-٢) قال: الله له:" لقد قبلت كلماتك اللحظة" (٣٥).

كما يروي كتاب" باروك الثاني" أن آدم لم يكن سبب موت الإنسان ولم يكن مسؤولًا إلا عن نفسه، وكل واحد منا آدم نفسه.كذلك نجد نفس الفكرة في التلمود البابلي.

الأمر بالهبوط للأرض والاستقرار فيها

أمرهم الله بالهبوط إلى الأرض، مع تحقق العداوة بينهم وبين إبليس واستقرارهم في الأرض والاستمتاع بها إلى حين معلوم.

– { وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ } [البقرة: ٣٦

– { قال: اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ } [الأعراف: ٢٤].

– { قال: اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } [طه: ١٢٣].

ذكر العهد القديم، عقابًا سابقًا للهبوط من الجنة:" ثم قال: للمرأة أكثر تكثيرًا أوجاع مخاضك [وما ذنب بناتها؟!] فتنجبين بآلام اولادًا و إلى زوجك يكون اشتياقك وهو يتسلط عليك، وقال: لآدم لأنك أذعنت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، فالأرض ملعونة بسببك وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك" (تكوين ٣: ١٦،١٧).

مسألة الخروج من الجنة

أما عن الطرد من الجنة فقال: العهد القديم:" ثم قال: الرب الإله: هوذا الإنسان قد صار كواحد منا، يميز بين الخير والشر، وقد يمد يده ويتناول من شجرة الحياة ويأكل فيحيا إلى الأبد، فأخرجه من جنة عدن ليفلح الأرض التي أُخِذَ من ترابها، وهكذا طرد الله الإنسان من جنة عدن، وأقام ملائكة الكروبيم وسيفًا ناريًّا متقلبًا شرقي الجنة لحراسة الطريق المفضية إلى شجرة الحياة (تكوين ٣: ٢٢ – ٢٤).

ويذكر كتاب، آدم وحواء، (٢٨: ٤) كلام من الله لآدم قبل خروجه من الجنة:" حين تخرج من الجنة إن حفظت نفسك من الشر حين يُقبل على الموت حين يأتي بعث الموتى سوف أرفعك وتأكل من شجرة الحياة(٣٦).

إخبار الله لهم بما سيكون عليه حالهم في الأرض: حياة فموت فبعث.

{ قال: فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ }[الأعراف: ٢٥].

بينما لايذكر العهد القديم ولا الكتب الاخرى شيئا عن ذلك

ضحك القمر من خروج آدم من الجنة

فلم يرد ذلك فى القران الكريم ولا كتب العهد القديم او الجديد

بينمـا تـذكر بعـض كتـب (السـوديبجرافا Apocalypse Of Baruch) أن السـموات والشـمس والنجوم حزنوا جدًّا لخروج آدم من الجنة إلا القمر الذي ضحك عليه !! فعاقبه الله بأن جعـل ضـوءه مطموسًا !!

تميز النص القرآني بذكر الحقائق على عكس خرافات الكتب السابقة

ما استعرضناه من قبل يوضح جليًّا البون الشاسع بـين الـنص القرآنـي وسـائر نصـوص الكتـب السابقة ويتضح منه الآتي:-

أولا: الإعجاز الغيبـي للقرآن:

هذه الكتب السابقة (التي لها عناصر مشتركة في هذه القصة مـع القـرآن الكـريم) عـددها كبير جدًّا، ولم تكتب بلغة واحدة ولا تتبع طائفة واحدة، ولم يجـدها أصـحابها فـي مكـان واحـد ولا زمان واحد، وكان أغلبها مخفيًّا..

فأنى لمحمد صلى الله عليه وسلم بعلم كل تلك الكتب بتفاصيلها ولا ننسى أنه عليه الصلاة والسلام كان أميًّا يعيش في بيئـة صـحراوية غـير حضـارية كمـا لا ننسى- أن حجـم الكتـب كـان فـي الماضي كبيرًا جدًّا يستحيل تداولها سرًّا. وكـان كـذلك عـدد النسـخ مـن كـل كتـاب قلـيلًا جـدًّا ؛ لأن النسخ كان يدويًّا ولحرق الكتب على أيدي الأباطرة المخالفين في العقيدة.

هذا من الإعجاز الغيبـي للقرآن الكريم، وقد لفت القرآن الكريم نظرنا لهـذا الأمـر وفـي هـذه القصة – خاصة مسألة عـدم درايـة النـبي صـلى الله عليـه وسـلم باختصـام الملائكـة فـي آدم مـن قبل: { مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٧٠) إِذْ قال: رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ } [ص: ٦٩-٧١].

ثانيا: إعجاز إحكام آي القرآن:

لابد أن يكون قد لفت نظرنا خلو النص القرآني من الخرافات الكتابية كحفل زفاف آدم وحواء، وضحك القمر عليه، أو خلقه بوجهين، أو عدم التمييز بينه وبين الرب تعالى إلى عن ذلك علوا كبيرا بل وخشيته – حاشاه – أن يصبح آدم مثله، هذا. بالرغم من مواضع الاتفاق الأخرى العديدة مع القرآن، لكن كلها منطقية ؛

هذا مصداق قوله تعالى: { أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً } [النساء: ٨٢].

القرآن يصحح أخطاء هذه الكتب السابقة

كذكر ذهاب ضوء القمر حين ضحك لموت ادم ولكن اثبت القران ان ضوء القمر لا علاقة له بهذا ولا بذاك– وهو ما أثبته العلم الحديث _ { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } [الإسراء:١٢]

مع عدم ذكر كون سبب ذلك هو ضحك القمر من آدم وشماتته فيه!! ؛ هذا من هيمنة القرآن الكريم على هذه الكتب.

دحض عقيدة "الخطيئة الأصلية"

كما هو معلوم أن العقيدة النصرانية تقوم على مسألة عدم مغفرة خطيئة آدم مما استوجب صلب ابن الله فداءً للبشر! وقد وجدنا فى نصوص كتابية (معتمدة وغير معتمدة) تقول إن خطيئة آدم قد غفرت، مثل كون الحكمة قد أنقذت آدم من زلته (الحكمة – العهد القديم) وأن كلماته قد قبلت عند الله، وأنه لم يكن سبب موت الإنسان، وإن كل واحد منا آدم نفسه، كما لم يكن آدم مسؤولًا إلا عن نفسه. (باروك الثاني والتلمود)،

بل وإن هناك إصحاحًا كاملًا في سفر حزقيال في العهد القديم (إصحاح ١٨) لا يتكلم إلا عن رفض عقيدة توريث الخطيئة ؛ لهذه الأسباب وغيرها رفضت طوائف قديمة من النصارى هذه العقيدة ؛ مثل طائفة راهب القرن الرابع الأيرلندي" بيلا جيوس" الذيتعالرض للاضطهاد إلا أن أتباعه كانوا يتزايدون خاصة في الكنائس الشرقية

وقد أعلن مجمع" اللد" عام ٤١٥ أنه مستقيم العقيدة، وقد بقى أثره إلى يومنا هذا في عقيدة سبق التعيين عند أتباع" كالفن" والإرادة الحرة عند" الميثوديست

قبل أن نختم كلامنا هنا لنا تساؤل، هناك ست عشرة عقيدة غير النصرانية يقول أصحابها أن لهم مخلصًا صلب فداءً لهم، فهل المخلص الحقيقي هو" يسوع" أم" كريشنا" أم" بوذا" أم غيرهم؟.

وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)، وتلخيصا لما سبق نواصل الحديث فيما قصه الله -تبارك وتعالى- من خبر آدم عليه السلام مع عدوه وعدونا إبليس.

فالله - تبارك وتعالى- حينما ألهم آدم تلك الكلمات، ووفقه للتوبة، تاب عليه، رجع عليه بالقبول، وتوبة الله -تبارك وتعالى- على عبده تكون بتوفيقه للتوبة، وهدايته لها، كما تكون أيضًا بالرجوع عليه بالقبول، أما توبة العبد لربه -تبارك وتعالى- فهو رجوعه إليه بعد الذنب والتقصير والإساءة.

قال: الله بعد ذلك: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [سورة البقرة:٣٨، ٣٩].

قال: الله - تبارك وتعالى- لهم: اهبطوا من الجنة جميعًا، وسيأتيكم وذريتكم المُتعاقبة: ما فيه هدايتكم إلى الحق، فمن عمل بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلون من أمر الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من أمور الدنيا وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا بآياته المتلوة، ودلائل توحيده أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ الذين يُلازمونها، ويُخلدون فيها.

وتأمَّل قول الله -تبارك وتعالى: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فالهدى إنما يكون من الله وحده، وإنما تُطلب الهداية منه دون ما سواه، فمن رجا الهدى فعليه أن يتوجه إلى مولاه، طالبًا منه أن يهديه، ويوفقه، ويدله على الحق.

ويُؤخذ من هذه الآية: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى أنه لا يُعبد -تبارك وتعالى- إلا بما شرع؛ لأن الله -تبارك وتعالى- قال:فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي

وتقديم الجار والمجرور يدل على الحصر أو الاختصاص، وأن الهدى لا يكون إلا من الله -تبارك وتعالى- وفي الآية الأخرى: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۝ قال: رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قال: كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى. [سورة طه:١٢٣-١٢٦] فكان ذلك جزاءً وفاقًا.

وفي هذه الآية الله -تبارك وتعالى- يقول: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فإذًا ينبغي أن يُلتمس الهدى من الله في السؤال والطلب، وفي الالتماس والبحث، فحينما يبحث الإنسان عن الهدايات في كتب فلسفية مُترجمة مُعاصرة، أو في كتب فلسفية قديمة، أو في نظريات تستورد من أعداء الله ممن لا يعرف وحيه ولا هداه، فإن هذا لا يمكن أن يتوصل به إلى مطلوب صحيح، فإن الهدى يُتلمس بالوحي، والهدايات مُضمنة في هذا الكتاب، وفيما يشرحه من سنة رسول الله ﷺ على فهم السلف الصالح -رضي الله عنهم وأرضاهم- فمن طلب الهدى في غير ذلك أضله الله، الذين يبحثون عن الهدى في كتب أهل الكتاب، أو في غير ذلك مما لا يوصل إلى الهدى لما فيه من التحريف أو النقص، فإن هؤلاء يضلون الطريق، ويبحثون عن الهدى في غير مظانه.

حقيقة الدين الإبراهيمي

وهنا لفته هامة: يخرج على الناس بين الحين والاخر ما يحاول ان ينزع من الناس دينهم فيأتي فى ثوب الحملان وقلبه قلب ذئاب فيقولون بما اننا جميعا ابناء ابراهيم عليه السلام فلماذا لا نوحد الديانات فى دين واحد يسمونه الدين الإبراهيمي

ولم تكن هذه دعوة باطله فحسب بل انها دعوة للضلال والكفر، لانهم انما يريدون ابعاد الناس عن الاسلام وهو الدين الحق ليدخلوهم إلى الباطل والتحريف وصدق الله تعالى إلى حين قال: ويبغونها عوجا،

ومصداق ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما رأى صحيفة من التوراة في يد عمر بن الخطاب غضب، وقال:أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًا، ما وسعه إلا أن يتبعني

وهنا سؤال للمغرضين يقولون، بأن اليهود عندهم حق، والنصارى عندهم حق، والبوذيين عندهم حق، والطوائف الضالة المُنحرفة عندهم حق، فينبغي أن يؤخذ من كل طائفة ما عندها من الحق، من أجل أن يجتمع ويلتئم،

الحقيقة ان هذا كلام باطل لانه لا يقوله أحد عرف حقيقة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم و لا يقوله إلا من كان متهوكًا فيها، شاكًا لا يعرف حقيقة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من هذا الهدى الكامل،

شبهة وجوابها: لا أحد يملك الحقيقة المطلقة، فلماذا نختار الإسلام على غيره

ويحتجون بقولهم بأن أحدًا من الطوائف لا يملك الهدى الكامل، أو ما يُسميه بالحقيقة المُطلقة، وإنما ذلك قد تفرق في أهل الأديان والطوائف، فيؤخذ من كل طائفة ما عندها،

والرد على ذلك بسيط

لان من يتحدث بهذا لم يعرف دين الإسلام معرفة صحيحة، وإلا كيف يُقال: مثل هذا؟! والله يقول: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [سورة البقرة:٣٨]، ومفهوم المخالفة أن الذين لا يتبعون هذا الهدى، فالخوف مُتحقّق فيهم، وقلوبهم موضعًا للأحزان؛ لأنه فاتهم أعظم المطالب.

ولكن هناك ايضاح بسيط على ما سبق: صحيح ان كتب السابقين لم تعد صحيحة ولكن شابهها التحريف والتغيير والتبديل ولكن ربما يكون بقى فيها نقاط صحيحة بين ثنايا الكلام وهذا لا يتعرف عليه الا من تخصص فى دراسة الاديان، ولذا ينبغى ان لا يستشهد بكلام من سبق الا من كان لديه علم ويستطيع ضبط الحوار حتى لا يتسبب فى ادخال الشبهات على الناس فاما ان يكون قادر على دحض شبهاتهم وتوضيح ما وقعوا فيه من اخطاء واما ان ينصرف تماما عن الحديث عن كتبهم او الاستشهاد بما فيها،

بلاغة أسلوب الالتفات في القرآن الكريم

ثم تأمَّل قوله -تبارك وتعالى: و قُلْنَا يا ادم)، فهذا الضمير للجمع، فالله لعظمته يُعبر بضمير الجمع، فالمُعظم نفسه يقول: قلنا، وأعطينا، ونحو ذلك، ثم بعد ذلك حينما ذكر الهدى قال:فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي [سورة البقرة:٣٨] ولم يقل: منا، وإنما جاء بضمير المُفرد في هذا الموضع، وهذا الذي يسمونه بالالتفات،

وهو التحول من الجمع إلى المفرد، أو العكس، أو إلى التثنية، أو من التثنية إلى الإفراد، أو من التثنية إلى الجمع، أو نحو هذا، فكل هذا يُقال: له: الالتفات، فهنا في هذا الموضع أفرد الضمير، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي

ليدل -والله تعالى إلى أعلم- على أن الهدى لا يكون إلا منه وحده -تبارك وتعالى- فناسب هنا أن يُذكر الضمير الخاص، فلا هادي إلا هو، فجاء بهذا اللفظ الذي لا يشركه فيه غيره، فهذا لا يحتمل غير الله فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى [سورة البقرة:٣٨]

فالهدى إنما يأتي من الله، ولا يأتي من غيره، فالذي يطلب الهدى من أفكار يولدها الناس، واستنتاجات ورؤى، وما إلى ذلك، فإن هذا لا يمكن أن يصل إلى مطلوب صحيح.

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [سورة البقرة:٣٨]

، تبع هداي فأضاف الهدى إليه؛ لأنه هو الذي شرعه، وأنزله، وأمر باتباعه وسلوكه، فهذا الذي يتبع هذا الهدى ينتفي عنه جميع أنواع المخاوف، وكثير من المفسرين يقول:، فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ، فيما يستقبلون من أمور الآخرة، ويمكن أن يكون المعنى أعم من هذا، فلا خوف عليهم في هذه الدنيا، ولا خوف عليهم في البرزخ، فهم آمنون، كما قال: -تبارك وتعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [سورة الأنعام:٨٢] فهذا الهدى يكون بالإيمان، والعمل الصالح، واتباع ما أنزل الله -تبارك وتعالى.

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا، أي: لم يخلطوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ يعني: بشرك، أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأمنُ فأشار إليهم بإشارة البعيد (أولئك) لعلو مرتبتهم، ولم يقل: أولئك لهم أمنٌ، وإنما قال:لهم الأمن، فدخلت (أل) على الأمن، فهذا الأمن الكامل المُطلق، الذي يكون في الدور الثلاث، في دار الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وما يكون لهم في الجنة، فحينما يخاف الناس فهؤلاء يأمنون، وحينما يكون الواحد في قبره فإنه يكون في غاية الأمن، وعندما يُبعث ويكون الناس في غاية الخوف والوجل فهؤلاء تتنزل عليهم الملائكة، في ذلك المقام، وعند نزع الأرواح أيضًا إِنَّ الَّذِينَ قال:وا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا هؤلاء تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَة. ماذا يقولون؟

, أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [سورة فصلت:٣٠].

هذه الجنة التي وعدوها على ألسُن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ثم يقولون لهم أيضًا،: نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ [سورة فصلت:٣١]

(ما تدعون) قيل: كل ما تطلبون، وقيل: كل ما ادعى شيئًا أنه له، فهو له، فالأول: من الدعاء وهو الطلب، والثاني: من الدعوى، فكل من ادعى شيئًا فهو له، فإذا قال:هذا لي فهو له، فهذا كله يكون لهؤلاء، فيكون لهم الأمن الكامل، ويكون لهم الطمأنينة الكاملة، والسعادة الكاملة؛ لأن السعادة لا تتحقق إلا إذا انتفى الحزن والخوف، فالحزن يُقلق الإنسان بسبب أمور ماضية يتذكرها، وأمور مكروهة وقعت له في الماضي، فيحزن، ويتكدر عيشه، وهذا نقص في الحياة، كما قال: شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله فالحياة الكاملة ليس فيها حُزن.

والخوف وذلك في المستقبل، فحينما يقلق الإنسان على أمور يتخوفها ويحذرها في المستقبل أيًا كان نوعها، فينتفي عنه هذا وهذا، فإذا انتفى الحُزن، وانتفى الخوف حصلت السعادة الكاملة، فيكون الإنسان في غاية الفرح والسرور، والسعادة الحقيقية، فهذا يكون لأهل الإيمان، ويُقابلهم

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [سورة البقرة:٣٩] وهم أصحاب النار، ولا يُقال: ذلك إلا لمن كان مُلازمًا لها، يعني أهل الخلود في النار،

فمثل هؤلاء - نسأل الله العافية - فلا تسأل عن بؤسهم وشقائهم، وحُزنهم على ما فات، والمخاوف التي تنتاب قلوبهم، وأنواع الفزع والهلع في الدنيا، والقلق الذي نُشاهده في حال أولئك الذين قد أعرضوا عن طاعة الله وعبادته، وأعرضوا عن الإيمان به.

وانظر إلى تلك الأمم الكافرة مع ما هي فيه من التمكين المادي، وأنواع المُتع واللذات، ولكنهم يعيشون في قلق دائم، وحزن وخوف،

تقرأ ذلك على صفحات وجوههم، لم يمنعهم ذلك النعيم، وسُبل الحياة المُذللة من وجود هذه العِلل

والأوصاب في نفوسهم، فهم يعيشون في كآبة وضيق وضجر وملل، فتظهر عليهم تلك المظاهر من الشذوذ الجنسي، ويظهر عليهم تلك المظاهر من التقليعات بأنواعها، ويظهر عليهم أنواع الإدمان من الخمور والمُخدرات، ويظهر ذلك أيضًا في كثرة المصحات والعيادات النفسية في تلك البلاد، فهذا يكثر حيث يكثر الإعراض عن الله -تبارك وتعالى- وكل هذه المظاهر تقل حيث عرف الناس ربهم، وأقبلوا على طاعته وعبادته.

وهكذا حال الخلق في الدنيا، وهكذا يكون حالهم في البرزخ، وهكذا يكون في حالهم في المحشر والقيامة، والجزاء من جنس العمل،

أسباب السعادة الكاملة، والراحة الكاملة

فمن أراد السعادة الكاملة، والراحة الكاملة، والأمن الكامل، والطمأنينة الكاملة، فعليه بالإيمان، والعمل الصالح، ولا يمكن أن يُحصل ذلك بشيء آخر،

والعاقل من وعِظ بغيره، ها هم أولئك قد حصلوا من أنواع اللذات ما لا يمكن للمسلمين أن يُحصلوه في أوضاعهم الراهنة،

أولئك قد استحوذوا على ثروات الأُمم المغلوبة، وجعلوا ذلك سبيلاً إلى لذات ومُتع ذللوا بها سُبل الحياة، فصارت سهلة هينة، ومع ذلك ينغمسون في الرذيلة، ولا يُشبع ذلك نهمتهم،

ويعكسون الفِطر، ويوغلون في الشرود من الواقع، إلى عالم الوهم والخيال، بالمخدرات والمُسكرات، وأنواع الآفات التي تُتلف العقول والأرواح، وتجد أن هؤلاء يعجب الواحد منهم حينما

يرى المسلمين لربما يُبتلى الواحد من أهل الإسلام، ومع ذلك يبتسم ويقول: الحمد لله، قضاء وقدر، إنا لله وإنا إليه راجعون،

فهؤلاء يقتلهم ويسحقهم ما يجدونه من اللذات، فضلاً عن المكاره، فلو وقعت لهم فلا يحتملون، وهناك في بعض الدول توجد وسائل وطُرق وأجهزة مُرخصة، ولربما ذهبت المرأة واتخذت مُحاميًا من أجل أن لا تُرفع قضية على زوجها الذي قد اشترى لها جهازًا للانتحار بطريقة غير مؤلمة، ما الذي جعلهم بهذه المثابة، يطلبون الموت بعد ما جربوا كل شيء؟! إنه الإعراض عن الله -جل جلاله وتقدست أسمائه.

سبب تسمية بنو إسرائيل

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)

اسرائيل:- هو سيدنا يعقوب بن سيدنا إسحاق بن سيدنا إبراهيم عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه. ولهذا الاسم معنى واضح عندنا فى الاسلام بينما ضل بنوا اسرائيل وكذبوا على الله فى معنى هذا

الاسم، اسرائيل، فيذكر العهد القديم أن يعقوب كان يصارع الرب طوال الليل حتي قدر عليه ومن ثم غير الرب اسمه من يعقوب إلي إسرائيل

فيقول العهد القديم في ذلك تحت عنوان يعقوب يصارع مع الله (فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتي طلوع الفجر ولما رأي إنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعتة معه وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال: لا أطلقك إن لم تباركنى فقال: له ما اسمك؟ فقال: يعقوب فقال: لا يدعي اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت وسأل يعقوب وقال: أخبرني باسمك فقال: لماذا تسأل عن اسمي؟وباركه هناك). ولا نملك الا ان نقول سبحانك هذا بهتان عظيم. ولكن هنا سؤال عن بنى اسرائيل ما الذى دفعهم إلى هذا الفجور

لان بنى اسرائيل يريدون، شرعنة الحريمة ، بمعنى ان يجدوا تشريعا يبررون به فسادهم واغتصابهم لأراضي الاخرين وهذا يتبين لنا من هذا النص بوضوح فهم انما ارادوا ان يبينوا

لأبنائهم ان اباهم استطاع ان يتغلب على الرب افلا يستطيعون ان يتغلبوا على عباد الرب ولذا حين اغتصبوا ارض فلسطين اغتصبوها تحت اسم اسرائيل

فما كانوا ليثبتوا لأبنائهم هذا الا بنص ولذا فاختلقوا وكذبوا على انبياءهم هذا النص ولكن المؤسف انهم سجلوه فى كتبهم فورثه الابناء على انه نص مقدس من عند الله ولذلك وجب علينا ان نظهر كذبهم وزيفهم وتحريفهم للناس لكى يكونوا على بينة مما يفعله هؤلاء

أماتعريف إسرائيل في الإسلام فيذكر الامام القرطبي في المجلد الأول في سورة البقرة ص٣١١....أن ابن عباس قال::-ان إسرائيل ينقسم إلي (إسرا) وهيتعالني بالعبرانية عبد، صغوة، و(إيل) وتعني الله

.وعليه فإن إسرائيل عبد الله أو صفوة الله. والقرآن الكريم ذكر الأسمين يعقوب وإسرائيل فقال: جل وعلا(أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموت إذ قال: لبنيه ماتعالبدون من بعدي قال:وا نعبد إلهك وإله إباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ألهاً واحداً ونحن له مسلمون) البقرة

١٣٣. وقوله تعالى" ولقد اخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعنا منهم اثني عشر نقياً وقال: الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة" المائدة ١٢.

نسل بني إسرائيل

اما عن بنى اسرائيل فهم ينحدرون من أبناء يعقوب عليه السلام وكانوا اثني عشر ولدا وهم:-

١-رأوبين ٢- شمعون ٣-لاوي ٤- يهوذا ٥- زيولون

٦- يساكر ٧- دان ٨- جاد ٩- أشير ١٠- نفتالي

١١- يوسف ١٢- بنيامين.

ويسمون الأسباط والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ويقول القرآن الكريم" وقطعناهم في الأرض اثني عشر أسباط أمماً" .

ونجد ترتيب الايات ترتيبا رائعا فبعدما ذكر الخليفة الاول ادم عليه السلام ولكن لايقال: عن ادم عليه السلام نجح او اخفق فى تجربته لانها كانت اختبار ودرس لمن ياتى بعده من ذريته فقد راينا راى عين ثواب الطاعة حين سعد ادم عليه السلام فى الجنة بالنغيم المطلق وكيف تجرع شؤم المعصية بهبوطه للارض التى شقى فيها فكانت درسا لنا نحن ذرية ادم عليه السلام

فبعدما ذكرت الايات خبر آدم عليه السلام وما حدث من إبليس من عدم السجود، وما حصل من إغواء الشيطان لآدم، وجّه الخطاب إلى بني إسرائيل، فهؤلاء اولاد وذرية يعقوب الذين استخلفهم الله تعالى إلى فى الارض ولكنهم لم يقوموا بالامر كما ينبغى فقال تعالى:

 يَا بَنِي إِسْرَائِيل اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، نعمتي، نِعمة مُفرد، مُضاف إلى الضمير المعرفة، وهو الياء، ومثل هذا يُكسبه العموم اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ يعني: اذكروا نِعمي، التي أنعمت عليكم، ونِعمه -تبارك وتعالى- عليهم كثيرة،

كما قال: الله -تبارك وتعالى: وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ [سورة البقرة:٤٧] وقال:وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ [سورة البقرة:٤٩] إلى غير ذلك مما ذكره الله -تبارك وتعالى- كإنزال المن والسلوى، وتظليل الغمام،

فهذا كله من إنعامه وإفضاله عليهم، يُذكرهم به، ويُطالبهم بمُقتضاه من الشُكر، وأن يحفظوا وصيته -تبارك وتعالى- لهم بأن يؤمنوا بكتبه، ورُسله، وأن يعملوا بشرائعه، وأنهم إذا فعلوا ذلك أتم لهم ما وعدهم

، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُم، وذلك أن الله -تبارك وتعالى- يرحمهم في الدنيا، ويُنجيهم في الآخرة من العذاب، ويأمرهم أن يخافوه وحده، وأن يحذروا نقمته -تبارك وتعالى- إن هم كفروا به، ونقضوا عهده.

ولاحظ هذا الخطاب، يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، فهذا فيه تحريض وحث على الامتثال، فقال:يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ يا اولاد يعقوب، ويا ذرية يعقوب،

فهو سبحانه يدعوهم هنا بهذا الاسم المُحبب إليهم، الذي يُذكرهم بالطاعة والاستقامة والاستجابة لله -تبارك وتعالىكما جاء ى قوله تعالى إلى- وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ [سورة ص:٤٥] فهؤلاء أجداد بني إسرائيل، فهؤلاء هم اولاد يعقوب بن

إسحاق بن إبراهيم فقد كانوا أُوْلِي الأيدِي وَالأبصَارِ أي: الجلد والقوة في طاعة الله، والجهاد والدعوة وَالأَبْصَارِ أي: أصحاب البصائر النافذة.

وقال:إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ [سورة ص:٤٦] فكانت الآخرة بين أعيُنهم، لا تغيب عنهم بحال من الأحوال، فالله -تبارك وتعالى- يُهيج نفوس بني إسرائيل، ويُذكرهم بذكر أبيهم يعقوب يا بني العبد الصالح التقي المُطيع، كونوا كأبيكم في مُتابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكرام افعل كذا، ويا ابن الأفاضل افعل كذا، وتقول للرجل: يا ابن الأخيار، ويا ابن أهل الغيرة، عليك أنتعالىى بحجاب بناتك ونسائك، أهلك أهل غيرة، وأنت من أسرة معروفة، فتُذكره بذلك.

ثم إن هذا الأسلوب لا شك أنه أدعى للقبول، وتأمل ما ذُكر معه: اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ فإذا ذُكروا بالنعمة، فإن هذا يقودهم إلى الامتثال والاستجابة، ويكون في ذلك من إقامة الحجة عليهم ما فيه، اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم،

ويُؤخذ من هذا أن ذكر النِعم أمر مطلوب شرعًا، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا، [سورة آل عمران:١٠٣]

وهكذا في مواضع من كتاب الله -تبارك وتعالى- يُذكر العباد بنِعمه لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [سورة قريش:١- ٤].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا [سورة الأحزاب:٩] فالتذكير بالنِعم مؤذنٌ بانقياد النفوس التي تحمل قلوبًا حية.

ثم أيضًا الخطاب حينما يوجه إلى مُخاطب مخصوص، كما هنا، يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ،

مع أن هذا مطلوب لجميع البشر، أن يذكروا نعمة الله عليهم، فهذا التوجيه لهذا الخطاب: إما لكون هذا المُخاطب أوعى من غيره، فيُخص بالخطاب، مع أن ذلك لا شك أنه يتوجه إلى الجميع، أو لكون هذا المُخاطب أولى أن يمتثل؛ لكثرة نِعم الله عليه،

فهنا وُجّه هذا لبني إسرائيل لكثرة النِعم، والله أعلم، ومنها: أنه كان يسوسهم الأنبياء، وفي العصر الواحد يوجد جمع من الأنبياء يسوسهم، وهم قد قتلوا في يوم واحد سبعين نبيًا، كما صح ذلك عن رسول الله

فهؤلاء كانوا في حال من النِعم الكثيرة، اصطفاهم الله على عالم زمانهم، وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ - [سورة البقرة:٤٧] وأكرمهم، وأعطاهم واولا:هم، ولكنهم كفروا بالله - تبارك وتعالى- وما رعوا هذه النِعم حق رعايتها، فهؤلاء في الواقع كانوا أولى الناس بالامتثال والاستجابة، واتباع النبي لما عندهم من العلم برسالته، وأحقية ما جاء به، ولعلمهم بأوصافه المذكورة في كتبهم.

البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتب أهل الكتاب

وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ [سورة البقرة:٤٠]

أوفوا بعهدي أوفي بعهدكم، فما هو عهده؟ هو الإيمان والتوحيد، واتباع الرسل، وبخاصة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لان الله تعالى إلى اخذ الميثاق والعهد على كل الانبياء ان يؤمنوا به صلى الله عليه وسلم ويناصروه وان يخبروا اقوامهم ان يؤمنوا به

وبما ان بنى اسرائيل هم الامة السابقة لنا والمعاصرة ليوم القيامة فهم مشمولون ايضا فى الخطاب وبخاصة ان انبياءهم اخبروهم بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وامروهم باتباعه فهذا هو العهد والميثاق الذى يذكرهم به القران الكريم. والحمد لله اننا وجدنا فى كتبهم ما يؤكد صدق كلامنا

ففى العهد القديم على لسان سيدنا موسي عليه السلام:

ورد في سفر التثنية (١٧/١٨): (قال: لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه).

هذا الكلام لا ينطبق إلا على النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأنه قال:(من وسط إخوتهم). وإخوتهم هم أبناء إسماعيل عليه السلام؛ لأنه أخو إسحاق الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل حيث هما ابنا إبراهيم عليه السلام. وأيضاً قال: (مثلك)

ومعلوم أن اليهود يرون أنه لم يقم في بني إسرائيل نبي مثل موسى حيث قال:وا في سفر التثنية (١٠/٣٤): (ولم يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى، الذي عرفه الرب وجهاً لوجه). وفي النسخة السامرية من التوراة هكذا (ولا يقوم أيضاً نبي في إسرائيل مثل موسى الذي ناجاه الله شفاها). واليهود يزعمون أن هذه البشارة لنبي لم يأت بعد، وإن زعم بعضهم أن المراد بها يوشع بن نون، فهذا غير صحيح؛ لأنه ليس مثل موسى، ويزعم النصارى أن المراد بها عيسى عليه السلام، وهي في الواقع لا تصدق عليه بأي وجه؛ لأنه:-

اولا: من بني إسرائيل وليس من إخوتهم.

ثانيا: هو ليس مثل موسى عليه السلام، فإنه تابع له، كما أنه عند النصارى إله، وابن إله، فلو أقروا بأنه مثل موسى لهدموا ديانتهم وما هم عليه.

أما النبي صلى الله عليه وسلم فتصدق عليه من جميع الوجوه، فإنه من إخوتهم، وهو مثل موسى عليه السلام نبي رسول، وأتى بشريعة جديدة، وحارب المشركين، كما فعل موسى عليه السلام.

ثم إنه قال: (أجعل كلامي في فمه). فهذا كناية عن القرآن المحفوظ في الصدور، الذي تلقَّاه النبي محمد صلى الله عليه وسلم مشافهة من جبريل عليه السلام، وحفظه في قلبه، وتلاه بعد لأمته من فمه عليه الصلاة والسلام، حيث كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب عليه الصلاة والسلام.

ثم إن الله جـلَّ وعـلا أتـم وعـده للنـبي صـلى الله عليـه وسـلم أن الـذين لا يطيعونـه فـإن الله سيطالبهم، وقد طالبهم، فانتقم من أعدائـه المشرـكين واليهـود، ثـم ممـن عـداهم مـن الأمـم. وهذا لم يكن لنبي غيره، وعيسى عليه السلام لم ينتقم الله من أعدائه، بل كان أعداؤه في مكـان المنتصر، فـأرادوا قتلـه إلا أن الله جـلَّ وعـلا أنجـاه مـنهم، وفـي زعـم النصـارى أنهـم قبضـوا عليـه وأهانوه وصلبوه.

وأما من العهد الجديد فنقرأ على لسان سيدنا عيسي عليه السلام:

ورد في إنجيل يوحنا (٧/١٦): (لكني أقول لكم الحق أنه مـن الخـير لكـم أن أنطلـق؛ لأنـه إن لـم أنطلق لا يأتيكم (المعزى) ولكن إن ذهبت أرسله لكم، ومـتى جـاء ذاك يبكـت العـالم عـلى خطيـة، وعلى بر، وعلى دينونة...

ثم قال::(إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية ذاك يمجدني؛ لأنه يأخذ مما لي ويخبركم).

فقوله: (المعزى). المراد به الذي أجد به عزاء، وهذا لا ينطبق إلا على النبي صلى الله عليه وسلم حيث هو الذي يجد عيسى عليه السلام به العزاء؛ لأنه يبين الحق، ويظهر الله على يديه الدين الذي لم يتمكن المسيح عليه السلام من إظهاره. ثم إن الذي ذكر مكان هذا اللفظة- وهي (المعزى)- في الترجمات الأخرى عدا العربية هي لفظة (الفارقليط) اليونانية، وقد بدَّله المترجمون في النسخ العربية إلى (المعزى)؛ لأن معنى (الفارقليط) هو المعزى، ولكن الذي بيَّنه (الشيخ رحمة الله الهندي) وغيره أن (الفارقليط) هو تحريف لكلمة (بيرقليط) التيتعالني محمد أو أحمد،

حسد النصارى:

ولحسد النصارى وبغيهم حرفوا هذه الكلمة التي هي نص في اسم النبي صلى الله عليه وسلم في لغة اليونان، مع العلم أن النص اليوناني لإنجيل يوحنا أقل ما يقال: فيه: أنه ترجمة لما نطق به المسيح؛ لأن المسيح عليه السلام كان يتكلم الآرامية، وليس اليونانية، كما أن الواقع أن (المعزى) لا ينطبق إلا على النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا معزى بعد المسيح إلا النبي محمد صلى الله عليه وسلم،

كما أن كل بشارة بأحد وردت على لسان المسيح عليه السلام إنما تنصرف باللزوم إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه ليس بينهما نبي، وليس بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبي. بهذا يتضح أن الله عزَّ وجلَّ قد أقام الحجة على اليهود والنصارى بما بين أيديهم يقرؤونه ويرونه، لو كانوا يبصرون.

وهكذا تبين لنا صدق الله تعالى إلى حين اخبرنا بان هناك وعد من الله لبنى اسرائيل ولذا طلب منهم ان يفوا بعهده سبحانه فان حدث وفى لهم الله تعالى إلى

وعهد هؤلاء الذي أعطاهم: هو أن من فعل ذلك رحمه وأدخله جنته، ونجاه من عذابه، فقوله -تبارك وتعالى: وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ [سورة البقرة:٤٠]

تقديم المعمول (إياي) على عامله، يدل على الاختصاص والحصر، وفيه توحيد الرهبة لله وأن يرهب العبد ربه، والرهبة هي خوف معتعالىظيم، فالخوف على مراتب، ومن مراتبه: الرهبة، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى: وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ [سورة البقرة:٤١] فهذا كله يفيد الحصر، ويفيد الاختصاص، والتقوى تكون له وحده، والخوف يكون منه وحده.

ومن بدائع الاسلام انه مهيمنا على الكتب السابقة انه ان وجد فيها ما يوافق مراد الله تعالى إلى يثمنه ويذكره وحين يجد مخالفا لمراد الله نبه عليه وبينه ووضحه للناس

فكما بينا شرعنتهم للجريمة وكذبهم على الله ورسله وجب علينا ان نبين ما نجده سليما او مقاربا للصواب ومما وجدناه لديهم موافقا لما عندنا الحديث عن وعد الله لهم وجزاءهم ان وفوا ان يبارك فى دنياهم وان يأمنوا فى اوطانهم وان يحميهم من الاعداء وعقابهم ان خالفوا ذلك ان يسلط عليهم الاعداء وان ينقص من ثمارهم

فسنذكر النص من كتبهم الذى يدل على ذلك مع ركاكة الاسلوب والالفاظ

فهناك فارق شاسع بين اسلوب وفصاحة

وبلاغة القران الكريم وبين الكتب الاخرى

، ففى سفر اللاويين،

الآيات ٣ – ١٣:- اذا سلكتم في فرائضي و حفظتم وصاياي و عملتم بها. اعطي مطركم في حينه وتعالبطي الارض غلتها وتعالبطي اشجار الحقل اثمارها. و يلحق دراسكم بالقطاف و يلحق القطاف بالزرع فتأكلون خبزكم للشبع و تسكنون في ارضكم امنين. و اجعل سلاما في الارض فتنامون و ليس من يزعجكم و ابيد الوحوش الرديئة من الارض و لا يعبر سيف في ارضكم. و تطردون اعداءكم فيسقطون امامكم بالسيف. يطرد خمسة منكم مئة و مئة منكم يطردون ربوة و يسقط اعداؤكم امامكم بالسيف. و التفت اليكم و اثمركم و اكثركم و افي ميثاقي معكم. فتأكلون العتيق المعتق و تخرجون العتيق من وجه الجديد. و اجعل مسكني في وسطكم و لا ترذلكم نفسي. و اسير بينكم و اكون لكم الها و انتم تكونون لي شعبا. انا الرب الهكم الذي اخرجكم من ارض مصر من كونكم لهم عبيدا و قطع قيود نيركم و سيركم قياما

ولكن اذا اخلفوا الوعد فسيعاقبهم الرب اشد العقاب فذكروا فى سفر اللاويين

الآيات ١٤ – ٣٩:- لكن ان لم تسمعوا لي و لمتعالبملوا كل هذه الوصايا. و ان رفضتم فرائضي و كرهت انفسكم احكامي فما عملتم كل وصاياي بل نكثتم ميثاقي. فاني اعمل هذه بكم اسلط عليكم رعبا و سلا و حمى تفني العينين و تتلف النفس و تزرعون باطلا زرعكم فياكله اعداؤكم. و اجعل وجهي ضدكم فتنهزمون امام اعدائكم و يتسلط عليكم مبغضوكم و تهربون و ليس من يطردكم. و ان كنتم مع ذلك لا تسمعون لي ازيد على تاديبكم سبعة اضعاف حسب خطاياكم.

فاحطم فخار عزكم و اصير سماءكم كالحديد و ارضكم كالنحاس. فتفرغ باطلا قوتكم و ارضكم لاتعالطي غلتها و اشجار الارض لاتعالطي اثمارها. و ان سلكتم معي بالخلاف و لم تشاءوا ان تسمعوا لي ازيد عليكم ضربات سبعة اضعاف حسب خطاياكم.

اطلق عليكم وحوش البرية فتعدمكم الاولاد و تقرض بهائمكم و تقللكم فتوحش طرقكم

و ان لم تتادبوا مني بذلك بل سلكتم معي بالخلاف. فاني انا اسلك معكم بالخلاف و اضربكم سبعة اضعاف حسب خطاياكم. اجلب عليكم سيفا ينتقم نقمة الميثاق فتجتمعون إلى مدنكم و ارسل في وسطكم الوبا فتدفعون بيد العدو. بكسري لكم عصا الخبز تخبز عشر نساء خبزكم في تنور واحد و يردن خبزكم بالوزن فتاكلون و لا تشبعون. و ان كنتم بذلك لا تسمعون لي بل سلكتم معي بالخلاف. فانا اسلك معكم بالخلاف ساخطا و اؤدبكم سبعة اضعاف حسب خطاياكم.

فتاكلون لحم بنيكم و لحم بناتكم تاكلون. و اخرب مرتفعاتكم و اقطع شمساتكم و القي جثثكم على جثث اصنامكم و ترذلكم نفسي. و اصير مدنكم خربة و مقادسكم موحشة و لا اشتم رائحة سروركم. و اوحش الارض فيستوحش منها اعداؤكم الساكنون فيها. و اذريكم بين الامم و اجرد وراءكم السيف فتصير ارضكم موحشة و مدنكم تصير خربة.

سبحان الله،

ويضتح لنا ومن كتبهم انهم اخلفوا الله ما وعدوه فها هى كتبهم شاهدة عليهم فقد اصابهم ما لم يكن فى حسبانهم فقد تشتتوا فى كل الارض وسلط عليهم كل جبابرة الارض الاشوريون والبابليون

والاسكندر والرومان وغيرهم حتى كادوا ان يفنوهم من على وجه البسيطة

ومع هذا فان الله فتح امامهم باب التوبة والرجوع اليه فارسل اليهم و إلى الدنيا باسرها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هاديا ونذيرا وبشيرا

فقال تعالى: موجها الخطاب لبنى اسرائيل: (وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تعلَمُونَ (٤٢)

فالله -تبارك وتعالى- يقول في جُملة ما خاطب به بني إسرائيل: وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ

يُخاطبهم بهذا الأسلوب: يا بني إسرائيل آمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم، يعني: القرآن الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم موافقًا لما يعلمونه من صحيح التوراة، ولا تكونوا أول فريقٍ من أهل الكتاب يكفر به، ولا تشتروا ولا تستبدلوا وتستعيضوا بآياتي ثمنًا قليلاً، من حطام الدنيا الزائل، وإياي وحدي فأطيعون، واعملوا بطاعتي، واجتنبوا معصيتي.

وتأمَّل قوله -تبارك وتعالى- في هذا الخطاب لبني إسرائيل: وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ خاطبهم بهذا الخطاب الذي يدعوهم فيه بالإيمان بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم

وذكر معه ما يدعوهم إلى الإذعان والاستجابة والانقياد، مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ هذا الذي ندعوكم إلى الإيمان به هو مُصدق لما معكم من الكتاب وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ،

ولكن لماذا قال:، ولاتكونوا اول كافر به.،قد سبقهم الكفار من أهل مكة بالكفر به، حينما كان النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فنزلت هذه السور التي خاطب الله فيها أهل الكتاب، وكان من أولها سورة البقرة، وكان من جُملة هذه السور، سورة آل عمران التي جاء الخطاب فيها كثيرًا للنصارى، وسورة البقرة يُقال:إنها أول سورة نزلت في المدينة، وجاء الخطاب فيها طويلاً مفصلاً لليهود،

فهؤلاء قال: عنهم: وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، يعني: أول كافر به من أهل الكتاب؛ لأنهم العارفون بما يجب نحو هذا الكتاب، فهم العارفون بالكتب المُنزلة، وبالرُسل، وبأوصاف النبي صلى الله عليه وسلم الذي يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل، وهذا التصديق الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- هنا، مُصدقًا لما معكم، تصديق القرآن للتوراة، ولغيرها من الكتب، وتصديق النبي صلى الله عليه وسلم للأنبياء، كل ذلك يكون لمعانٍ ثلاثة ذكرها أهل العلم:

الأول: أنهم أُخبروا به، ثم ظهر كما جاء الخبر عندهم، فهذا مُصدق لما معهم من الإخبار بمحمد صلى الله عليه وسلم فقد جاءت صفته الكاشفة التي لا تدع في الحق لبسًا؛ ولهذا قال: الحق -تبارك وتعالى- عن هؤلاء وشدة معرفتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم لما وصف به من الصفة الدقيقة التي لا يلتبس فيها بحال من الأحوال مع غيره،

البلاغة في قوله تعالى: (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ)

قال: الله تعالى إلى: يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ [سورة البقرة:١٤٦] وقد ذكرنا في بعض المناسبات أنه لم يقل: يعرفونه كما يعرفون أنفسهم باعتبار أن الإنسان لا يعرف نفسه إلا بعد الولادة بمدة، ولكنه يعرف ولده بمجرد خروجه من بطن أمه، بأشباهه، وأوصافه، ومن عينيه، معرفة لا تشتبه ولا تلتبس، فهذا مُصدق لما معهم بهذا الاعتبار.

المراد بقوله تعالى: (مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ)

الاول: أنه صلى الله عليه وسلم أخبر عن موسى عليه السلام وأنبياء بني إسرائيل أنهم أنبياء أُرسلوا من عند الله -تبارك وتعالى- وأن الله أنزل عليهم هذه الكتب، فهو مُصدق لما معهم، يقول: هؤلاء الذين جاءوا إليكم هم أنبياء من عند الله حقًا، وما كانوا متقولين على الله، وهذه الكتب التي نزلت من التوراة والزبور والإنجيل الله هو الذي أنزلها، فالنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار والقرآن كذلك هو مُصدق لما معهم.

والثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء فيما أخبر به عن ربه من صفة الله أوصاف المعبود، وكذلك أصول الشرائع وغيرها مما أخبر الله -تبارك وتعالى- به من خبر الأنبياء مع أُممهم، مما يجدونه عندهم مقصوصًا في كتابهم،

فجاء هذا مُصدقًا لما معهم، وجاء دينه في أصوله وكُلياته ومبانيه العِظام موافقًا لما عندهم؛ لأن أصول الدين، وأصول الشرائع متفقة بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام؛ ولهذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- إخوة لعلات، وبين ذلك بأن دينهم واحد، وشرائعهم شتى، فأصل الدين واحد،

فالذي جاء به هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- من أصول الدين الكِبار جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ودعا إليه، فكان ذلك تصديقًا لما معهم، فهذه ثلاثة معاني كلها صحيحة في قوله: مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ.

ومصداقا لذلك ما وجدناه فى كتبهم من بشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم فى انه مثل موسي عليه السلام وان عليهم السمع له والطاعة كما ذكرنا من قبل

السر في دخول أهل المدينة المنورة في الإسلام قبل هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- إليها

بسبب البشارات الواردة في كتب أهل الكتاب بالنبي الخاتم وأمته: فقد جاء في العهد القديم. سفر التثنية ١٨/١٨

:" أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به" وهذا النص يدل على أن هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- ليس من بني إسرائيل، ولكنه من إخوة بني إسرائيل، وهم بنو إسماعيل؛ ولذلك كان الأحبار

والرهبان (علماء اليهود والنصارى) يعرفون جيدا أن هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- من نسل إسماعيل - عليه السلام- (وهم العرب).

وهذا هو السر في دخول أهل المدينة المنورة في الإسلام قبل هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- إليها؛ من كثرة ما سمعوا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأحبار والرهبان

وفي قوله تعالى: وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً

و الاشتراء من الاضداد، فيُقال: للبيع تارة، ويُقال: للشراء تارة، وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً

أي: لا تستعيضوا عنها بثمن قليل، وما هو هذا الثمن القليل؟

هو كل ما يُعطى من الدنيا في هذا السبيل فهو قليل، فلو أخذ هؤلاء في سبيل تبديل الحق، أو في سبيل كتمانه، أو سبيل تحريفه: الدنيا وما فيها من الأموال والكنوز، فإن ذلك يُعد قليلاً،لأن موضع السوط في الجنة خير من الدنيا، وما عليها، وما الدنيا!! في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المُضمر السريع تحت ظلها مائة عام لا يقطعها

فهذا الحطام كله قليل، فينبغي أن يُزهد فيه، وأن يُلتفت إلى الآخرة، وأن يُتمسك بأهداب الحق، فذلك خير وأبقى، وقد قال: الله تعالى: الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً [سورة الكهف:٤٦].

وما هي الباقيات الصالحات؟ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ويدخل في ذلك أيضًا سائر الأعمال الصالحة التي يُتقرب بها إلى الله -تبارك وتعالى؛ لأنها ذخائر تبقى، أما هذا الحطام فهو إن أكلته فني، وصار إلى ما قد علمتم، وإن تركته بقي لوارث، فإن تقربت به بصدقة ومعرف وصلة، فذلك الذي يبقى للعبد.

ويُؤخذ من هذه الآية وإن كانت خاصة في بني إسرائيل إلا أنها تتناول مَن فعل فعلهم، فكل من اشترى بالحق ثمنًا قليلاً بأخذ الرُشى، أو غير ذلك مما يحصل به إبطال الحق، سواء كان الإنسان حاكمًا قاضيًا، أو كان مُفتيًا، أو غير ذلك، فإنه حينما يأخذ هذا العوض من رشوة وغيرها مما يُبطل به الحق، أو يُبدل به الحق، أو يكتم به الحق، فإن هذا يكون داخلاً في هذه الآية.

ويُؤخذ من هذه الآية أيضًا وجوب تقوى الله -تبارك وتعالى- فهذا أمر، وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ، وأن تكون هذه التقوى أيضًا خالصة لله، فإن تقديم المعمولات على عواملها -كما هو معلوم- يُفيد الاختصاص أو الحصر، كما تقول: إياك نعبد وإياك نستعين،

لكن حينما تقول: نستعين بك، نعبدك، فقدتعالىبده وتعبد غيره، وتستعين به وتستعين بغيره، لكن إذا قُدم المعمول دل على الحصر، تقول: إياك أعني، يعني: لا أعني أحدًا سواك.

ثم قال: الله -تبارك وتعالى- في جملة هذا الخطاب لهم:، وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تعلَمُون،

لا تخلطوا الحق الذي بينته لكم غاية البيان بالباطل الذي افتريتموه، واحذروا من كتمان الحق الواضح البين في صفة محمد صلى الله عليه وسلم التي تجدونها في كتبكم، فيماتعالىلمون من هذه الكتب والأوصاف المُثبتة فيها.

صور إلباسهم الحق بالباطل

(ولا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ) واليكم صورة من الباسهم الحق بالباطل فقد كان فى العهد القديم فى سفر نشيد الانشاد بشارة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم باسمه وصفته وكانت

جاء فى.الإصحاح ٥ – عدد ١٦: «فتى كالأرز. حلقه حلاوة محمد يم. هذا حبيبي، وهذا خليلي، يا بنات أورشليم »

كما ترون.الاسم العلم محمد يم مكتوب

بالخط الغليظ." محمّد يم" هو اسم علم. ولكنهم ليلبسوا الحق بالباطل قاموا بتحريفه أثناء الترجمة من اللغة العبرية إلى بقية اللغات إلى عبارة" كلّه مشتهيات" .

وللتذكير: الاسم العلم لا يمكن ترجمته، بل يبقى على حاله أثناء الترجمة والنقل من لغة إلى أخرى.

ومن المعلوم أنّ أسماء الأعلام لا تُترجم. بعد التفحص والتمحيص والتدقيق للكلمة الأخيرة المكتوبة باللغة العبرية (والتي تُكتب وتُقرأ من اليمين إلى اليسار حسب حروف الأبجدية الساكنة) هذه الجملة الأصلية مع إبراز الاسم العلم، محمد يم بالخطّ الغليظ: חִכּוֹ, מַמְתַקִּים, וְכֻלּוֹ, מַחֲמַדִּים; זֶה דוֹדִי וְזֶה רֵעִי, בְּנוֹת יְרוּשָׁלָ‍ִם

تنطق باللغة العبرية

:" هيككو مامتكيم في خولو محمّد يم زهدودي فاي زاراي بنوت ياروشلام"

. ترجمتها: «فتى كالأرز. حلقه حلاوة محمد يم. هذا حبيبي، وهذا خليلي، يا بنات أورشليم ».

يتمّ إضافة «يم" في نهاية الكلمة في اللغة العبرية للتعبير عن احترام الشخص الذي نتحدث عنه،

وللدّلالة على التميّز. أثناء الترجمة والنقل من لغة إلى أخرى، قاموا بترجمة الاسم العلم «محمّد" الذي هو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل باللغة العبرية الأصلية إلى (كلّه مشتهيات) فى العهد القديم عن قصد حتّى يتغيّر المعنى ويتغير الشخص المعني بالأمر في هذا المقطع عند النقل إلى لغة أخرى،

وهذا يُعتبر نوعا من أنواع التحريف والباس الحق بالباطل لأنّه من المعلوم أنّ أسماء الأعلام لا تُتَرجم. إنّ هذه الكلمة

باللغة العبرية מחמדتعالني باللغة العربية محمد

ولكن هناك من احبار بنى اسرائيل من أراد الله هدايته، وعرف النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكتم صفته صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام حينما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليه، وهو من أحبارهم، ونظر إليه، فقدم له صدقة، فأعطاها صلى الله عليه وسلم لاصحابه

فجاء بأخرى، وقال:هذه هدية فقبلها صلى الله عليه وسلم فقال:هذه الأولى، أنه لا يقبل الصدقة، ويقبل الهدية، يقول:" لما نظرت إلى وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب"

وهذا ما يُعرف بدلائل النبوة، فإن دلائل النبوة منها ما يكون من قبيل الخوارق والمُعجزات، كانشقاق القمر، ونزول هذا القرآن المُعجز، ومن هذه الدلائل ما لا يكون مُعجزًا، مثل هذا، من رآه عرف أنه ليس بوجه كذاب، وكذلك أيضًا ما كان يدعو إليه،

ومن نظر في أسئلة هرقل لأبي سفيان قبل إسلامه لما سأله تلك الأسئلة المعروفة، لم يكن قد سأله عن شيء من خوارق العادات، مما يُسمى بالمُعجزات، وإنما سأله عن نسبه، وعن ما يدعو إليه، وهل كان في أبائه من ملك، وما شابه ذلك؟ ثم عرف صدق ما جاء به ﷺ.

قوله -تبارك وتعالى-: وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ

فنهاهم عن أمرين: بينهما مُلازمة، لبس الحق بالباطل، فدعاة الضلالة، كما يقول الشيخ محمد الخضر حسين -رحمه الله- لهم طريقان في الإغواء والإضلال:

الأول: هو لبس الحق بالباطل، فهذا يُحرفون فيه الحق وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

الطريقة الثانية: وهي طريقة الكِتمان وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ فالحق إما أن يشوه ويُحرف ويُبدل، وتُغير ملامحه ومعالمه، فيبقى مُلتبسًا على الناس،

والحالة الثانية: وهي أن يُكتم الحق بالكُلية، كما جاء في حال هؤلاء اليهود، وفي خبرهم حينما سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عما يجدونه في كتابهم في حكم الزاني؛

لما وجد رجلاً وامرأة قد حُمما -يعني بالسواد- فسألهم عنهما، فقالوا: قد زنيا، فسألهم عن ما يجدون في كتابهم، قالوا: نجد التحميم، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بالتوراة، فجاء الحبر ومعه التوراة، وقد وضع أُصبعه على آية الرجم، فقال: عبد الله بن سلام: مُره يا رسول الله فليرفع أُصبعه، وإذا آية الرجم تلوح، فغضب هذا الحبر، وقال:: ما أنزل الله على بشر من شي،

وحد الرجم صحيح فعلا، وقد ذكر فى كتبهم رغم ما شابها من تحريف وتغير الا ان الله تعالى إلى اعمى اعينهم عن بعض النصوص لتظل شاهد صدق على ان الله تعالى إلى كان قد انزل توراة حقيقية وانجيل حقيقى من قبل فها هو النص من عندهم فى كتاب العهد القديم سفر التثية ٢١/٢٢

. تخْرِجُونَ الْفَتَاةَ إلى بَابِ بَيْتِ أَبِيهَا، وَيَرْجُمُهَا رِجَالُ مَدِينَتِهَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى تَمُوتَ، لأَنَّهَا عَمِلَتْ قَبَاحَةً فِي إِسْرَائِيلَ بِزِنَاهَا فِي بَيْتِ أَبِيهَا. فَتَنْزِعُ الشَّرَّ مِنْ وَسَطِكَ،

وفى العهد الجديد فى كتاب يوحنا اصحاح ثمانية

عدد خمسة حين اراد اليهود ان يختبروا سيدنا عيسي عليه السلام

أن الكتبة، والفريسيين قال:وا له: يا معلم، هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل، وموسى في الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم. فماذا تقول أنت؟.

اما قول الجاحدين منهم حين علموا الحق ما انزل الله على بشر من شيئ

يعني: أي بشر، فيشمل جميع البشر بما فيهم موسى عليه السلام الذي يؤمن به هذا الحبر، و(من شيء) يشمل كل شيء بما فيه التوراة، التي يؤمن بها،

فجاء الرد القرآني بما يُسميه الجدليون طريق النقض، قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا [سورة الأنعام:٩١]

من الذي جاء بها؟ تقول: ما أنزل الله على بشر من شيء، اذن، من الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟

فإن قال:ما نزل على موسى شيء كفّره من حضر من اليهود، فلا بد أن يقول: الله، فيكون كلامه هذا الذي قال:ه" ما أنزل الله على بشر من شيء" قد انتقض،

فيوجد بشر أنزل الله عليه شيئًا وهو التوراة، إذًا: الوحي معهود، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- قد وُجدوا وبُعثوا، والنبي محمد صلى الله عليه وسلم كذلك هو مُرسل من عند الله - تبارك وتعالى..

وهنا لفته هامة، أن كل من لبس الحق بالباطل، فلم يُميز هذا من هذا، مع علمه بذلك، فإنه يكون من دعاة الضلالة، كهؤلاء اليهود، وهنا تنبيه إن كل من لبس الحق بالباطل فقد كتم الحق؛ لأنه حينما يخلط الحق بالباطل، ويُغير معالم الحق، فلا بد أن يكون قد كتم الحق، لكن ما كل من كتم الحق يكون قد لبس الحق بالباطل

، وجوب بيان الحق، وتمييز الحق من الباطل، يُقال:هذا حق، وهذا باطل وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ يعني: حقائق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وحقائق الدين يجب أن يعرفها الناس، هذا أمر لا بد منه؛ لئلا يبقى الحق مُلتبسًا،

أساليب دعوية لاغنى للمحاور المسلم عنها

وهنا تنبيه مهم ، ليس بالضرورة أن تتحدث عن كل قضية واقعة، وتُسمي من فعل ذلك، وأنه مُبطل، وأن هذا الفعل الذي قد جرى منه باطل،

ففرق بين أن يُكتم الحق، ويبقى مُلتبسًا، ويرفع صاحب الباطل عقيرته يتكلم فلا يُبين الحق،

وبين أن تُبين معالم الحق، فيبقى ظاهرًا،

، يعني: ليس بالضرورة أن ترد على كل مُبطل، فقد تكون المصلحة خلاف ذلك،

قد تكون المصلحة في كبت هذا المُبطل، وعدم إذاعة هذا الباطل، وقد يكون التنصيص على هذا المُضل، مما يرفع شأنه، أو يشتهر بذلك، أو غير هذا من المفاسد،

، ويدخل في لبس الحق بالباطل الطرح لحقائق الدين بطريقةغير واضحه ومفهومه، لا يُعرف من

خلالها الحق، فيبقى الحق غير مُتميز، سواء كان ذلك في أصول الدين، أو في فروعه -إن صح التقسيم-

وإنما يجب أن يُبين للناس حدود ما أنزل الله على رسوله صلى الله علبه وسلم وفي الحلال والحرام إذا ظهر دليله ووجه

يُقال: لهم: هذا حلال، وهذا حرام، أما أن يُجاب بإجابات ضبابية لا يأخذ السامع أو السائل أو المُستفتي حقًا ولا باطلاً،

وإنما قصد المُجيب أحيانًا أن يُرضي الجميع، أصحاب المجون والفسق والانفلات من حدود الشرع، فلا يُغضب هؤلاء بكلمة حرام أو ممنوع أو لا يجوز،

، أو يُرضي أهل الأهواء، فلا يقول: هذه ضلالة أو هذه بدعة، وإنما الإجابات بكلام كثير، لا تأخذ منه حقًا ولا باطلاً، هذه طريقة، لكنه هي طريقة لبس يُلبس الحق بالباطل، فيجب بيان الحق بصورة واضحة، رضي الناس أم سخطوا، ولا يصح بحال من الأحوال أن يكون مقصود العالم هو إرضاء الجماهير ولا غير الجماهير، وإنما يكون المقصود هو رضا الله وحده، لا شريك له.

: أن العالم يجب عليه أن يتكلم بالحق بحسب استطاعته؛ لأن الله لا يُكلف نفسًا إلا وسعها، لكن أن يترك ذلك من أجل دنيا، فيشتري بآيات الله ثمنًا قليلاً، وهذه الدنيا قد تكون المال أو الرُشى التي يتقاضاها، وقد يكون ذلك ربما رُتبة في قلوب الجماهير والناس، كما يُعبر بعضهم بأن الوصول إلى القمة أمر سهل، ولكن المحافظة على التوازن هناك أمر في غاية الصعوبة

شبهة وجوابها: كيف يأمرهم الله بالصلاة والزكاة وهم غير مسلمين

قوله -تبارك وتعالى: وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

فقد وجه الله -تبارك وتعالى-بني إسرائيل إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم بان يقيموا الصلاة مع رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وكذا يختلطوا بالمجتمع فيؤدون الزكاة ويحسنوا إلى الناس وبالطبع لن يتأتى ذلك الا اذا امنوا بالله تعالى إلى ربا وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم رسولا وبالإسلام دينا وبالمؤمنين اخوانا

فقال تعالى: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ، هذا أمر لهم بإقامة الصلاة على الوجه الصحيح المشروع، مستوفية لشروطها، وأركانها، وواجباتها، وكذلك أيضًا بإيتاء الزكاة المفروضة على الوجه المشروع، وأن يكونوا في جملة الراكعين المصلين وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ

وهذا أمر لهم في الواقع أيضًا بالدخول في الإسلام؛ لأنهم لا يمكن أن يأتوا بذلك على الوجه المشروع في وقت هذا الخطاب إلا بدخولهم في الإسلام، فإن الكفار لا يُقبل منهم صلاة ولا زكاة ولا عبادة من العبادات -كما هو معلوم- إلا إذا دخلوا في الإسلام.

والله -تبارك وتعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ [سورة آل عمران:٨٥] فالله -تبارك وتعالى- لا يتقبل أعمال الكفار على جميع مِللهم ونِحلهم وأديانهم ومذاهبهم، والله -تبارك وتعالى- يقول: وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا [سورة الفرقان:٢٣] وشبّه أعمالهم بالرماد وبالسراب. ويُؤخذ من هذه الآية وهي قوله -تبارك وتعالى: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

أن الصلاة والزكاة كانتا واجبتين على هـؤلاء مـن بـني إسرائيـل، وهمـا واجبتـان في شرائـع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام

إن الناظر في آيات القرآن الكريم يجد أن الصلاة كانت أصلاً من أصـول التشريـع فـى الرسـالات السابقة،

وأنها كانت ذات أركـان و شروط.. منهـا الطهـارة، و الركـوع، و السـجود، و القنـوت، والـدعاء، والتوجه إلى جهة معينة،

ولقد بين القرآن الكريم ان انبياء الله تعـالى إلى كـانوا يقيمـون الصـلاة ومـن المؤكـد انهـم بلغوا اممهم بذلك ولكن الامم بدلت وغيرت فلم تبق على حالتها ولقد ذكر القران الكريم مـا قـام به بعض انبياء الله. فنبي الله إبراهيم عليه السلام يقول:-

" رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء" . (سورة إبراهيم ٤٠)

ويقول الله عز وجل عن إسماعيل عليه السلام:

" وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ" . (سورة مريم ٥٥)

وقال: الله عز وجل لموسى بعد أن أوحى إليه:

" إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي" . (سورة طه ١٤)

وأمر الله عز وجل موسى عليه السلام هو وأخوه هارون بالصلاة فقال: لهما:-

" وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ" . (سورة يونس ٨٧)

ومن وصايا لقمان لابنه:" يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ" . (سورة لقمان ١٧)

والصلاة أول ما نطق بها عيسى عليه السلام وهو فى المهد إذ قـال:"وَأَوْصَـانِي بِالصَّـلَاةِ" . (سورة مريم ٣١)

وداود عليه السلام كان دائماً يخر راكعاً وساجداً مستغفراً ربه" فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَاب" . (سورة ص ٣٤)

ثم شرف الله امة محمد صلى الله عليه وسلم بان جعلهم يؤدون المناسك التى كان يقوم بها الانبياء من قبل فأمرهم بالصلاة" إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا" . (سورة النساء ١٠٣)

كما أمر الله تعالى إلى بالحفاظ على الصلوات في مواقيتها وشدد على ذلك بقوله عز وجل:" حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاة الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ" . (سورة البقرة ٢٣٨)

وعلى هذا فالصلاة مشروعة فى جميع الرسالات السماوية، و هى عبارة عن ركوع وسجود وقنوت واستقبال قبلة وطهارة

كما قال تعالى: " لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا" .(المائدة ٤٨). أي طريقة وأسلوب حسب طاقته.

لمحات تاريخية عن
اليهود والنصارى وشبهاتهم

كيفية الصلاة عند اليهود

" إن نظام الصلاة التقليدي عند اليهود يأمر بفصل الإناث عن الذكور فى الصلاة، ويقوم عـلى تغطية الرأس، وإحنائه وعلى القيام فى صلوات خاصة، ويتأخر المصلي فى صلاته ثلاث خطـوات إلى الوراء عند تلاوة" عميداء" وفاتحة سفر حزقيال،

ويجب فى صلاة الصبح من كل يوم أن يرتدي المصلي رداء، ويربط التعـويزات" الطوطـافوت" بالذراع الأيسر والرأس،

ولابد من ذلك لكل من يتجاوز الثالثة عشر من السن من الذكور" سن التكليف عند اليهود"

وقد اعتقد اليهود أن الله أمرهم بأن يفعلوا هذا حسب تفسـيرهم الحرفي في مـا ورد فـى سفر الخروج إذ جاء فيه." ويكون لك علامة على يدك وتذكاراً بين عينيـك لكـي تكـون شريعـة الـرب فى فمك فيكون علامة على يدك وعصابة بين عينيك" .

وهتعالىرف بالأحراز المقدسة. وكان اليهـود حـين يشرـعون فـى الصـلاة يغطـون رءوسـهم، ويخلعون أحـذيتهم ويطـأطئون رءوسـهم، ويحنـون أجسـادهم، ويسـجدون حـتى تمـس رءوسـهم الأرض.

سبب منع ملوك الفرس لليهود من الصلاة

طريقة الإعلام بالصلاة هو النفخ بالبوق أو القرن هو الطريقة المتبعة عند اليهود، ثم أدخل على هذا النظام تغيير سمى بالتجديد بعد ذلك، وهذا التجديد تمثل فى إدخال الموسيقي فى العبادة، وقد عنى بهذه الموسيقي عناية خاصة، وقد اختير لكل صلاة ألحان خاصة ونغمات مخصوصة

ولم يقتصر الأمر على تحويل الصلاة من عبادة سمتها الخشوع والخضوع إلى عبادة تقوم على الموسيقي والغناء والتمايل، بل جعلوها وسيلة للدعاء على الأمم والشعوب الأخرى بالبوار والهلاك، ولهذا السبب كان ملوك الفرس كثيراً ما يمنعونهم من الصلاة لمعرفتهم بأن معظم صلاتهم دعاء على الأمم بالبوار، وعلى بلادهم بالخراب

ومن هذه الأدعية التي يرددونها في صلواتهم، ويدعون على الأمم الأخرى قولهم" كم ستبقي قوتك أسيرة وجمالك كامناً بيد المضطهد، يا رب برهن من الآن فصاعدا عن مقدرتك وحميتك ضد أعدائنا، حطم قوتهم والعنهم" كما يقولون" اقطع رجاء الظالم ودع جميع المهرطقين" غير اليهود" يهلكون فى وقت واحد، واستأصل وهشم وحطم المملكة المغرورة، إنا نحثك على جعل الشعوب خاضعة فى أيامنا

ثم تغيرت الصلاة فى اليهودية المجددة، فقللت حركات الجسم، وألغت نظام صفوف الذكور والإناث المنفصل بعضها عن بعض وألغت تغطية الرؤوس واستعمال الأردية. كما أصبح ربط التعاويذ لا حاجة إليه، وأصبح القيام والسكون وانحناء الرأس فى بعض الأحيان مجدداً شاذا فى مناسبات خاصة. ويؤدي اليهودي الصلاة ثلاث مرات فى اليوم.

آية التوحيد فى اليهودية

والصلاة في اليهودية عبارة عن آية التوحيد فى اليهودية ومطلوب من اليهودي أن ينطق بها عند موته أو ينطق بها أحد الواقفين إلى جواره

ومنطوق أية التوحيد كاملاً كما جاء فى العهد القديم هو: -

" اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد"

شروط وأوقات الصلاة فى اليهودية

يشترط لإقامة الصلاة فى اليهودية أن يكتمل النصاب من حيث العدد عشرة أفراد على الأقل، وأن يكونوا بالغين لا يقل سن أحدهم عن ثلاثة عشر عاما، وأن تؤدي الصلاة فى مكان عام محمود للغاية، وهى واجبة على الرجال والنساء، وممنوعة للبنات والفتيات.

وقت الصلاة وكيفية الاستعداد لها في اليهودية

يؤدي اليهود الصلاة فى الساعة التاسعة صباحاً" شحاريت"

والساعة الثانية عشر ظهراً" حتصوت"

و الساعة الثالثة بعد الظهر" مدنه"

. كما كانوا يصلون عند بداية الليل ونهايته، وعند تناول الطعام.

وقيل تكفى صلاة واحدة طول النهار، كما قال: الإمام المجتهد geho msah إلا أن جمهور اليهود يسمحون بثلاث صلوات في طول النهار وأربع في أيام الصوم خمس صلوات في اليهودية كما جاء في كتاب (الصوم في اليهودية)

كان الصالحون القدامى منهم يبذلون ساعة كاملة لغسل الجسد قبل الصلاة، وكانوا يرتدون ملابس ملائمة للصلاة.

مع العلم بأن العهد القديم لم يذكر شيئاً عن الطهارة قبل الصلاة، ولكن وجود بعض هذه الأشياء جاء نتيجة لتأثر علمائهم بالشريعة الإسلامية، لذا يقول ا بن ميمون" لا يطهر للصلاة سوي يديه فقط فى كل الصلوات ما عدا صلاة الصبح فيغسل وجهه ويديه ورجليه" .

قبلة اليهود وشروط الصلاة في اليهودية

يتجه اليهود نحو بيت المقدس كقبلة لهم. و يقول الشهرستاني: و قبلة السامرة جبل يقال: له غريم بين بيت المقدس ونابلس (ولعله جبل جرزيم).يجب أن يصلي المصلي فى مكان هابط، وأن تكون الأقدام متصلة بعضها ببعض وتكون مستقيمة، ويلزم على المصلي أن يمد يديه ويرفعها إلى الحاكم المقدس، وأن يكون خافض الطرف متعلق القلب بالأعلى، ويركع خلال التحميد، والتمجيد، ويقوم باسم الله، ويتأخر المصلي بعد ذلك ثلاث خطوات ثم يميل يميناً ويسارا

لماذا يسجد اليهود فى صلاتهم على وجه واحد من وجوههم؟

يجيب على هذا السؤال فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوى فيقول: لقد رفع الله جبل الطور فوق قوم موسى، وجعله بقدرته سبحانه كالظلة فوقهم، وأمرهم أن يأخذوا التكاليف الإيمانية وخضعوا كرهاً وخوفاً من سقوط الجبل فوقهم، واستقبلوا ما أمر به الله ساجدين خائفين، وكان سجودهم على جهة من وجوههم ليروا الجبل المرفوع فوقهم بالجهة الأخرى أثناء سجودهم – ولقد ظلت هذه المسألة باقية فى سجود البقية منهم إلى اليوم كشاهد على عدم إذعانهم للأمور الإ كرها وقسرا

وجود الزكاة والصلاة فى الكتب السابقة

وصدق الله تعالى إلى حين اخبر بنى اسرائيل بقوله جل وعلا وامنوا بما انزلت مصدقا لما معكم فحين بحثنا بين السطور فى كنبهم رغم ما بها من تحريف الا اننا وجدنا الانبياء من بنى اسرائيل اقاموا الصلاة

فالأنبياء والمرسلون كانوا يسجدون في صلاتهم كما يسجد المسلمون في صلاتهم؟

فسيدنا إبراهيم عليه السلام كان يسجد لله، حيث يقول الكتاب المقدس: فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللهُ مَعَهُ قَائِلاً: «أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأمم، فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ..." (التكوين ١٧:٣-٥)

و موسى وهارون عليهما السلام كانا يسجدان لله أيضا،:" فَأَتَى مُوسَى وَهَارُونُ مِنْ أَمَامِ الْجَمَاعَةِ إلى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَسَقَطَا عَلَى وَجْهَيْهِمَا، فَتَرَاءَى لَهُمَا مَجْدُ الرَّبِّ" . (العدد ٢٠:٦)

وسيدنا عبسي عليه السلام كان يسجد لله في صلاته أيضا،: ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلاً وَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ يُصَلِّي قَائِلاً: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هذِهِ الْكَأْسُ، وَلكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ». (متى ٢٦:٣٩)

وهناك نصوص اخرى نبين ان الله اخبرهم فى كتبهم بانه وحظه ينبغى السجود والتضرع له

منها " لك يا رب ينبغي السجود" (سفر باروخ ٦: ٥)

،" ففعلوا كلهم وتضرعوا إلى الرب الرحيم بالبكاء والصوم والسجود مدة ثلاثة ايام بلا انقطاع" (سفر المكابيين الثاني ١٣: ١٢)

أ" اذهب يا شيطان. لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحدهتعالىبد" (مت٤: ١٠، تث٦: ١٣)

، وفى مزمور ٨٣١

آية (٢):" أَسْجُدُ فِي هَيْكَلِ قُدْسِكَ، وَأَحْمَدُ اسْمَكَ عَلَى رَحْمَتِكَ وَحَقِّكَ، لأَنَّكَ قَدْ عَظَّمْتَ كَلِمَتَكَ عَلَى كُلِّ اسْمِكَ."

، وفى مزمور ٩٢

الآيات (١، ٢):" قَدِّمُوا لِلرَّبِّ يَا أَبْنَاءَ اللهِ، قَدِّمُوا لِلرَّبِّ مَجْدًا وَعِزًّا. قَدِّمُوا لِلرَّبِّ مَجْدَ اسْمِهِ. اسْجُدُوا لِلرَّبِّ فِي زِينَةٍ مُقَدَّسَةٍ

ولعل سائلا يسأل ألم يخبرنا القرآن الكريم بأنهم حرفوا التوراة والانجيل، فماذا عن هذه النصوص؟ نقول بأن الله تعالى إلى صدق حين أخبرنا بانهم خرفوا التوراة والانجيل كما راينا فى حديثهم عن ادم عليه السلام،

ولكن شاء الله تعالى إلى ان يعمى اعينهم عن بعض النصوص لتظل شاهد صدق على انه كانت هاك توراة حقيقية وانجيل حقيقي يوما ما

وليأتي العلماء فيستنبطون هذه النصوص ليدللوا على صدق الله تعالى إلى فيما اخبر به عن بنى إسرائيل

وعلى أيه حال فإن: " الصلاة بأحكامها وهيئاتها وكيفيتها الموجودة الآن فى اليهودية يكتنفها شيء من الغموض، مما يصعب على أي باحث الوصول إلى وضعها الأول

والأصيل الذي كانت عليه فى بداية تشريعها، وذلك لأنها قد تطور تشريعها على مر الأيام والأحداث التي صادفت بني إسرائيل من شتات وغير ذلك على مر العصور، فكان هذا سبباً فى أن

يتناولها التطور والتجديد والتحريف والتغيير دائماً، ولذلك فإنه يصعب الاهتداء إلى وضعها القديم الموحد الذي كان عليه الأنبياء والرسل – عليهم السلام

لهذا السبب ناداهم القران الكريم مجددا ان يتبعوا الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فهو كموسي وعيسى عليهما السلام وكا ابراهيم وداود وسليمان عليهم السلام

فلقد جاءهم صلى الله عليه وسلم بما كان مع انبياءهم من الكتب والشرائع السليمة فقال تعالى: (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسي وعيسي

ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه،

وبناء عليه امر الله تعالى إلى بنى اسرائيل ان يتركوا ما فى ايديهم من كتب محرفة وان يتبعوا الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويضع عنهم اصرهم والاغلال التى كانت عليهم،

فعليهم اتباعه فقال تعالى: ، واقيموا الصلاة واتوا الزكاة

ولقد تحدثنا عن الصلاة فى كتبهمأما عن الزكاة عند اليهود فكانت كالآتي

وتشتمل أحكام الزكاة عند اليهود -كما ورد في العهد القديم،

أ- ترك جزء من المحاصيل ولقط السنابل للغرباء واليتامى والأرامل، وهذا المعنى نجده في النص:" إذا حَصَدتَ حصيدك في حقلك ونسيت حُزْمَةً من الحقل فلا ترجع لتأخذها. للغريب واليتيم والأرملة تكون لكي يباركك الربّ إلهك في كلّ عمل يديك" (التثنية ٢٤: ١٩).

ب- عشور كل ثلاث سنوات لصالح الذين لا يملكون أرضًا تَخُصُّهم كاللاويين والغرباء والأيتام والأرامل، كما وَرَدَ:" وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمّل زوايا حقلك في الحصاد، ولقاط حصيدك لا تلتقط. وكرمك لاتعالتّله، ونثار كرمك لا تلتقط، للمسكين والغريب تتركه" (اللاويين ١٩: ٩، ١٠)[٢].

" وقد ذكر بعض الباحثين أن أموال الزكاة عند اليهود كانت تُدفع إلى صندوق بيت المقدس. ويوزع جزء منها على اللاويين الذين كانوا كُهَّانًا بالنسل والتوارث، وجزء منها كان يُصرف لأصحاب المناصب الدينية، وجزء ثالث كان خاصًّا بإطعام حجاج بيت المقدس وضيافتهم" كما ذكر (الشيخ أبو الحسن الندوي: الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة، ص: [١٢٩]).

" وكانت اليهود تقول بأخذ العُشر من النبات والحيوان" كما ذكر (العامري: الإعلام بمناقب الإسلام، ص: [١٤٥]).

أمّا بالنسبة للنصرانية فلم يرد لفظ الزكاة في الأناجيل، إلا أنه قد ورد لفظ" الصدقة، والصدقات" ، من ذلك:

" احترزوا من أن تصنعوا صَدَقَتكم قُدّام الناس؛ لكي ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات. فمتى صنعت صدقة فلا تُصوّت قُدّامك بالبوق، كما يفعل المراءون في المجامع وفي الأزقّة؛ لكي يُمَجَّدوا من الناس" (متى ٦: ١-٢).

وأيضًا:" وأما أنت فمتى صنعت صدقةً فلاتعالرّف شمالك ما تفعل يمينك. لكي تكون صدقتك في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يُجازيك علانية" (متى ٦: ٣-٤)

وكذلك:" بيعوا ما لكم واعطوا صدقة..." (لوقا ١٢: ٣٣). ويأتي اللفظ اليوناني للصدقة المترجم أجر كثيرًا في إنجيل متى مُرادفًا لمفهوم الصدقة في الديانة النصرانية، كما تدلُّ الكلمة على الأمانة الشخصية في الممارسات الدينية اليهودية المتعلقة بالصلاة والصدقة والصوم [متى (الصلاة ٦: ٥-٦)، (الصوم ٦: ١٦-١٨)، (الصدقة ٦: ٢-٤)].

ويحصر الإنجيل مفهوم الصدقة في صفات محددة منها:

- إعطاء الصدقة يكون بسخاء كما جاء فى رسالة (رومية ١٢: ٨).

- يفضل إعطاؤها سرًّا، وليس أمام الناس كما جاء فى (متى ٦: ٢-٤).

ويؤكد أحد كتّاب النصارى أن:" ما جاء به عيسى- عليه السلام في باب الصدقة هو جديد خالف ماتعالبوده اليهود من إظهارها بمظهر الرياء" (إسحاق سنتاءوس: تاريخ المسيح، ص: [٧٢]، ط ١٩٠٢م. المطبعة المصرية – الإسكندرية).

الزكاة في الشريعة اليهودية

لم ترد كلمة زكاة كثيرا فى أسفار العهد القديم، وإنما كانت تذكر الكلمة المرادفة لها وهى" عشور" وهىتعالنى دفع واحد من عشرة من المحصول للرب، ودفع العشر- عادة شرقية قديمة استعملتها عدة شعوب قبل العبرانيين إذ كانت تقدم أعشارمحاصيلها الزراعية والحيوانية لآلهتها الوثنية، وذلك لكسب رضاها، ومباركة تلك المحاصيل.

ثم اصبح العشور كفرض على جميع العبرانيين، على أن تقدم للاويين الذين حرموا من أي نصيب فى تلك الأرض، ثم يقوم اللاويون بتقديم عشر تلك العشور لإخوانهم الكهنة.

وكان على اليهودي أن يقدم فى العشور ما هو

صالح، وكان التعشير يعتبر باطلاً إذا قدم الرجلتعالشيراًرديئاً، وكان أهم الأعشار على الأبقار والمواشي، ولم يكونوا ملزمين بتعشير الأعشاب،

وهذا التوضيح الذى ذكرناه عن وجود الزكاة والصلاة فى الكتب السابقة وقام بها الانبياء جميعا صلوات الله وسلامه عليهم

وهذا لان الإنسان حينما يُكلف بالتكاليف الشاقة، ثم يُقال: له هذا الطريق قد سلكه سالكون قبلك وهذا العمل قد فُرض على أُمم قبلك، فإن ذلك يُخففه، وهكذا في سائر المزاولا:ت الصعبة الشاقة،

بخلاف ما إذا كان هو الطارق الأول لهذا السبيل، فإن ذلك يشق عليه، فإذا عرف المؤمن أن هذه العبادات والفروض الكِبار قد فُرضت على هذه الأمم قبلنا، فإن ذلك يُخففها عليه،

ثم أيضًا هنا هذه الزكاة تُحمل على المُتبادر إلى الأذهان، وَآتُوا الزَّكَاةَ، الزكاة المفروضة

معاني الزكاة في الإسلام

والزكاة انماتعنى،

الأمر الأول: أنها بمعنى النماء في أصلها اللغوي، فهذا يحصل به نماء المال، ما نقص مال عبد من صدقة

والأمر الثاني: وهو الطهارة، طهارة النفس من الشُح والبُخل، وطهارة المال مما قد يشوبه من المكاسب التي ليست بتلك، فيحصل الطهارة لهذا وهذا، وأما زكاة الفطر فهي طُهرة للصائم، تلك التي يُقال: لها زكاة الأبدان، أو زكاة النفوس، فهذه يحصل بها الزكاة لهذا الصوم، مما قد يُداخله،

أما الصلاة فهى صِلة بين العبد وربه، وهي نعمة جليلة، ومِنة عظيمة تبقى صِلة بين هذا المخلوق الضعيف فتبقى هذه الصلاة صِلة بين العبد وربه، خمس فرائض، وما بين ذلك من النوافل ما شاء، فإذا قويت صلته بربه -تبارك وتعالى- فلا تسأل عن ألطاف الله النازلة عليه، فيكون في حال من المنعة والعزة والقوة والمهابة، ويحصل له من السمو والراحة والروح والنعيم، فيكون في جنة في الدنيا قبل جنة الآخرة؛

السر في اقتران الصلاة بالزكاة فى القران الكريم

لماذا نرى الاقتران بين الصلاة والزكاة فى القران الكريم؟

اولا: أن الصلاة صِلة بين العبد وربه، والزكاة صِلة واصلة إلى الخلق من إخوانه، وأن سعادة العبد دائرة بين الأمرين، حُسن الصلة بالله، والإحسان إلى الخلق،

هذه السعادة مُركب يدور على هذين الأمرين، صلة العبد بربه، كيف هي؟ والأمر الثاني: الإحسان إلى الخلق، فذكر الصلاة، والزكاة.

ثانيا:: هو أن هذه الصلاة هي رأس العبادات البدنية، والزكاة هي رأس العبادات المالية، والعبادات إما

مالية، وإما بدنية في الأصل، فالعبادات البدنية أعظمها الصلاة، والعبادات المالية أعظمها الزكاة،

لذلك ذكر رأس العبادات البدنية، ورأس العبادات المالية؛ فقال::، وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، فهذا وجه في الاقتران بين الصلاة والزكاة، وهو كثير في القرآن، وهذا يدل على أنهما أعظم شرائع الدين بعد الشهادتين.

حال الذي لا يُصلي ولا يُزكي

وهنا تنبيه هام

ان الذي لا يُصلي ولا يُزكي ما حاله و قد ضيع هذه الأصول الكبار بعد الشهادتين، وأعظم أصلين، فما ظنك كيف تكون حياته في هذه الدنيا وفى الاخرة؟

فالنبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا: إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، فإن انتقص من فريضته شيء، قال: الرب : انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك.

وأخبرنا في الزكاة عن ذاك الذي لا يُزكي إن كان صاحب غنم ماذا تفعل به هذه البهائم؟ وإن كان صاحب ذهب أو فضة، فإنه تُصفح بصفائح من نار، كما قال: الله تعالى إلى: يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ [سورة التوبة:٣٥]

فلنعتني بهذا، ونرقب ربنا في هذه الفرائض، ولنحمل من تحت أيدينا على القيام بها على الوجه المطلوب لقوله تعالى إلى، وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا [سورة طه:١٣٢] وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ [سورة مريم:٥٥]

فهذا مما يجب على الإنسان لقوله صلى الله علبه وسلم كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته وأيضًا تأملوا قوله -تبارك وتعالى:، وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أخذ منه جمع من أهل العلم وجوب صلاة الجماعة، وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ،

و صلاة الجماعة دلت عليها أدلة صريحة واضحة،

والنبي صلى الله عليه وسلم هم أن يُحرق على أقوام بيوتهم، حيث تخلفوا عنه صلى الله عليه وسلم فهذا يدل على الوجوب لا يمكن أن يُحرق على هؤلاء البيوت إلا أنهم تركوا واجبًا

و قوله تعالى: وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ، لها معنى اخر لأن الله قال: لمريم وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ، [سورة آل عمران:٤٣] فهل هي مأمورة بصلاة الجماعة؟

الجواب: لا، وهنا قال:وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أي في جملة الراكعين، يعني في جملة المصلين، فيكون داخلاً مع هؤلاء، يعني: أنه موصوف بصفتهم، وقد فعل فعلهم، وتحلى بحليتهم، هذا المقصود -والله تعالى إلى أعلم-

ثم لماذا عبّر عن الصلاة بالركوع؟ وهو جزء منها، وإذا عُبر عن العبادة بجزء منها فإن ذلك يدل على أن هذا الجزء ركن فيها،

فهذه قاعدة، فحيث عُبّر عن العبادة بجزئها، فهذا دليل على أنه رُكن منها، كما يُعبر عن الإنسان بالرقبة؛ لماذا؟

لأنه لا يمكن أن تنفصل عنه إلا بمفارقة الروح، فلم يُعبر عن الإنسان باليد أو بالرجل، أو بنحو ذلك، وإنما بالرقبة لأنها لا تنفك ولا تنفصل إلا بالانفصال عن الحياة،

ونلحظ هنا قوله -تبارك وتعالى-

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ۝ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ إلى أن قال تعالى: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ

فرتّبها بهذا الترتيب الرائع، حيث بنى بعض الكلام على بعض، وجاء العطف هنا بالواو، مع أن الواو لا تقتضي الترتيب، فأفتتح بذكر النِعم وأول الإنعام عليهم، تذكيرًا بالمِنة مما يقتضي الانقياد والاستجابة، واختتم أيضًا بالأمر بالانقياد للمُنعم وَارْكَعُوا والركوع يدل خضوع وتذلل للمُنعم المُتفضل -جل جلاله وتقدست أسمائه،

ثم ذكر بين ذلك جملة من الأمور المُتصلة بالاعتقاد قوله تعالى إلى، وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ [

وقضايا أخرى، وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً

إلى غير ذلك مما ذكره من التكاليف البدنية والمالية، مما يدعو إلى الاستجابة والانقياد والخضوع لله -جل جلاله وتقدست أسماءه

، وناتئ إلى قوله تعالى إلى

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَاتعالىقِلُونَ (٤٤)

يقول الله -تبارك وتعالى- في جملة ما خاطب به بني إسرائيل في هذه السورة الكريمة أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاتعالىقِلُونَ

فالله -تبارك وتعالى- يُنكر على بني إسرائيل أن كان حالهم أنهم يأمرون الناس بالبر بعمل الخير، وينسون أنفسهم، فلا يكون الواحد منهم مُمتثلاً، ولا يأمر نفسه بذلك، مع أنهم يقرؤون كتابهم، وما فيه من الأمر بالاستجابة والانقياد،

انقياد الإنسان في خاصة نفسه، مع أمر غيره

بالمعروف، ونهيه عن المنكر، ولهذا قال: الله -تبارك وتعالى: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [سورة المائدة:٧٨، ٧٩]

(كانوا) فهذا يدل على ثبوت هذه الصفة السلبية فيهم، فلا ينهى بعضهم بعضًا عن منكر عظُم أم صغر لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ، هذا في عموم بني إسرائيل.

وأما العلماء والربانيون فإن ترك ذلك من قِبلهم يكون أشد وأعظم، كما قال: الله -تبارك وتعالى: لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ [سورة المائدة:٦٣]

ففي عموم بني إسرائيل، قال::، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُون ولما ذكر الربانيين، قال:لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُون،

- والصُنع أخص من مُطلق الفعل، فهو فعل وزيادة، يعني بإتقان وحذق وبتعمد وتكلف، فكان ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من قِبل الربانيين أعظم وأشد من ترك غيرهم له.

فهؤلاء بهذه الصفة ومن كان هذا شأنه، فإن ذلك يدل على قلة عقله؛ ولهذا قال::، أفلاتعالىلقون، فمن أمر غيره بالخير والمعروف، ولم يفعله، أو نهاه عن الشر، ولم يتركه في نفسه هو، فإن ذلك يدل على جهله، وضعف عقله

و هنا لفته هامه

الإنسان عليه أن يترك المنكر والمعصية في نفسه، وهنا يكون عليه واجب آخر أن ينهى غيره عنه لأنه ان ارتكب منكر ولم ينهى غيره عنه يكون قد ارتكب ذنبين اتيانه المنكر والثاني عدم النهى عنه

وان امروا بمعروف ولم يمتثلوا له ولم يقوموا به فتلك ايضا مخالفة

وهذا هو الذي أنكره الله تعالى إلى على بني إسرائيل هنا، فكان هذا التوبيخ

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ إنما هو بسبب أنهم أمروا بالمعروف، وتركوا الامتثال،

فليس الإنكار أنهم يأمرون بالمعروف، فهذا مطلوب، ولكن ما صاحب ذلك من ترك الامتثال، فقبُح فعلهم

بذلك

، ثم أيضًا في قوله: أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ إنما يتحقق الاقتداء والقبول والتأثير فيمن كان مُمتثلاً،

بمعنى مُطابقة الحال مع المقال:، وهذا هو الذي يكون فيه التأثير إن وجِد معه الصدق والإخلاص،

فلا بد من تطابق بين السلوك والقول، والقول والعمل، وهذا يحتاج إلى شيء من المُجاهدة والصبر، وكثرة المُحاسبة للنفس.

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ فهذه حالة تدعو إلى التُعجب؛ ولهذا جاءت هذه الهمزة التي يُعجب الله فيها من حالهم، ويوبخهم على هذا الصنيع القبيح.

ثم انظروا إلى التعبير، حيث جاء بالمُضارع أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

فالفعل المضارع يدل على الدوام والتجدد حينًا بعد حين، فهذا يدل على أن هذه الصفة تتكرر، وهذه الخلة والفعل والسلوك يتكرر منهم، يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ تأمرون هذا فعل مُضارع، فهذا ديدنهم وحالهم، وهو خطاب للذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم، أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ،

ـ وإلا وجد في بني إسرائيل من يأمر بالمعروف لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ [سورة آل عمران:١١٣، ١١٤].

وكذلك في أولئك الذين اعتدوا في السبت أخبر الله عن خبرهم، وعن أولئك الذين نهوهم، وعن أولئك الذين وجهوا الخطاب للناهين، فدل على وجود فئة كانت تُنكر المنكر أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قال:وا مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُمْ [سورة الأعراف:١٦٤] يعني: نحن نفعل ذلك إعذارًا إلى الله - تبارك وتعالى- ولعلهم يتقون، فلعله ينفع، فوجد فيهم من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر،

لكن في امة محمد صلى الله عليه وسلم، هذه الشعيرة أعظم وأكبر وآكد، والقائمون بها أعظم من القائمين بها من بني إسرائيل.

ولذلك انظر في الخطابين لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ [سورة آل عمران:١١٣، ١١٤] ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، ثم قال:وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ [سورة آل عمران:١١٤]

لكن لما ذكر امة محمد صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [سورة آل عمران:١١٠]

فذكر الإيمان بعد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فأخذ منه بعض أهل العلم: أن المُغايرة في الخطابين بتقديم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في أول صفات المؤمنين، من هذه الأمة،

وذكره قبل الإيمان، بخلاف بني إسرائيل: أنه في هذه الأمة أبرز وأكد وأعظم ما تميزوا به، وإلا فهم يشتركون في الإيمان، لكن لما تميزت هذه الأمة أنها قائمة بأمر الله، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، كانت خير أمة.

ولذلك قال: الله -تبارك وتعالى: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [سورة البقرة:١٤٣]

وسطًا عدولاً خيارًا، فهؤلاء من كونهم بهذه المثابة العدول الخيار فهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فإذا جاءك من يأمرك بالمعروف، وينهاك عن المنكر

اقبل ذلك بصدر رحب، ولاتعالتقد أن هذا تدخل في خصوصياتك، فإن هذا من القيام بالعدل وبالقسط، والامتثال لأمر الله، وتحقيق الصفة الكبرى، التي اتصفت بها هذه الأمة، وتميزت على سائر الأمم، وبهذا يكون لهم هذا الوصف من الخيرية خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [سورة آل عمران:١١٠]

بماذا؟ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [سورة آل عمران:١١٠] فإذا كانوا لا يأمرون بالمعروف، وكل واحد في شأنه، وفي حاله، ويعتقدون أن ذلك من قبيل التدخل في الخصوصيات، فإن هذا يكون سلبًا لهذه الخيرية،

والنسيان فى قوله تعالى إلى، وتنسون انفسكم، له معنيان

الاول قد يعني بترك الامتثال، فعبّر عن الترك بالنسيان، وهذا مبالغة في الترك؛ لأن النسيان يأتي بمعنى الترك، تقول: فلان نسي أصحابه، فلان صار له شأن ومال فنسي رفقاءه، بمعنى تركهم،

والثاني وهو ذهاب المعلوم من الذهن، فهذا هو النسيان المعروف، تقول مثلاً: نسيت المسألة، يعني لم يعد يتذكر ذلك،

فهذا يقال: له: نسيان، ولكن النسيان المقصود هنا هو الترك، وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ؛ يعني تتركون الامتثال بما تأمرون به، ففي هذا العتاب والتوبيخ قال: لهم:، وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ،

ثم هذا يدل أيضًا على أن من يتلو الكتاب ينبغي أن يكون على حال مرضية في نفسه من الامتثال والاستجابة لأمر الله ومع غيره في دعوته، وأمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر؛ ولهذا قال: الله تعالى: وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْتعالسلّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُون [سورة آل عمران:٧٩]

ماذا تدرسون؟ الكتاب وتعاليم الكتاب، وتعلمون الكتاب، فكيف تدرسون وتعلمون ولستم بهذه الصفة؟!، بِمَا كُنْتُمْتعالىتَعالىلِّمُونَ الْكِتَاب

فالباء هذه تدل على التعليل، وتدل على السببية، بما كنتمتعالىتعالىلمون، فحري بمن يعلم الكتاب، ومن يدرس الكتاب من طلاب العلم الشرعي أن يكون الواحد منهم أكثر الناس تميزًا وامتثالاً ومبادرة لأمر الله، واستجابة لطاعته،

لا يكون العوام يسبقونه إلى الطاعات، وهو من الذين يتأخرون عنها، فهذا فيه عظة وعبرة، وهذه

الأمة تتلو الكتاب، فأين أثر الكتاب على أمة محمد ﷺ؟

إذا كان هذا الخطاب لبني إسرائيل يتلون كتابهم، فهذه الأمة أشرف من بني إسرائيل، وهذا الكتاب الذي أُنزل أشرف من الكتاب الذي أُنزل على بني إسرائيل، وهو أعظم تأثيرًا لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [سورة الحشر:٢١]

فأين أثر هذا الكتاب على من يتلوه من هذه الأمة؟! فهذه القضية تختص بالعلماء، وطلاب العلم أَفَلَاتعالىقِلُونَ [سورة البقرة:٤٤] أين عقولكم؟ أين يُذهب بها؟

المعنى الأول: اليقين، كما في هذه الآية، وكما في قوله -تبارك وتعالى- عن قول الجن:، وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الأرضِ [سورة الجن:١٢] أي: علمنا وأيقنا، وهكذا في قوله تعالى إلى، : إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ [سورة الحاقة:٢٠]

أسباب ضعف التدين والاستقامة والاستجابة

فإن ضعف التدين والاستقامة والاستجابة والتقوى في نفوسنا، هذا لقلة عقلنا، ولقلة بصرنا، ولقلة علمنا؛ ولذلك فإن الله -تبارك وتعالى- عد ذلك الذي يفعل المعاصي جاهلاً مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ [سورة الأنعام:٥٤]

وليس معناه: أنه ما يعرف أن هذا حرام؛ لأن الذي لا يعرف، فهذا غير مؤاخذ، لكن الله ذكر بعده التوبة، فالذي يتوب هو الذي يعلم بالحكم، فكل من عصى الله فهو جاهل، ولو قيل لأحد من الناس: يا جاهل لغضب، ولم يقف لغضبته شيء، لكن الواقع أنه جاهل، فلو عرف الله معرفة صحيحة بأسمائه وصفاته، وعظمه لما اجترأ على معصيته، ولكن لجهله يقع في ذلك، مثل الصغير الذي يأخذ ما يضره، فلربما وقع على النار، أو أخذ السكين وجرح يده، أو وضع في فيه شيئًا ربما يضره، أو نحو ذلك.

ثم قال تعالى: محفزا لهم

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦

أي استعينوا في كل أموركم بالصبر بجميع أنواعه، وكذلك الصلاة: استعينوا بها بفرضها ونفلها، فهذه الصلاة شاقة إلا على المتقين الخاشعين، الذين يخافون الله -تبارك وتعالى- ويخشونه، ويرجون ما عنده، ويوقنون أنهم مُلاقوا ربهم -جل جلاله وتقدست أسماؤه- بعد الموت، فيُجازيهم ويُحاسبهم على أعمالهم، وأنهم راجعون إليه يوم القيامة،

كما قال: الله -تبارك وتعالى-: الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فهي شاقة إلا على الخاشعين الذين وصفهم الله -تبارك وتعالى- بهذه الصفة، يظنون أنهم ملاقوا ربهم، والظن المراد به هنا اليقين، فإن الظن يأتي لمعنيين في كلام العرب، وفي كتاب الله :

فالمقصود به أنه كان مُتيقنًا، ولا ينفع في ذلك إلا اليقين.، ويأتي للظن المعروف، الذي يكون خلاف اليقين، فهذا كما قال: الله عن هؤلاء الكفار. : إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ [سورة الجاثية:٣٢]

فهم يتبعون الظنون، والظن لا يُغني من الحق شيئًا، فالله -تبارك وتعالى- في هذه الآية يقول: وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ

هذه الصلاة مع الصبر، هما أعظم عون للعبد على تحمل الصِعاب والمشاق؛ ولذلك جاءا مع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في قوله -تبارك وتعالى- في وصية لقمان لابنه حينما قال: له:، يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ [سورة لقمان:١٧]

فأمره اولا: بإقام الصلاة، وذكر الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعقب ذلك بالصبر على ما أصابه، فذلك عقبه الله -تبارك وتعالى- بهذا الختم لتلك الآية في وصية لقمان بأن ذلك من عزم الأمور إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الامُورِ [سورة لقمان:١٧].

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ استعينوا بالصبر

والصلاة على ماذا؟

الصبر على طاعته،

والصبر عن معصيته،

والصبر على الاقدار المؤلمة

فكل هذا يحتاج إلى صبر، فهذه ثلاثة أنواع للصبر، وهي داخلة في هذا الأمر.

ومعنى الآية: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله، وكفها عن معاصي الله، وبإقامة الصلاة مع رسول الله محمد صلى الاه عليه وسلم والمؤمنين من امته من بعده فهى المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من مراضي الله،

العظيمة إقامتها إلا على المتواضعين لله، المستكينين لطاعته، المتذللين من مخافته

فينبغي عليكم وانتم القدوة لمن وراءكم ان تستعينوا بالصبر والصلاة لتتغلبوا على اهواءكم وشهواتكم وحبكم للحياة الدنيا

فإنكم ان فعلتم ذلك اعانكم الله ووفقكم للدخول فى الاسلام والمواصلة فيه مما قد يسهم فى ان يؤمن من وراءكم من اليهود

لان احبار اليهود كانوا يعرفون نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم اكثر من معرفتهم ابناءهم ويعرفون انه حق وان ما جاءهم به حق وكانوا احيانا يقولون لمن يسالهم الحقيقة ومع هذا لايؤمنون

فوبخهم القران وعاتبهم بقوله تعالى إلى أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧)

يقول الله -تبارك وتعالى- في سياق ابتدأه بهذا الخطاب يخاطب به بني إسرائيل مذكرًا لهم بنعمه، فالله -تبارك وتعالى- في هذه السورة ذكَّرهم بالنعم وذكَّرهم بالنقم، فهو يذكِّرهم بآلائه من أجل أن يشكروه وأن يعبدوه وأن يستجيبوا لرسله -عليهم الصلاة والسلام- وأن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم

فصرف لهم الخطاب هذا التصريف بين ذكر عقوباته ومثلاته التي نزلت بهم، وبين ذكر النعم التي أعطاهم وحباهم بها.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ،

يا ذرية يعقوب يا اولاد يعقوب فإن إسرائيل هو يعقوب عليه السلام كما وضحنا من قبل

 اذكروا نعمي الكثيرة عليكم، اذكروها بقلوبكم والهجوا بها بألسنتكم، اذكروها بالقلوب بالاستحضار استحضار النعمة، واذكروها بالألسن بالإقرار

والاعتراف، واذكروها بحالكم بالاستجابة والانقياد والامتثال والتواضع لله -تبارك وتعالى- وأني فضلتكم على عالم زمانكم وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ، لكن ليسوا بأفضل من هذه الأمة؛ لأن الله تعالى عن امة محمد صلى الله عليه وسلم، : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا [سورة فاطر:٣٢]

فالله تعالى إلى اصطفى امة محمد صلى الله عليه وسلم، وفضلها على سائر الأمم، والله تعالى إلى يقول: وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا [سورة البقرة:١٤٣] والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: نحن الآخرون السابقون يوم القيامة

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم جملة من فضائل هذه الأمة، وما فضلها به، ومثَّل حالها مع من قبلها: برجل استأجر أجراء فعملوا له إلى منتصف النهار هذا بمنزلة اليهود ثم انقطعوا فقال: لهم: أتموا عملكم واستوفوا أجركم فأبوا، ثم استأجر أجراء فعملوا إلى العصر، ثم انقطعوا، فقال:أتموا عملكم تستوفون أجركم، فأبوا، فجاءت هذه الأمة في آخر اليوم في آخر النهار بعد العصر إلى غروب الشمس فاستوفوا أجرهم

فهذه الأمة آخر الأمم إلا أنها أفضل وأكرم على الله -تبارك وتعالى- والنصوص في هذا كثيرة.

فقوله - تبارك وتعالى: وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ الذي عليه الجمهور من المفسرين: فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ أي: على عالمي زمانكم، فضلوا على عالم زمانهم ولم يفضلوا على جميع الأمم، صلى الله عليه وسلم.

ويعني بقوله: (وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ): أني فضلت أسلافكم، فنسب نعمه على آبائهم وأسلافهم إلى أنها نعم منه عليهم، إذ كانت مآثر الآباء مآثر للأبناء، والنعم عند الآباء نعما عند الأبناء، لكون الأبناء من الآباء، وأخرج جل ذكره قوله: (وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) مخرج العموم، وهو يريد به خصوصا؛ لأن المعنى: وإني فضلتكم على عالم من كنتم بين ظهريه وفي زمانه.

" فالحاصل أن بني إسرائيل لا شك أفضل العالمين حينما كانوا عباد الله الصالحين؛ أما حين ضربت عليهم الذلة، واللعنة، والصَّغار فإنهم ليسوا أفضل العالمين؛ بل منهم القردة، والخنازير؛

وهم أذل عباد الله لقوله تعالى: (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) [آل عمران

ومن مظاهر، تفضيل الله لبني إسرائيل على عالمي زمانهم، جمعه لهم من المحامد قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

ما لم يجمع لغيرهم. فقد حياهم بكثير من النعم، وبعث فيهم عدداً كبيراً من الأنبياء، ونجاهم من عدوهم، ولم يعجل العقوبة عليهم رغم عصيانهم واعتدائهم، واقترافهم شتى ألوان المنكرات عنتعالىمد وإصرار، ولم ينزل بهم قارعة تستأصلهم بذنوبهم كما استأصل غيرهم كقوم عاد وثمود.

ولكن بني إسرائيل لم يقابلوا نعم الله بالشكر والعرفان.

بل قابلوها بالجحود والطغيان فسلبها الله عنهم، ومنحها لقوم آخرين لم يكونوا أمثالهم.

ولقد حكى القرآن ألوانا من النعم التي منحها الله لبني إسرائيل ولكنهم قابلوها بالبطر والكفران فأزالها الله عنهم.

من ذلك قوله تعالى:(سَلْ بني إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العقاب) أي: سل - يا محمد - بني إسرائيل المعاصرين لك.

سؤال تقريع وتوبيخ. كم آتاهم الله على أيدي أنبيائهم من النعم الجليلة، والمعجزات الباهرة، ولكنهم بعد أن جاءتهم هذه الآيات، وتمكنوا منها وعقلوها قابلوها بالعناد والاستهزاء، وجعلوها من أسباب ضلالهم مع أنها مسوقة لهدايتهم وسعادتهم، فكانت نتيجة ذلك أن ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة في الدنيا، وتوعدهم بشديد العقاب في الآخرة.

ومن الآيات التي صرحت بأن الله -تعالى إلى - أعطى بني إسرائيل نعماً وفيرة، ولكنهم لم يحمدوه عليها.قوله تعالى:(وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بني إِسْرَائِيلَ مِنَ العذاب المهين * وَلَقَدِ اخترناهم على عِلْمٍ عَلَى العالمين * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيات مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ) أي: ولقد نجينا بفضلنا.

وكرمنا بني إسرائيل من العذاب المعني الذي كان ينزله بهم فرعون وجنده، بأن أغرقناه ومن معه أمام أعينهم؛ لأنه كان ظلوماً غشوماً كما سنبين في الآيات القادمة بإذن الله

، وفضلا عن ذلك فقد اصطفينا بني إسرائيل - على علم منا بما يكون منهم - على عالمي زمانهم وآتيناهم من النعم والمعجزات. ما فيه اختبار لقلوبهم، وامتحان لنفوسهم. فكانت نتيجة هذا الاختبار والامتحان أن كفروا بنعم الله، وكذبوا برسله وقتلوهم.

فتوعدهم الله في الدنيا بأن يسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة.

أما في الآخرة فمأواهم جهنم وبئس المهاد.

- وأيضاً - من الآيات التي ساقت أنواعاً من نعم الله على بني إسرائيل ولكنهم لم يشكروه عليها قوله تعالى:(وَلَقَدْ آتَيْنَا بني إِسْرَائِيلَ الكتاب والحكم والنبوة وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطيبات وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى العالمين.

وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الأمر فَمَا اختلفوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

والمعنى: ولقد آتينا بني إسرائيل التوراة لتكون هداية لهم ومنحناهم الحكمة والفقه في الدين، وجعلنا النبوة في عدد كبير منهم، ورزقناهم من طيبات الأغذية والأشربة، وفضلناهم على من عاصرهم من الأمم قيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم

وفضلا عن ذلك فقد سقنا لهم على أيدي أنبيائهم الكثير من المعجزات والدلائل التي تقوى إيمانهم، وتهديهم إلى الطريق المستقيم ولكنهم لم ينتفعوا بهذه النعم.

بل جعلوا علمهم بالدين الحق سبباً للخلاف والشقاق، والسير في طريق الضلال، وسيعاقبهم الله بما يستحقونه جزاء جحودهم وعنادهم.

والعبرة التي نستخلصها من هذه الآيات وأمثالها.

أن الله -تعالى إلى - فضل بني إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية.

ومنحهم الكثير من النعم، ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر.

بل قابلوه بالتمرد والحسد والبطر.

فسلب الله عنهم ما حباهم من نعم، ووصفهم في كتابه بأقبح الصفات وأسوأ الطباع.

كقسوة القلب، ونقض العهد، والتهالك على شهوات الدنيا، والتعدي على الغير.

والتحايل على استحلال محارم الله، ونبذهم للحق واتباعهم الباطل.

إلى غير ذلك من الصفات التي توارد ذكرها في القرآن الكريم.

وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله كفراً؛ لأن الميزان عند الله التقوى والعمل للصالح، وليس للجنس أو اللون أو النسب.

وان اتباعهم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم فرصة اخرى منحهم الله اياها والا فلا يلومون الا انفسهم

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)

لما ذكرهم الله تعالى إلى بنعمه اولا: عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال:وَاتَّقُواْ يَوْماً يعني: يوم القيامة.

وَاتَّقُواْ يَوْماً أي: اتقوا أهوال يوم القيامة

حيث، لاتجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً أي: لا يغني أحد عن أحد، كما قال تعالى: وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [سورة الأنعام:١٦٤]

، وقال:لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [سورة عبس:٣٧]،

وقال:يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا [سورة لقمان:٣٣]،

فهذا أبلغ المقامات أن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً.

هذا كما قال: الله، ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ [سورة المعارج:١١].

فالحاصل أن قوله: لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً يعني لا تكفي وتقضي أو تغني نفس عن نفس شيئاً، يعني أنه إذا كان أحد من الناس محتاجاً إلى شيء من الحسنات لترجح كفته، ولو كان أقرب الناس كالوالد والولد، فإن أحداً من الناس لا يقضي عنه

، قال تعالى: وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى [سورة فاطر:١٨]،

وقوله تعالى: وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ، يعني من الكافرين، كما قال:فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [سورة المدثر:٤٨]، وكما قال: عن أهل النار: فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [سورة الشعراء:١٠٠-١٠١].

وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ يعني من الكافرين؛ لأنه يفهم من الأدلة الأخرى إثبات الشفاعة.

وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ لا في قليل ولا في كثير

؛ لأن شروط الشفاعة المعروفة منها: أن يرضى الله عن المشفوع له، وأن يأذن بالشفاعة، والله لا يرضى عن الكافرين، فلا تنفعهم الشفاعة.

وقوله:، وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْل أي: لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ [سورة آل عمران:٩١]،

وقال:إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [سورة المائدة:٣٦]،

وقال تعالى: وَإِنتعالىدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا [سورة الأنعام:٧٠]،

وقال:فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ الآية [سورة الحديد:١٥]

أي مهما قدمت من الفداء الذي تريد الخلاص به، فإن ذلك لا ينفعها ولا يغني عنها عند الله شيئاً.

والعِدل –بالكسر- ما كان الفداء فيه من جنس المفتدي، فإذا افتدى بإنسان فإن ذلك يكون من قبيل العِدل، ومنه ما يوضع على البعير من الحمل بحيث يستوي يكون أحد الطرفين في الجهة اليمنى، والطرف الآخر في الجهة اليسرى فيقال:هذا عِدل لهذا،

وما كان المعاوضة فيه من غير الجنس يقال: له: عَدل، فهنا لا يقبل منها عَدل، أي فداء بالمال وما أشبه ذلك،

فأخبرتعالى إلى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ [سورة البقرة:٢٥٤]، وقال:لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ [سورة إبراهيم:٣١].

وقوله تعالى: وَلا هُمْ يُنصَرُونَ أي: ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التلطف.

ففي ذلك اليوم فقد قطع الله عليهم طرق الخلاص، لا فداء ولا شفاعة ولا بالقوة لعدم وجود الناصر.

لا ليس لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم كما

قال:فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ [سورة الطارق:١٠] أي: أنه تعالى إلى لا يقبل فيمن كفر به فِدْيَة ولا شفاعة، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ، ولا يخلص منه أحد، ولا يجير منه أحد،

يعني: أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية،

فقد بطلت هنالك المحاباة، واضمحلت الرِّشى والشفاعات، وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها، وذلك نظير قوله تعالى: وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [سورة الصافات:٢٤-٢٦].

وبعدما تكلم القران عن نعم الله عليهم اجمالا شرع فى تفصيلها وبدأ بأهمها وأخطرها فقال تعالى:

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ [سورة البقرة:٤٩-٥٠].

يقول تعالى: واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم، وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَـوْنَ يَسُـومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ أي: خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام -، وقد كانوا يسومونكم، أي: يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب.

هنا قوله تعالى: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يعني من فرعون وقومه؛ لأن الذي كان يليتعالىذيبهم هم قوم فرعون بأمر فرعون، ففرعون هو المتحكم فيهم، وإنما أولئك الذين يسومونهم سوء العذاب إنما يصدرون عن أمره

يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ: قال:يسومونكم هنا بمعنى يذيقونكم ويوردونكم ويولونكم، بمعنى أذاقه وألبسه، وتقول: سامه الخسف والذل، وسامه العذاب، بمعنى أذاقه واولا:ه العذاب.

فالمقصود أن الله ذكرهم بهذه النعمة حيث خلصهم من فرعون وقومه.

قال: سبحانه: يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثم قال: مفسراً لهذا العذاب: يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ

وسبب ذلك فيما يقول المفسرون أن فرعون -لعنه الله- كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس.

هذا جواب لسؤال هو: لماذا كان فرعون يقتل الأبناء ويبقي البنات؟ فالكهنة أخبروه لما رأى هذه بأنه سيولد من الإسرائيليين ولد، وأنه سيكون زوال ملكه على يد هذا الولد، فصار يقتلهم سنة ويتركهم سنة.

وسبب تركهم سنة إما أن هؤلاء المنجمين أو هؤلاء الكهنة كما جاء في بعض الإسرائيليات أخبروه عن شيء من ذلك فصار بمقتضاه يفعل هذا سنة وسنة، وإما أن يكون هذا الإبقاء -كما قال: بعضهم- من أجل أن يبقى من يقوم على الأعمال المهينة الوضيعة، فكان الفراعنة يترفعون عنها ويكلونها إلى الإسرائيليين، فكانوا يبقون بعضهم من أجل هذا، ويقولون فكان هارون عليه السلام في العام الذي لا يقتل فيه الاولا:د، هكذا قال: بعضهم، والعلم عند الله .

ورأى اخر وهو ان فرعون رأى ناراً خرجت من بيت المقـدس فـدخلت دور القـبط بـبلاد مصر- إلا بيوت بني إسرائيل، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل من بني إسرائيل،

ويقال: ايضا: بل من كانوا يجلسون معه ليلا يتسامرون بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجـل منهم، يكون لهم به دولة ورفعة، فعند ذلك أمر فرعون -لعنه الله- بقتل كل ذَكـر يولـد بعـد ذلـك من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وأمر باستعمال بني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها.

وفعلا وجدنا فى كنبهم ما يؤكد ماكان بصنعه فرعون بهم ففى سفر الخروج

الاصحاح الاول

(١):" وَهذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ جَاءُوا إلى مِصْرَ. مَعَ يَعْقُوبَ جَاءَ كُلُّ إِنْسَانٍ وَبَيْتُهُ:"

(٢-٥):" رَأُوبَـيْنُ وَشِـمْعُونُ وَلاَوِي وَيَهُـوذَا وَيَسَّـاكَرُ وَزَبُولُـونُ وَبَنْيَـامِينُ وَدَانُ وَنَفْتَـالِي وَجَـادُ وَأَشِيرُ. وَكَانَتْ جَمِيعُ نُفُوسِ الْخَارِجِينَ مِـنْ صُـلْبِ يَعْقُـوبَ سَـبْعِينَ نَفْسًـا. وَلكِـنْ يُوسُـفُ كَـانَ فِـي مِصْرَ."

(٦-٧):" وَمَاتَ يُوسُفُ وَكُلُّ إِخْوَتِـهِ وَجَمِيـعُ ذلِـكَ الْجِيـلِ. وَأَمَّـا بَنُـو إِسْرَائِيـلَ فَـأَثْمَرُوا وَتَوَالَـدُوا وَنَمَوْا وَكَثُرُوا كَثِيرًا جِدًّا، وَامْتَلأَتِ الأَرضُ مِنْهُمْ."

(٨):" ثُمَّ قَامَ مَلِكٌ جَدِيدٌ عَلَى مِصْرَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ يُوسُفَ."

(٩):" فَقَالَ: لِشَعْبِهِ: «هُوَذَا بَنُو إِسْرَائِيلَ شَعْبٌ أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِنَّا

(١٠):" هَلُمَّ نَحْتَالُ لَهُمْ لِئَلاَّ يَنْمُوا، فَيَكُونَ إِذَا حَدَثَتْ حَرْبٌ أَنَّهُـمْ يَنْضَـمُّونَ إلى أَعْـدَائِنَا وَيُحَارِبُونَنَـا وَيَصْعَدُونَ مِنَ الارض

(١١):" فَجَعَلُوا عَلَيْهِمْ رُؤَسَاءَ تَسْخِيرٍ لِكَيْ يُذِلُّوهُمْ بِأَثْقَالِهِمْ، فَبَنَوْا لِفِرْعَـوْنَ مَـدِينَتَيْ مَخَـازِنَ: فِيثُومَ، وَرَعَمْسِيسَ

(١٢):" وَلكِنْ بِحَسْبِمَا أَذَلُّوهُمْ هكَذَا نَمَوْا وَامْتَدُّوا. فَاخْتَشَوْا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل

(١٣):" فَاسْتَعْبَدَ الْمِصْرِيُّونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعُنْفٍ،"

(١٤):" وَمَرَّرُوا حَيَاتَهُمْ بِعُبُودِيَّةٍ قَاسِيَةٍ فِي الطِّينِ وَاللِّبْنِ وَفِي كُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَقْلِ. كُلِّ عَمَلِهِمِ الَّذِي عَمِلُوهُ بِوَاسِطَتِهِمْ عُنْفًا

(١٥):" وَكَلَّمَ مَلِكُ مِصْرَ قَابِلَتَيِ الْعِبْرَانِيَّاتِ اللَّتَيْنِ اسْمُ إِحْدَاهُمَا شِفْرَةُ وَاسْمُ الأُخْرَى فُوعَةُ،"

(١٦):" وَقَالَ:«حِينَمَا تُوَلِّدَانِ الْعِبْرَانِيَّاتِ وَتَنْظُرَانِهِنَّ عَلَى الْكَرَاسِيِّ، إِنْ كَانَ ابْنًا فَاقْتُلاَهُ وَإِنْ كَانَ بِنْتًا فَتَحْيَا».

والراى الاخير هو الاصوب وهو ان بني إسرائيل كان عندهم نبوءة أنه سيخرج فيهم رجل يخلصهم، فبطبيعة الحال هذه القضايا تتنامى وتصل إلى كثير من الناس حتى من أعدائهم وخصومهم،

وهؤلاء السمار عند السلطان كأنهم في سوق كما هو معروف، ينفق فيه هؤلاء السمار بحسب حال هذا السلطان، وهؤلاء السمار يعرفون فرعون، ويعرفون حاله، فيوردون له من الحكايات والقصص والأخبار ما يصلح له ويطرب له، فهذا أمر طبيعي؛

إذ لن يتحدثوا معه عن قيام الليل وصيام النهار وأخبار العبَّاد، وإنما سيحدثونه عن أمور يطرب لها، ولهذا قالوا: أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ [سورة الأعراف:١٢٧]؟

هؤلاء هم سماره وجلساؤه وخاصته، فما الظن بمثل فرعون أن يقرب منه إلا مثل هؤلاء، فهو لا يقرب إلا من كان على شاكلته، والطيور على أشكالها تقع، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

واذكروا يا بني إسرائيل من جملة نعمنا عليكم، نعمة فرق البحر بكم، وانفصاله بعد اتصاله، حين ضربه موسى بعصاه، فأصبحت فيه طريق يابسة فولجتموها، وسرتم فيها هرباً من فرعون وجنده؟ بذلك تمت لكم النجاة،

وحصل الغرق لأعدائكم، وقت أن عبروا وراءكم وقد شاهدتموهم والبحر يلفهم بأمواجه، مشاهدة لا لبس فيها ولا غموض.

ولقد كان فيما رأيتم ما يدعو إلى الاتعاظ، ويحمل على الشكر الجزيل لله العزيز الرحيم.

فالآية الكريمة تشير إلى قصة نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وقومه، وملخصها:أن الله - عز وجل أوحي إلى نبيه - موسى - عليه السلام - أن يرحل ببني إسرائيل ليلا من أرض مصر التي طال عذابهم فيها إلى أرض فلسطين، ونفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به الله -تعالى إلى - وعلم فرعون أن موسى عليه السلام وقومه قد خرجوا إلى أرض الشام، فتبعهم بجيش كبير، وأدركهم مع طلوع الشمس قرب ساحل البحر الأحمر، وأيقن بنو إسرائيل عندما رأوه أنه مهلكهم لا محالة. ولجأوا إلى موسى - عليه السلام - يشكون إليه خوفهم وفزعهم، ولكنه رد عليهم بقوله: (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) وأوحى الله إليه (أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر) فضربه (فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم) وأمر موسى - عليه السلام - بني إسرائيل أن يعبروا فعبروا بين فرقي الماء دون أن يمسهم أذى.

واقتفى فرعون وجنوده أثرهم طمعا في إدراكهم وعندما عبر بنو إسرائيل البحر ولم يبق منهم أحد بين المياه المنحسرة، كان فرعون وجنده مازالوا بين فرقي البحر، فاطبق عليهم بأمر الله تعالى إلى وعاد كما كان اولا:، فغرقوا جميعاً، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم في دهشة وسرور.

وأسند - سبحانه - فرق البحر إلى ذاته الكريمة.

ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه وهم بعنايته، وقوله تعالى: (فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ) بيان للمنة العظمى التي امتن بها عليهم، والتي ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران.

أولهما: نجاتهم من فرعون ومن الغرق

وثانيهما: إهلاك عدوهم وكلاهما نعمة عظيمة.

والإيمان الصحيح يقضي بأن تفهم واقعة انفصال البحر لموسى عليه السلام وقومه على أنها معجزة من الله تعالى إلى

واقتصرت الآية هنا على ذكر إغراق آل فرعون أي جنده وأنصاره، وصرحت آيات أخرى بغرقة مع آله، من ذلك قوله تعالى: (فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً) وقوله تعالى: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليم وَهُوَ مُلِيمٌ) ومن تمام النعمة أن الله -تعالى إلى - أهلك مع فرعون كل مناصر له:وقوله تعالى إلى (وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ) أي: أغرقنا آل فرعون وأنتم تشاهدونهم بأعينكم، فكان ذلك أدعى لليقين بهلاك عدوكم، وأبلغ في الشماتة به، وأرجى لشكر النعمة - ولا شك أن مشاهدة المنعم عليه للنعمة فيها لذة كبرى، ورؤيته لهلاك عدوه فيها عبرة عظمى

قال: الإمام الرازي ما ملخصه: (اعلم أن هذه الواقعة - أي واقعة فلق البحر - تضمنت نعماً كثيرة على بني إسرائيل في الدين والدنيا، أما نعم الدنيا فمن وجوه:أولها: أنهم لما اقتربوا من البحر أصبحوا في موقف حرج، لأن فرعون وجنوده من ورائهم والبحر من أمامهم، فإن هم توقفوا أدركهم عدوهم وأهلكهم، وإن هم تقدموا أغرقوا.

فحصل لهم خوف عظيم، جاءهم بعده الفرج بانفلاق البحر وهلاك عدوهم.

ثانيها: أن الله -تعالى إلى - خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تكريماً ورعاية لهم.

ثالثها: أنهم بإغراق فرعون وآله تخلصوا من العذاب، وتم لهم الأمن والاطمئنان، وذلك نعمة عظمى، لأنهم لو نجوا دون هلاك فرعون لبقي خوفهم على

حاله، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلا، لأنهم لا يأمنون شره، فلما تم الغرق تم الأمان والاطمئنان لبني إسرائيل.

النعم التي أنعمها الله على بني إ'سرائيل

أما نعم الدين فمن وجوه

:أولها: أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة.

زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات، لأن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى، تقترب من العلم الضروري.

ثانيها: أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعياً لهم على الثبات والانقياد لأوامر نبيهم.

ثالثها: أنهم عرفوا أن الأمور كلها بيد الله، فإنه لا عز في الدنيا أكمل مما كان لفرعون، ولا ذل أشد مما كان لبني إسرائيل، ثم إن الله -تعالى إلى - في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلاً، والذليل عزيزاً، والقوي ضعيفاً، والضعيف قوياً، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا، والإقبال كلية على اتباع أوامر الخالق - عز وجل-.

هذا، ونعمة فرق البحر لبني إسرائيل، وإنجائهم من عدوهم قد تكرر ذكرها في القرآن، من ذلك قوله تعالى إلى في سورة الشعراء: (فَلَمَّا تَرَاءَى الجمعان قال: أَصْحَابُ موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ.

قال: كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ.

فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم.

وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخرين.

وَأَنجَيْنَا موسى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ) وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بني إسرائيل بنعمة من أجل النعم - وهي نعمة فرق البحر بهم - لكي يشكروا

خالقهم عليها، ويتبعوا نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ولكنهم ما قاموا بواجب الشكر لخالقهم، فحقت عليهم اللعنة في الدنيا والعقوبة في الآخرة، جزاء جحودهم وطغيانهم وما ربك بظلام للعبيد

وكان على الاحبار ان يؤمنوا بنبي الله محمد صلى الله عليه وسلم لانهم يعلمون انه امى ولم يقرا لا كتبهم ولا كتب غيرهم فاذا حدثهم بهذه النعمة والتى مدونه فى كتبهم فعليهم ان يعلموا تمام العلم ان الله تعالى إلى هو الذى اخبر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم

واليكم ما وجدناه فى كتبهم مما يدل على نجاة سيدنا موسي عليه السلام وغرق فرعون ومن معه

ولكن بنوا اسرائيل استغلوا هذا الحدث وهو خروجهم من مصر وكعادتهم اختلقوا نصا غريبا وشرعوا لأنفسهم سرقة الشعوب فيذكر العهد القديم أن موسى وقومه خرجوا من مصر، كما يدل على ذلك النص:" وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى. طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً * وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين" (سفر الخروج، ١٣: ٣٥، ٣٦)

ويزعمون ان هذا الأمر كان من موسى بناءً على أمر الرب له بذلك.

وهذا محال لان هذه خيانة والله تعالى إلى لا يرضى

بالخيانة ولا يأمر بها ولكنهم بنوا اسرائيل كما اخبرناكم من قبل يريدون شرعنة الجريمة

فهنا ارادوا ان يشرعوا لجريمة السلب والسرقة والخيانة والغدر

ولما لا وقد فعلوها فسلبوا ارض فلسطين مستندين إلى نصوصهم التى كتبوها بايديهم واوهموا الناس انها مقدسة

ولذلك نحن نهيب بعلمائنا ان يطلعوا على مثل هذه النصوص لينبهوا الحكام قبل المؤتمرات مع الصهاينة وكذلك ينبهوا الشعوب لخيانة بنى اسرائيل وهذا بسبب تحريفهم وكذبهم

وصف غرق فرعون ونجاة موسى عليه السلام في العهد القديم:

ويصف العهد القديم، نجاة موسى وقومه وغرق فرعون وقومه بهذا النص:" ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة، وانشق الماء * فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم * وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومركباتهم وفرسانهم إلى وسط البحر * وكان في هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين * وخلع بكر مركباتهم حتى ساقوها بثقلة. فقال: المصريون نهرب من إسرائيل؛ لأن الرب يقاتل المصريين عنهم * فقال: الرب لموسى: مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم * فمد موسى يده على البحر فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه. فدفع الرب المصريين في وسط البحر * فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون[١٥] الذي دخل وراءهم البحر. لم يبق منهم ولا واحد" (سفر الخروج، ١٤: ٢٦ - ٢٩).

ثم انتقلت الايات إلى نعمة اخرى وهى ان الله تعالى إلى ابقاهم بعدما ارتكبوا خطا فاحشا كان يستوجب فناءهم تماما وهو عبادتهم العجل ولكن عفا عنهم

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢)

ومعنى الآيتين الكريمتين: واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن وعدنا موسى أن نؤتيه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة من هذا الوعد، فلما حل الوعد وجاء موسى لميقاتنا عبدتم العجل في غيبته، فلم نعاجلكم بالعقوبة، بل قبلنا توبتكم، وعفونا عنكم، لتكونوا من الشاكرين لله تعالى إلى.

وهذا التذكير يحمل في طياته التعجيب من حالهم، لأنهم قابلوا نعم الله بأقبح أنواع الكفر والجهالة، حيث عبدوا في غيبة نبيهم ما هو مثال في الغباوة والبلادة وهو العجل.

وفي اختيار حرف العطف (ثم) المفيد للتراخي الرتبى في جملة (اتخذتم العجل) إشعار بأنهم انحدروا إلى دركات سحيقة من الجحود والجهل، وأن ما ارتكبوه هو من عظائم الأمور في القبح

والمعصية وحذف المفعول الثاني لاتخذتم وهو" إلهاً أو معبوداً لشناعة ذكره ولعلهم بأنهم اتخذوه إلهاً" .

وقوله تعالى: (مِن بَعْدِهِ) معناه: من بعد مضي موسي عليه السلام لميقات ربه إلى الطور وغيابه عنهم.

وفي ذلك زيادة تشنيع عليهم، حيث وصفهم - سبحانه - بعدم الوفاء، لأنهم كان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يستمروا على توحيد الله في غيبة نبيهم لا سيما وقد رأوا من المعجزات والنعم، ما يطمئن النفوس، ويقوي الإيمان ويغرس في القلوب الطاعة لله تعالى إلى.

وجملة (وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ) حالية مقيدة لاتخذتم، ليكون اتخاذهم العجل معبوداً، مقروناً بالتعدي والظلم من بدئه إلى نهايته، وللإشعار بانقطاع عذرهم فيما فعلوه

ولتوضيح ذلك أن بني إسرائيل لما أمنوا من عدوهم ودخلوا مصر لم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليهما، فوعد الله موسى أن ينزل عليه التوراة، فقال: موسى لقومه: إني ذاهب لميقات ربكم آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون،

وواعدهم أربعين ليلة، ثلاثين من ذي القعدة وعشراً من من ذي الحجة، واستخلف عليهم أخاه هارون فلما أتى الوعد جاء جبريل على فرس يقال: له فرس الحياة لا يصيب شيئاً إلا دبت فيه الحياة ليذهب بموسى إلى ربه،

من هو السامري

فلما رآه السامري وكان رجلاً صائغاً واسمه ميخا - وقال: سعيد بن جبير:" كان من أهل كرمان" ، وقال: ابن عباس:" اسمه موسى بن مظفر" ، وقال: قتادة:" كان من بني إسرائيل من قبيلة يقال: لها سامرة" - وكان منافقاً أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر، فلما رأى جبرائيل على ذلك الفرس ورأى مواضع قدم الفرس تخضر في الحال قال:إن لهذا شأناً فأخذ قبضة من تربة حافر فرس جبرائيل عليه السلام.

قال: عكرمة:" ألقي في روعه أنه إذا ألقى في شيء غيره، وكانت بنو إسرائيل قد استعاروا حلياً كثيرة من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر بعلة عرس لهم الا انهم سلبوها دون علم سيدنا موسي عليه السلام،

فأهلك الله فرعون وبقيت تلك الحلي في أيدي بني إسرائيل، فلما فصل موسى عليه السلام لميقات ربه قال: السامري لبني إسرائيل: إن الحلي التي استعرتموها من قوم فرعون غنيمة لا تحل لكم، فاحفروا حفرة فادفنوها فيها حتى يرجع موسى فيرى فيها رأيه" .

وراى اخر قال: السدي:" إن هارون عليه السلام أمرهم أن يلقوها في حفيرة، حتى يرجع موسى ففعلوا، فلما اجتمعت الحلي صاغها السامري عجلاً في ثلاثة أيام ثم ألقى فيها القبضة التي أخذها من تراب فرس جبرائيل عليه السلام، فخرج عجلاً من ذهب مرصعاً بالجواهر كأحسن ما يكون، وخار خورة" ، وقال: السدي:" كان يخور ويمشي فقال: السامري: هذا إلهكم وإله موسى فنسي [٨٨-طه] أي فتركه هاهنا وخرج يطلبه" .

وكانت بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضت عشرون يوماً ولم يرجع موسى وقعوا في الفتنة.

وقيل: كان موسى قد وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشرة فكانت فتنتهم في تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ظنوا أنه قد مات ورأوا العجل وسمعوا قول السامري عكف ثمانية آلاف رجل منهم على العجل يعبدونه.

وقيل: كلهم عبدوه إلا هارون وحده، فذلك قوله تعالى:ثم اتخذتم العجل أي إلهاً.

من بعده أظهر ابن كثير و حفص الذال من (أخذت) و(اتخذت) والآخرون يدغمونها.

وأنتم ظالمون ضارون لأنفسكم بالمعصية واضعون العبادة في غير موضعها

والحمد لله ان انزل القران على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقص علينا فيه قصص الاولين سليمة لا شية فيها ولا عيب بل وبرا ساحة انبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم من افتراءات اليهود وكئبهم على انبياء الله

ومنها كذبهم وافتراءاتهم على نبي الله هارون عليه السلام الذى اتهموه بصناعة العجل بل والامر بعبادته ولا حول ولا قوة الا بالله

واليكم النص كما جاء فى كتبهم،

يقول سفر الخروج إصحاح ٣٢: " لما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقال:وا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه/ فقال: لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التى فى أذان نسائكم و بنيكم و بناتكم و أتونى بها/ فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى أذانهم و أتوا بها إلى هارون" .

" فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلا مسبوكا فقال:وا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر/ فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه ونادى هارون وقال: غدا عيد للرب/ فبكروا فى الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب/

فقال: الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر/ زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به صنعوا لهم عجلا مسبوكا و سجدوا له و ذبحوا له و قال:وا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر/ فانصرف موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده لوحان مكتوبان على جانبيهما من هنا و من هنا كانا مكتوبين/ واللوحان هما صنعة الله و الكتابة كتابة الله منقوشة على اللوحين/ وسمع يشوع صوت الشعب فى هتافه فقال: لموسى صوت قتال فى المحلة/ فقال: ليس صوت صياح النصرة و لا صوت صياح الكسرة بل صوت غناء أنا سامع/ و كان عندما اقترب إلى المحلة انه ابصر العجل و الرقص فحمى غضب موسى و طرح اللوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل/ ثم أخذ العجل الذى صنعوا وأحرقه بالنار و طحنه حتى صار ناعما و ذراه على وجه الماء و سقى بنى إسرائيل" .

ويتابع الكتاب المقدس:" وقال: موسى لهارون ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطية عظيمة/ فقال: هارون لا يحم غضب سيدى نتتعالعرف الشعب انه فى شر/ فقال:وا لى ا

صنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى اصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه/ فقلت لهم من له ذهب فلينزعه و يعطينى فطرحته فى النار فخرج هذا العجل/

ولما رأى موسى الشعب أنه معرى لأن هارون كان قد عراه للهزء بين مقاوميه/ وقف موسى فى باب المحلة و قال: من للرب ف إلى فاجتمع اليه جميع بنى لاوى/

فقال: لهم هكذا قال: الرب إله اسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه و مروا و ارجعوا من باب إلى باب فى المحلة و اقتلوا كل واحد اخاه و كل واحد صاحبه و كل واحد قريبه/

ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى و وقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل/ وقال: موسى املأوا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بابنه و باخيه فيعطيكم اليوم بركة"

وهكذا راينا ان بنى اسرائيل خلطوا الحق بالباطل ولذا كان ارسال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسولا للعالمين ومعه القران الكريم كان ضرورة لابد منها ليصحح ما افسده السابقون فلله الحمد

وَإِذْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

واذكروا يابني إسرائيل من نعمنا عليكم نعمة إعطاء نبيكم موسى - عليه السلام - التوراة، وفيها الشرائع والأحكام، لكي تهتدوا بها إلى طريق الفلاح والرشاد في الدنيا، و إلى الفوز بالسعادة في الآخرة.

فالمراد بالكتاب التوراة التي أوتيها موسى - عليه السلام -.

والفرقان - بضم الفاء - مأخوذ من الفرق وهو الفصل، استعير لتمييز الحق من الباطل؛

وقد يطلق لفظ الفرقان على الكتاب السماوي المنزل من عند الله كما في قوله تعالى: (تَبَارَكَ الذي نَزَّلَ الفرقان على عَبْدِهِ)

كما يطلق على المعجزة كما في قوله تعالى إلى (وَلَقَدْ آتَيْنَا موسى وَهَارُونَ الفرقان) أي المعجزات لأن هارون لم يؤت وحياً.

قال: ابن جرير ما ملخصه: (وأولى الأقوال بتأويل الآية ما روى عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد، من أن الفرقان الذي ذكر الله تعالى إلى أنه آتاه موسى في هذا الموضع، هو الكتاب الذي فرق به بين الحق والباطل وهو نعت للتوراة وصفة لها، فيكون تأويل الآية حينئذ.

وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح، وفرقنا بها بين الحق والباطل.

وقوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) بيان لثمرة المنة والنعمة بإيتاء التوراة؛ لأن إتيان موسى الكتاب والفرقان، المقصود منه هدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ولكن ماذا كان موقف بني إسرائيل من التوراة التي أنزلها الله لهدايتهم وسعادتهم؟ كان موقفهم منها - كما هي عادتهم - موقف الجاحد لنعم الله فقد امتدت أيديهم الأثيمة إليها فحرفوها كما شاءت لهم أهواؤهم وشهواتهم ولقد وبخهم القرآن الكريم على ذلك، وشبههم في تركهم العمل بها وعدم انتفاعهم بما فيها، بالحمار الذي يحمل كتب العلم ولكنه لا يدري ما فيها.

فقال تعالى: في سورة الجمعة: (مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التوراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحمار يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ القوم الذين كَذَّبُواْ بِآيَاتِ الله والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين) حملوا التوراة: أي علموها وكلفوا العمل بها، ثم لم يحملوها: أي: لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما اشتملت عليه.

والأسفار: جمع سفر وهو الكتاب الكبير، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ.

ومعنى الآية الكريمة: مثل هؤلاء اليهود الذين علموا التوراة وكلفوا العمل بأحكامها ولكنهم لم يعملوا بها، مثلهم كمثل الحمار يحمل الكتب ولكنه لا يدري ما فيها، ولا يناله من حملها إلا التعب، بئس مثلا مثل هؤلاء اليهود الذين كذبوا بآيات الله التي تشهد بصدق النبي صلى الله عليه وسلم، وتذر صفاته التي لا تنطبق إلا عليه، وقد جرت سنة الله -تعالى إلى - في خلقه ألا يهدي إلى طريق الحق أمثال هؤلاء القوم الظالمين، لأنهم استحيوا العمى على الهدى، وباعوا دينهم بدنياهم.

قال: صاحب الكشاف:" شبه الله -تعالى إلى - اليهود ي أنهم حملة التوراة وقراؤها، وحفاظ ما فيها ثم إنهم غير عاملين بها، ولا منتفعين بآياتها وذلك أن فيها نعت رسول الله صلى الله عليه

وسلم والبشارة به، ولم يؤمنوا به - شبههم بالحمار يحمل أسفاراً، أي: كتباً من كتب العلم، فهو يمشي بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل، فهذا مثله وبئس المثل" .

وقال: الإمام ابن القيم:" شبه الله -تعالى إلى - من حمله كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه، ثم خالف ذلك، ولم يحمله إلا على ظهر قلب، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له، ولا تحكيم لنصوصه، شبهه - بحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره، فهذا المثل، وإن كان قد ضرب لليهود، فهو متناول من حيث المعنى، لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه، ولم برعه حق رعايته" .

ومن هذا نرى أن اليهود قد أنعم الله عليهم بالتوراة، وجعلها نوراً وهدى لهم، ولكنهم تركوها، ولم يعملوا بما فيها، واستحبوا العمى على الهدى، (فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ) بالإضافة إلى (نعمة إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم):

حقيقة التوراة

و نحن نؤمن بان االه تعالى إلى انزل التوراة على موسي عليه السلام وان بها من الاحكام والشرائع ما يناسب عصرهم وما يجعلهم مميزين عن الامم الوثنية المحاورة لهم انذاك

وقام سيدنا موسى عليه السلام بتدوِّين جميع الأحكام وكتبها، وهي أحكام أعطيها شفهيًّا وفي هذا قال:وا في (سفر الخروج) (٣/٢٤): (فجاء موسى وحدث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام، فأجاب جميع الشعب بصوت واحد، وقالوا: كل الأقوال التي تكلم بها الرب نفعل. فكتب موسى جميع أقوال الرب...)

ثم قالوا: (وأخذ كتاب العهد، وقرأ في مسامع الشعب فقالوا: كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له).

- كما ان موسى عليه السلام أُعطي شريعة مكتوبة بيد الله تعالى إلى، وفي هذا قال:وا في (سفر الخروج) (١٢/٢٤) (وقال: الرب لموسى: اصعد إلى الجبل، وكن هناك فأعطيك لوحي الحجارة، والشريعة، والوصية التي كتبتها لتعليمهم).

ثم ذكروا بعد هذا أن موسى عليه السلام مكث أربعين يوماً في الجبل، وذكروا شرائع كثيرة أعطيها، وتكلم الله بها معه، ثم في نهاية ذلك ذكروا إعطاءه الألواح،

وفي هذا قال:وا في (سفر الخروج) (١٨/٣١): (ثم أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة، لوحي حجر مكتوبين بإصبع الله).

ثم ذكرت الكتب في خاتمة هذا السفر السبب الذي لأجله دوَّن موسى عليه السلام التوراة فقال:وا في (سفر التثنية) (٢٤/٣١): (فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم؛ ليكون هناك شاهداً عليكم؛ لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هو ذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتي).

وبالفعل كما تنبا موسي عليه السلام لفساد قومه من بعده فلقد عصوا ربهم وارتكبوا من الموبقات ما تسبب فى ضياع التوراة منهم مرارا وتكرارا حتى ضاعت للابد

واستبدلوها بما بعرف اليوم بالعهد القديم ووضعوا فبه بقايا مما علق باذهانهم من شريعة موسي عليه السلام وخلطوه بما يروق لهم وبما يهواه الحاخامات وبما فرضوه على شعوبهم من شرائع حسب اهواءهم

وصدق الله حين قال:، وشرعوا لهم من الدين مالم ياذن به الله

والعجيب انهم يؤهمون القراء بان العهد القديم هو التوراة وكيف ذلك والعهد القديم يحتوى على اسفار لانبياء جاءؤا بعد موسي عليه السلام مثل يوشع بن نون. وداود وسليمان عليهما السلام وغيرهم من انبياء بنى اسرائيل

فلما بين العلماء ذلك ونقضوهم قال:وا بانهم انما يقصدون الخمس اسفار الاولى وهى.

التكوين / الخروج / اللاويين / العدد / التثنية

ولكننا بمدارستها تبين ان كثير مما فى هذه الاسفار لا علاقة له بموسي عليه السلام اذ يصفون فيها الرب سبحانه وتعالىبصفات لا تليق بجلاله من انه سبحانه حاشاه ينسي. وياسف ويندم كما انهم وصفوا الانبياء بصفات لا تليق باحاد الناس

ومما يؤكد ان هذه الاسفار لا يعلم بها موسي عليه السلام وبما فيها من تجاوزات وانها ليست التوراة الحقيقية هو انهم ذكروا فى نهايتها موت موسي عليه السلام ودفنه فقال:وا فى نهاية سفر التثنية ، فمات هناك موسى عبد الرب في ارض مواب حسب قول الرب. ٦ ودفنه في الجواء في ارض مواب مقابل بيت فغور ولم يعرف انسان قبره إلى هذا اليوم ٧ وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات ولم تكل عينه ولا ذهبت نضارته ٨ فبكى بنو اسرائيل موسى في عربات مواب ثلاثين يوما. فكملت ايام بكاء مناحة موسى ٩ ويشوع بن نون كان قد امتلا روح حكمة اذ وضع موسى عليه يديه فسمع له بنو اسرائيل وعملوا كما اوصى الرب موسى

ونعود لنبين النعم التى انعمها الله تعالى إلى على بنى اسرائيل ومواقفهم وتعنتهم سواء فى زمن نبيهم موسي عليه السلام او بعده فقال تعالى: وَإِذْ قال: مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إلى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

هذه صفة توبته تعالى إلى على بني إسرائيل من عبادة العجل، قال: الحسن البصري، رحمه الله، في قوله تعالى: (وإذ قال: موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حين قال: الله تعالى إلى: (ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قال:وا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) الآية [الأعراف: ١٤٩].

:فقال: موسي عليه السلام: (يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل)

(فتوبوا إلى بارئكم) أي إلى خالقكم.

وهذا تنبيه وتوبيخ وتقريع على عظم جرمهم، أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره

وروى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث يزيد بن هارون، عن الأصبغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبي أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال:قال: الله تعالى إلى: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم كل من لقي من ولد ووالد فيقتله بالسيف، ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن.

فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله من ذنوبهم، فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا به فغفر الله تعالى إلى للقاتل والمقتول.

وعن ابن عباس، قال:قال: موسى لقومه: (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم)

قال:أمر موسى قومه - من أمر ربه عز وجل - أن يقتلوا أنفسهم قال:واحتبى الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظلة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضا، فانجلت الظلة عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة.

وقال: قتادة: أمر القوم بشديد من الأمر، فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضا، حتى بلغ الله فيهم نقمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل، فجعل لحيهم توبة، وللمقتول شهادة.

وقال: السدي في قوله: (فاقتلوا أنفسكم) قال:فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيدا، حتى كثر القتل، حتى كادوا أن يهلكوا، حتى قتل بينهم سبعون ألفا، وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقية البقية،

فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيدا، ومن بقي مكفرا عنه ؛ فذلك قوله: (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم)

وقال: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه، وكان سبعون رجلا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه. فقال: لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم. فقالوا: يا موسى، ما من توبة؟ قال:بلى، (فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم) الآية، فاخترطوا السيوف والجرزة والخناجر والسكاكين. قال:وبعث عليهم ضبابة. قال:فجعلوا يتلامسون بالأيدي، ويقتل بعضهم بعضا. قال:ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدري. قال:ويتنادون [فيها]: رحم الله عبدا صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه، قال:فقتلاهم شهداء، وتيب على أحيائهم، ثم قرأ: (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم)

ولقد قرانا فى كتبهم ما هو قريب من ذلك

فيقولون، وقف موسى فى باب المحلة و قال: من للرب ف إلى فاجتمع اليه جميع بنى لاوى/

فقال: لهم هكذا قال: الرب إله اسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه و مروا و ارجعوا من باب إلى باب فى المحلة و اقتلوا كل واحد اخاه و كل واحد صاحبه و كل واحد قريبه/

ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى و وقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل/ وقال: موسى املأوا أيديكم اليوم للرب حتى كل واحد بابنه و باخيه فيعطيكم اليوم بركة"

مما يؤكد صدق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وانه رسول من عند الله تعالى إلى اذ كيف يحصل سيدنا محمد على معلومات كهذه

وليس هذا فحسب بل وجدنا عقوبة المرتد او من يشرك بالله ويعبد الهة اخرى ان يقتل

فى سفر التثنية الاصحاح الثالث عشر يقولون

«وَإِذَا أَغْوَاكَ سِرًّا أَخُوكَ ابْنُ أُمِّكَ، أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوِ امْرَأَةُ حِضْنِكَ، أَوْ صَاحِبُكَ الَّذِي مِثْلُ نَفْسِكَ قَائِلاً: نَذْهَبْ وَنَعْبُدْ آلِهَةً أُخْرَى لَمْتعالرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ ٧مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَكَ، الْقَرِيبِينَ مِنْكَ أَوِ الْبَعِيدِينَ عَنْكَ، مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ إلى أَقْصَائِهَا، ٨فَلاَ تَرْضَ مِنْهُ وَلاَ تَسْمَعْ لَهُ وَلاَ تُشْفِقْ عَيْنُكَ عَلَيْهِ، وَلاَ تَرِقَّ لَهُ وَلاَ تَسْتُرْهُ، ٩بَلْ قَتْلاً تَقْتُلُهُ. يَدُكَ تَكُونُ عَلَيْهِ اولا: لِقَتْلِهِ، ثُمَّ أَيْدِي جَمِيعِ الشَّعْبِ أَخِيرًا. ١٠اتَرْجُمُهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، لأَنَّهُ الْتَمَسَ أَنْ يُطَوِّحَكَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. ١١فَيَسْمَعُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ وَيَخَافُونَ، وَلاَ يَعُودُونَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ الشِّرِّيرِ فِي وَسَطِكَ.

وبهذا كان ينبغى على اليهود المعاصرين لرسول الله وفى كل العصور وبخاصة الاحبار منهم ان يؤمنوا فورا لمجرد سماع تلك الاخبار من رسول امى الذى يخبرهم بما فى كنبهم

ولكنهم اليهود وكفى،

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦)

قال: ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، قال:لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال: لأخيه وللسامري ما قال:، وحرق العجل وذراه في اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير، وقال:انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال: له السبعون - فيما ذكر لي - حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال:أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى

تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال: للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع،

لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقال:وا لموسى: (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعا. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: (رب لو شئت أهلكتهم من قبل [وإياي]) [الأعراف: ١٥٥] قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟

أي: إن هذا لهم هلاك. اخترت منهم سبعين رجلا الخير فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد! فما الذي يصدقوني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ (إنا هدنا إليك) [الأعراف: ١٥٦] فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل، ويطلب إليه حتى رد إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال:لا ؛ إلا أن يقتلوا أنفسهم.

وقال: السدي: (فأخذتكم الصاعقة) فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله، ويقول: رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم (لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) [الأعراف: ١٥٥]. فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل، ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل، ينظر بعضهم إلى بعض: كيف يحيون؟ قال:فذلك قوله تعالى: (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون)

وقال: الربيع بن أنس: كان موتهم عقوبة لهم، فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم. وكذا قال: قتادة

فموسى لما أخذ العهد على اليهود أن يعملوا بالتوراة، بكّر فى الصباح وبنى مذبحاً فى أسفل الجبل. وأخذ العهد. ثم قال: الكاتب:" ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرئيل ورأوا إله إسرائيل، وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء فى النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بنى إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا" [خروج ٢٤: ٩ - ١١].

(ب) وطلب موسى رؤية الله" فقال:أرنى مجدك" ورد عليه بقوله:" لا تقدر أن ترى وجهى. لأن الإنسان لا يرانى ويعيش" [خر ٣٣: ١٨].

(ج) ولما تجلى الله للجبل؛ حدث من هيبته حال التجلى نار ودخان وارتجف

كل الجبل جداً. فارتعب بنو إسرائيل من هذا المنظر، وقال:وا لموسى: إذا أراد الله أن يكلمنا مرة أخرى؛ فليكن عن طريقك يا موسى ونحن لك نسمع ونطيع. فرد الله بقوله: أحسنوا فيما قال:وا. وسوف أكلمهم فى مستقبل الزمان عن طريق نبى مماثل لك يا موسى من بين إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه؛ فيكلمهم بكل ما أوصيه به [تث ١٨: ١٥ - ٢٢]

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

ما ذكرتعالى إلى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم - أيضا - بما أسبغ عليهم من النعم، فقال:(وظللنا عليكم الغمام) وهو جمع غمامة، سمي بذلك لأنه يغم السماء، أي: يواريها ويسترها. وهو السحاب الأبيض، ظللوا به في التيه ليقيهم حر الشمس. كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس في حديث الفتون، قال:ثم ظلل عليهم في التيه بالغمام.

قال: ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر، والربيع بن أنس، وأبي مجلز، والضحاك، والسدي، نحو قول ابن عباس.

وقال: الحسن وقتادة: (وظللنا عليكم الغمام) [قال:] كان هذا في البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس.

وقوله: (وأنزلنا عليكم المن) اختلفت عبارات المفسرين في المن: ما هو؟ فقال: علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاءوا.

وقال: مجاهد: المن: صمغة. وقال: عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل،

، وفى العهد القديم حديثا قريبا من ذلك،

١٦ وَارْتَحَلُوا مِنْ إِيلِيمَ، وَأَتَى كُلُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إلى صَحْرَاءِ سِينَ، الوَاقِعَةِ بَيْنَ إِيلِيمَ وَسِينَاءَ. كَانَ ذَلِكَ فِي اليَوْمِ الخَامِسَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ الثَّانِي بَعْدَ الخُرُوجِ مِنْ أَرْضِ مِصْرٍ.

-

وتذمر كل بنى اسرائيل على موسى وهَارُونَ فِي الصَّحْرَاءِ. ٣ وَقال: بَنُو إِسْرَائِيلَ لَهُمَا: «يَا لَيْتَنَا مِتْنَا بِيَدِ اللهِ فِي أَرْضِ مِصْرٍ، حَيْثُ كُنَّا نَجلِسُ بِجَانِبِ قُدُورِ اللَّحمِ، وَنَأكُلُ خُبْزًا إلى الشَّبَعِ. قَدْ أحضَرْتُمَانَا إلى هَذِهِ الصَّحْرَاءِ لِتَقْتُلَا الشَّعْبَ بِالجُوعِ.»

٤ فَقال: اللهُ لِمُوسَى: «سَأُمطِرُ خُبْزًا عَلَيكُمْ مِنَ السَّمَاءِ. وَسَيَخْرُجُ الشَّعْبُ مِنْ بُيُوتِهِمْ لِيَجْمَعُوا حَاجَةَ كُلِّ يَوْمٍ بِيَوْمِهِ، لِأمتَحِنَهُمْ وَأرَى إنْ كَانُوا يُطِيعُونَ شَرِيعَتِي أمْ لَا. ٥ وَفِي اليَوْمِ السَّادِسِ، عِنْدَمَا يُجَهِّزُونَ طَعَامَهُمْ، سَيَجِدُونَ أنَّ لَدَيْهِمْ ضِعْفَ مَا يَجْمَعُونَهُ فِي أيِّ يَوْمٍ آخَرَ.»

٦ وَقال: مُوسَى وَهَارُونُ لِكُلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ: «فِي المَسَاءِ سَتُدْرِكُونَ أنَّ اللهَ أخْرَجَكُمْ مِنْ أرْضِ مِصْرٍ. ٧ وَفِي الصَّبَاحِ سَتَرَوْنَ مَجْدَ اللهِ لِأنَّهُ سَمِعَ تَذَمُّرَكُمْ عَلَيْهِ. وَأمَّا نَحْنُ فَمَنْ نَكُونُ كَي تَتَذَمَّرُوا عَلَينَا؟»

٨ وَقال: مُوسَى: «سَيُعطِيكُمُ اللهُ لَحْمًا لِتَأْكُلُوا فِي المَسَاءِ، وَخُبْزًا فِي الصَّبَاحِ لِتَشْبَعُوا، لِأنَّ اللهَ سَمِعَ تَذَمُّرَكُمُ الَّذِي تَتَذَمَّرُونَ بِهِ عَلَيْهِ، وَأمَّا نَحْنُ فَمَنْ نَكُونُ؟ تَذَمُّرُكُمْ لَيسَ عَلَينَا بَلْ عَلَى اللهِ.»

٩ وَقال: مُوسَى لِهَارُونَ: «قُلْ لِكُلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ‹اقتَرِبُوا إلى اللهِ فَقَدْ سَمِعَ تَذَمُّرَكُمْ.›»

١٠ وَحِينَ كَلَّمَ هَارُونُ كُلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، التَفَتُوا نَحْوَ الصَّحْرَاءِ فَرَأوْا مَجْدَ اللهِ ظَاهِرًا فِي السَّحَابِ.

١١ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى فَقال:١٢ «قَدْ سَمِعْتُ تَذَمُّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. قُلْ لَهُمْ: ‹فِي المَسَاءِ سَتَأْكُلُونَ لَحْمًا، وَفِي الصَّبَاحِ سَتَشْبَعُونَ مِنَ الخُبْزِ، كَيتعالرِفُوا أنِّي أنَا إلَهُكُمْ.›»

١٣ وَفِي المَسَاءِ أتَتْ طُيُورُ السَّلوَى وَغَطَّتِ المُخَيَّمَ. وَفِي الصَّبَاحِ، كَانَتْ هُنَاكَ طَبَقَةٌ مِنَ النَّدَى حَوْلَ المُخَيَّمِ. ١٤ وَحِينَ اختَفَتْ طَبَقَةُ النَّدَى، ظَهَرَتْ طَبَقَةٌ رَقِيقَةٌ مِنَ الجَلِيدِ عَلَى الأرْضِ. ١٥ فَحِينَ رَأى بَنُو إِسْرَائِيلَ هَذَا الشَّيءَ قال: بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَا هَذَا؟" لِأنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ مَا هُوَ. فَقال: مُوسَى لَهُمْ: «إنَّهُ الخُبْزُ الَّذِي أعطَاهُ اللهُ لَكُمْ لِتَأْكُلُوهُ. ١٦ فَهَذَا هُوَ مَا أمَرَ بِهِ اللهُ: ‹لِيَجْمَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مَا يَسْتَطِيعُ أكْلَهُ. اجْمَعُوا مِلْءَ سَلَّةٍ كُلِّ وَاحِدٍ، بِحَسَبِ عَدَدِ الأفْرَادِ الَّذِينَ فِي خَيْمَتِهِ.›»

١٧ فَعَمِلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِحَسَبِ هَذَا الكَلَامِ، فَجَمَعَ بَعْضُهُمُ الكَثِيرَ، وَجَمَعَ بَعْضُهُمُ القَلِيلَ. ١٨ وَحِينَ قَاسُوا كَمِّيَّاتِ الطَّعَامِ بِالسِّلَالِ، وَجَدُوا أَنَّ الَّذِينَ جَمَعُوا كَثِيرًا لَمْ يَفِيضُوا عَنْ حَاجَتِهِمْ، وَالَّذِينَ جَمَعُوا قَلِيلًا لَمْ يَنْقُصْهُمْ شَيْءٌ. فَقَدْ جَمَعَ كُلُّ وَاحِدٍ حَسَبَ احْتِيَاجِهِ.

١٩ وَقَالَ: مُوسَى لَهُمْ: «لَا تُبقُوا مِنْهُ شَيْئًا إِلى الصَّبَاحِ.» ٢٠ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعُوا لِمُوسَى، فَتَرَكَ بَعْضُهُمْ شَيْئًا مِنْهُ إِلى الصَّبَاحِ، فَظَهَرَ فِيهِ دُودٌ وَأَنتَنَ. حِينَئِذٍ، غَضِبَ مُوسَى عَلَيْهِمْ.

٢١ وَفِي كُلِّ صَبَاحٍ، كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَجْمَعُ بِحَسَبِ قُدرَتِهِ عَلَى الأَكْلِ. وَحِينَ كَانَتِ حَرَارَةُ الشَّمْسِ تَزِيدُ، يَذُوبُ الطَّعَامُ.

٢٢ وَكَانُوا فِي اليَوْمِ السَّادِسِ يَجْمَعُونَ ضِعفَ الكَمِّيَّةِ المُعتَادَةِ، مِلْءَ سَلَّتَينِ لِكُلِّ فَردٍ. فَجَاءَ كُلُّ رُؤَسَاءِ الشَّعْبِ وَأَخبَرُوا مُوسَى. ٢٣ فَقَالَ: لَهُمْ: «هَذَا مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ: ‹غَدًا هُوَ السَّبتُ، يَوْمُ رَاحَةٍ مُقَدَّسَةٍ للهِ. اخبِزُوا قَدْرَ مَا تُرِيدُونَ، وَاسلِقُوا قَدْرَ مَا تُرِيدُونَ، وَاحتَفِظُوا بِمَا يَتَبَقَّى إِلى الصَّبَاحِ.›»

٢٤ فَاحْتَفَظُوا بِهِ حَتَّى الصَّبَاحِ كَمَا أَمَرَ مُوسَى، وَلَمْ يُنْتِنْ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ دُودٌ. ٢٥ وَقَالَ: مُوسَى: «كُلُوهُ اليَوْمَ، لِأَنَّ اليَوْمَ سَبتٌ للهِ. لَنْ تَجِدُوهُ اليَوْمَ فِي الحَقْلِ. ٢٦ تَجْمَعُونَهُ سِتَّةَ أَيَّامٍ، لَكِنْ فِي اليَوْمِ السَّابِعِ، يَوْمِ السَّبْتِ، لَنْ تَجِدُوهُ.»

٢٧ وَفِي اليَوْمِ السَّابِعِ خَرَجَ بَعْضُ النَّاسِ لِيَجْمَعُوا المَنَّ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا.

٢٨ وَقَالَ: اللهُ لِمُوسَى: « إِلى مَتَى تَرْفُضُونَ إِطَاعَةَ وَصَايَايَ وَشَرَائِعِي؟ ٢٩ هَا إِنَّ اللهَ أَعطَاكُمُ السَّبتَ، وَلِهَذَا فَهُوَ يُعطِيكُمْ طَعَامًا لِيَوْمَينِ فِي اليَوْمِ السَّادِسِ. عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ أَنْ يَبْقَى فِي البَيْتِ. لَا يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْ مَكَانِهِ فِي اليَوْمِ السَّابِعِ.»

٣٠ فَاسْتَرَاحَ الشَّعْبُ فِي اليَوْمِ السَّابِعِ. ٣١ وَسَمَّى بَنُو إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ الطَّعَامَ «مَنَّ.» وَهُوَ يُشْبِهُ بُذُورَ الكُزبَرَةِ، وَلَونُهُ أَبْيَضُ، وَطَعمُهُ كَكَعكٍ بِالعَسَلِ. ٣٢ وَقَالَ: مُوسَى: «هَذَا مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ: ‹احْتَفِظُوا بِمِلءِ سَلَّةٍ مِنَ المَنِّ لِأَجْلِ أَجيَالِكُمْ فِي المُسْتَقْبَلِ، لِكَي يَرَوْا الخُبْزَ الَّذِي أَعْطَيْتُهُ لَكُمْ لِتَأْكُلُوهُ فِي الصَّحْرَاءِ حِينَ أَخرَجتُكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرٍ.›»

٣٣ وَقال: مُوسَى لِهَارُونَ: «خُذْ مِـلءَ سَـلَّةٍ مِـنَ المَـنِّ، وَضَـعْهُ فِـي حَضْرَةِ اللهِ لِلِاحتِفَـاظِ بِـهِ لِأجيَالِكُمْ فِي المُسْتَقْبَلِ.»

٣٤ فَوَضَعَهُ هَارُونُ أَمَامَ صُنْدُوقِ الشَّهَادَةِ لِحِفْظِهِ كَمَا أَمَرَ اللهُ مُوسَى.

٣٥ وَأَكَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ المَنَّ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً، إِلى أَنْ جَاءُوا إِلى أَرْضٍ مَسْـكُونَةٍ. أَكَلُـوا المَـنَّ إِلى أَنْ أَتَوْا إِلى حُدُودِ أَرْضِ كَنْعَانَ. ٣٦ وَكَانَ حَجْمُ السَّلَّةِ نَحْوَ عُشْرِ القُفَّةِ.

بغض النظر عن الاسلوب او بعض التجاوزات كاصرارهم على تقديس يـوم السـبت وكانـه مـن امر الله الا ان الاحداث تتشابه إلى حد كبير مع ما ذكره القران الكريم وهذا ليس فيه غضاضة

وهنا عدة اسئلة

اولا: الم يقل سبحانه ثم عفا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون

ثم قال تعالى: فاقتلوا انفسكم ذلكم خير لكم عند بترئكم فتاب عليكم

فهل عفا ام امرهم بالقتل ليعفوا عنهم؟

الحقيقة انه سبحانه وتعالىاقام عليهم نفس الاحكام والشرائع التى شرعها لهم وهى انهـم يقتلون من بدل دينه او عبد الهة اخرى وبنص كتبهم كما راينا

فلما امتثلوا امر الله تعالى إلى باقامة حد القتل على انفسهم ساعتها قبل الله منهم وعفـا عنهم

اذن تكون سياق الاحداث كالاتى

بنوا اسرائيل بعدنا ذهب موسي عليه السلام للقاء ربه وقعوا فى خطا شرعـى وهـو عبـادة العجل الذى صنعه لهم السامرى

فغضب موسي عليه السلام منهم واختار سبعين

رجلا من خيار بنى اسرائيل ليعتـذروا إلى الله ويلتمسـوا منـه العفـو والصـفح الا ان السـبعين وقعوا فى خطا اخر وهو رغبتهم فى رؤية الله جهرة فعاقبهم الله تعالى إلى بان اماتهم

مما جعل سيدنا موسي عليه السلام فى حرج اكبر امام الله وامام قومه فجعل يتوسل اليه جلا وعلا حتى احياهم كرامة لموسي عليه السلام فطمع سيدنا موسي عليه السلام ان يسامح قومه فقال تعالى: الا ان يقتل بعضهم بعضا اقامة لشرع الله فيهم فلما امتثلوا لشرع الله تعالى إلى قبل منهم وعفا عنهم وتاب عليهم

السؤال الثانى نرى كثير من الاستشهادات بكتب بنى اسرائيل موافقة لما فى القران الكريم فما الحكمة من ذلك؟

اولا: نحن نؤمن بان الله تعالى إلى انزل التوراة علي نبيه موسي عليه السلام وهى كالقران من عند الله تعالى إلى وقد اوكل الله تعالى إلى حفظها للعلماء والاحبار من بنى اسرائيل ولكن بمرور الوقتتعالىرضوا للسبي والتشريد مما تسبب فى ضياع وفقد كثير من التوراة منا اضطر الاجيال اللاحقة ان يسنبدلوه باحكام من عند انفسهم

فما حافظوا عليه او ما بقى منها نجده موافقا للقران الكريم وما كان من عندهم نجده مخالفا لما انزل الله ولا يتوافق مع القران الكريم

وبما ان كنب الله لا يجوز ان يتدخل احد فيها لا بتغير او تبديل اوتعالىديل فمن ثم بطل العمل بها وانزل الله تعالى إلى القران الكريم وتولى هو جلا وعلا حفظه بذاته فظل محفوظا إلى يومنا و إلى يوم القيامة باذن الله

ثانيا: ابقى الله تعالى إلى على بعض النصوص من التوراة الاصلية صحيحة فحين يذكرهم بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون انه نبي امى لا يقرا ولا يكتب كان ينبغى عليهم ساعتها ان يؤمنوا به وبخاصة انه يحدثهم بما يتوافق مع الصحيح من كتبهم

آيات تدل على نعم الله تعالى إلى على بنى اسرائيل:

ثم تتواصل الايات فى عرض نعم الله تعالى إلى على بنى اسرائيل فقال تعالى:

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

(وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) سميت القرية قرية لأنها تجمع أهلها قال: ابن عباس رضي الله عنهما هي أريحاء وهي قرية الجبارين كان فيها قوم من بقية عاد يقال: لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق وقيل بلقاء وقال: مجاهد بيت المقدس، وقال: الضحاك: هي الرملة والأردن وفلسطين وتدمر وقال: مقاتل: إيليا وقال: ابن كيسان: الشام

(فكلوا منها حيث شئتم رغدا) موسعا عليكم (وادخلوا الباب) يعني بابا من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب

(سجدا) أي ركعا خضعا منحنين وقال: وهب: فإذا دخلتموه فاسجدوا شكرا لله تعالى إلى

(وقولوا حطة) قال: قتادة: حط عنا خطايانا أمروا بالاستغفار قال: ابن عباس: لا إله إلا الله لأنها تحط الذنوب

(نغفر لكم خطاياكم) من الغفر وهو الستر فالمغفرة تستر الذنوب وقرأ أهل المدينة و (نافع) بالياء وضمها وفتح الفاء

وقرأها ابن عامر بالتاء وضمها وفتح الفاء وفي الأعراف قرأ جميعا ويعقوب بالتاء وضمها وقرأ الآخرون فيهما بنصب النون وكسر الفاء (وسنزيد المحسنين) ثوابا من فضلنا

(فبدل) فغير (الذين ظلموا) أنفسهم وقال:وا (قولا غير الذي قيل لهم) وذلك أنهم بدلوا قول الحطة

بالحنطة فقال:وا بلسانهم، حطانا سمقاثا، أي، حنطة حمراء استخفافا بأمر الله تعالى إلى وقال: مجاهد: طؤطئ لهم الباب ليخفضوا رءوسهم فأبوا أن يدخلوها سجدا فدخلوا على أستاههم مخالفة في الفعل كما بدلوا القول وقال:وا قولا غير الذي قيل لهم.

أخبرنا عبد الواحد المليحي حدثنا أحمد بن عبد الله النعيمي حدثنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل حدثنا إسحاق بن نصر حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا فدخلوا يزحفون على أستاهم وقال:وا حبة في شعرة"

(فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء) قيل أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفا (بما كانوا يفسقون) يعصون ويخرجون من أمر الله تعالى إلى

وهذه القصة لأنها تظهر عورات بنى اسرائيل فلما يذكروها فى كتبهم على حالها وانما ذكروا منها امورا واخفوا الكثير

وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد {سجد} أي شكراً لله تعالى إلى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وإنقاذهم من التيه والضلال، قال: العوفي في تفسيره عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى إلى {وادخلوا الباب سجد} أي ركعاً،

قوله تعالى إلى {وقولوا حطة} فكتب إليه أن أقروا بالذنب، وقال: الحسن وقتادة أي أحطط عنا خطايانا {نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين} وقال:هذا جواب الأمر أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكن الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى إلى عند الفتح بالفعل والقول وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها والشكر على النعمة

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر. كما روى أنه كان يوم الفتح فتح مكة داخلاً إليها من الثنية العليا وأنه لخاضع لربه حتى أن عثنونه ليمس مورك رحله شكراً لله على ذلك، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثماني ركعات وذلك ضحى، فقال: بعضهم: هذه صلاة الضحى، وقال: آخرون بل هي صلاة الفتح فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلداً أن يصلي فيه ثماني ركعات عند أول دخوله كما فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثماني ركعات والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم، وقيل يصليها كلها بتسليم واحد، والله أعلم.

: {فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم} وهكذا روي عن عطاء ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن رافع. وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعي رؤوسهم وأمروا أن يقولوا حطة أي أحطط عنا

ذنوبنا وخطايانا، فاستهزأوا فقال:وا حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته. ولهذا قال:{فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون} وقال: الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب

ففى كنبهم ما يوافق ما عندنا فقال:وا فى سفر يشوع،

حِينَئِذٍ كَلَّمَ يَشُوعُ الرَّبَّ، يَوْمَ أَسْلَمَ الرَّبُّ الأَمُورِيِّينَ أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَال: أَمَامَ عُيُونِ إِسْرَائِيلَ: «يَا شَمْسُ دُومِي عَلَى جِبْعُونَ، وَيَا قَمَرُ عَلَى وَادِي أَيَّلُونَ».

فَدَامَتِ الشَّمْسُ وَوَقَفَ الْقَمَرُ حَتَّى انْتَقَمَ الشَّعْبُ مِنْ أَعْدَائِهِ. أَلَيْسَ هذَا مَكْتُوبًا فِي سِفْرِ يَاشَرَ؟ فَوَقَفَتِ الشَّمْسُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ وَلَمْتعالىجَلْ لِلْغُرُوبِ نَحْوَ يَوْمٍ كَامِل.

١٤

وَلَمْ يَكُنْ مِثْلُ ذلِكَ الْيَوْمِ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ سَمِعَ فِيهِ الرَّبُّ صَوْتَ إِنْسَانٍ، لأَنَّ الرَّبَّ حَارَبَ عَنْ إِسْرَائِيلَ.

فوجود مثل هذه الامور يلين لنا انه كانت لديهم توراة كامله حقيقية بها ما ذكره القران الكريم الا انهم كما قال: عنهم القران الكريم، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثير مما علمتم،

وهذه ليست اولى الاحداث التى حذفوها من كتبهم او غيروها فمثلها مثل قصة اصحاب السبت وقصة البقرة ولذلك كان القران الكريم اصدق لانه بين ما ابقوا عليه وما أخفوه فلله الحمد

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَاتعالثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة من أجل نعمه عليهم، وهي إغاثتهم في التيه بالماء بعد أن اشتد بهم العطش، فقال تعالى: :(وَإِذِ استسقى موسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضرب بِّعَصَاكَ.

معنى الاستسقاء

الاستسقاء: طلب السقيا عند عدم الماء أو حبس المطر، وذلك عن طريق الدعاء لله -تعالى إلى - في خشوع واستكانة، وقد سأل موسى عليه السلام ربهتعالى إلى أن يسقي بني إسرائيل الماء بعد أن استبد بهم العطش، عندما كانوا في التيه،

فعن ابن عباس أنه قال:"كان ذلك في التيه، ضرب لهم موسى عليه السلام الحجر، فصارت منه اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها.

وهذه النعمة من أقوى البراهين على صدق موسى - عليه السلام - في نبوته.والحمد لله ان راوا ذلك باعينهم

ومعنى الآية الكريمة: واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش الشديد وهم في صحراء مجدبة، فتوسل إلينا نبيهم موسى - عليه السلام - في خشوع وتضرع أن أمدهم بالماء الذي يكفيهم، فأجبناه إلى ما طلب، إذ أوحينا إليه أن اضرب بعصاك الحجر.

ففعل، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بمقدار عدد الأسباط، وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره، وقلنا لهم: تمتعوا بما من الله به عليكم من مأكول طيب ومشروب هنيء رزقكم الله إياه من غيرتعالب ولا مشقة، (وَلاَتعالثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ) فتتحول النعم التي بين أيديكم إلى نقم وتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

وهنا لفته هامة

وهى ان النعم على الاباء كأنها نعم على الابناء لماذا؟ لانه لو تركهم الله بدون ماء لهلكوا ولم تكن لهم ذرية، اما وقد استجاب لنبيهم وامدهم بما يقيم حياتهم فكانت لهم ذرية

فكان الآية الكريمة تنبه بنى اسرئيل فى كل زمان إلى نعم الله عليهم فلولا انعامهتعالى إلى على اجدادهم ما كان لهم وجود الان فعليهم الشكر مرتين ان انعم على اجدادهم وان جعل لأجدادهم ذرية

وقوله تعالى: (كُلُواْ واشربوا مِن رِّزْقِ الله) مقول لقول محذوف تقديره: وقلنا لهم: كلوا واشربوا من رزق الله.

وقد جمع - سبحانه - بين الأكل والشرب - وإن كان الحديث عن الشراب - لأنه قد تقدمه إنزال المن والسلوى، وقد قيل هنالك: (كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) فلما أتبع ذلك بنعمة تفجير الماء لهم اجتمعت المنتان.

وقوله تعالى: (وَلاَتعالثَوْاْ فِي الأرض مُفْسِدِينَ) تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال النعمة في غير ما وضعت له، بعد أن أذن لهم في التمتع بالطيبات، لأن النعم عندما تكثر قد تنسي العبد حقوق خالقه فيهجر الشريعة، ويعيث في الأرض فساداً.

وفى العهد القديم فى سفر العدد اصحاح عشرون ما يلى

الآيات ٢-١٣:- " وَلَمْ يَكُنْ مَاءٌ لِلْجَمَاعَةِ فَاجْتَمَعُوا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ. وَخَاصَمَ الشَّعْبُ مُوسَى وَكَلَّمُوهُ قَائِلِينَ: «لَيْتَنَا فَنِينَا فَنَاءَ إِخْوَتِنَا أَمَامَ الرَّبِّ. لِمَاذَا أَتَيْتُمَا بِجَمَاعَةِ الرَّبِّ إِلى هذِهِ الْبَرِّيَّةِ لِكَيْ نَمُوتَ فِيهَا نَحْنُ وَمَوَاشِينَا؟ وَلِمَاذَا أَصْعَدْتُمَانَا مِنْ مِصْرَ لِتَأْتِيَا بِنَا إِلى هذَا الْمَكَانِ الرَّدِيءِ؟ لَيْسَ هُوَ مَكَانَ زَرْعٍ وَتِينٍ وَكَرْمٍ وَرُمَّانٍ، وَلاَ فِيهِ مَاءٌ لِلشُّرْبِ!». فَأَتَى مُوسَى وَهَارُونُ مِنْ أَمَامِ الْجَمَاعَةِ إِلى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ وَسَقَطَا عَلَى وَجْهَيْهِمَا، فَتَرَاءَى لَهُمَا مَجْدُ الرَّبِّ. وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «خُذِ الْعَصَا وَاجْمَعِ الْجَمَاعَةَ أَنْتَ وَهَارُونُ أَخُوكَ، وَكَلِّمَا الصَّخْرَةَ أَمَامَ أَعْيُنِهِمْ أَنْتعالبطِيَ مَاءَهَا، فَتُخْرِجُ لَهُمْ مَاءً مِنَ الصَّخْرَةِ وَتَسْقِي الْجَمَاعَةَ وَمَوَاشِيَهُمْ». فَأَخَذَ مُوسَى الْعَصَا مِنْ أَمَامِ الرَّبِّ كَمَا أَمَرَهُ، وَجَمَعَ مُوسَى وَهَارُونُ الْجُمْهُورَ أَمَامَ الصَّخْرَةِ، فَقَالَ: لَهُمُ: «اسْمَعُوا أَيُّهَا الْمَرَدَةُ، أَمِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ نُخْرِجُ لَكُمْ مَاءً؟». وَرَفَعَ مُوسَى يَدَهُ وَضَرَبَ الصَّخْرَةَ بِعَصَاهُ مَرَّتَيْنِ، فَخَرَجَ مَاءٌ غَزِيرٌ، فَشَرِبَتِ الْجَمَاعَةُ وَمَوَاشِيهَا. فَقَالَ: الرَّبُّ لِمُوسَى وَهَارُونَ: «مِنْ أَجْلِ أَنَّكُمَا لَمْ تُؤْمِنَا بِي حَتَّى تُقَدِّسَانِي أَمَامَ أَعْيُنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لِذلِكَ لاتدخلان هذِهِ الْجَمَاعَةَ إِلى الأَرْضِ الَّتِي أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». هذَا مَاءُ مَرِيبَةَ، حَيْثُ خَاصَمَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الرَّبَّ، فَتَقَدَّسَ فِيهِمْ."

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قال: أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى، طعاما طيبا نافعا هنيئا سهلا واذكروا تذمركم وضجركم مما رزقتكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنية من البقول ونحوها مما سألتم.

وقال: الحسن البصري رحمه الله: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قبل ذلك قوما أهل أعداس وبصل وبقل وفوم،

فقالوا: (يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها)

وهم يأكلون المن والسلوى، لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم فهو كأكل واحد]. فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة. وأما الفوم فقد اختلف السلف في معناه فوقع في قراءة ابن مسعود وثومها

بالثاء. [وقال: الجوهري: الفوم: الحنطة. وقال: ابن دريد: الفوم: السنبلة، وحكى القرطبي عن عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز.

وقوله تعالى: (قال: أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنية مع ما هم فيه من العيش الرغيد، والطعام الهنيء الطيب النافع. وقوله: (اهبطوا مصرا) هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية، وهو قراءة الجمهور بالصرف.

وقال: ابن عباس: (اهبطوا مصرا) قال:مصرا من الأمصار، رواه ابن أبي حاتم،

معانى مصر

والحق أن المراد مصر من

الأمصار كما روي عن ابن عباس وغيره، [ص: ٢٨٢] والمعنى على ذلك لأن موسى، عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز، بل هو كثير في أي بلد دخلتموه وجدتموه، فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه ؛

ولهذا قال:(أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم) أي: ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه، لم يجابوا إليه،

يعني أن هذا ليس بصعب يحتاج إلى دعاء الله؛ لأن الله تعالى إلى أوجده في كل مصر؛ وكأن موسى صلى الله عليه وسلم أنكر عليهم هذا؛ وبين لهم أنه لا يليق به أن يسأل الله سبحانه وتعالىلهم ما هو أدنى وموجود في كل مصر؛

قوله تعالى: (وضربت عليهم الذلة والمسكنة): جملة مستأنفة إخبار من الله عزّ وجلّ بما حصل عليهم؛ و(الذلة): الهوان؛ فهم أذلة لا يقابلون عدواً، وقد قال: الله تعالى إلى: (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ) [الحشر: ١٤]

و(المسكنة): الفقر؛ فليس عندهم شجاعة، ولا غنًى؛ لا كرم بالمال، ولا كرم بالنفس؛ فـ" الشجاعة" كرم بالنفس: بأن يجود الإنسان بنفسه لإدراك مقصوده؛ و" الكرم" جود بالمال؛ فلم يحصل لهم هذا، ولا هذا؛ فلا توجد أمة أفقر قلوباً، ولا أبخل من اليهود، فالأموال كثيرة، لكن قلوبهم فقيرة، وأيديهم مغلولة..

وقوله تعالى إلى (وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ): أي رجعوا؛ والباء للمصاحبة؛ و(من) للابتداء؛ يعني الغضب من الله. أي أن الله غضب عليهم،

كما قال تعالى: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ...) [المائدة: ٦٠]..

كيف يغضب الله تعالى

و بياناً لصفة الغضب- لله تعالى إلى-في فوائد الآية

إثبات صفة الغضب لله تعالى إلى؛ وغضب الله سبحانه وتعالىصفة من صفاته؛ لكنها لا تماثل صفات المخلوقين؛ فنحن عندما نغضب تنتفخ الأوداج منا، ويحمر الوجه، ويقفّ الشعر، ويفقد الإنسان صوابه؛ وهذه العوارض لا تكون في غضب الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء؛ بل هو غضب يليق بالله عزّ وجلّ دال على كمال عظمته، وسلطانه؛ وإذا قلنا بهذا، وسلّمنا أن الغضب صفة حقيقية برئت بذلك ذمتنا، وصرنا حسب ما أمر الله به، ورسوله..

وفسر أهل التحريف" غضب الله" بانتقامه، ولا يثبتونه صفة لله عزّ وجلّ؛ وفسره آخرون بأنه إرادة الانتقام؛ فمعنى (غضب الله عليهم) عندهم: أراد أن ينتقم منهم؛ وتفصيل ذلك مذكور في كتب العقائد.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ)

قال: ابن كثير- رحمه الله:-يقول: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة،

وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم، فلا كبْر أعظم من هذا، أنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق؛ ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"الكبر بَطَر الحق، وغَمْط الناس"

وقوله تعالى: (ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به، أنهم كانوا يعصون ويعتدون، فالعصيان فعل المناهي، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه أو المأمور به. والله أعلم.

إ

(نَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آَمَنَ بِاللَّـهِ وَالْيَـوْمِ الْآَخِـرِ وَعَمِـلَ صَـالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

لما بين [الله]تعالى إلى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم، وما أحل بهم من النكال، نبه تعالى إلى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة ؛ كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه، كما قال تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [يونس: ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله: (إن الذين قال:وا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) [فصلت: ٣٠].

قال: ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر العدني، حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قال:قال: سلمان: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن أهل دين كنت معهم، فذكرت من

صلاتهم وعبادتهم، فنزلت: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر) إلى آخر الآية.

وقال: السدي: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) الآية: نزلت في أصحاب سلمان الفارسي،

بينا هو يحدث النبي صلى الله عليه وسلم إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال:كانوا يصومون ويصلون ويؤمنون بك، ويشهدون أنك ستبعث نبيا، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال: له نبي الله صلى الله عليه وسلم: يا سلمان، هم من أهل النار. فاشتد ذلك على سلمان، فأنزل الله هذه الآية،

فكان إيمان اليهود: أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى، عليه السلام ؛ حتى جاء عيسى. فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى، فلم يدعها ولم يتبع عيسى، كان هالكا. وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منه حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم، فمن لم يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجيل - كان هالكا.

وقال: ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبير نحو هذا.

قلت: وهذا لا ينافي ما روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر) الآية فأنزل الله بعد ذلك: (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) [آل عمران: ٨٥].

فإن هذا الذي قال:ه [ابن عباس] إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا إلا ما كان موافقا لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن بعثه [الله] بما بعثه به،

فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، ف أتباع موسى عليه السلام، الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة في زمانهم.

حقيقة النصارى

فلما بعث عيسى صلى الله عليه وسلم وجب على بني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال: لهم: أنصار أيضا،

كما قال: عيسى، عليه السلام: (من أنصاري إلى الله قال: الحواريون نحن أنصار الله) [آل عمران: ٥٢] وقيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضا يقال: لها ناصرة، قال:ه قتادة وابن جريج، وروي عن ابن عباس أيضا، والله أعلم.

فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين، ورسولا إلى بني آدم على الإطلاق، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر،

والانكفاف عما عنه زجر. وهؤلاء هم المؤمنون [حقا]. وسميت أمة محمد صلى الله عليه وسلم مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم، ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية.

من هم الصابئون

وأما الصابئون فقد اختلف فيهم إلى اقوال عديدة اهمها

ما جاء عن عبد الله بن وهب: قال: عبد الرحمن بن زيد: الصابئون أهل دين من الأديان، كانوا بجزيرة الموصل يقولون: لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول: لا إله إلا الله، قال:ولم يؤمنوا برسول، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه: هؤلاء الصابئون، يشبهونهم بهم، يعني في قول: لا إله إلا الله.

وقال: القرطبي: والذي تحصل من مذهبهم اى الصابئون فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم، وأنها فاعلة ؛ ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم بالله حين سأله عنهم، واختار فخر الدين الرازي أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب ؛ بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال:وهذا القول هو المنسوب إلى الكشرانيين الذين جاءهم إبراهيم الخليل، عليه السلام، رادا عليهم ومبطلا لقولهم.

والمعنى - أن كل نفس بما كسبت رهينة، وأن من تاب وآمن وعمل صالحًا، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات - قد تكرر في القرآن مئات المرات، وأوضح موضع في ذلك وأبينه قوله تعالى: (ليس بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤)

قال: أبو جعفر ابن جرير رحمه الله:" الميثاق" او الوثيقة، إما بيمين وإما بعهد، أو غير ذلك من الوثائق.

وقال: الراغب الأصبهاني في" المفردات" الميثاق عقد مؤكد بيمين وعهد. و" الطور" الجبل في كلام العرب، كما قال: ابن جرير، وقيل: اسم جبل بعينه، وذكر أنه الذي ناجى الله عليه موسى عليه السلام

حقيقة جبل الطور

والظاهر من سياق القرآن أنه الجبل الذي ناجى الله موسى في بعضه جهاته، فإنه جبل عظيم متصل بصحراء سيناء التي ضرب على بني إسرائيل أن يتيهوا فيها أربعين سنة.

ورفعه: اى رفع جزء منه، كما في قوله (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ) وإنما يجعل بعض الأصابع. ويوضح كيفية هذا الرفع قول الله تعالى إلى في سورة الأعراف (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ) [لأعراف: ١٧١]،

والنتق: الجذب بشدة. وفسر بغايته وهو القلع.

ومعناه: جذبنا الجبل بشدة ورفعناه فوق رءوسهم حتى صار كأنه ظلة، وهي ما أظل من سقيفة أو سحاب. ويدل على ذلك قوله في سورة النساء (وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ) حتى ظنوا أنه واقع بهم. والظن في القرآن يكون لنوع من اليقين كما تقدم في (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ).

وكل هذه السياقات لهذا الحادث العظيم تدل على أنه كان أمراً خارقاً للسنن الكونية معجزة لموسى عليه السلام، كما خرق الله له السنن في فلق البحر وتفجير الحجر باثنتي عشرة عيناً من الماء وأمثالها.

وقد ذكر ابن جرير رحمه الله تعالى إلى في سبب ذلك روايات، منها: عن أبي بكر بن عبدالله قال: موسى" هذا كتاب الله، أتقبلونه بما فيه؟ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم، قال:وا انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة وحدودها خفيفة قبلناها. قال:اقبلوها فيما فيها

قالوا: لا حتى نعلم ما فيها كيف حدودها وفرائضها، فراجعوا موسى مراراً، فأوحى الله تعالى إلى إلى الجبل فانقلع فارتفع في السماء حتى إذا كان بين رءوسهم وبين السماء قال: لهم موسى: ألا ترون ما يقول ربي؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل" قال: فحدثني الحسن البصري قال:لما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا اى خوفا من أن يسقط عليه. فلذلك ليس في الأرض يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر. يقول: هذه السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة" .

معنى قوله تعالى: (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)

يعني أن الله تعالى إلى يدعوهم وقد رفع الطور فوق ورؤوسهم

وتهددهم بإيقاعه بهم، ويقول لهم: اقبلوا ما أتاكم به رسولي موسى من عندي وما بعثته به واستقيموا عليه علماً وعملاً في حزم ونشاط واجتهاد، ولا تتوانوا وتتكاسلوا وتهملوا وتضيعوا العمل به وإقامة حدوده، وإلا أوقعت بكم عذابي وأحللت عليكم غضبي وسحقتكم بهذا الجبل العظيم يقع على رءوسكم.

والآية إشارة إلى غلظ أكباد بني إسرائيل وقسوة قلوبهم وبلادة طباعهم، إذ هم لا يقدرون فضل الله عليهم ورحمته بهم، إذ يوحي إليهم ما فيه خيره وسعادتهم، ولا يقدرون نعمة الله بموسى الذي أعطاهم الله على يده نعماً كثيرة قريبة، وخيرات متتاليات مترادفات،

وهم مع هذا يردون على موسى عليه السلام بأقسى أنواع الرد، ويواجهونه كلما جاءهم بما يتمم لهم شريعة التوراة بشر ألوان الحمق والسفه، ولا يزالون به كذلك محاولين رد شرائع الله وإعادتها إلى الله من حيث أتى بها الوحي، كأن الله لا يعلم ما يصلح عباده مثل ما يعلم أولئك الحمقى السفهاء؛ حتى يغضب الله عليهم ويتهددهم إن لم يقبلوا برفع الجبل فوق رءوسهم

كأنه ظلة واقع بهم. فإن تركهم الآن فإنما يؤجلهم ليوم تشخص فيه الأبصار يوقع بهم فيه جبال النار، ويرسل ليهم منها شراراً كالقصر كأنه جمالة صفر.

وقوله تعالى إلى (وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) يأمرهم مع إتقانتعالىلمه والعمل به بنشاط وإخلاص ونفس قوية في العمل به لرضاها به وحبها له - يأمرهم مع ذلك بتعليمه لغيرهم ودعوتهم إليه ونشره في الناس؛

كما قال: في سورة آل عمران (١٨٧) (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ) وعرفهم أن إقامتهم للكتاب وتمسكهم به وإحياءه بالعمل، وتعليمه وبثه في الناس وأخذهم به هو الوقاية التي يقيهم بها عذابه وغضبه والجُنة التي تجنبهم من سخطه ومقته في العاجل والآجل،

كيف تكون تقوى الله عز وجل

وهنا تنبيه هام عن تقوى الله عز وجل ،فليست التقوى بالدعوى، ولا بالقول الكاذب، وإنما التقوى بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر على الأذى في سبيل الحق

وليست التقوى في إقامة ألفاظ الكتاب وتجويد حروفه مع إضاعة العمل به وعدم إقامة حدوده وتحليل حلاله وتحريم حرامه.

،وليست التقوى في تزيين الصوت بالكتاب وترتيب الألحان والنغمات الموسيقية لألفاظه، ثم الارتكاس بعد ذلك في حمأة ما نهى عنه الكتاب وحذر منه من خبائث وفواحش ومنكرات، ومجافاة ما دعا إليه من إيمان وتوحيد وعمل صالح وطيبات وأخلاق وصلاح وإصلاح.

وليست التقوى في العناية بطبعه على الورق الجيد وبالحرف الجميل وتجليده بالجلد المزخرف واتخاذ القماطر الثمينة والكراسي النفيسة ولفه في أنواع الحرير وغالي الأقمشة وعبادة ذلك الجلد والورق والقماش بالحلف به وتقبيله والتماس البركة منه؛ ثم يهجر ما فيه من آيات وهدايات ووصايا وعظات وشرائع وأحكام وقوانين وعبادات.

وقد روى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إن شر الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شيء منه" فبين صلى الله عليه وسلم أن المقصود العمل، كما بينا،

ولقد أمرنا الله تعالى إلى باتباع كتابه والعمل بمقتضاه؛ لكننا تركنا ذلك كما تركت اليهود والنصارى وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئاً لغلبة الجهل وطلب الرياسة واتباع الأهواء.

روى الترمذي عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال:" كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال:هذا أوان يختلس فيه العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء.

فقال: زياد ابن لبيد الأنصاري: كيف يختلس منا وقد قرآنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا، فقال:ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء المدينة. هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فما تغني عنهم؟"

وفي الموطأ عن عبدالله بن مسعود أنه قال: لإنسان: إنك في زمان كثير فقاؤه، قليل قراؤه؛ تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه. قليل من يسأل، كثير من يعطي، يطيلون الصلاة ويقصرون الخطبة، يبدئون أعمالهم قبل أهواءهم.

وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه، كثير قراؤه. تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده كثير من يسأل قليل من يعطي. يطيلون فيه الخطبة ويقصرون الصلاة. يبدئون فيه أهواءهم قبل أعمالهم. وقوله. يبدئون أهواءهم قبل أعمالهم. أي يتبعون أهواءهم ويتركون العمل بالذي افترض عليهم.

ثم قال: الله تعالى إلى لبني إسرائيل (ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ) اى أدبرتم وأعرضتم عن أخذ الكتاب والعمل به (مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) اى من بعد الميثاق ورفع الجبل واتبعتم أهواءكم، واتخذتم أحباركم ورهبانكم أربابا من دون الله يحللون لكم ما حرم الله فتحللون، ويحرمون عليكم ما أحل الله فتحرمون، ويشرعون لكم من الدين في العقائد والعبادات ما لم يأذن به الله فتتبعون

ثم بين سبحانه وتعالىرحمته وامهاله لهم فقال تعالى: (فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) فالتوبة بعد نكثكم الميثاق. والفضل الزيادة والخير والإفضال والإحسان (وَرَحْمَتُهُ) بإرسال الرسل خصوصاً محمداً صلى الله عليه وسلم الذي بعثه رحمة للعالمين (لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) أي المستأصلين بنوع من أنواع العذاب التي كان الله يستأصل بها من سبق من أمثالكم.

فاذكروا نعمة الله عليكم وبادروا إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم لتربحوا في الدنيا والآخرة، وتسعدوا السعادة الأبدية.

ثم بين الله تعالى إلى ان استئصالهم ليس ببعيد و ذكر الله تعالى إلى لليهود المعاصرين للنبي محمد صلى الله عليه وسلم قصة من بعض اسلاف اليهود الذين

خالفوا اوامر الله فمسخهم قردة وخنازير

فقال تعالى: وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦)

والمعنى: (ولقد علمتم) يا معشر اليهود، ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم منتعالىظيم السبت والقيام بأمره، إذ كان مشروعا لهم،

لان الله تعالى إلى كان امرهم بتعظيم يوم الجمعه فخالفوا واصروا علىتعالىظيم السبت، و لا شك أن الله تعالى إلى شرع في كل ملة يومًا من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة فشرعتعالى إلى لامة محمد صلى االه عليه وسلم يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده،

ويقال:إن الله تعالى إلى شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام فعدلوا عنه، واختاروا السبت لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئًا من المخلوقات الذي كمّل خلقها يوم الجمعة، فألزمهمتعالى إلى به في شريعة التوراة، ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم إذا بعثه، وأَخْذِه مواثيقهم وعهودهم على ذلك؛

قال: مجاهد: اتبعوه اى السبت وتركوا الجمعة، ثم إنهم لم يزالوا متمسكين به حتى بعث الله عيسى ابن مريم، فيقال:إنه حولهم إلى يوم الأحد، ويقال:إنه لم يترك شريعة التوراة إلا ما نسخ من بعض أحكامها، وإنه لم يزل محافظًا على السبت حتى رفع، وإن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد مخالفة لليهود، وتحولوا إلى الصلاة شرقًا عن الصخرة، والله أعلم.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول لله صلى الله عليه وسلم يقول نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، اى الجمعه فالناس لنا فيه تبع: اليهود غدًا والنصارى بعد غد لفظ البخاري.

وعن أبي هريرة وحذيفة -ا- قال:ا: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضى بينهم قبل الخلائق، رواه مسلم.

وقوله -تبارك وتعالى: إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من أن الله شرّع لهم على لسان موسى عليه السلام يوم الجمعة أن يكون عيدًا لهم، فتركوه وأعرضوا عنه، واختاروا يوم السبت، فعلى هذا يكون هو الاختلاف المراد بقوله تعالى: عَلَىَ الّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ، واختلفوا على موسى عليه السلام وخالفوه، ولم يعملوا بمقتضى ما شرّعه لهم.

وبعض أهل العلم يقول: إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ بمعنى أي فرضتعالىظيمه، وهذا لا يخالف القول الذي ذكره ابن كثير، إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ فرض عليهمتعالىظيمه حينما تركوا يوم الجمعة،

فأُلزمهم الله بمقتضى اختيارهم وهو يوم السبت، فصار ذلك اليوم لا يعملون فيه ولا يشتغلون بشيء من أشغالهم في الكسب وأعمالهم الدنيوية، فأُلزموا بمقتضى هذا، وصار يحْرم عليهم العمل في يوم السبت،

سبب ترك النصارى العمل بالتوراة

والنصارى لشدة بغضهم لليهود -وهم من بني إسرائيل، وللعداوة التي بين اليهود وبين النصارى ترك النصارى العمل بالتوراة، وبقوا بلا شريعة، فوضعوا لهم كتابًا سموه" الكتاب المقدس" ، فيه القانون، وصاروا يتحاكمون إليه بعد أن تركوا العمل بالتوراة.والانجيل،

نعود لليهود الذين تحايلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوه لها من الحبائل والبرك قبل يوم السبت، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة،

لماذا لان الجزاء من جنس العمل فالقردة أشبه شيء بالأناسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم.

والقصة كاملة فى سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) [الأعراف: ١٦٣]

اما قوله تعالى: (كونوا قردة خاسئين)

وقال: العوفي في تفسيره عن ابن عباس: (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فجعل [الله] منهم القردة والخنازير. فزعم أن شباب القوم صاروا قردة والمشيخة صاروا خنازير.

وقال: شيبان النحوي، عن قتادة: (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فصار القوم قروداتعالاوى لها أذناب بعد ما كانوا رجالا ونساء.وقال: عطاء الخراساني: نودوا: يا أهل القرية، (كونوا قردة خاسئين) فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان، ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم، أي بلى.

وقال: ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة، حدثنا محمد بن مسلم - يعني الطائفي - عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال:إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة ثم هلكوا.اى ما كان للمسخ نسل.

وقال: محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، قال:قال: ابن عباس: إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم - يوم الجمعة - فخالفوا إلى السبت فعظموه، وتركوا ما أمروا به.

فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره. وكانوا في قرية بين أيلة والطور، يقال: لها: مدين ؛ فحرم الله عليهم في السبت الحيتان: صيدها وأكلها. وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعا إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهبن، فلم

يروا حوتا صغيرا ولا كبيرا. حتى إذا كان يوم السبت أتين شرعا، حتى إذا ذهب السبت ذهبن، فكانوا كذلك،

حتى إذا طال عليهم الأمد واشتاقوا إلى اكل الحيتان، عمد رجل منهم فأخذ حوتا سرا يوم السبت، فخزمه بخيط، ثم أرسله في الماء، وأوتد له وتدا في الساحل فأوثقه، ثم تركه. حتى إذا كان الغد جاء فأخذه،

ويحتج بقوله: إني لم آخذه في يوم السبت ثم انطلق به فأكله. حتى إذا كان يوم السبت الآخر، عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال: أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل. قال:ففعلوا كما فعل، وصنعوا سرا زمانا طويلا لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق.

فقال:ت طائفة منهم من أهل البقية الصالحة: ويحكم، اتقوا الله. ونهوهم عما يصنعون. فقال:ت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا: (لمتعالظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قال:وا معذرة إلى ربكم) لسخطنا أعمالهم (ولعلهم يتقون) [الأعراف: ١٦٤].

قال: ابن عباس: فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلم يرونهم قال:فقال: بعضهم لبعض: إن للناس لشأنا! فانظروا ما هو. فذهبوا ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلا فغلقوها على أنفسهم، كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة بعينها وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد. قال:يقول ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه أنجى الذين نهوا عن السوء لقلنا أهلك الجميع منهم، قال:وهي القرية التي قال: الله جل ثناؤه لمحمد صلى الله عليه وسلم: (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) الآية [الأعراف: ١٦٣]. وروى الضحاك عن ابن عباس نحوا من هذا.

قال: السدي في قوله تعالى: (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال:فهم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان

يوم السبت

وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئا - لم يبق في البحر حوت إلا خرج، [ص: ٢٩١] حتى يخرجن خراطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن مقل البحر، فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى: (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم [كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون]). فاشتهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة، ويجعل لها نهرا إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فيريد الحوت أن يخرج، فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره ريحه فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره، حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال: لهم علماؤهم: ويحكم! إنما تصطادون يوم السبت، وهو لا يحل لكم، فقالوا:

إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه. فقال: العلماء لا ولكنكم صدتموه يوم فتحكم الماء فدخل، قال:وغلبوا أن ينتهوا. فقال: بعض الذين نهوهم لبعض: (لمتعالبظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) يقول: لمتعالبظوهم، وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم؟ فقال: بعضهم: (معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) [الأعراف: ١٦٤] فلما أبوا قال: المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة. فقسموا القرية بجدار، ففتح المسلمون بابا والمعتدون في السبت بابا، ولعنهم داود، عليه السلام، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم، ولم يفتح الكفار بابهم، فلما أبطؤوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم، فذهبوا في الأرض، فذلك قول الله تعالى إلى: (فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) [الأعراف: ١٦٦] وذلك حين يقول: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) [المائدة: ٧٨]. فهم القردة.

معنى قوله تعالى: (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين)

الضمير عائد على القرية، أي: فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم) نكالا) أي: عاقبناهم عقوبة، فجعلناها. عبرة، كما قال: الله عن فرعون: (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) [النازعات: ٢٥].

وقوله: (لما بين يديها وما خلفها) أي من القرى. قال: ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى.

كما قال تعالى: (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) [الأحقاف: ٢٧]، ومنه قوله تعالى: (أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) الآية [الرعد: ٤١]، على أحد الأقوال، فالمراد: لما بين يديها وما خلفها في المكان، كما قال: محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى. وكذا قال: سعيد بن جبير (لما بين يديها وما خلفها) [قال:] من بحضرتها من الناس يومئذ.

وروي عن إسماعيل بن أبي خالد، وقتادة، وعطية العوفي: (فجعلناها نكالا لما بين يديها) [وما خلفها]) قال:ما [كان] قبلها من الماضين في شأن السبت.

وقال: أبو العالية والربيع وعطية: (وما خلفها) لما بقي بعدهم من الناس من بني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم.

وكان هؤلاء يقولون: المراد بما بين يديها وما خلفها في الزمان.

وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم؟ هذا لعل أحدا من الناس لا يقوله بعد تصوره، فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان، وهو ما حولها من القرى ؛ كما قال:ه ابن عباس وسعيد بن جبير، والله أعلم.

وقال: أبو جعفر الرازي، عن الربيع عن أبي العالية: (فجعلناها نكالا لما بين يديها) أي: عقوبة لما خلا من ذنوبهم.

وقال: ابن أبي حاتم وروي عن عكرمة، ومجاهد، والسدي، والحسن، وقتادة، والربيع بن أنس، نحو ذلك.

وحكى القرطبي، عن ابن عباس والسدي، والفراء، وابن عطية (لما بين يديها) بين ذنوب القوم (وما خلفها) لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب، وحكى فخر الدين ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من تقدمها من القرى، بما عندهم من العلم بخبرها، بالكتب المتقدمة ومن بعدها.

الثاني: المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم

والثالث: أنه جعلهاتعالى إلى عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده، قال:وهذا قول الحسن. قلت: وأرجح الأقوال أن المراد بما بين يديها وما خلفها: من بحضرتها من

القرى التي يبلغهم خبرها، وما حل بها، كما قال:(ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) [الأحقاف: ٢٧] وقال تعالى: (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم) [الرعد: ٣١]، وقال: (أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) [الأنبياء: ٤٤]، فجعلهم عبرة ونكالا لمن في زمانهم، وعبرة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عنهم، ولهذا قال:(وموعظة للمتقين)

وقوله تعالى: (وموعظة للمتقين) قال: محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس: (وموعظة للمتقين) الذين من بعدهم إلى يوم القيامة.

وقال: الحسن وقتادة: (وموعظة للمتقين) بعدهم، فيتقون نقمة الله، ويحذرونها.

وقال: السدي، وعطية العوفي: (وموعظة للمتقين) قال:أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

قلت: المراد بالموعظة هاهنا الزاجر، أي: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم

ما أصابهم، كما قال: الإمام أبو عبد الله بن بطة: حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو [عن أبي سلمة] عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل.

وهذا إسناد جيد، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح. والله أعلم.

كيفية إفساد اليهود لأيام السبت والاحتيال فيها

هذه القصة القصيرة التي يأمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحدى بها اليهود لكونها مكتوبة عندهم: { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ }.. { وَاسْأَلْهُمْ }.. كما أسلفنا، وهذه أهم صور الهيمنة القرآنية، ليثبت لهم سابقتهم في المعصية.

هذه القصة نجد لها عدة قرائن في كتب اليهود:

أول تلك القرائن نجدها في التوراة الحالية، إذ يخاطب الله بني إسرائيل فيقول:" احتقرت مقدساتي ونجست سبوتي" (حزقيال ٢٢:٨).

أما كيف نجست أيام السبت هذه؟ فلم يذكر هذا السفر ولا بقية أسفار الكتب القانونية (التوراة الحالية).

لكنا نجد قرائن أخرى لكيفية إفساد أيام السبت والاحتيال عليها في كتب الحَلَقاه (قصص اليهود القديمة) التلمودية (المذكورة في التلمود) وبعد التلمودية (١) (المكتوبة في زمن ما بعد التلمود) التي تنص على أنه من المسموح به نشر مصائد للوحوش والأسماك ليلة السبت لجمعها جمعًا طبيعيًّا يوم السبت.والطائفة الوحيدة التي حرمت نشر الشباك ليلة السبت هي طائفة اليهود القرائين في كتب الحَلَقاه عندهم. آخر تلك القرائن نجدها في بعض كتابات الربيين القدماء(٢) وفي الترجوم الأورشاليمي (الترجمة الآرامية القديمة للتوراة).

حيث يتنبأ يعقوب بعقوبة لأبناء إفرايم بن يوسف في أوقات لاحقة نتيجة إمساكهم السمك بأفواههم في سنوات بعد يعقوب، فيصيبهم لثغة ويواجهون نهايتهم مثل السمك(٣).

المعروف أن السمك لم يكن يومًا محرمًا عند اليهود، فلابد إذًا أن أكلة السمك المعنية كانت بشكل غير شرعي كما في حالة أصحاب السبت.

حتى ندعى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو مؤلف هذه القصة يجب علينا افتراض أنه اطلع على تلك الروايات التلمودية والترجومية والربانية فوجد خيطًا يجمع بينها، فجمع من هذه ما يتفق مع تلك ثم حذف القصة القائلة ببناء الإنسان برجًا يصل إلى السماء ثم يفكرون أن يعيشوا فيه لاستحالة ذلك عقلًا. ثم أضاف ذلك الحوار بين الناهين عن المنكر والساكتين عنه. ثم صاغ الرواية بإحكام بليغ أو أنه وجد مخطوطة لم نجدها نحن حتى الآن تذكر القصة كما رويت في القرآن فاقتبسها – ثم وضعها في موضعها المناسب في القرآن وتحدى بها اليهود!!!

وكما أسلفنا هذه القصة مثل جامع لهيمنة القرآن الكريم على كتب السابقين، فكأن القرآن اطلع على كل الكتب السابقة التي تكلمنا عنها في هذا الفصل – ففصل بين الكتب المختلفة وأظهر المخفي منها والنادر وصوبه وصححه ونقاه من التفاصيل الخرافية وعرض العرض المبهر، وتحدى بذكرها في كتبهم، أي أن هذا المثل فيه تقريبًا كل صور هيمنة القرآن الكريم على كتب السابقين.

كما أن فيما ذكرناه رد على من نافق اليهود من المسلمين واستنكر قولنا أبناء قردة وخنازير وقال:لماذا نقول ذلك ونحن نعلم أنه غير صحيح؟!!

أمر يُذكر في كتاب الله ونقول غير صحيح؟!

ها نحن قد تبين لنا – وإن كان كلام الله ليس في حاجة لدليل – أن هذه القصة صحيحة ومذكورة في ثنايا كتب اليهود.

سبب أمر موسى عليه السلام لقومه بذبح البقرة

(وَإِذْ قال: مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قال:وا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قال: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قال:وا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قال: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قال:وا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قال: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قال:وا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قال: إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قال:وا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تعالىقِلُونَ (٧٣)

وقال: أبو عبد الله: أعلم أن نزول قصة البقرة على موسى عليه السلام، في أمر القتيل قبل نزول القسامة في التوراة.

فما هى القسامة: وهي أيمان مكررة في دعوى قتل معصوم، من شروطها اللوث، وهو العداوة الظاهرة...) (فإن نكل الورثة أو كانوا نساء، حلف المدعى عليه خمسين يميناً، ويرى إن رضي الورثة، وإلا فدى الإمام القتيل من بيت المال كميت في زحمة جمعة وطواف)

قال: في" الإفصاح" :" واتفقوا على أن القسامة مشروعة في القتيل إذا وجد، ولم يعلم قاتله بسط القصة] - كما قال: ابن أبي حاتم -:

حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلماني، قال:كان رجل من بني إسرائيل عقيما لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا، وركب بعضهم إلى بعض، فقال: ذوو الرأي منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى، عليه السلام، فذكروا ذلك له،

شددوا فشدد الله سبحانه عليهم

فقال:(إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قال:وا أتتخذنا هزوا قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) قال:فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال:والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا، فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها، فضربوه ببعضها فقام فقالوا: من قتلك؟ فقال:هذا، لابن أخيه. ثم مال ميتا، فلم يعط من ماله شيئا، فلم يورث قاتل بعد.

ورواه آدم بن أبي إياس في تفسيره، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن هشام بن حسان، . وقال: آدم بن أبي إياس في تفسيره: أنبأنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية، في قول الله تعالى إلى: (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال:كان رجل من بني إسرائيل، وكان غنيا، ولم يكن له ولد، وكان له قريب وكان وارثه، فقتله ليرثه، ثم ألقاه على مجمع الطريق، وأتى موسى، عليه السلام، فقال: له: إن قريبي قتل وإني إلى أمر عظيم، وإني لا أجد أحدا يبين [لي] من قتله غيرك يا نبي الله. قال:فنادى موسى في الناس، فقال:أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا بينه لنا، [قال:]: فلم يكن عندهم علم، فأقبل القاتل على موسى عليه السلام، فقال: له: أنت نبي الله فاسأل لنا ربك أن يبين لنا، فسأل ربه فأوحى الله إليه: (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فعجبوا من ذلك،

فقالوا: (أتتخذنا هزوا قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين قال:وا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال: إنه يقول إنها بقرة لا فارض) يعني: لا هرمة (ولا بكر) يعني: ولا صغيرة (عوان بين ذلك) أي: نصف بين البكر والهرمة

(قال:وا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال: إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها) أي: صاف لونها (تسر الناظرين) أي:تعالىجب الناظرين (قال:وا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون قال: إنه يقول إنها بقرة لا ذلول) أي: لم يذللها العمل (تثير الأرض) يعني: وليست بذلول تثير الأرض (ولا تسقي الحرث) يقول: ولاتعالىمل في الحرث (مسلمة) يعني: مسلمة من العيوب (لا شية فيها) يقول: لا بياض فيها

(قال:وا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون) قال:ولو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها، لكانت إياها، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا: (وإنا إن شاء الله لمهتدون) لما هدوا إليها أبدا. فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التي نعتت لهم إلا عند عجوز عندها يتامى، وهي القيمة عليهم، فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرها، أضعفت عليهم الثمن. فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة، وأنها سألتهم أضعاف ثمنها. فقال: لهم موسى: إن الله قد كان خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها. ففعلوا، واشتروها فذبحوها، فأمرهم موسى، عليه السلام، أن يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل، ففعلوا، فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتا كما كان، فأخذ قاتله - وهو الذي كان أتى موسى فشكا إليه [مقتله] - فقتله الله على أسوأ عمله.

طريقة عرض قصة البقرة في كتب أهل الكتاب

بعدما استعرضنا تاؤيل القصة من خلال نظرة علماء الاسلام راينا ان نستعرضها من خلال كتب اهل الكتاب لا لشي الا ان نرد على افتراءات اهل الكتاب فسنعرض اراءهم اولا: ثم نقوم بالنعليق عليها

هذه القصة القرآنية القصيرة جدًّا لها خمس قرائن في خمسة كتب مختلفة من كتب أهل الكتاب (التلمود البابلي، كتاب القدوسين – المشنا ١:٢ PAR– التكوين ٩:١٥ – العدد ١٩:١-١٠- التثنية ٢١:١ – ٧).

الكتب الثلاثة الأخيرة موجودة في الكتاب المقدس، وبقية الكتب كتب نادرة جدًّا وفي حكم المخفية.

تكلم سفر التكوين المشنا عن عمر هذه البقرة

تكلم سفر العدد والتلمود عن لون البقرة

وقد روى التلمود قصة" داما" الذي رفض شراء مجوهرات بسعر زهيد (لأن مفاتيح ماله كانت تحت رأس أبيه النائم ؛ حتى لا يوقظه) فكافأه الله بعجلة حمراء في قطيعه.

لابد أن تكون هذه البقرة الصفراء لها مواصفات غير عادية ؛ لأنها مكافأة من الله على عمل جليل. وهذا يتفق مع بعض الأحاديث النبوية التي روت أن بقرة" داما" هذا هي صاحبة القصة وأنه قد باعها بأضعاف وزنها ذهبًا، بذلك كافأه الله على بره لوالده. لكن الحق أن هذه الأحاديث لا ترقى للصحة.

وقد قال: الله في نهاية القصة: { فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ } ؛ فمن الممكن أن يكون المقصود أنهم ما كادوا يذبحونها لثمنها، لكننا لا يمكن أن نجزم بذلك لذا لا نصدق ولا نكذب.

أما رواية سفر العدد فتتكلم عن" ذبيحة خطيئة"

وقال: الرب لموسى وهارون: هذه هي متطلبات الشريعة التي أمر بها: قل لنبي إسرائيل أن يأتوك ببقرة صفراء، سليمة، خالية من كل عيب، لم يعلها نير، فتعطونها لأليعازر الكاهن ليأخذها إلى خارج المخيم وتذبح أمامه، ويغمس الكاهن إصبعه بدمها ويرش منه نحو وجه خيمة الاجتماع سبع مرات !!! وتحرق البقرة بجلدها ولحمها ودمها وفرثها على مشهد منه، ثم يأخذ خشب أرز وزوفا، وخيطًا أحمر، ويطرحها في وسط النيران. ثم يغسل الكاهن ثيابه ويستحم بماء، وبعد ذلك يدخل المخيم، ويظل الكاهن نجسًا حتى المساء !!! ويجمع رجل طاهر دماء البقرة ويلقيها خارج المخيم في موضع ظاهر، فيظل محفوظًا لجماعة إسرائيل لاستخدامه في ماء التطهير. إنها ذبيحة خطيئة. وعلى من جمع رماد البقرة أن يغسل ثيابه ويظل نجسًا إلى المساء.." (سفر العدد ١٩:١ – ١٠).

مواضع الاتفاق بين هذه الرواية والرواية القرآنية ظاهر في أول الفقرة.. قل لبني إسرائيل.. بقرة حمراء (هذا قريب من الأصفر الفاقع) – سليمة

.. خالية من كل عيب.. تذبح أمامه. أما بقية الرواية فتختلف تمامًا ؛

فالقصة القرآنية تتكلم عن بقرة تذبح ليضرب بجزء منها { بِبَعْضِهَا } قتيل فيدل على قاتله المختلف فيه. أما سفر العدد فيتكلم عن ذبيحة خطيئة لا معنى لها، مع وجوب رش الدم سبع مرات وبقاء الكاهن نجسًا حتى المساء، كذلك من يجمع رماد البقرة التي تذبح بجلدها ولحمها ودمها وفرثها !! هذه التفاصيل الأخيرة لا نجدها أبدًا في الرواية القرآنية.

* وأما رواية سفر التثنية فتتكلم عن ذبيحة القاتل المجهول:" إذا وجدتم قتيلًا ملقى في الحقل في الأرض التي يهبها الرب إلهكم لكم لامتلاكها، ولم يعرف قاتله، يقوم شيوخكم وقضاتكم بقياس المسافات الواقعة بين موضع جثة القتيل والمدن والمجاورة، فيحضر شيوخ أقرب مدينة إلى الجثة، عجلة لم يوضع عليها محراث، ولم تجر بنير، ويأخذونها إلى وادٍ فيه ماء دائم الجريان لم يحرث فيه ولم يزرع، فيكسرون عنق العجلة في الوادي. ثم يتقدم الكهنة بنو لاوى ؛ لأن الرب إلهكم قد اختارهم لخدمته، ولإعلان البركة باسم الرب، وللقضاء في كل خصومة وكل ضربة، فيغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبة من الجثة أيديهم فوق العجلة المكسورة العنق في الوادي. ويقولون: أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تشهده.." (سفر التثنية ٢١: ١-٧).

التشابه بين هذه الرواية والقصة القرآنية واضح ففي الحالتين قتيل لم يعرف قاتله، وكذلك ذبح بقرة (أو عجلة) { لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ } – وإن كانت بقية صفات تلك البقرة في القرآن نجدها في رواية سفر العدد – ... مع ذلك هذه الرواية تختلف مع الرواية القرآنية في أنها لا توضح لنا العلاقة بين القتيل والبقرة !!.

على العكس من القصة القرآنية التي جعلته من ذبح البقرة سببًا لإحياء القتيل ليدل على قاتله.

شبهة وجوابها: تشابه القصة القرآنية مع غيرها في صفة البقرة بكونها سليمة، خالية من كل عيب

اولا: هل يعقل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم – كما يدعي أعداء الإسلام بقولهم معلّم مجنون – قد اطلع على كل الروايات اليهودية المذكورة آنفًا. بل – واستمرارا لهذه الفرضية المستحيلة – استنتج هذه القصة المشتتة تماما عند اليهود في مصادر عديدة، بعد أن وجد عوامل مشتركة بينها !!.

ثانيا: لابد أن يكون صلى الله عليه وسلم قد استبعد التفاصيل غير المنطقية التيتعالج بها الروايات اليهودية وتخلو منها القصة القرآنية. بل وأضاف إليها الإضافات اللازمة علاوة على عرضها بشكل بياني أو أنه فعل شيئًا غير ذلك كله، أنه وجد أو اطلع على مخطوطة لم نجدها نحن حتى الآن ثم وضعها في مكانها المناسب في القرآن الكريم حيثتعالعرض سيرة بني إسرائيل أيام

موسى إن هذا هو المستحيل بعينه، ولو كان هناك مستحيل واحد في التاريخ االبشري لكان افتراض افتراء الفرآن هذا

ثالثا: وهل كان اليهود المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم يتركونه يقتبس من كتبهم عيانا دون ان يبينوا ذلك للعالم المعاصر له فكان ذلك ايسر. عليهم من إزهاق الارواح والحروب والتناحر

رابعا: سبحان الله رغم ان القصة قريبة الا انها ركيكه فى أسلوبها مختلفة فى مضمونها وغايتها مما يجعل القران حقا يعلوا ولا يعلى عليه

خامسا: ونستخلص من هذه الرواية ان علماء اليهود واخبارهم غيروا وبدلوا فى كتبهم وهذا نموذج للتحريفات التى اخبر عنها القران الكريم

سادسا: كما تدل هذه القصة انهم فعلا اضاعوا التوراة الحقيقية وهذا مما علق شفهيا باذهانهم فحاولوا ستر عوراهم بان يكذبوا القران الكريم

ولكن هيهات فهذا من هيمنة القرآن على كتب أهل الكتاب بشتى الصور من اطلاع على المخفي وكشفه إلى الفصل بين الكتب إلى تصحيح مقاصد القصص.

تفسير قوله تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىمَلُونَ (٧٤)

اعلم أن قوله تعالى: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) فيه مسائل:

المسألة الأولى:من المعلوم ان القلب من شأنه أن يتأثر عن مطالعة الدلائل والآيات والعبر، وتأثره عبارة عن ترك التمرد والعتو والاستكبار وإظهار الطاعة والخضوع لله والخوف من الله تعالى إلى،

فإذا عرض للقلب عارض أخرجه عن هذه الصفة صار في عدم التأثر شبيها بالحجر فيقال:قسا القلب وغلظ، ولذلك كأن الله تعالى إلى وصف المؤمنين بالرقة فقال:(كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) [الزمر: ٢٣].

المسألة الثانية: قال: القفال: يجوز أن يكون المخاطبون بقوله: (قلوبكم) أهل الكتاب الذين كانوا في زمان محمد صلى الله عليه وسلم، أي اشتدت قلوبكم وقست وصلبت من بعد البينات التي جاءت أوائلكم والأمور التي جرت عليهم والعقاب الذي نزل بمن أصر على المعصية منهم

والآيات التي جاءهم بها أنبياؤهم والمواثيق التي أخذوها على أنفسهم وعلى كل من دان بالتوراة ممن سواهم، فأخبر بذلك عن طغيانهم وجفائهم مع ما عندهم من العلم بآيات الله التي تلين عندها القلوب، وهذا أولى لأن قوله تعالى: (ثم قست قلوبكم) خطاب مشافهة، فحمله على الحاضرين أولى، ويحتمل أيضا أن يكون المراد أولئك اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام خصوصا، ويجوز أن يريد من قبلهم من سلفهم.

المسألة الثالثة: قوله تعالى: (من بعد ذلك) يحتمل أن يكون المراد من بعد ما أظهره الله تعالى إلى من إحياء ذلك القتيل عند ضربه ببعض البقرة المذبوحة حتى عين القاتل، فإنه روي أن ذلك القتيل لما عين القاتل نسبه القاتل إلى الكذب وما ترك الإنكار، بل طلب الفتنة وساعده عليه جمع،

فعندها قال تعالى: واصفا لهم: إنهم بعد ظهور مثل هذه الآية قست قلوبهم، أي صارت قلوبهم بعد ظهور مثل هذه الآية في القسوة كالحجارة ويحتمل أن يكون قوله: (من بعد ذلك) إشارة إلى جميع ما عدد الله سبحانه من النعم العظيمة والآيات الباهرة التي أظهرها على يد موسى عليه السلام، فإن أولئك اليهود بعد أن كثرت مشاهدتهم لها ما خلوا من العناد والاعتراض على موسى عليه السلام

ولذلك فان من المنطق أن تأتى الآيات بعد ذلك كما انزلها الحق سبحانه وتعالوهى قوله جل وعلا

تفسير قوله تعالى: (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ)

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦)

قوله تعالى إلى (أفتطمعون) أي أفترجون؟ يريد سبحانه محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه أي بعد ما رأيتم وعلمتم كم النعم التى انعمت بها على بنى اسرائيل ومع هذا ترونهم وقد قست قلوبهم وجاحدين لفضل الله ونعمه عليهم ابعد كل هذا تطمعون (أن يؤمنوا لكم) أي ان تصدقكم اليهود بما تخبرونهم به

تحريف البشارات

(وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) يعني التوراة (ثم يحرفونه) يغيرون ما فيها من الأحكام (من بعد ما عقلوه) علموه

كما غيروا صفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم (وهم يعلمون) أى يعلمون انهم كاذبون

لانهم هم الذين غيروا وبدلوا، هذا قول مجاهد وقتادة وعكرمة والسدي وجماعة

وهذه الصفة متأصلة فيهم وهى تحريف الكلام وبخاصة اذا كان الامر يتعلق بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم واليكم نموذجا من هذا التحريف

فقال:وا فى سفر التثنية،

-: «جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ،

وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ." (تث ٣٣: ٢).

حين تقرا هذا النص تجد انه يجمع النبوات الثلاث نبوة موسي عليه السلام واشار اليها، وجاء الرب من سيناء كناية عن جبل الطور الذى تنزلت عليه التوراة ونبوة عيسي- عليه السلام واشار اليها، واشرق لهم من سعير وهى سلاسل جبال بفلسطين تشير إلى ميلاد المسيح عليه السلام ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم. واشار اليها

وتلالا من جبال فاران وهى بمكة حيث غار حراء الذى شهد اول نور القران

فالنبوات كما ترى واضحة وهى تشبه عندنا قول الله تعالى إلى والتين والزيتون، وطور سينين، وهذا البلد الامين . فالتين والزيتون اشارة للمكان الذى ولد فيه المسيح عليه السلام،

وطور سينين اشارة لسيدنا موسي عليه السلام

وهذا البلد الامين مكة المكرمة اشارة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

فالبشارة واضحة ولكنهم ليلبسوا الامر على الناس

قال:وا واتى من ربوات القدس وهذه العبارة تصرف نظر الناس عن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث ان الجميع يعلم انه بعث من مكة وليس من القدس

ولكن بعد البحث وبفضل الله تبين لنا تحريفهم وكذبهم وتغييرهم للنص الاصلى ليصرفوا الناس عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم

واليكم النص الإنجليزي

King James Version

٣٣:٢ And he said, The LORD came from Sinai, and rose up from Seir unto them; he shined forth from mount Paran, and he came with ten thousands of saints: from his right hand went a fiery law for them.

بقراءة النص تجده متوافق مع النص العربي فى الجزء الاول

ولكن فى الجزء الثاني نجد ان النص العربي محرف تماما

حيث النص الإنجليزي يقول بان النبي الذى بعث من فاران وهى سلاسل جبال بمكة، جاء ومعه عشرات الالاف من القديسين واعطاهم نور الشريعة

وهذا فعلا صحيح حيث حج مع النبي صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع عشرات الالاف من الصحابة الاطهار وخطب فيهم خطبة الوداع

ولكنهم عند الترجمة قال:وا واتى من ربوات القدس حقا صدق الله حين قال: عنهم، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه،

(وإذا لقوا الذين آمنوا) قال: ابن عباس والحسن وقتادة: يعني منافقي اليهود الذين آمنوا بألسنتهم إذا لقوا المؤمنين المخلصين (قال:وا آمنا) كإيمانكم (وإذا خلا) رجع (بعضهم إلى بعض) - كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهودا وغيرهم من رؤساء اليهود - (قال:وا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) بما قص الله عليكم في كتابكم: أن محمدا صلى الله عليه وسلم حق وقوله صدق.

وقال: أبو عبيدة: بما من الله عليكم وأعطاكم (ليحاجوكم به) ليخاصموكم، يعني أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويحتجوا بقولكم (عليكم) فيقولوا: قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم ثم لا تتبعونه!! وذلك أنهم قال:وا لأهل المدينة حين شاوروهم في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم: آمنوا به فإنه حق ثم قال: بعضهم لبعض: أتحدثونهم بما أنزل الله عليكم لتكون لهم الحجة عليكم (عند ربكم) في الدنيا والآخرة وقيل: إنهم أخبروا المؤمنين بما عذبهم اللهبه، على الجنايات فقال: بعضهم لبعض: [أتحدثونهم بما أنزل الله عليكم من العذاب ليحاجوكم به عند ربكم، ليروا الكرامة

لأنفسهم عليكم عند الله

اولا: يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

قال: أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: (اولا: يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون)، اولا: يعلم -

هؤلاء اللائمون من اليهود إخوانهم من أهل ملتهم، على كونهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وعلى إخبارهم المؤمنين بما في كتبهم من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه،

القائلون لهم: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم - أن الله عالم بما يسرون، فيخفونه عن المؤمنين في خلائهم من كفرهم،

وتلاومهم بينهم على إظهارهم ما أظهروا لرسول الله وللمؤمنين به من الإقرار بمحمد صلى الله عليه وسلم، وعلى قيلهم لهم: آمنا، ونهي بعضهم بعضا أن يخبروا المؤمنين بما فتح الله للمؤمنين عليهم، وقضى لهم عليهم في كتبهم، من حقيقة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه وما يعلنون، فيظهرونه لمحمد صلى الله عليه وسلم ولأصحابه المؤمنين به إذا لقوهم، من قيلهم لهم: آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، نفاقا وخداعا لله ولرسوله وللمؤمنين

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)

يقول تعالى: (ومنهم أميون) أي: ومن أهل الكتاب، قال:ه مجاهد: والأميون جمع أمي، وهو: الرجل الذي لا يحسن الكتابة، قال:ه أبو العالية، والربيع، وقتادة، وإبراهيم النخعي، وغير واحد وهو ظاهر في قوله تعالى: (لا يعلمون الكتاب) [إلا أماني]) أي: لا يدرون ما فيه.

ولهذا في صفات النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمي ؛ لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) [العنكبوت: ٤٨] وقال: عليه الصلاة والسلام:" إنا أمة أمية، وقال تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) [الجمعة: ٢].

وقال: ابن جرير: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه دون أبيه، قال::فالأمي عند العرب: الذي لا يكتب.

قوله تعالى: (إلا أماني) قال: ابن أبي طلحة عن ابن عباس: (إلا أماني) إلا أحاديث.

وقال: الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: (إلا أماني) يقول: إلا قولا يقولونه بأفواههم كذبا. وقال: مجاهد: إلا كذبا. وقال: سنيد، عن حجاج، عن ابن جريج عن مجاهد: (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني) قال:أناس من يهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئا، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله، ويقولون: هو من الكتاب، أماني يتمنونها. وعن الحسن- البصري، نحوه.

قال: ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس، وقال: مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله أنهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزل الله على موسى شيئا، ولكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذبا وزورا. والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه. ومنه الخبر المروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه:" ما تغنيت ولا تمنيت" . يعني ما تخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب.

وقال: محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون) ولا يدرون ما فيه، وهم يجحدون نبوتك بالظن.

وقال: مجاهد: (وإن هم إلا يظنون) يكذبون.

وقال: قتادة: وأبو العالية، والربيع: يظنون الظنون بغير الحق.

وهنا لفته وسؤال هام

من هم الذين يتمنى رسول الله واصحابه لهم الايمان ولماذا؟

لكى نقرب المسالة، هناك طائفتان على عهد رسول الله صلى الله عليه و سلم يمثلان ثقلا واهمية كبرى لانهم لهم ما وراءهم فان امنوا مبكرا كان خيرا لهم وللدنيا كلها وحقنوا دماء الناس ودخل الناس فى دين الله افواجا وكان الفتح وانكشف الغطاء

ولكنهم نكصوا على اعقابهم والمشكلة انهم لم يؤمنوا فقط بل كانوا يحرضون غيرهم على عدم الايمان منا زاد من الضغط والجهد على المسلمين

الطائفة الاولى

كانت قريش فى مكة وهى ان قريش كانت وصلت لمكانة من السيادة والزعامة فى الجزيرة كلها جعلت كلمتها هى العليا واصبحت محل واهتمام نظر الجويرة كلها وتعززت هذه المكانة بعد حادثة الفيل واهلك الله أبرهة ومن معه وحمى بيته الحرام

فأصبحت الجزيرة تنظر بعين الاكبار والاجلال لقريش وبخاصة البيت الخرام فانه فى نظر الجزيرة من يسيطر على البيت الحرام فمن المؤكد فى نظرهم انه مؤيد من السماء

ولذلك لو أمنت قريش لأمنت الجزيرة معها دون نقاش ودون قتال وتم حقن الدماء وهذا ماكان يتمناه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه فى الاصل انما ارسل رحمة للعالمين فان امن الناس عصموا دماءهم

ولكن للأسف كانت قريش بقصد وبدون قصد تحول بين الجزيرة وبين الايمان بالله ورسوله والدخول فى الاسلام

مما كلفت المسلمين الاوائل فوق طاقتهم فلولا ان الله ثبتهم لكان امرا اخر

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسارع إلى دار الندوة ان ارسلوا اليه ليفاوضوه ظنا منه صلى الله عليه وسلم انهم بدا لهم فى الاسلام رأى جديد وانهم سيسلمون ولكن للأسف كل مرة كانوا يخيبون امل المسلمين بل ويزدادون عتوا وغيا

وسبحان الله

لما امنوا بعد الفتح الاعظم سرعان ما تبعتهم الجزيرة بدليل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة بعشرة الاف مقاتل بينما حج بعدها بعامين ومعه مائة واربعة واربعون الفا حاج

كل هذا العدد انما اسلم فى عامين فقط لانهم علموا بإسلام مكة وراوا النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو يملك امر مكة بما فيها البيت الحرام

لذلك كان يطمع النبي صلى الله عليه وسلم فى ايمانهم المبكر لعلمه بان ايمان قريش له ماوراءه من اختصار الزمن وحقن الدماء والتفرغ فى الدعوة فى خارج الجزيرة

لانه كان الفارق سيكون كبيرا لو تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه فتح بلاد فارس والشام

فكذلك كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يطمع فى اسلام يهود المدينة فهم امام الناس يمثلون اتباع موسي عليه السلام ومعهم التوراة وفيها بشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم

فإيمانهم له ما وراءه سيجعل الجميع يصدقون رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يخبرهم بانه مذكور فى كتبهم وبالتالي لن يكن فى المدينة منافقين وستصبح المدينة خالية مما

يكدر صفوا المسلمين او يؤلب عليهم ولسارعت القبائل حول المدينة بإعلان اسلامها ولتفرغ النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة خارج الجزيرة ولكن عنادهم وكفرهم وكذبهم اطال المدة وجعلها شاقة على المسلمين وللأسف لم ينتهى الامر الا اما بقتلهم جزاء وفاقا لما حاكوه للمسلمين من مؤامرات واما نفيا خارج المدينة

فالله تعالى إلى لانه اعلم بحقيقة اليهود قال: لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم افتطمعون ان يؤمنوا لكم، فهم قد فعلوا مع موسي عليه السلام رغم المعجزات والانجازات مالا يليق ببشر عادين لدرجة ان موسي عليه السلام قال: لهم فى سفر التثنية اصحاح ٣١

٢٧ لأَنِّي أَنَا عَارِفٌ تَمَرُّدَكُمْ وَرِقَابَكُمُ الصُّلْبَةَ. هُوَذَا وَأَنَا بَعْدُ حَيٌّ مَعَكُمُ الْيَوْمَ، قَدْ صِرْتُمْ تُقَاوِمُونَ الرَّبَّ، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ بَعْدَ مَوْتِي

٢٩ لأَنِّي عَارِفٌ أَنَّكُمْ بَعْدَ مَوْتِي تَفْسِدُونَ وَتَزِيغُونَ عَنِ الطَّرِيقِ الَّذِي أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ، وَيُصِيبُكُمُ الشَّرُّ فِي آخِرِ الأَيَّامِ لأَنَّكُمْتعالسَعَلُونَ الشَّرَّ أَمَامَ الرَّبِّ حَتَّى تُغِيظُوهُ بِأَعْمَالِ أَيْدِيكُمْ».

والعجيب ان اليهود والنصارى كانوا ومازالوا يتبنون فكرة الشعب المختار، فكل من الطائفتين تَدّعي أنّها أسْمَى بني البشر. وقد نقل القرآن الكريم هذه الفكرة الغريبة عن كلتا الطائفتين بقوله:تعالى (وَقَالَ:تِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ...)(المائدة:١٨).

تفسير قوله تعالى: (فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

تفنيدٌ لهذا الزَّعم، وَيدُلُّ على أنّهم وغيرهم عند الله سواسية، فهو سبحانه يثيب المطيع، ويعذب العاصي.

وقد بلغت أنانية اليهود واستعلاؤهم الزائف حداً، تفوهوا بما يحكيه سبحانه عنهم بقوله: (وَقال:وا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً)(البقرة:٨٠).

والقرآن يُفَنِّد هذا الزعم، بشكل الاستفهام الإنكاري، ويقول: (قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَتعالىلَمُونَ)(البقرة:٨٠).

وهذا الرد من الله تعالى إلى اروع وافضل رد لماذا لانه سبحانه لم يطلب منهم مثلا دليلا على انهم لن تمسهم النار الا اياما معدودة

ساعتها كان من الممكن ان يدخلوا فى نظام السفسطة كلام لا طائل من وراءه ولكن تكون فتحت لهم باب يظنون انه يبرروا فيه اقوالهم اما قول الله تعالى إلى افتخذتم عند الله عهدا كما يقال:. قصف جبهه مرة واحدة، افحام فى الرد ان كان لديكم عهد وميثاق اظهروه والا فانتم كاذبون فى ادعاءكم

فهكذا، نستكشف من خلال هذه المزاعم وردودها أنّ اليهود كانوا ولا يزالون يَعُدُّون أَنْفُسَهُم صفوة البشرية، ونخبة الشعوب. وكانوا يحاولون بِمثل هذه المزاعم، فَرْضَ كَيانهم على العالَم، كأرفع نوع بشريٍّ انتخَبَهُ الله من بين سائر البشر، حتى كأنّهم أبناءُ الله المُدَلَّلون.

هل الانتساب اسماً إلى شريعة موسى أو المسيح، وسيلة النجاة

وكانت الطائفتان (اليهود والنصارى)، تزعمان أنّ الانتساب اسماً إلى شريعة موسى أو المسيح، وسيلة النجاة. كما كان اليهود بالخصوص يزعمون أنّ الانتساب إلى" إسرائيل" ، ينقذ من عذاب الله سبحانه؛ ولأجل ذلك قالوا: (لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارى)(البقرة:١١١).

ومعنى هذا القول، أنّ بإمكان الانتساب إلى" إسرائيل" ، أو كون الإنسان يهوديّاً أو نصرانياً بالاسم، أن يجعل الإنسان سعيداً، مالكاً لمفاتيح الجنة. ويردّ القرآن عليهم، بأنّ الوسيلةَ الوحيدة لامتلاك الجنة، ليس هو" الانتساب" ، ولا التجنّ" بالتسمية" ، بل هو الإيمان الصادق والعمل الصالح، يقول تعالى: (تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)(البقرة:١١١ ـ ١١٢).

فقوله: (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ)، يعني الإيمان الخالص، والتسليم الصادق لله.

وقوله: (وَهُوَ مُحْسِنٌ)، يعني العمل بالشريعة الّتي يؤمن الفرد بها.

وكلتا الجملتين تدلان على أنّ السبيل الوحيد إلى النجاة في يوم القيامة هو الإيمان والعمل، لا إسم اليهودية أو النصرانية، ولا الانتساب إلى بيت النبوّة، فليست المسألة أسماء، ولا

مسألة انتساب، وإنّما هي مسألة إيمان صادق، وعمل صالح. ايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر والقدر ثم يكلل هذا الايمان بعمل صالح نافع له وللبشرية

هل الهداية الحقيقية، في اعتناق اليهودية أو النصرانية

لقد كان لهاتين الطائفتين ادّعاء ثالث، هو أنّ الهداية الحقيقية، في اعتناق اليهودية أو النصرانية، كما يحكيه عنهم القرآن بقوله: (وَقالوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارى تَهْتَدُوا)(البقرة:١٣٥).

والقرآن يردّ عليهم هذا الزعم الواهي بقوله: (بَلْ ملَّةَ إبراهيم حَنيفاً وما كان مِنَ المُشرْكين)(البقرة:١٣٥). مشيراً إلى أنّ الهداية الحقيقية، هي في الأخذ بملة إبراهيم، واعتناق مذهبه في التوحيد الخالص من كل شائبة. فإذا عَمَّتْها الهداية، فإنّما هو لأخذهم بالحنفية. لا لاعتناق اليهودية والمسيحية، فلا أصالة لهما، إلا إذا كانتا مشتملتين على جوهر التوحيد

شبهة: هل كان إبراهيم عليه السلام يهودياً أو نصرانياً

وقد بلغت جسارة الطائفتين إلى حدّ أنّهم حاولوا إضفاء طابع اليهودية والمسيحية على إبراهيم، ليحصلوا بذلك على دعم جديد لمعتقداتهما، ويضفوا الشرعية على مسلكيهما. ولكن القرآن عاد إلى تفنيد هذه المزعمة الثالثة، كما فند المتقدّمتين، بقوله: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)(آل عمران:٦٧).

فهذه المقدمات، تثبت أنّ اليهود والنّصارى كانوا يتبنون هذه الأفكار الواهية

فجاء القرآن يُفَنِّد كلَّ واحدة من هذه المزاعم، مستقلاً، بعد نقلها، بالآيات الّتي عرفت. ثم يفندها جميعها بصورة إجمالية، بالآية الّتي وقعت ذريعةً لمنكري عالمية الرسالة،

وهدف الآية أنّ فكرة الشعب المختار، أو كون النجاة رهن الانتساب والتسمية، أو اختصاص الهداية بإحدى الطائفتين، أمر باطلٌ لا أساس له، فإنّ النجاة والجنة يَعُمّان جميع البشر وجميع الطوائف، إذا كانوا مؤمنين بالله واليوم الآخر، وعاملين بالصالحات، من غير فرق بين إنسان وإنسان، وشعب وآخر، فلا استعلاء ولا تفوق لطائفة على غيرها، ولا الانتساب والتسمية ينجيان أحداً في العالم، ولا الهداية رهن اعتناق أحد المذهبين، وإنّما النجاح والفوز والصلاح في الإيمان والعمل الصالح. وهذا الباب مفتوح في وجه كل إنسان، يهودياً كان أو نصرانياً أو صابئياً.

شبهة: إقرار الإسلام لشرعية الشرائع السابقة يدل على صحتها

فالآية بصدد تفنيد هذه المزاعم، وأمّا الاعتراف بإقرار الإسلام لشرعية الشرائع السابقة، بعد ظهوره فليس لها دلالة على ذلك ولا إشعار، انما هو اعتراف من الاسلام بمن كان قبله من الرسل

وممّا يوضح المراد من هذه الآية، قوله: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ)(المائدة:٦٥). فتصرّح الآية بانفتاح أبواب الجنة في وجه البشر، من غير انحصار بجماعة دون جماعة، حتى أنّ أهل الكتاب لو آمنوا بما آمن به المسلمون، لقبلنا إيمانهم، وكفرنا عنهم سيئاتهم. ومثله قوله سبحانه في سورة العصر: (وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْر * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)(العصر).

وإذا أردت أن تصوغ الجواب في أُسلوب منطقي، فقل: إنّ الحصر في الآية، حَصْرٌ نِسبيٌ إضافيٌ بمعنى أنّ المؤثر في النجاة من النار، والفوز بالجنة، إنّما هو الإيمان والعمل الصالح،

وبعبارة أُخرى: إنّ الآية ساكتة عن بيان ما هو حقيقة الإيمان بالله وما هو شرطه، وما هو المقصود من العمل الصالح، وكيف يتقبل، وإنّما يطلب ذلك من سائر الآيات الاخر فى القران الكريم فهو يكمل بعضه بعضا

وقد دلّت الآيات القرآنية على أنّ الإيمان بالله لا ينفك عن الإيمانِ بأنبيائه، والإيمان بأنبيائه، لا ينفك عن الإيمانِ بنبيه الخاتم، قال: سبحانه: (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاق)(البقرة:١٣٧).

كيف وقد عَدّت الآيات القرآنية الإيمانَ بالرسول مُقَوِّماً لحقيقة الإيمان، فقال:ت: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ)(النور:٦٢).

وقوله: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) الآية: هؤلاء صنف آخر من اليهود، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله، وأكل أموال الناس بالباطل.

والويل: الهلاك والدمار، وهي كلمة مشهورة في اللغة. وقال: سفيان الثوري، عن زياد بن فياض: سمعت أبا عياض يقول: ويل: صديد في أصل جهنم.

وقال: عطاء بن يسار. الويل: واد في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت.

وقوله تعالى: (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) أي: فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان، والافتراء، وويل لهم مما أكلوا به من السحت، كما قال: الضحاك عن ابن عباس: (فويل لهم) يقول: فالعذاب عليهم، من الذي كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب، (وويل لهم مما يكسبون) يقول: مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون الفاء للترتيب والتسبب فيكون ما بعدها مترتبا على ما قبلها والظاهر أن ما بعدها مترتب على قوله وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون الدال على وقوع تحريف منهم عن عمد فرتب عليه الإخبار باستحقاقهم سوء الحالة

ومعنى يكتبون الكتاب بأيديهم أنهم يكتبون شيئا لم يأتهم من رسلهم بل يضعونه ويبتكرونه كما دل عليه قوله ثم يقولون هذا من عند الله المشعر بأن ذلك قولهم بأفواههم ليس مطابقا لما في نفس الأمر.

فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون تفصيل لجنس الويل إلى ويلين وهما ما يحصل لهم من الشر لأجل ما وضعوه وما يحصل لهم لأجل ما اكتسبوه من جراء ذلك فهو جزاء بالشر على الوسيلة وعلى المقصد وليس في الآية ثلاث ويلات كما قد توهم ذلك.

وكأن هذه الآية تشير إلى ما كان في بني إسرائيل من تلاشي التوراة بعد تخريب بيت المقدس في زمن بختنصر ثم في زمن طيطس القائد الروماني.

توراة موسى عليه السلام وتابوت العهد

وذلك أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام قد أمر بوضعها في تابوت العهد حسبما ذلك مذكور في سفر التثنية٢٤

فَعِنْدَمَا كَمَّلَ مُوسَى كِتَابَةَ كَلِمَاتِ هذِهِ التَّوْرَاةِ فِي كِتَابٍ إلى تَمَامِهَا،

٢٥

أَمَرَ مُوسَى اللاَّوِيِّينَ حَامِلِي تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ قَائِلًا:

٢٦

«خُذُوا كِتَابَ التَّوْرَاةِ هذَا وَضَعُوهُ بِجَانِبِ تَابُوتِ عَهْدِ الرَّبِّ إِلهِكُمْ، لِيَكُونَ هُنَاكَ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ.

وكان هذا التابوت قد وضعه موسى في خيمة الاجتماع ثم وضعه سليمان في الهيكل فلما غزاهم بختنصر سنة ٥٨٨ قبل المسيح أحرق الهيكل والمدينة كلها بالنار وأخذ معظم اليهود فباعهم عبيدا في بلده وترك فئة قليلة بأورشليم قصر هم على الغراسة والزراعة ثم ثاروا على بختنصر وقتلوا نائبه وهربوا إلى مصر ومعهم أرميا فخربت مملكة اليهود.

ومن المعلوم أنهم لم يكونوا يومئذ يستطيعون إنقاذ التوراة وهم لم يكونوا من حفظتها لأن شريعتهم جعلت التوراة أمانة بأيدي اللاويين كما تضمنه سفر التثنية وأمر موسى القوم بنشر التوراة لهم بعد كل سبع سنين تمضي وقال: موسى ضعوا هذا الكتاب عند تابوت العهد ليكون هناك شاهدا عليكم لأني أعرف تمردكم وقد صرتم تقاومون ربكم وأنا حي فأحرى أن تفعلوا ذلك بعد موتي كما اوضحنا

ولا يخفى أن اليهود قد نبذوا الديانة غير مرة وعبدوا الأصنام في عهد رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وفي عهد يوربعام غلام سليمان ملك إسرائيل قبل تخريب بيت المقدس وذلك مؤذن بتأنسي الدين ثم طرأ عليه التخريب المشهور ثم أعقبه التخريب الروماني في زمن طيطس سنة ٤٠ للمسيح ثم في زمن أدريان - الذي تم على يده تخريب بلد أورشليم بحيث صيرها مزرعة وتفرق من أبقاه السيف من اليهود في جهات العالم.

ولهذا اتفق المحققون من العلماء الباحثين عن تاريخ الدين على أن التوراة قد دخلها التحريف والزيادة والتلاشي وأنهم لما جمعوا أمرهم عقب بعض مصائبهم الكبرى افتقدوا التوراة فأرادوا أن يجمعوها من متفرق أوراقهم وبقايا مكاتبهم

وقد قال:. لنجرك أحد اللاهوتيين من علماء الإفرنج أن سفر التثنية كتبه يهودي كان مقيما بمصر في عهد الملك يوشيا ملك اليهود، وقال: غيره إن الكتب الخمسة التي هي مجموع التوراة قد دخل فيها تحريف كثير من علم صموئيل أو عزرا.

والعجيب ان قوما هذه صفاتهم

، فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه

، و مع كونهم يهود لم يكتفوا بل اصبحوا منافقين اذا لقوا الذين امنوا قال:وا امنا واذا خلا بعضهم ببعض قال:وا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم

ومنهم أميون لا قيمة لهم ولكنهم يظنون انهم على شئ

،وفريق منهم يكتبون كتبا من عند انفسهم وكذبوا على الله والناس وقال:وا انها من عند الله. وفقا للتراث الديني اليهودي، فإن النبي موسى صعد إلى جبل طور سيناء، قبل حوالي ٣٥٠٠ عام، وتلقى من الرب مباشرة لوحي العهد، اللذين حُفرت عليهما الوصايا العشر، وكذلك الأسفار الخمسة الأولى والتلمود والمِشنة والأحاديث الدينية المنقولة. وجرى ذلك في السادس من شهر نيسان العبري، وهو التاريخ الذي يحتفل فيه اليهود بعيد" شْفوعوت" أي عيد نزول التوراة، ويسمى أيضا عيد البواكير، الذي صادف في مطلع الأسبوع الماضي.

من هو كاتب أسفار موسى الخمسة في التوراة

ورغم هذه الرواية التراثية، إلا أن البحث العلمي في التوراة وتاريخها توصل إلى" حقيقة" أن موسى لم يكتب التوراة، ولا الأسفار الخمسة الأولى، وهي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية، وإنما كتبها أشخاص يحملون أفكارا مختلفة ومتنوعة.

والسؤال الأساس في هذا السياق هو من هم كتبة التوراة وماذا كانت أهدافهم؟ وقد حاول الكاتب والمحرر في صحيفة" هآرتس" إيلون غلعاد الإجابة على ذلك في مقال: مطول نشره عشية عيد نزول التوراة.

يستدل من نصوص التوراة نفسها أنها لم تنزل في سيناء، إذ هناك وصف لقصة تلقف الوصايا العشر، لكن النص التوراتي لا يذكر أن موسى حصل على كتاب التوراة. ورغم أن كلمة" توراة" مذكورة في النص، إلا أن المقصود هو" الأوامر" ، بمعنى القوانين والشرائع. كذلك فإن الأسفار الخمسة لم تنحصر في جبل طور سيناء، وإنما تتحدث عن سنوات التيه كلها، التي استمرت ٤٠ عاما، وقبل أن يصل" أبناء إسرائيل" إلى طور سيناء.

وواضح من النص التوراتي أن أجزاء من التوراة لم يكتبها موسى، إذ أنه مذكور هناك أنه كتب مقاطع معينة، ما يعني أن هذه الملاحظة لم تكن ضرورية لو أن موسى كتب النص كله.

إضافة إلى ذلك، فإن قصة موسى كتبها مؤلف يتحدث عنه من خلال ضمير الغائب، مثلما يتحدث عن الشخصيات الأخرى، ومثال على ذلك:" وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض" (عدد ١٢، ٣).

كذلك فإن كبار حاخامي اليهود، الذين وضعوا الأحاديث الدينية المنقولة (الشفهية) بحلول القرن السادس الميلادي، وكانوا يلتزمون بأن موسى كتب التوراة، واجهوا صعوبة في تصديق أنه

كتب الآيات الثماني الأخيرة من سفر التثنية، التي تصف موت موسى ودفنه. ويعبر التلمود عن هذه الصعوبة:" هناك من يقول إن موسى كتب هذه الآيات أيضا، وآخرون يقولون إنه كتبها خليفته، يهوشع بن نون" . واستمر هذا النقاش بصورة هادئة في القرون الوسطى.

وفي بداية عصر التنوير، في أوروبا، بدأ مفكرون وفلاسفة يشككون علنا بأن موسى كتب التوراة. وكتب الفيلسوف الهولندي اليهودي باروخ سبينوزا، في مؤلفه الهام" رسالة في اللاهوت والسياسة" ، في العام ١٦٧٠، أنه" واضح كالشمس في الظهيرة أن موسى لم يكتب الأسفار الخمسة الأولى في التوراة، وإنما كتبها شخص عاش بعده بسنوات كثيرة" .

عدد كتبة التوراة بعد موسى عليه السلام

كذلك توصل إلى نتيجة مشابهة الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز، الذي عاش في الفترة التوراة قصة واحدة نصان مختلفان

دفعت كتابات سبينوزا وهوبز الطبيب والباحث الفرنسي، البروفسور جان أستروك، إلى استخدام علم النقد، الذي استخدم حتى ذلك الحين في دراسة تطور النصوص الإغريقية واللاتينية، في دراسة التوراة. وكان أستروك يأمل بأن يفند" كفر" الفيلسوفين، لكنه فوجئ عندما اكتشف أن سفر التكوين مؤلف من نصين مختلفين متداخلين ويشكلان نصا واحدا. وقد نشر استنتاجاته في العام ١٧٥٣، بمقال: غير موقع.

وتوصل أستروك إلى قناعة، ويؤمن بها الباحثون اليوم، بأن التوراة لم يكتبها شخص واحد وإنما عدة أشخاص، وذلك بسبب أربعة مميزات في نصوص سفر التكوين والأسفار الأخرى، وهي: تكرار لا حاجة له، تناقضات داخلية، اختلافات في الأسلوب واللغة، اختلافات إيمانية وفكرية.

ومثال على ذلك أنه لا توجد في التوراة قصة خليقة واحدة، وإنما هناك قصتان: القصة الأولى تتحدث عن خلق العالم في ستة أيام وتنتهي باستراحة في اليوم السابع، حسبما ورد في سفر التكوين، في الإصحاح الأول والآيات ١- ٣ في الإصحاح الثاني. وبعد ذلك هناك قصة خليقة مختلفة في سفر التكوين نفسه، في الإصحاحين الثاني والرابع، وهذا مثال على تكرار زائد. وترتيب الخليقة في القصة الأولى يبدأ بالنباتات ثم الحيوانات والإنسان في النهاية. بينما في القصة الثانية، يخلق الرب آدم اولا:، ثم النباتات، وبعد ذلك الحيوانات، وفي النهاية يخلق حواء من ضلع آدم. وهذا مثال على التناقض.

في القصة الأولى يوصف الخالق بأنه" الله" وتسمى الطيور بـ" طائر ذي جناح" ، بينما في القصة الثانية يسمى الخالق" الرب الإله" والطيور بـ" طيور السماء" . وهذان مثالان على تغيير في النص والأسلوب.

والخالق في القصة الأولى غيبي ومنفصل عن العالم، لكنه في القصة الثانية هو إله مقيم في العالم ويتجول في الجنة ويتحدث مع البشر.

كذلك فإن يوم السبت كيوم راحة مذكور في القصة الأولى فقط، وغائب عن القصة الثانية.

وهذه جميعاً أمثلة على تغيرات تتعلق بأركان الإيمان (قدسية يوم السبت، وطبيعة الله) تنعكس من خلال النص.وبصورة مشابهة تتداخل روايتان في قصة الطوفان.

التناقضات في الرواية التوراتية في قصة الطوفان

ويصادف القارئ لقصة الطوفان الإشكاليات الأربع التي صادفها في قصة الخليقة، لكن في قصة الطوفان لا توجد روايتان الواحدة بعد الأخرى، وإنما تظهران كقصة واحدة مليئة بالتكرار والتناقضات والتغيرات اللغوية والفكرية.

على سبيل المثال، الطوفان يستمر ٣٧٠ يوما ثم يقال: إنه استمر ٤٠ يوما، ويسمى الرب" الله" أحيانا و" الرب الإله" أحيانا أخرى. ويؤكد ذلك على وجود روايتين تظهران بالكامل، من دون شطب تفاصيل من نصيهما. ففي إحدى الروايتين يرسل نوح حمامة، ويرسل في الثانية غرابا.

برغم ذلك، فإن قصة الطوفان متلائمة مع قصة الخليقة، إذ تسمي إحدى روايتي الطوفان الخالق بـ" الرب الإله" وتقول إنه يغلق السفينة ويشتم روائح ويندم، وهذا مشابه لـ" الرب الإله" الذي يتحدث مع البشر في قصة الخليقة. وفي الرواية الأخرى للطوفان، كما في قصة الخليقة الأولى، يتم تسمية الخالق بـ" الله" .

خلافا للانطباع الذي قد ينشأ من الروايات المزدوجة المذكورة أعلاه، فإن التوراة ليست مؤلفة من مصدرين وإنما من أربعة مصادر. ودرج الباحثون، في أعقاب أستروك، على درس التوراة دراسة نقدية، وفي العام ١٨٠٥، بيّن باحث التوراة الألماني فيلهلم دي - فيتيه أن لسفر التثنية مصدرا منفصلا عن الأسفار الأربعة الأخرى الأولى في التوراة. كما أظهرت دراسات لاحقة أنه يوجد للنصوص التي تسمي الخالق" الله" أكثر من مصدر واحد، بل أن هناك مصدرين. وجمع الباحث الألماني يوليوس فلهاوزن هذه الدراسات ووحدها في ما بات يعرف باسم" نظرية المخطوطات" .

ووفقا لهذه النظرية، أو الفرضية، فإن التوراة مكونة من أربع مخطوطات دمجها محرر، في فترة متأخرة، لتشكل وحدة واحدة. وتعبر المخطوطات عن المصدر اليهوي (يهوى)، الذي يستخدم تسمية" الرب الإله" ؛ المصدر الذي يستخدم تسمية" الله" ؛ المصدر التثنيوي، المسؤول عن سفر التثنية كله؛ المصدر الكهني، وهو المصدر الأكبر في التوراة، ويسمي الخالق بـ" الله" حتى ظهور الرب لموسى وعندها يبدأ هذا المصدر باستخدام" الرب الإله" . وهذه النظرية مقبولة على الغالبية العظمى من الباحثين المعاصرين مع تغييرات طفيفة. فقد جرى التعرف، في القرن

العشرين، على مقاطع عديدة في التوراة تشكل مصادر بحد ذاتها، مثل" قانون القداسة" في سفر اللاويين.

إن كتبة التوراة كثيرون، ويتجاوز عددهم الخمسة، كعدد مصادر التوراة. والاعتقاد السائد أن عزرا الكاتب، ويعرف أيضا باسم عزرا الكاهن، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، هو الذي جمع وحرر نصوص التوراة. ويعتقد الباحثون أن نصوص التوراة لم تكتب كقطعة واحدة، وإنما هي ثمرة عمل أجيال من الكتبة، الذين أضافوا" طبقات على ظهر طبقات" من النصوص. ولا يستبعد الباحثون احتمال استمرارتعالىديل النص التوراتي بعد تحريره حتى أصبح بالشكل الذي نعرفه اليوم.

هناك جانب آخر ينبغي الالتفات إليه، هو أن مفهوم الكتبة في العصور القديمة يختلف عن مفهومه اليوم. فقد كانت هناك مخطوطات يحتفظ بها في المعابد. كما أن عناصر القراءة والكتابة كانت مؤهلات نادرة جداً. وكان تأهيل الكاتب يستمر لسنة أو اثنتين، وشملتعالىليما أساسيا فقط على الكتابة والقراءة، من خلال نسخ كتابات ونصوص قديمة وتعلم تفسيرها على أيدي كتبة متخصصين. كذلكتعالىلم الكتبة لغات أجنبية، وكتبة التوراةتعالىلموا اللغة الآرامية بالأساس. وبعد اكتساب هذه المهارات، كان الكتبة يتجهون إلى العمل في المعابد، أو كمستقلين، أو في خدمة أثرياء أو لدى الملك كمستشارين ووزراء ودبلوماسيين.

وبعد تطور الكتابة في العصور القديمة، بدأ الكتبة ينسخون قصصا وقصائد كانت تُتداول شفهيا جيلا بعد جيل. ورغم الاحتفاظ بالمخطوطات بحرص شديد في المعابد، إلا أنها كانت تتلف وتبلى مع مرور الزمن، ولذلك كانت هناك حاجة إلى إعداد نسخ أخرى منها كي تحل مكانها. وكانت هذه النُسخ مطابقة، أحيانا، للنسخة السابقة، لكن بصورة عامة كانت تختلف عنها قليلا، لأن الكاتب لم يكن ينسخ كلمة بكلمة، وإنما يكتب من خلال السمع والذاكرة. وكان يدمج الكتبة في النص الجديد، أحيانا، مقاطع من التراث الشفهي أو من مخطوطات أخرى، وبهذه الطريقة تطورت المخطوطات في الشرق القديم مع مرور التوراة

مصادر التوراة ومحتوياتها

يرجح الباحثون أن المصدر الذي استخدم تسمية" الله" في النصوص التوراتية هو المصدر الأقدم. ووفقا لمضمون هذه النصوص، حيث الأماكن المذكورة فيها تقع كلها تقريبا داخل" مملكة إسرائيل" (في القسم الشمالي من فلسطين)، يعتقد الباحثون أنها كُتبت بأيدي كهنة هذه المملكة في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد وبالأساس خلال القرن الثامن قبل الميلاد. وفي أعقاب خراب" مملكة إسرائيل" على أيدي الآشوريين، في العام ٧٢٢ قبل الميلاد، هاجر قسم من الكتبة إلى يهودا (المنطقة الواقعة بين القدس والخليل)، حاملين معهم مخطوطاتهم المقدسة وانخرطوا في ثقافة هذه المنطقة. وبحسب علماء آثار، فإن" مملكة يهودا" ، التي حكمها حينذاك حزقياهو، كانت تتسع وتزدهر اقتصاديا وثقافيا في أعقاب هجرة" نوعية" من مملكة الشمال التي كانت متطورة نسبيا وبسبب اندماجها في الاقتصاد الدولي.

ويحتوي المصدر اليهوي على التقاليد القديمة لـ" مملكة يهودا" الصغيرة والأكثر تخلفا. ويعتبر الباحثون أن الأماكن التي يذكرها هذا المصدر في النصوص التوراتية تشكل شهادة مقنعة على المكان الذي كُتبت فيها نصوص هذا المصدر. ويرجح أنه جرى تدوين التراث الشفهي الموجود في هذه النصوص في معبد في القدس، في القرن الثامن قبل الميلاد، وربما بعد وصول المهاجرين من مملكة الشمال. وتم دمج هذين المصدرين في نص واحد في نهاية فترة" مملكة يهودا" ، وقريبا من العام ٥٨٦ قبل الميلاد، وهو عام خراب الهيكل الأول وفقا للتراث اليهودي.

وتطور المصدر التثنيوي بصورة تدريجية، وتكمن أهميته في كونه يتضمن مجموعة التشريعات والقوانين اليهودية. ولأهميته، يسمى أحيانا" التوراة" .

أسرار سفر التثنية بعد العثور على مخطوطته

وكانت النواة القديمة لسفر التثنية مكتوبة بأسلوب ولغة تحالف بين ملك وملك آخر تابع له، ولكن بدلا من الحديث عن حلف بين ملكين، وصفت هذا النواة حلفا بين الله وشعب إسرائيل. ويتحدث سفر الملوك الثاني عن" العثور" على سفر التثنية في العام ٦٢٢ قبل الميلاد تقريبا، عندما كان الكهنة يرتبون المعبد.

ويبدو أنه تم إجراءتعالىديل على نص سفر التثنية بعد العثور على مخطوطته لغايات سياسية، إذ أن مضمون المخطوطة الجديدة يتناقض بالكامل مع تقال:يد" مملكة يهودا" ، وخاصة فيما يتعلق بفريضة تركيز الشعائر الدينية في" الهيكل" في القدس، بينما اعتاد سكان" يهودا" على مر الأجيال على إقامة هذه الشعائر في منابر ومعابد وأماكن مقدسة أخرى منتشرة في أنحاء المملكة. ووفقا للنص الجديد فإن الملك ياشياهو شكك في مصداقية المخطوطة، واستشار خَلدة النبية حول ذلك، فقال:ت إن النص أصلي. وفي أعقاب ذلك أمر ياشياهو بإجراء إصلاحات دينية شاملة. لكن النبي إرميا، الذي عاش في تلك الفترة، لم يكن مقتنعا بأصلية هذا النص.

ويرجح الباحثون أن كتبة سفر التثنية هم كهنة من" مملكة إسرائيل" . وتوجد في هذا السفر أوجه شبه عديدة مع المصدر الذي يستخدم تسمية" الله" من حيث الأسلوب اللغوي، إذ يستخدمون اسم" جبل حوريب" خلافا للمصادر الأخرى التي تستخدم" سيناء" ، وكذلك هناك تشابه

مع مجموعة القوانين. ويولي سفر التثنية أهمية كبيرة للاويين. ويبدو أن الإصلاحات التي قادها ياشياهو شملت تقاسم عمل بين كهنة" الهيكل" في القدس، الذين اعتبروا أنهم من نسل هارون، شقيق موسى، وبين كهنة مملكة الشمال الذي اعتبروا أنفسهم مكملي طريق موسى. وكانت مهمة كهنة القدس تقديم القرابين وإقامة طقوس العبادة، بينما كانت مهمة الكهنة الشماليين، الذين أصبحوا لاويين، المسؤولية عن نصوص" الهيكل" ، وبضمن ذلك الحفاظ على المخطوطات المقدسة وغناء المزامير.

واستمر اللاويون في تطوير سفر التثنية من تلك النواة الأولية وحتى نهاية فترة" الهيكل الأول" وفترة سبي بابل. وفي نهاية عملية تطويره، أصبح سفر التثنية الجزء الأول من التاريخ التثنيوي، الذي يشمل أسفار يشوع والقضاة وصموئيل والملوك، وجميعها مكتوبة بالأسلوب واللغة نفسيهما وتحمل الأيديولوجية نفسها.

ويرجح أن المصدر الكهني هو المصدر الأخير زمنيا، وأنه كتبه كهنة" الهيكل" بسبب كثرة التفاصيل التي تضمنها حول الطقوس وتقديم القرابين في" الهيكل" . وتمت كتابة الأسفار التي مصدرها كهني خلال فترة سبي بابل، التي امتدت لخمسين عاما تقريبا في القرن السادس قبل الميلاد. ويظهر في أماكن عدة في النص التوراتي أن المصدر الكهني يحاكي مصادر أخرى وتقال:يد أجنبية أخرى وربما أنه تطلع إلى تغييرها. ويتناول هذا المصدر بإيجاز قصص الخليقة والطوفان والأنبياء حتى يصل إلى قصة الخروج من مصر. عندها تصبح وتيرة الأحداث بطيئة ومليئة بالتفاصيل، وتشكل إطارا لعدد كبير من القوانين الدينية. ويمنح هذا المصدر دورا هاما لهارون، في الوقت الذي بالكاد تذكره المصادر الأخرى.

دوافع جمع المخطوطات وصنع التوراة

تم جمع المخطوطات وتحريرها وبلورة التوراة بعد سبي بابل، أو ما يسمى في التراث اليهودي بـ" شيفات تسيون" ، أي" العودة إلى صهيون" .

في العام ٥٣٨ قبل الميلاد، سمح ملك فارس، كورش، لليهود بالعودة إلى منطقة يهودا وإقامة حكم ذاتي فيها. وكان هذا الحكم الذاتي بحاجة إلى قانون ومحاكم وتاريخ جامع، في الوقت الذي كانت فيه النخبة منقسمة ومتنازعة وتسود المنافسة بين تقال:يد مختلفة. ومن أجل توحيد هذه النخبة، كانت هناك حاجة إلى التقال:يد في قصة تاريخية واحدة وقانون موحد مقبول على جميع الأطراف.

ويبدو أنه تم تكليف عزرا الكاتب، وكتبة عملوا تحت إمرته، بتنفيذ هذه المهمة. وبموجبتعالبيين من ملك فارس أرتحششتا، جمع عزرا الكتابات العبرية القديمة، وصنع كتابا واحدا منح فيه الأولوية للمصدر الكهني، لأنه كان كاهنا بنفسه.

ويرجح الباحثون أنه لم يكن من قبيل الصدفة، أنه في مركز التاريخ اليهودي الذي صنعه عـزرا، الذي يفترض فيه أن يجمّـع العائـدين مـن بابـل، كانـت قصـة الخـروج مـن مصر، عـلى أنهـا قصـة" العائدين من الشتات" ، والرحلـة إلى فلسـطين وتلقـف القـانون مـن زعـيم لديـه كريزمـا، ألا وهـو موسى.

ووفقا للرواية التوراتية، فإنه عندما حضر عزرا، على رأس مجموعة من العائدين من بابـل، إلى القدس، جرى استقبال كبير، عرض عزرا خلاله" كتاب التوراة" . وجاء في سفر نحميا، الآيـة ٢- ٣ مـن الإصحاح الثامن:" فأتى عزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة... وقرأ فيها أمـام السـاحة الـتي أمـام باب الماء من الصباح إلى نصف النهار أمـام الرجـال والنسـاء وكانـت آذان كـل الشـعب نحـو سـفر الشريعة" . هكذا وُلدت التوراة كما نعرفها اليوم تقريبا.

لكن ثمة أهمية لهاتين الآيتين لسبب آخر، إذ فيما سُمي الكتاب الذي عرضـه عـزرا بأنـه" سـفر الشريعة" ، في الآية الثالثة، فإنه تم وصفه في الآيـة الثانيـة بـ" الشرـيعة" . ويـرى بـاحثون أن هـذا الأمر يدل على تغيير ذي دلالة طرأ على كلمة" الشريعة" ، أي التوراة، في بداية الفـترة الـتي يطلـق عليها في الأدبيات اليهودية تسمية" الهيكل الثاني" . وهذه الكلمة التي كانتتعالني في السابق" الأمر" ، بمعـنى القـانون والشرـيعة الدينيـة، بـدأت تسـتخدم كاسـم للأسـفار الخمسـة الأولى في التوراة، وبشكل مشابه لاستخدامها اليوم. ويعتقد باحثون أنه ربما يكـون هـذا التغيـير هـو الـذي جعل القيادة الروحانية والتشريعية اليهودية بين القرنين الثالث قبل المـيلاد والسـادس المـيلادي، والمعروفة باسم" حَزَل" ، تفسر خطأ الآية" وهذه هي الشرـيعة الـتي وضـعها مـوسى أمـام بـني إسرائيل" (تثنية ٤، ٤٤) على أنها دليل على أن موسى كتب التوراة كلها.

، ثم بعد كل هذا (وَقالوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْـدًا فَلَـنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاتعلَمُونَ(٨٠)

يقول تعالى إلى إخبارا عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم، من أنهـم لـن تمسـهم النـار إلا أياما معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله علـيهم ذلـك بقولـه: (قـل أتخـذتم عنـد الله عهـدا) أي: بذلك؟ فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده.

ولكن هذا ما جرى ولا كان. ولهذا أتى ب" أم" التي بمعنى: بل، أي: بل تقولون على الله ما لاتعالمون من الكذب والافتراء عليه.

قال: محمد بن إسحاق، عن سيف بن سليمان عن مجاهد، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون: هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوما في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة. فأنزل الله تعالى إلى: (وقال:وا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) إلى قوله: (خالدون)

ثم رواه عن محمد، عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس، بنحوه.

وقال: الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن جعفر، حدثنا محمد بن محمد بن صخر، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا ليث بن سعد، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال:لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" اجمعوا لي من كان من اليهود هاهنا" فقال: لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من أبوكم؟" قالوا: فلان. قال:"كذبتم، بل أبوكم فلان" . فقالوا: صدقت وبررت، ثم قال: لهم:" هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟" . قالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال: لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من أهل النار؟" فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها. فقال: لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:" اخسئوا، والله لا نخلفكم فيها أبدا" . ثم قال: لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:" هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟" . قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: "هل جعلتم في هذه الشاة سما؟" . فقالوا: نعم. قال:"فما حملكم على ذلك؟" . فقالوا: أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يضرك.

ورواه أحمد، والبخاري، والنسائي، من حديث الليث بن سعد، بنحوه.

معنى الخطيئة في قوله تعالى: (بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١)

قال: الله تعالى إلى: ردا. على قولهم لن تمسنا النار الا اياما معدودات، بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون

وفسرت إحاطة الخطيئة بالموت على الشرك، اى ان يموت الانسان وهو مشرك، وفسرت بالموت على الذنوب الموجبة للنار من غير توبة منها.

فكأن ذنوبه أحاطت به من جميع جهاته، فلم يبق له مخلص منها. فالخطايا تحيط بصاحبها حتى تهلكه، وقد ضرب النبي - صلى الله عليه وسلم - مثل الخطايا التي يتلبس بها العبد بمثل درع ضيقة يلبسها، فتضيق عليه حتى تخنقه، ولا تنفك عنه إلا بعمل الحسنات من توبة أو غيرها من الأعمال الصالحة،

ففي" المسند" ، عن عقبة بن عامر، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، قال:"إن مثل الذي يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة ثم خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ثم عمل حسنة أخرى فانفكت حلقة أخرى حتى يخرج إلى الأرض" . فلا يخلص العبد من ضيق الذنوب عليه وإحاطتها به، إلا بالتوبة والعمل الصالح.

وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

قوله تعالى: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)

الحكمة من اجتماع الوعد والوعيد في الآيات

اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد، وذلك لفوائد:

أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان.

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه على ما قال: عليه الصلاة والسلام:" لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا" ، وذلك الاعتدال لا يحصل إلا بهذا الطريق.

وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سببا للعرفان، وههنا مسائل:

المسألة الأولى: العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان لأنه تعالى إلى قال:(والذين آمنوا وعملوا الصالحات) فلو دل الإيمان على العمل الصالح لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكرارا، أجاب القاضي بأن الإيمان وإن كان يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة، إلا أن قوله: آمن لا يفيد إلا أنه فعل فعلا واحدا من أفعال الإيمان، فلهذا حسن أن يقول: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات).

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن صاحب الكبيرة قد يدخل الجنة لأننا نتكلم فيمن أتى بالإيمان وبالأعمال الصالحة، ثم أتى بعد ذلك بالكبيرة ولم يتب عنها فهذا الشخص قبل إتيانه بالكبيرة كان قد صدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات في ذلك الوقت، ومن صدق عليه ذلك صدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات وإذا صدق عليه ذلك وجب اندراجه تحت قوله: (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون)، فإن قيل قوله تعالى: (وعملوا الصالحات) لا يصدق عليه إلا إذا أتى بجميع الصالحات ومن جملة الصالحات التوبة، فإذا لم يأت بها لم يكن آتيا بالصالحات، فلا يندرج تحت الآية. قلنا: قد بينا أنه قبل الإتيان بالكبيرة صدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات في ذلك الوقت، وإذا صدق عليه ذلك فقد صدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات ؛ لأنه متى صدق المركب يجب صدق المفرد، بل إنه إذا أتى بالكبيرة لم يصدق عليه أنه آمن وعمل الصالحات في كل الأوقات، لكن قولنا: آمن وعمل الصالحات أعم من قولنا: إنه كذلك في كل الأوقات أو في بعض الأوقات، والمعتبر في الآية هو القدر المشترك، فثبت أنه مندرج تحت حكم الوعد. بقي قولهم: إن الفاسق أحبط عقاب معصيته ثواب طاعته فيكون الترجيح لجانب امعروفة

وبالفعل فى كنبهم رغم تحريفها الا ان فيها مايشبه هذه الوعود ففى سفر التثنية..

١٦

بِمَا أَنِّي أَوْصَيْتُكَ الْيَوْمَ أَنْ تُحِبَّ الرَّبَّ إِلهَكَ وَتَسْلُكَ فِي طُرُقِهِ وَتَحْفَظَ وَصَايَاهُ وَفَرَائِضَهُ وَأَحْكَامَهُ لِكَيْ تَحْيَا وَتَنْمُوَ، وَيُبَارِكَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ فِي الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ دَاخِلٌ إِلَيْهَا لِكَيْ تَمْتَلِكَهَا.

١٧ فَإِنِ انْصَرَفَ قَلْبُكَ وَلَمْ تَسْمَعْ، بَلْ غَوَيْتَ وَسَجَدْتَ لآلِهَةٍ أُخْرَى وَعَبَدْتَهَا،

١٨

فَإِنِّي أُنْبِئُكُمُ الْيَوْمَ أَنَّكُمْ لاَ مَحَالَةَ تَهْلِكُونَ. لاَ تُطِيلُ الأَيَّامَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي أَنْتَ عَابِرٌ الأُرْدُنَّ لِكَيْ تَدْخُلَهَا وَتَمْتَلِكَهَا.

١٩

أُشْهِدُ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ. قَدْ جَعَلْتُ قُدَّامَكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ. الْبَرَكَةَ وَاللَّعْنَةَ. فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَاتعالىبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (٨٣)

وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لاتعالىبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون

أعيد ذكر أحوال بني إسرائيل بعد ذلك الاستطراد المتفنن فيه فأعيد الأسلوب القديم وهو العطف بإعادة لفظ، إذ ، في أول القصص.

وأظهر هنا لفظ بني إسرائيل وعدل عن الأسلوب السابق الواقع فيه التعبير بضمير الخطاب المراد به سلف المخاطبين وخلفهم لوجهين

أحدهما أن هذا رجوع إلى مجادلة بني إسرائيل وتوقيفهم على مساويهم فهو افتتاح ثان جرى على أسلوب الافتتاح الواقع في قوله تعالى إلى يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم

الآية

. ثانيهما أن ما سيذكر هنا لما كان من الأحوال التي اتصف بها السلف والخلف وكان المقصود الأول منه إثبات سوء صنيع الموجودين في زمن القرآنتعالىين أن يعبر عن سلفهم باللفظ الصريح ليتأتى توجيه الخطاب من بعد ذلك إلى المخاطبين حتى لا يظن أنه من الخطاب الذي أريد به أسلافهم على وزن وإذ نجيناكم من آل فرعون أو على وزان ثم اتخذتم العجل من بعده

وقوله، ميثاق بني إسرائيل، أريد به أسلافهم لأنهم الذين أعطوا الميثاق لموسى على امتثال ما أنزل الله من التوراة كما قدمناه أو المراد بلفظ بني إسرائيل المتقدمون والمتأخرون والمراد بالخطاب في توليتم خصوص" من بعدهم" لأنهم الذين تولوا فليس في الكلام التفات

وقوله لاتعالىبدون إلا الله ، خبر في معنى الأمر ومجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر

. وجملة لاتعالىبدون مبدأ بيان للميثاق

وقوله، وبالوالدين إحسانا، هو مما أخذ عليهم الميثاق به وهو أمر مؤكد، والتقدير وأحسنوا بالوالدين إحسانا.

وجعل الإحسان لسائر الناس بالقول لأنه القدر الذي يمكن معاملة جميع الناس به وذلك أن أصل القول أن يكون عن اعتقاد، فهم إذا قال:وا للناس حسنا فقد أضمروا لهم خيرا وذلك أصل حسن المعاملة مع الخلق

قال: النبي- صلى الله عليه وسلم -: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وقد علمنا الله تعالى إلى ذلك بقوله ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، على أنه إذا عرض ما يوجب تكدر الخاطر فإن القول الحسن يزيل ما في نفس القائل من الكدر

على أن الله أمر بالإحسان الفعلي حيث يتعين ويدخل تحت قدرة المأمور وذلك الإحسان للوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين وإيتاء الزكاة، وأمر بالإحسان القولي إذاتعالىذر الفعلي على حد قول أبي الطيب:

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

ولقد وجدنا فى كتبهم ما يبين انهم فعلا اخذ الله عليهم الميثاق لايعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وان يحسنوا إلى الناس

فقال:وا «اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا ربٌّ واحد. فتُحِبُّ الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوَّتك» (تث ٦: ٤،٥).

وفى سفر الخروج الوصايا العشر حيث امرهم بان يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئا

،وها هى الوصايا،

لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي.

لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِـنْ تَحْـتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَاتعالبُدْهُنَّ.

لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلًا، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا.

الوصايا تجاه القريب

أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ.

الوصايا تجاه المجتمع

لَا تَقْتُلْ.

لَا تَزْنِ.

لَا تَسْرِقْ.

لَا تَشْهَدْ شَهَادَةَ زُورٍ.

لَا تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لَا تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلَا عَبْـدَهُ، وَلَا أَمَتَـهُ، وَلَا ثَـوْرَهُ، وَلَا حِمَـارَهُ، وَلَا شَـيْئًا مِمَّا لِقَرِيبِكَ.

ارايتم فقد اخذ الله تعالى إلى عليهم الميثاق بان بعبـدوه وحـده وان يكرمـوا ابـاءهم وان لا تمتد ايديهم إلى اموال غيرهم ولا يقتل بعضهم بعضا الا انهم كعـادتهم نكثـوا العهـد وتسـببوا فى سفك دماء اخوانهم اليهود وجيرانهم من الاوس والخزرج

وهنا لفته هامة

كان ينبغي على احبار اليهود حين يرون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو امى يخـبرهم بأمور مضى عليها مئات السنين ساعتها ان يقولوا سمعنا واطعنا

وقوله وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة أطلقت الزكاة على الصدقة مطلقا أو على الصدقة الواجبة على الأموال

وقوله، ثم توليتم إلا قليلا منكم، خطاب للحاضرين وليس بالتفات كما علمت آنفا.

والمعنى أخذنا ميثاق الأمة الإسرائيلية على التوحيد وأصول الإحسان فكنتم ممن تولى عن ذلك وعصيتم شرعا

أي توليتم عن جميع ما أخذ عليكم الميثاق به أي أشركتم بالله وعبدتم الأصنام وعققتم الوالدين وأسأتم لذوي القربى واليتامى والمساكين وقلتم للناس أفحش القول وتركتم الصلاة ومنعتم الزكاة.

وقوله إلا قليلا منكم إنصاف لهم في توبيخهم ومذمتهم وإعلان بفضل من حافظ على العهد.

وقوله وأنتم معرضون جملة حالية ولكونها اسمية أفادت أن الإعراض وصف ثابت لهم وعادة معروفة

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤)

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)

قوله عز وجل (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم) أي لا تريقون دماءكم أي: لا يسفك بعضكم دم بعض، وقيل: لا تسفكوا دماء غيركم فتسفك دماءكم، فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم، (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أي لا يخرج بعضكم بعضا من داره، وقيل: لا تسيئوا جوار من جاوركم فتلجئوهم إلى الخروج بسوء جواركم (ثم أقررتم) بهذا العهد أنه حق وقبلتم (وأنتم تشهدون) اليوم على ذلك يا معشر اليهود وتقرون بالقبول.

قوله عز وجل (ثم أنتم هؤلاء) يعني: يا هؤلاء، وهؤلاء للتنبيه (تقتلون أنفسكم) أي (يقتل) بعضكم بعضا (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم) بتشديد الظاء أي تتظاهرون أدغمت التاء في الظاء،

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتخفيف الظاء فحذفوا تاء التفاعل وأبقوا تاء الخطاب كقوله تعالى:" ولاتعالاونوا" معناهما جميعا: تتعاونون، والظهير: العون (بالإثم والعدوان)

المعصية والظلم (وإن يأتوكم أسارى) وقرأ حمزة: أسرى، وهما جمع أسير، ومعناهما واحد (تفدوهم) بالمال وتنقذوهم وقرأ أهل المدينة وعاصم والكسائي ويعقوب (تفادوهم) أي تبادلوهم، أراد: مفاداة الأسير

بالأسير، وقيل: معنى القراءتين واحد.

ومعنى الآية قال: السدي: إن الله تعالى إلى أخذ على بني إسرائيل في التوراة كما راينا فى الوصايا العشر أن لا يقتل بعضهم بعضا، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم، وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه،

ولكنهم قسموا انفسهم فحالفت قريظة الأوس، وحالف بنوا النضير الخزرج، وكل فريق من اليهود يشعل نار العداوة فى قلب من هم بجوارهم على اخوانهم

رغبة من اليهود ان تظل نار الحرب مستعرة لانهم يبيعون السلاح للفريقين ويشترطون الذهب للبيع فيقوم الاوس والخزرج ببيع ممتلكاتهم وتغيرها ذهبا لشراء السلاح وبهذا يكون اليهود قد ازدادوا ثراءا فى الوقت الذى تضعف فيه قوة الاوس والخزرج

وحتى لا ينتبه الاوس والخزرج لهذا المخطط الاثم فكانوا يدخلون الحرب معهم

وكانوا يقتتلون في حرب مستمرة، فيقاتل بنو قريظة وحلفاؤهم وبنو النضير وحلفاؤهم وإذا غلبوا أخربوا ديارهم وأخرجوهم منها، وإذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه وإن كان

الأسير من عدوهم، فتعيرهم العرب وتقول: كيف تقاتلونهم وتفدونهم قالوا: إنا أمرنا أن نفديهم فيقولون: فلم تقاتلونهم؟ قالوا: إنا نستحي أن يستذل حلفاؤنا، فعيرهم الله تعالى إلى بذلك فقال:(ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) وفي الآية تقديم وتأخير ونظمها (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وهو محرم عليكم إخراجهم) وإن يأتوكم أسارى تفادوهم،

العهود الأربعة

فكأن الله تعالى إلى أخذ عليهم أربعة عهود: ترك القتال، وترك الإخراج، وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم، وفداء أسراهم، فأعرضوا عن الكل إلا الفداء.

لهذا قال: الله تعالى إلى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) قال: مجاهد: يقول إن وجدته في يد غيرك فديته وأنت تقتله بيدك (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) يا معشر اليهود (إلا خزي) عذاب وهوان (في الحياة الدنيا)

فكان خزي قريظة القتل والسبي وخزي النضير

الجلاء والنفي من منازلهم إلى أذرعات وأريحاء من الشام (ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب) عذاب النار (وما الله بغافل عماتعالملون قرأ ابن كثير ونافع (وأبو بكر) بالياء والباقون بالتاء

قوله عز وجل: (أولئك الذين اشتروا) استبدلوا (الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف) يهون (عنهم العذاب ولا هم ينصرون) يمنعون من عذاب الله عز وجل.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)

ففي هاتين الآيتين تذكير لبنى إسرائيل بضرب من النعم التي أمدهم الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام.

والمـراد بالكتـاب الـذي أعطـاه الله لمـوسى التـوراة، فقـد أنزلهـا عليـه لهـدايتهم ولكـنهم حرفوها وبدلوها وخالفوا أوامره وأولوها تأويلا سقيما.

ومعنى، وَقَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُل.، أردفنا وأرسلنا من بعد موسى رسلا كثيرين متتابعين،

لإرشاد بنى إسرائيل، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

يقال:قفا أثره يقفوه قفوا وقفوا، إذا تبعه.

وقفى على أثره بفلان إذا أتبعه إياه.

والرسل: جمع رسول بمعنى مرسل، وقد أرسل الله-تعالى إلى- رسلا بعد موسى- عليه السلام-: منهم: داود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى- عليهم الصلاة والسلام-.

هذا بخلاف الانبياء والرسل الذين لم يقصهم القران علينا لقوله تعالى إلى، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل وريل لم نقصصهم عليك

ومن هؤلاء ما قرانا عنهم فى كتبهم اشعياء وارمياء وحزقيال عاموس وعوبديا ويوئيل وملاخى وحجى وحبقوق وغيرهم

والله اعلم

فمن مظاهر نعم الله على بنى إسرائيل، أنه لم يكتف بإنزال الكتب لهدايتهم، وإنما أرسل فيهم بجانب ذلك رسلا متعددين، لكي يبشروهم وينذروهم، ولكن بنى إسرائيل قابلوا نعم الله بالجحود والكفران، فقد حرفوا كتب الله، وقتلوا بعض أنبيائه.

والمراد بالبينات في قوله: وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ الحجج والبراهين والآيات الدالة على صدقه وصحة نبوته، فتشمل كل معجزة أعطاها الله لعيسى- كإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، والإخبار ببعض المغيبات، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها عيسى- عليه السلام-.

وخص القرآن عيسى بالذكر لكونه صاحب كتاب هو الإنجيل، ولأن شرعه نسخ بعض الأحكام من شريعة موسى- عليه السلام-.

سبب إضافة عيسى إلى أمه عليهما السلام

وفي إضافة عيسى إلى أمه إبطال لما يزعمه اليهود من أن له أبا من البشر.

وقوله: وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أى: قويناه مأخوذ من الأيد وهو القوة.

وروح القدس هو جبريل- عليه السلام-، قال:-تعالى إلى-:قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ، والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة، أى: الروح المقدس.

ووصف بالقدس لطهارته وبركته.

وسمى روحا لمشابهته الروح الحقيقي في أن كلا منهما مادة لحياة البشر.

فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب.

والروح تحيا به الأجسام.

أى: أننا أعطينا عيسى بن مريم الحجج الدالة على صدقه في نبوته وقويناه على ذلك كله بوحينا الذي أوحيناه إليه عن طريق جبريل- عليه- السلام-.

ثم وبخ الله اليهود على أفعالهم القبيحة فقال:أَفَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ.

أى: أفكلما جاءكم يا بنى إسرائيل رسول بما لا تحبه أنفسكم الشريرة استكبرتم عن اتباعه والإيمان به وأقبلتم على هؤلاء الرسل ففريقا منهم كذبتم، وفريقا آخر منهم تقتلونه غير مكتفين بالتكذيب:وتهوى: من هوى إذا أحب «والهوى يكون في الحق ويكون في الباطل كما في هذه الآية.

واستكبرتم: تكبرتم، والتكبر ينشأ عن الاعجاب بالنفس الذي هو أثر الجهل بها.

وهو من الصفات التي متى تمكنت في النفس أوردتها المهالك، وساقتها إلى سوء المصير.

وقدم تكذيبهم للرسل على قتلهم إياهم، لأن التكذيب أول ما يصدر عنهم من الشر.

وعبر في جانب القتل بالفعل المضارع فقال:تَقْتُلُونَ ولم يقل قتلتم كما قال: كذبتم، لأن الفعل المضارع كما هو المألوف في أساليب البلاغة.

يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفظاعة مبلغا عظيما.

ووجهه أن المتكلم يعمد بذلك الفعل القبيح كقتل الأنبياء، ويعبر عنه بالفعل المضارع الذي يدل بحسب وضعه على الفعل الواقع في الحال.

فكأنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع، وجعله ينظر إليها بعينه، فيكون إنكاره لها أبلغ، واستفظاعه لها أعظم.

وَقال:وا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨)

قال: محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (وقال:وا قلوبنا غلف) أي: في أكنة.

وقال: علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (وقال:وا قلوبنا غلف) أي: لا تفقه.

وقال: العوفي، عن ابن عباس: (وقال:وا قلوبنا غلف) [قال:] هي القلوب المطبوع عليها.

وقال: مجاهد: (وقال:وا قلوبنا غلف) عليها غشاوة.

وهذا هو الذي رجحه ابن جرير، واستشهد مما روي من حديث عمرو بن مرة الجملي، عن أبي البختري، عن حذيفة، قال:القلوب أربعة. فذكر منها: وقلب أغلف مغضوب عليه، وذاك قلب الكافر.

وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيما حكاه ابن جرير:" وقال:وا قلوبنا غلف" بضم اللام، أي: جمع غلاف، أي: أوعية، بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر. كما كانوا يمنون بعلم التوراة.

ولهذا قال تعالى: (بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون)، أي: ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها،

كما قال: في سورة النساء: (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) [النساء: ١٥٥]. وقد اختلفوا في معنى قوله: (فقليلا ما يؤمنون) وقوله: (فلا يؤمنون إلا قليلا)

فقال: بعضهم: فقليل من يؤمن منهم [واختاره فخر الدين الرازي وحكاه عن قتادة والأصم وأبي مسلم الأصبهاني] وقيل: فقليل إيمانهم. بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب، ولكنه إيمان لا ينفعهم، لأنه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال: بعضهم: إنهم كانوا غير مؤمنين بشيء، وإنما قال:(فقليلا ما يؤمنون) وهم بالجميع كافرون،

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)

يقول تعالى: (ولما جاءهم) يعني اليهود (كتاب من عند الله) وهو: القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم (مصدق لما معهم) يعني: من التوراة، وقوله: (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا)

أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم، يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم،

كما قال: محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر عن قتادة الأنصاري، عن أشياخ منهم قال:قالوا: فينا والله وفيهم يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم، نزلت هذه القصة يعني: (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به)

قال:وا كنا قد علوناهم دهرا في الجاهلية، ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبيا من [الأنبياء] يبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما بعث الله رسوله من قريش [واتبعناه] كفروا به. يقول الله تعالى إلى: (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) [النساء: ١٥٥].

وقال: الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال:يستظهرون يقولون: نحن نعين محمدا عليهم، وليسوا كذلك، يكذبون.

وقال: محمد بن إسحاق: أخبرني محمد بن أبي محمد، أخبرني عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه. فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه.

فقال: لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور، أخو بني سلمة يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته. فقال: سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله في ذلك من قولهم: (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)

وقال: العوفي، عن ابن عباس: (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) يقول: يستنصرون بخروج محمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يعني بذلك أهل الكتاب فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه.

وقال: أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسدا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: الله: (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين)

وقال: قتادة: (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال:كانوا يقولون: إنه سيأتي نبي. (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به)وقال: مجاهد: (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) قال:هم اليهود.

وقال: الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمود بن لبيد، أخي بني عبد الأشهل عن سلمة بن سلامة بن وقش، وكان من أهل بدر قال:كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل قال:فخرج علينا يوما من بيته قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بيسير، حتى وقف على مجلس بني عبد الأشهل.

قال: سلمة: وأنا يومئذ أحدث من فيهم سنا على بردة مضطجعا فيها بفناء أهلي. فذكر البعث والقيامة والحسنات والميزان والجنة والنار. قال: ذلك لأهل شرك أصحاب أوثان لا يرون بعثا

كائنا بعد الموت، فقال:وا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائنا أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يجزون فيها بأعمالهم؟

فقال:نعم، والذي يحلف به، لود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبق به عليه، وأن ينجو من تلك النار غدا.

قال:وا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال:نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن. قالوا: ومتى نراه؟ قال:فنظر إلي وأنا من أحدثهم سنا، فقال:إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه. قال: سلمة: فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرنا، فآمنا به وكفر به بغيا وحسدا.

فقلنا: ويلك يا فلان، ألست بالذي قلت لنا؟ قال:بلى وليس به. تفرد به أحمد.

وحكى القرطبي وغيره عن ابن عباس، رضي الله عنهما: أن يهود خيبر اقتتلوا في زمان الجاهلية مع غطفان فهزمتهم غطفان، فدعا اليهود عند ذلك، فقالوا: اللهم إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا بإخراجه في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم. قال:فنصروا عليهم. قال:وكذلك كانوا يصنعون يدعون الله فينصرون على أعدائهم ومن نازلهم. قال: الله تعالى إلى: (فلما جاءهم ما عرفوا) أي من الحق وصفة محمد صلى الله عليه وسلم" كفروا به" فلعنة الله على الكافرين.

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)

قال: مجاهد: (بئسما اشتروا به أنفسهم) يهود شروا الحق بالباطل، وكتمان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبينوه.

وقال: السدي: (بئسما اشتروا به أنفسهم) يقول: باعوا به أنفسهم، يعني: بئسما اعتاضوا لأنفسهم ورضوا به [وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم إلى تصديقه ومؤازرته ونصرته].

وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية (أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) ولا حسد أعظم من هذا.

قال: ابن إسحاق عن محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس: (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) أي: إن الله جعله من

غيرهم (فباءوا بغضب على غضب) قال: ابن عباس: فالغضب على الغضب، فغضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم.

ومعنى (باءوا) استوجبوا، واستحقوا، واستقروا بغضب على غضب. وقال: أبو العالية: غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى، ثم غضب عليهم بكفرهم بمحمد، وبالقرآن عليهما السلام، [وعن عكرمة وقتادة مثله]

قال: السدي: أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم في العجل، وأما الغضب الثاني فغضب عليهم حين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم [وعن ابن عباس مثله].

وقوله: (وللكافرين عذاب مهين) لما كان كفرهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) [غافر: ٦٠]، [أي: صاغرين حقيرين ذليلين راغمين].

وقد قال: الإمام أحمد: حدثنا يحيى، حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنا في جهنم،

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قال:وا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)

إذا وجه إلى هؤلاء اليهود هذا الخطاب بالإيمان، قال: لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قال: لهم أصحابه : آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، أقروا وأذعنوا وانقادوا، قال:وا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا، يعني: على أنبياء بني إسرائيل. وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَه

يعني: بما أنزل على غيرهم، كالقرآن، مع كونه الحق المصدق لما معهم، وكما ذكرنا من قبل بأنه يشهد لهذه الكتب أنها منزلة من عند الله -تبارك وتعالى- كما أنه أيضًا مصدقٌ لما معهم، وذلك أنه قد جاء الخبر في كتبهم عن هذا الرسول صلى الله عليه وسلم فهو مطابق لما في كتبهم، وكذلك أيضًا هو مصدق لما معهم مما تتفق عليه الشرائع، ومع ذلك يكفرون به.

ثم إن الله -تبارك وتعالى- ردّ على هؤلاء الكذبة الذين زعموا أنهم يقصرون الإيمان على رسلهم وأنبيائهم خاصة فقال:قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِين.، إن كنتم تزعمون أنكم تؤمنون بما أنزل على أنبيائكم فلم تقتلونهم، وهم قتلة الأنبياء، وقد مضى أنهم قتلوا في يوم واحد سبعين نبيًا، فلو كانوا حقًّا يؤمنون بما أنزل عليهم لما قتلوا أنبياءهم، فهم كذبة أيضًا في هذه الدعوى، فهم يكفرون بما جاءهم وبما نزل على محمد صلى الله عليه وسلمﷺ.

فيُؤخذ من قوله -تبارك وتعالى:، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قال:وا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا، هذا ذكره الله في سياق الذم، والواجب أن يقبل المرء الحق ممن جاء به، وليس له أن يتخير، ويكون له انتقاء، وإنما الواجب عليه الانقياد والتسليم، هذا في اتباع الرسل -عليهم الصلاة والسلام-

فهؤلاء كانوا ينتقون ويتخيرون، فكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بدعوى أنه ليس من أنبيائهم، فيقولون: لا نؤمن إلا بما أنزل علينا.

وكذلك أيضًا عادوا رسول الله ﷺ وكفروا بما جاء به، بحجة أن صاحبه الذي يأتي بالوحي هو جبريل عليه السلام فلما سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عمن يأتيه بالوحي؟ وكأنهم لا يعلمون، فجبريل هو الموكل بالوحي والرسالات، فهو الذي كان يأتي إلى الأنبياء قبل النبي صلى الله عليه وسلم بوحي الله ولكن هؤلاء الكفرة لا يريدون الإيمان، فيتعللون بمثل هذه العلل، فتارة بمعاداة الرسول الملائكي، وتارة بمعاداة الرسول البشري

وهكذا قد يتصور أن هذا الإقرار ربما في ضمنه الإقرار بفضل هذا الذي جاء بالحق، فيرُد الحق، ويكذب به حسدًا لهذا الذي جاء الحق على يديه، أو دعا إليه، أو نبّه على هذا الخطأ والانحراف.

فها هو سيدنا سليمان عليه السلام لما جاءه الهدهد بخبر سبأ لم يرد هذا الخبر لحقارة من جاء به، وإنما تثبت، ثم بعد ذلك لما استيقن ذلك وعلمه وتحققه بنى عليه ما قد علمتم، ودخلت أمة في دين الله -تبارك وتعالى- فهذا هو اللائق،

وكما قالوا: بأن الجوهرة لا يُرخصها حقارة من استخرجها من قعر البحر، وهو الغواص، فقد يستخرها من لا شأن له، ولكن تبقى لها قيمتها، فهي نفيسة، وتعلق في النحور، ولا يُرخصها حقارة مستخرجها، فهكذا الحق الواجب أن يُقبَل وأن يذعن الإنسان له، ولا يُرَد لأن الذي جاء به ربما يكون من العامة، أو يكون ممن لا نحبهم، أو نحو ذلك.

فعلى كل حال من وقع بشيء من ذلك ففيه شبه من اليهود، يردون الحق لكراهيتهم من جاء به، واللائق أن نقبل الحق ممن جاء به، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: في حق الشيطان، كما في حديث أبي هريرة لما كان يأخذ من تمر الصدقة، ثم بعد ذلك علَّمه ما يقول إذا أوى إلى فراشه: صدقك وهو كذوب فمجيء الشيطان بهذا وهو الشيطان لم يكن ذلك سببًا لرد هذا الحق الذي جاء به، فهذا على كل حال هو اللائق بأهل الإيمان.

وفي قوله: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قال:وا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا [سورة البقرة:٩١] أُسند إلى هذا الاسم الكريم في قوله: بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ حيث ذكر اسم الجلالة ظاهرًا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فكان جوابهم أن أسقطوا لفظ الجلالة قال:وا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا فلم يقولوا: نؤمن بما أنزل الله علينا، فهبطوا بذلك، وأسقطوا اسم من يتشرف بذكره، وهو الله -تبارك وتعالى- ويتبرك بهذا الاسم الكريم، وخصوا بعض ما أنزله بالإيمان.

وكذلك حينما قال: الله: فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ كما ذكرنا في موضع سابق عُبِّر بالفعل المضارع تَقْتُلُونَ لأن ذلك يدل على الاستمرار، فهم مستمرون على هذا الفعل القبيح، وقد وضعوا السم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر - عليه الصلاة والسلام - في مرضه الذي قُبض بأنه ما زال يجد تلك الأكلة التي أكلها في خيبر، فقال:فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم فكان ذلك شهادة له - عليه الصلاة والسلام - فهذا يدل على أنه مستمر، وأن ذلك من شأنهم.

كذلك أولئك الذين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لما كانوا على ما كان عليه أسلافهم صح أن يوجه ذلك إليهم بالخطاب فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ وكما ذكرنا أن الخطاب في القرآن كثيرًا ما يخاطب به أولئك الذين عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم

في أمور وقعت لأسلافهم، فأما في باب النعم فإن ذلك كما قلنا: بأن النعمة الحاصلة للآباء والأسلاف لاحقة للأبناء والذرية، فيمتن عليهم بها، وكذلك أيضًا في المذام والمثالب والمعايب فإنها تلحق الأبناء إن كانوا على طريقتهم،

وهذا أيضًا في قوله -تبارك وتعالى: فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ فمثل هذا يدل على كذبهم في مثل هذه الدعوى، وفيه إفحام لهم بإقامة الحجة عليهم من فعلهم نفسه، وهذه طريقة من طرق الرد والجدال والمناظرة: أن يُرد على المخالف إما بقوله، وإما بنفس فعله، وهذا له نظائر كثير في القرآن، وفي السنة، وفي المناظرات التي جرت بين أهل العلم مع المخالفين، فيحتجون عليهم ويقلبون عليهم الدليل.

ويُؤخذ من قوله -تبارك وتعالى: فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ أن هذا الاستفهام يدل على التبكيت والتوبيخ، وفي إضافة الأنبياء فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ولم يقل: فلم تقتلون أنبياءكم، أو فلم تقتلون الأنبياء، وإنما أضافهم إلى الله -تبارك وتعالى- وهذا فيهتعالىظيم وتشنيع لهذا الفعل، فإن هؤلاء الأنبياء الذين جاءوا من عند الله كان حقهم الإكرام والتعظيم، وكان الواجب القبول لما جاءوا به من عند الله -تبارك وتعالى- والنصر والتعزير لهم، لا أن يقابل هؤلاء الرسل والأنبياء الكرام -عليهم الصلاة والسلام- بالقتل، والله المستعان.

كما يدلُّ قوله: قال:وا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا على أنهم يستشعرون المزية على الخلق، وأنهم يختصون بأمور لا تكون لغيرهم، فلا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم، فهذا يدل على شيء من التكبر والتعاظم والشعور بالخصوصية، وهذا قد يحصل لبعض هذه الأمة، فالناس قد لا يقبلون الحق إلا لمن كان من طائفته أو أهل مذهبه، فلا يقبل من غيرهم، ولا يسمع منه، وللأسف صارت بنا الحال، وآلت بنا الأمور، إلى أن المنتسبين إلى السنة يقع بينهم من التنازع والشر والاختلاف ما لا يقادر قدره، ويقعون في التحزب المذموم المحرم؛ وذلك أن يكون الإنسان لا يقبل إلا ممن كان من طائفته، أو لا يقبل إلا من شيخه، وما عدا ذلك فهو مردود.

فإذا كان الإنسان بهذه المثابة فيكون ذلك كما قال: الله فيمن ذمهم، واتخذوا وجعلوا دينهم بينهم زبرًا، فكما قال: الحافظ ابن القيم -رحمه الله: بأنه يدخل في ذلك من جعلوا لهم كتبًا، أو نحو ذلك يتلقون عنها، ولا يقبلون من غيرها، يعني لا يقبلون إلا من هذه الكتب المصنفة في مذهبهم، ولا يقبلون الحق إلا ممن جاء به من طائفتهم، وما عداه فهذا كلام الخصوم،

قال: الخصم، وللأسف تجد مثل هذه العبارات تقال: بعفوية في الخلاف الفقهي، يقال:الخصم، وهو ليس بخصم، يقال:قال: المخالف، أو نحو ذلك، أما الخصم فهي تبعث رسالة في النفوس تورث وحشة من العلماء الذين ربما كانوا على مذهب آخر وهم مجتهدون وعلماء، والخلاف الذي بينهم ليس من قبيل الاختلاف المذموم، فيتحول هذا الخلاف عند المتعصبة إلى لون من التفرق، ويصل الحال إلى التنافر، ويوجه السؤال المرير في حكم تزوج الحنفي مثلاً من الشافعية، وهل يجوز أن يتزوجها أو لا؟ إلى هذا الحد، فهذا لا يجوز.

وكذلك أيضًا الاجتهادات السائغة في الأمور الأخرى، كالاجتهادات في الأمور الدعوية، والاجتهادات في الأمور الواقعة من النوازل التي تقع في الأمة، ونحو ذلك مما تختلف فيه أنظارهم ومواقفهم، فالناس ما زالوا يختلفون، لكن لا يصح أن يكون ذلك الاختلاف سببًا للشقاق والتفرق والجفاء والتدابر، وأن يتحول هذا الاختلاف إلى اتهام في الدين، أو الاعتقاد، أو نحو ذلك، وهو اختلاف في أمور اجتهادية في قضايا لا تبلغ هذا، وإنما هي وجهات نظر كما يقال:، هذا غاية ما هنالك، فهذا كله لا يجوز.

ولكن من نشأ في بيئة كهذه، فأنى له الإنصاف، والموفق من وفقه الله ومن أراد أن يُنصف من نفسه، وأن يُنصف من غيره، فليخرج من أقماع هذا الضيق، وينظر من أعلى، كأنه في وقت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلف الأمة، ثم بعد ذلك يدرك أن مثل هذا التفرق والاختلاف الذي وجد بعدهم ليس من الدين، وأنه ينبغي ألا يكون جزءًا من هذا التفرق، فيتعامل مع أهل الإيمان بحسب ما عندهم من الاتباع، ولزوم السنة ظاهرًا وباطنًا، دون اعتبارات أخرى، بحسب اتباعهم للكتاب والسنة، ولزومهم لذلك الصراط المستقيم ظاهرًا وباطنًا، فهذا الذي يقرب الناس، وهذا الذي يبعدهم، لكن حينما يهبط الإنسان وينظر من دوائر ضيقة، فإنه ربما يبغض من هم أفضل منه، وأتقى لله، وأتبع للسنة، ويجفوهم، ولا يقبل منهم، والسبب أنه اختلف معهم في مسائل اجتهادية، والله المستعان.

وقال:وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ فظهرت عليهم الحجة هنا -كما يقول ابن القيم رحمه الله- من وجهين:

الوجه الأول: وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ [سورة البقرة:٩١] فهذا يقتضي كفرهم بما معهم، والأمر الثاني: هو فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ فهؤلاء منكم، وأنزل عليهم الوحي، ومع ذلك تقابلونهم بالقتل، وليس فقط الكفران وكما ذكرنا في مناسبة سابقة أن هذا القتل ما وقع إلا بعد الكفر، كما قال: الله: فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ [سورة البقرة:٨٧] فالذين قتلوا إنما قتلوا بعد التكذيب، فوقع لهم التكذيب والقتل.

وقوله: وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ فهذا التصديق فيه باعتبار أنه جاء وصف النبي صلى الله عليه وسلم ووصف الأمة، ونحو ذلك، فجاء كما وصف، وكفروا به، فهذا كفر بما جاء في كتابهم.

ومن جهة أخرى: أنه مصدق بأن هذه الكتب من عند الله، يعني في أصلها، وأن هؤلاء الرسل الكرام الذي جاءوا لبني إسرائيل موسى وعيسى -عليهما السلام- وغير هؤلاء من أنبياء بني إسرائيل: أنهم رسل من عند الله، وكذلك أيضًا ما جاء في أصول الشرائع، مما تتفق به الشرائع، وأصول الإيمان، فهذا مصدق لما معهم.

المقصود بالبينات في قوله تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ)

قال: أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: (ولقد جاءكم موسى بالبينات)، أي جاءكم بالبينات الدالة على صدقه وصحة نبوته، كالعصا التي تحولت ثعبانا مبينا، ويده التي أخرجها بيضاء للناظرين، وفلق البحر ومصير أرضه له طريقا يبسا، والجراد والقمل والضفادع، وسائر الآيات التي بينت صدقه وصحة نبوته.

وإنما سماها الله" بينات" لتبينها للناظرين إليها أنها معجزة لا يقدر على أن يأتي بها بشر، إلا بتسخير الله ذلك له. وإنما هي جمع" بينة" ،

قال: أبو جعفر: ومعنى الكلام: ولقد جاءكم - يا معشر يهود بني إسرائيل - موسى بالآيات البينات على أمره وصدقه وصحة نبوته.

وقوله:" ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون" يقول جل ثناؤه لهم: ثم اتخذتم العجل الها من بعد ذهاب موسى عليه السلام للقاء ربه. ولقد بينا ذلك من قبل ونحن نتحدث عن قول الله تعالى

، واذ واعدنا موسي اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده،

وأما قوله: (وأنتم ظالمون)، فإنه يعني بذلك أنكم فعلتم ما فعلتم من عبادة العجل وليس ذلك لكم، وعبدتم غير الذي كان ينبغي لكم أنتعالىبدوه ؛ لأن العبادة لا تنبغي لغير الله. وهذا توبيخ من الله لليهود، وتعيير منه لهم، وإخبار منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا - من اتخاذ العجل إلها وهو لا يملك لهم ضرا ولا نفعا

بعد الذي علموا أن ربهم هو الرب الذي يفعل من الأعاجيب وبدائع الأفعال ما أجراه على يدي موسى صلوات الله عليه، من الأمور التي لا يقدر عليها أحد من خلق الله، ولم يقدر عليها فرعون وجنده مع بطشه وكثرة أتباعه، وقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب حكم الله - فهم إلى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وجحود ما في كتبهم التي زعموا أنهم بها مؤمنون من صفته ونعته، مع بعد ما بينهم وبين عهد موسى من المدة - أسرع، و إلى التكذيب بما جاءهم به موسى من ذلك أقرب

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

يخاطبهم يقول: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ واذكروا حين أخذنا عهدكم المؤكد؛ فإن الميثاق هو العهد المؤكد، أخذ عليهم العهد بقبول ما جاءهم به نبيهم أعني موسى فنقضوا هذا العهد.

والله -تبارك وتعالى- حينما أخذ عليهم ذلك رفع فوقهم جبل الطور، وقال: لهم: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ يعني: بجد، وعزم من غير توانٍ، ولا تراخٍ ولا تخير، واسمعوا سماع قبول وانقياد، وأطيعوا وإلا وقع عليكم هذا الجبل، فقالوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا سمعنا قولك، وعصينا أمرك؛ وذلك أن عبادة العجل قد امتزجت في نفوسهم وخالطتها إلى حد الإشراب، بسبب تماديهم بالكفر بالله -تبارك وتعالى.

فقل لهم: بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ قبح ما يأمركم به إيمانكم من الكفر والعتو على الله، والتمرد عليه إن كنتم مصدقين مؤمنين منقادين بما أنزل الله عليكم.

يؤخذ من هذه الآية الكريمة قوله -تبارك وتعالى: وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ لاحظ هنا وقبله وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ [سورة البقرة:٦٣] وهنا: وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قال:وا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا فكرر ذكر الطور في أخذ الميثاق عليهم؛ وذلك أنه تعالى لق بهم في هذا الموضع الثاني من هذه السورة الكريمة. وهي هذا الجواب القبيح منهم: قال:وا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا يعني: مع رفع الطور، جبل ضخم كبير فوق رؤوسهم، ومع ذلك كان هذا الجواب، هذا بالإضافة إلى التوكيد، فأعاده ثانية؛ فإن هذه الإعادة تفيد، وفيه إقامة الحجة على هؤلاء، وتذكيرهم بنعم الله ونقمه؛ لينزجر الأخلاف بما جرى ووقع للأسلاف.

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا سماع قبول

، ولكن من الناس من يكفيه أدنى تذكير، وأدنى تنبيه، ومن الناس من يحتاج إلى شيء من الزجر أو الوعظ، أو التخويف، ومن الناس من لا يفلح معه رفع الجبل فوق رأسه، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قال:وا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا،

ليس بعد هذا شيء، جبل هائل فوق رؤوسهم ومع ذلك يعلنون تمردهم على الله -تبارك وتعالى.

أيضًا يؤخذ من قوله -تبارك وتعالى: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ

لزوم الأخذ، أخذ الشرع، والكتاب المنزل والوحي بقوة، يعني بجد، وهذا بخلاف حال من يتخير وينتقي ما يوافق هواه، أو يتباطأ في الاستجابة، ويؤخر الامتثال خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ بعزم وجد وإقبال، أخذًا للدين بشموله وكماله كما أنزله الله -تبارك وتعالى-

هؤلاء اليهود وقع منهم التخيير، فالله -تبارك وتعالى- قال:أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ [سورة البقرة:٨٥] ووقع منهم التباطؤ، والتأخر، والتراجع،

مدينة الجبارين

انظروا حينما أمروا بذبح البقرة ماذا فعلوا، وكذلك حينما قال: ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ [سورة البقرة:٥٨] ماذا حصل من هؤلاء؟ وحينما كان ينزل عليهم المن والسلوى، ماذا كان شكرهم ومردودهم؟

وفي مدينة الجبارين لما أمروا بدخولها كان منهم الامتناع والعصيان إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝ قال: رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ قال:وا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ [سورة المائدة:٢٢- ٢٤].

تصور لو أن قائدًا ليس بنبي يأمر من تحت يده من الجنود بالتقدم، فيقولون له، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، عصيان ما بعده عصيان ماذا عساه أن يفعل؟ وهذا موسى نبي، وقوي، وفي غاية الحزم، وكليم الرحمن، ومع ذلك تمردوا وقال:وا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُون، فكان الجزاء: قال:، فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ [سورة المائدة:٢٦] على الوقف في هذا الموضع،

قال: فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الارض. على الوصل.

الفائدة مما سبق: الأخذ بالقوة هذا هو المطلوب من بني إسرائيل، ومن غير بني إسرائيل، وذلك في شرع الله -تبارك وتعالى- مطلقًا. وكذلك من يتعرض للإفتاء لا يجوز له أن يتجارى مع أهواء الناس، ويرخص لهم بحسب ما يهوون ويرغبون؛ بحجة التيسير، إنما ينضبط في الفتيا، ولا يصح أن يكون موافقًا ومتابعًا لما يرغبه الناس، ويهوونه فيكون تبعًا لهم.

وكذلك أيضًا المستفتي لا يجوز له أن يسأل، ويتخير في السؤال، فيوجه سؤاله إلى من يعلم أنه يجيب بحسب هواه؛

فليعلم بأن ذمته لا تبرأ بهذا، والحق عند الله واحد، وإنما يجب عليه أن يسأل من يثق بعلمه ودينه، فيسأل غير متتبع لرخص الفقهاء، ولا متجارٍ مع

الأهواء،

وإذا وجد فتوى عالم وفتوى آخر اختلفت فليس له أن يتخير، أو وجد الخلاف، ليس له أن يحتج

بالخلاف فيأخذ ما شاء، فإن الخلاف لا يسوّغ التخيرُّ بحال من الأحوال،

بل عليه أن يتحرى، وينظر من هو الأرجح في نظره من هؤلاء العلماء من جهة العلم، ومن جهة الورع والدين فيأخذ بقوله، فإذا استويا،

فكما قال: الشاطبي: يؤخذ المخالف لهواه عكس ما يقوله الناس اليوم، أو كثير منهم، يحتجون بالخلاف فيأخذون ما تهوى الأنفس، فيكون الإنسان بذلك غير متبعٍ لشرع الله، وإنما يكون متبعًا لهواه، فلا تبرأ ذمته بذلك.

ومما تحذر منه الاية الكريمة

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ [سورة البقرة:٩٣] هو التباطؤ والتأخير، على سبيل المثال اذا اظل الناس موسم الحج فمن لم يحج وهو قادر على الحج فلا يجوز له التأخير، يقول: بعد سنة، وبعد سنة، او إلى ان تتيسر الامور اكثر من ذلك ويمضي العمر ولا يدري الإنسان ما يعرض له،

بل الصحيح أن الحج واجب على الفور، إذا كان الإنسان قادرًا مستطيعًا، فيجب عليه أن يحج فورًا، يحج باولاده وبناته، ولا ينتظر ويتأخر، هذا داخل في قوله: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ [سورة البقرة:٩٣] أي المبادرة إلى الامتثال لأمر الله على الفور

ومثال ذلك ايضا إذا أذن المؤذن دع ما في يدك، إذا كنت تسير في مركبتك وسمعت الأذان لا تقل: المسجد أمام، المسجد الذي بعده، المسجد الذي بعده حتى تسمع: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، فيُسقط بيدك وتخسر، لا،

، خذوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ [سورة البقرة:٩٣] فالحزم ان تتوقف وتصلي بمجرد ما تسمع الأذان.

وهكذا في كل شأن من شؤوننا، بمعنى انه إذا جاء أمر الله -تبارك وتعالى- لا يقدم عليه شيء، التراخي وتمييع حقائق الدين، وما إلى ذلك مما يفعله البعض هذا كله خلاف هذه الآية،

وهذا الأمر الوارد فيها، عرض الدين بطريقة تتفق مع المضيعين والمفرطين وأصحاب الشهوات، أو أصحاب البدع من أجل إرضائهم، فإن هذا خلاف خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ [سورة البقرة:٩٣] يعني: لا تأخذه بضعف.

وفي الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- أن يعمل الإنسان بجد واجتهاد.

وأيضًا يؤخذ من هذه الآية خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قال:وا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا في كتبهم، في توراتهم تجد مثل هذه العبارات، الأمر بالسماع متكررًا في خطاب موسى لهم، اسمعوا يا بني إسرائيل.

وعلى كل حال المقصود بالسماع هنا سماع القبول والانقياد، والامتثال لأمر الله، وإلا لو كان المقصود

فقط سماع الصوت، فغير منطقى لان الصوت فى جميع الاحوال يطرق الأسماع،

إنما المقصود هنا اسمعوا سماع استجابة وسماع قبول، ولهذا نقول: اللهم اجعلنا ممن يستمع القول فيتبع أحسنه.

السر البلاغي في قوله تعالى: (وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ)

وفي قوله -تبارك وتعالى-: وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ [سورة البقرة:٩٣] هنا جاء التعبير بالفعل الذي لم يسمَّ فاعله، يعني المبني للمجهول وَأُشْرِبُوا ما قال:أشربهم الله مثلاً، أو نحو ذلك، فيه إشارة إلى أن حبهم للعجل بلغ مبلغ الأمر الذي لا اختيار لهم فيه، كأن غيرهم أشربهم إياه وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ يعني: وصلت محبة العجل في قلوبهم تغلغلت كأن غيرهم قد غرسها وغرزها في نفوسهم، وعبأ هذه النفوس بها وَأُشْرِبُوا تقول: فلان أشرب حب كذا.

ثم أيضًا فيه إيجاز بالحذف كما يقول البلاغيون، يعني التقدير: وأشربوا في قلوبهم حب العجل، وهنا حذف الحب أو حب عبادة العجل، فأسند

الإشراب إلى ذات العجل مبالغة في حبهم له أو لعبادتهم، كأن العجل بكامله كأن قلوبهم قد التهمته من شدةتعالىلقها به، أشربوا حب عبادة العجل.

ثم هذا فيه تشبيه، يعني: صورت هذه القلوب لتمكن حب العجل منها كأنها تشرب، وكأن الأفعال السيئة القبيحة التي صدرت عنهم بعد ذلك هي نتيجة لهذا الإشراب، كما أن الماء يكون مادة للحياة، فإذا شربه الحيوان أو النبات؛ فإنه ينمو ويحيا، فهو مادة حياة ما تنبته الأرض، وهكذا حب العجل صار مادة لما أنبتته قلوبهم وأفرز ذلك في أعمالهم وسلوكهم وتصرفاتهم، فجاءت معوجَّة، جاء منهم التمرد والعصيان، ونكث العهود، وقتل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - شربت هذه القلوب العجل فأنبت كل نبت وخيم، والشيء من أصله ومادته لا يستغرب، فهذه القلوب صارت منابت للشر يزكو فيها وينمو.

ولاحظ التعبير هنا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: إذا كان المخلوق الذي لا تجوز به محبته قد يحبه القلب حبًا يجعل ذلك شرابًا للقلب، فحب الرب -تبارك وتعالى- أن يكون شرابًا تُشربه قلوب أهل الإيمان أولى وأحرى

والعجيب ان حب عجل يصل بهؤلاء إلى هذا المستوى تُشرب القلوب، الم يكن حب الله أولى بذلك، الذى انجاهم من فرعون وكفى بخلاف المنن والنعم الاخرى والتى كانت الواحدة منها تستوجب شكر الله للابد

فكان ينبغى أن تُشرب قلوب أهل الإيمان محبة الله والتعلق بـه، فيكـون ذلـك عـلى الألسن ـ ذكرًا، وفي الجوارحتعالىبدًا وعملاً.

ثم أيضًا هذا الإشراب من الذي أشربهم بذلك؟ الخير والشر كله من الله، ولكن مـن بـاب الأدب في الألفاظ، فإن الشر لا يسند إلى الله -تبارك وتعالى- فجاء مبنيًا للمجهول، وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ.،

وفـي قولـه -تبـارك وتعـالى، : قُـلْ بِئْسَـمَا يَـأْمُرُكُمْ بِـهِ إِيمَـانُكُمْ إِنْ كُنـتُمْ مُـؤْمِنِينَ [سـورة البقرة:٩٣]

وفـى هـذا لطيفـة وهـى أن الإيمـان الصـحيح يـأمر صـاحبه بـالخير، والمعـروف، والطاعـة، والانكفاف عن المعصية لقول الله تعـالى إلى إِنَّ الَّـذِينَ اتَّقَـوْا إِذَا مَسَّـهُمْ طَـائِفٌ مِـنَ الشَّـيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ [سورة الأعراف:٢٠١]

بينمـا الفريـق الآخـر الـذين فقـدوا الإيمـان وَإِخْـوَانُهُمْ [سـورة الأعـراف:٢٠٢] يعـني: إخـوان الشياطين، هنا الضمير يرجع إلى غير مذكور، لكنه مفهـوم مـن السـياق.، وَإِخْـوَانُهُم، لـيس إخـوان المؤمنين، وإنما يعني: إخوان الشياطين.

يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ [سورة الأعراف:٢٠٢] يعني: الشياطين تمـدهم فـي الغـي ثُـمَّ لا يُقْصِرُونَ [سورة الأعراف:٢٠٢]

بمعنى إن الشياطين تمدهم وتغويهم لدرجـة تنسـيهم الرجـوع والتوبـة، لا يرعـوون، فتجـده ينقضي العمر إلى آخر لحظة، وهو ينازع الموت وتتعجـب مـا يتـوب، إلى آخـر لحظـة، وهـو محـتفظ بضلاله وانحرافه، لا يرعوي، ولا يرجع عنه، ولا يتوب إلى الله مهما بلغ به الحال والشدة،

والعجيب انه يعلم أنه مفارق، وأنه مُرتحِل، ومع ذلك هؤلاء تمدهم الشياطين في الغي، أما أهـل الإيمـان إذا وقـع منـه شيء خـاف وتـذكر، تـذكر الله وعظمتـه، ونظـره إليـه، وجـزاءه، فرجـع مباشرة، واستغفر وتاب.

ثم أيضًا في قوله -تبارك وتعالى: قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُم،

° هنا جاءت إضافة الأمر يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكم أضافه إلى الإيمان، يقول: هذا من باب التهكم عليهم ؛ إذ ان الإيمان الحقيقي لا يأمر إلا بخير، لكن هؤلاء ليس عندهم الإيمان الحقيقي،

لانه ما هذا الإيمان الذي يأمرهم بسمعنا وعصينا، والتعلق بعجل، فهذا لا يكون من أهل الإيمان، وليسوا بمؤمنين حقيقة، وإنما هذا الإيمان هو الإيمان الفاسد، والله المستعان.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

قال: محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب. فأبوا ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) أي: بعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم

قال: لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات.

وقال: الضحاك، عن ابن عباس: (فتمنوا الموت) فسلوا الموت.

وقال: عبد الرزاق، عن معمر، عن عبد الكريم الجزري، عن عكرمة، قوله: (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) قال:قال: ابن عباس: لو تمنى اليهود الموت لماتوا.

وقال: ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا عثام، سمعت الأعمش قال:لا أظنه إلا عن المنهال، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال:لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه. وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس.

وقال: ابن جرير في تفسيره: وبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا. ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا" . حدثنا بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقي [أبي يزيد] حدثنا فرات، عن عبد الكريم، به.

وقال: ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد [قال:]: حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار، حدثنا سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قال:قول الله ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم. قلت: أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم: تمنوا، أتراهم كانوا ميتين؟

قال:لا والله ما كانوا ليموتوا ولو تمنوا الموت، وما كانوا ليتمنوه، وقد قال: الله ما سمعت: (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين)

وهذا غريب عن الحسن. ثم هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس، رحمهم الله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى إلى في سورة الجمعة: (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتمتعالىملون) [الجمعة: ٦٨]

سبب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى المباهلة

والسبب فى ذلك

انهم عليهم لعائن الله لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقال:وا:، لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى،

طبيعى ان يدعوهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم، أو من المسلمين، حتى لا يكونوا فتنة،

فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد شاهد او علم بما كان منهم أنهم ظالمون ؛ لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم وتم فضحهم على رؤوس الاشهاد

. وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة، وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقلتعالالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) [آل عمران: ٦١]

فلما رأوا الجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم.

وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، رضي الله عنه، أمينا. ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى إلى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) [مريم: ٧٥]، أي: من كان في الضلالة منا أو منكم، فندعو الله أن يزيده مما هو فيه ومد له، واستدرجه

وهناك رأى اخر وهو

هناك من فسر الآية على معنى: (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين)

أي: إن كنتم صادقين في دعواكم، فتمنوا الآن الموت. ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول ؛

فإنه قال:القول في تفسير قوله تعالى: (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين)

وهذه الآية مما احتج الله به لنبيه صلى الله عليه وسلم على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم ؛

وذلك أن الله تعالى إلى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم إلى قضية عادلة بينه وبينهم، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف،

كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذا

خالفوه في عيسى ابن مريم، عليه السلام، وجادلوه فيه، إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة.

وعليه فقال: صلى الله عليه وسلم لفريق [من] اليهود: إن كنتم محقين فتمنوا الموت، فإن ذلك غير ضار بكم إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، فان من يتميز بذلك يرغب فى لقاء الله فان كنتم صادقين فتمنوا الموت نعطيكم أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة منتعالب الدنيا ونصبها وكدر عيشها، والفوز بجوار الله في جناته إن كان الأمر كما تزعمون: من أن الدار الآخرة لكم خالصة دوننا.

وإن علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم، فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكت، فذهبت دنياها وصارت إلى خزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق [من] النصارى.

وهنا لفته مهمة

فهذا الكلام منه أوله حسن، وأما آخره فيه نظر ؛ وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال:إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنون الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت، وكم من صالح لا يتمنى الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيرا وترتفع درجته في الجنة، كما جاء في الحديث:" خيركم من طال عمره وحسن عمله" . [وجاء في الصحيح النهي عن تمني الموت، وفي بعض ألفاظه:" لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، إما محسنا فلعله أن يزداد، وإما مسيئا فلعله أن يستعتب"]. ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فها أنتمتعالتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنة، وأنتم لا تتمنون في حال الصحة الموت ؛ فكيف تلزمونا بما لا نلزمكم؟

وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نصف: إن كنتمتعالتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس،

وأنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم [من] أهل النار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه. فعلم كل أحد باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

سبب تسمية هذه المباهلة تمنياً

[وسميت هذه المباهلة تمنيا ؛ لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له فيها بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت ؛ لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت].

ولهذا قال تعالى: (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ولتجدنهم أحرص الناس على حياة): أي: [أحرص الخلق على حياة أي]: على طول عمر، لما يعلمون من مآلهم السيئ وعاقبتهم عند الله الخاسرة ؛ لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم. وما يحذرون واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص [الناس] من المشركين الذين لا كتاب لهم. وهذا من باب عطف الخاص على العام.

قال: ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (ومن الذين أشركوا) قال:الأعاجم.

ورواه الحاكم في مستدركه من حديث الثوري، وقال:صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه. قال:وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي. وقال: الحسن البصري: (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة)

قال:المنافق أحرص الناس على حياة، وهو أحرص على الحياة من المشرك (يود أحدهم) أي: أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق.

وقال: أبو العالية: (يود أحدهم) يعني: المجوس، وهو يرجع إلى الأول.

(لو يعمر ألف سنة) قال: الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال:هو كقول الفارسي:" زه هزارسال" يقول: عشرة آلاف سنة. وكذا روي عن سعيد بن جبير نفسه أيضا.

وقال: ابن جرير: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق قال:سمعت أبي يقول: حدثنا أبو حمزة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس، في قوله تعالى: (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال:هو الأعاجم:" هزارسال نوروز مهرجان" .

وقال: مجاهد: (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال:حببت إليهم الخطيئة طول العمر

وقال: محمد بن إسحاق، عن محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) أي: ما هو بمنجيه من العذاب. وذلك أن المشرك لا يرجو بعثا بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما صنع بما عنده من العلم.

وقال: العوفي، عن ابن عباس: (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) قال:هم الذين عادوا جبريل. وقال: أبو العالية وابن عمر فما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجيه منه.

وقال: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم [في هذه الآية] يهود أحرص على [هذه] الحياة من هؤلاء، وقد ود هؤلاء أن يعمر أحدهم ألف سنة، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب لو عمر، كما عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافرا. (والله بصير بما يعملون) أي: خبير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله

سبب زعم اليهود أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)

قال: الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا [على] أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قال:وا ذلك. فقال: بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر نبوته. ذكر من قال: ذلك

حدثنا أبو كريب، حدثنا يونس بن بكير، عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس أنه قال:حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك عنهن، لا يعلمهن إلا نبي، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي ذمة وما أخذ يعقوب على بنيه، لئن أنا حدثتكم شيئا فعرفتموه لتتابعني على الإسلام" . فقالوا: ذلك لك.

فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" سلوني عما شئتم" . فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن: أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ووليه من الملائكة؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعني؟

" فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق. فقال: "نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هلتعاللمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضا شديدا فطال سقمه منه، فنذر لله نذرا لئن عافاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها؟"

. فقالوا: اللهم نعم. فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" اللهم اشهد عليهم.

وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرا بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟" .

قالوا: اللهم نعم. قال:"اللهم اشهد"

. قال:" وأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هلتعاللمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه؟"

. قالوا: اللهم نعم. قال:"اللهم اشهد"

. قالوا: أنت الآن،

فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك. قال:"فإن وليي جبريل، ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه" . قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك

.

قال:"فما منعكم أن تصدقوه؟" قالوا: إنه عدونا. فأنزل الله عز وجل: (قل من كان عدوا لجبريل) إلى قوله: (لو كانوا يعلمون) [البقرة: ١٠٣] فعندها باؤوا بغضب على غضب.

وقد رواه الإمام أحمد في مسنده، عن أبي النضر هاشم بن القاسم وعبد بن حميد في تفسيره، عن أحمد بن يونس، كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام، به.

ورواه الإمام أحمد أيضا عن الحسين بن محمد المروزي، عن عبد الحميد، بنحوه [به].

وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن شهر بن حوشب، فذكره مرسلا وزاد فيه: قالوا: فأخبرنا عن الروح قال:"أنشدكم بالله وبآياته عند بني إسرائيل، هلتعالملمون أنه جبريل، وهو الذي يأتيني؟" قالوا: نعم، ولكنه لنا عدو، وهو ملك إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء، فلولا ذلك اتبعناك. فأنزل الله فيهم: (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) إلى قوله: (كأنهم لا يعلمون) [البقرة: ١٠١].

قال:سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في أرض يخترف. فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟

قال:"أخبرني بهن جبريل آنفا" . قال:جبريل؟ قال:"نعم" . قال:ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية: (من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك)"

أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة [ماء الرجل] نزعت" . قال:أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني. فجاءت اليهود فقال: النبي صلى الله عليه وسلم:" أي رجل عبد الله بن سلام فيكم؟" قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال:"أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام" . فقالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبد الله فقال:أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا. فانتقصوه.

قال:هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله.

حدثني محمد بن المثنى، حدثني ربعي بن علية، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي، قال:نزل عمر الروحاء، فرأى رجالا يبتدرون أحجارا يصلون إليها، فقال:ما بال هؤلاء؟ قالوا: يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى هاهنا. قال:فكفر ذلك. وقال:إنما رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركته الصلاة بواد صلاها ثم ارتحل، فتركه. ثم أنشأ يحدثهم، فقال:كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق الفرقان ومن الفرقان كيف يصدق التوراة؟ فبينما أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب، ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك.

قلت: ولم ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا. فقلت: إني آتيكم فأعجب من الفرقان كيف يصدق التوراة، ومن التوراة كيف تصدق الفرقان. قال:ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبكم فالحق به،

قال:فقلت لهم عند ذلك: نشدتكم بالله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه واستودعكم من كتابه: أتعلمون أنه رسول الله؟ قال:فسكتوا. فقال: لهم عالمهم وكبيرهم: إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه. فقالوا: فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت. قال:أما إذ نشدتنا بما نشدتنا به

فإنا نعلم أنه رسول الله، قال:قلت: ويحكم فأنى هلكتم؟ ! قالوا: إنا لم نهلك [قال:]: قلت: كيف ذلك وانتم تعلمون أنه رسول الله [ثم] ولا تتبعونه ولا تصدقونه؟

قالوا: إن لنا عدوا من الملائكة وسلما من الملائكة، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة. قال:قلت: ومن عدوكم ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمنا ميكائيل. قال:قلت: وفيم عاديتم جبريل، وفيم سالمتم ميكائيل؟ قالوا: إن جبريل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا.

قال:قلت: وما منزلتهما من ربهما عز وجل؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال:قلت: فو [الله] الذي لا إله إلا هو، إنهما والذي بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما وما ينبغي لجبريل أن يسالم عدو ميكائيل وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدو جبريل

. ثم قمت فاتبعت النبي صلى الله عليه وسلم فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان، فقال:يا ابن الخطاب، ألا أقرئك آيات نزلن قبل؟" فقرأ علي: (من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه) حتى قرأ هذه الآيات. قال:قلت: بأبي وأمي يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقني إليك بالخبر.

وأما تفسيرها فقوله تعالى: (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) أي: من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكي [عليه وعلى سائر إخوانه من الملائكة السلام] ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل،

كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل، كما قال تعالى: (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) [النساء: ١٥٠، ١٥١] فحكم عليهم بالكفر المحقق، إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله ؛ لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال:(وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا) [مريم: ٦٤]

وقال تعالى: (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]

وقد روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، قال:قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب" . ولهذا غضب الله لجبريل على من عاداه، فقال:(من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه)

أي: من الكتب المتقدمة (وهدى وبشرى للمؤمنين) أي: هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين. كما قال تعالى: (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) [الإسراء: ٨٢].

ثم قال تعالى: (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي،

ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى: (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس) [الحج: ٧٥].

(وجبريل وميكال) وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا في الملائكة، ثم عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر ؛ لأن السياق في الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ ؛ لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم وميكائيل وليهم،

فأعلمهم أنه من عادى واحدا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضا ؛ لأنه أيضا ينزل على الأنبياء بعض الأحيان، كما قرن برسول الله صلى الله عليه وسلم في ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر، وهي وظيفته، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، هذاك بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ للبعث يوم القيامة ؛

ولهذا جاء في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يقول" اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم

بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"

وقوله تعالى: (فإن الله عدو للكافرين) فيه إيقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل: فإنه عدو للكافرين. قال:(فإن الله عدو للكافرين)

وإنما أظهر الاسم هاهنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره، وإعلامهم أن من عادى أولياء الله فقد عادى الله، ومن عادى الله فإن الله عدو له، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة، كما تقدم الحديث:" من عادى لي وليا فقد بارزني بالحرب" . وفي الحديث الآخر:" إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب" . وفي الحديث الصحيح:" ومن كنت خصمه خصمته" .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)

قد أنزلنا إليك أيها الرسول آيات بينات واضحات، لا تترك في الحق لبسًا، تدل على صدق ما جئت به، وفيها من البراهين والدلائل ما يكفي لكل ذي إنصاف أن يؤمن بها، بل هذه الآيات المتلوة التي أنزلها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم جاءت بقوالب لفظية في غاية البلاغة والفصاحة، فهي معجزة في فصاحتها وبلاغتها وبيانها، فلا يكفر بها بعد ذلك إلا الفاسقون، الخارجون عن طاعة الله -تبارك وتعالى- والخارجون عن الإيمان به، فهؤلاء لو جاءتهم كل آية فإنهم لا ينتفعون بذلك.

وتأمّل بقوله -تبارك وتعالى- هنا: وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ بعد قوله: قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ فجاء بأسلوب الغائب، مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّه ولم يقل: فإني، وإنما قال:فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ثم تحول الخطاب إلى المخاطب، فقال:وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ولم يقل: ولقد أنزل الله إليك، وإنما جاء بأسلوب المتكلم بعد أن كان بأسلوب الغائب فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ فلم يقل: فإني، إلى أن قال: بعده: وَلَقَد أَنْزَلْنَا فجاء بضمير المتكلم، فهذا التفات من الغَيبة إلى ضمير المتكلم،

وكذلك أيضًا وجه الخطاب فيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فهذا يشعر بالقرب،

وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعد تكذيب هؤلاء اليهود، فكأنه يقول: لا تكترث ولا تلتفت إليهم، فهذا ديدنهم، وهذه عادتهم، ومن ثم فإن الله -تبارك وتعالى- هو وليك، وهو الذي يؤيدك، وهو الذي أوحى بذلك إليك، وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ،

وفيه إثبات علو الله على خلقه؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل.

وفيه أيضًا إثبات إنزال القرآن، فإن عقيدة السنة والجماعة أن القرآن منزل من الله، سمعه جبريل من الله مباشرة بلا واسطة، ويدل على هذا حديث تكلم الله بالوحي، فهذا اعتقاد أهل السنة والجماعة،

خلافًا لبعض أهل البدع الذين يقولون: بأن جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ، أو من يقولون: بأن جبريل أخذه من بيت العزة في سماء الدنيا، هذا كله غير صحيح؛ لأن هؤلاء لا يثبتون أن الله يتكلم كما شاء متى شاء على ما يليق بجلاله وعظمته، فهذا مبني على اعتقادهم الفاسد.

ولقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ والتنكير في قوله: آيَات.، يدل على التعظيم، فهي كلام الله -تبارك وتعالى- وهي مشتملة على الهدى الكامل من كل وجه، فهي دلائل وبراهين، فإن الآية تدل على معنى العلامة، إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ [سورة البقرة:٢٤٨] يعني علامة ملكه، فهذه الآيات تدل على صدق من جاء بها، وأنه جاء بها من الله وليس ذلك بمختلقات من قبل نفسه.

ثم تأمّل وصف هذه الآيات بالبينات، فالقرآن في غاية الوضوح، والله -تبارك وتعالى- يقول: وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ [سورة القمر:١٧] يعني للتذكر فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [سورة القمر:١٧] فهذا التيسير يشمل تيسير الألفاظ، فهو ميسر في حفظه، وكذلك ميسر في تلاوته، ويشمل أيضًا تيسير المعاني، فالله خاطب العرب بما يفقهون وما يفهمون، فلا يوجد فيه أحاجي وطلسمات، وأمور غامضة لا تفهم، ولا يعرف أحد معناها، كما يقول بعضهم: بأن القرآن فيه ما لا يعرف أحد معناه إلا الله، يعني لا الرسول صلى الله عليه وسلم ولا غير الرسول -عليه الصلاة والسلام-

فهذا غلط، فإن الله لا يمكن أن يخاطب الأمة إلا بما تفهم، وهذا هو الغرض من إنزاله، كما قال: الله -تبارك وتعالى: كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ [سورة ص:٢٩].

فهذا التدبر لا يمكن أن يتحقق إذا خوطبوا بشيء لا يفقهونه، ولا يدخل تحت مداركهم، فهذه الآيات وصفها الله بالبينات، فهي بينة في نفسها، وهي أيضًا مبينة للحق، فإن أصل هذه المادة (بان) و(أبان) تأتي متعدية، وتأتي لازمة، أبان الحق أي أوضحه، وتأتي بمعنى بان أي اتضح، فما بقي بعد هذا الإيضاح والبيان إلا العناد لمن لم يدخل في الإيمان.

وقد يقول قائل إن هذا التوضيح والبيان للآيات الواضحة ولكن ماذا عن الحروف المقطعة؟

اولا: لقد تناولناها بإسهاب فى اول السورة بفضل الله تعالى إلى ونضيف انه على الأرجح ليس لها معنى في نفسها، فهي ليست بكلام مركب، وإنما هي حروف تهجي، وحروف التهجي عند العرب لا معنى لها في نفسها، وإنما تشير إلى الإعجاز، كما يقوله الفراء وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله وجمع من أهل العلم: أنها تشير إلى معنى الإعجاز؛

ولذلك لا تكاد تذكر إلا ويذكر بعدها القرآن، أو ما يقتضي ذلك، في ثلاث سور خاصة، باقي المواضع يذكر بعدها القرآن الم ۝ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ [سورة البقرة:١، ٢]

الم ۝ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ [سورة آل عمران:١- ٣]

وهكذا في جميع المواضع إلا في ثلاث سور ذكر ما يقتضي ذلك ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا [سورة مريم:٢] والقرآن رحمة، وهكذا.

وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ [سورة البقرة:٩٩] فهذا يدل على أن الذين بلغهم القرآن، وفهموا عن الله -تبارك وتعالى- خطابه فيه، ثم بعد ذلك هم يكفرون أن هؤلاء إنما حملهم على ذلك العناد، والخروج عن طاعة الله -تبارك وتعالى- فصاروا مختارين للكفر على الإيمان، مشترين الضلالة، مستعيضين بها بدلاً من الهدى والحق.

فهذه الآيات وهذا القرآن هو في نفسه حجة، وهو في نفسه معجز، فإذا عرض على الناس، وقرئ عليهم، ثم بعد ذلك وجدت المكابرة والعناد، ولم يقع منهم الإيمان، فإن ذلك إنما هو بسبب عتوهم وعنادهم، لا يكفر بها من كان خاضعًا مؤمنًا مستجيبًا طالبًا للحق، وإنما من كان معاندًا فإنه يكفر بها.

ثم قال: الله -تبارك وتعالى- عن هؤلاء اليهود بعد أن بيّن وأشار في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها أنهم فاسقون: وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ [سورة البقرة:٩٩] إذن فهؤلاء حينما لم يؤمنوا بهذه الآيات دلّ ذلك على أنهم فاسقون.

ثم قال: الله -تبارك وتعالى: أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ [سورة البقرة:١٠٠] فهم مع كفرهم، واتصافهم بالفسق، فإن آثار ذلك ظاهرة عليهم، بادية في تصرفاتهم وأعمالهم وسلوكهم ومزاولا:تهم، فهم، أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ [سورة البقرة:١٠٠]

يقول: ما أقبح حال هؤلاء في نقضهم للعهود، فكلما عاهدوا عهدًا طرح ذلك العهد فريق منهم، ونقضوه، فتراهم يبرمون العهود اليوم، وينقضونها غدًا بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا فالهمزة للإنكار، و(كلما) تدل على التكرار، يعني أن هذا ديدنهم وعادتهم المستمرة، ولا يكون ذلك عارضًا وإنما هو شيء دائم مستمر كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ نبذه أي طرحه، وعبّر هنا بالنبذ الذي يدل على طرح بغير مبالاة نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ هذا إضراب يدل على أن ما صدر منهم من هذا النبذ للعهود، ونقض ونكث العهود والمواثيق كان بسبب عدم إيمانهم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ والإيمان له آثاره التي تظهر على صاحبه، فالإيمان كما قال: النبي صلى الله عليه وسلم: الإيمان بضع وسبعون -أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق فالوفاء بالعهود إيمان، والأمانة إيمان، والشهادة بالحق إيمان، فهؤلاء حينما انتفى الإيمان عنهم ظهرت آثار ذلك عليهم بنقض العهود.

فالإيمان الصحيح له آثاره السلوكية على أصحابه والمنتسبين إليه ولا بد، فإن هذا الإيمان يحملهم على مقتضياته وفروعه وشرائعه وأعماله التي منها الوفاء بالعهود، وأداء الأمانات، هؤلاء لما انتفى عنهم الإيمان ظهر منهم أضداد ذلك من نقض العهود، وهذا يُؤخذ منه على كل حال ما يتصل بالإيمان، وآثاره السلوكية.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)

هناك قال: الله -تبارك وتعالى-: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا [سورة البقرة:٨٩] يعني ان اليهود كانوا يستنصرون أنه سيبعث الله تعالى إلى نبي، ثم بعد ذلك يتبعونه، فيقتلون هؤلاء الذين كانوا يتوعدونهم به من الأوس والخزرج وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ۝ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ [سورة البقرة:٨٩، ٩٠]

فاذا بهم حسدًا للنبي صلى الله عليه وسلم وللعرب أن تكون النبوة والوحي فيهم رفضوا الايمان به صلى الله عليه وسلم، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ، [سورة البقرة:٨٩].

وللتوضيح نقول، وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وهو محمد صلى الله عليه وسلم جاءهم بالحق والقرآن الذي هو كلام الله -تبارك وتعالى- وهو معجز في ألفاظه، وقد تضمن البراهين الساطعة على أنه من عند الله -تبارك وتعالى- ولا يمكن لبشر أن يأتي بمثله، وهو مصدق لما معهم من كتبهم، مما جاء في التوراة والإنجيل أنها من عند الله وأن هؤلاء الأنبياء الذين بعثوا فيهم أنهم أنبياء الله الكرام.

وكذلك أيضًا هو مصدق لما معهم مما قصّ الله -تبارك وتعالى- عليهم من القصص فيما لم يُحرف من كتبهم، مما شهد لصحته القرآن، وهو مصدق لما معهم أيضًا في كونه على وفق ما جاء الخبر به في كتبهم من صفته -عليه الصلاة والسلام- ومع ذلك لما جاءهم هذا الرسول -عليه الصلاة والسلام

- كانت النتيجة نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ نبذوه وطرحوه، وهو كتاب الله -تبارك وتعالى- وجعلوه وراء ظهورهم في غاية الإعراض، كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُون، شأنهم شأن من لا علم له

ولا بصر، فلم ينفعهم ذلك العلم، وما أنزل عليهم من الكتب، مع كثرة ما جاءهم من الرسل والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

فيُؤخذ من قوله -تبارك وتعالى-: وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، ولما جاءهم رسول نُكر، الرسول هنا وهذا التنكير يفيد التعظيم، فهو رسول عظيم من عند الله -تبارك وتعالى- فذلك التنكير يفيد تفخيم شأن هذا الرسول الذي كان ينبغي أن يعظم ويصدق، وأن يؤمنوا به، ولكن للأسف فعلوا خلاف ذلك.

وتأمّل قوله -تبارك وتعالى: مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ؛ فهذه اللام يسمونها لام التقوية، دخلت على مفعول (مصدق)؛ لتقوية دلالة ذلك التصديق، يعني تصديق ثابت محقق مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ ومع ذلك قابلوه

بالتكذيب، ونبذوه وراء ظهورهم.

وتأمّل قوله -تبارك وتعالى- في ذكر موقفهم من هذا الرسول، ومما جاء به: نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۝ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا [سورة البقرة:١٠١، ١٠٢] فذكر هذا الوصف لهم مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ فيه تشنيع عليهم، هم أهل كتاب فنبذهم لا يكون كنبذ غيرهم ممن لا بصر له ولا علم، ولا عهد له بكتاب.

فهؤلاء أهل كتاب، ثم يتعاملون مع الكتاب المنزل والوحي بهذه الطريقة الغريبة ؛ ولهذا يقال:على قدر المقام يكون الملام، فاللوم الذي يلحق هؤلاء أعظم مما يلحق غيرهم من الجهال،

كما قال: الله -تبارك وتعالى: وَقالتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقالتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ [سورة البقرة:١١٣] يعني كيف يقولون هذا وهم يتلون الكتاب؟ كَذَلِكَ قال: الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ وهم المشركون مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فهؤلاء أصبحوا في حال من

الاستواء مع المشركين الذين لا عهد لهم بالعلم، ولا بصر لهم بالكتاب، فقال:وا كمقال:تهم.

وتأمّل قوله -تبارك وتعالى: نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّه، ولم يقل: نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب: الكتاب الذي جاءهم، وإنما قال:كِتَابَ اللَّهِ فهذا فيه زيادة في تفخيم شأن هذا الكتاب، وزيادة في التشنيع على هؤلاء اليهود، فالذي نبذوه إنما هو كتاب الله -تبارك وتعالى- ونبذ كتاب الله كفر محقق، وعمل في غاية القبح والشناعة كِتَابَ اللَّهِ فأبرزه بهذه العبارة، وكان يمكن أن يقال:ولما جاءهم كتاب من عند الله، عُرف أنه من عند الله،، نبذوه وراء ظهورهم لم يقل ذلك، وإنما قال::، نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ: هؤلاء كما يقال:الشر عليهم أكبر، هم أهل كتاب وهكذا يتعاملون مع الكتاب المنزل، ثم أيضًا كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وهذا الكتاب كما قال: في أول الآية:، وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّه، حينما يقال:من عند الله، فهذا يعني أنه حق ثابت، وأنه يجب عليهم الإيمان به، وأن يعظموا هذا الكتاب، فهو ليس من عند أحد من البشر، لا من الرسول ﷺ ولا من غيره.

ثم أيضًا تأمّل قوله -تبارك وتعالى: وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ نبذوه، ولم يقل: نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وإنما عبر بالنبذ، وكذلك أيضًا ذكر معه ما يُورث اليأس من هدايتهم وقبولهم واستجابتهم، فلم ينبذوه عن يمينهم أو شمالهم، وإنما نبذوه وراء ظهورهم، ومن نبذ الكتاب وراء ظهره، فإنه لا يرجَى منه هداية ولا رجوع، ولا ارعواء، فهو في غاية الشرود، فهذا يصور شدة الإعراض الذي كانوا عليه، فمن أعرض عن شيء تجاوزه، فخلفه وراء ظهره.

وذكر هذه الجملة، وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ يدل على تأكيد بعد هذا المتروك عنهم، تقول: فلان جعلنا وراء ظهره، فلان جعل أصحابه وراء ظهره، فلان جعل وصيتي وراء ظهره؛ لما تقول: ترك وصيتي، قد يكون نسي أو غفل، وقد يرجع إليها، لكن لما تقول: جعل وصيتي وراء ظهره، وجعل نصيحتي وراء ظهره، معناه: أنه في غاية الإعراض، فهذا لا يلقاه أبدًا، ذاك الذي جعله خلف ظهره، فجعل الظهر وراء، فقال:وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ فهذا كله يفيد المبالغة في تصوير هذا الطرح والنبذ مع الإعراض الكامل.

فهذه الإضافة.، وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كالبيانية؛ لأن الوراء لا يكون إلا في الخلف، كما يقال:في القفا وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ [سورة الإسراء:٣٦] القفو الاتباع، والذي يتبع غيره يكون في قفاه، ويمشي في قفاه؛ ولهذا فسر وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ [سورة الإسراء:٣٦] بالغيبة والنميمة؛ لأنها تقال: في قفا الإنسان، والواقع أن ذلك يشمل هذا ويشمل غيره وَلا تَقْفُ يعني تتبع، فلما كان المتبع لغيره يسير خلفه، يعني في قفاه، صار كل من يتبع ما لا علم له به من شائعة، وأخبار، ودعوات مضللة، ومذاهب منحرفة، كل هذا يكون بهذه المثابة، قد قفا ما ليس له به علم.

وقال:كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ [سورة البقرة:١٠١] هم يعلمون، ولكن بفعلهم هذا صاروا بمنزلة من لا يعلم، وتأمل هذا الصنيع منهم،

تفسير: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ)

وما ذكر الله -تبارك وتعالى- بعده: وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ [سورة البقرة:١٠٢] فإن هؤلاء تركوا ما هم بصدده من الحق الذي جاءهم، وما كان يجب عليهم من اتباعه، والاهتداء به، والانتفاع بهذا النور المبين، والهدى الكامل، فتركوه، ونبذوه وراء ظهورهم، فماذا كانت النتيجة؟ هل صار هؤلاء في حال من الاهتداء، أو البقاء على هداية، أو التمسك بكتابهم؟

الجواب: لا، وإنما.، وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا [سورة البقرة:١٠٢]

فيُؤخذ من هذا أن من ترك ما هو بصدده من الاشتغال بما ينفعه ابتلي بالاشتغال بما يضره، هؤلاء تركوا كتاب الله،

والنتيجة وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ، العكس تمامًا، يعني أن كتاب الله -تبارك وتعالى- واتباع الرسول -عليه الصلاة والسلام- هذا هو الهدى الكامل، الذي يقابله الظلام والسواد الحالك هو اتباع السحرة.

يعني الرسول في طرف، والساحر في الطرف الآخر تمامًا، الساحر حينما يوغل بالسحر، فإن ذلك يعني أنه قد أوغل في الكفر والضلال واتباع الشياطين،

لا يكون الساحر حاذقًا متمهرًا بالسحر إلا إذا كان عظيم الكفر بالله ، لان الشياطين تطلب منه أشياء من عبادتها، وتقديم القرابين، والتدنيس بأنواع الفواحش وبأقبحها، وكذلك التلوث بالنجاسات، وتلويث المصاحف -أعز الله كتابه وأعز من يسمع- بدم الحيض، والأنتان،

فكلما أوغل في هذا كان في السحر أبرع، فإذا وجد السحر فثمة الظلمة والشر والنجاسات الحسية والمعنوية والشياطين،

وإذا وجد النبوة والرسالة والكتاب، وأنوار الوحي هناك تشرق الهدايات. ولذلك قال: شيخ الإسلام -رحمه الله: بأنه متى أشرقت أنوار النبوة تلاشت الظلمات: ظلمات السحر والشعوذة

والضلال والبدع والأهواء، ومتى ضعفت أنوار النبوة كثر السحر وذاع وشاع، فهذا أمر مشاهد معلوم

فالبلاد التي تضعف فيها أنوار النبوة يكثر فيها السحرة والمردة والطوائف المنحرفة، وأهل البدع والضلالات، والبلاد التي تشرق فيها أنوار النبوة يتلاشى ذلك جميعًا،

فهؤلاء اليهود تركوا النور والهدى والحق الذي أمروا باتباعه، فابتلوا بالاشتغال بأسوأ الأشياء؛ ولذلك يُؤخذ منه،

وهذا المعنى ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسيره، وذكره في كتابه القواعد الحسان، وعقد له ترجمة خاصة، بأن من ترك ما هو بصدده ابتلي بالاشتغال بضده

ولذلك فإن الإنسان إذا لم يشتغل بقراءة القرآن وسماعه، وذكر الله -تبارك وتعالى- اشتغل بالألحان، وسماع الأغاني والمعازف، فإذا كان الإنسان لا يشتغل بكتاب الله وتلاوته وتدبره، ويجد قلبه عند ذلك، بدأ يبحث عن أشياء أخرى، من القصائد الملحنة، ونحو ذلك، فإذا كان لا يُرقق قلبه بالقرآن كما هو مشاهد، فبعضهم يبحث عن ترقيق القلب بسماع القصائد الحزينة التي تحكي مآسي، أو تحكي وفاة أو فاجعة، أو نحو ذلك، فهذا يرثي أمه بقصيدة حزينة، وهذا يرثي ولده الذي وقع له كذا وكذا من الأمور التي تجلب الحزن، مع أن هذا الحزن غير مطلوب؛ لماذا يجتر الإنسان أحزان غيره، وقد سمعتُ بعضهم يصرح بهذا، ويقول: بأن لديه الرغبة في البكاء، لكن هذا الرغبة في البكاء للأسف ليست من رقة القلب، أو الخوف من الله وإنما هي رقة عبثية.

وقل مثل ذلك أيضًا فيمن لم ينفق ماله في سبيل الله ومرضاته وطاعته، ابتلي بإنفاق الأموال فيما يضره، فإذا جاء الحج قال:الحملات غالية، وإذا جاءت الأضاحي قال:الأضاحي غالية، وهكذا يترك الحج والعمرة والنفقة في سبيل الله والصدقات، وتجد مثل هذا يذهب ويسافر، وحينما يجد فرصة، وينفق أضعاف هذا على أسفار لا تبرأ بها ذمته، ويذهب إلى بلاد تظهر فيها أنواع المنكرات، ولا يستطيع أن يغيرها، يذهب إليها برجله، ويقطع آلاف الأميال لربما بحجة أنها سياحة، وترى عجبًا من هؤلاء الناس، وسؤالات ترسل غريبة وعجيبة.

وهناك من يسأل ويجادل في أن أصل ذلك البلد كان للمسلمين، ثم أخذه الكفار، فهل نبقى على الأصل فنذهب إليه؟ لأن بعضهم يقول: لا نذهب إلا إلى بلاد مسلمين؟

هل وصلنا إلى هذا الحد، فهؤلاء الذين ينفقون هذه الأموال الطائلة الواقع أنهم سلطوا نفقتهم على ما يضرهم، وتركوا ما ينفعهم، فإذا اشترى الإنسان الأضحية، أو حج، أو نحو ذلك،

قيل: هذه مصاريف كثيرة، وهذه نفقات كبيرة، ولكن حينما يذهب ويتحدث ويرسل الصور من هناك في الأماكن التي يذهب إليها يعجب الناس بهذا،

ويقولون: ما شاء الله، أين هذا؟ يا ليتنا كنا معكم، ولا تجد من يعاتب، ويقول: كيف تنفق الأموال في هذا؟ ولماذا تذهب إلى هذا المكان؟ ولا يحل لك هذا السفر، بل الإعجاب، ولربما كان الأفضل من هؤلاء هو الذي يدعو له بالبركة؛ لئلا يصاب بالعين؛ لأنه يغبطونه، فترك الإنفاق في سبيل الله، وترك الحج،

وقل مثل ذلك أيضًا من ترك قراءة الكتب النافعة من كتب العلم النافع، ابتلي بقراءة الكتب الضارة التي تحرك الغرائز، من هذه التي يسمونها بالروايات، أو الكتب التي تثير الشبهات في النفوس، وتجد عند بعض الدور المشبوهة في المعارض الدولية خلقًا من ضعفاء العقول، قد تجمهروا عند تلك الدار، فإذا أتيت ونظرت وإذا بهؤلاء قد تجمعوا على كتب ضارة مشبوهة تورث الشبهات والشكوك في الدين، أو تحرك الغرائز، وينفقون فيها الأموال، وما إلى ذلك.

وهكذا يجني الإنسان الضرر على نفسه، ويشتري الضلال بماله، ولربما يتحدث كثيرون عن قراءة الغربيين لكثرة القراءة عندهم مثلاً، وأنهم يقرأون في كل مكان، في محطة القطار، وفي الطائرة، وفي المطار، وفي السيارة، وفي المسبح، وفي كل حين،

والواقع ليس المعيار هو القراءة، فهم يقرأون ماذا؟ يقرأون أشياء ضارة، فقراءتهم هذه تركها أولى بهم وأنفع لهم، كما قال: شيخ الإسلام -رحمه الله: من الناس من يكون حال السكر أفضل له من حال الإفاقة؛ ولما مر بقوم من التتر يشربون الخمر، وأراد أصحابه أن ينكروا عليهم نهاهم، قال:هؤلاء إذا سكروا لم يقتلوا، ولم ينتهكوا الأعراض، ونحو ذلك

يعني اشتغلوا بسكرهم، لكن إذا أفاقوا انتهكوا الأعراض، وقتلوا النفوس، فمن الناس من يكون السكر أفضل له من الصحو، ومن الناس من يكون النوم أفضل له من اليقظة، كما يقال:نوم الظالم عبادة، وهي عبارة قد لا تكون صحيحة، لكن لا شك أن نوم المفسد أفضل من يقظته.

وهكذا - حينما نترك القراءة فيما ينفعنا، ثم بعد ذلك نجد هذا الاعتكاف الطويل على وسائل التواصل، يقرأ الإنسان ما هب ودب ودرج، ولربما يشاهد أشياء لا تحل، ويسمع أشياء لا

تحل، ويقرأ أشياء تضره ولا تنفعه، لو كنا نقرأ وكانت المصاحف بأيدينا كما نحمل هذه الأجهزة لصرنا من أعبد الناس، وأتقى الناس، لو اشتغلنا بكتاب الله كما نشتغل بهذه الأجهزة، والنظر فيها والقراءة، تجد الرجل في المسجد وهو خارج من المسجد ينظر، كل إنسان قد أخرج جواله يقرأ الرسائل التي جاءت في وقت الصلاة، لو كنا هكذا مع القرآن لتغيرت أحوالنا.

وقل مثل ذلك أيضًا حينما يقبل الإنسان على أمر يضره، ويترك ما ينفعه، وهذا باب واسع، والله المستعان، فإذا نظر الإنسان في حاله، وحال من حوله، رأى من ذلك أشياء كثيرة.

فعلى العبد أن يبادر ويستجيب لأمر الله ويقبل على ما ينفعه، وقد فسّر بعض أهل العلم قوله -تبارك وتعالى: وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ [سورة العنكبوت:٤٥] حملوه على معنىً غير المشهور، ومن هؤلاء بعض المحققين في التفسير، حيث قالوا: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ كما يقول ابن جرير: أنه باشتغاله بهذه الصلاة قد اشتغل عن الفحشاء والمنكر لا أن الصلاة تكون وازعًا له، وإنما هذا الاشتغال بالصلاة هو في الوقت نفسه تشاغل عن الفحشاء والمنكر، والنفس إن لم تشغل بالطاعة شغلت صاحبها بالمعصية.

إن الشباب والفراغ والجدةمفسدة للمرء أي مفسده

فهذا المعنى ذكره ابن جرير واختاره، وإن كان الأقرب -والله أعلم- المعنى الآخر، وهو أنها تنهى، مع أنها إشغال فيدخل هذا المعنى فيه، فالنفس تحتاج إلى إشغال بالطاعة، وبالمعروف وبالخير، وهذا اللسان إذا لم يشغل بذكر الله اشتغل بالغيبة والنميمة، وإذا لم يجالس الإنسان الأخيار، وتركهم بأي حجة أنهم ليس لهم اهتمام بالعلم كانت النتيجة ما هي؟

أن تتفرغ له الشياطين، ويجلس مع البطالين، وربما يشاهد القنوات بحجة أنه يتابع الأخبار، ثم ما يلبث أن تتحول حاله -نسأل الله العافية- إلى شيء من المسخ، حتى قد يصل الأمر به إلى الاشتراك في قنوات إباحية مشفرة، ويدفع المال، وكانت القضية في البداية، هي مشاهدة أخبار، ومتابعة الأحداث، وترك الأخيار وصحبة الأخيار بحجة: ليس عندهم اهتمامات علمية، والآن ظهرت الاهتمامات العلمية: بترك الصلوات، والنظر إلى الحرام، وتضييع حدود الله ﷻ

الآية التي تصف حال اليهود الذين تركوا ما جاء به أنبياؤهم -عليهم الصلاة والسلام

فهذه هي الآية الثالثة من الآيات التي قد تلتبس، أو تُشكل على القارئ لكتاب الله ﷻ، وهي أيضاً من سورة البقرة، وذلك قول الله -تبارك وتعالى- عن اليهود: وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [البقرة:١٠٢]،

فهذه الآية تصف حال اليهود الذين تركوا ما جاء به أنبياؤهم -عليهم الصلاة والسلام- كما قال: الله ﷻ قبلها تماماً: وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۝ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ [البقرة:١٠١-١٠٢]،

وذلك جَزَاءً وِفَاقًا وهو: أن من ترك ما طولب به وما هو بصدده عاقبه الله ﷻ بالاشتغال بضده مما يضره،

هؤلاء تركوا الوحي وتركوا التوراة والعمل بها فكان جزاؤهم أن اشتغلوا بضد ذلك تماماً وهو غاية الكفر والباطل وهو السحر، ليس الحديث عن هذا إنما الحديث عن موطن الإشكال في الآية

فالله يقول عن اليهود: وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ [البقرة:١٠٢]، أي: اتبع اليهود ما تتلو الشياطين، أي: ما تبثه وتقرؤه على ملك سليمان، أي: على عهد سليمان، وعلى زمان سليمان، فـ" ما تتلو" مضمن معنى ما تكذب وتفتري، والفعل يُضمن معنى الفعل، ويُعدىتعالىديته، فالمقصود: اتبع اليهود ما تتلوه وتقرؤه وتفتريه وتبثه الشياطين على زمن سليمان وعهد سليمان، إبان ملكه ﷺ.

ثم قال:وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا [البقرة:١٠٢]، سليمان عليه السلام كان نبيًّا من أنبياء الله، وقد أعطاه الله الملك مع ذلك، فلم يكفر، ولم يتعامل بالسحر، وإنما الذي كفر هم الشياطين، ماذا صنع الشياطين؟

وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ [البقرة:١٠٢]، فهذا يدل على أنتعاليم وتعلم السحر أمر محرم، يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ [البقرة:١٠٢].

هاروت وماروت

ثم قال:وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ [البقرة:١٠٢]، هذا موضع الإشكال في الآية، ما هو المعنى؟ ما هو المراد، وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ [البقرة:١٠٢]؟

هل" ما" هنا موصولة فيكون المعنى هكذا: اتبعوا ما تتلوه الشياطين وتقرؤه وتبثه على عهد سليمان وما كفر سليمان ولكن الذين كفروا هم الشياطين حيث كانوا يعلمون الناس السحر والذي أُنزل على الملكين ببابل؟،

يعني: أن هذا السحر أُنزل على الملكين ببابل،

من هما؟

هاروت وماروت،

وَمَا يُعَلِّمَانِ يعني: هذين الملكين هاروت وماروت، مِنْ أَحَدٍ، يعني: شيئًا من السحر، حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ [البقرة:١٠٢]،

فعلى هذا المعنى الذي ذهب إليه جماعة كثيرة من السلف فمن بعدهم يكون المقصود أن هؤلاء اليهود اتبعوا السحر، اتبعوا ما تتلوه وتبثه الشياطين أيام سليمان ، وسليمان بريء من ذلك، ولكن هؤلاء الذين كفروا هم الشياطين حيث كانوا يعلمون الناس السحر ويعلمونهم الذي أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت،

هذا المعنى ذهب إليه كثير من المفسرين ومنهم كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله، ومنهم الحافظ ابن كثير، وطائفة كبيرة جدًّا.

لكنهم افترقوا في توجيه ذلك، فكبير المفسرين ومن نحا نحوه وهم كثير، قالوا: إن هؤلاء الملائكة الذين أُنزل عليهم السحر ببابل كان ذلك فتنة للناس كما قال: الله تعالى: وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ [البقرة:١٠٢]، فإذا قيل لهؤلاء العلماء: كيف يقع هذا من ملائكة وهم لا يعصون الله ما أمرهم؟

قالوا: إن الله أنزلهم ابتلاء للخلق ليختبرهم، وبالتالي هم مطيعون لله غير عاصين، هذا الذي قال:ه ابن جرير.

وبعض العلماء قال:إن هؤلاء ملائكة ولكن الله أنزلهم ليفصل الأمر ويحصل الفرقان، أي فرقان؟

قالوا: انتشر السحر في ذلك الوقت انتشاراً كبيراً، وصار السحرة والكهنة يُلبسون على الناس ويقولون: هذا الذي يأتي به الأنبياء من خبر السماء نحن عندنا منه طرف، فيأتون لهم بالأمور الغيبية عن طريق استراق السمع، فجاء هؤلاء الملائكة وصاروا يعلمون الناس السحر ليعرف الناس الفرق بين السحر وبين الوحي،

ولكن هذا القول فيه نظر، إذ إن الله قال:وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ [البقرة:١٠٢]،

فهذه الأقوال الثلاثة كلها ترجع إلى شيء واحد، وهو أن هؤلاء من الملائكة.

وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

قال: أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: (ولو أنهم آمنوا واتقوا)، لو أن الذين يتعلمون من الملكين ما يفرقون به بين المرء وزوجه،" آمنوا" فصدقوا الله ورسوله وما جاءهم به من عند ربهم، و" اتقوا" ربهم فخافوه فخافوا عقابه، فأطاعوه بأداء فرائضه وتجنبوا معاصيه - لكان جزاء الله إياهم، وثوابه لهم على إيمانهم به وتقواهم إياه، خيرا لهم من السحر وما اكتسبوا به،" لو كانوا يعلمون" أن ثواب الله إياهم على ذلك [ص: ٤٥٨] خير لهم من السحر ومما اكتسبوا به. وإنما نفى بقوله: (لو كانوا يعلمون) العلم: أن يكونوا عالمين بمبلغ ثواب الله، وقدر جزائه على طاعته.

و" المثوبة" في كلام العرب، مصدر من قول القائل: أثبتك إثابة وثوابا ومثوبة" ، فأصل ذلك من:" ثاب إليك الشيء" بمعنى: رجع. ثم يقال:"أثبته إليك" أي، رجعته إليك ورددته، فكان معنى" إثابة الرجل الرجل على الهدية وغيرها" : إرجاعه إليه منها بدلا ورده عليه منها عوضا، ثم جعل كل معوض غيره من عمله أو هديته أو يد له سلفت منه إليه: مثيبا له. ومنه" ثواب" الله عز وجل عباده على أعمالهم، بمعنى إعطائه إياهم العوض والجزاء عليه، حتى يرجع إليهم بدل من عملهم الذي عملوا له. وبما قلنا في تأويل" المثوبة" قال: أهل التأويل.

ذكر من قال: ذلك:

١٧١٧ - حدثنا الحسن بن يحيى قال:أخبرنا عبد الرزاق قال:أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: (لمثوبة من عند الله)، يقول: ثواب من عند الله.

١٧١٨ - حدثني يونس قال:حدثنا عمرو قال:حدثنا أسباط، عن السدي: (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله)، أما" المثوبة" فهو الثواب.

١٧١٩ - حدثني المثنى قال:حدثنا إسحاق قال:حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع: (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير)، يقول: لثواب من عند الله

النهي عن قول راعنا في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) وذلك أن المسلمين كانوا يقولون راعنا يا رسول الله، يظنون انها من المراعاة أي أرعنا سمعك، أي فرغ سمعك لكلامنا، يقال:أرعى إلى الشيء، ورعاه، وراعاه، أي أصغى إليه واستمعه،

الا ان هذه اللفظة كانت (شيئا) قبيحا بلغة اليهود، وقيل: كان معناها عندهم: اسمع لا سمعت.

وقيل: هي من الرعونة إذا أرادوا أن يحمقوا إنسانا قال:وا له: راعنا بمعنى يا أحمق! فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين قال:وا فيما بينهم: كنا نسب محمدا سرا، فأعلنوا به الآن، فكانوا يأتونه ويقولون: راعنا يا محمد، ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ ففطن لها، وكان يعرف لغتهم، فقال: لليهود: لئن سمعتها من أحدكم يقولها لرسول صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه، فقالوا: أولستم تقولونها؟ فأنزل الله تعالى إلى (لا تقولوا راعنا)

كيلا يجد اليهود بذلك سبيلا إلى شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقولوا انظرنا) أي انظر إلينا وقيل: انتظرنا وتأن بنا، يقال:نظرت فلانا وانتظرته، ومنه قوله تعالى إلى" انظرونا نقتبس من نوركم ١٣ - الحديد) قال: مجاهد: معناها (فهمناه) (واسمعوا) ما تؤمرون به وأطيعوا (وللكافرين) يعني اليهود (عذاب أليم)

قوله تعالى: (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب) وذلك أن المسلمين كانوا إذا قال:وا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قالوا: ما هذا الذي تدعوننا إليه بخير مما نحن فيه ولوددنا لو كان خيرا، فأنزل الله تكذيبا لهم (ما يود الذين) أي ما يحب ويتمنى الذين كفروا من أهل الكتاب يعني اليهود (ولا المشركين) جره بالنسق على من (أن ينزل عليكم من خير من ربكم) أي خير ونبوة، ومن صلة (والله يختص برحمته) بنبوته (من يشاء والله ذو الفضل العظيم) والفضل ابتداء إحسان بلا علة.

وقيل: المراد بالرحمة الإسلام والهداية وقيل: معنى الآية إن الله تعالى إلى بعث الأنبياء من ولد إسحاق فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من ولد إسماعيل لم يقع ذلك بود اليهود ومحبتهم، (فنزلت الآية) وأما المشركون فإنما لم تقع بودهم لأنه جاء بتضليلهم وعيب آلهتهم.

تفسير قوله تعالى: (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تعلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وهنا سؤال هام

ما علاقة ايه النسخ التي نحن بصددها بما قبلها من الآيات؟

ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها مناسبة هذه الآية للآيات قبلها أن اليهود اعتذروا عن إعراضهم عن الإيمان بالنبي- صلى الله عليه وسلم - بقولهم، نؤمن بما أنزل علينا،

وأرادوا به أنهم يكفرون بغيره وهم في امتناعهم ذلك يدعون أن شريعتهم لا تنسخ ويتعللون بان محمدا صلى الله عليه وسلم وصف التوراة بأنها حق وأنه جاء مصدقا لها فكيف يكون شرعه مبطلا للتوراة ويموهون على الناس بما سموه البداء وهو لزوم أن يكون الله تعالى إلى غير عالم بما يحسن تشريعه وأنه يبدو له الأمر ثم يعرض عنه ويبدل شريعة بشريعة. حاشاه وتعالىعن ذلك علوا كبيرا

وقد قدمنا أن الله تعالى إلى رد عليهم عذرهم وفضحهم بأنهم ليسوا متمسكين بشرعهم اصلا حتى يتصلبوا فيه وذلك من قوله" قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل"

وقوله تعالى إلى، قل إن كانت لكم الدار الآخرة" وبأنهم لا داعي لهم غير الحسد بقوله تعالى إلى، ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب إلى قوله تعالى إلى" ذو الفضل العظيم"

المنبئ عن اعتراضهم انما هو الحسد. فلما بين الرد عليهم في ذلك كله أراد نقض تلك السفسطة أو الشبهة التي راموا ترويجها على الناس وهى منع النسخ.

وكان المقصد الأصلي من هذا هوتعاليم المسلمين أصلا من أصول الشرائع وهو أصل النسخ الذي يطرأ على شريعة بشريعة بعدها ويطرأ على بعض أحكام شريعة بأحكام تبطلها من تلك الشريعة. ولكون هذا هو المقصد الأصلي عدل عن مخاطبة اليهود بالرد عليهم ووجه الخطاب إلى المسلمين كما دل عليه قوله" ألمتعالىلم" وعطفه عليه بقوله أم تريدون أن تسألوا رسولكم،

ولقوله ما ننسخ من آية ولم يقل من شريعة. وفي هذا إعراض عن مخاطبة اليهود لأنتعاليم المسلمين أهم وذلك يستتبع الرد على اليهود بطريق المساواة لأنه إذا ظهرت حكمة تغيير بعض الأحكام لمصلحة تظهر حكمة تغيير بعض الشرائع.

وهذه الطريقة فى الاعراض عن مجاراة الخصم ثم نبين ونشرح بطريقة اخرى من اروع الاساليب فى القران الكريم والتىتعاليملنا كيف نتعامل مع المغرضين المعاندين بالضبط كنا غير نبي الله ابراهيم حواره مع النمرود من الاحياء والإماتة إلى ظواهر كونية

وقد ذكر بعض المفسرين لهاته الآية سبب نزول اخر، ففي الكشاف والمعالم نزلت لما قال: اليهود ألا ترون إلى محمد صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه، وفي تفسير القرطبي أن اليهود طعنوا في تغيير القبلة وقال:وا إن محمدا صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بشيء وينهاهم عنه، فما كان هذا القرآن إلا من جهته ولذلك يخالف بعضه بعضا.حاشا لله

وتطلق الآية على المعجزة لأنها دليل صدق الرسول قال تعالى: وما نرسل بالآيات إلا تخويفا وتطلق. الآية على القطعة من القرآن المشتملة على حكم شرعي أو موعظة أو نحو ذلك

وهو إطلاق قرآني قال تعالى: وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قال:وا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون

و سموا الرسالة آية تسمية للشيء باسم مجاوره عرفا. والمراد بالآية هنا حكم الآية سواء أزيل لفظها أم أبقي لفظها لأن المقصود بيان حكمة إبطال الأحكام لا إزالة ألفاظ القرآن.

تعريف النسخ

والنسخ إزالة الشيء بشيء آخر قال:ه الراغب، فهو عبارة عن إزالة صورة أو ذات وإثبات غيرها عوضها، تقول: نسخت الشمس الظل لأن شعاعها أزال الظل وخلفه في موضعه، ونسخ الظل الشمس كذلك لأن خيال الجسم الذي حال بين الجسم المستنير وبين شعاع الشمس الذي أناره قد خلف الشعاع في موضعه، ويقال:نسخت ما في الخلية من النحل والعسل إلى خلية أخرى

وقد يطلق على الإزالة فقط دونتعالىويض كقولهم نسخت الريح الأثر، وعلى الإثبات لكن على إثبات خاص وهو إثبات المزيل، وأما أن يطلق على مجرد الإثبات فلا أحسبه صحيحا في اللغة وإن أوهمه ظاهر كلام الراغب، وجعل منه قولهم نسخت الكتاب إذا خططت أمثال حروفه في صحيفتك إذ وجدوه إثباتا محضا لكن هذا توهم لأن إطلاق النسخ على محاكاة حروف الكتاب إطلاق مجازي بالصورة أو تمثيلية الحالة بحالة من يزيل الحروف من الكتاب الأصلي إلى الكتاب المنتسخ ثم جاءت من ذلك النسخة

، قال تعالى: إنا كنا نستنسخ ما كنتمتعالىملون وقال: وفي نسختها هدى ورحمة وأما قولهم [ص: ٦٥٧] الولد نسخة من أبيه فمجاز على مجاز. ولا يطلق النسخ على الزوال بدون إزالة، فلا تقول: نسخ الليل النهار لأن الليل ليس بأمر وجودي بل هو الظلمة الأصلية الحاصلة من انعدام الجرم المنير.

والمراد من النسخ هنا الإزالة وإثبات العوض بدليل قوله نأت بخير منها أو مثلها وهو المعروف عند الأصوليين بأنه رفع الحكم الشرعي بخطاب فخرج التشريع المستأنف إذ ليس برفع، وخرج بقولنا الحكم الشرعي رفع البراءة الأصلية بالشرع المستأنف.

إذ البراءة الأصلية ليست حكما شرعيا بل هي البقاء على عدم التكليف الذي كان الناس عليه قبل مجيء الشرع بحيث إن الشريعة لا تتعرض للتنصيص على إباحة المباحات إلا في مظنة اعتقاد تحريمها أو في موضع حصر المحرمات أو الواجبات،

فالأول نحو قوله تعالى إلى ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في التجارة، في الحج، حيث ظن المسلمون تحريم التجارة في عشر ذي الحجة كما كانت عليه الجاهلية بعد الانصراف من ذي المجاز كما سيأتي،

ومثال الثاني قوله تعالى إلى وأحل لكم ما وراء ذلكم بعد ذكر النساء المحرمات وقوله أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم لحصر وجوب الإمساك في خصوص زمن النهار.

وفهم من قولهم في التعريف رفع الحكم أن ذلك الحكم كان ثابتا لولا رفعه وقد صرح به بعضهم ولذلك اخترنا زيادة قيد في التعريف وهو رفع الحكم الشرعي المعلوم دوامه بخطاب يرفعه ليخرج عنتعالىريف النسخ رفع الحكم الشرعي المغيى بغاية عند انتهاء غايته، ورفع الحكم المستفاد من أمر لا دليل فيه على التكرار.

وحيث تبينت حكمة نسخ الآيات علم منه حكمة نسخ الشرائع بعضها ببعض وهو الذي أنكروه وأنكروا كون الإسلام قد نسخ التوراة، وزعموا أن دوام التوراة مانع من الإيمان بالإسلام،

كما قال:وا:، نؤمن بما أنزل علينا

وللرد على دعوى اليهود واعتراضهم على النسخ نذكر ردا مختصرا من رسالة دكتوراه للدكتور مصطفى زيد بعنوان، النسخ فى القران الكريم

يقول اتّفقت مذاهب اليهود على قول واحد مفاده أن الشريعة الإسلامية لم تنسخ شريعتهم أما موقفهم من النسخ فهم على ثلاث فرق

الشمعونية وترفض النسخ، بينما العنانية والعيسوية يرون جواز النسخ

فكانت الشمعونية من فرق اليهودية الغالية بحيث ترى استحالة وقوع النسخ عقلاً، وهذا يعني أن شريعتهم لم تنسخ ولن تنسخ !

وقد شبّه اليهود النسخ بالبداء. ولمّا كان البداء – عندهم يستحيل وقوعه، إذن النسخ هو الآخر لا يجوز وقوعه، بل أنكروا أشد إنكار على من قال: بالنسخ، وذهبوا يستدلّون على صحة ذلك بمبدأ الحسن والقبح العقليّين.

فالشمعونيّة ادّعت أن الحكم الأول (المنسوخ) أما إن يكون حسناً، فرفعه والنهي عنه قبيح. وأما أن يكون ذلك الحكم قبيحاً فابتداء شرعه بالقبيح أقبح.

هكذا بنوا استدلالهم على المغالطة، بل هي شبهة منبيّة على كون الحسن والقبح صفتين ذاتيّتين للأفعال.

ويضيف، نحن ليس بصدد الردّ على فرق اليهود، وإن كان جوابنا لهؤلاء يمكن أن نوجزه بهذه العبارة فنقول: إن مجال النسخ هي الأوامر الشرعية والنواهي التي وردت من قبل الشارع: لا أوامر العقل ونواهيه، ومصدر الحسن والقبح هو المولى، فما حسنه الشارع حسنه العقل وما قبّحه الشارع قبّحه العقل.

ثم نجد في التوراة والتى تغيرت واصبحت جزء من (العهد القديم حاليا) كثيراً من الأحكام والأوامر كانت ثم نسخت، فماذا يقول اليهود فيها؟ إن آمنوا بها قلنا لهم إذن وقوع النسخ حاصل عقلاً ونقلاً وإن ادّعوا التحريف في توراتهم، فعليهم أن يرفضوا ما بأيديهم، ويلتجئوا إلى الإسلام والقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

في سفر الخروج، الإصحاح ٣٢، الفقرات ١٢ - ٢٩ تجد أن الله سبحانه وتعالىأمرهم أن يقتلوا كل مَنْ عَبَدَ العجل منهم. ثم بعد ذلك يأمرهم بالكف عن القتل ورفع السيف عنهم وهذا الأمر الثاني نسخ الحكم الأول. والأمران كلاهما في التوراة واليهود لا ينكرونه.

وفي سفر الخروج. الإصحاح ١٦ الفقرتين ٢٥ و ٢٦ أن اليهود كانوا يحرّمون الاصطياد في يوم السبت بأمر من الله سبحانه، وهذا التحريم ورد في مواضع أخرى من التوراة، فلا ينكرونه بل ويؤكّدون ذلك بأن التحريم ورد في شريعتهم دون الشرائع السابقة! وما هذا إلاّ النسخ في الأحكام بين الشرائع . فاللاحقة تنسخ ما سبقها.

و أيضا يعترفون بزواج أبناء آدم من أخواتهم، وما حلّ لهم من استمتاع بعضهم من البعض أمّا الشرائع اللاحقة - واليهودية منها - فقد حرّمت هكذا زواج، وهذا هو النسخ بعينه

وجاء في التوراة إن الله سبحانه وتعالىقال: لنوح عند خروجه من الفلك: إني جعلت كل دابة حيّة مأكلا لك ولذريّتك وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم، فلا تأكلوه سفر التكوين /

ونجد في القرآن الكريم قوله تعالى: وعلى الذين هادوا حرّمنا عليهم شحومها إلآ ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون الأنعام / ١٤٦.

أمثلة النسخ عند اليهود

ومن أمثلة النسخ عند اليهود أنهم كانوا يوجبون الختان عند الولادة، وقد نسخ هذا الحكم في الشريعة العيسوية وأصبح الختان مباحاً عند النصارى.

ومن الأمثلة الأخرى: أن الطلاق كان مباحاً عند اليهود، فجاءت شريعة عيسى فحرّمته. (انظر سفر التثنية) الإصحاح ٢٤.

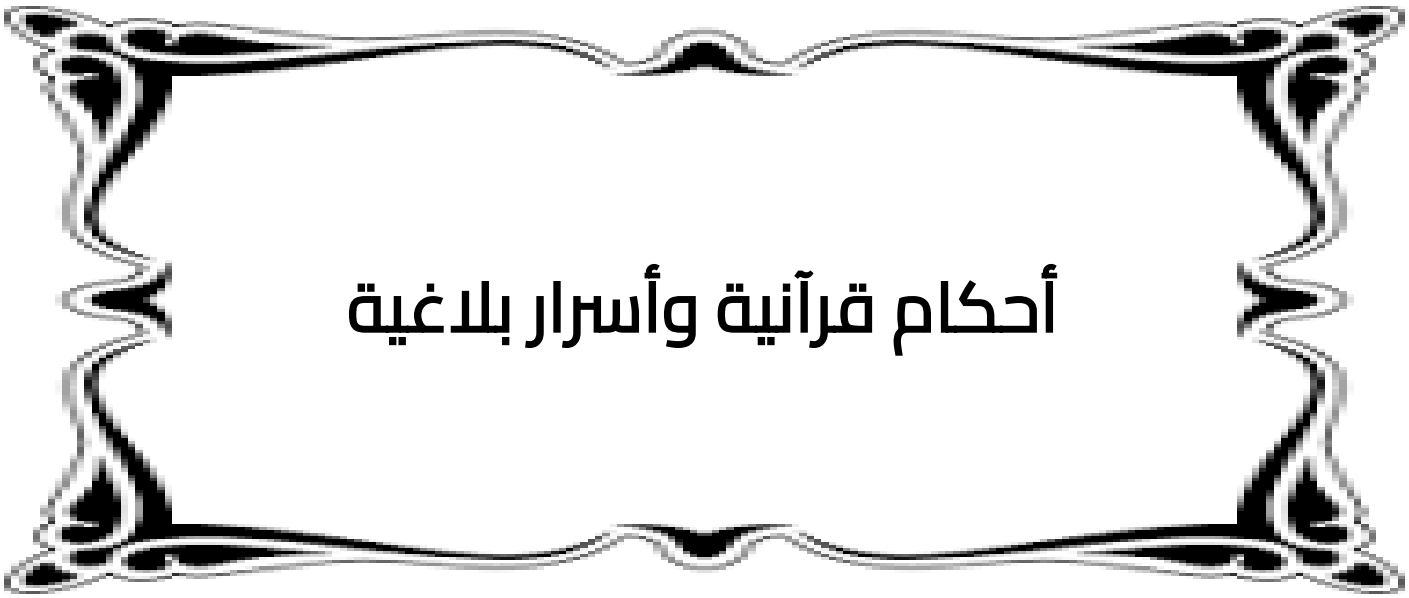
ومنه أيضاً: أكل لحم الخنزير كان محزماً في شريعة موسى وقد أباحته شريعة عيسى. (انظر سفر أعمال الرسل) والفقرة ١٤ من الباب الرابع عشر من رسالة بولس إلى أهل رومية حيث قال:." فاني أعلم وأعتقد بالرب عيسى لا شيء نجس العين، بل أن كل شيء نجس لمن يحسبه نجساً.

وجاء في الإصحاح الثامن والعشرين من سفر العدد/ عدد ٣ - ٧" وقل هذا هو الوقود الذي تقرّبون للرب خروفان حوليان صحيحان لكل يوم محرقة دائمة. الخروف الواحدتعالىمله صباحاً والخروف الثانيتعالىمله العشاءين وعشر الأيفة من دقيق ملتوت بربع الهين من زيت الرضّ تقدّمه.. وسكيبها ربع الهين للخروف الواحد..

هذا الحكم نسخ بالقول الآتى" وجعلت محرقة كل يوم حمل واحد حولي في كل صباح وجعلت تقدمته سدس الأيفة من الدقيق وثلث الهين من الزيت بماء جاء في الإصحاح السادس والأربعين من كتاب حزقيال" عدد ١٣ - ١٥" وتعمل كل يوم محرقة للرب حملاً حولاً صحيحاً صباحاً صباحاًتعالىمله. وتعمل عليه تقدمة صباحاً صباحاً سدس الأيفة. وزيتاً ثلث الهين لرشّ الدقيق تقدمة للرب فريضة أبدية دائمة ويعملون العمل والتقدمة والزيت صباحاً صباحاً محرقة دائمة.

النسخ عند النصارى

أمّا النصارى فهم لا يختلفون عن اليهود في إنكارهم للنسخ، ففي (العهد الجديد) تجد موارد عديدة من الأحكام ناسخة لما سبق، كما سبق في شأن الطلاق الذي ورد مباحاً ثم حرّم. والختان الذي تركه إباحة بعدما كان العمل به واجباً. انظر إنجيل متى: الإصحاح ٥ الآيتين ٣١ و ٣٢ ثم انظر الإصحاح ٢٤ الآيات ١-٣.


أحكام قرآنية وأسرار بلاغية

الحكمة من وجود النسخ

ثم أجاب على سؤال هام وهو ما حكمة النسخ؟

من أبرز ما يعقله الإنسان في وجوده أنه ينمو ويكبر ويعقل فيدرك الأمور بمنظار عقلي، وهذه النشأة سنّة الله ولا تبديل لسنّته، وقد كان في علمه الأزلي - كما أراد - أن يخلق الإنسان ليعبده لا يشرك به أحد، فجعله يمر بمراحل في تكوينه ضمن أطوار لا يحيد عنها كل فرد، ثم قدّر له ما يصلحه في كل مرحلة ينشأ فيها، فما كان من لطفه إلا أن يهديه السبيل ويعلّمه الخير ويجنّبه الشر، وهذا أوجب على نفسه الرحمة فأرسل الأنبياء مبشرين ومنذرين يهدون الناس بأمره، فصاغ لهم في كل مرحلة ما يصلحهم ويربيّهم

وكان في علمه - منذ الأزل - أن قانون الحياة يسير وفق متطلبات الأفراد فقد راعى سبحانه جانب الضعف والقوّة عند الإنسان الذي خلق ضعيفاً فحكمته اقتضت أن يولد الإنسان عارياً من كل معرفة ثم يتدرّج في اكتسابها إلى أن يشد أزره ويملّكه من القوى العقلية بحيث يستخدمها في النفع والخير وذلك منوط في قانون صاغه المولى قبل أن يخلق الوجود وأودع في ذلك النظام الدقيق المتناهي في الدقة والحكمة كل ما يصلح شأن الإنسان ثم أظهر ما أراد على لسان وحيه المنزل على أنبيائه ورسله الأبرار.

فما نسخ الشرائع إلا لسير البشرية نحو التكامل، ثم النسخ في كل شريعة دليل على وحدانية الله تعالى إلى، العالم بكل جزئيات الخلق، البصير بعباده، الرؤوف بهم، المشفق عليم.

واوضح فضيلته سبب الاختلاف في النسخ فقال:

القرآن الكريم يؤكّد ورود النسخ في عدّة آيات ولا شكّ لأي باحث في ذلك، كما أن زمان ورود

النسخ هو زمان نزول الوحي أما بعد انقطاع الوحي فلا نسخ ولا يحق لأحد أن ينسخ حكماً من أحكام القرآن أو السنّة النبويّة، بمعنى آخر: لا اجتهاد في النسخ بل هو شيء توقيفي، كل ما نصّ عليه سبحانه وتعالىأو ما أقرّه الرسول غير أن خطابات القرآن الكريم لما كان البيان فيها يجري وفق الأسلوب البلاغي الرفيع الذي لا يرقى إليه أي أسلوب، فقد اختلف علماء المسلمين -على مرّ العصور- في تحديد جملة من معاني تلك الخطابات، بل التبس عليهم الأمر في فهم الآية الواحدة، التي قد يكون أوّلها في معنى ووسطها في معنى، وآخرها في معنى.

فالنسخ عند المتقدّمين يختلف في الإطلاق عن النسخ في اصطلاح المتأخّرين كما أن النسخ عند المفسّرين هو غيره عند الأصوليين. فالبعض كان يسمّي التخصيص نسخاً، وتقييد المطلق نسخاً، وبيان المبهم والمجمل نسخاً، والاستثناء نسخاً، والشرط نسخاً. والعلّة في جميع هذه الفقرات واحدة، لأن النسخ يقتضي أن الأمر المتقدّم غير مطلوب في التكليف بل المراد ما جاء اخراً، فالأول متروك والثاني هو المعمول به.

لهذا قال: ولي الدين الدهلوي: من المواضع الصعبة في فن التفسير التي مساحتها واسعة جداً، والاختلاف فيها كثيراً، معرفة الناسخ والمنسوخ، وأقوى الوجوه الصعبة اختلاف اصطلاح المتقدّمين والمتأخّرين. وما علم في هذا الباب من استقراء كلام الصحابة والتابعين أنهم كانوا يستعملون النسخ بإزاء المعنى اللغوي الذي هو إزالة شيء بشيء لا بإزاء مصطلح الأصوليين. فمعنى النسخ عندهم إزالة بعض الأوصاف من الآية بآية أخرى، أما بانتهاء مدّة العمل أو بصرف الكلام عن المعنى المتبادر إلى غير المتبادر، أو بيان كون قيد من القيود اتفاقياً أو تخصيص عام، أو بيان الفارق بين المنصوص وما قيس عليه ظاهراً، أو إزالة عادة جاهلية أو الشريعة السابقة...

ثم يقول: واتّسعت دائرة الاختلاف ولهذا بلغ عدد الآيات المنسوخة خمسمائة.. والمنسوخ باصطلاح المتأخّرين عدد قليل. (محاسن التأويل ١/ ١٣).

وقوع النسخ فى خمس دعاوى في ست آيات

ولكن بين دكتور مصطفى زيد في كتابه الكبير،

، النسخ فى القران الكريم، ان النسخ لم يقع الا فى خمس دعاوى في ست آيات.

النسخ في القرآن الكريم

مفهومه وتاريخه ودعاواه

ويعقب الأستاذ الدكتور محمد صالح علي مصطفى فى كتابه، النسخ في القرآن الكريم،

مفهومه وتاريخه ودعاواه، على كتب السابقين فى النسخ فقال: عن العدد الذى انتهى اليه دكتور مصطفى زيد فى النسخ

فيقول،

وكنت أذكرها في محاضراتي وأقبل منها ثلاثاً أجعلها الحد الأدنى في النسخ

وإثبات حد أدنى –ولو في دعوى واحدة- هو الفيصل للفصل بين مثبتي النسخ ونفاته.

وأشير إلى أن إيراد اعتراض على حكم نسخ لا يعني الإحكام المشهورة بل حتى على الدعاوى الثلاث التي قبلتها في الحد الأدنى.

وفيما يلي الدعاوى المشهورة على وجه الإجمال:

الأولى: وجوب التهجد في قيام الليل ثم نسخه في سورة المزمل.

الثانية: وجوب الصدقة بين يدي مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم نسخه في سورة المجادلة.

الثالثة: وجوب الثبات في القتال أمام عشرة أمثال ثم نسخه بمثلين في سورة الأنفال.

ويلي الثلاث اثنتان هما: الرابعة: عقوبة الزنى في آيتي النساء ونسخها بالحد في سورة النور.

الخامسة: عدم قربان الصلاة حال السكر في سورة النساء باجتناب الخمر مطلقاً في سورة المائدة.

ويلي هذه الخمس اثنتان أخريان هما:

السادسة: نسخ التخيير بين الفدية والصوم لمن يطيق في سورة البقرة.

السابعة: نسخ جواز الخروج والزواج للمعتدة في سورة البقرة.

ثم يلي هذه العشر والعشرون تنقص وتزيد.

ونود الوقوف قليلاً أمام هذا الحد من العد، استغناء بها عن بقية الدعاوى، لأن استعراض دعاوى النسخ كلها –وهي بالمئات- يشق على النفوس، ويطول بها الكتاب. ثم إن كانت أمثالاً كفانا القياس، وإن كانت دونها ألحقت بها بطريق الأولى، وما كان حاله أظهر كان أيسر وأجدر.

ولم أراع ترتيب السيوطي ومن معه، بل رتبتها بتقديم ما كان احتمال النسخ فيها أقوى وأكبر، وبخاصة في الأوائل منها.

والنهج الذي سأتبعه هو العنونة للدعوى بعنوان مناسب يراعى فيه الحكم المنسوخ، ثم ذكر الآية المنسوخة متبوعة بالآية الناسخة، والختم بوجه النسخ ووجه الإحكام، وكل ذلك بإيجاز واختصار. والله يتولانا وإخواننا بما يتولى به عباده الصالحين الأخيار الأبرار.

الأولى: قيام الليل: المنسوخ: من المزمل قوله تعالى:

{يا أيها المزمل(١) قم الليل إلا قليلا(٢) نصفه أو انقص منه قليلاً(٣) أو زد عليه...

الناسخ: من خاتمة المزمل قوله تعالى: {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائِفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القران علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه...}[

النسخ: وجه النسخ أن وجوب قيام الليل ارتفع بما تيسر، أي لم يعد واجباً.

الإحكام: وجه الإحكام أن قيام الليل أو التهجد بقي مفروضاً على الرسول صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى: {فتهجد به نافلة لك}

ويكون النسخ قد ورد على فرضية النصف والثلث وما فوق. وحتى هذا الحد لا يسلم بل يرد عليه أن خاتمة السورة بما تيسر له وقدر عليه، وهكذا التكاليف بعامة يكون العمل بالمفروض المقدر على حسب الممكن المقدور عليه لقوله تعالى: {لا يكلف الله نفساً إلا وسعها}

الثانية: صدقة المناجاة: المنسوخ: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا نجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم(١٢)}

الناسخ: قوله تعالى: {ءأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقت فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بماتعالملون(١٣)}

النسخ: المنسوخ وجوب صدقة المناجاة. والناسخ إسقاط الصدقة.

الإحكام: وجه الإحكام أن الحكم معلل، أي إن رفع الصدقة كان بسبب أو علة وهي الإشفاق، متى زال الإشفاق عادت الصدقة.

الثالثة: الثبات في القتال: المنسوخ: قوله تعالى:

{يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون(٦٥)

الناسخ: قوله تعالى: {الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفاً يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين(٦٦)

النسخ: نسخ وجوب الثبات أمام عشرة أمثال في القتال بوجوب ثبات الواحد أمام اثنين.

الإحكام: وجه الإحكام أن الحكم الجديد معلل بالضعف {وعلم أن فيكم ضعفاً} فلا يسقط الحكم السابق بالكلية بل يعود بذهاب الضعف وعودة القوة.

الرابعة: عقوبة الزنا: المنسوخ: قوله تعالى: {واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا امسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً(١٥) واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيما(١٦) الناسخ: قوله تعالى: {الزانية والزاني فاجلدا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين(٢)}

نسخ عقوبة الزنى من الحبس والإيذاء بحد الجلد

الإحكام: يرد على النسخ ما قال:ه أبو مسلم بنفي التعارض وحمل الفاحشة على معنى السجاف بين النساء، وأن المراد من قوله تعالى: {واللذان يأتيانها} أي يأتيان فاحشة اللواط بين الذكور

وقال: غيره: (لا نسخ في ذلك بل هو ممتد إلى الغاية فلما جاءت الغاية بين النبي صلى الله عليه وسلم أن السبيل المدعوة كذا وكذا، فلا نسخ)

الخامسة: وصية الأقارب: المنسوخ: قوله تعالى: {كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقاً على المتقين(٧)}

الناسخ: قوله تعالى: {للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الولدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا(٧)}

وقوله تعالى: {يوصيكم الله في اولا:دكم للذكر مثل حظ الانثيين}[

النسخ: نسخ وجوب الوصية للوالدين والأقربين بأحكام المواريث.

الإحكام: وجهه أن الوصية باقية فيمن حرم الميراث.

السادسة: فدية الصوم: المنسوخ: قوله تعالى: {وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتمتعالملمون(١٨٤)}

الناسخ: قوله تعالى: {فمن شهد منكم الشهر فليصمه}

النسخ: نسخ التخيير بين الفدية والصوم لمن يطيق والناسخ خيرته الصوم.

الإحكام: وجهه أن:" يطيقونه" للفعل بمشقة –يؤيده قراءة: يطوقونه—وهو عذر للفطر والفدية، فهو رخصة وليس نسخاً.

السابعة: النسخ في خروج المعتدة: المنسوخ: قوله تعالى: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم(٢٤٠

الناسخ: قوله تعالى: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بماتعالملون خبير(٢٣٤)}[

النسخ: وجه النسخ أن الآية الأولى في المتوفى عنها زوجها يجعل لها النفقة والسكنى مدة سنة بشرط عدم خروجها فإن خرجت سقط حقها.

والآية الثانية ناسخة لأنها في ذات الحالة لكنها أفادت وجوب الانتظار أربعة أشهر وعشرة أيام ومنعت الخروج.

الإحكام: لاتعالارض بين الآيتين فلا نسخ، لأن الأولى في الوصية، والثانية في بيان العدة.

نسخ التوجه في الصلاة

الثامنة: النسخ في الصلاة

المنسوخ: قوله تعالى: {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله}[

الناسخ: قوله تعالى: {ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره}[

النسخ: نسخ التوجه لبيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة.

الإحكام: روي أن الآية المنسوخة نزلت متأخرة فكيف تنسخ؟ ويمكن أن تحمل على صلاة الناقلة، أو في الدعاء[

التاسعة: تحريم النساء ليلة الصيام: المنسوخ: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون(١٨٣)}

الناسخ: قوله تعالى: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث على نسائكم}[

النسخ: إن صوم من قبلنا لم تبح فيه النساء فأبيحت في شرعنا

الإحكام: دعوى النساء لم تبح في شرع من قبلنا تحتاج لإثبات وبينة، ولا نسخ بغير بينة، فضلاً عن أن" شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا" على الخلاف المعروف.

العاشرة والحادية عشرة: القتال في الشهر الحرام:

المنسوخ: قوله تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير}

وقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام}[

الناسخ: في قوله تعالى: {فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم}

وقوله تعالى: {وقتلوا المشركين كآفة كما يقاتلونكم كافة}

النسخ: نسخ منع القتال في الأشهر الحرم بالأمر به أو إباحته.

الإحكام: في آيتي التوبة عموم لا ينافي خصوص النهي في آية البقرة وآية المائدة.

الثانية عشرة: محاسبة النفس: المنسوخ: قوله تعالى: {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله}[

الناسخ: قوله تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعه

النسخ: وجهه أن المحاسبة على خطرات الأنفس الثابتة بالآية الأولى رفعت بالآية التالية.

الإحكام: وجهه أن الآية الثانية مخصصة، وحكم الآية الأولى أصل في الدين لا ينسخ، وذلك أن المحاسبة على ما تخفيه النفس أصل في المسؤولية الجزائية.

الثالثة عشرة: حق التقوى:

المنسوخ: قوله تعالى:

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته}[

الناسخ: قوله تعالى:

{فاتقوا الله ما استطعتم}[

النسخ: رفع حق التقوى بالتقوى المستطاعة.

الإحكام: التخصيص ظاهر لأن التقوى المطلوبة حقاً هي المستطاعة، ولا يكلف الله بغير المستطاع.

الرابعة عشرة: قسمة الأقارب واليتامى والمساكين:

المنسوخ: قوله تعالى: {وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمسكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفاً(٨)}[

الناسخ: آيات المواريث: النسخ: لكون آيات المواريث هي البديل الذي يلغي القسمة السابقة.

الإحكام: وجهه أن المذكورين في القسمة ليسوا من الوارثين فلاتعالارض.

يقول ابن عباس: (هي محكمة والناس تهاونوا بالعمل بها)[

الخامسة عشرة: نصيب مولى الموالاة: المنسوخ: قوله تعالى:{والذين عقدت أيمانكم فأتوهم نصيبهم}[

الناسخ: قوله تعالى: {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله}[

النسخ: الآية الأولى في توريث مولى الموالاة. والثانية في أولوية أولي الأرحام وتقديمهم وهذا يعني رفع نصيب مولى الموالاة.

الإحكام: إن تقديم أولي الأرحام لا يعني حرمان غيرهم، ولا يفيد إسقاطهم وإنما هو ترتيب لأصحاب الحقوق.

السادسة عشرة: الإعراض عن الحكم: المنسوخ: قوله تعالى: {فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم}[

الناسخ: في قوله تعالى: {وأن احكم بينهم بما انزل الله}

النسخ: الآية الأولى خيرت بين الحكم والإعراض، والثانية أوجبت الحكم، يعني أنها ألغت الإعراض.

الإحكام: الآية الثانية متممة للحكم في الآية الأولى وليست رافعة للإعراض، يعني: إذا حكمت فاحكم بما أنزل الله.

السابعة عشرة: شهادة غير المسلمين: المنسوخ: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم في الأرض فأصبتكم مصيبة الموت تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله...}

الناسخ: قوله تعالى: {وأشهدوا ذوي عدل منكم}

النسخ: إن شهادة ذوي عدل منكم رفعت شهادة آخرين من غيركم.

الإحكام: إن الآية الأولى خاصة بالسفر فلا يعارضها العموم في الآية الثانية.

الثامنة عشرة: النفير العام:

المنسوخ: قوله تعالى:

{انفروا خفافا وثقال:ا}[

الناسخ: قوله تعالى:

{ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله}[

وقوله تعالى: {وما كان المؤمنون لينفروا كآفة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائِفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون(١٢٢)}[

النسخ: رفع حكم النفير بالنسبة لمن ورد في الآيتين الناسختين، وهم أصحاب الأعذار وطلبة العلم.

الإحكام: الآيتان مخصصتان للأولى، والتخصيص ليس نسخاً بمفهوم المتأخرين.

التاسعة عشرة: استئذان الأطفال: المنسوخ: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء}[

الناسخ: قوله تعالى: {وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كم استأذن الذين من قبلهم}[

النسخ: وجوب الاستئذان للبالغين من الأطفال رفع حكم الاستئذان قبل البلوغ.

الإحكام: استئذان الأطفال عمل مشروع وخلق كريم وفطرة سليمة فكيف ينسخ مثله؟

ثم ليس هناك معارضة لأن استئذان البالغين على العموم لا ينافي استئذان غير البالغين في الأوقات الثلاثة.

تحريم النساء على الرسول صلى الله عليه وسلم

العشرون: تحريم النساء على الرسول صلى الله عليه وسلم:

المنسوخ: قوله تعالى: {لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزوج}

الناسخ: قوله تعالى: {يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزوجك التي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عمتك وبنات خالك وبنات خالتك التي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين

النسخ: تحريم النساء منسوخ بالتحليل.

الإحكام: النسخ غير متحقق لعدم الجزم بالمتأخر من حيث ترتيب النزول ولو روعي ترتيب المصحف لجاز العكس أي تحريم النساء بعد التحليل.

النسخ في مهور المرتدات

المنسوخ: قوله تعالى: {وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزوجهم مثل ما أنفقوا}[

الناسخ: قوله تعالى: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمسكين وابن السبيل}

النسخ: آية الأنفال ذكرت تخميس الغنائم وأسقطت المهور في آية الممتحنة.

الإحكام: لاتعالىارض بين الآيتين لأن المهور تدفع ثم تخمس الغنائم.

نسخ عقد الزناة

المنسوخ: قوله تعالى: {الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين(٣)}[

الناسخ: قوله تعالى:{وأنكحوا الأيامى منكم

النسخ: إباحة عقد الزناة بعد منعه.

الإحكام: النكاح في آية النور بمعنى الجماع فلا ترد المعارضة، ولا يرد النسخ.

وأذكر في خاتمة الدعاوى المشهورة أن هناك دعاوى أخرى لها وجه مقبول في العقل أو النقل.

وأضرب لذلك مثلاً في الدعوى التالية:

نسخ السكر في غير الصلاة:

المنسوخ: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتتعالىلموا ما تقولون}[

الناسخ: قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه}[

النسخ: إباحة الخمر في غير أوقات الصلاة كما يفهم من آية النساء، وهذه الإباحة منسوخة بالتحريم الدائم في آية المائدة.

الإحكام: لا نسخ هنا فالآيتان متكاملتان في باب التدرج التشريعي، ثم إن المفهوم المخالف الذي بني عليه حكم الإباحة لا يصح، لأن النهي عن الخمر في أوقات الصلاة لا يعني الإباحة في بقية الأوقات.

شبهة وجوابها: النسخ والبداء الواردان في الشريعة ليسا بمنزلة الرأي الجديد أو علم بعد جهل

بين النسخ والبداء

لقد عرفت فيما سبقتعالىريف النسخ، أما البداء فله معنيان:

الأول: الظهور بعد الخفاء قال تعالى: وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون الزمر/ ٤٧.

وبدا لنا سور المدينة أي ظهر لنا بعدما كان مختفياً.

الثاني: حدوث رأي جديد لم يكن موجوداً من قبل.

قال تعالى: ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجنّنه حتى حين يوسف /٣٥.

أقول هل هناك تعارض بين البداء وبين قوله تعالى: وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاّ هو، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلاّيعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الاّ في كتابٍ مبين... الأنعام / ٥٩.

وقوله تعالى: الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال... سورة الرعد آية ٨، ٩.

لتقرير الجواب أقول:

النسخ والبداء الواردان في الشريعة ليس هما بمنزلة الرأي الجديد أو علم بعدجهل –فلا يمكن حمله على معناه الحقيقي، بل هو ظهور للناس بعد خفاء عليهم، والخفاء صادق على الناس دون المشرع وهو الله سبحانه وإنما أخفاهما عليهم لمصلحة وهكذا الظهور إنما برز لانتهاء أمد ذلك الخفاء فالحكم السابق يتخيّله الناس أنه تشريع - ظاهره - فيه الدوام والاستمرار،

أما الواقع ليس كذلك، فقد شاء الحكيم أن يجعل من الأول محدوداً بأمد معلوم لديه. إلاّ أنه لم يظهره لمصلحة هو سبحانه قدّرها في علمه الأزلي وهذه المصلحة مرتبية بأمد هو سبحانه أعلم به.

لقد تصوّر بعض الكتّاب - عندماتعالرّضوا للنسخ - أن البداء نوع أو ضرب من الجهل والشيعة قائلون بالبداء الذي - على حدّ زعمهم - يساوق عدم العلم، وهذا لا يجوز على الله

ونقل الكاتب ثلاث نصوص عن الإمام علي والامام الصادق والإمام الكاظم يستخدمونهم الشيعة لبيان وجود البداء فى الشريعة ولكن بين الكاتب فيها أنها من افتراءات المختار الثقفي،

نعود ونبين أحوال النسخ: الأول: مجيء شريعة لقوم مجيئا مؤقتا لمدة حياة الرسول المرسل بها فإذا توفي ارتفعت الشريعة كشريعة نوح وإبراهيم وشريعة يوسف وشريعة شعيب عليهم وعلى نبينا افضل والصلوات

قال تعالى: ولقد جاءكم يوسف إلى قوله إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، وبقي الناس في فترة وكان لكل أحد يريد الاهتداء أن يتبع تلك الشريعة أو بعضها كما كانوا يتبعون شريعة إبراهيم فإذا جاءت شريعة بعدها فليست الثانية بناسخة للأولى في الحقيقة ولكنها نسخ يخير الناس في متابعتها الذي كان لهم في زمن الفترة،

الثاني: أن تجيء شريعة لقوم مأمورين بالدوام عليها كشرع موسى عليه السلام ثم تجيء بعدها شريعة ليست رافعة لتلك الشريعة بأسرها ولكنها ترفع بعض أحكامها وتثبت بعضا

كشريعة عيسى عليه السلام فهذه شريعة ناسخة في الجملة لأنها تنسخ بعضا وتفسر بعضا، فالمسيح عليه السلام رسول نسخ بعض التوراة وهو ما نص على نسخه وأما غيره فباق على أحكام التوراة فهو في معظمها مبين ومذكر ومفسر كمن سبقه من أنبياء بني إسرائيل مثل أشعياء وأرمياء وزكرياء الأول ودانيال وأضرابهم، ولا يخالف هذا النوع نسخ أحكام شريعة واحدة إلا بكونه بواسطة

الثالث: مجيء شريعة بعد أخرى بحيث تبطل الثانية الأولى إبطالا عاما بحيثتعالد تلك الشريعة باطلة سواء في ذلك الأحكام التي نصت الشريعة الثانية فيها بشيء يخالف ما في الأولى أم فيما سكتت الشريعة الثانية عنه

وهذا هو الإسلام بالنسبة لما تقدمه من الشرائع فإنه رفع الشرائع كلها بحيث لا يجوز لأحد من المسلمين أن يتلقى شيئا من الشرائع السالفة فيما لم يتكلم الإسلام فيه بشيء بل يأخذ أحكام ذلك بالاستنباط والقياس وغير ذلك من طرق أصول الإسلام

وقد اختلف في أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ لكن ذلك الخلاف ناظر إلى دليل آخر وهو قوله تعالى إلى فبهداهم اقتده وقوله" أو ننسها" قرأه نافع وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وأبو جعفر وخلف (ننسها) بنون مضمومة في أوله وبسين مكسورة ثم هاء. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو (ننسأها) بنون مفتوحة في أوله وبسين مفتوحة وبعدها همزة ساكنة ثم هاء فعلى قراءة ترك الهمز فهو من النسيان والهمزة للتعدية ومفعوله محذوف للعموم أي ننس الناس إياها وذلك بأمر النبيء - صلى الله عليه وسلم - بترك قراءتها حتى ينساها المسلمون، وعلى قراءة الهمز فالمعنى أو نؤخرها أي نؤخر تلاوتها أو نؤخر العمل بها والمراد إبطال العمل بقراءتها أو بحكمها [ص: ٦٥٩]

فكني عنه بالنسئ وهو قسم آخر مقابل للنسخ وهو أن لا يذكر الرسول الناس بالعمل بحكم مشروع ولا يأمر من يتركه بقضائه حتى ينسى الناس العمل به فيكون ذلك إبطالا للحكم لأنه لو كان قائما لما سكت الرسول عن إعادة الأمر به ولما أقر تاركه عند موجب العمل به ولم أجد لهذا مثالا في القرآن، ونظيره في السنة قول رسول الله لا يمنع أحدكم جاره أن يضع خشبة في جداره عند من يقول إن النهي فيه للتحريم وهو قول أبي هريرة ولذلك كان يذكر هذا الحديث ويقول مالي أراكم عنها معرضين، والله لأرمين بها بين أظهركم. ومعنى النسء مشعر بتأخير يعقبه إبرام وحينئذ فالمعنى بقاء الحكم مدة غير منسوخ أو بقاء الآية من القرآن مدة غير منسوخة. أو يكون المراد إنساء الآية بمعنى تأخير مجيئها مع إرادة الله تعالى إلى وقوع ذلك بعد حين، والاحتمالات المفروضة في نسخ حكم من الشريعة تتأتى في نسخ شريعة بشريعة وإنسائها أو نسئها.

الحكمة من النسخ

وقوله نأت بخير منها أو مثلها جواب الشرط وجعله جوابا مشعر بأن هذين الحالين وهما النسخ والإنساء أو النسء لا يفارقان حالين وهما الإتيان في وقت النسخ ووقت الإنساء بشيء هو خير من المنسوخ أو مثله أو خير من المنسي أو المنسوء أو مثله فالمأتي به مع النسخ هو الناسخ من شريعة أو حكم والمأتي به مع الإنساء من النسيان هو الناسخ أيضا من شريعة أو حكم أو هو ما يجيء من الأحكام غير ناسخ ولكنه حكم مخالف ينزل بعد الآخر والمأتي به مع النسء أي التأخير هو ما يقارن الحكم الباقي من الأحكام النازلة في مدة عدم النسخ.

وقد أجملت جهة الخيرية والمثلية لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن فتجده مرادا إذ الخيرية تكون من حيث الاشتمال على ما يناسب مصلحة الناس، أو ما يدفع عنهم مضرة، أو ما فيه جلب عواقب حميدة، أو ما فيه ثواب جزيل، أو ما فيه رفق بالمكلفين ورحمة بهم في مواضع الشدة وإن كان حملهم على الشدة قد يكون أكثر مصلحة.

وليس المراد أن كل صورة من الصور المفروضة في حالات النسخ والإنساء أو النسء هي مشتملة على الخير والمثل معا وإنما المراد أن كل صورة منهما لا تخلو من الاشتمال على الخير منها أو المثل لها فلذلك جيء بأو في قوله بخير منها أو مثلها فهي مفيدة لأحد الشيئين مع جواز الجمع.

[ص: ٦٦٠] وتحقيق هاته الصور بأيديكم، ولنضرب لذلك أمثالا ترشد إلى المقصود وتغني عن البقية مع عدم التزام الدرج على القول الأصح

فنقول: (١) نسخ شريعة مع الإتيان بخير منها كنسخ التوراة والإنجيل بالإسلام

. (٢) نسخ شريعة مع الإتيان بمثلها كنسخ شريعة هود بشريعة صالح فإن لكل فائدة مماثلة للأخرى في تحديد أحوال أمتين متقاربتي العوائد والأخلاق فهود نهاهم أن يبنوا بكل ريع آية يعبثون وصالح لم ينه عن ذلك ونهى عن التعرض للناقة بسوء

. (٣) نسخ حكم في شريعة بخير منه مثل نسخ كراهة الخمر الثابتة بقوله قل فيهما إثم كبير ومنافع بتحريمها بتاتا فهذه الناسخة خير من جهة المصلحة دون الرفق،

وقد يكون الناسخ خيرا في الرفق كنسخ تحريم الأكل والشرب وقربان النساء في ليل رمضان بعد وقت الإفطار عند الغروب إذا نام الصائم قبل أن يتعشى بقوله تعالى إلى أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم إلى قوله: من الفجر قال: في الحديث في صحيح البخاري ففرح المسلمون بنزولها.

(٤) نسخ حكم في الشريعة بحكم مثله كنسخ الوصية للوالدين والأقربين بتعيين الفرائض والكل نافع للكل في إعطائه مالا،

وكنسخ فرض خمسين صلاة بخمس صلوات مع جعل ثواب الخمسين للخمس فقد تماثلتا من جهة الثواب،

وكنسخ آية وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مساكين بقوله تعالى إلى فمن شهد منكم الشهر فليصمه إلى قوله وأن تصوموا خير لكم فإثبات كون الصوم خيرا من الفدية

. (٥) إنساء بمعنى التأخير لشريعة مع مجيء خير منها، تأخير ظهور دين الإسلام في حين الإتيان بشرائع سبقته كل واحدة منها هي خير بالنسبة للأمة التي شرعت لها والعصر الذي شرعت فيه فإن الشرائع تأتي للناس بما يناسب أحوالهم حتى يتهيأ البشر كلهم لقبول الشريعة الخاتمة التي هي الدين عند الله فالخيرية هنا ببعض معانيها وهي نسبية. (٦) إنساء شريعة بمعنى تأخير مجيئها مع إرادة الله تعالى إلى وقوعه بعد حين ومع الإتيان بمثلها كتأخير شريعة عيسى- في وقت الإتيان بشريعة موسى وهي خير منها من حيث الاشتمال على معظم المصالح وما تحتاج إليه الأمة.

(٧) إنساء بمعنى تأخير الحكم المراد مع الإتيان بخير منه كتأخير تحريم الخمر وهو مراد مع الإتيان بكراهته أو تحريمه في أوقات الصلوات فقط فإن المأتي به خير من التحريم من حيث الرفق بالناس في حملهم على مفارقة شيء افتتنوا بمحبته.

(٨) إنساء شريعة بمعنى بقائها غير منسوخة إلى أمد معلوم مع الإتيان بخير منها أي أوسع وأعم مصلحة وأكثر [ص: ٦٦١] ثوابا لكن في أمة أخرى أو بمثلها كذلك.

(٩) إنساء آية من القرآن بمعنى بقائها غير منسوخة إلى أمد معلوم مع الإتيان بخير منها في باب آخر أي أعم مصلحة أو بمثلها في باب آخر أي مثلها مصلحة أو ثوابا مثل تحريم الخمر في وقت الصلوات وينزل في تلك المدة تحريم البيع في وقت صلاة الجمعة. (١٠) نسيان شريعة بمعنى اضمحلالها كشريعة آدم ونوح مع مجيء شريعة موسى وهي أفضل وأوسع وشريعة إدريس مثلا وهي مثل شريعة نوح

. (١١) نسيان حكم شريعة مع مجيء خير منه أو مثله، كان فيما نزل عشر رضعات معلومات يحرمن، فنسخن بخمس معلومات ثم نسيا معا وجاءت آية وأخواتكم من الرضاعة على الإطلاق والكل متماثل في إثبات الرضاعة ولا مشقة على المكلفين في رضعة أو عشر لقرب المقدار.

وقيل المراد من النسيان الترك وهو حينئذ يرجع معناه وصوره إلى معنى وصور الإنساء بمعنى التأخير.

والمقصد من قوله تعالى إلى نأت بخير منها أو مثلها إظهار منتهى الحكمة والرد عليهم بأنهم لا يهمهم أن تنسخ شريعة بشريعة أو حكم في شريعة بحكم آخر ولا يقدح ذلك في علم الله تعالى إلى ولا في حكمته ولا ربوبيته لأنه ما نسخ شرعا أو حكما ولا تركه إلا وهو قد عوض الناس ما هو أنفع لهم منه حينئذ أو ما هو مثله من حيث الوقت والحال، وما أخر حكما في زمن ثم أظهره بعد ذلك إلا وقد عوض الناس في إبان تأخيره ما يسد مسده بحسب أحوالهم،

وذلك مظهر الربوبية فإنه يرب الخلق ويحملهم على مصالحهم مع الرفق بهم والرحمة، ومراد الله تعالى إلى في تلك الأزمنة والأحوال كلها واحد وهو حفظ نظام العالم وضبط تصرف الناس فيه على وجه يعصم أحوالهم من الاختلال بحسب العصور والأمم والأحوال إلى أن جاء بالشريعة الخاتمة وهي مراد الله تعالى إلى من الناس

ولذلك قال: إن الدين عند الله الإسلام وقال: أيضا شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا الآية.

في الكلام على ما يُستخرج ويُستنبط من الهدايات من هذه السورة الكريمة (سورة البقرة) وفي هذه الليلة نقف وقفات مع قوله -تبارك وتعالى: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْتعالىلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْتعالىلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ [سورة البقرة:١٠٦، ١٠٧].

مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ما نرفع أو نبدل مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا فسَّرَه جمع من أهل العلم برفعها من القلوب، وهذا الموضوع فيه كلام كثير لأهل العلم في تحديد المراد من هذه الجملة: أَوْ نُنسِهَا وفيه قراءتان متواترتان، فهذا الموضع من أهل العلم من يقول: أَوْ نُنسِهَا يعني: نُأخر الإنزال، لكنه مع أنه فيما يبدو لأول وهلة قريب إلا أنه يرد عليه إشكال قوي، وهو أن الله قال:نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا فإذا كان المعنى هو تأخير الإنزال فكيف قال:نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا مع أنها ستنزل، ولكن أخّر الله إنزالها إلى الوقت الذي قدره لذلك، فعلى كل حال نأتي لكم بأنفع منها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أو نأتي بمثلها في التكليف والثواب.

أَلَمْ تعلمْ أيها النبي، أو من يصلح أن يتوجه إليه هذا الخطاب: أن الله قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [سورة البقرة:١٠٦] فهذه الآية تتحدث عن قضية النسخ، وهي نص صريح في ذلك، فلا يصح لأحد أن ينكر وقوع النسخ في كتاب الله -تبارك وتعالى- فالله مصرحٌ بذلك في هذه الآية: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا هذا بالإضافة إلى مواضع أخرى من

كتاب الله تعالى كقوله: قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ [سورة البقرة:١٤٤] فهذا أيضًا من قبيل النسخ، لكنه نسخ لما ثبت في السنة.

وكذلك أيضًا في الصدقة بين يدي النجوى فهو نسخ لما جاء بالقرآن: أأشفقتم [سورة المجادلة:١٣] فعلى كل حال شواهد النسخ ثابتة وواضحة وصريحة، وليس لأحد أن ينكره، وقد وجد شذوذ في الزمن القديم من أنكره، ولا عبرة بإنكاره، ولكن قد تروج مثل هذه المقال:ات في مثل هذه الأوقات، ويتلقفها كثيرون، إما محبة في المخالفة والإغراب، أو لشبهة ربما عرضت لهم من قبل بعض من يثير مثل هذه القضايا.

وقد قال: الإمام القرطبي -رحمه الله: بأن النسخ لا ينكره إلا الجهلة الأغبياء يعني: أنه قضية مقررة عند أهل العلم لا إشكال فيها.

فيُؤخذ من هذه الآية: أن الله -تبارك وتعالى- إذا منع عباده المؤمنين شيئًا تتعلق به إرادتهم فتح لهم بابًا أنفع لهم منه، وأسهل وأولى،

كما يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في كتابه القواعد الحسان فهنا: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا وكذلك في مثل قوله تعالى إلى في غير باب النسخ: وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ [سورة النساء: ١٣٠] والله -تبارك وتعالى- عليم حكيم.

ويُؤخذ من هذه الآية أيضًا: أنَّ أحكام الله -تبارك وتعالى- تختلف وتتفاوت في الخيرية من زمان لآخر، فقد يكون الحكم خيرًا للعباد في وقت، ويكون غيره أفضل منه في وقت آخر، كما دلت عليه هذه الآية: نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا.

ويُؤخذ من هذه الآية أيضًا: تطمين النفوس، حينما توجد بواعث القلق فيها، فقضية النسخ (رفع الأحكام) ربما تكون مشوشة لبعض الأذهان، كما في تحويل القبلة، كما قال: الله: وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ [سورة البقرة:١٤٣]

تحويل القبلة

تحويل القبلة التي هي شعار لأهل الإيمان، ولأهلها ولأهل الملة، ليس بالشيء السهل، ولكن الله -تبارك وتعالى- ذكر معه من التطمينات وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ [سورة البقرة:١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس؛ ولما صار اليهود يشغبون على هذه القضية، فيقولون: مَا وَلَّاهُمْ

عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ردّ عليهم بقوله: قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [سورة البقرة:١٤٢] فله الجهات كلها، وهو الذي يوجه إلى عباده إلى ما شاء منها، هداية منه -تبارك وتعالى- لهم عن علم وحكمة.

كما أن الله -تبارك وتعالى- أيضًا هو القادر على كل شيء، قادر على تغيير الأمور الحسية، والأمور المعنوية، يغير ما شاء في أحوال هذا الكون ومجرياته، وكذلك أيضًا يغير ما شاء من شرائعه وأحكامه، فالله -تبارك وتعالى- يقول: أَلَمْتعالىَلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [سورة البقرة:١٠٦] في ختم هذه الآية المتعلقة بالنسخ.

ثم قال: الله -تبارك وتعالى: أَلَمْتعالىَلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ [سورة البقرة:١٠٧] ألمتعالىلم أيها النبي، وهذا الخطاب يمكن أن يكون موجهًا إلى كل من يصلح له توجيه الخطاب، أو أنَّ النبي ﷺ قد خُوطب بذلك ويكون هذا الخطاب موجهًا للأمة؛ لأن الأمة تخاطب في شخص مقدمها وقدوتها -عليه الصلاة والسلام.

البلاغة القرآنية في الالتفات من ضمير المتكلم المعظم نفسه

فالله -تبارك وتعالى- له ملك السماوات والأرض، فله التصرف والتدبير المطلق الذي لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويُشرِّع لعباده ويأمرهم بما شاء، وينهاهم عما شاء، فما عليهم إلا التسليم والانقياد والطاعة أَلَمْتعالىلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ [سورة البقرة:١٠٧] أي: ليس هناك من يتولاكم، ولا ينصركم من دون الله -تبارك وتعالى- إن خرجتم عن طاعته، وعن الانقياد لشرعه وحكمه، هذا الاستفهام أَلَمْتعالىلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْتعالىلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ دخل على النفي، فالنفي (لم) والاستفهام بالهمزة أَلَمْتعالىلَمْ فهو بمعنى التقرير، يعني قد علمت ذلك، وظاهر هذا الخطاب أنه للواحد: أَلَمْتعالىلَمْ لكن كما سبق يمكن أن يكون قد وجه للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد الأمة بأكملها، أو أن ذلك لكل من يصلح له الخطاب.

وكذلك أيضًا تأمّل ما في هذه الآية من الالتفات، فهنا لما قال: الله -تبارك وتعالى- مخاطبًا الجماعة مِن رَبِّكُم ثم قال:أَلَمْتعالىلَمْ فانتقل من الجمع إلى الواحد، وكذلك أيضًا انتقل من ضمير المتكلم المعظم نفسه في قوله: مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا فهذا فيهتعالىظيم، كما هو معلوم نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ثم بعد ذلك انتقل إلى الغَيبة بالاسم الظاهر أَلَمْتعالىلَمْ أَنَّ اللَّهَ ولم يقل: ألمتعالىلم أننا على كل شيء قادرين، ألمتعالىلموا أننا، وإنما قال:أَلَمْتعالىلَمْ أَنَّ اللَّهَ فهذا نوع التفات، ووضع

الاسم الظاهر (لفظ الجلالة) في الموضع الذي يصح فيه الضمير، وفيه من التفخيم والتعظيم لتربية المهابة ما فيه.

وكذلك أيضًا مَن عَلِم بأن الله -تبارك وتعالى- هو وليه، لا ولي له، ولا نصير سوى الله -تبارك وتعالى- يعلم أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له، فيفوض أمره إلى الله، ف إلى أين المصير؟ و إلى أين المفر؟ فمن كان واثقًا بعلم الله وحكمته وقدرته وإحاطته بكل الأمور، فإنه يركن إليه، ويطمئن إلى تشريعه وحكمه وتقديره، فلا يكون في قلبه أدنى اعتراض أو تشكك، أو تردد في صحة أحكامه الكونية القدرية، أو في صحة أحكامه الشرعية.

فالله -تبارك وتعالى- له الحكم، وإليه يرجع الخلق، فما عليهم إلا التسليم والإذعان، وإذا كان ربنا -تبارك وتعالى- له ملك السماوات والأرض، وليس للعباد من دونه من ولي يتولاهم، ولا نصير ينصرهم، فإنه ينبغي أن تتوجه القلوب إليه، وأن يكون موضع الرغبة والرهبة، وأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، فيفر العبد منه إليه، فلا ملجأ منه إلا إليه فيُتقى حق التقوى، ولا يجترئ العبد على معصيته ومخالفته، فإنه ليس له من دونه من ولي ولا نصير.

وربنا الذي نتعامل معه له ملك السماوات والأرض، فخزائنها بيده، فبيده الإمداد والعطاء والمنع، وبيده كل شيء، فينبغي أن يكون القلب منعقدًا على خوفه ورجائه، والتوكل عليه، والثقة بما عنده، واليقين بذلك كله، وبهذا يحصل سلامة الوجهة والقصد لدى العبد، ويكون موحدًا لربه -تبارك وتعالى- لا يلتفت إلى شيء سواه، فيكون ربه هو الذي يُدبّره، فإذا شرّع تشريعًا قابله العبد بالإذعان والقبول والتسليم، وإذا قدّر تقديرًا فإن العبد أيضًا يتقبل ذلك عن ربه -تبارك وتعالى- غير متسخط له، وإنما يسلم لأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، فيكون قد رضي به ربًا.

فالرب هو الذي يتصرف بالمربوب، ويربيه ويربيه، ويصلح شأنه، وهو سيده ومالكه، كل ذلك من معاني الرب، وهو حقيقة الرضا به -تبارك وتعالى- ربًا وإلهًا ومعبودًا، فنحن نقول كل يوم: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا، فيبغي أن يكون ذلك واقعًا نشهده ونعيشه، فيكون العبد في غاية الإذعان والاستسلام والانقياد والطاعة والاستجابة، فيكون مراقبًا لربه في كل أحواله، فلا يطلع ربه على شيء في قلبه من سخط، أو اعتراض، أو تردد، أو شك، أو وجهة إلى غيره -تبارك وتعالى- فحينما يرائي الإنسان بعمله، أو يُسمع به، أو

حينما يتعاظم في نفسه، فيعجب، فالله يعلم خطرات النفوس، ويعلم ما يحصل في القلوب من توحيد وضده، ومن محابه ومساخطه، وكذلك أيضًا في أعمال الجوارح.

أسأل الله أن يرزقنا وإياكم قلوبًا مسلمة مستسلمة منقادة مخبتة لربها وخالقها -جل جلاله وتقدست أسماؤه.

أَلَمْ تعلم أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧)

قوله تعالى: ألمتعالىلم جزم بلم، وحروف الاستفهام لا تغير عمل العامل، وفتحت أن لأنها في موضع نصب. له ملك السماوات والأرض أي بالإيجاد والاختراع، والملك والسلطان، ونفوذ الأمر والإرادة. وارتفع ملك بالابتداء، والخبر له والجملة خبر أن. والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ؛ لقوله: وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير وقيل المعنى: أي قل لهم يا محمد ألمتعالىلموا أن لله سلطان السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي، من وليت أمر فلان، أي قمت به، ومنه ولي العهد، أي القيم بما عهد إليه من أمر المسلمين. ومعنى من دون الله سوى الله وبعد الله، كما قال: أمية بن أبي الصلت:

يا نفس ما لك دون الله من واق وما على حدثان الدهر من باق

وقراءة الجماعة ولا نصير بالخفض عطفا على ولي ويجوز" ولا نصير" بالرفع عطفا على الموضع ؛ لأن المعنى ما لكم من دون الله ولي ولا نصير.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

النهي عن سؤال النبي الأكرم

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها، كما قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) [المائدة: ١٠١] أي: وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه ؛ فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة. ولهذا جاء في الصحيح:" إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته" . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجد مع امرأته رجلا فإن تكلم تكلم بأمر عظيم،

وإن سكت سكت على مثل ذلك ؛ فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابها. ثم أنزل الله حكم الملاعنة.

ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى عن قيل وقال:، وكثرة السؤال، وإضاعة المال

وفي صحيح مسلم:" ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه"

. وهذا إنما قال:ه بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج. فقال: رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا. ثم قال:، عليه السلام:" لا، ولو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لما استطعتم" . ثم قال:"ذروني ما تركتكم" الحديث.

وهكذا قال: أنس بن مالك: نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع.

وقال: الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا أبو كريب، حدثنا إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب، قال:إن كان ليأتي علي السنة أريد أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فأتهيب منه، وإن كنا لنتمنى الأعراب.

وقال: البزار: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال:ما رأيت قوما خيرا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ما سألوه إلا عن ثنتي [ص: ٣٨١]

عشرة مسألة، كلها في القرآن: (يسألونك عن الخمر والميسر) [البقرة: ٢١٩]، و (يسألونك عن الشهر الحرام) [البقرة: ٢١٧]، و (ويسألونك عن اليتامى) [البقرة: ٢٢٠] يعني: هذا وأشباهه.

وقوله تعالى: (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أي: بل تريدون. أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكاري، وهو يعم المؤمنين والكافرين، فإنه، عليه السلام، رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقال:وا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) [النساء: ١٥٣].

قال: محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد [بن جبير] عن ابن عباس، قال:قال: رافع بن حريملة أو وهب بن زيد: يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه، وفجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك. فأنزل الله من قولهم: (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل)

وقال: أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل)

الكفارات في الإسلام

قال:قال: رجل: يا رسول الله، لو كانت كفاراتنا كفارات بني إسرائيل ! فقال: النبي صلى الله عليه وسلم:" اللهم لا نبغيها - ثلاثا - ما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفرها كانت له خزيا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيا في الآخرة. فما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل" . قال:(ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) [النساء: ١١٠]،

وقال:"الصلوات الخمس من الجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن" . وقال:"من هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه، وإن عملها كتبت سيئة واحدة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك" . فأنزل الله: (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل)

وقال: مجاهد: (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أن يريهم الله جهرة، قال:سألت قريش محمدا صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا. قال:"نعم وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم" ، فأبوا ورجعوا.

وعن السدي وقتادة نحو هذا، والله أعلم.

والمراد أن الله ذم من سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء، على وجه التعنت والاقتراح، كما سألت بنو إسرائيل موسى، عليه السلام، تعالتا وتكذيبا وعنادا، قال: الله تعالى إلى: (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) أي: [ص: ٣٨٢] من يشتر الكفر بالإيمان (فقد ضل سواء السبيل) أي: فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم، إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي

لا يحتاجون إليها، على وجه التعنت والكفر، كما قال تعالى: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار) [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)

نزلت حين قال:ت اليهود للمسلمين بعد وقعة أُحدٍ: ألم تروا إلى ما أصابكم ولو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعوا إلى ديننا فذلك قوله تعالى: (لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا من عند أنفسهم) أَيْ: من تلقاء انفسهم فهم لم يؤمروا به (مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لهم الحق) فِي التَّوراة أنَّ قول محمَّدٍ صدقٌ ودينه حقٌّ (فاعفوا واصفحوا) وأعرضوا عن مساوئ أخلاقهم وكلامهم وغلِّ قلوبهم (حتى يأتي الله بأمره) بالنصر باذن الله.

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ): نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قال:وا لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ: لَوْ كُنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ مَا هُزِمْتُمْ فَارْجِعَا إلى دِينِنَا فَنَحْنُ أَهْدَى سَبِيلًا مِنْكُمْ، فَقال: لَهُمْ عَمَّارٌ: كَيْفَ نَقْضُ الْعَهْدِ فِيكُمْ؟ قالوا: شديدا، قال:فَإِنِّي قَدْ عَاهَدْتُ أَنْ لَا أَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا عِشْتُ، فَقال:تِ الْيَهُودُ: أَمَّا هَذَا فَقَدَ صَبَأَ، وَقال: حُذَيْفَةُ: أَمَّا أَنَا فَقَدَ رضيت بالله تعالى إلى رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِالْقُرْآنِ إِمَامًا وَبِالْكَعْبَةِ قِبْلَةً وَبِالْمُؤْمِنِينَ إِخْوَانًا، ثُمَّ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَاهُ بِذَلِكَ،

فَقال: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ أَصَبْتُمَا الْخَيْرَ وَأَفْلَحْتُمَا»، فَأَنْزَلَ الله تعالى إلى: (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ)، أَيْ: تَمَنَّى وَأَرَادَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ: (لَوْ يَرُدُّونَكُمْ)، يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ (مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً)، (مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ)، أَيْ: مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ وَلَمْ يَأْمُرْهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ،(مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ)، فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ قَوْلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صِدْقٌ وَدِينُهُ حَقٌّ، (فَاعْفُوا): فَاتْرُكُوا (وَاصْفَحُوا)، وَتَجَاوَزُوا، فَالْعَفْوُ: الْمَحْوُ، وَالصَّفْحُ: الْإِعْرَاض

(حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ)، فقد سبق فى علم الله ان اليهود سيسقطون يوما ما فى مستنقع الخيانة والغدر رغم عفوا النبي محمد صلى الله عايه وسلم اكثر من نرة ورغم عهده معهم ساعتها سياذن الله للمسلمين بالرد على اليهود جراء افعالهم مثلما حدث مع بنى قريظة حين غدروا وخانوا ونقضوا العهد فى غزوة الاحزاب

(إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).فاراد الله تعالى إلى ان يطمئن المسلمين بانه سبحانه على كل شي قدير وانهم لن يعجزوا الله تعالى إلى ولن يفلتوا من العقاب ولكن انتظروا حتى يسقطوا بانفسهم فهو خير لكم

لانكم ان عاقبتموهم لمجرد الكلام ستفتحون الباب للقيل والقال: عنكم اما اذا انتظرتم حتى يغدروا بكم ويخونوا لان هذا طبعهم ساعتها ان انتقمتم منهم فلا حرج عليكم فهو جزاءا وفاقا فلا تشغلوا بالكم بهم ودعوا الامر لله فهو سبحانه على كل شي قدبر

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَاتعالىمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

فيقول الله -تبارك وتعالى- مخاطبًا أهل الإيمان في هذه السورة الكريمة سورة البقرة: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَاتعالىمَلُونَ بَصِيرٌ [سورة البقرة:١١٠] وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ اشتغلوا بأداء هذه الصلاة على وجهها المشروع من إقامة أركانها وشروطها وواجباتها ومستحباتها، وأدوا الزكاة المفروضة في أموالكم، واعلموا أن كل خير تقدمونه لأنفسكم تجدون ثوابه عند الله -تبارك وتعالى- مرصودًا موفورًا في آخرتكم، إن الله تعالى إلى بصير بكل أعمالكم، وسيجازيكم عليها.

هنا الله -تبارك وتعالى- يأمر أهل الإيمان: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ بعد أن ذكر هؤلاء من أهل الكتاب الذين يتمنون إعادتكم إلى دينكم الأول الذي كنتم عليه في جاهليتكم أن ترجعوا كفارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ [سورة البقرة:١٠٩].

ثم أمر بالعفو والصفح: حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ [سورة البقرة:١٠٩] بعد هذا قال:وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ [سورة البقرة:١١٠]

فوجه الارتباط هنا وهو ما يعرف بعلم المناسبة أن ذكر الأمر بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بعدما ذكر من حال أهل الكتاب، وما ينبغي تجاه ذلك من العفو والصفح انتظار أمر الله -تبارك وتعالى- فهنا ذكر سببًا يستجلب به النصر وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فذكر هذا الأمر بعدما سبق: حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ [سورة البقرة:١٠٩، ١١٠] فدل على أن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة من أسباب النصر، وقد جاء ذلك في قوله –

تبارك وتعالى: وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ [سورة الحج:٤٠، ٤١].

ثم أيضًا تأمل قوله -تبارك وتعالى: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ أقيموا الصلاة، قامت الصلاة، دائمًا في كل موضع يؤمر بها إنما يؤمر بإقامتها وليس بأدائها؛

وذلك أن إقامتهاتعالىني أن يأتي بها على الوجه المشروع مستوفية لما ذكر، فيقوم بحقوقها الروحية في صورتها العملية، وذلك بالتوجه إلى الله -تبارك وتعالى- ومناجاته، والانقطاع إليه عما عداه، وإشعار القلب بعظمته وكبريائه، فبهذا الشعور ينمو الإيمان وتقوى الثقة بالله وتتنزه النفس عن أن تأتي بالفواحش والمنكرات، وتستنير البصيرة، فتكون أقوى نفاذًا في الحق، وأشد بعدًا عن الأهواء.

فنفوس المصلين جديرة بالنصر، الذين يصلون هذه الصلاة، لماتعالىطيه هذه الصلاة التي هي بهذه الصفة من القوة المعنوية، ومن الثقة بالله -تبارك وتعالى- وقدرته والارتباط به، فإذا رأيت أهل الإيمان، إذا رأيت المقاتلين يسجدون لله ويصلون كما أمرهم الله -تبارك وتعالى- فإن ذلك يُبشر بخير، يبشر بخير أن هؤلاء لهم صلة مع من يملك القوة والنصر.

ولذلك يقول الله -تبارك وتعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [سورة الأنفال:٤٥] يعني من أجل أن تحققوا الفلاح وهو نيل المطلوب والنجاة من المرهوب، الثبات مع الاتصال بالله بكثرة ذكره، الذكر بالقلب، باستحضار العظمة والمراقبة، وما إلى ذلك من التوكل واليقين والثقة، وكذلك أيضًا الارتباط به بذكره -تبارك وتعالى- بالجوارح بالعمل بطاعته، ومن أعظم ذلك هذه الصلاة فهي من أجل ذكر الله وأجلى صوره: وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ [سورة العنكبوت:٤٥]

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ [سورة النساء:١٠٢] هذه صلاة الخوف ذكرها الله في جماعة في وقت مواجهة العدو، حينما يكون أهل الإيمان مقابل الأعداء يتخوفون من هؤلاء أن يصيبوا منهم غرة في أي لحظة، ومع ذلك يصلون جماعة بهذه الصفة.

ثم بعد ذلك إذا حصل لهم الأمان والاطمئنان عند ذلك: فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ [سورة النساء:١٠٣] فهذا كله من أجل أن يكون أهل الإيمان لهم صلة ثابتة قوية بربهم وخالقهم -جل جلاله وتقدست أسماؤه.

هؤلاء هم الذين ينصرهم الله الصلاة هي صلة بين العبد وربه، فهذه الصلاة بهذا المثابة لا شك أنها سبب لكل خير، وطمأنينة النفوس وثبات القلوب ورباطة الجأش والتوكل على الله .

وأيضًا: وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ هناك وجه الاقتران كثيرًا في القرآن بين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، و أقوال أهل العلم في ذلك، فمن قائل: بأن سعادة العبد دائرة بين أمرين: حسن الصلة بالله ورأس ذلك في الصلاة، والإحسان إلى المخلوقين ورأس ذلك بالزكاة، فذكر أصلي السعادة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولذلك كان النبي ﷺ يقول: قم يا بلال فأرحنا بالصلاة

رأس العبادات البدنية والمالية

وأيضًا مما ذكروه بأن الصلاة هي رأس العبادات البدنية، والزكاة هي رأس العبادات المالية، والعبادات إما مالية وإما بدنية كما هو معلوم، فذكر رأس هذا ورأس هذا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ.

ثم قال:وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [سورة البقرة:١١٠] هنا مثل هذه الجملة تبعث بالطمأنينة في النفوس، بحيث يكون العبد واثقًا بجزاء الله وثوابه، وأن الله لا يضيع من عمله قليلاً ولا كثيرًا

وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ" ما" هذه تفيد العموم وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ والإضافة هنا إلى الأنفس، فهذا الذي تقدمه، هذا الذي تبذله، هذا الذيتعالىعمله، إنما تقدم لنفسك، سواء كان ذلك في العبادات المحضة كالصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن، قيام الليل، كل ذلك إنما تقدمه لنفسك، فلا مجال للإعجاب بالعمل أو التكثر به أو الامتنان أو نحو ذلك.

وكذلك أيضًا التبرم والاستثقال:، هذا الإنسان الذي يذهب لأداء فريضة الحج أو كان يحج نافلة حينما يستشعر هذا المعنى: وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [سورة البقرة:١١٠] فهذا العمل الذي يعمله سيجد ثوابه عند الله -تبارك وتعالى- إذن لا يذهب متبرمًا ويرجع متسخطًا متضجرًا، وهو في غاية الاستثقال: فيما بين ذلك، لا يكون المؤمن بهذه المثابة، يتذكر هذا المعنى: وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [سورة البقرة:١١٠] النفقات التي يبذلها في حجه أو في أعماله الأخرى أو في إنفاقه في سبيل الله: وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [سورة البقرة:١١٠] فالله -تبارك وتعالى- ينميه لصاحبه، ويجده العبد موفورًا عنده الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإذا استشعر العبد مثل هذا في نفقاته على الأهل والقرابات والمحتاجين فإنه لا يمكن أن يندم على نفقة في هذا السبيل.

ولا يمكن أن يقول: بأنه قد أعطى ثم بعد ذلك وجد الجحود والنكران؛ لأنه إنما يقدم ويبذل لنفسه: وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [سورة البقرة:١١٠] إن كنتتعاالمل لله فهذا ستجده عنده.

كذلك ما يبذله الإنسان من النفع المتعدي بأنواعه المختلفة، إذا كان هذا العمل لله خالصًا فإن العبد لا يمكن أن ينقطع أو يتوقف؛ لأنه لم يقدر له هذا الجهد وهذا العمل وهذا السعي، وهذا البذل وهذا الإحسان من قبل الآخرين، لم يشكروه، لم يقدموه، لم يمنحوه وسامًا أو درعًا أو نحو ذلك إنما يجد ذلك عند الله.

وكلمة" خير" هنا نكرة في سياق الشرط فهي للعموم، وقد سبقت بـ" من" التي تنقلها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم: وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [سورة البقرة:١١٠] لا يضيع عند الله شيء: مِنْ خَيْرٍ يعني ولو قلّ، والوزن عند الله -تبارك وتعالى- بمثاقيل الذر: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ: ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَال: ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه [سورة الزلزلة:٧، ٨].

عائشة -رضي الله عنها- جاءتها سائلة فأعطتها عنبة، وقال:ت:" كم في العنبة من مثقال: ذرة؟"

والنبي صلى الله عليه وسلم قال:لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق فالخير لا يضيع عند الله ولو كان قليلاً، وبهذا يكون العبد مسارعًا في الخيرات باذلاً في سبيل الله -تبارك وتعالى- ثابتًا على هذا البذل والإحسان لا ينقطع بسبب أن هؤلاء الخلق الذين أحسن إليهم لم يقابلوا هذا الإحسان بالإحسان، فإن كان كذلك يفعل فإن هذا العمل لا يكون خالصًا لوجه الله -تبارك وتعالى- وإنما الشعار: إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا [سورة الإنسان:٩

وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله في هذا الصدد أن من كان ينتظر من الناس الشكر على البذل والإحسان والعطاء ونحو ذلك فإنه لا يكون من أهل هذه الآية: إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا [سورة الإنسان:٩] فالإنسان أحيانًا يحسن إلى الآخرين ويتوقع منهم المردود، يتوقع منهم الثمرة، يتوقع منهم أن يقابلوه بشيء من الإحسان والتقدير وما إلى ذلك، فهذا لا يكون العمل فيه متجردًا لوجه الله ﷺ.

ثم تأمل قوله -تبارك وتعالى: تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [سورة البقرة:١١٠] فإن هذه الجملة تدل على معنىً كبير تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ حينما يقول لك الكبير من الناس: عملك أجرك ثوابك إحسانك عندي أنا، معناها أنك تطمئن كل الاطمئنان وتثق كل الثقة أن ذلك سيأتي ويكون في غاية الوفرة، فأنت

تسرح الذهن فيه هذه الحال متصورًا أعظم ما يكون من الجزاء، جزاؤك عندي، عندي أنا تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ الذي هو أكرم الأكرمين وهو الغني وبيده خزائن السماوات والأرض، وهو لا يخلف الميعاد، فإذا كان الأمر كذلك فما حاجة العبد لتعريف الآخرين بعمله وإفضاله وإحسانه، أو ما حاجة العبد حينما يحزن قلبه إذا لم يُقدر جهده وعمله وسعيه.

ثم تأمل قوله -تبارك وتعالى: إِنَّ اللَّهَ بِمَاتعالىمَلُونَ بَصِيرٌ [سورة البقرة:١١٠] فـ" إن" هذه تفيد التوكيد، كما أنها تشعر بالتعليل، يعني تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ أعمالكم هذه التيتعالىملونها معروفة معلومة إِنَّ اللَّهَ بِمَاتعالىمَلُونَ بَصِيرٌ بماتعالىملون، بكل ماتعالىملون، فـ" ما" هذه تفيد العموم بِمَاتعالىمَلُونَ بَصِيرٌ يعني: أنه نافذ البصر، فالبصير على وزن فعيل صيغة مبالغة، أي أن لا يخفى عليه من أعمالكم قليل ولا كثير، فهذا يبعث على مراقبة الله في العمل، والإخلاص فيه، كذلك أن يؤديه على الوجه المشروع، كذلك يبعث على مزيد من الثقة والطمأنينة، فإذا قال: الرئيس ونحو ذلك لمرؤوسه: أعمالك التيتعالىملها نحن على اطلاع عليها، نحن مطلعون على كل الجهود التي تبذلها في هذا السبيل، نحن مطلعون على الأوقات التي تقضيها في هذا العمل، يطمئن الإنسان ويستريح.

ومن الناس من يعمل أوقاتًا طويلة متواصلة، يواصل الليل بالنهار والنهار بالليل، وقد لا يشعر به أحد، يعمل في مصالح عامة ونحو ذلك، فإذا قيل له من قبل كبير يؤمل نائلة منه قال: له: كل ماتعمل نحن على اطلاع ومعرفة به، اطمئن تمام الاطمئنان، وزاده ذلك اندفاعًا فأقبل على العمل بجد ونهم وحرص ورغبة أكيدة، فكيف إذا كان ذلك القائل هو الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ بِمَاتعالىمَلُونَ بَصِيرٌ الأعمال التيتعالىملونها في ظلام الليل من طاعات وعبادات، الصدقات التي تتصدقون بها في الخفاء، الإرادات والنيات الطيبة والمقاصد الحسنة، حسن الظن بالناس، إرادة الخير، محبة الخير، أن يحب لإخوانه ما يحب لنفسه، كل ذلك يطلع عليه الله -تبارك وتعالى- ولو خفي على الناس.

الإحسان إلى محتاج، الإحسان إلى ضعيف، الإحسان إلى قريب، الإحسان إلى جار، الإحسان إلى صديق، الإحسان إلى زميل في عمل أو دراسة أو نحو ذلك؛ كل هذا يتجرد فيه الإنسان لله ويحتسب الأجر والثواب عنده: إِنَّ اللَّهَ بِمَاتعالىمَلُونَ بَصِيرٌ.

إذن لا محل لهذه العبارات التي قد يقولها قائلون: فلان ليس بأهل للإحسان، وقد وضعت الإحسان في غير موضعه، اتق شر من أحسنت إليه، ونحو ذلك من الكلام الذي لا حاجة إليه، إنما هو يعمل لربه -تبارك وتعالى- والله مطلع على عمله إذًا هو لا يُرجِّي عائدة من هؤلاء الناس، فهذا يعني الجد والإقبال، ولهذا فإن أبا بكر لما كان ينفق على مسطح، ومسطح كان من أهل بدر، وكان قريبًا لأبي بكر الصديق من جهة الخؤولة، فقذف عرض أبي بكر كان ممن تكلم في عائشة -رضي الله عنها- في قضية الإفك، فحلف أبو بكر أن لا يصله، وأن لا ينفق عليه، يعني ينفق عليه وقريب ومع ذلك يقذف عرضه، فقال: الله تعالى: وَلا يَأْتَلِ يعني لا يحلف أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ [سورة النور:٢٢].

لاحظ الآن إفك ومن قريب وأيضًا ممن وقع هذا الإفك على من أحسن إليه وكان ينفق عليه هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ [سورة الرحمن:٦٠] فأبو بكر لما نزلت هذه الآية قال:"بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي" فأعاد إليه النفقة مرة أخرى.

هذه النفوس الكبيرة، هذه أصحاب القلوب الكبيرة، هؤلاء هم الكبار، هؤلاء هم الذين حصلوا المراتب العالية، فكان هو الصديق -رضي الله عنه وأرضاه- لم يقف مع نفسه ويقول: هذا قذف عرضي بعدما كنت أنفق عليه فهو ليس بأهل، لا والله لا أفعل، ولا أعود إلى مكالمته أو الإنفاق عليه، مباشرة تجاوز هذا وأعاد النفقة كأنه لم يكن شيء من ذلك.

فحينما نعرض أنفسنا على مثل هذه النصوص، ونعرض أنفسنا على مثل هذه الموازين: تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [سورة البقرة:١١٠] فهذا يعني أننا لا نحاسب الآخرين بمثاقيل الذر باعتبار أنهم لم يقدروا هذا الإحسان، باعتبار أن هؤلاء القرابات لم يشكروا هذا المعروف، أننا لم نسمع منهم كلمة شكر، أن هؤلاء لم يبعثوا لنا بشيء مما يدل على تقدير هذا الجهد الذي بذلناه في حقنا، لا، لا، لا، إذا جاءك من يشكر قل: أنا الذي أشكرك، إذا جاء من يقول: أحسنت إليّ، قل: بل أنت الذي أحسنت إلي، هو في الواقع أن الله ساقه إليك ليكون ذلك سببًا إلى إحسانك لنفسك: وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ [سورة البقرة:٢٧٢] تنفق من مال، تنفق من علم، تنفق من عمل، تنفق من بذل، من جهد، من نصيحة: وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ [سورة البقرة:٢٧٢].

وَقال:وا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢)

فيقول الله -تبارك وتعالى- مخبرًا عن قول اليهود ودعواهم: وَقال:وا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَـنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [سورة البقرة:١١١، ١١٢].

هذه دعوى قال:ها هؤلاء اليهود، وقال:ها أيضًا النصارى، فكل طائفة من هذه الطوائف ادّعوا مثل هذه الدعوى لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى يعني: أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا، فـ" أو" هذه ليست للتخيير في هذا الموضع، فإن اليهود يعتقدون أن النصارى على ضلال، وأنهم لن يدخلوا الجنة، والنصارى يعتقدون أن اليهود على ضلال، وأنهم لن يدخلوا الجنة.

فـ" أو" هذه ليست للتخيير: وَقال:وا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى يعني: أن يكون يهوديًّا أو أن يكون نصرانيًّا فيدخل الجنة، ومن عداهم فإنه لا يدخلها، ليس هذا هو المعنى، وإنما المعنى أن" أو" هذه للتقسيم لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا يعني أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا، فكل طائفة ادعت أنها تنفرد بدخول الجنة بهذه الصيغة التي هي الأقوى من صيغ الحصر. لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا نفي واستثناء، كما نقول:" لا إله إلا الله" هذه أقوى صيغة من صيغ الحصر، فاليهود ادعوا هذا والنصارى أيضًا ادعوا هذا،

فهذا هو المراد كما قال: الله -تبارك وتعالى: وَقال:تِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ [سورة البقرة:١١٣] يعني ليست على دين صحيح وَقال:تِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قال: الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ [سورة البقرة:١١٣] وهم أهل الإشراك من المشركين العرب كَذَلِكَ قال: الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [سورة البقرة:١١٣].

إذًا" أو" هذه للتقسيم، اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًّا، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا، فطالبهم الله بالبرهان بالدليل: تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ

إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ [سورة البقرة:١١١] فهذا الذي عليه المعوَّل، فهذه الأماني لا قيمة لها ولا حقيقة لها إن لم تقم عليها الدلائل والبراهين.

فيؤخذ من هذه الآية أن هذه الشريعة التي هدانا الله إليها مبناها على البرهان، لا يدعي أحد دعوى إلا ويأتي بالبرهان على صحة دعواه، يأتي بدليل من الكتاب والسنة، هذا في عموم الشريعة وفي جزئياتها، هذا في الأمور الكلية وفي الأمور والمسائل الجزئية والتفصيلية، إذا ادعى أحد دعوى فعليه أن يأتي بالبرهان والدليل الذي يصدق دعواه، فكل من ادعى دعوى فهو مطالب بالتدليل عليها والبرهنة على صحتها من أجل إثباتها، ولذلك رد الله على هؤلاء المدعين مثل هذه الدعاوى.

وفي قوله أيضًا: وَقال:وا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى العلماء يقولون: هذا فيه لف ونشر، واللف والنشر فن من فنون البلاغة، والمراد به أن يأتي بكلام يجمله ثم بعد ذلك يفصله وَقال:وا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى فهذه المقولة قال:ها طائفتان، كل طائفة ادعت لنفسها، فجاء بهذه الدعوى بهذا الإجمال.

ثم أيضًا قال:وَقال:وا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ فجمع الخبر أَمَانِيُّهُمْ مع أن قوله: لَنْ يَدْخُلَ وَقال:وا لَنْ يَدْخُلَ هذا للمفرد لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى لَنْ يَدْخُلَ فهذه أمنية لَنْ يَدْخُلَ هي أمنيتهم التي ذكروها واحدة، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، عندهم أماني أخرى لكن لم تذكر في هذه الآية، كما قال: الله تعالى: وَقال:وا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً [سورة البقرة:٨٠]

وهنا: وَقال:وا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى فذكر أمنية واحدة لهم، فلما جاء الخبر قال:تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ما قال:تلك أمنيتهم، فجمع هذه الأماني، أو جاء بصيغة الجمع، كأنهم لشدة تمنيهم لهذه الأمنية، ومعاودتهم لها يكررونها ويرددونها فتأكد في نفوسهم وترسخت جمعت لكثرة ما يرددون بها، ويهتفون بها، ويعاودون هذه الدعوى في كل نادٍ ومحفل تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ فكأنها صارت مجموعة من الأماني، وهذا معروف في صيغ كلام العرب، ومن كلامهم المنثور وكلامهم المنظوم.

وأيضًا العدل في خطاب الله لعباده مع أن هؤلاء كذبة ظلمة أدعياء قال:قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فرد عليهم بهذا الرد، إن كانت لكم بينة فهاتوها، فهذا في غاية العدل، ومراعاة الخصم

كما يقال:، وإلا فالله -تبارك وتعالى- حكم عدل يحكم ولا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، وهؤلاء ليس لهم دعوى أصلاً بدليل أنهم لم يأتوا بها، ومع ذلك يقول لهم: قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ما قال: لهم: أنتم كذبة أفاكون مجرمون ظالمون أدعياء، وإنما طالبهم بالبرهان: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فإذا جاء من يدعي دعاوى عريضة أو نحو ذلك يقال:لا بأس هات البرهان، جاء من يتكلم في عالم أو في طائفة أو غير ذلك يقال:هات البرهان، فكثير من الناس يقول قولاً ولو طولب بالبرهان عليه فإنه لا يستطيع أن يأتي بشيء على دعواه إنما هو مختلق أو أنه يردد كلامًا لغيره، لا يستطيع أن يثبته.

ومن الناس من يكون منطلقه في ذلك كهؤلاء اليهود هو الحسد، فيدعي أن هذا قد وقع في انحرافات وضلالات وبدع وأهواء، أو أن هذا خرج من الملة، أو نحو ذلك، فيقال:هات البرهان، وقد لا يكون عنده قليل ولا كثير، وقد يورد أشياء هي من قبيل الاجتهادات التي لا يأثم الإنسان فيها، ولا يلحقه نقص ولا معرَّة ولا يكون ذلك سببًا لسقوط مرتبته عند الله وعند أهل الإيمان، فما زال الناس يختلفون.

ثم تأمل قوله -تبارك وتعالى- في الرد عليهم: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [سورة البقرة:١١٢] ليس الأمر كما زعمتم بأن الجنة تختص بطائفة دون غيرها إما اليهود وإما النصارى،

شروط دخول الجنة

وإنما يدخل الجنة من أخلص لله وحده لا شريك له وهو متبع للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في كل أعماله وأحواله وأقواله، فمن فعل ذلك فله ثواب عمله عند ربه -تبارك وتعالى- في الآخرة، وهو دخول الجنة، وهؤلاء لا خوف عليهم فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ولا هم يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا.

هذا، بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّه [سورة البقرة:١١٢] فيه قاعدة، هنا قاعدة من قواعد التفسير وهي: أن كل دعوى ذُكرت في القرآن -يعني دعوى ادعاها شخص أو طائفة- فإنه يأتي قبلها أو بعدها أو في أثنائها ما يدل على بطلانها إن كانت باطلة، فإن سكت عنها إن لم يرد ذلك فإن ذلك يدل على صحتها غالبًا، كل دعوى في القرآن لم تصحب بما يدل على بطلانها وردها فإن ذلك يدل على صحتها غالبًا، تجد مثل هذه المقال:ة: وَقَال:وا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى [سورة البقرة:١١١] ماذا قال:؟ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ جاء الرد بعدها.

وأحيانًا يأتي ما يشعر بضعفها قبلها وقد يأتي معه في أثنائها أو بعدها: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا [سورة التغابن:٧]" زعم" تستعمل غالبًا لتوهين الكلام" زعم" زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا وجاء الرد الصريح بعدها: قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ [سورة التغابن:٧] فهذا رد لهذه الدعوى.

صور اشتمال دعوى صحيحة بدعوى غير صحيحة

وقد يقول هؤلاء كلامًا صحيحًا، دعوى صحيحة ومعها دعوى غير صحيحة: وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قالوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا [سورة الأعراف:٢٨] فجاء الرد مفصلاً: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاتعلَمُونَ[سورة الأعراف:٢٨]

فالدعوى مشتملة على أمرين: وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قال:وا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا [سورة الأعراف:٢٨] فرد الثاني وسكت عن الأول قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ فهذا كذب على الله أنه أمرهم بها، لكن: وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا سكت عنه، فدل على أنها أن هذا الأمر صحيح، وأنهم وجدوا آباءهم على الفواحش.

لكن نقول: بأن هذا غالبًا، غالبًا ليس دائمًا، والقواعد أغلبية، يعني مثلاً في قصة أصحاب الكهف: قال: الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا [سورة الكهف:٢١]

النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فهنا: قال: الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا [سورة الكهف:٢١]

ما ذكر معه ما يدل على الرد، هل يقال:هذا صحيح يدل على صحته؟ لا يمكن أن يستند إلى هذه القاعدة والقواعد أغلبية وتترك النصوص الصريحة في لعن من فعل ذلك، فإن من تشبث بمثل هذا الاستدلال وترك الأدلة الصحيحة الصريحة فإنه يكون من قبيل اتباع المتشابه: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ [سورة آل عمران:٧] يترك الدلائل الواضحات ويتشبث بالمحتملات.

ثم أيضًا يؤخذ من هذه الآية بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ [سورة البقرة:١١٢] أن القلب كما يقول شيخ الإسلام -رحمه الله: إذا توجه إلى شيء تبعه وجه الإنسان الظاهر فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى الله فهذا صلاح إرادته وصلاح قصده، فإذا كان مع ذلك محسنًا فقد اجتمع أن يكون عمله صالحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [سورة الكهف:١١٠].

إذا صح توجه القلب تبعته الإرادة

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ فتكون وجهته واحدة إلى الله -تبارك وتعالى- أما إذا تشتت القلب هنا وهناك بمعبودات شتى فإن القلب يتبعها ويتفرق، ولذلك جاء

فيما هو دون ذلك، فيما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم فيمن جعل همه واحدًا، وهو الآخرة، فإن الله يجمع شمله وهمه ويكفيه،

أما إذا كان القلب مفرقًا في هموم وأودية الدنيا فإن هذا القلب يعذب بذلك، ولهذا جاء عن حذيفة:" اللهم إني أعوذ بك من تشتت القلب" ، فسئل عن هذا، فقال: "أن يكون له في كل وادٍ مال" أعوذ بك من تفرق القلب، تشتت القلب، في كل وادٍ مال، فعنده مجموعات من هذه الشركات، ومن هذه، في كل بلد في كل دولة هناك فروع، هناك شركات، هناك حزم، فقلبه مفرق معها يجري خلفها.

وأيضًا فإن قوله -تبارك وتعالى: بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ [سورة البقرة:١١٢] هذا الإخلاص لله تعالى: وَهُوَ مُحْسِنٌ هذا الاتباع للنبي محمد صلى الله عليه وسلم على الوجه الأكمل، فيكون قد جمع الشروط التي لا بد منها لقبول الأعمال، الإخلاص والمتابعة، والإحسان هو أن يأتي بالعمل على الوجه المشروع كما أمره الله تعالى: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً [سورة الملك:٢] ولم يقل: ليبلوكم أيكم أكثر عملاً، فالعبرة هي بإحسان العمل، تصلي ركعتين خاشعتين في ليلة خير من أن تصلي عشرين ركعة مع قلب غير حاضر، ومع أيضًا كثرة حركة وقيام وقعود من غير خشوع ولا تدبر ولا أناة في هذه الصلاة.

كذلك أيضًا يؤخذ من هذه الآية أن من لم يحقق هذه الشروط قال:بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ [سورة البقرة:١١٢] فهذه الفاء تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فالذي يكون بهذه المثابة فله أجره عند ربه، والذي لا يخلص وجهه لله أو لا يكون محسنًا في عمله أعماله بدع وأهواء وضلالات ما حكمه؟ هذا ليس له أجر عند ربه، بل ذكر الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- وجماعة أن مثل هذا يكون من أهل النار

ب

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّه لم يحقق الإخلاص لله فهذا كما يقول الشيخ السعدي -رحمه الله:" هو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم وذكر نحوًا من هذا الحافظ ابن كثير -رحمه الله

فالذي يدخل الجنة هو من حقق هذه الأوصاف، هو يرد عليهم الذين قالوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى [سورة البقرة:١١١] يقول: بَلَى يدخل الجنة من كان محققًا للإخلاص أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّه مع الإحسان في العمل، إذن الذي لا يحقق هذا لا يكون من أهل الجنة، فأصل الإسلام هو الاستسلام والخضوع.

وذكر البغوي -رحمه الله- بأنه خص الوجه بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ قال:لأنه إذا جاد بوجهه في السجود لم يبخل بسائر جوارحه يعني في الخضوع، إذا خضع الوجه وهو أشرف الأعضاء فغيره من باب أولى.

وهنا أيضًا يؤخذ من هذه الآية انتفاء الخوف والحزن لمن عبد الله بهذين الوصفين: الإخلاص والمتابعة، فهذا هو أساس وعنوان السعادة.

ثم أيضًا تأمل قوله -تبارك وتعالى: فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ قدَّم ما يتعلق بهذا العامل فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ للاهتمام به، فالعامل يعمل من أجل أن يُحصل عند الله شيئًا، فقدَّم ما يتعلق بالعاملين فَلَهُ أَجْرُهُ ثم أيضًا سمى هذا الجزاء سماه أجرًا فهذا من كمال فضله -تبارك وتعالى- على عباده، وإلا فهو الذي خلق، وهو الذي شرَّع، وهو الذي هدى، وهو الذي وفق، ومع ذلك يعطيهم الأجر مع أن هذا من جملة نعمه عليهم ونعمه على عباده لا تحصى، ومع ذلك سمى هذا العمل الذي لا يكافئ نعمة واحدة من نعمه سماه أجرًا.

ثم تأمل قوله -تبارك وتعالى: فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ فذكر الرب هنا ما قال:عند الله؛ وذلك والله أعلم أن معاني الرب الربوبية العطاء والمنع والأجر والثواب وما إلى ذلك.

ثم إضافة ذلك إلى الرب: فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ هذا يدل على الفخامة لهذا الأجر، يعني ليس أجره عند فلان الذي يماطله ولربما يهضم أجره أو نحو ذلك، لا، له أجره عند ربه، فما ظنكم بهذا الأجر الذي يكون عن الرب -تبارك وتعالى؟

ثم أيضًا هنا ذكر الرب يدل على مزيد من اللطف فإن من معاني الربوبية أو الرب التربيب والتربية، فالله -تبارك وتعالى- يُصرِّف عباده فيما يرفعهم وينفعهم وكذلك أيضًا الله -تبارك

وتعالى- يربيهم بالنعم الظاهرة والباطنة، كذلك أيضًا يُربي هذه الأعمال وينميها حتى تصير التمرة بمنزلة.

وأيضًا يقول: وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [سورة البقرة:١١٢] فيه التأكيد باسمية الجملة وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [سورة البقرة:١١٢] لاحظ وَلا خَوْفٌ هنا نفى جميع أنواع الخوف القليل والكثير وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ فجاء بضمير الفصل بين طرفي الجملة لتقوية النسبة، فنفى ذلك عنهم بالكلية وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ يمكن أن يقال:ولا يحزنون، لكن وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ هذا فيه قوة في الكلام بتقوية النسبة كما هو معروف في تقوية الحكم بدخول ضمير الفصل.

وَقالَ:تِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقالَ:تِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قال: الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

يقول الله -تبارك وتعالى- في جملة ما ذكره من خبر بني إسرائيل: وَقالَ:تِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقالَ:تِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قال: الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [سورة البقرة:١١٣] لما ذكر قولهم قبله أنه: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى قال:تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ [سورة البقرة:١١١، ١١٢] فهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة.

ثم بعد ذلك ذكر حال هؤلاء من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كيف كان بعضهم يضلل بعضًا، ويكفر بعضهم بعضًا وهم يتلون الكتاب المنزل عليهم، ولم يقف ذلك على هؤلاء بل قال: الذي لا يعلمون من أهل الإشراك ممن لم ينزل عليهم كتاب قال:وا مثل قولهم، يعني قالوا: بأن اليهود والنصارى ليسوا على شيء، والمقصود أن الآية التي قبل هذه وهي قوله: وَقال:وا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى [سورة البقرة:١١١] فـ" أو" بمعنى التقسيم، أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديًا، والنصارى قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا، ويدل لهذا المعنى هذه الآية، أن كل طائفة تنفي عن الأخرى أنها على شيء من الدين الصحيح، تنفي عنها أنها على حق أو على جادة صحيحة، وهم يقرؤون التوراة والإنجيل وفيهما وجوب الإيمان بجميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والإيمان بجميع الكتب المنزلة، فكون ذلك يصدر عنهم

فيكفرون بعيسى أعني اليهود، أو أن النصارى يكفرون بما جاء به موسى وهم يجدون في كتبهم لزوم الإيمان بذلك جميعًا.

كذلك قال: الذين لا يعلمون من أهل الإشراك كقولهم بأن كل من خالف ما هم عليه من الشرك يقولون: بأنه ليس على شيء فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ [سورة البقرة:١١٣] يفصل بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويجازي كلاً بعمله.

يؤخذ من هذه الآية الكريمة: وَقال:تِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ [سورة البقرة:١١٣] ما جاء عن الإمام أحمد -رحمه الله- في هذه الطوائف المختلفة في الكتاب المخالفة له من أهل الكتاب ومن طوائف هذه الأمة التي فارقت الجماعة وركبت الضلالة، يقول:" بأنهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب"

قد جمعوا وصفي الاختلاف الذي ذمه الله -تبارك وتعالى- في كتابه كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله فالله ذم الذين خالفوا الأنبياء والذين اختلفوا على الأنبياء، كل هؤلاء في موضع الذم.

ويؤخذ من قوله -تبارك وتعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ [سورة البقرة:١١٣] يؤخذ منها شدة العداوة بين اليهود والنصارى، وأنهم لا يرون أنهم على دين صحيح أصلاً، لكنهم يجتمعون في حرب المسلمين، ولو أن ذلك وجه واستغل من قبل أهل الإيمان لاشتغل بعض هؤلاء ببعض، فبينهم من العداوة ما لا يقادر قدره، بل إن بين أهل الطائفة الواحدة من العداوة والتفرق والاختلاف والتكفير ما لا يعلمه إلا الله، ولا يحصيه إلا الله، طوائف اليهود، اليهود على فرق مختلفة متناحرة، يكفر بعضها بعضًا، والنصارى على طوائف، وفرق، وتحت كل فرقة من الفرق ما لا يحصيه العاد.

فرق النصارى

فالنصارى يفترقون إلى أرثوذوكس وتحتهم طوائف، وينقسمون أيضًا ويفترقون إلى كاثوليك، ويفترقون أيضًا إلى بروتستانت، وكل فرقة تكفر الأخرى وتعاديها، وترى أنها على ضلالة، وأنها لا تُمثل من الحق قليلاً ولا كثيرًا، ولو أن هذا استغل من قبل المسلمين لاشتغل بعض هؤلاء ببعض، ولكن اجتمعوا على حربنا، يجتمع الذي في الكنيسة الشرقية هناك في روسيا مع صاحب الكنيسة الغربية وبينهم من العداوة ما لا يعلمه إلا الله، يكفر بعضهم بعضًا وهم نصارى، ولكن يجتمعون في حرب هذه الأمة.

يؤخذ من قوله -تبارك وتعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ [سورة البقرة:١١٣] إذًا القضية ليس أن هؤلاء يختلفون معهم في مسائل فرعية أو جزئية أو قضايا قابلة للأخذ والرد، ليسوا على شيء، يعني يرون أنهم على دين مختلق باطل، والنصارى يرون أن اليهود على دين مختلق باطل، فهم يتراشقون بالكفر، وتتعصب كل طائفة لما عندها، وهذا ذكره الله لهذه الأمة؛ لتحذر من الوقوع في مثل ذلك، فلا يصح لمن كان من أتباع هذا الدين أن يتفرق فيه، وأن يرمي من خالفه بالكفر والضلالة من غير موجب شرعي، فيكون قد شابه هؤلاء من أهل الكتاب، كل طائفة يعني ممن ينتسب إلى الإسلام حينما يشابهون هؤلاء تأخذ ببعض الدين، أو تأخذ

بقضايا قد دخلها ما دخلها من التبديل والتحريف والتغيير والبدع والأهواء، ثم بعد ذلك ترمي من خالفها بالكفر والضلالة.

فالله -تبارك وتعالى- قد جاء بهذا الدين كاملاً شاملاً وسمانا المسلمين، وكان الجيل الأول الذين تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الدين نقيًا ينتسبون إلى الإسلام فحسب، لا يوجد بينهم مذاهب، ولا طوائف، ولا فرق، إنما ينتسبون إلى النسب الشرعية، وهم قد حققوا ما أمرهم الله به من قوله: وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا [سورة آل عمران:١٠٣] وحينما وقع بينهم القتال في الفتنة لم يؤدِ ذلك إلى تضليل بعضهم لبعض، ولا تكفير بعضهم لبعض، فكان بعضهم يشهد للآخر بالفضل والخيرية، ويشهد له إن كان ذلك قد جاء عن الشارع يشهد له بالجنة.

وكان علي مع ما وقع من القتال مع أهل الشام يقول:" إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة في الجنة" فهذا كان حالهم مع وجود القتال، فكانوا مجتهدين متأولين في ذلك.

أما الخلاف الذي ذمه الله -تبارك وتعالى- وهو أن يحصل التنازع بين طوائف الأمة فيضلل بعضهم بعضًا، فهذا الدين الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنزله نقيًا كاملاً شاملاً، لا يجوز لأحد أن يجزئه فيأخذ ببعض هذا الدين، ثم بعد ذلك يتعصب لمن دخل معه في هذه الأعمال ويكون من لم يدخل معه مذمومًا معيبًا فضل عن أن يكون ضالاً في نظره، فهذا يكون من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا.

فمن أراد السلامة والنجاة والخلاص من هذا كله فليكن على ما كان عليه رسول الله صلى الاه عليه وسلم وأصحابه -رضي الله عنهم وأرضاهم- حيث لم يحصل بينهم هذا الشر والتفرق والاختلاف والتحول إلى طوائف متنازعة، فيسعنا ما وسعهم، ويكفينا ما كفاهم، وفي هذا عبرة لمن اعتبر وتبصرة لمن تبصر.

ويؤخذ من قوله -تبارك وتعالى: وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ [سورة البقرة:١١٣] أن العتب على من نزل عليهم الهدى والوحي حينما يقع منهم الانحراف أو التفرق أن ذلك يكون أعظم في حقهم والجرم يكون أشد، ومن ثم فإن العقوبة تكون أشنع،

فهؤلاء أهل كتاب ويتلون في هذا الكتاب، وكما قيل: على قدر المقام يكون الملام، فإذا كان هذا الذم قد توجه لأهل الكتاب، فإن الذم الذي يتوجه لهذه الأمة التي هي أشرف وأعظم وأكمل وأعلم ونبيها أكرم وأعظم وكتابها أشرف الكتب وأعظم الكتب فإن الذم الذي يلحقهم حينما يفعلون فعل أولئك يكون أشد،

والنصوص الواردة في النهي عن التنازع والتفرق كثيرة جدًا في كتاب الله وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومع ذلك نجد من الأحوال التي تخالف ذلك وتضاده شيئًا كثيرًا، أمة نزل عليها نصوص كثيرة مستفيضة في هذا الباب تنهاهم تزجرهم عن الاختلاف، وتأمرهم بالاجتماع، ثم بعد ذلك يقع بينهم هذا الذي حذرهم الله منه.

ويؤخذ من قوله -تبارك وتعالى: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [سورة البقرة:١١٣] هذا خبر يراد به التوبيخ والوعيد يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ إذًا سيرجعون إليه ويفصل بينهم ويجازي كلاً بعمله، ودخول الفاء فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ باعتبار ما هو مفرع على تلك المقال:ات وَقال:تِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقال:تِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ [سورة البقرة:١١٣] وكذلك أيضًا قول الذين لا يعلمون: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فهذا الحكم مسبب عن هذه المقال:ات التي قال:وها والدعاوى التي ادعوها.

وهنا: اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [سورة الزمر:٣] ما قال:فيما يختلفون فيه، قدَّم الضمير المتعلق بهم فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وذلك للاهتمام بجانب هؤلاء المختلفين الذين جعلوا دينهم على هذه الحال والمثابة فكانوا أوزاعًا، وجعلوا دينهم زبرًا تنازعوه بينهم، كما قال: الحافظ ابن القيم -رحمه الله:" صار لكل طائفة من الكتب التيتعالتمدها وترجع إليها وتنبذ ما سواها" فهذا فعل هؤلاء من أهل الكتاب، وتقديم هنا الظرف" فيه" على متعلقة يَخْتَلِفُونَ للاهتمام به، وأيضًا لمراعاة فواصل الآيات.

والعجيب رغم معرفة النصارى بان اليهود هم من تسببوا فى ضياع الكثير من دين المسيح عليه السلام مما فعلا جعل النصارى ليسوا على شيئ الا انهم يساندوا اليهود قلبا وقال:با ضد المسلمين ولذا ارى ان ان اعرض لحضراتكم تطور العلاقة بين اليهود والنصارى وهو عبارة عن بحث للاستاذ / احمد محمد زايد نقدمه لكم بتصريف ان شاء الله

تطور العلاقة بين اليهود والنصارى

تطور العلاقة بين اليهود والنصارى

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعد.. مما تقرر عند أهل الإسلام أن العلاقة بين اليهود والنصارى هي علاقة عداوة وصراع وكيد، يشهد بذلك تاريخ الطائفتين الذي لم تجف منه الدماء بعد.

وقد حكى الله عن كلا الطائفتين بأنها تقول عن صاحبتها بأنها ليست على شيء: (وقال:ت اليهود ليست النصارى على شيء وقال:ت النصارى ليست اليهود على شيء).

إلا أن معظم المسلمين في هذا العصر تفاجأوا عندما رأوا أن تلك العلاقة العدائية قد تبدلت وتغيرت وانقلبت إلى الضد، ليحل محلها التعاون والدعم والتنسيق، ليتوج ذلك كله بقيام دولة لليهود على أرض فلسطين، ليتساءلوا بعدها عن الذي غيَّر الأحوال، ومزج الطائفتين في طائفة واحدة تسعى لأهداف مشتركة.

وفي هذه الرسالة التي بين يديك أيها القارئ إجابة مختصرة عن الأسباب التي غيرت العلاقة بين اليهود والنصارى من عداء إلى محبة ومن كيد إلىتعالىاون لنعلم كمسلمين شيئاً خفياً عن أعدائنا، وتستبين لنا سبيل المجرمين.

واعلم أن معظم ما جاء في هذه الرسالة هو ملخص من الرسالة القيمة: (حقيقة العلاقة بين اليهود والنصارى) للأستاذ الفاضل: أحمد محمد زايد([1]) الطبعة الأولى، ١٤٢٠، طبعة خاصة بدار التوزيع والتسويق الدولية بالدمام.

مع زيادات مهمة من الرسالة القيمة الأخرى: (دراسات في الأديان: اليهودية والنصرانية) للدكتور سعود الخلف(٢)، الطبعة الأولى، ١٤١٨، مكتبة أضواء السلف. وإضافات أخرى، ثم صياغة ذلك بنفس واحد.

أسأل الله أن ينفع بهذا المختصر، وأن يجعله منبهاً للمسلمين بكيد أعدائهم وحقيقة الصراع معهم. وأن ينصر الإسلام وأهله، ويذل الكفر وأهله. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين

تاريخ اليهود

ونبدأ بنبذه مختصرة عن تاريخ اليهود:

تاريخيا نشأ إبراهيم عليه السلام في أرض بابل وما جاورها في بيئة مشركةتعالىبد الأصنام وقد قص الله تعالى إلى علينا إنكار إبراهيم عليه السلام على قومه شركهم فلما لم يجد منهم استجابة لدعوته هاجر بأمر الله إلى اثمر من بلد فمن مدينة، اور جنوب العراق إلى، بابل حيث قابل النمرود ومن بابل إلى، حوران، شمال سوريا حيث قابل الصابئة ومنها إلى، حلب جنوب سوريا، منها إلى فلسطين وأقام في مدينة نابلس. ومنها إلى، مصر،

-لانه لما حدث قحط وجدب في فلسطين هاجر إبراهيم عليه السلام إلى مصر- مع زوجته سارة، وحصلت لهم أحداث كثيرة، ثم أهداه فرعون مصر جارية اسمها هاجر أنجبت له إسماعيل عليه السلام، فأخذها إبراهيم عليه السلام وابنها ووضعهما في مكة. ثم بنى هو وإسماعيل الكعبة –كما هو معلوم-.

- رزق الله إبراهيم عليه السلام ابنه (اسحق) عليه السلام من زوجته سارة. فلما كبر اسحق تزوج وأنجب ولدين هما (عيصو) و(يعقوب) وهو المسمى إسرائيل، وإليه ينتسب بنو إسرائيل.

-ورزق يعقوب باثني عشر ولداً كان أحبهم إليه (يوسف) عليه السلام الذي تآمر عليه إخوته – كما هو معلوم- وألقوه في الجب ... الخ القصة المذكورة في سورة يوسف.

-استدعى يوسف عليه السلام أهله إلى مصر بعد أن كانوا يعيشون في فلسطين، فعاش بنو إسرائيل من بعده في مصر.

- لما اشتد أذى الفراعنة لبني إسرائيل في مصر- بذبح أبنائهم واستحياء نسائهم بعث الله موسى عليه السلام وأخاه هارون عليه السلام إلى فرعون، وقد قص الله نبأ ما حدث بينهم إلى أن خرج بنو إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام من مصر وتبعهم فرعون وجنوده فأهلكهم الله في اليم.

- قدَّر الله على بني إسرائيل أن يتيهوا في الأرض بعد خروجهم من مصر عقاباً لهم لعدم قتالهم الجبابرة المستولين على بيت المقدس، قال: سبحانه (...قال: فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين)

- في فترة التيه توفي موسى وهارون عليهما السلام فتولى قيادة بني إسرائيل (يوشع بن نون) خليفة موسى عليه السلام. الذي فتح الله على يديه بيت المقدس.

- بعد استقرار بني إسرائيل في فلسطين مر اليهود بثلاثة عهود متتالية:.

. ١- عهد القضاة؛ حيث كانت جميع أسباطهم تحتكم إلى قاضٍ واحد فيما شجر بينهم، واستمر هذا العهد حوالي ٤٠٠ سنة.

. ٢- عهد الملوك: وهو المذكور بقوله تعالى إلى (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قال:وا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله..) فجعل الله عليهم طالوت ملكاً، ثم ملكهم بعده داود، ثم ابنه سليمان عليهما السلام.

٣- عهد الانقسام: وهو العهد التالي لسليمان عليه السلام حيث تنازع الأمر بعده ابنه (رحبعام بن سليمان) و(يربعام بن نباط)، فاستقل (رحبعام) بسبط يهوذا وسبط بنيامين وكون دولة سميت بدولة يهوذا نسبة إلى سبط حكامها وهو سبط يهوذا الذي من نسله داود وسليمان عليهما السلام وكانت عاصمتها بيت المقدس

واستقل يربعام بن نباط ببقية الأسباط (وهي عشرة) وكون دولة إسرائيل شمال فلسطين وعاصمتها نابلس، وهم من يسمون (السامريين) نسبة إلى جبل هناك يسمى شامر.

-كان بين الدولتين عداء بدون قتال.

- سقطت دولة إسرائيل بيد الآشوريين بقيادة ملكهم (سرجون) عام ٧٢٢ ق.م، وسقطت دولة يهوذا بيد الفراعنة عام ٦٠٣ ق.م

- في حدود عام ٥٨٦ ق.م تقريباً أغار (بختنصر) ملك بابل على فلسطين فطرد الفراعنة، ثم دمر دولة يهوذا التي تمردت عليه وأسر عدداً كبيراً من اليهود وأجلاهم إلى بابل بما عرف بـ (السبي البابلي).

- في سنة ٥٣٨ ق.م تغلب (كورش) ملك الفرس على البابليين فأطلق سراح اليهود ورجع كثير منهم إلى فلسطين.

- في سنة ١٣٥ق.م أخمد الرومان في عهد الحاكم (أدريان) ثورة قام بها اليهود فدمروا البلاد وأخرجوهم، فأصبح اليهود مشتتين في بقاع الأرض. قال: سبحانه (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم وقطعناهم في الأرض أمما...).

- في زمن سيطرة الرومان على فلسطين بعث الله عيسى- عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل، قال تعالى: (ورسولاً إلى بني إسرائيل) فدعاهم لإصلاح فسادهم، فاستجاب له بعض اليهود، وأما الكهنة فقد ناصبوه العداء لأنه كشف خداعهم ومفاسدهم. فانقسم بنو إسرائيل قسمين كما قال تعالى: (فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة) فالقسم الأول هم (النصارى) والقسم الثاني هم (اليهود).

-سعى كهنة اليهود وأحبارهم إلى الحاكم الروماني وأثاروه على عيسى- عليه السلام ورغبوه في قتله. فنفذ طلبهم. ولكن الله رفع عيسى عليه السلام إليه وألقى شبهه على غيره فصلبوا الشبيه، قال تعالى: (إذ قال: الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ) وقال: (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى- ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً).

مصادر دين اليهود

: -التوراة أو العهد القديم ويتكون من ٣٩ كتاباً هي أربعة أقسام

القسم الأول: أسفار موسى وهي خمسة: سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية. وهذه الخمسة يطلق عليها (التوراة).

القسم الثاني: الأسفار التاريخية وهي اثنا عشر: يوشع والقضاة، راعوث، صموئيل، الملاك، أخبار الأيام، عزرا، نحميا، استير. وينقسم كل من صموئيل والملوك وأخبار الأيام إلى قسمين.

القسم الثالث: الأسفار الشعرية، وهي خمسة: أيوب، مزامير داود، أمثال سليمان، الجامعة من أمثال سليمان، نشيد الأنشاد لسليمان.

القسم الرابع: أسفار الأنبياء، وعددها ١٧: أشعياء، إرميا، مراثي إرميا، حزقيال، دانيال، هوشع، يوئيل، عاموس، عوبديا، يونان، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجي، زكريا، ملاخي.

: ٢-التلمود: ومعناه" كتابتعاليم ديانة وآداب اليهود" وهو روايات شفوية تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل. جمعها الحاخام (يوضاس) في كتاب سماه (المشنا) أي الشريعة المكررة. ولشرح المشنا كتبت (الجمارا) ومنهما يتكون التلمود.

تاريخ النصارى

-وهم من تبع عيسى عليه السلام من بني إسرائيل –

. سموا بذلك لأنهم الفرقة التى اتفقت فيما بينها وبين نفسها ان تناصر المسيح عليه السلام بعد ان رفعه الله إلى السماء وتنتصر لدينه وهو الاسلام ولذلك اختارها القران الكريم للحديث عن المسيح عليه السلام فهى وان كانت لديها بعض الانحرافات الا انها اقرب الفرق للصواب وفى هذا يقول تعالى

ومن الذين قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم، بخلاف الفرق الاخرى التى اختلفت فى المسيح مما ساعد اليهود على ان يدخلوا من خلالهم ويغيروا دين المسيح عليه السلام

وبعضهم يقول انهم سموا انفسهم نصارى نسبة لبلدة (الناصرة) وهي قرية المسيح.

-بعد رفع الله تعالى إلى لعيسى عليه السلام لم تمض بضع سنين حتى اختلف النصارى في المسيح عليه السلام، قال: سبحانه (وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن).

تاريخ إقرار ألوهية المسيح

-في سنة ٣٢٥م عقد اجتماع بأمر الإمبراطور الروماني قسطنطين الذي اعتنق النصرانية يضم ممثلين لجميع الكنائس المسيحية للفصل في الخلاف في ألوهية المسيح عليه السلام. فخلصوا إلى قرارات من أهمها: إثباتهم ألوهية المسيح! وحرق كل كتاب لا يقول بذلك!

-في سنة ٣٨١م عقد المجمع القسطنطيني الأول فقرر ألوهية (روح القدس). واتمام قرار الايمان بالتثليث

بقاء المسيحيون ما يقرب من اربعة قرون دون قانون موحد للايمان

لك ان تتخيل ان ظل المسيحيون ما يقرب من اربعة قـرون دون قـانون موحـد للايمـان وحـين وضعوه خالفوا دين المسيح عليه السلام حيث جعلوا الاله الواحد سبحانه ثلاثة سبحأنه تعـالى إلى عن ذلك علوا كبيرا،

- وبذلك أصبحت العقيدة النصرانية تقوم على هذين العنصرين:

اولا:، التثليث والايمان بثلاثة اقانيم

الأقنوم: كلمـة يونانيـة الأصـل تـدل عـلى شخصـية متمـيزة. ويوازيهـا فـي الإنجليزيـة كلمـة Person أي: شخص. انظر: حقائق أساسـية فـي الإيمـان المسـيحي، ص ٥٢. (دراسـات فـي الأديـان للدكتور سعود الخلف، ص ٢٠٤).

وقد كفرهم الله بهذا في قوله تعالى إلى (لقد كفر الذين قال:وا إن الله ثالث ثلاثة).

ثانيا:، صلب المسيح وفداءه عن الخليقة

مصادر دين النصارى

يعتبر الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد هو مصدر النصرانية.

أما الإنجيل الذي أنـزل عـلى عيسى- عليـه السـلام. والـذي قـال: الله تعـالى إلى فيـه (وآتينـاه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين) هـذا الإنجيـل غير موجود اليوم بيد النصارى! ولعل هذا مصداقاً لقوله تعالى إلى (ومن الذين قال:وا إنـا نصـارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذُكروا به) أما الذي بين يدي النصارى اليوم فإنه أربعة أناجيل !

انجيل متى انجيل مرقص انجيل لوقا انجيل يوحنا

وهذه الأناجيل الأربعة لم ينسب واحد منها إلى المسيح عليـه الصـلاة والسـلام، وإنمـا هـي منسوبة إلى هؤلاء الأشخاص

و يزعم النصارى أن اثنين منهم (متى ويوحنا) من الحواريين.

وهذه الأناجيل تحتوي على تاريخ لعيسى عليه السلام؛ حيث ذكر فيها ولادته ثم تنقلاته في الدعوة ثم نهايته بصلبه (كما يزعمون) ثم قيامه وصعوده إلى السماء. كما تحتوي على مواعظه وخطبه ومجادلاته مع اليهود، ومعجزاته.

فهذه الأناجيل أشبه ما تكون بكتب السيرة إلا أن بينها اختلافات ليست بقليلة، وبعضها اختلافات جوهرية لا يمكن التوفيق بينها إلا بالتعسف(٤).

انظر شيئاً من هذه التناقضات والاختلافات في كتاب: إظهار الحق، للشيخ رحمت الله الهندي –رحمه الله-. وانظر: دراسات في الأديان للدكتور سعود الخلف، ص ١٥١-١٧١.

إضافة إلى أن هذه الأناجيل الأربعة لمتعالرف إلا في زمن متأخر بعد رفع المسيح عليه السلام حوالي (١٦٦-١٧٠م) حيث لم يُشر إليها أحد من المتقدمين من النصارى.

فرق النصارى

اولا: الكاثوليك وهم اتباع البابا فى روما واهم ما يتميزون به

١- قولهم بأن الروح القدس انبثق من الأب والابن معا.

-٢يبيحون اكل الدم والمخنوق

٣- أن البابا في الفاتيكان هو الرئيس العام على جميع الكنائس الكاثوليكية.

٤تحريم الطلاق بتاتا حتى فى خالة الزنا .

والكاثوليك هم أكثر الأوربيين الغربيين وشعوب أمريكا الجنوبية وتُسمى كنيستهم الكنيسة الغربية.

ثانيا: الارثوذكس وهم اتباع الكنيسة الشرقية فى القسطنطنية:افترقوا عن الكاثوليك سنة ٨٦٩م ؛ لخلاف الفرقتين حول روح القدس: هل انبثق من الأب والابن كما يقول الكاثوليك. أم من الأب فقط كما قال:ه الأرثوذكس؟

أهم ما تتميز به طائفة الارثوذكس

١ ان الروح القدس انبثق عندهم من الاب فقط

٢- تحريم الطلاق إلا في حالة الزنا فإنه يجوز عندهم.

٣ لايجتمعون تحت لواء واحد بل كل كنيسة منفصلة عن غيرها .

وهذا المذهب منتشر في أوربا الشرقية وروسيا والبلاد العربية؛ كمصر.

ثالثا: البروتستانت ويسمون الانجيليين وهم اتباع مارتن لوثر الذي ظهر فى اوائل القرن السادس عشر الميلادى فى المانيا ونادى بإصلاح الكنيسة واهم ما يتميزون به

أهم ما يتميز به البروتستانت

أهم ما يتميز به أتباع هذه النحلة هو:

١ ان صكوك الغفران دجل وكذب وان الذنوب والخطايا تغفر بالتوبة والندم

٢- أن لكل أحد الحق في فهم الإنجيل وقراءته وليس وقفاً على الكنيسة.

٣تخريم الصور والتماثيل فى الكنائس على اعتبارها رمزا للو ثنية

٤- منع الرهبنة.

٥الغشاء الربانى رمز لما حدث للمسيح وانكروا ان يتحول الخبز لدم وجسد المسيح

٦- ليس لكنائسهم رئيس عام يتبعون قوله.

وهذه النحلة تنتشر في ألمانيا وبريطانيا وكثير من بلاد أوربا وأمريكا الشمالية(٦). انظر في هذا (محاضرات في النصرانية) ص ١٦١، ١٦٤، ١٨٠، (قل يا أهل الكتابتعالوا إلى كلمة سواء) ص ٢٥٧، ٢٦٢.

موقف اليهود من عيسى عليه السلام

١الطعن فى مولده حيث ولد من غير اب مما جعل اليهود يتطاولون على الله سبحانه

٢-الكفر بدعوته ونبوته، وإنكار معجزاته.

التآمر على قتله وصلبه ولكن الله رفعه إلى السماء والقى شبهه على احد اتباعه ليقيم الحجة علىمعابدهم،

موقف اليهود من أتباع عيسى عليه السلام

بعد أن رفع الله عيسى عليه السلام استمر اليهود في الكيد لأتباعه وتعقبهم والتآمر عليهم. وقد حفظ التاريخ عدداً من تلك المؤامرات والمكايد، من أشهرها قصة أصحاب الأخدود التي قصها الله علينا في القرآن، وهي تحكي مقتل آلاف النصارى حرقاً على يد اليهودي (ذي نواس) سنة ٥٢٤م في نجران.

ولقد كان اليهود إلى وقت قريب يقولون:" يجب على اليهود السعي الدائم لغش المسيحيين" (٧)، عن: الأصولية الإنجيلية، لمحمد السماك (ص٧)

ويقولون:" من يفعل خيراً للمسيحيين فلن يقوم من قبره قط" (٨). المرجع السابق (ص٧).

موقف النصارى من اليهود

بعد أن دارت الدائرة على اليهود وأصبحوا مشردين في الأرض تسلط النصارى عليهم وانتقموا منهم في حوادث كثيرة سجلها التاريخ، من ذلك أن القدس لما سقطت بأيدي الحملة الصليبية قام النصارى بإحراق اليهود في معابدهم،

ومن ذلك طردهم المتكرر من بلاد أوربا، إلى غير ذلك من الحوادث التي من آخرها ما قام به هتلر من حرق اليهود وطردهم لما علم خطرهم ومكرهم. ولقد كان النصارى إلى وقت قريب يقولون:" يعتبر اليهود خطراً على جميع شعوب العالم، وخاصة الشعوب المسيحية" (٩). المرجع السابق (ص ١٠). ويقولون:" يتضمن التلمود كل الكفر والإلحاد والخسة" (١٠). المرجع السابق (ص ١

ا) وقد قال: الله تعالى إلى عن الطائفتين (وقال:ت اليهود ليست النصارى على شيء وقال:ت النصارى ليست اليهود على شيء)

أما عداوة الطائفتين للإسلام وأهله فهي لا تخفى على مسلم منذ أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم.

كيف انقلبت العداوة بين اليهود والنصارى إلى صداقة وتعاون؟

علمنا –سابقاً- أن العلاقة بين اليهود والنصارى كانت إلى وقت قريب علاقة عداء وصراع وانتقام متبادل. فما الذي تغير حتى أصبحنا نرى كثيراً من النصارى اليوم (وعلى رأسهم أمريكا وبريطانيا) يتعاونون مع اليهود ويمدونهم بألوان المساعدات المتنوعة ويمكنونهم من الاستيلاء على فلسطين كما هو مشاهد؟

-كانت الكنيسة قبل حركة الإصلاح الديني تمارس تسلطاً على رقاب النصارى وتكبت حرياتهم وتفرض آراءها عليهم ولو كانت مخالفة للعلم، وتنتقم ممن يخالفتعالاليمها ولو كان نابغاً بالحرق أو القتل.

-وزاد من تسلطها أنها استأثرت بفهم الكتاب المقدس وتفسيره دون سائر النصارى، وما على الآخرين إلا قبول آرائها وتفسيراتها دون نقاش.

-وبلغ انحرافها مبلغه عندما أصدرت (صكوك الغفران) للمذنبين! يشتريها المذنب من الكنيسة ليضمن بعدها أنه مغفور له من الله!تعالى إلى الله عن قولهم.

-لما كان الحال هكذا اشتدت الحاجة إلى حركة إصلاحية تقف في طريق هذه الانحرافات الكنسية. وكانت هذه الحركة بقيادة (مارتن لوثر) المولود في ألمانيا عام ١٤٨٢م، وكان قسيساً وأستاذاً لعلم اللاهوت.

- قام لوثر بثورته أو احتجاجه لإقرار هذه المبادئ:

اجعل الكتاب المقدس هو المرجع وليس الباباوات كما كان من قبل ولا زال عند غيرهم من الطوائف الاخرى

٢- من حق كل مسيحي أن يقرأ الكتاب المقدس وأن يفسره.

٣عدم اعترافه بنظام الباباوات

٤- مطالبته بزواج القساوسة.

٥عدم ايمانه بالأسرار الكنسية كالاستحالة مثلا

-هذه أبرز مطالب الحركة الاحتجاجية أو الإصلاحية بقيادة (لوثر) والتي سميت في ما بعد بـ(البروتستانت). ويلاحظ أنها ركزت على تغييرات شكلية لم تكن هي السبب في انحراف الكنيسة، وأبقت على جذور الانحراف والضلال من تحريف الكتاب المقدس، والصلب، والتثليث، وغير ذلك. فكانت ثورة شكلية انتفع منها اليهود –كما سيأتي- ولم ينتفع منها النصارى.

-بعد قيام هذه الحركة الإصلاحية لقيت الاضطهاد والتضييق من الكنيسة (الكاثوليكية) مصداقاً لقوله تعالى إلى (ومن الذين قال:وا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة)

-كان لحركة الإصلاح الديني" البروتستانتية" أثر كبير في إحداث تغيير في طبيعة العلاقة بين اليهود والنصارى، يتبين ذلك مما يلي:

اولا: كان النصارى –جميعهم- قبل عصر الإصلاح الديني بقيادة البابا يعادون اليهود ويقودون حملات التطهير والإبادة ضدهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ثانيا:" حافظت الكنيسة الكاثوليكية – إلى عهد قريب- على موقف ثابت من المسألة اليهودية يقوم على رفض التصالح مع اليهود إلا إذا اعترفوا بالمسيح واعتنقوا النصرانية" (١١). النبوءة والسياسة: الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية/ غريس هالسل ترجمة/ محمد السماك ص ٦ جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ط الأولى ليبيا ١٩٩٠.

ثالثا:" لم يكن في الفكر الكاثوليكي التقليدي قبل عهد الإصلاح الديني أدنى مكان لاحتمال العودة اليهودية إلى فلسطين، أو لأية فكرة عن وجود الأمة اليهودية،

وكان القساوسة يرفضون التفسير الحرفي للتوراة ويفضلون تفسيرات لاهوتية أخرى وبخاصة المجازية التي أصبحت الأسلوب الرسمي للتفسير التوراتي" (١٢). الصهيونية غير اليهودية/ ريجينا الشريف ص ٢٦ ترجمة أحمد عبد العزيز / عالم المعرفة. الكويت عدد (٩٦) بتصرف.

ومن هنا وعلى ضوء مفاهيم العهد الجديد أخذت كل التنبؤات والوعود المتعلقة باليهودية اتجاهاً تفسيرياً جديداً استبعد أي تدخل بشري أو عمل سياسي يقضي- أو يفضي- إلى عودة اليهود إلى فلسطين وإقامة دولة لليهود بها"

يضاف إلى ذلك أن العهد القديم كان" حتى أواخر القرن الرابع عشر حبيس الأديرة والصوامع لا يطلع عليه إلا قلة من رجال الإكليروس الذين يعرفون العبرية واللاتينية" (١٣). الأفعى اليهودية ص ٥٦

-إذاً فاليهود في نظر المسيحيين –على ضوء ما سبق- مارقون كفار يجب اضطهادهم. وفسرت وعودهم على ضوء العهد الجديد بأسلوب يسلبهم كل حق، وكتابهم حبيس ولغتهم مندرسة.

هذا هو وضع اليهود كشعب وكتاب ووعود ولغة قبل حركات الإصلاح. ثم جاء البروتستانتية" حركة الإصلاح" فشكلت مسار التغيير في كل ما سبق فانقلبت الأمور إلى اتجاه معاكس تماماً لما كانت عليه المسيحية قبل عصور الإصلاح الديني.

فحصل اليهود من حركة الإصلاح الديني على ما لم يكونوا يحلمون بـه حيـث" إن ريـاح التغيـير في الموقف المسيحي تجاه اليهود بـدأت تهـب منـذ ظهـور الحركـة الإصـلاحية البروتسـتانتية فـي القرن السادس عشر، حين أطاحت هذه الحركة بحق الكنيسة في احتكـار تفسـير الكتـاب المقـدس وتحديد الرؤية المسيحية الفكرية، وبذلك تم إحياء النص التـوراتي وبـدأ التفسـير الحرفي للنصـوص المتعلقة باليهود يحل محل التأويلات والتفسيرات الـتي تبنتهـا الكنيسـة الكاثوليكيـة الأم، وبـدأت النظرة إلى اليهود تتغير تدريجياً" (١٤). النبوءة والسياسة ص ٩.

اعتمد هذا التغير على المبدأ الذي نادى به لوثر وهو إلغاء احتكار الكنيسة ورجال الـدين حـق تفسير الكتاب المقدس، ودعوته الشعب أن يتعامل مبـاشرة مـع الكتـاب وجعلـه المصـدر الوحيـد للمسيحية باعتباره مصدر المسيحية النقية.

وبذلك" جاءت البروتستانتية بفكرة إقامة الحقيقة الدينية على أساس الفهم الشخصي- دون فرض قيـود عـلى التفسـيرات التوراتيـة، فكـان كـل بروتسـتانتي حـراً في دراسـة الكتـاب المقـدس واستنتاج معنى النصوص التوراتية بشكل فردي، وهكذا فتح الباب للبدع في اللاهـوت المسـيحي وأصـبح التأويـل الحرفـي البسـيط هـو الأسـلوب الجديـد فـي التفسـير بعـد أن هجـر المصـلحون البروتستانت الأساليب التقليدية الرمزية والمجازية" (١٥) الصهيونية غير اليهودية ص ٣١.

ولما اعتمد البروتستانت على الكتاب المقدس (العهد القديم كأصل) وآمنوا بوجوب التعامل الفردي المباشر مع نصوصه تاركين الأساليب المجازية التقليدية في تفسـير هـذه النصـوص كـان أول مـا يفتحونـه العهـد القـديم فتقـع أعيـنهم عـلى التنبـؤات والوعـود اليهوديـة فيفهمونهـا بحرفيتها دون تأويل ويعتقدون مضمونها.

وقد تولدت عن هذا نظرة جديدة عن اليهود حاضراً وماضياً ومستقبلاً ونتج ما يلي:

اصبح الكتاب المقدس المرجع الاعلى لفهم العقيدة المسيحية وبلورتها (١٦) الاصولية الانجيلية ص٤٥

٢-" اعتبرت اللغة العبرية –باعتبارها اللغة التي أوحى بها الله، واللسان المقدس الذي خاطب به شعبه المختار –هي اللغة المعتمدة للدراسة الدينية" (١٧). المصدر السابق ص ٤٦.

إن هاتين النتيجتين اللتين أفرزتهما حركة الإصلاحتعالىدان نقلة ذات أهمية في تاريخ اليهود، كماتعالىد نقلة ذات أهمية أيضاً في تاريخ العلاقة بين الطائفتين.

فالعهد القديم الذي ظل حبيس الأديرة والصوامع لا يطلع عليه أحد إلا القليل أصبح على يد البروتستانت المرجع الأعلى للنصارى فيما يخص اليهود بل في فهم العهد الجديد. واللغة العبرية التي اعتبرت" الأساطير الكاثوليكية التقليدية أن دراستها تسلية الهراطقة وكانتعالىلمها في نظر الكثيرين بدعة يهودية، واتخذت خطوات عنيفة لاجتثاثها" (١٨)الصهيونية غير اليهودية ص ٣٤ بتصرف.

هذه اللغة أصبحت بعد حركة الإصلاح جزءاً من الثقافة الأوربية" فقد أصبح العالم يتقن اللاتينية واليونانية والعبرية وأصبحت العبرية جزءاً من المنهج الدراسي اللاهوتي، وفي نهاية القرن السادس عشر أخذت الحروف العبرية تستعمل في الطباعة، وانكب المسيحيون العاديون ورجال الدين على دراسة أدب الأحبار، وأعجب المسيحيون أيما إعجاب بالعبرية واقترن في أذهان كثير من المجموعات والفرق البروتستانتية مع إعجابهم بالعبرية إعجابهم بالمبادئ والقيم اليهودية.

وتسربت الروح العبرية اليهودية إلى الفنون والآداب فكان الفنانون يرسمون ويحفرون مناظر من الكتاب المقدس، وحلت قصص وتفسيرات العهد القديم محل المسرحيات التي كانت تمثل حياة القديسين، وأصبحت شخصيات العهد القديم كأبسالوم وإيستر ويوحنا وجوزيفوس وغيرهم تبدو على أنها شخصيات تحتذى في أخلاقها" (١٩). المرجع السابق ص ٣٤-٣٧ باختصار.

محتويات الأدبيات اليهودية إلى صميم العقيدة والفكر المسيحي

وهكذا تسربت الأدبيات اليهودية إلى صميم العقيدة والفكر المسيحي وكانت هذه الأدبيات تدور حول أمور ثلاثة:

" الأمر الأول: هو أن اليهود هم شعب الله المختار، وأنهم يكونون بذلك الأمة المفضلة على كل الأمم.

الأمر الثاني: هو أن ثمة ميثاقاً إلاهياً يربط اليهود بالأرض المقدسة في فلسطين، وأن هذا الميثاق الذي أعطاه الله لإبراهيم عليه السلام هو ميثاق سرمدي حتى قيام الساعة.

الأمر الثالث: هو ربط الإيمان المسيحي بعودة السيد المسيح بقيام دولة صهيون، أي بإعادة وتجميع اليهود في فلسطين حتى يظهر المسيح فيهم" (٢٠). الأصولية الإنجيلية ص ٤٤، ٤٥.

وآمن النصارى البروتستانت أن مساعدة اليهود لتحقيق هذه الغاية –وقيام دولة صهيون- أمر يريده الله لأنه يعجل بمجيء المسيح الذي يحمل معه الخلاص والسلام، وساد الاعتقاد أن النصارى المخلصين سوف يعيشون مع المسيح في فلسطين ألف سنة في رغد وسلام قبل يوم القيامة طبقاً لبعض التفسيرات الحرفية لسفر رؤيا يوحنا اللاهوتي.

وهكذا ظهر اتجاه جديد في المسيحية يحيى الهالة التي أضفتها التوراة على بني إسرائيل، ويوجب على المسيحيين التدخل البشري لتحقيق وعود يهودية واردة في التوراة، كما قام هذا الاتجاه الهائل بدعم اليهود والدعوة إلى قيام كيان لهم في فلسطين، كما تزعم هذا الاتجاه حركة الدعوة لانبعاث اليهود وتسفيه التحقير المسيحي لليهودية والمطالبة بضرورة رفع الظلم والاضطهاد عن هذا الشعب المختار وفقاً للإيمان الحرفي بالكتاب المقدس.

-وجد اليهود في هذه الفرصة من يناصرهم ويدعو إلى قضاياهم ويتحالف معهم بعد أن كانوا مضطهدين.

-إن الأدبيات التي تسربت إلى العقيدة المسيحية يصح أن نطلق عليها تهويداً للمسيحية أو بعثاً لليهودية والعبرية. وإن المحاور الثلاثة التي تدور حولها هذه الأدبيات والمذكورة قبل قليل: لهي اليوم" قاعدة الصهيونية المسيحية التي تربط الدين بالقومية، والتي تسخر الاعتقاد الديني المسيحي لتحقيق مكاسب يهودية" (٢١)المرجع السابق ص ٤٤، ٤٥.

وهكذا ولدت الصهيونية في أحضان البروتستانتية قبل هرتزل بثلاثة قرون" وكانت أنشودة مسيحية قبل أن تصبح حركة سياسية يهودية كما قال:" كينين" أحد أبرز القيادات الصهيونية اليهودية الأمريكية في كتابه (خط الدفاع الإسرائيلي)، وإن أول من رفع شعار" فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" هم أصوليون مسيحيون، وإن المسيحية اليهودية هي التي مهدت لظهور الصهيونية اليهودية ودعمتها لتنفيذ المشروع الاستيطاني فوق أرض فلسطين، وهي التي خلقت تياراً شعبياً قوياً ينحاز دائماً إلى الحركة الصهيونية ويضغط دائماً على مؤسساته الرسمية لتمنحها الدعم والمساندة وتحقيقاً لأهدافها العدوانية التوسعية" (٢٢). النبوءة والسياسة ص ٦.

-لقد كان هؤلاء المسيحيون الجدد يعتقدون أن هناك ثلاث إشارات يجب أن تسبق عودة عملياً،

" الإشارة الأولى هي قيام إسرائيل، وقد قامت إسرائيل في العام ١٩٤٨م. ولذلك اعتبر الصهيونيون المسيحيون في الولايات المتحدة هذا الحدث أعظم حدث في التاريخ لأنه جاء مصدقاً للنبوءة الدينية.

الإشارة الثانية هي احتلال مدينة القدس، ولقد احتلت إسرائيل القدس في العام ١٩٦٧ التي ينظر الإنجيليون من الصهيونيين المسيحيين على أنها المدينة التي سيمارس المسيح حكم العالم منها بعد قدومه الثاني المنتظر. ولذلك تضغط الكنائس الصهيونية المسيحية في الولايات المتحدة من أجل الاعتراف بالقدس عاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل. ولقد تجاوب مجلسا الشيوخ والنواب مع هذه الضغوط في إبريل – نيسان ١٩٩٠.

الإشارة الثالثة هي إعادة بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى. ولقد وضعت خريطة الهيكل الجديد، فيما تتواصل الحفريات تحت المسجد بحجة البحث عن آثار يهودية مطمورة. وفي الوقت نفسه يتم إعداد وتدريب كهان الهيكل في معهد خاص بالقدس. أما الأموال اللازمة فقد جمع معظمها وأودع في حساب خاص باسم مشروع بناء الهيكل.

ويزعم هؤلاء أنه بعد اكتمال المشروع، ستقع هرمجدون(٢٣) هرمجدون: معركة فاصلة بين الخير والشر ستقع –كما يزعم هؤلاء- على أرض فلسطين، انظر: حمى سنة ٢٠٠٠ للأستاذ عبد العزيز كامل.

التي يظهر المسيح فوقها مباشرة وسيرفع إليه بالجسد المؤمنين به ليحكم العالم من القدس مدة ألف عام تقوم بعدها القيامة(٢٤). الأصولية الإنجيلية، محمد السماك (ص ٨٤-٨٥).

-مما سبق يتضح لنا كيف كان لحركة الإصلاح الديني الدور الأكبر والأساسي لتحويل مسار العلاقة بين اليهود والنصارى من صراع دموي إلى تحالف استراتيجي آثم اعتُبر المسلمون في نظره –رغم إيمانهم بالمسيح- أعداءً للمسيحية، وانقلبت النظرة بالنسبة لليهود الذين حاربوا المسيح وكذبوه وصلبوه –كما زعموا- فأصبحوا هم الحلفاء والأصدقاء والسادة!! والعجيب أن تنتشر هذه الدعوة في دول عديدة من دول أوربا على رأسها إنجلترا التي أخذت على عاتقها مناصرة اليهود من خلال معتقداتها الإصلاحية الأصولية المسيحية اليهودية.

-ولما كانت حركة الإصلاح تخالف ما عليه الكنيسة الكاثوليكية فقد نالها من التضييق والاضطهاد الكثير والكثير.

فقد دعا" البابا ليو العاشر، مارتن لوثر إلى روما في ٧ يوليو سنة ١٥١٨م فلم يلب الدعوة وردّ على نائبه رداً شديداً قاسياً ونشر أن البابا ليس معصوماً وأن الكتاب المقدس وحده هو القاعدة الحقيقية للتعليم المسيحي.

ثم دعاه البابا ثانية إلى روما فلم يجب فبادر إلى حرمانه فأحرق لوثر قرار الحرمان فكان قرار مجمع ودمن سنة ١٥٢١م بطرد لوثر وإهدار دمه وحرم قراءة كتاباته وإحراقها، ثم لما التف الناس حوله قرر المجمع إلغاء ما سبق" (٢٥)المجامع: ص ٤٤٦-٤٤٨ بإيجاز

وإذا كان لوثر قد نجا بعض الشيء من هجمات الكاثوليك فإن أتباعه لم يسلموا من صراع دموي رهيب(٢٦)انظر: الإسلام والصراعات الدينية ص ١٤١-١٤٦.

اضطرهم في كثير من الأحيان إلى الهجرة خارج أماكن الصراع هرباً بمعتقداتهم من الفتنة." وإذا كانت محاكم التفتيش في الأندلس قد دفعت باليهود إلى أوربا هرباً بدينهم فإن الصراع الديني في أوربا حمل مطلع القرن السابع عشر المتهودين الجدد إلى العالم الجديد" (٢٧) الأصولية الإنجيلية ص ٦٩ أمريكا التي اكتشفت سنة ١٤٩٢م.

وكان لهجرة البروتستانت آثار مباشرة وواضحة في بلورة الشخصية الأمريكية بالصورة التي نراها عليه اليوم.

-وهكذا انتشرت" البروتستانتية" في أوربا وأمريكا وعلى إثر ذلك تشكلت أكبر قوة معادية للإسلام بدت في أشكال تحالفية ضد الدين الحق ساعية إلى تحقيق وعود مفتراة غير عابئة بقيم أو أخلاق أو إنسانية.

-إذاً فقد أصبح على رأس سياسات الدول البروتستانتية (وفي مقدمتها أمريكا وبريطانيا) دعم قيام دولة لليهود على أرض فلسطين، فلهذا انهالت المساعدات المتنوعة لأجل ذلك حتى تحقق ذلك بعد وعد بلفور الشهير وزير خارجية بريطانيا، عام ١٩١٧م،

ولم تقف بريطانيا عند حدود الكلام والوعود، بل شرعت في التنفيذ عملياً، وذلك بمساعدة عصبة الأمم، وما فرضته من انتداب على فلسطين وتسهيل هجرة اليهود إليها ثم تمكينهم من إحكام قبضتهم عليها وتسليمها لهم، وأورباتعالىلم ذلك كله وتباركه،

ووقفت بريطانيا محتضنة للصهيونية نظرياً حيثتعالهدتها منذ بذرتها الأولى، وعملياً حتى تسليمها لليهود أرض فلسطين بعد إنهاء الانتداب في ١٤ مايو ١٩٤٨م ليعلن عن قيام دولة إسرائيل في ١٥ من نفس الشهر(٢٨)، لمزيد من تفاصيل هذه المؤامرة يراجع/ فلسطين وصراع القوى/ محمد عطا ص١٦-٢٩ مكتبة الأنجلو ١٩٦٧ بدون، مطامع بريطانيا في الشرق الأوسط/ وضع معهد البحوث السياسية البريطانيةتعالريب/ صلاح العزبي ص ٧-١١ مكتبة الأنجلو بدون، اليهودية/ أحمد شلبي ص١١١-١١٦، الطريق إلى بيت المقدس جـ٢ ص٥٥-٨٦.

من أجل ذلك فلا عجب" إذا اختار حاييم وايزمان" وهو يهودي ومن بريطانيا وشغل منصب أول رئيس لدولة إسرائيل بعد قيامها في ١٩٤٨م-

لا نعجب إذا اختار وايزمان لندن مقراً للصهيونية العالمية، دون أنتعالترض عليه أي دائرة سياسية بريطانية" (٢٩) فلسطين والمواقف العربية والدولية/ إبراهيم المسلم ص ٦٥ط الأولى دار الأصالة ١٩٨٥، الرياض.

. ولا نعجب أيضاً إذا سمعنا هرتزل يقول:" إنني لأول لحظة انضممت فيها إلى الحركة الصهيونية اتجهت عيناي إلى إنجلترا، لأنني رأيت بسبب الأحوال العامة أن في إنجلترا نقطة الارتكاز التي يمكن أن تتحرك عليها الرافعة" (٣٠). مؤامرة فلسطين/ ب جنسين جـ١ ص٦٥ كتاب رقم (١١٦) سلسلة كتب سياسية، الدار القومية للطباعة بدون.

-ومع أن إنجلترا كانت أول الدول وأشدها حماسة للصهيونية نظرياً وعملياً إلا أن دولاً أوربية كثيرة لم تكن أقل حماساً من بريطانيا. ففرنسا مثلاً كانت من" أول من طرح بشكل جدي فكرة توطين اليهود في فلسطين.

فقد أعدت حكومة الإدارة الفرنسية ١٧٩٨ خطة سرية لإقامة" كومنولث يهودي في فلسطين" حال نجاح الحملة الفرنسية في احتلال مصر والمشرق العربي بما فيه فلسطين" (٣١).

مشاريع الاستيطان اليهودي منذ قيام الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى د/ أمين عبد الله محمود ص ١٤ عالم المعرفة رقم (٧٤) ١٩٨٤ الكويت.

أشكال دعم أمريكا (البروتستانتية) لليهود منذ قيام دولتهم

أما أمريكا (البروتستانتية) فإنها فاقت بريطانيا ودول أوربا في دعمها لليهود منذ قيام دولتهم، وهذا لم يعد يخفى على أحد، وإليك شيئاً مما قام أو صرح به رؤساؤها لتزداد يقيناً بذلك:

اولا:، الرئيس جيفرسون: الذي بلغ من تأثير الصهيونية المسيحية فيه حداً كبيراً اقترح فيه اتخاذ رمز لأمريكا يمثل أبناء إسرائيل تظلهم غيمة في النهار، وعمود من نور في الليل بدلاً من شعار النسر(٣٢) الأصولية الإنجيلية ص ٧١.

، وذلك توافقاً مع ما تتضمنه الآية ١٢ من الإصحاح ١٣ الواردة في سفر الخروج: كان الرب يسير أمامهم خلال النهار في عمود من السحاب ليهديهم الطريق، ويسير أمامهم خلال الليل في عمود من نار ليضيء لهم" .

ثانيا:، ولما زار بلفور الولايات المتحدة في ٢٠ إبريل ١٩١٧م وعده ويلسون حينذاك بتقديم كل عون لليهود، بل إن بلفور طلب من" براندیس" أن يكون على اتصال دائم مع حاييم وايزمان لتنسيق الخطوات في شأن إقامة إسرائيل- كل ذلك على علم من ويلسون.

ثالثا:، وبعث ويلسون رسالة رسمية لزعيم الصهيونية الأمريكية الحاخام" ستيفن وايز" مصدقاً بشكل رسمي على وعد بلفور(٣٤) أمريكا الصهيونية ص ١٣-١٥

رابعا: وأعلن الكثير من زعماء اليهود تأييده لوعد بلفور، ولم يكن هذا كله بضغط من اليهود المحيطين بالرئيس، إنه بروتستانتي" ينحدر من أبوين ينتميان للكنيسة المشيخية وقد نشأ على التعاليم البروتستانتية الأمريكية التي كانت تؤمن بالأسطورة الصهيونية" (٣٥)الصهيونية غير اليهودية ص ١٨٨، ١٩٢.

حتى قال: عن نفسه:" إنه يجب على ابن راعي الكنيسة أن يكون قادراً على المساعدة لإعادة الأرض المقدسة لشعبها اليهودي" (٣٦) القدس بين الوعد الحق والوعد المفترى، ص ٤٦.

واعتبر ويلسون وحكومته واضعي حجر الأساس للدولة اليهودية نظراً لما قدمه في هذا السبيل.

وخلف ويلسون ثلاثة:

خامسا: وارن هاردبخ وهو صهيوني مسيحي قال: في أحد تصريحاته في يونيو ١٩٢١م:" يستحيل على من يدرس خدمات الشعب اليهودي ألا يعتقد أنهم سيعادون يوماً إلى وطنهم القومي التاريخي" كما صرح بتأييده الشديد لصندوق اكتشاف فلسطين(٣٧). الصهيونية غير اليهودية ص ١٩٤-١٩٥.

سادسا: وجاء كالفن كولدج وهربرت هوفر وأكداتعالاطفهما مع الشعب اليهودي وأحقيته في أرض الميعاد كما أكدا إعجابهما الشديد بدور الحركة الصهيونية في تأهيل فلسطين لاستيعاب الهجرات اليهودية(٣٨). يراجع: الصهيونية غير اليهودية ١٩٤-١٩٦.

سابعا: هاري ترومان: الذي فتح أبواب فلسطين لمائة ألف يهودي وطالب بزيادة عدد المهاجرين حتى وصلت الأعداد في عهده إلى ١٥٠٠ يهودي شهرياً استمرت شهوراً طويلة، وتمت الموافقة الأمريكية بأمر ترومان على تقسيم فلسطين، ومنح اليهود بجهوده ٥٦% منها(٤٠) ينظر: أمريكا والصهيونية ص ٢٩، ٣٦-٤٠.

وكانت أمريكا أول دولةتعالترف بإسرائيل في العالم حتى قبل أن تطلب إسرائيل من ترومان الاعتراف بشكل رسمي. ولا نعجب فترومان" كان قد درس التوراة على نفسه وكان يؤمن بالتبرير التاريخي لوطن قومي لليهود، وكان كبروتستانتي يحس بشيء عميق له مغزاه في فكرة البعث اليهودي، وكان معروفاً بحبه للفقرة التوراتية الواردة بالمزمار" ١٣٧" والتي تبدأ" لقد جلسنا على أنهار بابل وأخذنا نبكي حين تذكرنا صهيون" .

ولقد اعترف ترومان أنه ما من مرة قرأ فيها قصة إنزال الوصايا العشر في سيناء إلا وشعر بوخز خفيف يسري في عروقه. ولقد صرح بأن" موسى تلقى المبدأ الأساسي لقانون هذه الأمة على جبل سيناء" (٤١)انظر المرجع السابق ص ٣٦-٥٦، الصهيونية غير اليهودية ص ٢١٣-٢١٦.

كما صرح مراراً بأن كتابه المفضل هو التلمود(٤٢). خطر اليهودية العالمية ص ٢٠٣.

ثامنا:، جون كنيدي: من تصريحاته" إن أمريكا التزمت التزامات صريحة بحماية إسرائيل ومن مصلحتنا نحن الأمريكيين تنفيذ ما التزمنا به" (٤٤). أمريكا والصهيونية ص ١٠٩.

وقال: أمام المنظمة الصهيونية الأمريكية بعد أن تكلم عن قيام دولة إسرائيل وأنها لم تولد لتختفي:" كان ترومان أول من اعترف بإسرائيل وسأواصل أنا السير في هذا الطريق" (٤٥). المصدر السابق ص ١٠٨

كان كنيدي" يؤمن بأن يهوه هو الذي يحمي الولايات المتحدة ويسهر على أمنها" (٤٦). الخلفية التوراتية للموقف الأمريكي ص ٣٣.

تاسعا: جيمي كارتر: في معركة انتخابية رئاسية بين كارتر وريجان والثالث أندرسون تبارى الثلاثة في إعلان التأييد المطلق لليهود. فلما اتهم ريجان منافسه كارتر بأنه يرفض وصف منظمة التحرير الفلسطينية بأنها منظمة إرهابية، هرول كارتر ليعلن أمام المؤتمر اليهودي" إن شيئاً لن يؤثر على التزام بلاده نحو إسرائيل، وإن القدس يجب أن تبقى موحدة إلى الأبد" وأخذ يتفاخر بما

قدمه من مساعدات لإسرائيل خلال فترة رئاسته استجلاباً لرضا أسياده وتمشياً وإعلاناً لما يؤمن به(٤٨). انظر: أمريكا وغطرسة القوة/ قدري قلعجي ص٥٥، ٥٦ط الأولى الرياض ١٩٩٢/٩١.

وقال: أمام الكنيست الإسرائيلي في مارس ١٩٧٩م وكان يعمل على إقرار معاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل:" لقد أقام كلاً من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية مهاجرون روّاد، ثم إننا نتقاسم معكم تراث التوراة" (٤٩). الأصولية الإنجيلية ص ٩٠.

وكارتر مهندس السلام بين مصر وإسرائيل.

عاشرا: وجاء بوش الأب الذي عمل بكل قوة في مسار الصهيونية وقام عملياً بما لم يقم به رئيس قبله:

فقد سهل هجرة اليهود السوفيت التي بلغت ذروتها ما بين عام ١٩٨٩م إلى ١٩٩١م وقدم المساعدات المالية لإسرائيل وقال:إن بلاده قدّمت مساعدات مالية وعسكرية بلغت ٤.٤مليارات دولار، وبذل ١٠ مليارات دولار لتوطين اليهود السوفيت في فلسطين الذين جاؤوا إليها بضغوط كبيرة من بوش(٥١).تاريخ النفوذ اليهودي في أمريكا، فيصل أبو خضرا ص ٣٠-٣٢ بتصرف وإيجاز ط الرياض-بدون

وحرب الخليج وما تم فيها ثم ما ترتب عليها، ما هي إلا نموذج من أعمال بوش الإجرامية، ثم مؤتمر مدريد وفرض ما يسمى بالسلام العربي الإسرائيلي، إن الأدوار التي قام بها بوش نقلت العالم نقلة هائلة، أو نقول غيرت تغييرات هائلة في كثير من الأحداث خاصة على الصعيد العربي الاسرائيلى

حادى عشر- وكلينتون صاحب شعار" لن نخذل إسرائيل أبداً" (٥٢). انظر: جريدة الشعب المصرية ص ٢ العدد (٩٤٤) الثلاثاء ٩ ذي الحجة ١٤١٥، ٩مايو ١٩٩٥.

-وهكذا فإنه على مستوى القمة لا يأتي رئيس أمريكي إلا ويترجم عن صهيونيته الإنجيلية بمناصرة اليهود والعمل على حماية أمن إسرائيل، وما ذلك إلا تأكيداً على إيمانهم بنبوءات العهد القديم وما فيه من عود يهودية.

ولم يقتصر هذا الاتجاه الديني الصهيوني على رجال القمة بل كان اتجاهاً عاماً يؤمن به رجال السياسة الأمريكيون.

واجب الحكومات الإسلامية ضد المد اليهودي والنصراني

ولذا اصبح هناك واجب على المسلمين.. حكومات وشعوباً: كما يحاربوننا كافة فعلينا ان نتحد لنواجهم كافة ونحن مجتمعون

أما الحكومات الإسلامية فإن الواجب عليها:

أن تراجع تلك الحكومات دينها، وأنتعالىلم –علم اليقين- أن لا عزة لها بين الأمم إلا بالتمسك به وتحكيمه، وأما بغير ذلك فما هو إلا الذل والهوان وتسلط الأمم عليها.

فهل تفيق تلك الحكومات لما يخطط لها ولدينها، وتضع يدها في يد أبنائها في مواجهة هذا المكر الصليبي العالمي؟ ! نسأل الله أن يكون ذلك قريباً.

الواجب على الشعوب المسلمة

وأما الشعوب المسلمة فالواجب عليها:

، أن تقدم ما تستطيع في هذا الصراع مع اليهود والنصارى؛ إما بدعم مالي أو بمقاطعة.. (فاتقوا الله ما استطعتم).

أسأل الله أن ينصر الإسلام والمسلمين، وأن يخذل أعداء الدين وأن يؤلف بين المسلمين وحكوماتهم، ويجمعهم على الحق، ويوحد كلمتهم وصفوفهم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

القول في تأويل قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)

نقول ما قدمه الطبري فى تفسيره بتصريف يسير حيث، قال: أبو جعفر: الظلم: وضع الشيء في غير موضعه. و قوله تعالى: (ومن أظلم)، بمعنى وأي امرئ أشدتعالديا وجراءة على الله وخلافا لأمره، من امرئ منع مساجد الله أن يعبد الله فيها؟

و" المساجد" جمع مسجد: وهو كل موضع عبد الله فيه. فمعنى" المسجد" : الموضع الذي يسجد لله فيه، كما يقال: للموضع الذي يجلس فيه:" المجلس" ، وللموضع الذي ينزل فيه:" منزل" ، ثم يجمع:" منازل ومجالس" نظير مسجد ومساجد

وأما قوله: (أن يذكر فيها اسمه)، فإن فيه وجهين من التأويل. أحدهما: أن يكون معناه: ومن أظلم ممن منع مساجد الله من أن يذكر فيها اسمه، فتكون" أن" حينئذ نصبا من قول بعض أهل العربية بفقد الخافض، وتعلق الفعل بها.

والوجه الآخر: أن يكون معناه: ومن أظلم ممن منع أن يذكر اسم الله في مساجده، فتكون" أن" حينئذ في موضع نصب، تكريرا على موضع المساجد وردا عليه.

معنى قوله تعالى: (وَسَعَى فِي خَرَابِهَا)

وأما قوله: (وَسَعَى فِي خَرَابِهَا)، فـإن معنـاه: ومـن أظلـم ممـن منـع مسـاجد الله أن يـذكر فيها اسمه، وممن سعى في خراب مساجد الله. فـ" سعى" إذًا عطف على" منع" .

نقول بان الآية فيها تخصيص وعموم

فالآية فى معناها الاول تشير إلى قريش وظلمها للمسلمين وتهجيرها اياهم فهـل هنـاك مـن هـو اظلـم ممـن يتسـبب فـى طـرد وتهجـير الرسـول الكـريم محمـد صـلى الله عليـه وسـلم والمسلمون معه الركع السجود فكانوا يعبدون الله فى الحـرم وكـانوا يعمـرون الحـرم بصـلاتهم وعبادتهم لله تعالى

فقد سعت قريش بكل الوسائل حتى ابعـدت المسـلمين الركـع السـجود عـن الحـرم فكانهـا حولت عمارتهم للمسجد إلى خراب فهل هناك من هو اظلم من هذا

اما قوله تعالى إلى، ما كان لهم ان يدخلوها الا خـائفين، فهـذا طبيعـى فـالجزاء مـن جـنس العمل فقريشتعاللم تمام العلم ان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ومـن معـه عـلى الحق وان منعهم من بيت الله الحرام امر عظيم فهم لم يمنعوا العرب مـن البيـت فكيـف يمنعـوا اهل البيت منه

فعلمهم بان المسلمين على الحق فقريش حـين تـدخل الخـرم بعـد تهجـير المسـلمين كانـت تدخله خائفة مرعوبة ان يحدث لهم ما حدث لأبرهة وجنوده فكانوا دوما فى خزى وصغار

اما المعنى العام فكل من يتسبب فى منع المسلمين من اداء الصلوات فـى المسـاجد دون اعذار او امراض او اوبئة ويسعى فـى خرابهـا وتفريغهـا مـن عمارهـا فهـو اظلـم وعليـه ان ينتظـر الخزى فى الدنيا والصغار والعذاب العظيم فى الاخرة

والامر لم يقتصر على قريش وحـدها بـل جـاء بعـدها بسـنوات طويلـة الصـليبيون مـن اوروبـا فصدق فيهم قول الله تعالى إلى

(ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يـذكر فيهـا اسـمه) النصـارى. وذلـك أنهـم هـم الـذين سعوا في خراب بيت المقدس، حين احتلوا القدس ومنعوا الصلاة فى الاقصى۔ اكـثر مـن تسـعين سنة

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

♦ وفى الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (ولله المشرقُ والمغرب) أَيْ: إنَّه خالقهما

نزلت الآية في قوم من الصَّحابة سافروا فأصابهم الضَّـباب فتحـرَّوا القِبلـة وصـلَّوا إلى أنحـاءٍ مختلفةٍ فلمَّا ذهب الضَّباب استبان أنَّهم لم يصيبوا فلمَّا قدموا سـألوا رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم عن ذلك وقوله تعالى: (فأينما تولوا) أَيْ: تصرفوا وجـوهكم (فـثمَّ وجـه الله) أَيْ: فهنـاك قِبلة الله وجهته التيتعالىبَّدكم الله بالتوجُّه إليها (إنَّ الله واسعٌ علـيم) أَيْ: واسـع الشَّرِيعة يُوسِّـع على عباده في دينهم

(اختلف العلماء في حكم هذه الآية فمنهم مَـنْ قـال:هي منسـوخة الحكـم بقولـه: (فـولِّ وجهك شطر المسجد الحرام)، ومـنهم مَـنْ قال:حكمهـا ثابـت غـير أنهـا مخصوصـة بالنَّوافـل فـي السفر وقيل: إنها نزلت في شأن النجاشي حين صلَّى عليه النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه

وقولهم له: كيف تُصلِّي على رجل صلَّى إلى غير قبلتنا فأنزل الله تعالى إلى هـذه الآيـة وبـيَّن أنَّ النجاشي وإنْ صلَّى إلى المشرق أو المغرب فإنَّما قصد بذلك وجـه الله وعبادتـه ومعـنى (فـثمَّ وجه الله) أَيْ: فَثَمَّ رضا الله وأمره كما قال:(إنَّما نُطعمكم لوجه الله) والوجـهُ والجِهـةُ والوِجهـةُ: القِبلةُ).

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) قال: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: خَرَجَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ قَبْلَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ إلى الْكَعْبَةِ، فَأَصَابَهُمُ الضَّبَابُ وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَتَحَرَّوْا الْقِبْلَةَ وَصَلَّوْا، فَلَمَّا ذَهَبَ الضَّبَابُ اسْتَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُصِيبُوا، وَأَنَّهُمْ مُخْطِئُونَ فِي تَحَرِّيهِمْ، فَلَمَّا قَدِمُوا سَأَلُوا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، وَقال: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نَزَلَتْ فِي الْمُسَافِرِ يُصَلِّي التَّطَوُّعَ حَيْثُ مَا تَوَجَّهَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ،

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّرَخْسِيُّ- أَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ الْفَقِيهُ السَّرَخْسِيُّ-، أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الصَّمَدِ الْهَاشِمِيُّ أَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال:كَانَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ فِي السَّفَرِ حَيْثُ مَا تَوَجَّهَتْ بِهِ.

وقال: عِكْرِمَةُ: نَزَلَتْ فِي تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ، قال: أَبُو الْعَالِيَةِ: لِمَا صُرِفَتِ القبلة إلى الكعبة وعيّرت الْيَهُودُ الْمُؤْمِنِينَ وَقالوا: لَيْسَتْ لَهُمْ قِبْلَةٌ مَعْلُومَةٌ، فَتَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ هَكَذَا وَتَارَةً هَكَذَا، فَأَنْزَلَ اللَّه تعالى إلى هَذِهِ الْآيَةَ، وَقال: مُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ: لِمَا نَزَلَتْ: (وَقال: رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) [غَافِرٍ: ٦٠]، قالوا: أَيْنَ نَدْعُوهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) [البقرة: ١١٥]، مُلْكًا وَخَلْقًا فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، يَعْنِي: أَيْنَمَا تُحَوِّلُوا وجوهكم فَثَمَّ، أي: هناك وجه اللَّهِ،

قال: الْكَلْبِيُّ: فَثَمَّ اللَّهُ يعلم ويرى وَجْهُ صِلَةٌ كَقوله تعالى: (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) [الْقَصَصِ: ٨٨]، أَيْ: إِلَّا هُوَ، وَقال: الْحَسَنُ- وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَمُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: فَثَمَّ قِبْلَةُ اللَّهِ، وَالْوَجْهُ وَالْوُجْهَةُ وَالْجِهَةُ: الْقِبْلَةُ، وَقِيلَ: رِضَا اللَّه تعالى إلى: (إِنَّ اللَّه واسِعٌ)، أَيْ: غَنِيٌّ يُعْطِي مِنَ السَّعَةِ، قال: الْفَرَّاءُ: الْوَاسِعُ: الْجَوَادُ الَّذِي يَسَعُ عَطَاؤُهُ كُلَّ شَيْءٍ، قال: الْكَلْبِيُّ: وَاسِعُ المغفرة، (عَلِيمٌ) بنيّاتهم حيث ما صلوا ودعوا.

القول في تأويل قوله تعالى: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ

قال: أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: (ولله المشرق والمغرب)، لله ملكهما وتدبيرهما، كما يقال:"لفلان هذه الدار" ، يعني بها: أنها له، ملكا. فذلك قوله: (ولله المشرق والمغرب)، يعني أنهما له، ملكا وخلقا.

و" المشرق" هو موضع شروق الشمس، وهو موضع طلوعها، كما يقال:لموضع طلوعها منه" مطلع" بكسر اللام،

فإن قال: قائل: أو ما كان لله إلا مشرق واحد ومغرب واحد، حتى قيل: (ولله المشرق والمغرب)؟ قيل: إن معنى ذلك غير الذي ذهبت إليه، وإنما معنى ذلك: ولله المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم. فتأويله إذْ كان ذلك معناه: ولله ما بين قطري المشرق، وما بين قطري المغرب، إذ كان شروق الشمس كل يوم من موضع منه لاتعالود لشروقها منه إلى الحول الذي بعده، وكذلك غروبها كل يوم.

١٨٣٦- حدثنا الحسن قال: (١٦) أخبرنا عبد الرزاق قال:، أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)، قال:هي القبلة، ثم نسختها القبلة إلى المسجد الحرام.

١٨٤٠- حدثني أبو السائب قال:، حدثنا ابن فضيل، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر أنه قال:"إنما نزلت هذه الآية: (أينما تولوا فثم وجه الله) أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في السفر تطوعا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رجع من مكة يصلي على راحلته تطوعا يومئ برأسه نحو المدينة" .

وقال: آخرون بل نزلت هذه الآية في قوم عُمِّيت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها، فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال: الله عز وجل لهم: لي المشارق والمغارب، فأنى وليتم وجوهكم فهنالك وجهي، وهو قبلتكم - معلمهم بذلك أن صلاتهم ماضية.

* ذكر من قال: ذلك:

١٨٤٢- حدثني المثنى قال:، حدثني الحجاج قال:، حدثنا حماد قال:، قلت للنخعي: إني كنت استيقظت - أو قال: أيقظت، شك الطبري - فكان في السماء سحاب، فصليت لغير القبلة. قال:مضت صلاتك، يقول الله عز وجل: (فأينما تولوا فثم وجه الله

ومعنى الآية إذًا: ولله ملك الخلق الذي بين المشرق والمغرب يتعبدهم بما شاء، ويحكم فيهم ما يريد عليهم طاعته، فولوا وجوهكم - أيها المؤمنون - نحو وجهي، فإنكم أينما تولوا وجوهكم فهنالك وجهي.

فأما القول في هذه الآية ناسخة أم منسوخة، أم لا هي ناسخة ولا منسوخة؟ فالصواب فيه من القول أن يقال:إنها جاءت مجيء العموم، والمراد الخاص، وذلك أن قوله: (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)، محتمل: أينما تولوا - في حال سيركم في أسفاركم، في صلاتكم التطوع، وفي حال مسايفتكم عدوكم، في تطوعكم ومكتوبتكم، فثم وجه الله، كما قال: ابن عمر والنخعي، ومن قال: ذلك ممن ذكرنا عنه آنفا.

= ومحتمل: فأينما تولوا - من أرض الله فتكونوا بها - فثم قبلة الله التي توجهون وجوهكم إليها، لأن الكعبة ممكن لكم التوجه إليها منها. كما قال :

١٨٤٦- حدثنا القاسم قال:، حدثنا الحسين قال:، حدثنا حجاج، عن ابن جريج قال:، أخبرني إبراهيم، عن ابن أبي بكر، عن مجاهد قال:، حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها قال:، الكعبة.

= ومحتمل: فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم فهنالك وجهي أستجيب لكم دعاءكم،

وأما قوله: (فأينما)، فإن معناه: حيثما.

وأما قوله: (تولوا) فإن الذي هو أولى بتأويله أن يكون: تولون نحوه وإليه، كما يقول القائل:" وليته وجهي ووليته إليه" ، بمعنى: قابلته وواجهته. وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية، لإجماع الحجة على أن ذلك تأويله وشذوذ من تأوله بمعنى: تولون عنه فتستدبرونه، فالذي تتوجهون إليه وجه الله، بمعنى قبلة الله.

وأما قوله: (فثم) فإنه بمعنى: هنالك.

واختلف في تأويل قوله: (فثم وجه الله) فقال: بعضهم: تأويل ذلك: فثم قبلة الله، يعني بذلك وجهه الذي وجههم إليه.

فإن قال: قائل: وما هذه الآية من التي قبلها؟

قيل: هي لها مواصلة. وإنما معنى ذلك: ومن أظلم من الذين يمنعون عباد الله مساجده أن يذكر فيها اسمه، وسعوا في خرابها، و خاصة ان لله المشرق والمغرب، فأينما توجهوا وجوهكم فاذكروه، فإن وجهه هنالك، يسعكم فضله وأرضه وبلاده، ويعلم ماتعاالملون، ولا يمنعكم تخريب من خرب مسجد من مساجد الله، ومنعهم من منعوا من ذكر الله فيه - أن تذكروا الله حيث كنتم من أرض الله، تبتغون به وجهه.

القول في تأويل قوله: إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

قال: أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: (واسع) يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير.

وأما قوله: (عليم)، فإنه يعني أنه عليم بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه، بل هو بجميعها عليم.

وَقال:وا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

فيقول الله -تبارك وتعالى- في هذه السورة الكريمة سورة البقرة: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ [سورة البقرة:١١٦]

هذه المقالة العجيبة

، صدرت عن اليهود: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ [سورة التوبة:٣٠]

وصدرت عن النصارى: وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ [سورة التوبة:٣٠]

، وصدرت أيضًا عن المشركين فقالوا: إن الملائكة بنات الله،

وقد رد القرآن على المشركين فقال تعالى: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُون ـ يعني البنات

، وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمْ الْحُسْنَى [سورة النحل:٦٢]

قال تعالى: أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ [سورة الصافات:١٥٣] قال: ذلك إنكارًا على مقالتهم، فهذا قالة بعض طوائف من قبائل العرب،

فهذه المقالة الغريبة مقالة مشتركة، وقد نزه الله -تبارك وتعالى- نفسه عن ذلك سبحانه من هذا القول الباطل ومن كل عيب ونقص، ومما يصفه به الواصفون من هؤلاء الكفار والمشركين وأهل الأهواء والبدع، فكل من في السماوات والأرض هم ملكه وعبيده، وهم جميعًا خاضعون مسخرون لتصرفه، تحت تصرفه وتدبيره، فهم ملك له.

يؤخذ من هذه الآية: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا [سورة البقرة:١١٦] اتخذ، فهذا لا يتأتى مع نسبة الولد إلى الله -تبارك وتعالى- فإن الاتخاذ يدل على معنى الاكتساب، وهذا ينافي الولدية، فالولدية تأتي بدون صنع ولا اكتساب، فإذا جاء الصنع جاءت العبودية: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

شبهة وجوابها: (اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا)

وفي هذه العبارة: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا الولد يصدق على الذكر والأنثى

لقول الله تعالى إلى يوصيكم الله فى اولادكم، وبعدها قال تعالى: ، للذكر مثل حظ الانثيين،

ف اولا:دكمتعالنى الذكر والانثى

اما اليهود قالوا: بأن عزيرًا ابن الله،

والنصارى قالوا: المسيح ابن الله،

والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله،

فالولد هنا يشمل ذلك جميعًا الذكر والأنثى، فيكون نفيًا لمقال:ة هؤلاء جميعًا.

بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ [سورة البقرة:١١٦]" كل" هذه حينما تقطع عن الإضافة كما في هذا الموضوع وقد نونت كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ يصح فيها مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى، فجاء هنا مراعيًا للمعنى، فإن ذلك يدل على الجمع، فقال:قَانِتُونَ كُلٌّ لَهُ قَانِتُون

- والقنوت بمعنى دوام الطاعة، فكل ما في هذا الكون هو مطيع لله دائم الطاعة، وكما قال: الله : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ [سورة الإسراء:٤٤] فكل شيء مسبح، وكل شيء مطيع، ويبقى هذا التمرد يصدر عن الثقلين عن الجن والإنس، أعني من كفر بالله منهم وعصاه، باقي الكائنات من الجمادات، والنباتات، والدواب، وأنواع الحيوان في البر والبحر، والطير في الهواء كل ذلك مسبح لربه وخالقه غير مستنكف عن عبادته.

ثم أيضًا جاء تأكيد الخبر هنا باسمية الجملة، وتقديم الجار والمجرور له على قَانِتُونَ للتأكيد كُلٌّ لَهُ لله دون ما سواه، فهي قانتة له وحده، فإن تقديم الجار والمجرور هنا يدل على الاختصاص والحصر فهي قانتة لربها وخالقها فهيتعالىرفه.

الاستنكار في قول الله تعالى: (وقالوا اتخذ الله ولذا)

هذا قول عجيب لماذا؟

اولا: لان الولد يتطلب زوجه ومجئ الولد يتطلب جماع وهذا محال على الله تعالى إلى لأن الزوجة ستكون مخلوقة من مخلوقات الله لأنه لن تكن اله فليس مع الله اله اخر ويستحيل اجتماع اله بمخلوق له فنحن فى دنيانا لا نقبل ولم نرى ان مخلوقات مختلفة تلاقت وانجبت جيلا،

فلم نر فيلا مثلا جامع نعجة وانجب منها هذا بين المخلوقات فما بالكم باله ومخلوق

ثانيا: الولد يحتاج إلى فترة حضانة ورعاية إلى ان يكبر وحتى حين يصبح يافعا فهو فى حاجة إلى اهله ليعدوا له منزلا للزوجية واموالا يقيم بها حياته اذن فالولد حين ياتى هو الشغل الشاغل لابيه ونادرا ما يستفيد منه ابويه فما فائدة وجود الولد لله تعالى إلى

ثالثا: الاولاد غالبا يصبحون نقاط ضعف لأهلهم فإباؤهم لا يحبون ان يكون احد افضل من ابناءهم والله تعالى إلى الخلق عنده متساوون فلو ان له ولد فلن يكن هناك مساواة فسيفضل ولده ومصالحه على الخلق وسيهمل خلقه وخاشاه ان يفعل ذلك سبحانه

ولذلك طلب منا جل وعلا ان نحمده على هذه النعمة فقال تعالى: وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا

وهذه حقيقة فالله تعالى إلى غنى عن الشركاء لان الشركاء غالبا ما يكون لكل منهم راى وفكر وهذا يؤدى لاختلاف الآراء وسينتج عنه انشقاق فى الكون وبالت إلى سيفسد لان هذا يريد الشمس نهارا والاخر يريدها ليلا هذا يكره هؤلاء وهذا يحبهم هذا يريد ان يعطيهم فرصة واخر يريد ان ينتقم بالله عليك هل يصلح الكون فى هذا الشقاق

ثم ان الله تعالى إلى ليس بحاجة إلى، ولى لان الولى يذكرنا بحين يموت ملك من ملوك الدنيا تاركا ابنا صغيرا فيقومون بتعيين ولى يلى امر الملك حتى يكبر هذا الصغير فيكون ملكا ولكنه ذليل لان الولى هو الذي يتحكم فى ملكه وتسيره وهو ملك شكلا لا اكثر

وهذا لا يليق بجلال الله فهو سبحانه ليس بحاجة إلى ولى من الذل فهو الكبير المتعال

رابعا: الاولا:د معلوم ان لهم لحظة بداية حين يولدون ويخرجون للحياة وبما ان لهم بداية ويتدرجون فى الحياة مرحلة بعد اخرى فحتما سيأتي عليهم الفناء فما داموا سيفنون يوما ما فما الفائدة من قولهم اتخاذ الله الولد لو يعقلون وهذا ينطبق على من زعموهم ابناء لله كعزير والمسيح فاين هم الان فالكون لم يتوقف بانهم هنا او هناك كما ان الكون لم يتوقف حتى مجيئهم وولادتهم و لم يتوقف الكون بعد رحيلهم

والعجيب انهم يعلمون ان عزير والمسيح اتى عليهما الفناء ولم يكن منهما فائدة لله تعالى إلى ومع هذا يزعمون ان لله ولدا سبحانه وتعالىعن قولهم

خامسا:، الكون كله مطيع لله قانت لله دائم الخشوع والخضوع يسيره الله تعالى إلى بقوله كن، ففى اقل من لمح البصر يكون فما حاجة الله فى اتخاذ الله الولد

خامسا: وبناء على ما سبق من عدم فائدة الولد لله تعالى إلى فيصبح من باب اولى عدم فائدة البنات الذين زعم المشركون ان الله اتخذ الملائكة وجعلهم بنات له وهذا نما يدل على سذاجتهم فكيف يكرهون البنات لأنفسهم ثم ينسبونها لله

ثم قال:بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [سورة البقـرة:١١٧] الله -تبارك وتعالى: بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأرضِ يعني هو الذي خلق السماوات والأرض وابتدأ خلقهما، فهو المبتدئ والمبدع لهذا الخلق، لم يُسبق إليه، لم يخلقه على نموذج أو مثال سابق.

وَإِذَا قَضَى أَمْرًا حكم به وقدره فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

يؤخذ من هذه الآية: وَإِذَا قَضَى أَمْـرًا فَإِنَّمَـا يَقُـولُ لَـهُ كُـنْ فَيَكُـونُ بـأن هـذه الأمـور مهمـا تصورنا صعوبتها وشدتها وتعقيد المشكلات والمصائب والآلام أو المطالب التي تطلبها النفـوس فإن ذلك عند الله -تبارك وتعالى- يسير فَإِنَّمَا يَقُـولُ لَـهُ كُـنْ فَيَكُـونُ" كـن" يعـني مـا بـين تكوينـه وحصوله إلا صدور هذا

الأمر بـــ" كن" والفاء تدل على التعقيب المباشر فَيَكُونُ لا يحتاج إلى مقدمات وإعمال آلات ولا يحتاج إلى أعوان، ولا جهود،

لو أن أكبر الخلق وأعظم الخلق من جهة الإمكانات والقدر أراد أن يبني هذا المسجد، فإنـه لا يستطيع أن يبنيه في يوم وليلة، وإنما يحتاج إلى أعمال متدرجة، من أجل أن يقوم هذا البنـاء شـيئًا فشيئًا ولا بد، مهما كانت سرعته، فإن البناء لا يستقر حينما يكون بعضه على بعض هكذا من غـير روية، ولا تدريج صحيح يمكن أن يثبت عليه البناء.

هذا فضلاً عن الأعمال الأخرى التي تحتاج إلى أوقات طويلـة، قضـايا الأمـة، مصـائب الأمـة، مشكلات الأمة المعقدة المزمنة، هـذه عنـد الله -تبـارك وتعـالى- إذا شـاء قـال:"كـن" ، فتغـيرت الحال في لحظة.

إذا أراد الله النصر والتمكين هبت رياحه بقول" كن" مباشرة، الأحزاب يحـاصرون النـبي صـلى الله عليه وسلم في المدينة، وقد طوقوها من النواحي التي يمكـن أن يـدخل منهـا مـن شـمالها وغيره إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَـاجِرَ [سـورة الأحزاب:١٠]

فلما جاء الأمر من الله بـ" كن" أرسل عليهم الريح والجنود التي لم نرها: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ [سورة الأحزاب:٩] جنود هنا يمكن أن يكون التنكير للتعظيم والتكثير، جنود كثر من قريش والأحابيش وغطفان، وغير ذلك.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا [سورة الأحزاب:٩] ليس بالضرورة أن تروا هؤلاء الجنود، ولكن الآثار ظاهرة بادية، فصار الواحد من هؤلاء لا يكاد أن يدرك الأخذ بزمام دابته وركوب هذه الدابة لشدة ما أصابهم من الريح التي تكفأ القدور وتطفئ النيران، وتقلع الخيام، والرعب الذي يزلزل قلوبهم، اجتمع عليهم هذا وهذا، فكان كل واحد يريد أن يدرك، ينجو برقبته بنفسه؛ لأن الله قال:"كن" ، فالدعاء لا يستهان به.

فينبغي في مثل هذه الأحوال والأوقات التي تكون الأمة عالقة فيها، فيما نشاهد ونرى ويتسلط عليها الأعداء ويتكالبون من كل ناحية، هنا تأتي الحاجة الملحة للدعاء، أن يدعو الإنسان، وليس بالضرورة أن يكون هذا الدعاء بقنوت، يؤمن عليه الجموع، وليس بالضرورة أن يكون هذا الدعاء في مكان عام، وإنما أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، الدعاء والإلحاح على الله بالدعاء.

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [سورة البقرة:١١٧] الذي خلق هذه الأجرام العلوية والسفلية على ضخامتها على غير مثال سابق بهذا الإتقان الكامل منذ خلقها لم تتغير ولم تتشعب ولم تتشظ، ليس فيها فطور ولا فتور ولا ضعف ولا خلل ولا عوج، قادر على ما دون ذلك، قادر على هؤلاء الهباء في الكون من المخاليق الضعفاء الذين يمكن أن يذهبوا بريح أو ماء بالهواء والماء، ألطف الأشياء تجعلهم خبرًا بعد عين، فكيف بما وراء ذلك.

الأمور حينما تتأزم يكون الإنسان في حال من الكرب والشدة في مرض يعانيه، أو ضائقة يمر بها، لا تبتئس فما تطلبه وما تحتاج إليه، بيد الواحد القهار الذي إذا قضى أمرًا فإنما يقول له: كن، فيكون، يجتمع الأطباء ويبذلون الجهود ويعجزون، وقد يتحيرون في العلة، ولكن الله يعلمها وقادر على علاجها ما ظهر من العلل وما خفي.

قد تكون هذه العلة من تسلط الشياطين والجن والسحرة وما إلى ذلك مما لا يصل إليه الأطباء، وتبقى أحوال الإنسان مضطربة، ويبقى في شدة وعناء، كل ذلك يرفعه الله بأقل من

اللحظة، فتوجه إليه، وأقبل عليه، وتب إليه، وأكثر من الاستغفار والضراعة، فإنه هو الذي يملك كل شيء، ويحول حال الإنسان من الفقر إلى الغنى، ومن الشدة إلى الرخاء، فهنا ليس هناك تراخي بين الأمر والتحقيق والتنفيذ فَيَكُونُ [سورة البقرة:١١٧] فهذه تدل على الفور، التعقيب المباشر.

وَقال: الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قال: الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

قال: محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال:قال: رافع بن حريملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إن كنت رسولا من الله كما تقول، فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله في ذلك من قوله: (وقال: الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية)

[وحكى القرطبي (لولا يكلمنا الله) أي: لو يخاطبنا بنبوتك يا محمد، قلت: وظاهر السياق أعم، والله أعلم].

وقال: أبو العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والسدي في تفسير هذه الآية: هذا قول كفار العرب (كذلك قال: الذين من قبلهم [مثل قولهم]) قالوا: هم اليهود والنصارى. ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب،

قوله تعالى: (وإذا جاءتهم آية قال:وا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) [الأنعام: ١٢٣].

[ص: ٤٠٠]

وقوله تعالى: (وقال:وا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) [الإسراء: ٩٠، ٩٣]،

وقوله تعالى: (وقال: الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) [الفرقان: ٢١]،

وقوله: (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) [المدثر: ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة،

كما قال: من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم، كما قال تعالى: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقال:وا أرنا الله جهرة) [النساء: ١٥٣] وقال تعالى: (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) [البقرة: ٥٥].

وقوله: (تشابهت قلوبهم) أي: أشبهت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قال:وا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون) [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

وهنا لفته هامه

لماذا كلما بعث الله رسولا واجهه المعاندون من قومه بنفس الاقوال حتى حكى عنهم القران بقوله تعالى إلى، تشابهت قلوبهم وقوله تعالى إلى، أتواصوا به

هذا بسبب وجود ابليس واعوانه فلقد اقسم ابليس، لأضللنهم اجمعين، واستثنى، الا عبادك منهم المخلصين

اذن فوجود ابليس واعوانه واصراره على اضلال الناس فهو يوحى لاتباعه الضالين بهذه الحجج والشبهات بدليل انها واحدة هى هى مع كل الامم فلو ان ابليس لا وجود له والامم معاندة لاختلقت كل امه حجج تناسب عصرها

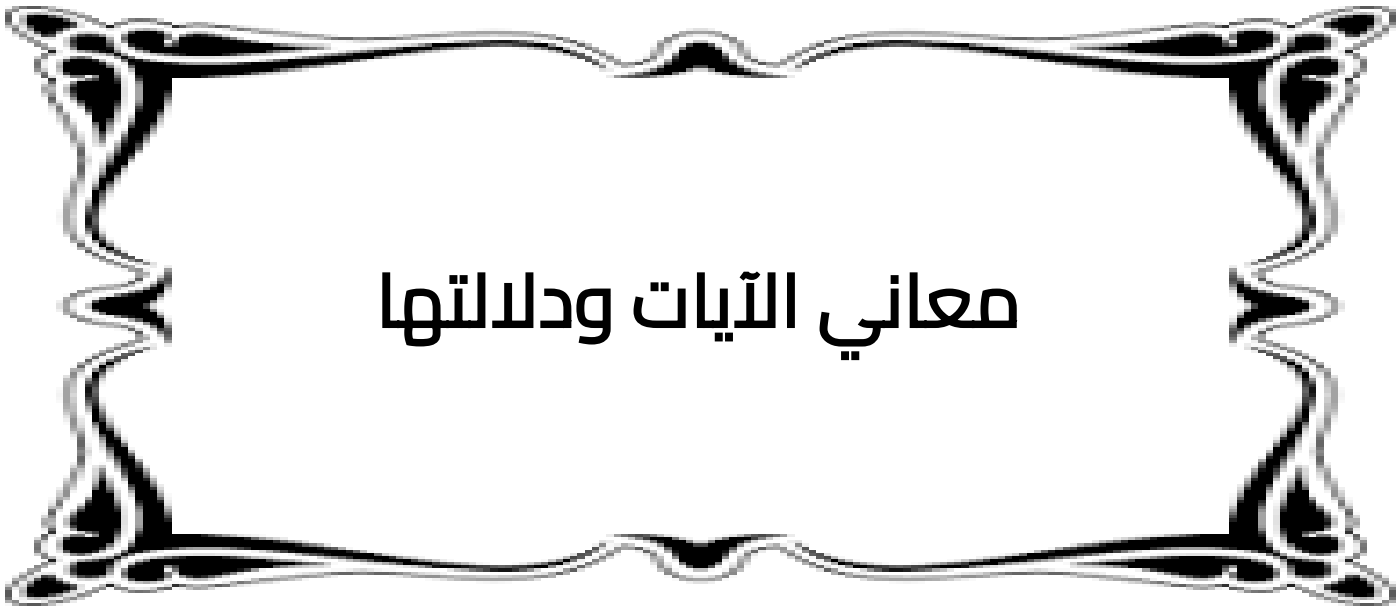
ولذا امرنا الله تعالى إلى ان نستعيذ به سبحانه من وسوسة هذا اللعين

وقوله: (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أي: قد وضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى. وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال: الله تعالى إلى فيهم: (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) [يونس: ٩٦، ٩٧]

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)

القول في تأويل قوله تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا

قال: أبو جعفر: ومعنى قوله جل ثناؤه: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)، إنا أرسلناك يا محمد بالإسلام الذي لا أقبل من أحد غيره من الأديان، وهو الحق ؛ مبشرا من اتبعك فأطاعك، وقبل منك ما دعوته إليه من الحق - بالنصر في الدنيا، والظفر بالثواب في الآخرة، والنعيم المقيم فيها، ومنذرا من عصاك فخالفك، ورد عليك ما دعوته إليه من الحق - بالخزي في الدنيا، والذل فيها، والعذاب المهين في الآخرة.


معاني الآيات ودلالتها

القول في تأويل قوله تعالى: (وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ)

قال: أبو جعفر: قرأت عامة الْقَرَاءة: (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم)، بضم" التاء" من" تسأل" ، ورفع" اللام" منها على الخبر، بمعنى: يا محمد إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا، فبلغت ما أرسلت به، وإنما عليك البلاغ والإنذار، ولست مسئولا عمن كفر بما أتيته به من الحق، وكان من أهل الجحيم.

وقرأ ذلك بعض أهل المدينة: (ولا تَسأَلْ) جزما. بمعنى النهي، مفتوح" التاء" من" تسأل" ، وجزم" اللام" منها. ومعنى ذلك على قراءة هؤلاء: إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا لتبلغ ما أرسلت به، لا لتسأل عن أصحاب الجحيم، فلا تسأل عن حالهم. وتأول الذين قرءوا هذه القراءة

قال: أبو جعفر: والصواب عندي من القراءة في ذلك قراءة من قرأ بالرفع، على الخبر. لأن الله جل ثناؤه قص قصص أقوام من اليهود والنصارى، وذكر ضلالتهم، وكفرهم بالله، وجراءتهم على أنبيائه،

ثم قال: لنبيه صلى الله عليه وسلم: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ يا محمد بِالْحَقِّ بَشِيرًا، من آمن بك واتبعك ممن قصصت عليك أنباءه ومن لم أقصص عليك أنباءه، وَنَذِيرًا من كفر بك وخالفك، فبلغ رسالتي، فليس عليك من أعمال من كفر بك - بعد إبلاغك إياه رسالتي تبعة، ولا أنت مسئول عما فعل بعد ذلك. ولم يجر - لمسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عن أصحاب الجحيم ذكر،

وقد كان بعض نحويي البصرة يوجه قوله: (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) إلى الحال، كأنه كان يرى أن معناه: إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا غير مسئول عن أصحاب الجحيم. وذلك إذا ضم" التاء" ، وقرأه على معنى الخبر، وكان يجيز على ذلك قراءته:" ولا تسأل" ، بفتح" التاء" وضم" اللام" على وجه الخبر بمعنى: إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا، غير سائل عن أصحاب الجحيم. وقد بينا الصواب عندنا في ذلك.

وهذان القولان اللذان ذكرتهما عن البصري في ذلك، يدفعهما ما روي عن ابن مسعود وأبي من القراءة، (٨١) لأن إدخالهما ما أدخلا من ذلك من" ما" و" لن" يدل على انقطاع الكلام عن أوله وابتداء قوله: (ولا تسأل). وإذا كان ابتداء لم يكن حالا.وأما(أصحاب الجحيم)، ف" الجحيم" ، هي النار بعينها إذا شبت وقودها،

القول في تأويل قوله تعالى: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى)

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠)

قال: أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)، وليست اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبدا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم. ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم،

لأن اليهودية ضد النصرانية، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلا أن تكون يهوديا نصرانيا، وذلك مما لا يكون منك أبدا، لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة. وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى الله الذي لجمع الخلق إلى الألفة عليه سبيل.

وأما" الملة" فإنها الدين، وجمعها الملل.

ثم قال: جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد - لهؤلاء النصارى واليهود الذين قالوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى -(إن هدى الله هو الهدى)، يعني إن بيان الله هو البيان المقنع، والقضاء الفاصل بيننا، فهلموا إلى كتاب الله وبيانه- الذي بين فيه لعباده ما اختلفوا فيه، وهو التوراة التي تقرون جميعا بأنها من عند الله، يتضح لكم فيها المحق منا من المبطل، وأينا أهل الجنة، وأينا أهل النار، وأينا على الصواب، وأينا على الخطأ.

وإنما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى هدى الله وبيانه، لأن فيه تكذيب اليهود والنصارى فيما قال:وا من أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا أو نصارى، وبيان أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وأن المكذب به من أهل النار دون المصدق به.

القول في تأويل قوله تعالى: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (١٢٠)

قال: أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: (ولئن اتبعت)، يا محمد، هوى هؤلاء اليهود والنصارى - فيما يرضيهم عنك - من تهود وتنصر، فصرت من ذلك إلى إرضائهم، ووافقت فيه محبتهم - من بعد الذي جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم، ومن بعد الذي اقتصصت عليك من نبئهم في هذه السورة - ما لك من الله من ولي = يعني بذلك: ليس لك يا محمد من ولي يلي أمرك، وقيم يقوم به = ولا نصير، ينصرك من الله، فيدفع عنك ما ينزل بك من عقوبته، ويمنعك من ذلك، إن أحل بك ذلك ربك

وقد قيل: إن الله تعالى إلى ذكره أنزل هذه الآية على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، لأن اليهود والنصارى دعته إلى أديانها، وقال: كل حزب منهم: إن الهدى هو ما نحن عليه دون ما عليه، غيرنا من سائر الملل. فوعظه الله أن ينتبه لذلك، وعلمه الحجة الفاصلة بينهم فيما ادعى كل فريق منهم.

فيقول الله -تبارك وتعالى- في هذه السورة الكريمة سورة البقرة: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ [سورة البقرة:١٢٠].

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ أيها الرسول ومن تبعه من هذه الأمة الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى لن يتحقق رضاهم إلا إذا تركت ما أنت عليه من الحق والدين الذي أمرك الله باتباعه، وليس ذلك فحسب بل حتى: تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.

ثم أمر الله -تبارك وتعالى- نبيه ﷺ أن يرد على هؤلاء بقوله: إن دين الإسلام هو الدين الصحيح: إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ولئن اتبعت أهواء هؤلاء بعد الذي جاءك من العلم والحق

والوحي الذي أوحى الله به إليك ما لك عند الله من ولي ينفعك ولا نصير ينصرك، فهذا موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو خطاب أيضًا لأمته.

يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن ما سبق من المقترحات، والآيات التي يطلبها هؤلاء من الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ما هي إلا من قبيل التعنت، ما هي إلاتعالنت، فهم لا يطلبون ذلك من أجل معرفة الحق واتباعه، وإنما يريدون بذلك العناد والتعجيز،

وقد بين الله -تبارك وتعالى- حقيقة حالهم بقوله: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ليست القضية آيات يطلبونها ثم بعد ذلك يستجيبون ويؤمنون، فهم لا يطلبون حقًا، بل هم يعرفون أن ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم هو الحق، يعرفون ذلك معرفة تامة كما يعرفون أبناءهم،

فالإنسان لا يعرف نفسه وهو صغير، فلم يقل: كما يعرفون أنفسهم، وإنما قال:كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ [سورة البقرة:١٤٦] فهو يعرف ابنه منذ خروجه من بطن أمه، لا يلتبس عليه بغيره.

ويؤخذ من هذه الآية أيضًا إذا كان هؤلاء لن يرضوا حتى تتحقق هذه الغاية وهي اتباع ملتهم، إذن النتيجة دع هؤلاء وما يطلبون وما يعرضون وما يحاولون فلا تبحث عن رضاهم؛ لأنه لن يتحقق لك، هذا أمر لن يحصل إلا باتباع ملتهم، فأقبل على مرضاة الله -تبارك وتعالى- في دعوتهم ودعوة هؤلاء إلى الدين الحق الذي بعثك الله به، كما يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله رضى هؤلاء ليس بعيد المنال ولكنه متعذر، لا يمكن أن يتحقق، إذن لا تجري خلف سراب، ولا تمني نفسك بأمر ممتنع، هذا الرضى لن يتحقق بتنازلات جزئية، ولا بأموالتعالبطى لهم، ولا بنوع من المداراة والمصانعة، ولا بموافقتهم في بعض ما يريدون، إنما سيتحقق الرضى إذا اتبعت ملتهم، هذه هي الغاية.

لاحظوا هنا في الرضى، لكن في القتال أخبر أن ذلك يستمر وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ [سورة البقرة:٢١٧] إلى غاية، قال:حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا [سورة البقرة:٢١٧] هذا في القتال، لا يتوقف القتال إلى قيام الساعة مع أعداء الله والكفار، فهذه سنة ماضية لا تتبدل ولا تتغير، مهما قال:وا، ومهما تصنعوا، ومهما تزينوا، ومهما رفعوا من الشعارات الجميلة

الخادعة، ومهما أضافوا إلى أنفسهم من الأوصاف من أنهم دعاة سلام ونحو ذلك فهذا كله كذب، والواقع يشهد بما بينه القرآن، وهذا كلام الله الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم.

فالقتال يستمر ولا يتوقف إلا إذا ترك المسلمون دينهم، وأما الرضى فلن يتحقق بمجرد ترك الدين، وإنما باتباع ملتهم، وهذا أشد، رضاهم لن يحصل، يعني إذا ترك المسلمون دينهم لن يرضوا عنهم لكن قد يتوقف القتال معهم، فهم يحاولون ذلك جاهدين، تارة بالحرب وتارة بما يفرضونه على المسلمين في أوقات الضعف من مطالبات وضغوطات تحت شعارات ومنظمات من شأنها أن تمسخ المسلمين عن هويتهم ودينهم، وما هم عليه من الحق والهدى الذي بعث الله به رسوله ﷺ.

هذه الآية تبين حقيقة المعركة: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى ما قال:إلا إذا منحتهم الأموال، أو الأرض، أو الثمر، أو المعادن، أو دعمت اقتصادهم، لا، وإنما قال:حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ فهذا يبين أن المعركة ليست معركة اقتصادية، وليست المعركة على مواقع استراتيجية، أو ممرات مائية، وإنما المعركة الحقيقية هي هذه حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ حتى لو قالوا: بأنهم قد تخلوا عن الدين، وأن الدين لم يعد هو المحرك لهم والدافع الحقيقي في سياساتهم وعلاقاتهم وحروبهم وسلمهم، فهذا كذب.

الدافع الاقتصادي لا ينكر، السبق إلى المواقع الاستراتيجية وما إلى ذلك والممرات المائية وكل هذا لا ينكر، ولكن يبقى الدين هو الأساس، هو الدافع الحقيقي الذي يحرك هؤلاء وانظروا إلى تصريحاتهم حينًا بعد حين، تجد أن العبارات تتكرر عبر الأجيال إلى يومنا هذا: حرب مقدسة، يباركها الرهبان والأحبار عند اليهود، ويباركها أيضًا القسس والرهبان عند النصارى، حرب يرفع فيها شعار الصليب، ويرفع فيها شعار اليهود، وتجد أن هؤلاء يستمدون في هذه الحرب بأمور دينية ونصوص من كتبهم المحرفة، كما نجد هؤلاء يصرحون بأنهم لن يمكنوا ولن يسمحوا بقيام لأهل السنة في البلد الفلاني، هكذا يصرحون، وما شأنهم؟ هذه بلاد المسلمين، وبلاد أهل السنة، ما شأنهم حتى يقولوا: لن نسمح، ولماذا لا يسمحون؟!

فهذا كله لأن الحرب في منطلقاتها ابتداءً هو الدين: حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ فهم يريدون التضليل بعباراتهم المموهة التي يطلقونها في محافلهم ونحو ذلك، لكن هذه هي الحقيقة الكبرى التي نص عليها القرآن، فينبغي أن نتعامل معهم من هذا المنطلق، نعرف حقيقة الصراع.

وهنا النفي جاء بـ" لن" وَلَنْ تَرْضَى ما قال:لا ترضى، يعني أدوات النفي تتفاوت في القوة، أقوى أدوات النفي" لن" ، يعني لا تؤمل ولا ترجي رضى هؤلاء، لن يرضوا، فإذا قدمت لهم التنازلات سيطالبون بتنازلات أخرى، وهكذا.

وكذلك أيضًا لاحظ هنا أنه قال:حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ وَلَنْ تَرْضَى ذكر اليهود والنصارى، واليهود والنصارى على ملتين، وكل ملة في الواقع هي ملل، يعني النصارى طوائف وفرق يُكفِّر بعضها بعضًا، واليهود كذلك هم فرق واقرأوا في كتب الأديان تجدون أسماء لفرق اليهود وأسماء لفرق النصارى، كل فرقة تكفِّر الأخرى.

لكن دعنا من هذه الفرق التي كل طائفة تكفِّر الطائفة الأخرى، اليهود والنصارى: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حتى تتبع ملتهم، اتباع الملة وحدها، مع أنهم على ملتين متناحرتين متنافرتين متناقضتين كل ملة تضلل الأخرى: وَقال:تِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقال:تِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ [سورة البقرة:١١٣]

لكن وحَّد الملة هنا لأنها ملة الكفر، وملة الكفر واحدة، وملة الكفر هي ملة تتحد إذا كان العدو هو الإسلام، كما نشاهد في هذا العصر وفي غيره من العصور، الكفر ملة واحدة، يجتمع المجوسي واليهودي والنصراني والبوذي والهندوسي، كل هؤلاء يجتمعون، البوذي في الصين مع اليهودي في أصقاع المعمورة، وما جُمع من أشتاتهم في فلسطين، وكذلك النصارى في أي مكان، يجتمع هؤلاء مع المجوس في حرب المسلمين، أيًا كانت الشعارات المرفوعة، فالكفر ملة واحدة، فهنا قال:حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ فوحَّد الملة مع أنها ملل.

وأيضًا النصارى لن ترضى إذا كان على دين اليهود وحاشاه، واليهود لن ترضى إذا كان على دين النصارى وحاشاه، فيكون ذلك من باب الجمع في الضمير من باب الإيجاز فقط، قد يكون لهذا وحَّد الملة، يعني كأنه يقول: ولن ترضى عنك اليهود حتى تتبع ملتهم، ولن ترضى عنك النصارى حتى تتبع ملتهم، لكن من باب الإيجاز وحَّده فقال:وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ [سورة البقرة:١٢٠] يعني ملة كل طائفة.

ولاحظ كيف أكد النفي بدخول" لا" في النفي في الموضعين بين المعطوفين وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ ما قال:والنصارى حتى تتبع ملتهم، وإنما قال:وَلا النَّصَارَى فكل طائفة لن ترضى على سبيل الاستقلال، فهذا يؤكد النفي.

وكذلك أيضًا قال:قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى هذا هو الرد إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ فجاء بضمير الفصل بين طرفي الكلام لتقوية النسبة إِنَّ هُدَى اللَّهِ ما قال:إن هدى الله الهدى، وإنما قال:إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ تقول: زيد هو الكريم، ودخول" ال" على الهدى، فهذا الأسلوب يشبه الحصر، أو يفيد الحصر: إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى فقط، وما عداه فليس بهدى، بل هو ضلال، فجاء ذلك بدخول ضمير الفصل" هو" و" ال" الهدى، زيد هو الكريم، ممكن أن تقول: زيد كريم، فلا يفيد الحصر، زيد كريم وعمرو كريم، لكن: زيد هو الكريم، فهذا يفيد الحصر، فهدى الله هو الهدى، يفيد القصر يفيد التوكيد، وما عداه فهو ضلال مبين.

وأيضًا التوكيد بـ" إن" قُلْ إِنَّ فـ" إن" هذه مؤكدة، هي بمنزلة إعادة الجملة مرتين إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى.

وقوله -تبارك وتعالى: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ [سورة البقرة:١٢٠] إذا كان الذي يتبع غير الحق يطلب رضى هؤلاء الناس من أجل أن يقفوا معه، أن ينصروه، أن يعينوه، أن يؤيدوه، أن يكون له يد عندهم مثلاً ما له من الله من ولي ولا نصير، إذن الطريق أين؟

الطريق في اتباع هدى الله، وإلا فإن الإنسان قد يطلب النصر، قد يطلب التمكين، قد يطلب القوة، قد يطلب المدد من الخلق فيتخبط ويخذل من حيث رام النصر؛ لأن الله يقول: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ أن تريد ولي تركن إليه، تريد من يقف معك، تريد من ينصرك: مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ فيتوجه إليه، كما قال: الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَاتعالىمَلُونَ خَبِيرًا [سورة الأحزاب:١، ٢] هذا هو ناه عن اتباع هؤلاء الكافرين والمنافقين، وهذا نهي للأمة، ثم أمره باتباع ما يوحى إليه من ربه، قال:إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَاتعالىمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ [سورة الأحزاب:٢، ٣]؛ لأن هؤلاء لن يتركوك، سيكيدون لك، سيحاربونك، سيحيكون المؤامرات، سيشوهون سمعتك في الإعلام.

قال:وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً [سورة الأحزاب:٣] وكيل وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [سورة الطلاق:٣] كافيه، فيحصل له الكفاية والحسب إذا كان متبعًا لهداه ومتوكلاً عليه، فإذا علم الإنسان أنه ليس له من دون الله من ولي ولا نصير إذا ترك أمره فلا يبقى أمامه إلا اتباع

هدى الله، رضي من رضي وسخط من سخط، من أرضى الناس بسخط الله سخط عليه وأسخط الناس عليه، ومن أرضى الله بسخط الناس وأرضى الناس عنه

وأيضًا: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ [سورة البقرة:١٢٠] اتباع الهوى بعد العلم أشد في الضلالة، فرق بين إنسان غِر جاهل حصل له اتباع للهوى، أو تشبه باليهود والنصارى، أو نحو ذلك وهو لا يشعر أو لا يعلم؛ لقلة علمه يظن أن عندهم ما يمكن أن ينتفع به في باب السلوك، والأخلاق، وما يحصل به طمأنينة النفوس، وما إلى ذلك كما يفعل بعضهم في هذه الكتب المترجمة التي تُقدم بصورة دورات، قد يقع في هذا جاهل.

لكن الذي يعلم ثم يترك ما علم، درس العلوم الشرعية وعلم وحضر في مجالس العلم وصار عنده علم بما أنزل الله على رسوله ﷺ ثم يدير ظهره، ويتنكر لهذا كله، وتصير الحكمة عنده في قول فلان وفلان من فلاسفة الغرب أو الشرق فهذا حاله أشد من إنسان لم يكن له بصر أصلاً بهذه العلوم الشرعية والهدى الكامل، وكان يظن أن هذه الأشياء التي يقولها فلاسفتهم أنها فيها إضافة، وفيها فائدة، وفيها نفع، فصار يتلقفها وينشرها ويغرد بها، لكن إذا صدر هذا ممن ينتسب إلى العلم ثم تنكر لما علم فهذا الحال تكون أشد.

وأيضًا هؤلاء اليهود والنصارى هم ليسوا على حق وليسوا على هدى بل هم على هوى؛ لأن الله قال:وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ فالذي عليه هؤلاء هي أهواء، ما عليه اليهود بمختلف طوائفهم وفرقهم هي مجرد مجموعة من الأهواء، ما عليه النصارى بمختلف طوائفهم هي مجموعة من الأهواء والضلالات هي هكذا.

إذن لا تشك في الحق الذي معك من جهة، ومن جهة أخرى لا تتعب نفسك ليس هناك ما يستحق التعني، لا تتعب، أقصر في خطواتك فإن ليس ثمة هدىً عند هؤلاء، بل عندهم ضلال وأهواء، فمن الناس من يقول: هؤلاء عندهم حق فينبغي أن نسمع منهم، وأن نأخذ الحق والأمور الإيجابية التي عند هؤلاء، هذا لا يقوله أحد عرف الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والهدى الكامل الذي في هذه الشريعة: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا [سورة المائدة:٣] ثم بعد ذلك يقول: اليهود عندهم حق، والنصارى عندهم حق، والمجوس عندهم حق، والهندوس عندهم حق، والبوذيون عندهم حق، فينبغي أن نأخذ الحق الذي عند كل الطوائف، هذا يوجد من يقوله، ويدرس في دورات، ويصدقه بعض الناس، فهذا عين العمى والجهل والضلال، فالله سمى هذه الأشياء التي عندهم ضلالات وأهواء: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ.

إذن هي ليست بدين حق، ولم يقل: ولئن اتبعت ملتهم بعد الذي جاءك من الحق أو من العلم، وإنما قال:وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ في الأول قال:وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ فلما نهاه عن اتباع ذلك قال:وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي ما قال:ولئن اتبعت ملتهم بعد الذي جاءك من الحق، هناك: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ باعتبار أنهم يعتبرونها ملة ودين، لكن هنا في نهي الله عن ذلك وتحذيره بيَّن أنه ليس ثمة دين حق ولا ملة وإنما هي مجرد أهواء، فجاء الفرق بين العبارتين: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ هم هكذا يعتقدون فجاء التعبير بحسب اعتقادهم، لكن لما جاء النهي بين أنها مجرد أهواء، والهوى ضلال لا يجوز اتباعه بحال من الأحوال.

الحق واحد وطريقه واحد بخلاف الباطل متعدد وطرقه متعدده

ويؤخذ منه أن ما عدا الحق وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ما عدا الحق الذي عندنا الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو أهواء بأي اسم كان فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ [سورة يونس:٣٢] يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [سورة ص:٢٦] لا تتبع الهوى، يعني لا يوجد إلا هدى وهوى.

إذًا كل الشعارات التي يرفعها هؤلاء والعقائد هي أهواء، سواء مما ورثوه عن آبائهم كانتسابهم لليهودية أو النصرانية المحرفة، أو كان ذلك مما جادت به قرائحهم وأذهانهم الفاسدة الكاسدة كالديمقراطية وما إلى ذلك من الشعارات الفاسدة الاشتراكية، الشيوعية، الرأسمالية، الليبرالية، كل هذا وأسماء كثيرة جدًا هي كلها أهواء، بجميع تفاصيلها هي هوى، تقول: هذه الديمقراطية لهاتعالريفات كثيرة جدًا، لها سبعة عشرتعالريفًا، نقول: هي سبعة عشر ضلالة، في كلتعالريف هي ضلالة جديدة، لها صيغ، نقول: هي بصيغها لم تكن مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وأوحى الله به إلى نبيه -عليه الصلاة والسلام- فهي ضلال وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ

هذه أهواء، وحقيقة الحرية التي يدعيها هؤلاء قبل الحادي عشر من سبتمبر، أنها لم تكن حرية حقيقية وليس عندهم حرية حقيقة، وإنما عندهم خلاف ذلك في الحقيقة لمن نظر بعين البصيرة، أما بعد الحادي عشر من سبتمبر فالعالم كله شاهد حقيقة الحرية عند هؤلاء في بلادهم وخارج حدودهم، لكن قبل كان الناس لا يصدقون حينما يقال:لم تكن حرية حقيقية، حينما يفتح مركز إسلامي أو غير ذلك يظن أنها حريات، والواقع أنها ليست حريات، الناس يترقبون في كل لحظة من كل تصرف ويأتي بصيغ مختلفة وبوجوه متعددة، تارة بمسمى جهة معينة، وتارة بمسمى جهة أخرى، والقضية كلها رصد ومتابعة للأنفاس هناك، لم تكن حرية ولا يعيش الناس بحرية حقيقية، هذا قبل الحادي عشر من سبتمبر، فكيف الحال بعدها؟ الكل يشاهده وظهرت الحقائق للناس، فالذين يرفعون شعارات ويقولون: الحرية، والغرب، والحرية، وصنم الحرية، وما إلى ذلك، هذا لا حقيقة له، إنما الحرية هي بالعبودية لله هذه الحرية الحقيقية، وأن الهدى هدى الله وأن الشرع هو الذي يجب أن يحكم في الناس، إلى غير ذلك مما يطول وصفه، فليس هناك واسطة بين الحق والضلال.

وتأمل قوله -تبارك وتعالى: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ [سورة البقرة:١٢٠] أن الإنسان إذا اتبع غير شريعة الله فلا أحد يحفظه من الله ولا أحد ينصره من دونه حتى لو كثر في الظاهر ناصروه؛ لأن النصر الحقيقي والولاية تكون باتباع هدى الله -تبارك وتعالى- كما دلت عليه هذه الآية.

والمؤكدات في قوله: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ القسم الذي دل عليه دخول اللام: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ فهذه تدل على القسم، الإجمال ثم التفصيل بذكر الاسم الموصول وتبيينه بقوله: مِنَ الْعِلْمِ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ.

وكذلك أيضًا جعل الذي جاء هنا أي الذي أنزل الله إليه هو العلم، كل العلم، لعدم الاعتداد بغيره لنقصانه: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فهذا هو العلم، وما عداه فهو جهل.

وكذلك جملة الجزاء جاءت اسمية تدل على الثبوت: مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ وكذلك تأكيد النفي بدخول" من" مِنْ وَلِيٍّ" ولي" نكرة في سياق النفي وهي للعموم، ودخلت عليها" من" فنقلتها من الظهور في العموم إلى التنصيص الصريح في العموم: مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ أي ولي، فيبقى الإنسان في مهب الريح ما يقال:.

وكذلك تأكيد النفي بـ" لا" النافية بين المعطوفين مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ما قال:ونصير وَلا نَصِيرٍ فكل واحد منتفٍ انتفاءً تامًا.

وكذلك تأكيد مِنْ وَلِيٍّ؛ لأن الولي هو الناصر، عطف عليها وَلا نَصِيرٍ فلا مجال لعلوٍ ولا ظهورٍ ولا نصرٍ ولا تمكين إلا باتباع الهدى الذي جاء به النبي ﷺ.

القول في تأويل قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ)

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

قال: أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في الذين عناهم الله جل ثناؤه بقوله: (الذين آتيناهم الكتاب) فقال: بعضهم: هم المؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من أصحابه.

وقال: آخرون: عنى الله بذلك علماء بني إسرائيل، الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، فأقروا بحكم التوراة. فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، والإيمان به، والتصديق بما جاء به من عند الله.

وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد -وهو التوراة- فقرؤه واتبعوا ما فيه، فصدقوك وآمنوا بك، وبما جئت به من عندي، أولئك يتلونه حق تلاوته.

وإنما أدخلت الألف واللام في" الكتاب" لأنه معرفة، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عرفوا أي الكتب عنى به.

القول في تأويل قوله تعالى: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ

قال: أبو جعفر: اختلف أهل التأويل في تأويل قوله عز وجل: (يتلونه حق تلاوته)، فقال: بعضهم: معنى ذلك يتبعونه حق اتباعه قول في تأويل قوله تعالى: أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

قال: أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: (أولئك)، هؤلاء الذين أخبر عنهم أنهم يتلون ما آتاهم من الكتاب حق تلاوته، وأما قوله: (يؤمنون)، فإنه يعني: يصدقون به. و" الهاء" التي في قوله:" به" عائدة على" الهاء" التي في تِلَاوَتِهِ، وهما جميعا من ذكر الكتاب الذي قال:ه الله: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ.

فأخبر الله جل ثناؤه أن المؤمن بالتوراة، هو المتبع ما فيها من حلالها وحرامها، والعامل بما فيها من فرائض الله التي فرضها فيها على أهلها، وأن أهلها الذين هم أهلها من كان ذلك صفته، دون من كان محرفا لها مبدلا تأويلها، مغيرا سننها تاركا ما فرض الله فيها عليه.

وإنما وصف جل ثناؤه من وُصف بما وصف به من متبعي التوراة، وأثنى عليهم بما أثنى به عليهم، لأن في اتباعها اتباع محمد نبي الله صلى الله عليه وسلم وتصديقه، لأن التوراة تأمر أهلها بذلك، وتخبرهم عن الله تعالى إلى ذكره بنبوته، وفرض طاعته على جميع خلق الله من بني آدم، وأن في التكذيب بمحمد التكذيب لها. فأخبر جل ثناؤه أن متبعي التوراة هم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهم العاملون بما فيها،

القول في تأويل قوله تعالى: (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

قال: أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: (ومن يكفر به)، ومن يكفر بالكتاب الذي أخبر أنه يتلوه - من آتاه من المؤمنين - حق تلاوته. ويعني بقوله جل ثناؤه: (يكفر)، يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وتصديقه، ويبدله فيحرف تأويله، أولئك هم الذين خسروا علمهم وعملهم، فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله، واستبدلوا بها سخط الله وغضبه

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)

القول في تأويل قوله تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢)

قال: أبو جعفر: وهذه الآية عظة من الله تعالى إلى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إليهم في صنعه بأوائلهم، استعطافا منه لهم على دينه وتصديق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فقال:يا بني إسرائيل اذكروا أيادي لديكم، وصنائعي عندكم، واستنقاذي إياكم من أيدي عدوكم فرعون وقومه، وإنزالي عليكم المن والسلوى في تيهكم، وتمكيني لكم في البلاد، بعد أن كنتم مذللين مقهورين، واختصاصي الرسل منكم، وتفضيلي إياكم على عالم من كنتم بين ظهرانيه، أيام أنتم في طاعتي- باتباع رسولي إليكم، وتصديقه وتصديق ما جاءكم به من عندي، ودعوا التمادي في الضلال والغي.

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)

قال: أبو جعفر: وهذه الآية ترهيب من الله جل ثناؤه للذين سلفت عظته إياهم بما وعظهم به في الآية قبلها. يقول الله لهم: واتقوا - يا معشر بني إسرائيل المبدلين كتابي وتنزيلي، المحرفين تأويله عن وجهه، المكذبين برسولي محمد صلى الله عليه وسلم - عذاب يوم لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئا، ولا تغني عنها غناء، أن تهلكوا على ما أنتم عليه من كفركم بي، وتكذيبكم رسولي، فتموتوا عليه، فإنه يوم لا يقبل من نفس فيما لزمها فدية، ولا يشفع فيما وجب عليها من حق لها شافع، ولا هي ينصرها ناصر من الله إذا انتقم منها بمعصيتها إياه

يقول الله -تبارك وتعالى- في جملة ما خاطب به بني إسرائيل في هذه السورة الكريمة (سورة البقرة)، لما ذكرهم بنعمه قال:وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ [سورة البقرة:١٢٣].

وَاتَّقُوا يَوْمًا معلوم أن اليوم هو ظرف زمان لا يتقى، ولكن جرت لغة العرب أن يعبروا بمثل هذا، يعني: واتقوا أهوال يوم، اتقوا أوجال يوم، فما يقع في ذلك اليوم هو الذي يتقى، ولذلك يفسره أهل العلم بمثل هذا: واتقوا أهوال يوم لا تجزي، أهوال يوم الحساب، يوم القيامة لا تغني نفس عن نفس شيئًا، ولا يقبل منها فدية تنجيها من عذاب الله -تبارك وتعالى- فالعدل هو الفدية الفداء.

وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ يعني: لا يوجد وساطات في ذلك اليوم، فيخلص الإنسان بها إلا ما ثبت لأهل الإيمان، فإن نفي الشفاعة هنا وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ جاء عامًا، فإن الشفاعة هنا نكرة في سياق النفي، وهي للعموم،

ولكن من أهل العلم من يقول كأبي جعفر بن جرير -رحمه الله: بأنه من العام المراد به الخصوص وبعضهم يقول: هو من العام المخصوص، يعني: أنه خصصته الأدلة الأخرى التي تثبت الشفاعة لأهل الإيمان، والمقصود أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، وأما الشفاعة المثبتة فهي لأهل الإيمان، وبعضهم يقول: إن الشفاعة المنفية هي التي تكون بغير إذن الله وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى [سورة الأنبياء:٢٨].

وَلا هُمْ يُنصَرُونَ فذكر الله -تبارك وتعالى

- في هذه الآية الكريمة الأنواع الثلاثة التي يحصل بها الخلاص، الأول هو لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا لا أحد يستطيع أن ينفع غيره،

وكذلك أيضًا لا أحد يستطيع أن يدفع فدية فيتخلص،

والأمر الثالث وهو أنه لا أحد يستطيع أن يتوسط ويشفع لأحد فيتخلص من عذاب الله إن كان من الكفار،

ويبقى الرابع وهو تخليصه بالقوة وَلا هُمْ يُنصَرُونَ أي يحصل فكاك هذا الإنسان وتخليصه من بين يدي الله بالقوة، وهذا أمر لا يكون، فنفى ذلك جميعًا.

ويؤخذ من هذه الآية: وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ تنكير اليوم هنا يدل على التهويل والتعظيم، يوم شديد الأهوال عظيم الأوجال،

وإنما يكون اتقاؤه بالعمل الصالح مع الإيمان وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ صفة هذه اليوم أنه لا تجزي فيه نفس عن نفس شيئًا لا تَجْزِي نَفْسٌ والنفس هنا أيضًا منكَّرة في سياق النفي، فهذا يشمل كل نفس، لا أحد يستطيع أن يخلص هؤلاء الكفار مهما علت مرتبته،

فإبراهيم عليه السلام يقول سائلاً ربه -تبارك وتعالى: وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ [سورة الشعراء:٨٧] فيحول أبوه إلى ذيخ وهو الذكر من الضباع، فيقال: له: انظر، بحيث إنه لا يُعرف أنه آزر، فيكون ذلك إكرامًا لإبراهيم لكنه لم يتخلص أعني أباه من النار، يتحول إلى ذيخ

كذلك أيضًا النبي صلى الله عليه وسلم لما سُئل: هل نفع أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطه في الجاهلية؟

فذكر النبي صلى الله عليه وسلم: أنه في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار

وجاء: إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه.. فلاحظ هنا لم يكن ذلك مخلصًا لأبي طالب من الخلود في النار، بل هو في النار.

فهذا ولد نوح هلك وهو في الآخرة من أهل النار، وامرأة نوح وامرأة لوط مع قربهما إلى هذين النبيين الكريمين فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ [سورة التحريم:١٠].

فالنجاة والخلاص لا يكون بالتعلق بالقرابات ونحو ذلك من غير إيمان وعمل صالح، لكن إذا وجد الإيمان الصحيح المنجي فإن الشفاعة تنفع ويُلحق الذرية بالآباء وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ [سورة الطور:٢١].

وهكذا نسب النبي صلى الله عليه وسلم فإن أبا لهب هو عمه، وأبو طالب عمه، ومع ذلك هما في النار، لكن من كان على أهل الإيمان فإن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أنه في القيامة ينقطع ويبطل كل سبب ونسب قال:إلا سببي ونسبي

ولاحظ هنا أنه قال:وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ أيضًا نكرة في سياق النفي، يعني: لو أنه افتدى بملء الأرض ما قُبل منه، لم يكن ذلك بنافعه عند الله

 والله -تبارك وتعالى- يقول: يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ [سورة المعارج:١١] يعني: أقرب الناس إليه وأعلق الناس بقلبه الذين يدفع عنهم في الدنيا، المرأة تقول: ألقي بنفسي في النار من أجل هؤلاء الاولاد، ويوم القيامة يود لو يفتدي بهم وبغيرهم الأم والأب والإخوة والزوجة وكل هؤلاء في سبيل أن ينجو.

وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ أي شفاعة وَلا هُمْ يُنصَرُونَ [سورة البقرة:١٢٣] وجاء هنا بضمير الفصل (هم) لتقوية النسبة وَلا هُمْ يُنصَرُونَ لا يحصل لهم أي نوع من أنواع النصر، وإنما هو الخذلان الكامل من كل وجه، وتتبرأ منهم معبوداتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله

لاحظ في هذه الآية من سورة البقرة وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ [سورة البقرة:١٢٣] وفي الآية التي مضت من هذه السورة وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ [سورة البقرة:٤٨] بتقديم الشفاعة على العدل، فمثل هذا التنويع هو من ضروب البلاغة، والتقديم والتأخير يكون بحسب السياق.

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قال: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قال: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قال: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)

ثم قال: الله -تبارك وتعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قال: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قال: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قال: لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [سورة البقرة:١٢٤].

وَإِذِ ابْتَلَى (إذ) هذه تكون مسبوقة بمقدر دائمًا واذكر إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن، اذكر أيها النبي حين اختبر الله إبراهيم بكلمات فأتمهن، شرائع تكاليف أداها وقام بها خير قيام، فعندها قال: الله بعد هذا الابتلاء: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قدوة يأتم بك غيرك ويقتدون، فإبراهيم قال:وَمِنْ ذُرِّيَّتِي يعني: واجعل من نسلي أئمة، فأجابه الله بأن الإمامة لا تصلح للظالمين لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ يعني العهد بالإمامة لا ينال لا يصل إلى الظالمين، عهده بالإمامة لا يتحقق لا يكون لأهل الظلم لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.

يؤخذ من هذه الآية من الفوائد وَإِذِ ابْتَلَى حينما يُذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم واذكر إذ ابتلى، هذا يدل على شرف إبراهيم عليه السلام حيث ذكر الله خبره هذا، وهذا الابتلاء الذي نجح فيه لأفضل رسول وفي خير كتاب ولأفضل أمة، ثم إن طلب ذكر ذلك يدل على شرف هذا المذكور وَإِذِ ابْتَلَى

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قدَّم إبراهيم عناية واهتمامًا؛ لأنه وقع عليه الابتلاء فهو المحدث عنه، المبين شرفه في هذه الآية، فقد سيقت هذا المساق، فقدمه وَإِذِ

ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ ما قال:وإذ ابتلى الله إبراهيم، وإنما وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قال: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا فهذا يدل على أن الإمامة لا تكون إلا بعد الابتلاء.

ولما سئل الشافعي -رحمه الله: هل يُمكَّن للإنسان ثم يبتلى؟ فقال:لا يُمكَّن حتى يبتلى لا يُمكَّن له حتى يبتلى.

والله يقول: وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ [سورة السجدة:٢٤] وهنا قال: من قال: من السلف : بأنه بالصبر واليقين تُنال الإمامة بالدين.

الصبر على طاعة، والصبر عن معصية، الصبر على أقداره المؤلمة، لا بد من الصبر، فمن الناس من ينكسر حال الابتلاء ويتراجع، يجزع، يتسخط، يتخلى عن مبادئه، يعترض على قدر الله ومن الناس من يضعف يقينه فيتزعزع إيمانه لأدنى تشكيك وشبهة،

فالإيمان الراسخ الثابت هو الذي يكون صاحبه من أهل الإمامة، لا تكون الإمامة لمن كان إيمانه ضعيفًا، قابلاً للتشكيك، فهو يتقلب في كل يوم على رأي ومذهب ودين، إنما يكون راسخًا رسوخ الجبال الرواسي، واقرأوا ما جاء في سير بعض السلف ماذا قيل عند موتهم، تجد بعض العبارات أنه كان على سنن واحد، لم يتغير ولم يتبدل على نهج واحد، هذا هو الثبات.

قال: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا الإمامة هنا الإمامة في الدين بمعنى أنه يكون قدوة متبعًا، وهو المراد بقوله -تبارك وتعالى: وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا [سورة الفرقان:٧٤] فهذا ليس من طلب الرياسة في شيء، وإنما المقصود أن يكون الإنسان في حال من الاستقامة في الاعتقاد والقول والعمل فيكون قدوة لأهل الإيمان، قدوة صالح يقتدون به ويأتمون به، هذا هو المقصود وليس طلبًا للإمارة والرئاسة وما أشبه ذلك.

فإبراهيم عليه السلام أخذته الشفقة على ذريته، فلما قال: الله له: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قال: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي يعني اجعل أئمة، و" من" هذه تحتمل أن تكون للتبعيض، اجعل من ذريتي، فعلى هذا المعنى كما يقول الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير: أن ذلك من آدب الدعاء من جهة أنه علم أن الإمامة لن تكون في جميع الذرية؛ لأنهم يتفاوتون في استقامتهم وصلاحهم وإيمانهم فطلب أن يكون ذلك في بعضهم

وعلى القول بأن" من" هذه بيانية وَمِنْ ذُرِّيَّتِي كما يقول الرجل لاولاده: أريد منكم اولاد برة، لا يقصد أريد منكم يعني أريد بعضكم دون بعض، وإنما يقصد جميع الاولاد، فتكون" من" بيانية، تقول لإنسان: أريد منك رجلاً شهمًا مجدًا هماما، أريد منك ليس المقصود التبعيض وإنما" من" بيانية.

إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا فأخذته الشفقة فقال:وَمِنْ ذُرِّيَّتِي يعني اجعلهم أئمة، فبين الله أن الإمامة لا ينالها أهل الظلم لا يَنَالُ عَهْدِي أي: بالإمامة الظالمين، فهنا دل ذلك كما قال: جمع من أهل العلم: أن الإمام لا بد أن يكون من أهل الدين والصلاح والخير والإحسان.

ويؤخذ من هذه الآية: فضل الله -تبارك وتعالى- على عباده حيث يجزيهم وهو من معاني الشكور من أسمائه، يجزيهم على عملهم القليل بالجزاء الكثير، هذا معنى الشكور، فالله ابتلى إبراهيم بكلمات، كلمات تدل على القلة، وهو الذي تفضل عليه وهداه، وألهمه، وثبته ووفقه، ومع ذلك يجزي عبده الجزاء الأوفى،

فكان الجزاء له بهذا الجزاء العظيم إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا والناس هنا يدل على الجنس، جنس الناس، ولذلك لا يوجد أحد رجل أجمع عليه أهل الملل، وكل طائفة تضيفه إلى نفسها مثل إبراهيم اليهود يقولون: بأنه منهم، والنصارى يقولون: بأنه منهم، ولهذا قال: الله تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا [سورة آل عمران:٦٧] فتنازعته الطوائف لعظمه وإمامته ورد الله على هؤلاء هذه الدعاوى في مواضع من كتابه كما هو معلوم أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ [سورة البقرة:١٤٠] إلى غير ذلك.

وأيضًا يؤخذ من هذه الآية: فضل إبراهيم من جهة الإمامة التي حباه الله بها، ومن جهة أيضًا يؤخذ من هذا الفضل وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ فأضافه إليه، فهذه إضافة تشريف، أضاف ربوبيته إلى إبراهيم وهذه ربوبية خاصة، وكذلك في قوله: فَأَتَمَّهُنَّ وكذلك فيما بعده إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا.

ويؤخذ من هذه الآية: أن سُنن الله لا تحابي أحدًا مهما علا قدره، ولو كان في مكان التكريم، يعني هذه لحظة تكريم لإبراهيم فانتهز الفرصة قال: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي فلم تكن سنن الله تحابي أحدًا، ولو حابت أحدًا لكان ذلك لإبراهيم فقال: الله: لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [سورة البقرة:١٢٤] فإن أهل البدع والضلال والإشراك الفجور لا يصلحون للإمامة في الدين.

ولذلك أقول أيها الأحبة: ثلاثة لا يُصدَّرون، قد يكون عند الإنسان فضل ذكاء، وكثرة معلومات، وحفظ، وما أشبه ذلك، لكن عنده مشكلة.

ثلاثة لا يُصدَّرون: صاحب البدعة، والعلم ليس حكرًا عليه، تقول: عنده معلومات، عنده، عنده، لا يُصدَّر لا يُقدَّم للناس.

الثاني: صاحب الهوى والشهوات والمعاصي، فاسق مهما كان حفظه، ومهما كان علمه، لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله أحبار اليهود، فإنسان مضيع لحدود الله منتهك لمحارمه، ولو كان عنده علم كثير، مثل هذا لا يُقدَّم للناس؛ لأنه فتنة، قد يؤتى الإنسان ذكاء ولا يؤتى زكاءً.

الثالث: وهو صاحب الشذوذات، يعني كل إنسان عنده آراء لربما تكون غير صحيحة ولا يسلم من هذا أحد، لكن إذا كثر ذلك غلب على الإنسان شذوذات، الغالب عليه يطرح غرائب شذوذات، يُغرب على الناس، فيكون ذلك سببًا لفتنة ولزعزعة دينهم وثقتهم بما هم عليه، فإذا غلب هذا على الإنسان وصار غالبًا عليه، إثارة قضايا غريبة، فتاوى غريبة شاذة، آراء شاذة يتبناها بحيث يكون ذلك سمة له، ليست مسألة ولا مسألتين ولا ثلاث، إنما هو الغالب، فمثل هذا لا يُصدَّر؛ لأنه يكون فتنة للناس، هؤلاء ثلاثة لا يُصدَّرون.

فإن شئت أن تزيد رابعا: فلك أن تزيد من عُرف بحب الشهرة والرئاسة، وحب التصدُّر فمثل هذا لا يعان عليه الشيطان، فإنه يكون مفتونًا، ومثل هذا الذي يكون عنده حب للشهرة والرئاسة والتصدر سيكون تبعًا لأهواء الناس، تبعًا للجماهير؛ لأنه لا يريد أن يخسر هؤلاء الأتباع، فهو يريد أن يتكثر منهم، ومن ثم فإنه يقول لهم ما يوافق أهواءهم، فيعطيهم من الفتاوى المرخصة التي توافق هواه، لا يريد أن يغضب أحدًا منهم، لا يريد أن يجرح أحدًا منهم، لا يريد أن يقول: هذا مبتدع، أو هذه بدعة، أو هذا حرام هذا شرك، أو هذا كذا، وإنما كل شيء عنده إجابات ضبابية لا تأخذ منه حقًّا ولا باطلاً، كما يقال:إجابات دبلوماسية.

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ [سورة الكهف:٢٩] لا بد من بيان الحق للناس بصورة واضحة جلية لا يكون ملتبسًا عليهم، فهذا الذي لا يعرفون من خلال فتواه أو كلامه الحلال من الحرام ولا السنة من البدعة، ولا الإيمان من الشرك هذه تضلل الناس، يبقى الناس في عماية، فمن الناس من لا يريد أن يخسر أحدًا، أهل البدع والأهواء وأهل الفجور والمعاصي، الكل يربت على كتفه كأنه يقول: لا بأس عليكم، بل لربما يستدل بآيات،

يعني بعضهم يستدل بقوله تعالى إلى لقوم فجرة في قناة سيئة يقول: طبيعة الإنسان محبة الخير وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ [سورة العاديات:٨] في محكم التنزيل، الآية وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ يعني المال، هذا معنى الآية، لكنه للأسف يوردها على قوم من أهل الفسق وعرفوا بهذا والفجور

وفي قناة كذلك ليقول لهم: لا بأس عليكم طبيعة الإنسان أصلاً حب الخير، أنتم تحبون الخير مهما كنتم من السوء، ويحمل الآية على معنىً محرف غير مراد بالإجماع.

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ يعني: المال، وليس حب الخير، يعني العمل الصالح، أبدًا، فإن من النفوس من يكون صاحبها أبعد عن الخير والعمل الصالح، قد انتكست فطرته فهو يكره الحق وأهله ويعاديه ويحاربه، وهذا أمر مشاهد.

على كل حال أيضًا لاحظ: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قال: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي أراد الخير لذريته هذه جبلة، وقال:وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ [سورة إبراهيم:٣٥] فالإنسان يدعو لاولا:ده بالصلاح، ويحرص على تربيتهم التربية الصحيحة؛ لأن هؤلاء امتداد له،

والنبي صلى الله عليه وسلم قال:أو ولد صالح يدعو له هؤلاء هم مدخراتك مع العمل الصالح، هؤلاء من جملة العمل الصالح الذي يبقى من بعدك إذا صلحوا، وكل من رآهم دعا قال:رحم الله والديه، هؤلاء الاولا:د من الصلحاء يدعون له يرفعون أيديهم يدعون الله لكن إذا كان الولد غير صالح فهو لا يدعو لنفسه، ولا يدعو لأبيه فهو مشغول بالغيّ والشهوات، ومطالب النفوس الدنية.

فإصلاح الاولا:د والعناية بهم، والمحافظة عليهم والدعاء لهم بالصلاح، لا تدعُ عليهم، وأيضًا القسوة المفرطة، يعني من الناس من يخسر اولا:ده بسبب القسوة المفرطة، فهذا التدليل والتربية الفاسدة أن يقال:لا تضغط على الولد، دعه يفعل ما يشاء، البنت تلبس ما تشاء، لا تضغط، هذا غلط،

إنما وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا [سورة طه:١٣٢] قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا [سورة التحريم:٦] كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته بالحسنى بالكلام الطيب بالإقناع، وإذا ما نفع فبالإلزام، لا أتركه يترك الصلاة وهو فراشه، وأذهب إلى المسجد، بل يقوم ويخرج إلى المسجد ولا يبقى في البيت،

لكن من الناس من يقسو قسوة مفرطة كأن يقول للولد: إذا تأخرت عن الساعة الحادية عشرة الباب مقفل ولن تدخل، ولربما طرده من البيت، فيتلقفه الشياطين ويخسر هذا الولد، ويزيد انحرافًا وسوء وشرًّا، فيحتاج إلى احتوائه ومعالجته بالطرق اللائقة.

أما هذه الشدة والقسوة فإنها قد تقطع حبال الود، ولا أحصي كم أولئك الذين يقولون: بأن آباءهم لا يحبونهم، أو أولئك الفتيات اللائي يقلن: بأن أمهاتهن كذلك، وتحاول جاهدًا أن تقنع، وأن هؤلاء إنما يفعلون ذلك معك بدافع الحرص والمحبة، محبة الخير لك،

ومع ذلك أنا أقول أيها الأحبة: أكثر هذه المحاولات كانت فاشلة، هو مصر على أن أباه يكرهه، وأن أمها تبغضها، بل أكثر من هذا، فقد يسأل بعضهم بعد الوفاة، يقول: لا زال في قلبي أشياء وأحاول أن أدفعها ولا أستطيع، لاحظوا بعد الموت يذهب كل شيء من العداوات ماذا بقي؟ وهذا لأبيه وهذه تجاه أمها تقول: لا زال بقايا، أحاول أن أطيب قلبي تجاهها ولا أستطيع بعد الموت، فهذه كيف ستدعو لها، أو كيف هذا سيدعو لأبيه.

وعلى كل حال، يؤخذ من هذه الآية أن الإمامة ليست مجرد وراثة أصلاب وأنساب، وليست تؤخذ بالقرابة والدم والجنس ودعاوى الجاهلية، إنما تؤخذ بالإيمان والعمل الصالح.

وهكذا أيضًا في قوله تعالى: لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ يدل على أن العدل الذي يقابل الظلم، العدل هو أساس استحقاق هذه الإمامة، ومن اتصف بالظلم فإنه لا يصلح لذلك.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قال: الله تعالى إلى: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ)، يَعْنِي: الْكَعْبَةَ، (مَثَابَةً لِلنَّاسِ): مَرْجِعًا لَهُمْ، قال: مجاهد وسعيد بن جبير: يثوبون إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَحُجُّونَ، قال: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَعَاذًا وَمَلْجَأً، وَقال: قَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ: مَجْمَعًا، وَأَمْناً، أَيْ: مَأْمَنًا يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنْ إِيذَاءِ الْمُشْرِكِينَ فإنهم كانوا لا يَتَعَرَّضُونَ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَيَقُولُونَ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ، وَيَتَعَرَّضُونَ لِمَنْ حَوْلَهُ كَمَا قال: الله تعالى إلى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) [الْعَنْكَبُوتِ: ٦٧]،

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَا جَرِيرٌ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ طاوس، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:قال: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ حرّمه الله يوم خلق السموات وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يُعْضَدُ شَوْكُهُ وَلَا يَنَفَّرُ صَيْدُهُ وَلَا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ»، فَقال: الْعَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا الْإِذْخِرَ فَإِنَّهُ لَقَيْنِهِمْ وَلِبُيُوتِهِمْ، فَقال: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إلا الإذخر»،

(وَاتَّخِذُوا)، قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ بِفَتْحِ الْخَاءِ عَلَى الْخَبَرِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِكَسْرِ الْخَاءِ عَلَى الْأَمْرِ، مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى، قال: يَمَانٍ: الْمَسْجِدُ كُلُّهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَقال: إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: الْحَرَمُ كُلُّهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ جَمِيعَ مُشَاهِدِ الْحَجِّ مِثْلَ عرفة والمزدلفة وَسَائِرِ الْمَشَاهِدِ،

وَالصَّحِيحُ: أَنَّ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي فِي الْمَسْجِدِ يُصَلِّي إِلَيْهِ الْأَئِمَّةُ، وَذَلِكَ الْحَجَرُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ عِنْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ، وَقِيلَ: كَانَ أَثَرُ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ بَيِّنًا فِيهِ فَانْدَرَسَ مِنْ كَثْرَةِ الْمَسْحِ بِالْأَيْدِي، قال: قَتَادَةُ وَمُقَاتِلٌ وَالسُّدِّيُّ: أُمِرُوا بِالصَّلَاةِ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِمَسْحِهِ وَتَقْبِيلِهِ،

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَنَا مُسَدَّدٌ عَنْ يَحْيَى عن حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ قال:قال: عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَافَقْتُ اللَّهَ فِي ثَلَاثٍ، أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي فِي ثَلَاثٍ: قلت يا رَسُولَ اللَّهِ لَوِ اتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فَأَنْزَلَ اللَّه تعالى إلى: (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى)، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ يَدْخُلُ عَلَيْكَ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آيَةَ الْحِجَابِ، قال:وَبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ فَقُلْتُ لَهُنَّ: إِنِ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبْدِلَنَّهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْكُنَّ، فَأَنْزَلَ اللَّه تعالى إلى: عَسى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنَّ [التحريم: ٥] الآية،

وَرَوَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَيْضًا عن عمرو بن عون أَنَا هُشَيْمٌ عَنْ حُمَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:قال: عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوِ اتَّخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فَنَزَلَتْ: (وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى)، وأما بدء قصة المقام: فَقَدْ رَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:لِمَا أَتَى إِبْرَاهِيمُ بإسماعيل وهاجر وضعهما بِمَكَّةَ، وَأَتَتْ عَلَى ذَلِكَ مُدَّةٌ وَنَزَلَهَا الْجُرْهُمِيُّونَ وَتَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ مِنْهُمْ امرأة وقد ماتت هَاجَرُ، وَاسْتَأْذَنَ إِبْرَاهِيمُ سَارَةَ أَنْ يَأْتِيَ هَاجَرَ فَأَذِنَتْ لَهُ وَشَرَطَتْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَنْزِلَ، فَقَدِمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ وَقَدْ مَاتَتْ هَاجَرُ فَذَهَبَ إلى بَيْتِ إِسْمَاعِيلَ فَقال: لِامْرَأَتِهِ: أَيْنَ صَاحِبُكِ؟ قال:تْ: ذَهَبَ لِلصَّيْدِ، وَكَانَ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْرُجُ مِنَ الْحَرَمِ فَيَصِيدُ، فَقال: لَهَا إِبْرَاهِيمُ: هَلْ عِنْدَكِ ضِيَافَةٌ؟ قال:ت: ليس عندي شيء وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ، فَقال:تْ: نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ، فَشَكَتْ إِلَيْهِ فَقال: لَهَا: إِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فأقرئيه مني السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ: فَلْيُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَذَهَبَ إِبْرَاهِيمُ فَجَاءَ إِسْمَاعِيلُ فَوَجَدَ رِيحَ أَبِيهِ، فَقال: لِامْرَأَتِهِ: هل جاءك أحد؟ فقال:ت: جَاءَنِي شَيْخٌ صِفَتُهُ كَذَا وَكَذَا، كَالْمُسْتَخِفَّةِ بِشَأْنِهِ، قال:فَمَا قال: لَكِ؟ قال:تْ: قال: أَقْرِئِي زَوْجَكِ مني السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ فَلْيُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ، قال:ذَلِكَ أَبِي وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ فطلّقها، وتزوّج منهم بأخرى فَلَبِثَ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَلْبَثَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ سَارَةَ أَنْ يَزُورَ إِسْمَاعِيلَ، فَأَذِنَتْ لَهُ وَشَرَطَتْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَنْزِلَ،

فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى انْتَهَى إلى بَابِ إِسْمَاعِيلَ، فَقال: لِامْرَأَتِهِ: أَيْنَ صَاحِبُكِ؟ قال:تْ: ذَهَبَ يَتَصَيَّدُ وَهُوَ يَجِيءُ الْآنَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَانْزِلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ، قال:هَلْ عِنْدَكِ ضِيَافَةٌ؟ قال:تْ: نَعَمْ، فَجَاءَتْ بِاللَّبَنِ وَاللَّحْمِ، وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ فَقال:تْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ فَدَعَا لَهُمَا بِالْبَرَكَةِ، وَلَوْ جَاءَتْ يَوْمَئِذٍ بِخُبْزِ بُرٍّ أَوْ شعير أو تمر لَكَانَتْ أَكْثَرَ أَرْضِ اللَّهِ بُرًّا أَوْ شَعِيرًا أَوْ تَمْرًا،

فَقال:ثْ لَهُ: انْزِلْ حَتَّى أَغْسِلَ رَأْسَكَ فَلَمْ يَنْزِلْ، فَجَاءَتْهُ بِالْمَقَامِ فَوَضَعَتْهُ عَنْ شِقِّهِ الْأَيْمَنِ فَوَضَعَ قَدَمَهُ عَلَيْهِ فَغَسَلَتْ شِقَّ رَأْسِهِ الْأَيْمَنَ ثم حولته إلى شِقِّهِ الْأَيْسَرِ فَغَسَلَتْ شَقَّ رَأْسِهِ الْأَيْسَرِ، فَبَقِيَ أَثَرُ قَدَمَيْهِ عَلَيْهِ، فَقال: لَهَا: إِذَا جَاءَ زوجك فأقرئيه مني السَّلَامَ وَقُولِي لَهُ: قَدِ اسْتَقَامَتْ عَتَبَةُ بَابِكَ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ وَجَدَ رِيحَ أَبِيهِ، فَقال: لِامْرَأَتِهِ: هَلْ جَاءَكِ أَحَدٌ؟ قال:ثْ: نَعَمْ شيخ كبير أَحْسَنُ النَّاسِ وَجْهًا وَأَطْيَبُهُمْ رِيحًا، وَقال: لِي كَذَا وَكَذَا، وَقُلْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا، وَغَسَلْتُ رَأْسَهُ وَهَذَا مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ، فَقال: ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ أَبِي، وَأَنْتَ الْعَتَبَةُ أمرني أن أمسكك، وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أيضا عن ابن عباس قال:ثم لبثت عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نبلا تحت دوحة قريبة مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ وَالْوَلَدُ ب

ـالْوَالِدِ، ثُمَّ قال:يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّه تعالى إلى أَمَرَنِي بِأَمْرٍتعالينِي عَلَيْهِ، قال:أعينك عليه، قال:إِنَّ اللَّه أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ رفع الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، فلما ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَى حَجَرِ الْمَقَامِ، وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ: (رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) [البقرة: ١٢٧]،

وَفِي الْخَبَرِ: «الرُّكْنُ وَالْمَقَامُ يَاقُوتَتَانِ من يواقيت الجنة، ولولا مَسَّتْهُ أَيْدِي الْمُشْرِكِينَ لَأَضَاءَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ»، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَعَهِدْنا إلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ، أَيْ: أَمَرْنَاهُمَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمَا، قِيلَ: سُمِّيَ إِسْمَاعِيلُ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يدعو الله أن يرزقه ولد، وَيَقُولَ: اسْمَعْ يَا إِيلُ، وَإِيلُ هو الله، فلما رزق الولد سمّاه بِهِ. (أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ)، يَعْنِي: الْكَعْبَةَ، أَضَافَهُ إِلَيْهِ تَخْصِيصًا وَتَفْضِيلًا، أَيِ: ابْنِيَاهُ عَلَى الطَّهَارَةِ وَالتَّوْحِيدِ، وَقال: سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ: طَهِّرَاهُ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالرِّيَبِ وَقَوْلِ الزور، وقيل: بخّراه وخلّقاه، قال:ه يمان بن رباب.

قَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَحَفْصٌ بَيْتِيَ بِفَتْحِ الْيَاءِ هَاهُنَا وَفِي سُورَةِ الحج، وزاد حَفْصٌ فِي سُورَةِ نُوحٍ، (لِلطَّائِفِينَ): الدَّائِرِينَ حَوْلَهُ، (وَالْعاكِفِينَ): الْمُقِيمِينَ الْمُجَاوِرِينَ، (وَالرُّكَّعِ)، جَمْعُ رَاكِعٍ، (السُّجُودِ): جَمْعُ سَاجِدٍ، وَهُمُ الْمُصَلُّونَ، قال: الْكَلْبِيُّ ومقاتل: (الطائفين): هم الغرباء والْعاكِفِينَ أَهْلُ مَكَّةَ، قال: عَطَاءٌ ومجاهد عكرمة: الطَّوَافُ لِلْغُرَبَاءِ أَفْضَلُ، وَالصَّلَاةُ لِأَهْلِ مكة أفضل.

وَإِذْ قال: إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قال: وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)

ما زال الحديث متصلاً في قوله -تبارك وتعالى- في خبر إبراهيم ودعائه: وَإِذْ قال: إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قال: وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [سورة البقرة:١٢٦].

في هذه الآية من سورة البقرة من دعاء إبراهيم : وَإِذْ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا [سورة البقرة:١٢٦] وفي سورة إبراهيم: اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا [سورة إبراهيم:٣٥] بالتعريف: البلد، وهي مكة، والدعاء لمكة في الموضعين فنُكرت في سورة البقرة اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا وفي سورة إبراهيم: اجعل هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا فما وجه التفريق بينهما؟

العلماء -رحمهم الله- يُجيبون على هذا بجواب معروف، وهو: أن الأول وهو في سورة البقرة كان قبل أن تكون مكة بلدًا، يعني: أول ما جاء بهاجر ووضعها في هذا الوادي الذي لا زرع فيه ولا شيء من مظاهر الحياة بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ [سورة إبراهيم:٣٧] فقال:اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا [سورة البقرة:١٢٦] دعا ربه أن يتحول هذا الوادي إلى بلد آمن، ثم لما جاء في المرة الأخرى تحولت مكة إلى بلد حيث نزلت جُرهم بمكة، لما نبع ماء زمزم كما هو معروف، فلما جاء في هذه المرة وقد تحولت إلى بلد، فقال:اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا [سورة إبراهيم:٣٥] فدعا لبلد موجود، قائم يوجد فيه قبيلة من الناس وهي جُرهم.

فهذا وجه المُغايرة بين الموضعين، وكان ذلك بعد ولادة إسحاق فالولد الأكبر وهو الذبيح هو إسماعيل وبين إسماعيل وإسحاق ثلاثة عشرة سنة، فإسماعيل ابن هاجر وإسحاق ابن سارة، وبينهما هذه السن،

ولهذا قال: في آخر الدعاء في سورة إبراهيم: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ [سورة إبراهيم:٣٩] هذا في المرة الثانية؛ لأنه حينما جاء في المرة الأولى ومعه هاجر مع صغيرها حديث الولادة في المهد وهو إسماعيل لم يكن إسحاق قد ولد؛ لأن بينهما ثلاثة عشرة سنة، ففي المرة الأولى: اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وفي المرة الثانية بعد مدة، وبعد ولادة إسحاق؛ لهذا قال:الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ [سورة إبراهيم:٣٩] فهذا بعد سنين، والله تعالى إلى أعلم.

وتأمل قوله -تبارك وتعالى- في دعاء إبراهيم في هذه المرة قال:وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ [سورة البقرة:١٢٦] فقيد في الدعاء لهم بالرزق أن يرزق من آمن بالله واليوم الآخر، يعني: مفهوم المخالفة المسكوت عنه أن من لم يكن مؤمنًا بالله واليوم الآخر فلا ترزقه، وكأن

إبراهيم قد تحرز بسبب أنه لم دعا في المرة الأولى بالإمامة لولده إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قال: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قال: لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [سورة البقرة:١٢٤]

فكأنه ظن أن الرزق أيضًا يُدعى به لخصوص أهل الإيمان، فلما دعا بالرزق وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فبين الله له الفرق بين المقامين، قال: الله: قال: وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [سورة البقرة:١٢٦].

فالرزق غير الإمامة، الإمامة في الدين لا تكون إلا لأهل الإيمان والعمل الصالح واليقين، بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، لكن الإمامة لا تكون لأهل الظلم والفجور، الإمامة في الدين فلا يصلح أن يكون قدوة يأتم الناس به على ضلال وفجور، أو أهواء وبِدع ونحو ذلك.

فلاحظ أدب الأنبياء في المرة الأولى قال: الله له: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قال: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [سورة البقرة:١٢٤] يعني: اجعل أئمة، أخذته الشفقة على ذريته فسأل لهم الإمامة فلما سأل الرزق لأهل مكة احترز قال:وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ [سورة البقرة:١٢٦] خصوص من آمن، ارزق من آمن، فقال: الله له: لا، هذا يختلف، الرزق يكون للبر والفاجر والمؤمن والكافر كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا [سورة الإسراء:٢٠] بخلاف الإمامة في الدين، فهذا من أدب الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

ويؤخذ من قوله -تبارك وتعالى: قال: وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [سورة البقرة:١٢٦] يؤخذ منها أن هذا المتاع الذي يُعطى هو متاع قليل لا في قدره ولا في مدته، لا فيما يتصل بالأفراد بالنظر إلى الأشخاص، ولا بالنظر إلى الحياة الدنيا، هو قليل، النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء لو كانت تساوي جناح بعوضة، جناح البعوضة ماذا يساوي، والبعوضة ماذا تساوي؟ وألف بعوضة ماذا تساوي؟ ومليون بعوضة ماذا تساوي؟ لا، لو كانت الدنيا تساوي جناح بعوضة جناح فقط ما سقى منها كافرًا شربة ماء.

إذًا هي عند الله أقل من جناح البعوضة بما فيها من هذه الثروات والمعادن والذهب والفضة، وهذه المراكب البرية، والبحرية، وناطحات السحاب، والعِمران الواسع، والزروع والدواب، كل ذلك من أوله إلى آخره، من أول الدنيا إلى آخرها، الدنيا بأكملها لا تساوي جناح بعوضة، لو كانت تساوي ما سقى منها كافر شربة ماء.

إذًا لا تغتر بما يُعطى للكفار هو أقل من جناح بعوضة، فلا يُفتن أهل الإيمان بما يُعطى لهؤلاء من ألوان النعيم واللذات والتمكين والثروات، وسابقًا قوة الاقتصاد، وأما الآن فتعرفون ما يعصف باقتصادهم، وما يُعانونه ويُكابدونه، لكن كل ذلك لا يساوي عند الله جناح بعوضة، فلا يغتر المؤمن إذا عرف هذا، هذا من جهة هو قليل فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثم لو نظرنا أيضًا إلى عمر الإنسان حينما يُمتع هذا الإنسان المُمتع كما يعيش إلى ستين إلى سبعين إلى ثمانين إلى تسعين إلى مئة، وإذا وصل إلى المئة تلاشت قواه، وبدأت خلايا المخ تضعف، أو تموت، وينسى كل شيء، ولا يعرف حتى زوجته واولاده،

إذا جالس وقال: من هذا؟ من أنت من هذا الرجل الذي جالس؟

ويجلس ويتحدث ويُعيد الكلام مرة بعد مرة، ثم يُعيد ويسألك مرة أخرى ويقول لك من أنت، فتُخبره ثم ما يلبث أن يلتفت ويقول من أنت؟ بعد ما كان في غاية الذكاء وحضور الذهن، هذه الحياة الدنيا إذا عُمر الإنسان.

يسر المرء طول عيش وطول عيش قد يضره

تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره

وتسوؤه الأيام حتى لا يرى شيئًا يسره

إلا من متعه الله بالإيمان والعمل الصالح، وحفظ قلبه وسمعه وبصره وعقله، واشتغل بذكره فهذا يُغبط، وأما إذا لم يبقَ له من ذلك شيء فهذا أرذل العمر الذي استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم منه.

فأقول: هذه الحياة التي يبقها الإنسان إلى سبعين إلى ثمانين إلى كم، هي مدة قليلة مهما مُتع فيها، ثم يصير إلى دار الخلود، دار الخلود، فإذا كان في النار هؤلاء الكفار فما قيمة سبعين سنة وحينما تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة.

وأما هذا النعيم: يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال:يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا، من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال: له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط[٢].

فهذه الحياة يُنسيها غمسة واحدة بما فيها من نعيم أو بؤس، فما قيمة هذه الحياة التي نحرص عليها ونحزن من أجلها، ونتهافت على تحصيل حُطامها، ويبقى الإنسان في قلق من المُستقبل بزعمه وأحزان على الفائت هذا كله لا يستحق غمسة واحدة تُنسيك كل شيء.

فهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً [سورة البقرة:١٢٦] مدة قليلة والحياة كلها العمر قصير والحياة كلها قصيرة يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ [سورة الروم:٥٥] فحري بدار كهذه أن يُزهد فيها.

ثم أيضًا وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً [سورة البقرة:١٢٦] عطاء الله للعبد من الدنيا لا يدل على رضاه ومحبته لهذا الإنسان، بل إن كان على غير إيمان وعمل صالح فهذا من الإملاء وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [سورة الأعراف:١٨٣] إذا رأيت الله كما قال: السلف يُعطي الرجل وهو على معصيته مُقيم على معصيته فهذا من قبيل الاستدراج وَأُمْلِي لَهُمْ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ [سورة المؤمنون:٥٥، ٥٦]

هم لا يشعرون أن هذا من قبيل الاستدراج لهم وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا [سورة آل عمران:١٧٨] ليزدادوا ماذا خيرًا وطاعة؟ ليزدادوا ماذا؟ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا.

فهذا العطاء إذا كان العبد على حال غير مرضية فمعناه أنه استدراج.

الذي يُعطى للكفار وهم على كفرهم هذا استدراج ليزدادوا إثما، فالمؤمن لا يغتر، ومن هنا هذا السؤال الذي يُورده بعض المسلمين إذا ذهبوا ورأوا ما فيه أولئك الكفار أجواء جميلة وغائمة، وأمطار، وبلاد خضراء، وكذلك أيضًا الحياة مُذللة لهم، فيرد هذا السؤال عند بعضهم، لماذا الكفار في هذا النعيم، وهذا التمكين، وهذا الترفيه وهذه الوسائل التي ذللت لهم المصاعب في الحياة والمسلمون في وضع بائس؟

فيُقال: كما قال: النبي صلى الله عليه وسلم لما وجده عمر رضى الله عنه: وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظا مصبوبا، وعند رأسه أهب معلقة، قال:فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال:ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله، فقال:أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة

فهذا هو الواقع، ولذلك قالوا: الدنيا سجن المؤمن، ما معنى سجن المؤمن؟ معناه أن هناك حدود محظورات، هذا لا يجوز هذا ممنوع، فيبقى يسير في إطار مُحدد.

وجنة الكافر، فإذا نظرت إلى ما يكون للمؤمن من النعيم المقيم الذي لا يُقادر قدره، وما يكون في الدنيا فالدنيا سجن بالنسبة للجنة، وأما بالنسبة للكافر وما يلقاه من العذاب الأليم أبد الآباد فالدنيا بالنسبة له جنة، حتى لو كان يعيش في كوخ، لو كان يعيش في سقيفة، في عريش، لو كان يعيش تحت ظل شجرة في الدنيا هي جنة بالنسبة له بالنظر إلى عذاب النار الذي ينتظره.

ولذلك أقول أيها الأحبة، هذه المعاني يحتاج المؤمن أن يقف عندها فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً [سورة البقرة:١٢٦] ما أُعطي هو قليل، وهذا القليل أيضًا هو في الواقع أنهم يشقون فيه غاية الشقاء.

فهذه الأموال والاولاد كما قال: الله تعالى: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [سورة التوبة:٥٥] فيُعذبون بهؤلاء الاولاد، ويُعذبون بهذه الأموال، فيبقى دائمًا في ملاحقة لها وحذر وحرص وقلق حينما ترتفع العملات، أو حينما تهبط، أو حينما ترتفع البُورصة، أو حينما تنزل، أو حينما ترتفع الأسهم، أو حينما تنزل، فيبقى قلبه يرتفع وينزل فيبقى في عذاب طالع نازل قلق، لذلك تجد بعض هؤلاء على الثراء على الأموال يأكلون الأدوية، وتنتشر فيهم المصحات النفسية، ويعيشون في قلق وضيق دائم وهم مع هذه الأسباب المُذللة، وهذا طبيعي وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [سورة طه:١٢٤].

المعيشة الضنك لكل من أعرض عن ذكر الله

وذكره هو كتابه، من أعرض عن هدى الله تعالى فلم يذكره بقلبه ويتدبر ويتلو ويعمل به، فإن له معيشة ضنكا، إذا كان المسلم حينما يُقصر وتحصل له شيء من الغفلة يجد في قلبه من الوحشة والضيق والحُزن، وما أشبه ذلك، بسبب بُعده عن ربه، الذي لا يعرف الله، ولا يسجد لله، ولا يؤمن بالقضاء والقدر، ولا يتوكل على الله، ما حاله هذا؟ نسأل الله العافية، قلبه كريشة في مهب الريح ضياع بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ضياع، ضياع ووحشة، أرواحهم في وحشة من جسومهم، نسأل الله العافية يستوحش من كل شيء.

ولذلك هؤلاء أحوج ما يكونون بدلاً من الإعجاب بهم والله هم أحوج ما يكونون إلى رحمة، أن يلتفت إليهم المسلمون، فيُبلغونهم إكسير السعادة، وهو هذا الدين الإسلام الإيمان، فتتحول تلك النفوس المُستوحشة إلى حال من الراحة والسعادة؛ لأن هذه النفس تشقى إذا كانت بعيدة عن الله إذا كانت بعيدة عن الإيمان تكون في وحشة وشقاء، وإن المرء ليعجب كيف يستطيع هؤلاء العيش؟ الواقع أنهم يلجئون إلى الانتحار، ويوجد عندهم أنواع من الانتحار مُبتكرة بحيث لا يوجد معها ألم، وبعضهم ربما دفع الأموال للمُحامين من أجل ألا يكون هناك مُطالبة لأحد إذا أعطاه هذا الجهاز الذي ينتحر به، أو نحو ذلك.

ما نفعهم الأموال، ولا نفعهم الأجواء الجميلة، ولا نفعتهم الخُضرة المُمتدة، ولا نفعتهم وسائل الراحة والنقل والمواصلات، والخدمات السهلة التي تصل إليه وهو في بيته، كل هذا ما نفع، شقاء يشحط هذه النفوس، يطحنها طحنًا، فترى البؤس في وجوههم.

وانظر إلى حال أهل الإيمان بقدر ما عندهم والموفق من وفقه الله، الذي يأتي لا يؤذن المؤذن إلا وهو في المسجد، اسألوه عن الراحة التي يجدها والطمأنينة والنعيم الذي يجده في قلبه.

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)

يقول الله -تبارك وتعالى- في هذه السورة الكريمة (سورة البقرة): وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة البقرة:١٢٧].

واذكر حين رفع إبراهيم مع إسماعيل -عليهما السلام- القواعد من الكعبة المشرفة، حال كونهما داعين الله -تبارك وتعالى- وسائلينه القبول رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ [سورة البقرة:١٢٧] لأقوالنا وأقوال العباد، وسائر المسموعات الْعَلِيمُ بأحوالنا وأحوال خلقك.

يؤخذ من هذه الآية: هذا المقام من أجل المقامات، وأعظمها وأشرفها بناء الكعبة المشرفة بأمر الله -تبارك وتعالى- ومن يقوم بذلك؟ إنه خليل الرحمن، والخُلة أعلى مراتب المحبة وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً [سورة النساء:١٢٥] وقال: ﷺ: فإن الله تعالى إلى قد اتخذني خليلا، كما اتخذ إبراهيم خليلا فهذا إبراهيم عليه السلام وهو من هو، بهذه المرتبة والمنزلة عند الله -تبارك وتعالى- ويقوم بأجل الأعمال، ومع ذلك انظروا إلى هذه الضراعة والانكسار كما جاء عن وهيب بن الورد -رحمه الله- أنها حينما يقرأ هذه كان يبكي، ويقول:" يا خليل الرحمن، ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك"

إذا كان الإنسان في مقام كهذا، ويكون في حال من التضرع والانكسار، وهو بهذه المرتبة عند الله -تبارك وتعالى- ويقول: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة البقرة:١٢٧] فماذا يقول من كان دونه؟ وماذا يقول من عمل عملاً دون ذلك من الأعمال الصالحة؟

نحن قد نزاول بعض الأعمال، ونقوم ببعض العبادات من حج، أو عمرة، أو صدقة، أو صيام يصوم الإنسان عاشوراء، أو يصوم غيره، ولربما ظن أنه قد ضمن القبول، قد يصوم المسلمون يوم عاشوراء، وهنا تتوجه أسئلة وتتوارد من بعض السائلين يقولون: لقد صمنا يوم عرفة، ويوم عرفة يُكفر سنة ماضية وسنة آتية، فلماذا نصوم عاشوراء وهو يُكفر سنة ماضية؟ عرفة يكفي في تكفير سنة ماضية، كأن الإنسان قد ضمن، كأنه قد ضمن القبول، فهو يستكثر أن يصوم يومًا آخر جاء فيه مثل هذا الفضل.

فانظر إلى حالنا وحال إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا [سورة البقرة:١٢٧] كما قال: الله في صفة أهل الإيمان أهل التقوى، أهل الإخبات وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ [سورة المؤمنون:٦٠]

قال:ت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال:لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم

هكذا المؤمن، فهذه الأعمال الصالحة التي نعملها لا يصح الإدلال بها على الله -تبارك وتعالى- فيكون العبد كأنه يُحسن إلى ربه، يحج فيذهب مُتذمرًا ويرجع مُنتقدًا لكل ما شاهده في الحج،

ليس هذا حال أهل الإخبات أهل الخضوع لله الحاج يذهب مُنذ أن يذهب إلى أن يرجع رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة البقرة:١٢٧] لا ينظر إلى أن هذه الحجة أنه بذل فيها كذا وكذا من الأموال، أو حصل له ما حصل من التعب، أو أن هذه الحجة هي الحجة العاشرة أو المئة، العبرة ليس في هذا، العبرة بالقبول والقبول عند الله،

والله يقول: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [سورة المائدة:٢٧] من اتقاه في هذا العمل، فهذا الذي يحج وهو يتذمر ويرجع وهو يتسخط وينتقد كل شيء، هذا لم يتق الله في هذا الحج،

لو كان عندك أجير إذا بعثته في حاجة أو نحو ذلك ذهب وهو يتأفف ويتذمر فمثل هذا لا يمكن أن تُطيق بقاءه معك يومًا واحدًا، إذا بعثته في حاجة يتذمر ويتأفف، فالله غني عن عباده وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ [سورة آل عمران:٩٧]

غني عنه وعن حجه، غني عن العبد وعن صيامه،

فمن عرف عظمة الله فإنه يتقال: كل عمل يُقدمه ويبذله في سبيل مرضاته، هذه أجل الأعمال ومن أعظم الرجال رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة البقرة:١٢٧] فماذا نقول إذًا نحن في أعمالنا القليلة مع النيات التي نُخلط فيها كثيرًا؟ والله المستعان.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا [سورة البقرة:١٢٧] المدار على القبول، وليس على مجرد العمل، العمل مطلوب، ولكن القبول له شأن آخر، فالمعول عليه، فقد يعمل الإنسان الأعمال العظيمة ويُنفق النفقات الكبيرة، ولكن لا يُقبل منها شيء إما لفساد قصده، وإما لفساد عمله.

فساد القصد: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه هذا في الرياء والسمعة.

و

في الأعمال التي يحصل فيها الابتداع والإحداث، فالله أيضًا لا يقبلها، فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد

الإنسان لا يستطيع أن يضمن أن عمله قد قُبل، وأنه قد اتقى الله فيه من الناحيتين: النية والقصد والإتيان به على الوجه المشروع، فلا يطلع الله على قلبه وقد تسلل إليه العُجب بهذا العمل، حاج، صائم، قارئ للقرآن مُنفق، أو يتسلل إليه الرياء ليكون -بدلاً من القبول- ليكون أول من تُسعر بهم النار يوم القيامة،

فقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي هريرة في أولئك الثلاثة أول من تُسعر بهم النار، أول من يُلقى فيها أصحاب أعمال جليلة قارئ قرأ القرآن، لكن ليُقال: قارئ، ومُنفق بذل الأموال ليُقال: منفق وجواد، ومُجاهد قُتل بذل مُهجته لكن ليُقال: شجاع فهل نفعه ذلك؟ أبدًا بل صار ذلك -نسأل الله العافية- صار شيئًا في حقه وحطًا في مرتبته، ووزرًا يحمله على ظهره يوم القيامة.

القبول عند الله -تبارك وتعالى- لا يعلم الإنسان هل قُبل عمله أم لم يُقبل، ومن ثَم هذا السؤال الذي قد يقوله البعض لماذا أصوم عاشوراء وقد صمت عرفة؟ هو وضع القبول هنا ضمان في جيبه، وهذا لا يقوله من عرف هذه الحقائق الشرعية، والمعاني العظيمة التي تُفهم من نصوص الكتاب والسنة.

وتأمل قوله -تبارك وتعالى: وَإِذْ يَرْفَعُ [سورة البقرة:١٢٧] هذا حدث في الماضي لم يقل وإذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، وقال:ا ربنا تقبل منا، نسأل الله القبول، لا وَإِذْ يَرْفَعُ [سورة البقرة:١٢٧] عُبر بالمضارع الذي يدل على الاستمرار؛ ليصور لك هذا المشهد الرفع، عملية البناء كأنك تُشاهدها، هي كانت في الماضي فعُبر عنها بالمضارع وَإِذْ يَرْفَعُ [سورة البقرة:١٢٧]

واذكر إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، يصور الحال الماضية كأنك تُشاهدها ليُذكر بالمعاني الكِبار، يُذكر بهذا العمل العظيم، وشرف هذا البيت، ومن بناه، ويُذكر بهذه الحال أحوال الكِبار من الضراعة والإخبات وسؤال القبول والتواضع لله رب العالمين.

كلما كان العبد -أيها الأحبة- أعرف بربه كان ذلك أدعى إلى انكساره وتذلله وخضوعه لله وتواضعه للناس، وإذاتعالىاظم جهله ظهرت عليه أمارات العُجب والكِبر والتعالي، قد يكون فقيهًا،

وقد يكون قارئًا، وقد يكون مُنفقًا، وقد يكون آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، ولكن من غير أساس صحيح، لم يعرف ربه معرفة صحيحة، فتسلل إليه العُجب، يستكثر هذا العمل، فتعاظمت النفس؛ لأنه يرى أنه قد جاء بأعمال جليلة.

وكذلك تأمل قوله -تبارك وتعالى: وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ [سورة البقرة:١٢٧] لم يقل وإذ يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت، هما رفعاه، ولكنه أخر إسماعيل بعد ذكر رفع القواعد من البيت وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ [سورة البقرة:١٢٧] كأن ذلك والله -تبارك وتعالى- أعلم باعتبار أن الأصل في البناء هو إبراهيم وإسماعيل كان عونًا له، كان يُساعده ويُعينه في البناء، فهو تبع فذُكر إبراهيم اولا: باعتبار أنه الأصل، ثم أُخر إسماعيل باعتبار أنه تبع.

وتأمل قوله -تبارك وتعالى- في الخبر عن دعائهما هنا: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا [سورة البقرة:١٢٧] يعني: يا ربنا تقبل منا، فجاء بهذا الاسم الكريم" الرب" فهذا فيه من التلطف والاستعطاف كما يُقال:؛ لأن من معاني الرب القبول، من معاني الربوبية العطاء، والقبول، والمنع، والإحسان، والرزق، والإحياء، والإماتة والنفع والضر،

فالذي يرجو القبول ويرجو الثواب وما إلى ذلك فالعطاء والمنع كل ذلك داخل في معنى الربوبية، وكلمة الرب تدل على التربيب والتربية والإصلاح، وما إلى ذلك، هذا من المعاني الداخلة تحتها، فهذا الداعي يلتمس أن يُصلح ربه شأنه، وأن يلطف به، وأن يتقبل منه هذا العمل، فلا يذهب ولا يضيع.

وفيه أيضًا هنا تأكيد بـ" إن" وهو بمنزلة إعادة الجملة مرتين تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة البقرة:١٢٧] لقوة يقينهما بسمعه -تبارك وتعالى- أنه يسمع، وأنه يعلم الحال، ومن يتيقن أن ربه يسمع ويرى؛ فإنه يعمل بانشراح ونشاط، إذا كان الإنسان أمام مخلوق جاء الرئيس، العمال إذا حضر مُدير العمل، أو مُدير الشركة، أو نحو ذلك، صاروا يعملون بجد ونشاط وهمة، وقام النائم، وجد المُتقاعس أمام مخلوق.

إذا استشعر العبد أن الله يراه، وأنه يسمعه، يذهب عنه النوم إن كان في قيام ليل، ويذهب عنه التعب إن كان في صيام، وتذهب عنه الوساوس إذا أراد أن يتصدق، يأتيه الشيطان ويقول: كما يبقى في الحساب، إذا دفعت هذه المائة نقص منك كذا وكذا، فهذه من الشيطان، والله يقول: وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ [سورة البقرة:٢٦٥] النفس تتردد حال الصدقة، يحصل لها شيء من الاضطراب، فتحتاج إلى تثبيت، فهنا انظروا إلى ثقة هذين الإمامين بهذه الأوصاف لله فيدل ذلك على كمال العلم بالله كونك تسمع وترى تُشاهد الحال فألطافك لا غِنى بنا عنها.

وهذا أيضًا يدل على كمال الصدق والإخلاص، يعني: لو كان الإنسان يقوم في قلبه شيء آخر من الرياء والسمعة سيقول يا رب أنت سميع عليمتعالىلم الحال، وما في البال الذي في البال إذا كان رياء وسمعة مشكلة، فهذا يدل على ثقة هذين الإمامين بكمال الإخلاص إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة البقرة:١٢٧] أنت مطلع على أحوالنا، وعلى بواطننا وقلوبنا.

ولاحظ دخول" أنت" ضمير الفصل هنا، لم يقل إنك سميع عليم، أو قال: إنك السميع العليم، بل أدخل شيئين قال:إِنَّكَ أَنْتَ [سورة البقرة:١٢٧] فجاء بضمير الفصل لتقوية النسبة بين طرفي الكلام" أنت" ، ودخول أل على السميع العليم كأن ذلك يدل على الاختصاص، ويُشعر بالحصر، كأنه لا سميع ولا عليم سواك؛ لأن سمع وعلم كل شيء سوى الله -تبارك وتعالى- لا شيء بالنسبة لسمع الله وعلمه إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة البقرة:١٢٧]

وإذا كان هو السميع العليم فلابد من أن يكون عمل الإنسان في غاية الصدق والإخلاص والضبط والإتقان، تقول له أنت السميع العليم، ثم يطلع منك على شيء آخر، كأنك تُشهِده على نفسك بعمل سيء، وببواطن مدخولة، ونيات ومقاصد فاسدة، هذا لا يكون.

تَقَبَّلْ مِنَّا هذا إشعار يعني يُشعر بالاعتراف بالتقصير، فالعبد ضعيف مهما اجتهد، فإذا نظر إلى فضل الله عليه ونِعمه؛ فإنه يتوسل إلى الله بالقبول.

ولذلك -أيها الأحبة- نحن بعد الحج نستغفر، وبعد الصلاة نستغفر، وبعد قيام الليل من يقوم الليل وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ [سورة آل عمران:١٧] بعد القيام يستغفر، فإذا إذا كان الاستغفار بعد هذه الأعمال والعبادات العظيمة، فبعد المعاصي والذنوب من باب أولى.

ثم أيضًا هنا يريدون القبول فالله يسمع ويرى ويعلم، السميع العليم، وفيه إثبات السمع والعلم صفات لله وأسماء أيضًا، أيضًا من أسمائه السميع ومن أسمائه العليم، والسميع والعليم صيغتا مُبالغة، أي: عظيم السمع، يسمع دبيب النمل على الصفا، دبيب النمل يسمعه، يسمع كل شيء، فما يُسره الإنسان يعلمه الله -تبارك وتعالى- وما يكون من نجوى فالله يسمعها، السميع العليم، يعلم كل شيء، لا يخفى عليه خافية، فالطريق هو إصلاح الظواهر والبواطن، بحيث يستوي ظاهر الإنسان مع باطنه، يكون حاله في الخلوة والجلوة على حال سواء، هذا هو الطريق إلى النجاة، ولا طريق سواه.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨)

أنوار من دعاء إبراهيم مع ولده إسماعيل

نواصل الحديث -أيها الأحبة- فيما يُستخرج من الهدايات، مما ذكره الله -تبارك وتعالى- في هذه السورة الكريمة (سورة البقرة) في دعاء إبراهيم مع ولده إسماعيل عند بناء الكعبة المشرفة.

بعد أن سألا ربهما القبول رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة البقرة:١٢٧] قال:ا بعد ذلك: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [سورة البقرة:١٢٨].

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ [سورة البقرة:١٢٨] في كل الأحوال مع الثبات، ومع كل خطاب وتوجيه وأمر ونهي أن يكون العبد على حال من الاستسلام لربه ومالكه جل جلاله وتقدست أسماءه وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ [سورة البقرة:١٢٨]

واجعل من ذريتنا أمة منقادة مستسلمة لك بالإيمان، والعمل الصالح وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا [سورة البقرة:١٢٨] بصرنا بمعالم دينك الذي شرعته لنا، وبمعالم عبادتنا لك وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [سورة البقرة:١٢٨] تجاوز عنا، واقبل توبتنا، ووفقنا للتوبة قبل ذلك إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [سورة البقرة:١٢٨] كثير التوبة على العباد، وكثير القبول لتوبة التائبين، وإنابة المُنيبين، وكثير

معاني التواب

التوفيق إلى التوبة، فكل هذا من معاني كونه التواب، فهو يوفق إلى التوبة، وهو الذي يقبلها عن عباده، فيتوب عليهم.

ويُؤخذ من قوله -تبارك وتعالى: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ [سورة البقرة:١٢٨] فهناك قال:رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا وهنا: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ تكرار اسم الرب (ربنا) في هذا الدعاء، فهذا فيه مزيد من الضراعة لله والخضوع له،

و عامة دعاء الأنبياء -كما قال: الشاطبي رحمه الله وغيره كان بهذا الاسم الكريم (ربنا)؛ لأن من معاني الرب: القبول والعطاء والمنع والرزق والهداية، فكل هذه معاني الربوبية، ومن معاني الربوبية: التربية والتربيب والإصلاح، فهو المُصلح لأحوال خلقه وشؤونهم، فلا قِوام لهم، ولا صلاح، ولا فلاح، ولا نجح إلا بعونه وتوفيقه ومدده وألطافه النازلة المُتتابعة على عباده.

والتكرار أيضًا فيه معنى زائد، وفائدة مُضافة، وهي أن هذا الدعاء مُستقل عن الذي قبله رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [سورة البقرة:١٢٧] رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا [سورة البقرة:١٢٨] فكل دعوة من هذه الدعوات مقصودة بالذات.

وتأمّل قوله: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ [سورة البقرة:١٢٨] مسلمين لك، فهذا يُفيد الحصر، لك دون ما سواك، فاللام هذه تُفيد الاختصاص، وفيها معنى الحصر، وأن يكون الإسلام لله بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ [سورة البقرة:١١٢] فهذا هو التوحيد والإخلاص، فإبراهيم هو إمام الحُنفاء إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [سورة البقرة:١٣١] وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ وصى بها بنيه يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢].

فهذا من كمال توحيده وهذا يدل على أن قضية التوحيد هي أهم المُهمات، فهذا كبير الحنفاء، وإمام الحنفاء، والذي أمر الله نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو أفضل الأنبياء على الإطلاق أن يقتدي به، وأن يتبع ملة إبراهيم حنيفًا ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا [سورة النحل:١٢٣] فهذا النبي العظيم يقول: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ [سورة البقرة:١٢٨] لا لغيرك.

وهكذا ينبغي أن يكون أتباع هؤلاء الرسل الكِرام العِظام -عليهم الصلاة والسلام- أن يُسلم الإنسان وجهه لربه وخالقه وفاطره، دون التفات إلى أحد سواه، لا توجه وجهك، ولا يلتفت قلبك إلى مخلوق، فإنه لا يملك لك نفعًا ولا دفعًا ولا ضرًا،

فالذي يملك النفع والضر هو الله، والذي له الغِنى الكامل المُطلق هو الله، والذي بيده مقال:يد السماوات والأرض هو الله، فوجه وجهتك إليه سبحانه، ولا تلتفت إلى المخلوقين فهم فقراء مثلك، ليس بيدهم شيء لا دفع ولا نفع، ولا رفع، وإذا كانوا كذلك فما حاجة العبد للخلق، حينما يُعلق قلبه بهم، فيكون العبد بهذا مُستسلمًا لله في أوامره الدينية،

وهي الأحكام الشرعية: الحلال والحرام، إذا أمره ربه أو نهاه استسلم وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ [سورة الأحزاب:٣٦]

هذا لا يكون لأهل الإيمان إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إلى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا [سورة النور:٥١]

فلا يوجد غير هذا، فهذا هو حقيقة الإسلام والإيمان الكامل، وكذلك الاستسلام لأحكامه الكونية القدرية، وما يُجريه الله في هذا الكون، فإذا وقع المكروه والمُصيبة، ونحو ذلك فلا اعتراض، فكلمة (لماذا يا رب) فهذه غير واردة في قواميس أهل الإيمان والإسلام الصحيح، وإنما يقول: حمدًا لك يا رب، فالله -تبارك وتعالى- لا يقضي للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له.

ويُؤخذ أيضًا من هذه الآية: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ [سورة البقرة:١٢٨] شدة الافتقار إلى الله -تبارك وتعالى- بتكرار هذا الاسم الكريم (ربنا) لشدة الحاجة إلى ألطافه، و إلى الربوبية الخاصة، فأضاف (الرب) إلى ضمير المُتكلم (ربنا) فهذه ربوبية خاصة لأهل الإيمان، فهم بحاجة إلى مقتضياتها من الرعاية والحفظ والكلاءة والهداية والتوفيق، فكل هذا يكون لأهل العبودية الخاصة، وإلا فإنه إذا تخلى عن ذلك، فلا تسأل عن هلكته وضياعه وذهاب مصالحه، فيبقى في حال من التشتت والتشرذم، ويُحرم التوفيق، ولا تكون عاقبته إلى الفلاح بحال من الأحوال.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ [سورة البقرة:١٢٨] هما مسلمان، ولكن انظروا إلى فقر الأنبياء، وشدة الافتقار إلى الله تعالى إلى

 كثير من أهل العلم في هذا الموضع يقولون: المعنى: ثبتنا على الإسلام، وقد تكلمنا على قوله تعالى: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ [سورة الفاتحة:٦] وقول من قال:ثبتنا على الصراط المستقيم، وقلنا: المعنى أوسع من هذا، فكذلك هنا: رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ فالله -تبارك وتعالى- له في كل حال عبودية،

فكل حال من أحوال العبد تتصل بها عبودية في هذا المقام في السراء والضراء، فإذا تجددت النِعم، أو وقعت المكاره، أو دخل وقت العبادة، أو نحو ذلك، فهذه عبوديات يحتاج العبد إلى استسلام مع كل لون منها، فيكون مُنقادًا مُستجيبًا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ مع الثبات،

فإن هذا الإسلام لا يدوم للعبد إلا بتوفيق الله وتثبيته، مَن الذي يأمن على نفسه؟ فو الله إن أحدكم -أو: الرجل- يعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب يعني: القدر فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإنما الأعمال بالخواتيم ومن الذي يضمن خاتمته؟!

فيحتاج العبد أن يسأل ربه التوفيق والثبات على الهدى، فالقلوب بين أُصبعين من أصابع الرحمن يُقلبها كيف يشاء، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو من هو؟! أهدى الأمة، وأكملها إيمانًا، يقول في سجوده: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ولهذا جاء في الأثر: لقلب ابن آدم أسرع تقلبًا من القدر إذا استجمعت غليانًا

وجاء في بعض الآثار عن بعض السلف:" بأن القلب كالريشة في مهب الريح، تكفأها يمنة ويسرة" فالإنسان لا يملك قلبه؛ ولهذا قال: الله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ [سورة الأنفال:٢٤] فالحياة في الاستجابة، وقال:وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [سورة الأنفال:٢٤] يحول بينه وبين قلبه، فيريد أن يتوب، ولكن لا يستطيع، ويريد أن يؤمن ولا يستطيع، فإذا طرقت الهداية باب قلبه من أول مرة فينبغي عليه أن يُبادر؛ لئلا يُحرم ويُمنع، ويُحال بينه وبين هدى الله -تبارك وتعالى.

ويُؤخذ من هذه الآية أيضًا: وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا [سورة البقرة:١٢٨] الدعاء للذرية بالصلاح والهدى، فإن إبراهيم في دعاءه كما مضى، حينما قال: الله له: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قال: وَمِنْ ذُرِّيَّتِي [سورة البقرة:١٢٤]

وهنا: وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وأيضًا الذرية وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ [سورة البقرة:١٢٨] فالدعاء للاولاد من الذكور والإناث هذا مطلب، فصلاح هؤلاء الاولاد يعود عليك بالنفع في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالبِر، وهي جنة في هذه الدنيا إذا كان الولد صالحًا بارًا مُسارعًا في بر أبويه، وإذا شقي هذا الولد، وكان مُتمردًا على أبويه، أو شاردًا عن ربه -تبارك وتعالى- فلا شك أن هذا أعظم الألم والحسرة في نفوس الأبوين، يغذوانه ويُعلقان الآمال عليه بعد الله ﷻ ويرقُبانه، وكما قيل: يذرعانه ويشبُرانه منذ صِغره، متى ينبت ويكتمل ويكبُر؟

فإذا خابت آمالهما إن كان غير صالح، الخسارة في الأموال سهلة، لكن هذا الولد الذي يُجمع المال من أجله، وتوفر الأوقات والجهود من أجله، ثم بعد ذلك تكون النتيجة شرود وإعراض وعقوق وانحراف فهذا من أصعب الأشياء،

فإذا دعا الإنسان بالاولاد فلا يقول: يا رب ارزقني ذرية، وإنما هب لي من لدنك ذرية طيبة، فليست القضية بأن يُرزق الاولاد، وإنما ذرية طيبة، وهكذا في الدعاء الوارد في القرآن، وفي الآية التي سمعتم: هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ [سورة الفرقان:٧٤] وليس بشجن في حلوق الآباء والأمهات، هذه قضية لا يشعر بها الاولاد إلا إذا جربوا ورأوا ولقوا ما يلقون.

ويُؤخذ من هذه الآية من قوله: وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا [سورة البقرة:١٢٨] أن الأصل في العبادات أنها توقيفية، بمعنى: أنها موقوفة على نقل الشارع، يعني: لا يبتدع أحد من عنده عبادات ويخترع ويستحسن، لا، وإنما الأصل في العبادات المنع من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد

فلا يبتكر الإنسان برأيه، ويستحسن بنظره عبادات يتقرب إلى الله بها، والله لم يشرعها فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا [سورة الكهف:١١٠] فالعمل الصالح هو الصواب، الموافق للشرع وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [سورة الكهف:١١٠] أن يكون خالصًا، فهذه شروط قبول العمل: الإخلاص لله ﷻ والمُتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم وأن يكون صاحبه على التوحيد والإيمان، فهذه ثلاثة شروط، فهنا وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا [سورة البقرة:١٢٨] من أجل أن يُتعبد لله ﷻ بما شرع.

وهكذا أيضًا: وَتُبْ عَلَيْنَا [سورة البقرة:١٢٨] فالعبد لا بد أن يعتريه شيء من التقصير والضعف والفتور، ولا بد أن يقع شيء من الخلل في عمله، وربما الغفلة والإساءة، فيحتاج دائمًا

إلى التوبة وَتُبْ عَلَيْنَا وفقنا للتوبة، واقبلها منا، فإنه لا يتوب إلا من وفق، ومن الناس من لا يرفع بذلك رأسًا.

وكذلك أيضًا إذا كان هؤلاء الكبار إمام الحنفاء ويقول هذا الكلام في مقام عظيم، وهو بناء الكعبة، فيسأل ربه أن يتوب عليه، فهذا يدل على أهمية التوبة، وأنه لا يستغني عنها أحد، وأن العبد بحاجة إلى ذلك حتى حينما يعمل الأعمال الصالحة، يتوب مما قد يقع فيها من تقصير وخلل؛ ولهذا نستغفر بعد الصلاة ثلاثًا، فنسأله المغفرة، ويستغفر في الأسحار بعد قيام الليل لمن يقوم الليل، وكذلك بعد الحج، وأداء المناسك، فهذه عبادات عظيمة يُستغفر بعدها.

فالتوبة لا يستغني عنها، في أحد بعد إبراهيم وإسماعيل ومقام مثل هذا، ويقول: أنا لا أحتاج إلى التوبة! إذا كان هذا في بناء الكعبة، فماذا يقول فيمن هو دون ذلك؟ وماذا يقول الغافل والعاصي؟ ومن الناس من إذا قيل له: هداك الله غضب.

ومنهم من إذا قيل له: تب إلى الله، قال:أتوب من ماذا؟ هو يرى أنه كامل العبودية، وأنه لا يقع منه خلل ولا تقصير في عبادته وعمله ويقظته ونومه وأحواله كلها، ولا يقول هذا إلا من كان جاهلاً بربه وبنفسه وبصراط الله المستقيم الذي رسمه الله لعباده، وجاهلاً أيضًا بسير هؤلاء الأئمة والقدوات العِظام -عليهم الصلاة والسلام- فهذه التوبة تارة تكون من الكفر والشرك، وتارة تكون من الكبائر، وتارة تكون من الصغائر، وتكون من الغفلة والتفريط، واللغو، والفضول، وتارة تكون من الخلل الذي قد يقع والتقصير والفتور عند أداء العبادة، فكل هذا مما تكون التوبة منه، وقد يتوب العبد من ترك المستحبات، ويتوب من فعل المكروهات، ومن فعل المُشتبهات، فالتوبة تارة تكون واجبة، وتارة تكون مستحبة، وتارة تكون محرمة، فيما لو تاب من العمل الصالح أن لا يفعله، نسأل الله العافية، فهذا لا يكون.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

ما زال الحديث -أيها الأحبة- متصلاً بهذه الدعوات التي دعا بها خليل الرحمن إبراهيم لما بنى الكعبة.

فكان من دعائه : رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [سورة البقرة:١٢٩].

ولما دعا لنفسه وللذرية، قال:رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [سورة البقرة:١٢٧، ١٢٨].

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ [سورة البقرة:١٢٩] ابعث في هذه الأمة التي هي من ولد إسماعيل الذي وضعه إبراهيم مع أمه في مكة بوادٍ غير ذي زرع، عند بيت الله المحرم.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ [سورة البقرة:١٢٩] من ذرية إسماعيل يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ [سورة البقرة:١٢٩] القرآن والحكمة، وهي السنة، ويُطهرهم من الشرك، وسوء الأخلاق والرذائل إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الذي لا يمتنع عليه شيء الْحَكِيمُ الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

فيُؤخذ من هذه الآية -أيها الأحبة- الدعاء بهذا الاسم الكريم (ربنا) وما يدل عليه، وقد مضى التنبيه على ذلك، هذا الاسم الكريم (الرب) من معاني الربوبية التربيب والتربية، وإصلاح حال المربوبين، ومن معانيها: العطاء والنفع والدفع، وإجابة الدعوات، وإعطاء السائلين؛ ولذلك كان دعاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- في القرآن (ربنا) فهنا يقول: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [سورة البقرة:١٢٩].

فلاحظ هنا هذا الدعاء، وما خُتم به من هذين الاسمين الكريمين الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وإنما يُذكر مع الدعاء ما يُناسبه ويُلائمه من أسماء الله الحُسنى، فبعث الرسول من هذه الأمة التي يُعلمهم التنزيل، ويتلو عليهم الآيات، ويُعلمهم السنة التي تشرحها، ويُزكي نفوسهم بالإيمان، والعمل الصالح، والتخلي عن أضداد ذلك، مثل هذا يمكن أن يُقال: -والله أعلم- باعتبار أن كل ما

يـأتي بـه الرسـول -عليـه الصـلاة والسـلام- فهـو حكمـة إِنَّـكَ أَنْـتَ الْعَزِيـزُ الْحَكِـيمُ [سـورة البقرة:١٢٩] وكذلك من تمسك بهذا الذي بُعث بـه الرسـول فإنـه يكـون عزيـزًا، فـإن الله يُعـز بهـذا الدين والقرآن

أقوامًا، ويضع به آخرين، والله يقول: وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ [سـورة المنـافقون:٨] فمن تمسك بهذا الدين فهو عزيز.

وهذا التعقيب بهذين الاسمين الكريمين يمكن أن يوجه بأن اختيار الرسـول مـن هـذه الأمـة حيث يُزكيهم ويُعلمهم الكتاب والحكمة يتفـق مـع حكمتـه وتقدسـت أسـماؤه، حيـث إن الله -تبارك وتعالى- لا يترك خلقه هملاً، وإنما يبعث في كل أمة رسـولاً؛ ليُقـيم الحجـة علـيهم، ويحصـل بذلك هداية من شاء الله هدايته، ويظهر في ذلك من حكمته ما كان مُستترًا عن نظر الكثيرين.

وكذلك أيضًا فإن بعث رسول في هؤلاء، وما زالت تلك الناحية في حال من الإقفار ليس فيها أحد، سوى هذا المولود مـع أمـه، فمـن الـذي يُحييهـا؟ ومـن الـذي يُحـيى هـذه الأرض فـي هـذا الوادي القفر الذي لا زرع فيه، ولا ماء، ولا عِمران؟

ومن الذي يحوله إلى بلد يعج بقاطنيه، ومـن يفـدون عليـه؟ بلـد قفـر، فلـو أراد أعظـم أهـل الدنيا من أهل المُلك والمال أن يحول بلـدًا لا يوجـد فيهـا فـي نظـر النـاظرين شيء مـن مقومـات الحياة جبال ضيقة بوادٍ،

وكما تشهدون في الصور: أن الكعبة في موضع في غاية الغور، وليست على مكـان مرتفـع، ولا في مكان فسيح، وإنما في وادٍ لا زرع فيـه، وهـي جبـال سـوداء، فليسـت فـي بـراح مـن الأرض ومُنبسط، وليست في مروج وأنهار، وإنما بوادٍ غير ذي زرع، فلو أراد أعظم أهـل الـدنيا أن يُقـيم بلـدًا في تلك الناحية لأنفق الأموال الطائلة؛ ولما تحقق له مُراده، ولكن من الذي جعلها بهذه المثابـة يفد إليها الناس من أقطار الدنيا، ويتشوقون إلى ذلك، ويبذلون فيه النفائس والمُهج، فهـذا لا بـد فيه من عزيز يتحقق مراده، ولا مُمانع له.

ثم أيضًا يُؤخذ من هذه الآية: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ [سورة البقرة:١٢٩] أن الهم الذي كان يحمله إبراهيم وذلك مما يتصل بهداية الخلق والذرية رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ [سورة البقرة:١٢٩] فهذه دعوته لذريته، فلم يقتصر بالدعاء لنفسه، أو الدعاء لولده وزوجه، وإنما دعا لذرية هؤلاء.

وكذلك أيضًا انظروا إلى هذه الدعوة رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ [سورة البقرة:١٢٩] متى تحققت؟ هل تحققت بعد يوم أو بعد ثلاثة أيام، أو بعد أسبوع، أو بعد شهر، أو بعد ستة أشهر، أو بعد ست سنوات؟ بعد آلاف السنين، ببعث محمد صلى الله عليه وسلم فهو الرسول الوحيد من ولد إسماعيل؛ ولهذا قال: النبي صلى الله عليه وسلم: أنا دعوة إبراهيم حيث دعا بهذه الدعوة فتحققت، لكن بعد هذه المدة الطويلة، وهذا بالنسبة لله وقت قصير، فحساب الأيام والسنوات عند الله ليس كحسابنا وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّاتعالدُّونَ [سورة الحج:٤٧

فنحن نستطيل الأيام والليالي، وربما ييأس الإنسان ويقول: دعوتُ فلم يُستجب لي، والنبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن الداعي إذا دعا إما أن يُعجل له، وإما أن يُدخر في الآخرة، وإما أن يُصرف عنه من الشر مثل ذلك، إذًا لا مجال لقول قائل: دعوت فلم يستجب لي،

والله يقول: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ [سورة البقرة:١٨٦] فهو يُجيب دعوة الداعين، وهؤلاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- مستجابو الدعوة، فأجاب الله دعوته، لكن بعد كم من السنين، بل آلاف السنين، فكما بين إبراهيم ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه؟ مدة طويلة جدًا، فمثل هذا يبعث المؤمن على التفاؤل، ونبذ اليأس والقنوط، فإذا دعا الله -تبارك وتعالى- لنفسه أو لأمته، فإنه لا يقول: دعونا فلم يُستجب لنا.

فهذا حال الأمة، كلأ مُباح تُداس كرامتها من قِبل أرذل الخلق، من اليهود والباطنية، وأشباه هؤلاء الذين هم أرذل الناس، فمثل هذا وإن بقي سنوات، وعشرات السنوات، فهي مدة يسيرة، وإذا أردت أنتعالىرف أنها مدة يسيرة، فانظر إلى صفحات القرون والتاريخ الغابر، منذ بعث الله

محمدًا صلى الاه عليه وسلم وما وقع من الأحداث العِظام، كأنها أحلام، وهكذا ما يقع في مثل هذه الأوقات، ستطوى صفحاتها، ويُبدل الله من حال إلى حال.

أيضًا يُؤخذ من هذه الآية ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله: أنّ هذه الآية الوحيدة التي جمعت بين حفظ القرآن (حفظ الألفاظ) والفهم يعني: التلاوة والفهم، والعمل به يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ [سورة البقرة:١٢٩] لفظًا وحفظًا وتحفيظًا،

فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحفظها، فلم يكن يقرأ في كتاب سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَى [سورة الأعلى:٦] ويقرأ عليهم فيحفظون وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ [سورة البقرة:١٢٩] هذا المعنى،

وبيان المعاني والأحكام بسيرته العملية، وبقوله -عليه الصلاة والسلام- ويُزكيهم بالتربية بالأعمال الصالحة، والتنزه عن أضدادها من الرذائل

فصارت ثلاثة أشياء متدرجة: الحفظ، والتلاوة، والتحفيظ،

والثاني: البيان للمعاني، والفقه في الدين،

والثالث: التزكية والتربية العملية،

وبهذا يحصل الكمال، لا بد من هذه الأمور الثلاثة.

فالتلاوة وحدها لا تكفي، فلا بد من التعليم وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ فالفقه في الدين، وفهم معاني القرآن إنما يُتلقى ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمن أخذوا عنه، وليس لأحد أن يقول: نحن رجال، وهم رجال، ونُريد أن نُفسر القرآن بحسب مُعطيات عصرنا، وبحسب أعرافنا وأفهامنا، فلكل عصر رجاله، فهذا الكلام مُغالطة كبيرة، ولا يمكن أن يتوصل معها إلى هدى، وإنما هو الضلال المُبين، والخروج من رِبقة الدين، فهذه هي النتيجة، فلو أُطلق العنان لكل أحد أن يتكلم في معاني القرآن، بعيدًا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهم السلف الصالح، فلا تسأل عن ضلالة هؤلاء.

ويدل قوله: وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ [سورة البقرة:١٢٩] أنه لا بد من التعليم، فالتلاوة والحفظ وحدها لا تكفي، ويُؤخذ العلم عن أهله،

والأمر الثالث: لا بد من التربية، فليست القضية بمعلومات يجمعها الإنسان، وإنما يُقصد بذلك ما بعده من العمل، والامتثال، والتطبيق، والتزكية للنفوس، فهذا هو المطلوب وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ [سورة آل عمران:٧٩] فمن معاني الرباني: الفقيه الذي يُعلم الناس صغار العلم قبل كباره، والذي يُزكي نفوسهم، والذي يرجعون إليه فيما نابهم، ويسوسهم بما يحصل به تربية نفوسهم وأرواحهم، وما إلى ذلك، فلا بد من العمل والتزكية، وإلا فقد يجمع الإنسان العلم الكثير، ويكون وبالاً عليه.

ثم أيضًا تأمّل هذا الدعاء، فلم يقل: يعلمهم أمور الدنيا، وسُبل المكاسب والمعايش، وكيف يكسبون الأموال؟ وكيف يدخرونها ويتكثرون منها؟ وكيف تكون أجسامهم في حال من النشاط والتألق وغير ذلك؟ ولم يقل: يُعلمهم صنوف المطعومات والمشروبات، وما إلى ذلك، فمهمة الرسل وأتباعهم هي دلالة الناس على الله، والطريق الموصل إليه، لاتعالليم الطهي، ولاتعالليم سُبل الكسب المادي، ولا ما يتصل بهذه الأجساد، وكيف نُنميها؟ وكيف نجعلها في حالٍ من النظارة والجمال والتألق؟ فهذا ليس من مهمات الرسل وأتباعهم.

ولذلك من الخطأ أن يتحول الدعاة إلى الله إلى مُدربين، يتحدثون عن مثل هذه القضايا، كيف تُثمر الأموال؟ وكيف تُجامع؟ وكيف سُبل التغذية الصحية؟ وكيف تُحافظ على الرشاقة وغير ذلك مما قد يُقال: للمرأة أو الرجل، فليس هذا من أعمال الرسل، فالناس في غاية الحرص على

هذه القضايا، ولا يحتاجون إلى من يتحول إلى مُرشد لهم فيها، ويترك المهم الأعظم، وهو الدلالة على الله والدار الآخرة، وهذا يُبين لنا خطأ مَن يدعي بأن على الدعاة على الله أن يُعنوا بالعمارة المادية، وأن يوجه الاهتمام إلى هذه القضايا، فهذا ليس من مهمتهم، وكل ما جاء به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لا يدل على هذا، يتحول الناس إلى ماديين دنيويين، حتى العبادات يُقال: لهم: صلوا، وقوموا الليل من أجل أن يحصل لكم كذا، اقرأوا القرآن من أجل أن يحصل لكم كذا، يعني في الدنيا، صوموا من أجل أن يحصل لكم كذا، فيتحول الإنسان إلى عبد من أجل هذه الدنياتعالس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة لحديث.

فالفقه في الدين والفهم نور من الله -تبارك وتعالى- ويُقتبس من مشكاة النبوة، والحكمة فُسرت بالسنة، وكل هذه المعاني صحيحة، فالله أمر أزواج نبيه صلى الله عليه وسلم أن يذكرن ما يُتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة، فالكتاب هو القرآن، وما سوى ذلك مما كان يُتلى في بيت النبي صلى الله عليه وسلم هو السنة، فهذه هي الحكمة، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله والفلاسفة ومن وافقهم يسمون الفلسفة بالحكمة، والفلاسفة بالحكماء، فأين هذا من هذا؟! والفلاسفة في قضايا الإلهيات،

كما قال: شيخ الإسلام: هم أضل الناس لأنهم يتحدثون من منْطلق قاصر محجوب محدود، وهو هذا العقل، والعقل لا يُدرك إلا بعض ما يتصل بهذا العالم المادي، جزء يسير وإلا فهو لا يُدرك أشياء، مما يتصل بروحه التي بين جنبيه، فهذا أمر معلوم لا يخفى.

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)

يقول الله -تبارك وتعالى: وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [سورة البقرة:١٣٠].

لما ذكر الله -تبارك وتعالى- ما كان عليه إبراهيم من الحنيفية، قال: بعد ذلك: وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ [سورة البقرة:١٣٠] فهذا الذي يُعرض عن دين إبراهيم عليه السلام وهي ملته، يكون سفيهًا جاهلاً؛ لأنه لا يُحسن الاختيار والنظر والتمييز بين ما ينفع، وما يضر، فيُعرض عن ما ينفعه، ويُقبل على ما يضره إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا [سورة البقرة:١٣٠] اخترنا إبراهيم في الدنيا نبيًّا ورسولاً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [سورة البقرة:١٣٠] الذين لهم الدرجات العالية عند الله -تبارك وتعالى.

فيُؤخذ من هذه الآية: وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ [سورة البقرة:١٣٠] أنَّ من اختار دينًا غير دين الإسلام فهو سفيه؛ لأن هذه الآية صريحة في ذلك، والله يقول: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ [سورة آل عمران:١٩] ويقول: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا [سورة آل عمران:٦٧] فدين إبراهيم وملة إبراهيم هي الإسلام، فمن اختار غير الإسلام، فإنه يكون قد سفه نفسه، والسفيه هو الذي لا يُحسن التدبير والتصرف؛ لضعف رأيه وعقله، وليس هناك أعظم سفهًا من ذاك الذي ضيع سبب السعادة الدنيوية والأخروية، الذي قد اختار الطريق المُظلمة والمُهلكة التي تُؤدي به إلى الشقاء في الدنيا وفي الآخرة، اختار ذلك من أجل لذات مُتقضية، أو مصالح متوهمة، أو نحو ذلك مما يحمله عليه عمى البصيرة.

وإذا كان من يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه بهذه الصيغة، التي هي أقوى صيغ الحصر، وهي النفي والاستثناء، وهي التي جاءت بها كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بمعنى: أنه لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من كان سفيهًا، لا يمكن أن يُحمل ذلك على محمل آخر، أو أن يُوجّه، أو أن يُعتذر له بعذر، أو أن يكون لهذا الاختيار وجه يمكن أن يكون مُبررًا، مهما كانت أسبابه وأعذاره، فإن النتيجة أنّ هذا الاختيار (اختيار غير دين الإسلام) بُرهان على سفه صاحبه.

وإذا كان هذا في اختيار الملة والدين فكذلك أيضًا خروج العبد عن هذه الملة عن دين الإسلام والتزام أحكامه وشرائعه يكون لصاحبه من السفه بقدر ما يكون له من هذا الخروج عن شريعة الله -تبارك وتعالى- وقل مثل ذلك فيمن يُفضل الشرائع أو الديانات أو النُظم والقوانين

على شرع الله فهذا لا يصدر إلا عن سفيه لم يعرف حقيقة ما جاء به هؤلاء الرُسل العِظام -عليهم الصلاة والسلام- فهؤلاء سفهاء بنص القرآن إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ولو كان من أصحاب العقول في نظر الناس، ومن أهل الذكاء، فإن المرء قد يؤتى ذكاءً، ولكنه قد لا يؤتى الزكاء.

فالذكاء قد يكون نقمة على صاحبه، والعلم المادي قد يكون نقمة على صاحبه، والله -تبارك وتعالى- قد أخبرنا عن أولئك الذين فرحوا بما عندهم من العلم، حينما جاءت الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يدعونهم إلى الإيمان بالله -تبارك وتعالى- وطاعته، ففرحوا بما عندهم من العلم، فكان ذلك العلم صارفًا لهم عن الاستجابة، فالذكاء قد يكون شقاء يعود على صاحبه بالوبال، وكذلك العلم والمال، إلى غير ذلك مما يُعطاه الناس في هذه الحياة الدنيا، فإن لم يكن ذلك سائقًا وقائدًا له إلى مرضاة الله ومُسخرًا في طاعته، فإذا انطمست البصائر، فإنه لا ينفع

مع ذلك الذكاء والعقل والفطنة والنباهة والمعارف المتنوعة، والثقافة الواسعة، فكل ذلك يضمحل ويتلاشى، فرحوا بما عندهم من العلم.

إذًا: هؤلاء الذين لم يهتدوا بهذا الهدى الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الإسلام مهما كان عندهم من الاكتشافات والمخترعات، والصناعات، ومهما كان عندهم من التطور المادي والعمران، فإن هؤلاء يبقون في النهاية سفهاء، وينبغي أن يكون التعامل معهم، والنظر إليهم بهذا الاعتبار أنهم سفهاء بنص القرآن،

ومن هنا فإن المؤمن لا يمكن أن يغتر بهؤلاء، وما أوتوا، فإذا ذهب إلى بلادهم، ورأى مظاهر هذه الحضارة المادية، وهذه العلوم التجريبية التي توصلوا إليها، فإنه مُباشرة يتذكر هذه المعاني: أن هؤلاء ما عرفوا أهم المُهمات، وأعظم الأمور والأمر الذي وجدوا في هذه الحياة من أجله، وهو عبادة الله -تبارك وتعالى- وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [سورة الذاريات: ٥٦] الله وهو أعظم ما يُعلم، وهو أعرف المعارف، ما عرفوه، ولا رفعوا رأسًا بذلك، فما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو أوثق العلوم، وأحسنها وأنفعها، وهذه الهدايات كلها لم يهتدوا ولم ينتفعوا بها، فكانوا عادمين لذلك كله، فهؤلاء في النهاية سفهاء.

فليست القضية -أيها الأحبة- بحفظ يحفظه الإنسان، أو بمعلومات ربما يكون مكنزًا لها، ويكون وعاء من أوعية العلم، ولكن هذا إذا كان لا يعرف ربه، فإنه يكون في النهاية أجهل الجاهلين، وأسفه السفهاء؛ ولذلك للأسف تجد الكثيرين يتحدثون عن أقوام لا يعرفون الله بالكلية، ويعبدون الأوثان من بعض الأمم الشرقية، ويتحدثون عن نُظم في حياتهم، واكتشافات واستغلال للثروات والبقاع، ويتحدثون عن ما هم عليه من القوانين الصارمة، وحفظ الأوقات، والدقة في المواعيد، ويتحدثون عما عليه هؤلاء من نظافة الطُرق، وغير ذلك مما يُذكر ويُرسل هنا وهناك.

فالواقع أن هؤلاء يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا، ولكن الأهم هم غائبون عنه، وجاهلون به، فهم عن الآخرة معرضون وغافلون ومُضيعون، وما هو الخير الذي يُرجى من علوم لا تدل على الله -تبارك وتعالى؟!

وكيف يقع الإعجاب بأقوام ما عرفوا ربهم الذي خلقهم ويرزقهم ويغذوهم ويُنعم عليهم؟! ويتوجهون إلى حجر، أو يُنكرون وجود الإله بالكلية، فهؤلاء دون مرتبة البهائم؛ لأنهاتعالىرف ربها؛ ولذلك تجد مثل هؤلاء إذا تكلموا في الإلهيات هم أضل الناس.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كلامه على الفلاسفة، وأن هؤلاء من أذكياء العالم، ولكن في الوقت نفسه حينما أثنى على علومهم الرياضية والطب، التي هي من جملة فروع الفلسفة في القديم، قال:إنهم أضل الناس في الإلهيات يعني: هذه العقول والذكاء والإمكانات والطاقات العقلية الهائلة لم توصلهم إلى معرفة المعبود معرفة صحيحة، فإن الطريق إلى ذلك هو ما جاء به الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والعقل الذي لا يهدي إلى هذا، فإنه عقل فاسد، يكون وبالاً على صاحبه، ولذلك فإن أصحاب العقول الصحيحة هم الذين ينتفعون بها، فيعرفون الله ويعبدونه ويوحدونه؛

ولهذا نجد في خبر أيوب في القرآن لما ذكر قصته قال: في ختم ذلك: وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ [سورة الأنبياء:٨٤] وفي موضع آخر لما ذكر خبره قال:وَذِكْرَى لِأُوْلِي الأَلْبَابِ [سورة ص:٤٣]

وإذا جمعت بين هذا وهذا فيما يُعرف بدلالة الإشارة عند الأصوليين، وهي إشارة اللفظ لما لم يكن القصد له قد عُلم، ينتج عن ذلك أن أولي الألباب وأصحاب العقول الراجحات هم أهل العبودية، وأنه على قدر ما يكون للعبد من تحقيق العبودية فإن ذلك يدل على كمال عقله.

ولهذا استنبط الفقهاء -رحمهم الله- من مجموع الآيتين: أنه لو أوصى أحد لأعقل أهل البلد، فإن ذلك يُصرف لأعبد أهل البلد، وأكثر أهل البلد تحقيقًا للعبودية لله فهؤلاء الكفار الشاردون عن ربهم -تبارك وتعالى- مهما كانت نُظمهم وأوضاعهم الاقتصادية والعسكرية، ومهما كانت أحوالهم المادية، ومهما كانت مُكتشفاتهم، فإنهم سفهاء لا يُميزون بين ما ينفعهم وما يضرهم وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ [سورة البقرة:١٣٠] فهؤلاء قد رغبوا عنها، وسخروا بها، وكذبوا بذلك كله، فهم السفهاء، وإن لم يكن هؤلاء السفهاء فمن هم السفهاء؛ ولذلك انظروا إلى هذا التنصيص الصريح في قوله -تبارك وتعالى- عن اليهود وهم أهل كتاب، وهم أعلم أهل الكتاب سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا [سورة البقرة:١٤٢] فهؤلاء السفهاء المعني بهم اليهود، فهم سفهاء بنص كتاب الله -تبارك وتعالى.

وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [سورة البقرة:١٣٠] وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ اللام هذه تدل على التأكيد، وكذلك (إن) في وَإِنَّهُ [سورة البقرة:١٣٠] تفيد التوكيد، وهي بمنزلة إعادة الجملة مرتين وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [سورة البقرة:١٣٠] فدخلت اللام هنا أيضًا لإفادة التوكيد، فهذا كله توكيد لهذا الخبر، واهتمام أيضًا به، وبما تضمنه؛ ولأن الإخبار عن حالة مُغيبة في الآخرة وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ [سورة البقرة:١٣٠]

فجاء بما يؤكد الجملة الثانية وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ثم الجملة الثانية التي تتعلق بالآخرة وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [سورة البقرة:١٣٠] فجاءت المؤكدات في الجملة الثانية أقوى من المؤكدات في الجملة الأولى، في الجملة الأولى دخول اللام وَلَقَدِ والجملة الثانية لأنها تتعلق بالآخرة جاء بمؤكدين لذلك، فهو يتحدث عن أمر غائب في الآخرة، فيحتاج إلى مزيد من التوكيد، بخلاف حال الاصطفاء، فإنها متوارثة معلومة، يتوارثها الأجيال، ويعلمونها، وليست تخفى.

ومعلوم أن الطوائف تنازعت إبراهيم عليه السلام فاليهود يدعون أنه منهم، والنصارى يدعون أنه منهم، والمسلمون يقولون: إنهم ينتسبون إليه أيضًا، فالله -تبارك وتعالى- فَصَلَ بين هذه الطوائف فقال:مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا [سورة آل عمران:٦٧] وكذلك في قوله -تبارك وتعالى: إِذْ قَالَ: لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [سورة البقرة:١٣١] سبب هذا الاختيار والاصطفاء هو مُسارعته بالاستجابة لأمر الله -تبارك وتعالى- دون تردد إِذْ قَالَ: لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [سورة البقرة:١٣١] أخلص نفسك منقادًا لله واستسلم بقلبك ولسانك وجوارحك، فكان منه الاستجابة أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [سورة البقرة:١٣١]

إخلاصًا وتوحيدًا ومحبة وإنابة.

تأمّل قوله -تبارك وتعالى: إِذْ قَالَ: لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [سورة البقرة:١٣١] هذا فيه التفات، وقلنا: الالتفات يعني التحول في الخطاب من غائب إلى مخاطب، أو العكس، أو من المفرد إلى الجمع، أو التثنية، أو العكس،

فهنا الله -تبارك وتعالى- يقول: وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ [سورة البقرة:١٣٠] هذا للمُتكلم المُعظم نفسه، يعني: نحن فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [سورة البقرة:١٣٠] ثم جاء بالغائب إِذْ قَالَ: لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ [سورة البقرة:١٣١] ولم يقل: إذ قلنا له أسلم، وإنما قال:اصْطَفَيْنَاهُ ثم قال:إِذْ قَالَ: لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [سورة البقرة:١٣١] فالتفت من التكلم إلى الغيبة، وأضاف إبراهيم إلى الرب إِذْ قَالَ: لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ [سورة البقرة:١٣١] فهذا كله يدل على تشريف إبراهيم وعناية ربه -تبارك وتعالى- بتربيته وتكميله.

وتأمّل أيضًا قوله -تبارك وتعالى- عن قِيل إبراهيم : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [سورة البقرة:١٣١] فهذا في غاية المناسبة، مع ما أُمر به (أسلم) قال:(أسلمت) وذكر الربوبية هنا لرب العالمين، كأنه تعالليل، فإن الرب هو الخالق الرازق المحيى المميت الذي أوجده، فينبغي أن يكون الإسلام له دون ما سواه، أن يُسلم لمن أوجده وخلقه وزرقه وأعطاه، فهذا الذي ينبغي أن تُسلم له القلوب والوجوه والجوارح، ولا تُسلم لغيره.

إِذْ قال: لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قال: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

لما ذكر الله -تبارك وتعالى- إبراهيم خليل الرحمن، وذكر ملته، وقال:وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ إِذْ قال: لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قال: أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [سورة البقرة:١٣٠، ١٣١] فكان من إبراهيم سرعة الاستجابة لربه وفاطره -جل جلاله وتقدست أسماؤه، وكان إسلامه ووجهه لرب العالمين، يعني: أنه كان على الإسلام، كما قال: الله -تبارك وتعالى-: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا [سورة آل عمران:٦٧].

ثم قال: الله تعالى: وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢] حثَّ إبراهيم ويعقوب -عليهما السلام- أبناءهما على الامتثال والثبات على الإسلام قائلين: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ [سورة البقرة:١٣٢] اختار لكم هذا الدين دين الإسلام، وهو الذي كان عليه جميع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢] لا تفارقوا هذا الدين، ولا تتخلوا عنه بأي حال من الأحوال إلى الممات.

ويُؤخذ من هذه الآية: وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ [سورة البقرة:١٣٢] توصية إبراهيم ويعقوب -عليهما السلام- أبناءهما بلزوم الدين الذي اصطفاه الله لعباده، هذا أعظم ما يوصى به؛ ولذلك نجد في وصايا السلف وفي وصايا العلماء من بعدهم حينما يكتبون الوصايا فإنهم يوصون أبناءهم بأن يثبتوا على الإسلام، وأن يتمسكوا بشرائعه وأن يلزموا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم

فكل ذلك مما يُقدم في الوصية؛ وذلك أنه أهم المُهمات، وأعظم المطالب قبل أن يُذكر ما يحتاج إلى الوصية به من أمور مالية دنيوية، وغير ذلك، ونجد في مثل هذه الآية التي تضمنت هذه الوصية جملة من المؤكدات التي تدل على شدة أهمية هذا المضمون الذي تضمنته هذه الوصية.

فعُبر بالماضي وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ [سورة البقرة:١٣٢] وذلك لأنه أمر مُتحقق، أو قد تحقق وقوعه، وكذلك أيضًا لفظ الوصية يدل على أمر مؤكد يُحث على فعله، أو نهي يُحث على اجتنابه، ونحو ذلك ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ [سورة الأنعام:١٥١]

فهذه الوصايا تدل على أن ما تضمنته أمر مؤكد يحث عليه الموصي؛ ولذلك يُعبر بها في كلام الناس، وكذلك تخصيص الأبناء بهذا وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ [سورة البقرة:١٣٢] لأن هذا هو أهم المطالب،

فأولى ما توجه العناية إليه هو هذه القضايا: الإيمان والتوحيد، وإذا كان الإنسان مؤمن بأهمية هذه الأمور والقضايا فينبغي أن يكون أول من يوجه ذلك إليه هم أقرب الناس إليه،

ومن الخطأ أن يولي الإنسان اهتمامه وبذله ونُصحه للأبعدين، ويكون أقرب الناس إليه لا ينتفعون به، بسبب تقصيره، وإعراضه عنهم، وانشغاله بغيرهم، فهذا خطأ، قد يزهد فيه أقرب الناس إليه، وهذا أمر لا يُنكر، فإن أزهد الناس بالعالم هم أهله وجيرانه، وهذا على مر الدهور، ولكن عليه أن يبذل جهده؛ ولذلك في الغالب للأسف وليس دائمًا أنك تجد أقل الناس انتبالعالم هم أقرب الناس إليه، لكن هذا أيضًا لا يُعفيه من بذل النصيحة والجهد، فهؤلاء الأنبياء الكبار -عليهم الصلاة والسلام- يوصون أبناءهم بمثل هذا.

وكذلك أيضًا لاحظ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ [سورة البقرة:١٣٢] يعني: وصّى يعقوب بنيه، فبنيه أُضيف إلى المعرفة (الهاء) وذلك يُفيد العموم، يعني: جميع الأبناء، لم يوص بعضهم، ولم يوص الأقرب منهم مثلاً، أو الأقرب إليه، أو الأصلح في نظره، وإنما عمّم هذه الوصية.

ويُؤخذ من وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ [سورة البقرة:١٣٢] أنها وصية مطلقة غير مُقيدة بوقت من الأوقات، أو بحال من الأحوال، أو بموضع من المواضع، لزوم الدين في السراء والضراء، ولزوم شرائع الإسلام في السفر والحضر، وفي أوقات الغربة، وظهور أعلام النبوة

وأنوارها، فهذا يكون في كل شأن، وحيث كان ذلك يوافق ما في نفس الإنسان، أو كان مما يثقل عليه، فهذا لا بد من لزومه واتباع ما شرعه الله -تبارك وتعالى- لعباده.

وفي قوله: فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢] النهي عن الموت على غير الإسلام، فهذا يدل على شدة أهمية هذا الأمر الذي ينبغي أن تُختم به حياة الإنسان، كما يعيش عليه المرء.

فيُؤخذ من هذه الآية أيضًا اللطف والرفق بمن يُخاطبهم الإنسان من اولاده، ومن يوصيهم وينصحهم، أو من يعظهم أو يذكرهم بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ [سورة البقرة:١٣٢] خاطبهم بهذه اللفظة التي تجذب أرواحهم، وتسترعي انتباههم يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢] وإبراهيم حينما خاطب أباه كان يقول: يا أبت، وبأرق العبارات يخاطبه، ومن الناس من إذا خاطب ولده فإنه ربما يُخاطبه بعبارات جارحة وقاسية، وربما نصحه ويصفه ويُسميه في هذه النصيحة، ويقول له: اسمع يا كذا، واسمع يا كذا، مما يُنفره من هذه النصيحة، ويُنفره من الناصح، ويُكره إليه ذلك كله، فلا تحصل الاستجابة، وإنما يقول: يا بُني، كما جاء في وصية لقمان -رحمه الله- لابنه وهو يعظه، فكان يُكرر عليه هذه العبارة، يا بُني، يا بُني، وإذا كانوا جمعًا يقول يا بني، أو يا أبنائي، فالناس يحتاجون إلى شيء من هذا اللطف؛ لأن المقصود هو الاستجابة، فإذا كان ذلك هو المطلوب فينبغي أن يُسلك له أقرب طريق يوصل إليه، أما أن يُنشق الإنسان الخردل، ويُصك بالجندل، ثم بعد ذلك يُقال: له: استجب، فهذا لا يكون.

فقد يكون من الناس من يحتاج إلى شيء من التعنيف أو القسوة إذا اقتضى المقام ذلك، ولكن هذا خلاف الأصل، فالأصل في النصيحة أن تكون بالحُسنى، وأن تكون الدعوة بالحُسنى فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا [سورة طه: ٤٤]

فليس بعد هذا شيء، ففرعون أعتى الخلق، ويُطالب موسى وهارون -عليهما السلام- بمخاطبته باللين والرفق، فلا داعي لاستعمال العبارات الموحشة في المخاطبات الدعوية، وفي النُصح والتعليم، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك، سواء كان ذلك مقولاً يُشافه به المنصوح، أو كان ذلك مكتوبًا، يبعثه إليه، أو ينشره على الملأ، فاستخدام العبارات اللطيفة أدعى إلى القبول،

وانظروا إلى كلام أهل العلم كشيخ الإسلام وغيره، يُقدم بين يدي نصائحه لقوم من الصوفية التصوف الشركي القبوري، ويُقدم بين يدي هذه النصائح كلامًا يُثني على هذا المنصوح بأشياء هي فيه: من الزهد، وما جعل الله له من القبول بين أتباعه، وما إلى ذلك من كلام يستميله به، فمثل هذا ينبغي أن يضع الإنسان الهدف أمامه ماذا يريد أن يصل إليه في مخاطباته ودعوته وكلامه وظهوره الإعلامي بقناة، أو غير ذلك، يرد أو يُناقش أو يحاور أو يخاطب الجمهور أو غير ذلك، فيحتاج أنه يُحدد المراد والهدف، فيكون هذا الخطاب بناء على ذلك.

والناس يُكثرون من الكلام في هذه السنوات من الخطاب الدعوي، وتغيير الخطاب، وما أشبه ذلك، وهذا كلام فيه إجمال، وقد يقصد به بعضهم أمورًا غير صحيحة، لكن ما دل عليه القرآن، وما دلت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا شك أنه مطلوب.

ويُؤخذ أيضًا من هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢] اصطفى لكم الدين، واختاره لكم من بين سائر الأديان، ودخول اللام هنا تدل على أن ذلك مصلحة لهؤلاء العبادة، وأنه نعمة قد أصبغها الله -تبارك وتعالى- عليهم، فهو لهم وليس عليهم، فهو ليس بعبء وتكليف ثقيل يُرهق كواهلهم، وإنما هو شيء يتشرفون به، فيكون جِلية يحصل به كمال الإنسانية، ويحصل به كمال المروءات، وتقوم به ضروراتهم، وتتحقق مصالحهم الكُبرى، وكذلك ما يتبعها من الحاجيات والتحسينيات، فتتحقق مصالح الدنيا والدين، وتكون حياتهم على استقامة، وعلى حال من الكمال والتمام، مما يليق بهذا المخلوق الذي خلقه الله في أحسن تقويم.

وتأمّل قوله -تبارك وتعالى-: فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢] فلاحظ هل يملك الإنسان خاتمته؟ ونحن نسمع في بعض العبارات وبعض التغريدات، وربما يتداولها بعض الناس ويُعجبون بها، يقول: أنت الذي تستطيع تحديد خاتمتك، هذا الكلام غير صحيح، فالإنسان لا

يملك خاتمته، ولا يستطيع أن يُحدد، فو الله إن أحدكم - أو: الرجل - يعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب يعني: القدر فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها

فالإنسان لا يستطيع أن يُحدد الخاتمة، ويسأل ربه دائمًا أن يختم له بخير، وأن يُحسن خاتمته وعاقبته، ونحو ذلك، لكن يموت الإنسان عادة على ما عاش عليه، فيكون ذلك من باب بذل الأسباب، أن يجتهد الإنسان في أن يستقيم على أمر الله وطاعته، فيكون ذلك سببًا لحُسن خاتمته،

فالنهي هنا توجه فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢] إلى أمر لا يملكه المُكلف، وخطاب الشارع إذا توجه إلى المُكلف في أمر لا يدخل تحت طوقه وطاقته، والله لا يُكلف نفسًا إلا وسعها، فإنه يتجه -هذه القاعدة- إما إلى سببه، أو إلى أثره

ففي هذا المثال: فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢] يتجه الخطاب إلى السبب، بأن يلزم الإسلام في حياته، ويستقيم على شرع الله فيكون ذلك سببًا لحُسن خاتمته، أما توجهه إلى أثره، فكما قال: الله في سورة النور: وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ [سورة النور:٢] إقامة الحد في شرعه، وذلك في إقامة الحد على الزُناة الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ [سورة النور:٢] فهنا الرأفة تتسلل إلى القلب من غير إرادة، فالرأفة أرق الرحمة، فقد يرحم هذا المحدود والمجلود الذي أوقف أمام الخلق يتفرجون إليه في السوق، أو بعد صلاة الجمعة، فهل يُؤاخذ الإنسان بهذا؟

الجواب: لا؛ لأن ذلك لا يملكه، فيتوجه الخطاب هنا إلى الأثر، ألا يُلغى الحد، ولا يُقلل العدد، ولا يُخفف يعني في الصفة، فيُضرب ضربًا خفيفًا، تحلة القسم، يقولون: مسكين هذا ضعيف، هذا يكفيه هذا، انظروا إلى جزعه وحُزنه وخوفه واضطرابه، يُقال:ل

ا وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ فتوجه الخطاب هنا إلى الأثر، لكن هذه الرحمة التي تقع في القلب لا يُؤاخذ الإنسان عليها.

فهنا نهي عن الموت على غير دين الإسلام، وأيضًا التوكيد لمعنى النهي بنون التوكيد المُشددة فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢] فيحتاج الإنسان دائمًا إلى لزوم أمر الله وطاعته، مع كثرة الاستغفار والتوبة؛ لأنه يبدر منه، ويقع التقصير دائمًا والمعصية والخلل، ويُجدد التوبة، فيكون ذلك محوًا لخطاياه وسيئاته وتقصيره، فإذا كان عند الوفاة يكون خفيف الحمل، والظهر، فيُرجى له أن يموت على خير، وأن يموت على الإسلام.

من مات على خير -أيها الأحبة- على السنة غير مفتون، فذلك الذي يُغبط، لا سيما في أوقات الفتن، مثل هذه الأوقات، لكن كما ترون الفتن خطافة: فتن الشهوات، والشبهات، والأعمال بالخواتيم فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٢].

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قال: لِبَنِيهِ مَاتعالبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قال:وا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)

ما زال الحديث يتصل بهذه الآيات التي تتحدث عن إبراهيم وعن ملته الحنيفية، فالله -تبارك وتعالى- يقول بعد أن ذكر وصية إبراهيم ويعقوب -عليهما السلام- لأبنائهما بلزوم دين الإسلام، والموت عليه قال: الله تعالى إلى: أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قال: لِبَنِيهِ مَاتعالبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قال:وا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٣].

أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ أكنتم حاضرين حين جاء الموت يعقوب فجمع بنيه، وسألهم: ماتعالبدون من بعد موتي، قالوا: نعبد إلهك وإله آبائك، وذكروا هؤلاء الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهًا واحدًا، ونحن له مسلمون، ومنقادون وخاضعون.

فهذه الآية -أيها الأحبة- يُؤخذ منها أهمية التوحيد والإيمان، وأنه أعظم المطالب، فهذا يعقوب في حال النزع والاحتضار إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ففي هذه الحالة حينما يتحدث المُحتضر، ويوصي ويجمع بنيه، وقد ترك الدنيا وراء ظهره، وفارق اللذات، وبقي في حال لا يصلح معها إلا الصدق الكامل، فهنا يوصي يعقوب في هذه اللحظات الحاسمة بنيه بهذا الأصل الكبير مَاتعالبُدُونَ مِنْ بَعْدِي لا يوصيهم بالتجارة الفلانية، والأموال فثمروها، والزروع فنموها وتعاهدوها، والضروع والدواب والمواشي والإبل فارعوها، إنما يقول لهم: مَاتعالبُدُونَ مِنْ

بَعْدِي رباهم على هذا مدة الحياة، وعند الموت يريد أن يطمئن ليُفارق الدنيا وهو على حال من الاطمئنان،

وأن هؤلاء الأبناء قد لزموا هذا الدين والحق، وأنهم لا يفارقونه من بعده، فلا يبدلون ولا يُغيرون، فقضية الإيمان والتوحيد هي الأصل الكبير الذي تُبنى عليه السعادة في الدنيا والآخرة، وكل شيء يذهب، فالأموال تذهب وتجيء، وقد يُخفق الإنسان في دراسة، أو في عمل، وقد يمرض مرضًا عُضالاً، ولكن المُهم أن يسلم له دينه وإيمانه، وكل شيء بعد هذا فهو يسير وسهل، فالحياة قصيرة، ومتاعها قليل، وذهاب ذلك لا شيء، لكن إذا ذهب الدين، وحصل الانتكاسة والانحراف، فهنا يحصل الضياع والبؤس في الدنيا والآخرة.

مَاتعالبُدُونَ مِنْ بَعْدِي فهذا هو الشغل الشاغل لهؤلاء الأنبياء الكِبار -عليهم الصلاة والسلام- وهذا يدلنا على المهمات التي ينبغي أن نُربي اولا:دنا عليها، وأن نغرسها في نفوسهم، وأن نتعاهدها حينًا بعد حين إلى أن نُفارق الحياة، وليست القضية أن يتوظف الولد، أو يتخرج، أو أن نُمنيه ونُرجيه بالرُتب والأموال، ثم ماذا إذا كان مُضيعًا لهذا الإيمان والأصل الكبير؟ فلا ينفعه منصبه ولا ماله إذا كان قد ضيع أهم المهمات، وأعظم المطالب.

ثم لاحظوا هذا النفس في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- فهؤلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- والأنبياء قضوا حياتهم في الدعوة إلى الله قضوا أعمارًا مديدة بلا كلل ولا ملل ولا توقف ولا يأس، فنوح بقي يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، والله أعلم كم بقي بعد الطوفان، مدة طويلة في الدعوة،

وهذا يعقـوب إلى لحظـات الاحتضـار، وهـو فـي حـال مـن مُلاحقـة هـذا الهـم، ومُتابعـة الـدعوة، وتعاهـد الأبنـاء، والغـرس الـذي غرسـه، فالـدعوة لا تتوقـف، وهـي مـن أفضـل وأجـل الأعمال التي يعملها الإنسان، وتبقى آثارها بعد موته،

فإن الله -تبارك وتعالى- إذا هدى به أحدًا من الناس، فيكون له مثل أجور من تبعـه إلى يـوم القيامة، وأولى من يُقدم له ذلك ويُبذل هم هؤلاء الاولا:د؛ ولذلك لا تحقرن من المعروف شيئًا

فتعليم الولد الفاتحة يقرأها في كل ركعة يكون لك أجرها ما قُرأت مـن علـم آيـة مـن كتـاب الله فله أجرها ما ثُليت والأم حينماتعالىلم صغيرها أو صغيرتها والأب حينما يقضي وقتًا معـه في ذلك،

وله فيه نية صالحة، فهذا يبقى معه، وهذه الأذكار التي يُرددها كل يوم صباح مساء؛ لـيكن لك الظفر بأن تكون أنت المُعلم الأول له فيما يُردده في يومه وليلته، فيأتيك من الأجر والثواب ولا تزهد في هذا، وتكله إلى غيرك، فهذا يعقوب إلى آخر اللحظات وهو يدعو ويُبلغ.

ويُؤخذ من هذه الآية: إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ مشروعية الوصية عند حضور الأجـل، لكـن عـلى أن يكون ذلك في حال يكون فيها المُحتضر يعي ما يقول، يعني: لم يذهب عقله أو يختلط، إن كان عنده ما يوصي به، فيجب عليه أن يكتب وصيته، وإن لم يكن عنده ما يوصي به، فلا يجب عليه ذلك، لكن يمكن أن يوصي اولا:ده بلزوم الإيمان، وطاعة الرحمن.

وأيضًا لاحظوا مَاتعالىبْـدُونَ مِـنْ بَعْـدِي قـال:وا نَعْبُـدُ إِلَهَـكَ وَإِلَـهَ آبَائِـكَ إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إبراهيم من آبائـه، وإسـحاق مـن آبائـه، أمـا إسـماعيل فهـو عمـه، فهـو يعقـوب بـن إسحاق بن إبراهيم، وإسماعيل هو أخ لإسحاق، فإبراهيم له إسماعيل وإسحاق،

ويعقوب هو ابن إسحاق، ولكنه عده في جملة آبائه قال:وا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ العم وَإِسْحَاقَ فذكره في جملة الآباء، فدل على أن العم يُقال: له: أب، فإذا قال: الرجل لعمه: يا أبتي؛ وذلك أن عم الرجل صنو أبيه، كما أن الخالة بمنزلة الأم.

وكذلك أيضًا في قولهم في هذا الجواب: قال:وا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِـكَ إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ [سورة البقرة:١٣٣] ذكروا أسماء هؤلاء الآباء على الترتيب، فإبراهيم هو الجد،

وإسماعيل هو الابن الأكبر لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ثم بعد ذلك إسحاق، وبينهما ثلاثة عشرة سنة، فجاء بهذا الترتيب، وفي القرآن من هذا كثير، ويوجد أيضًا على خلاف ذلك بحسب السياق والغرض البلاغي.

ويلاحظ هنا قال:وا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ [سورة البقرة:١٣٣]... إلى آخره، فلم يقولوا: نعبد إلهك وإله آبائك؛ لأن من آباء يعقوب من لم يكن على دين الإسلام وَإِذْ قال: إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً [سورة الأنعام:٧٤] فآزر هو أبو لإبراهيم وكان يعبد الأصنام،

فهنا احترسوا فقالوا: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ [سورة البقرة:١٣٣] فما أطلقوا، وإنما حددوا هؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام: إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق.

ويُؤخذ أيضًا من هذه الجملة: قال:وا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ [سورة البقرة:١٣٣] أنهم عددوا هؤلاء بأسمائهم، يعني: لو أنهم قالوا: نعبد الله لفُهم المراد،

ولكنتعالىداد ذكر هؤلاء الأنبياء بأسمائهم فيه مزيد من التأكيد والإيضاح والبيان، ففي هذا ذكر هؤلاء الآباء الكبار الذين قد بلغوا في الشرف غاية، فيقولون: نحن على سننهم، ونحن بهم مقتدون، وعلى هداهم سائرون، لا نُبدل ولا نُغير، فلنا بهم الأسوة الكاملة، فهذا الإله الذي نعبده، حينما سألتنا ماتعالىبدون من بعدي، لم يقولوا: نعبد الله، ثم بعد ذلك يحصل لهم تردد، أو نحو ذلك، لا، نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ هذا أمر لا يتحول ولا يتبدل ولا يتغير، فقد كان عليه هؤلاء الآباء الكرام، وقد تلقوا عنهم هذا التوحيد والإيمان، وورثوه وفهموه وعلموه وتيقنوه، فالقضية لم تكن طارئة بالنسبة إليهم، وإنما هو دين وتوحيد راسخ، وملة ثابتة؛ وذلك ما كان عليه آبائهم من قبل.

ويُؤخذ أيضًا من قوله -تبارك وتعالى: وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٣] أنه عبّر بالجملة الاسمية التي تدل على الثبات، وهنا عبروا بالفعل نَعْبُدُ إِلَهَكَ والعبادة مُتجددة؛ لكنهم عبروا في ختم الآية بما يدل على الثبوت واللزوم بالجملة الاسمية: وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [سورة البقرة:١٣٣].

ثم يُلاحظ أيضًا التوكيد هنا في تقديم الجار والمجرور، ولم يقل ونحن مسلمون له، وإنما قال:وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فهذا يفيد الحصر والقصر أنهم يوحدونه -تبارك وتعالى- ولا يعبدون غيره، ولا يلتفتون إلى شيء سواه، فهذا فيه زيادة توكيد تقديم الجار والمجرور وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

قال تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.. [البقرة: ١٣٤].وقوله تعالى: (خلت) أي انفردت.

وخلا فلان بفلان أي انفرد به.. وخلا المكان من نزيله أي أصبح المكان منفردا، والنزيل منفردا

ولا علاقة لأحدهما بالآخر.. الله تبارك وتعاليقول: {وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شَيَاطِينِهِمْ قال:وا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}.. [البقرة: ١٤].أي إنفردوا هم وشياطينهم ولم يعد في المكان غيرهم؛ ولقد قلنا إن كل حدث لابد أن يكون له محدث، ولا حدث يوجد بذاته، وكل حدث يحتاج إلى زمان ويحتاج إلى مكان.. فإذا قال: الحق تبارك وتعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} فمعناه إنه انقضى زمانها وانفرد عن زمانكم. والمقصود بقوله تعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ} أي انتهى زمانها.. وتلك اسم إشارة لمؤنث مخاطب وأمة هي المشار إليه، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولعامة المسلمين..

والله سبحانه وتعالىحين يقول: {تِلْكَ أُمَّةٌ} فكأنها مميزة بوحدة عقيدتها ووحدة إيمانها حتى أصبحت شيئا واحدا.. ولذلك لابد أن يخاطبها بالوحدة.. واقرأ قوله تعالى: {إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فاعبدون}.. [الأنبياء: ٩٢].

وتلك هنا إشارة لأمة إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب.. هم جماعة كثيرة لهم عقيدة واحدة.وقوله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ}.. أي تلك جماعة على دين واحد تحاسب عما فعلته كما ستحاسبون أنتم على ما فعلتم..

ولكن الله سبحانه وتعاليقول: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}.. [النحل: ١٢٠].وإبراهيم فرد وليس جماعة؟ نقول نعم إن إبراهيم فرد ولكن اجتمعت فيه من خصال الخير ومواهب الكمال ما لا يجتمع إلا في أمة.

وقوله تعالى: {قَدْ خَلَتْ} يراد بها إفهام اليهود ألا ينسبوا أنفسهم إلى إبراهيم نسبا كاذبا لأن نسب الأنبياء ليس نسباً دمويا أو جنسيا أو انتماء.. وإنما نسب منهج واتباع.. فكأن الحق يقول لليهود لن ينفعكم أن تكونوا من سلالة إبراهيم ولا اسحق ولا يعقوب.. لأن نسب النبوة هو

نسب إيماني فيه اتباع للمنهج والعقيدة.. ولا يشفع هذا النسب يوم القيامة لأن لكل واحد عمله.قوله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ}..

الكسب يؤخذ على الخير والاكتساب يؤخذ في الشر لأن الشر فيه افتعال.إننا لابد أن نلتفت ونتنبه إلى آيات القرآن الكريم حتى نستطيع أن نرد على أولئك الذين يحاولون الطعن في القرآن..

فلا يوجد معنى لآية تهدمها آية أخرى ولكن يوجد عدم فهم.يأتي بعض المستشرقين ليقول هناك آية في القرآن تؤكد أن الله سبحانه وتعاليعطي بالأنساب وذلك في قوله جل جلاله: {والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ}.. [الطور: ٢١].

الأبناء مؤمنون، وقوله تعالى: {أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ} كلمة ألحقنا تأتي عندما تلحق ناقصا بكامل.فإذا كان الاثنان مؤمنين فكأنك تزيد درجة الأبناء إكراما لآبائهم المؤمنين.. نقول إن الإيمان شيء والعمل بمقتضى الإيمان شيء آخر.. الأب والذرية مؤمنون ولكن الآباء تفانوا في العمل والأبناء ربما قصروا قليلا..

ولكن هنا رفع درجة بالنسبة للمؤمنين أي لابد أن يكون الأب والذرية مؤمنين.. ولكن غير المؤمنين مبعدون ليس لهم علاقة بآبائهم انقطعت الصلة بينهم بسبب الإيمان والكفر.. فالآباء لهم أعمال حسنة كثيرة.. والأبناء لهم أعمال حسنة أقل.. ينزل الله الأبناء في الجنة مع آبائهم لأن الإيمان واحد.وقوله تعالى: {وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ} أي أنقصناهم من عملهم من شيء.. إذن فالآباء والذرية مأخوذون بإيمانهم، والله بفضله يلحق الأبناء بالآباء.قوله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ}.. هذه عملية الإيمان في العقيدة.. قد يقول البعض إن الله تبارك وتعاليقول: {كُلُّ امرىء بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}.. [الطور: ٢١].

ويقول سبحانه: {وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى}.. [النجم: ٣٩].فكيف يأخذ الأبناء جزاء بدون سعي؟ نقول افهموا النصوص جيدا. قوله تعالى: {وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سعى} تحدد العدل ولكنها لا تحدد الفضل الذي يعطيه الله سبحانه لمن شاء من عباده، وهذا يعطي بلا حساب.. ثم من الذي قال: إن هذا ليس من سعيهم؟

إن إلحاق الأبناء المؤمنين بالمنزلة العالية لآبائهم تكريم لعمل الآباء وليس زيادة لعمل الأبناء.ولقد روى لنا العلماء أن ولدا كان مؤمنا طائعا عابدا وأبوه كان مسرفا على نفسه..

فلما مات الأب حزن عليه ابنه ولكنه رأى أن أباه جالس فوق رأسه ومعه واحدة من الحور العين تؤنسه.. فتعجب الإبن كيف ينال أبوه هذه المكافأة وقد كان مسرفا على نفسه فسأله: كيف وصلت لهذه المنزلة؟ فقال: الأب أي منزلة.. قال: الابن أن تكون معك واحدة من الحور العين.. فقال: الأب وهل فهمت أنها نعيم لي.. قال: الابن نعم.. فقال: الأب: لا، أنا عقوبة لها.. الله سبحانه وتعاليقول: {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}.. [يونس: ٥٨].إذن أنت في الآخرة ستفرح بفضل الله ورحمته أكثر من فرحك بعملك الصالح.. مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:" سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لن يُدْخِلَ الجنة أحداً عَمَلُه، قال:وا

ولا أنت يا رسول الله قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمته" .ربما يأتي أحد ويقول الصلاة على الميت ما هو القصد الشرعي منها.. إن كانت تفيده فستكون الفائدة زيادة على عمله.. وإن لم تكنتعالىطيه أكثر من عمله فما فائدتها؟

.نقول مادام الشرع كلفنا بها فلها فائدة.وهل تظن أن الصلاة على الميت ليست من عمله؟ هي داخلة في عمله لأنه مؤمن وإيمانه هو الذي دفعك للصلاة عليه.. والذي تدعو له بالخير وبالرحمة وبالمغفرة ويتقبلها الله.. أيقال: أنه أخذ غير عمله؟ لا؛ إنك لم تدع له إلا بعد أن أصابك الخير منه.. ولكنك لا تدعو مثلا لإنسان أخذ بيدك إلى خمارة أو إلى فاحشة أو إلى منكر..

بل تدعو لمن أعطاك خيرا فإن استجاب الله لك فهو من عمله.الله سبحانه وتعاليقول إن ما كان يعمله من سبقكم من الأمم لا تسألون عنه.. وإن كنتم تدعون أن إبراهيم كان يهوديا أو نصرانيا نقل لكم أنتم لن تسألوا عما كان يعمل إبراهيم ولكن عليكم أنفسكم.. السؤال يكون عن عملكم.

وَقال:وا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)

قوله تعالى: (وقال:وا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) قال: ابن عباس: نزلت في رؤساء يهود المدينة كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا وأبي ياسر بن أخطب، وفي نصارى أهل نجران السيد والعاقب وأصحابهما، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله

فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بعيسى والإنجيل وبمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن،

وقال:ت النصارى: نبينا أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن،

وقال: كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك

فقال تعالى: (قل) يا محمد (بل ملة إبراهيم) بل نتبع ملة إبراهيم، اى اتبعوا ملة إبراهيم، وقيل معناه بل نكون على ملة إبراهيم فحذف" على" فصار منصوبا (حنيفا) نصب على الحال عند نحاة البصرة، وعند نحاة الكوفة نصب على القطع أراد بل ملة إبراهيم الحنيف فلما سقطت الألف واللام لم يتبع المعرفة النكرة فانقطع منه فنصب.

قال: مجاهد: الحنيفية اتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماما للناس قال: ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وأصله من الحنف، وهو ميل وعوج يكون في القدم، [ص: ١٥٦

(وما كان من المشركين) ثم علم المؤمنين طريق الإيمان فقال: جل ذكره:

(قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا) يعني القرآن (وما أنزل إلى إبراهيم) وهى الصحف (وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) يعني اولاد يعقوب وهم اثنا عشر سبطا واحدهم سبط سموا بذلك لأنه ولد لكل واحد منهم جماعة وسبط الرجل احفاده، ومنه قيل للحسن والحسين رضي الله عنهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم،

والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب من بني إسماعيل والشعوب من العجم، وكان في الأسباط أنبياء ولذلك قال:وما أنزل إليهم وقيل هم بنو يعقوب من صلبه صاروا كلهم أنبياء (وما أوتي موسى) يعني التوراة (وعيسى) يعني الإنجيل (وما أوتي) أعطي (النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم) أي نؤمن بالكل لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى (ونحن له مسلمون)

شبهة وجوابها: كيف يكون إبراهيم مسلما واليهود يدَّعون يهوديته

وهنا لفته هامة

كما راينا ان ابراهيم عليه السلام اعلن اسلامه لله

،واولا:ده اسماعيل واسحاق كذلك اعلنوا اسلامهم

وحفيده يعقوب اعلن اسلامه لله، وكذلك اولا:ده المعروفون بالأسباط

والسؤال الان

مادام الاصل وهو ابراهيم عليه السلام وذريته مسلمون لله فمن اين جاء اليهود والنصارى بقولهم كونوا هودا او نصارى تهتدوا،؟

الحقيقة ان بنى اسرائيل ظلوا من زمن سيدنا ابراهيم عليه السلام اى تقريبا من عام ١٩٠٠ قبل الميلاد إلى زمن نبي الله سليمان عليه السلام مسلمون لله ويعرفون ببنى اسرائيل و إلى زمن نبي الله سليمان لم يكن احدا يعرف اسم يهود ولم يطلق على بنى اسرائيل لفظ يهود

ولكن بعد سيدنا سليمان عليه السلام انقسم بنوا اسرائيل فيما بينهم فى ارض فلسطين وسكن عدد كبير منهم فى شمال فلسطين واطلقوا على انفسهم، السامريون وسكن الباقون فى جنوب فلسطين واطلقوا على انفسهم يهود

وكان هذا عام ٧٥٠قبل الميلاد اى بعد سيدنا يعقوب عليه السلام ما يقرب من الف عام

وحتى يوهموا الناس بانهم منذ زمن بعيد اختاروا اسم يهوذا احد ابناء سيدنا يعقوب عليه السلام واطلقوه على انفسهم

ومن عام ٧٥٠قبل الميلاد واصبح اسم اليهود هو

الاسم الذى يعرف به هؤلاء، ولم يكتفوا بذلك بل حينتعالىرضوا للسبي والاحتلال من نبوخذ نصر عام ٥٨٠قبل الميلاد كما اوضحنا من قبل وظلوا فى السبي ما يقرب من ثمانين عاما وعاد بهم كورش الفارسي عام ٥٠٠قبل الميلاد،

وقتها شرعوا فى كتابة ما يعرف بالعهد القديم بديلا عن التوراة ووضعوا فيه ما يريدون ووفق اهواءهم ثم اطلقوا على ما كتبوه ودانوا به اليهودية ومن يومها واصبح اسم اليهود يطلق على شعب اليهود واليهودية تطلق على ما يدينون به ولأنه ليس من عند الله ولم يعلم به نبي الله موسي ولا من بعده من الانبياء،

وكما غير اليهود وبدلوا دينهم لم يتركوا دين المسيح عليه السلام الا وقد غيروه وبدلوه واستبدلوا الانحيل الذى انزل على سيدنا عيسي عليه السلام بما يعرف الان بالعهد الجديد وأيضا

لا علاقة لسيدنا عيسي عليه السلام بالعهد الجديد وبالتالي اصبح اليهود والنصارى وما يدينون به خارج عن الاسلام واقصد بالإسلام هنا دين جميع الانبياء،

كما ان الله تعالى إلى لم يأمر لا بالعهد القديم ولا العهد الجديد ولذلك اعلنها القران الكريم صراحة حين قال تعالى: ، قل يا اهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما انزل اليكم من ربكم

أي اذا ارادوا ان يكونوا على حق عليهم ان يعيدوا التوراة الحقيقية التى انزلها الله تعالى إلى على موسي عليه السلام وكذلك الانجيل الحقيقي الذى انزله الله على عيسي عليه السلام وفوق هذا وذاك ان يؤمنوا بما انزل الله تعالى إلى على نبيه وعبده محمد صلى الله عليه وسلم وهو القران الكريم

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)

تفسير البغوي" معالم التنزيل" : (فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ)، أَيْ: بِمَا آمَنْتُم بِهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَإِنْ آمَنُوا بِجَمِيعِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ، أَيْ: أَتَوْا بِإِيمَانٍ كَإِيمَانِكُمْ وَتَوْحِيدٍ كَتَوْحِيدِكُمْ،

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فَإِنْ آمَنُوا مِثْلَ مَا أَمِنْتُمْ، وَقال: أَبُو مُعَاذٍ النَّحْوِيُّ: مَعْنَاهُ فَإِنْ آمَنُوا بِكِتَابِكُمْ كَمَا آمَنْتُمْ بِكِتَابِهِمْ: (فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ)، أَيْ: فِي خِلَافٍ وَمُنَازَعَةٍ، قال:هُ ابْنُ عَبَّاسٍ وعطاء،

يقال:شَاقَّ مُشَاقَّةً إِذَا خَالَفَ، كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ آخِذٌ فِي شِقٍّ غَيْرِ شِقِّ صَاحِبِهِ، قال: الله تعالى إلى: (لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي) [هُودٍ: ٨٩]، أَيْ: خِلَافِي، وَقِيلَ: فِي عَدَاوَةٍ، دليله قوله تعالى: (بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ) [الْأَنْفَالِ: ١٣]، أَيْ عَادُوا اللَّه

- (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ): يَا مُحَمَّدُ، أَيْ يَكْفِيكَ شَرَّ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَقَدْ كُفِيَ بِإِجْلَاءِ بَنِي النَّضِيرِ، وَقَتْلِ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَضَرْبِ الْجِزْيَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، (وَهُوَ السَّمِيعُ): لأقوالهم، (الْعَلِيمُ) بأحوالهم

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨)

فإن صبغة الله يراد بها دين الله، وقيل: فطرة الله. وقيل: إن الصبغة الختان. وقيل: إن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام، بدلاً من معمودية النصارى.

قال: البغوي في تفسيره: قوله تعالى: صبغة الله

: قال: ابن عباس في رواية الكلبي و قتادة و الحسن: دين الله، وإنما سماه صبغة لأنه يظهر أثر الدين على المتدين كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، وقيل لأن المتدين يلزمه ولا يفارقه، كالصبغ يلزم الثوب، وقال: مجاهد: فطرة الله، وهو قريب من الأول، وقيل: سنة الله

قال: ابن عباس: هي أن النصارى إذا ولد لأحدهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر يقال: له المعمودي وصبغوه به ليطهروه بذلك الماء مكان الختان، فإذا فعلوا به ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً حقاً فأخبر الله أن دينه الإسلام لا ما يفعله النصارى

و قوله: ونحن له عابدون. أي مطيعون خاضعون

قال: الطبري: وقوله تعالى إلى ذكره: ونحن له عابدون، أمر من الله تعالى إلى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقوله لليهود والنصارى، الذين قال:وا له ولمن تبعه من أصحابه: كونوا هودا أو نصارى. فقال: لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل: بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً،

صبغة الله، ونحن لـه عابـدون. يعـني: ملـة الخاضـعين للـه، المسـتكينين لـه، فـي اتباعنـا ملـة إبراهيم، ودينونتنا له بذلك، غير مستكبرين في اتبـاع أمـره، والإقـرار برسـالته رسـله، كمـا اسـتكبرت اليهود والنصارى، فكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم استكبارًا وبغيًا وحسدًا.

ويستفاد من الآية أن دين الإسلام هو أفضل الأديان وما سواه باطل، وأن عـلى المسـلم أن يعتز بدينه وبالتمسك بملته،. وأن التعميد الذي يعمله النصارى باطل.

فالحمد لله على نعمة الاسلام

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـالُكُمْ وَنَحْـنُ لَـهُ مُخْلِصُـونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَـانُوا هُـودًا أَوْ نَصَـارَى قُـلْ أَأَنْـتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىلُونَ (١٤٠)

بعد أن ردّ الله -تبارك وتعالى- على اليهود دعواهم بأنهم على دين إبراهيم وأن إبـراهيم كان على دينهم، فاليهود يقولون: كان يهوديًا، والنصارى يقولون: كان نصرانيًا، فردّ الله ذلك، وبيّن أنه كان حنيفًا مسلمًا.

ثـم قـال: الله تعـالى إلى: صِـبْغَةَ اللَّهِ وَمَـنْ أَحْسَنُ مِـنَ اللَّهِ صِـبْغَةً وَنَحْـنُ لَـهُ عَابِـدُونَ [سـورة البقرة:١٣٨] فدينه وفطرته التي فطر عباده عليها: الدين الموافـق للفطـرة، وهـو الإسـلام، فهـو صبغة الله التي أمرهم بأن يلزموها.

قال: بعد ذلك في سياق الرد عليهم: قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُـمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ [سورة البقرة:١٣٩] قل لهـؤلاء أتجادلوننـا فـي توحيـد الله، والإخـلاص لـه، وهـو رب العـالمين جميعًـا، لا يخـتص بقـوم دون قـوم، ولنـا أعمالنـا، ولكـم أعمـالكم، ونحـن مخلصون لله العبادة والطاعة، ولا نُشرك به شيئًا، ولا نعبد أحدًا سواه.

ويُؤخذ من هذه الآية الكريمـة: قُـلْ أَتُحَاجُّونَنَـا فِـي اللَّهِ وَهُـوَ رَبُّنَـا وَرَبُّكُـمْ وَلَنَـا أَعْمَالُنَـا وَلَكُـمْ أَعْمَالُكُمْ [سورة البقرة:١٣٩]

لزوم البراءة من أعمال الكفار على اختلاف مِللهـم وأهـوائهم وَلَنَـا أَعْمَالُنَـا وَلَكُـمْ أَعْمَـالُكُمْ [سورة البقرة:١٣٩].

ويُلاحظ هنا تقديم الجار والمجرور وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ [سورة البقرة:١٣٩] ومعلوم أن تقديم ما حقه التأخير يُفيد الاختصاص والحصر، أي: لنا أعمالنا لا أعمالكم، فأعمالنا تختص بنا، وأعمالكم تختص بكم، والله -تبارك وتعالى- سيُجازي كل عامل بعمله، ثم أيضًا في قوله: وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ [سورة البقرة:١٣٩] يعني: لم يكتف بقوله: وَلَنَا أَعْمَالُنَا أي: وسيُجازينا عليها، ولا تتحملون من تبعاتها شيئًا، بل قال:وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ من أجل أن لا يتوهم أن يكون المُسلمون مشاركين لهم في أعمالهم، كما أن للمسلمين أعمالهم، فكذلك أيضًا هم لهم أعمالهم لا يُشاركهم المسلمون فيها، ولا يتحملون من تبعاتهم وتبعاتها شيئًا.

ولهذا قال: الله -تبارك وتعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لا أَعْبُدُ [سورة الكافرون:١، ٢] في الحال مَاتعالبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ في الحال مَا أَعْبُدُ، وَلا أَنَا عَابِدٌ في المستقبل مَا عَبَدتُمْ [سورة الكافرون:٤] وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ في المستقبل مَا أَعْبُدُ [سورة الكافرون:٥] لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ [سورة الكافرون:٦] فلست بمقيم على دينكم، ولستم كذلك في الحال والحاضر، ولن يحصل هذا التحول في المستقبل، وهو أن أتحول إلى دينكم وعبادتكم، أو تتحولون إلى ديني وعبادتي لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ [سورة الكافرون:٦] فهذا نظير ما في هذه الآية الكريم.

ثم ختم هذه الآية بما يفيد الثبوت والدوام وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ [سورة البقرة:١٣٩] فالجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام على الإخلاص وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ [سورة البقرة:١٣٩] مقيمون على ذلك دومًا؛ لأن الله -تبارك وتعالى- لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصًا، فالإخلاص لازم للعاملين في كل أعمالهم الدقيق والجليل، وكل عمل فقد الإخلاص فهو مردود فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [سورة الكهف:١١٠] وَنَحْنُ لَهُ وقُدم هنا الجار والمجرور (له) لإفادة الحصر والاختصاص أيضًا، فذلك يدل على توكيد هذا المعنى، وهو إخلاص العبادة والعمل لله وحده دون ما سواه.

وقد جاء عن سعيد بن جُبير -رحمه الله- أنه قال:الإخلاص أن يُخلص العبد دينه وعمله لله، فلا يُشرك به في دينه، ولا يُرائي بعمله

وهناك عبارة للفضيل بن عياض -رحمه الله- مشهورة وهي: أن العمل من أجل الناس شرك، وترك العمل من أجل الناس رياء، والإخلاص أن يعافيك الله منهما

فهذا العبارة مشهورة، ويمكن أن توجه باعتبار أن ترك العمل من أجل الناس صار الدافع فيه والمحرك سوى النظر إلى مرضاة الله -تبارك وتعالى- وطلب ما عنده، فصارت الإرادة متوجه إلى الناس، فالتفت القلب إليهم، فعده بهذا الاعتبار من قبيل الشرك، أو الرياء، لكن هذا فيه ما فيه، والصحيح أن العمل من أجل الناس شرك ورياء، وترك العمل من أجل الناس خطأ، لكنه ليس بشرك ولا رياء، ترك العمل من أجل الناس.

فالصحيح أن الإنسان يعمل ولا يترك العمل، ويُصحح قصده ونيته، ويريد ما عند الله، ولكن لو أنه ترك العمل خوفًا من الرياء من أجل الناس، أو أنه ترك العمل الصالح خوفًا منهم، فهذا ضعف في اليقين والتوكل والإيمان، لكن هل هو شرك؟

الجواب: لا، لكن توجيهه هو ما ذكرت، هو نظر إلى الإرادة والقصد والتوجه، وما الذي يحركه ويدفعه؟ فرأى أن نظر الناس هو المحرك بهذا الاعتبار، فيترك العمل من أجل الناس، فصار الخوف من الناس مثلاً سببًا لترك ما أمره الله به، فيكون العبد بذلك قد نظر إلى الناس وخافهم دون أن يخاف الله -تبارك وتعالى.

ثم قال: الله ردًا على هؤلاء: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىمَلُونَ [سورة البقرة:١٤٠].

أَمْ تَقُولُونَ (أم) هذه بمعنى (بل) أتقولون مجادلين في الله إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ [سورة البقرة:١٤٠] والمقصود بالأسباط هم ذرية يعقوب وما تناسل من ولده من قبائل بني إسرائيل، وفيهم أنبياء، وهم المقصود بهذا، يعني: الأنبياء في هؤلاء الأسباط، فهم الذين أوحي إليهم، وأوتوا الوحي والكتاب.

يقول: كانوا على دين اليهود أو النصارى، تقولون هذا؟! فهذا كذب، وقد بُعثوا وماتوا قبل نزول التوراة والإنجيل، قل لهم: أأنتم أعلم بدينهم أم الله، وقد أخبر في القرآن بأنهم كانوا حنفاء

مسلمين، ولا أحد أظلم منكم حين تخفون شهادة ثابتة عندكم من الله، وتدعون خلافها، افتراء على الله، وما الله بغافل عن شيء من أعمالكم، بل هو مُحصٍ لهذه الأعمال، ومُجازيكم عليها.

فيُؤخذ من قوله -تبارك وتعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ [سورة البقرة:١٤٠] فهذا استفهام مضمن معنى النفي، يعني: لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، هذا معناه،

وفي موضع آخر قال:وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا [سورة البقرة:١١٤]

وفي موضع ثالث قال:وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا [سورة الأنعام:٢١] وفي كقوله: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا [سورة الكهف:٥٧]

فأظلم أفعل تفضيل، لا أحد أظلم من هذا، فهل بين هذه الآياتتعالارض؟

شبهة وجوابها: في كل موضع يقول: لا أحد أظلم ممن فعل كذا، ويذكر عملاً غير العمل الآخر؟

والعلماء -رحمهم الله- يُجيبون عن هذا بجوابين: الجواب الأول: أن كل آية تختص ببابها، ففي المانعين لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وسعى في خرابها،

وفي المعرضين لا أحد أظلم ممن ذكر بآيات ربه، ثم أعرض عنها،

وفي الكاتمين لا أحد أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وهكذا.

والجواب الآخر: أن أفعل التفضيل تمنع الزيادة، ولا تمنع التساوي، يعني: لا أحد يزيد عليه في الظلم، لكن يمكن أن يوجد من يساويه في الظلم، يعني: كل هؤلاء قد بلغوا في الظلم غايته، وبلغوا الغاية القصوى العظمى في الظلم، هذا هو الجواب الثاني.

ويُؤخذ من هذه الآية أيضًا عِظم ذنب من كتم شهادة عنده من الله،

والله -تبارك وتعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [سورة آل عمران:١٨] فمن كتم شهادة عنده من الله فهو في غاية الظلم؛

ولهذا يقول الله -تبارك وتعالى: وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ [سورة البقرة:٢٨٣]

ويقول الله -تبارك وتعالى- في حق هؤلاء اليهود، كما في سورة النساء أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً [سورة النساء:٥١]

فهؤلاء اليهود شهدوا أن المشركين أهدى من محمد وأصحابه؛ لما سألهم المشركون: أنتم أهل كتاب أنحن أهدى أم محمد؟ قالوا: بل أنتم أهدى من محمد، فكان ذلك كتمانًا للشهادة التي حُملوها،

وقد عرفوا صفته صلى الله عليه وسلم إلى أن قال: الله بعد ذلك: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلى أَهْلِهَا [سورة النساء:٥٨]

فهذا أمر عام بأداء الأمانات، ومن جملة هذه الأمانات أمانة الشهادة، أن يؤديها الإنسان على الوجه الصحيح، فهؤلاء قد ضيعوها، وكتموها.

ويُؤخذ من قوله -تبارك وتعالى: وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىمَلُونَ [سورة البقرة:١٤٠] الصيغة صيغة خبر، ولكنه خبر مُبطن بالتهديد والوعيد، فالذي لا يغفل عن أعمال العباد، معنى ذلك أنه سيُجازيهم، ويُحصي ذلك عليهم، ويُحاسبهم، فإنه لا يخفى عليه خافية، فينبغي أن يُراقب، وأن يُخاف، وفي قوله: وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىمَلُونَ [سورة البقرة:١٤٠]

هذا نفي، نفى عنه الغفلة عن أعمال العباد، و(ما) هذه للعموم وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىمَلُونَ [سورة البقرة:١٤٠] يعني: ما يعمله الإنسان في السر، وما يعمله في الجهر، وما يعمله في الليل، والنهار، كل ذلك سواء عنده لا فرق ما يُخفيه العبد، وما يُظهره، أو يُعلنه عنده سواء، وإذا كان الأمر عنده سواء فإن ذلك ينبغي أن يكون سببًا للاحتراز والاستقامة على أمر الله -تبارك وتعالى- والإعراض عن كل ما يُسخطه.

وقوله: وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىمَلُونَ [سورة البقرة:١٤٠] نفى الغفلة عنه -تبارك وتعالى- وهذا ما يُسمى بالصفات المنفية، والصفات: ثبوتية مثل: وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [سورة البقرة:٢٢٨] قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ [سورة الإخلاص:١، ٢] والصفة المنفية لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [سورة الإخلاص:٣، ٤] لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ [سورة البقرة:٢٥٥]

والنفي من حيث هو ليس بكمال ولا مدح، فحينما نقول: بأن هذا الجدار لا يجهل، أو بأن هذا الجدار لا يعتدي على أحد، أو نحو ذلك، فهذا ليس بمدح، لكن المدح هو النفي المُضمن، النفي الذي يقتضي ثبوت كمال ضده، فإذا قال:لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ السِنة هي مقدمة النوم وَلَا نَوْمٌ فذلك يقتضي ثبوت كمال حياته، فإذا نفى عنه الظلم وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ [سورة فصلت:٤٦] هذا يقتضي ثبوت كمال عدله، وإذا قال:وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىَلُونَ [سورة البقرة:١٤٠] فهذا يدل على كمال إحاطته وعلمه، وما إلى ذلك.

وهكذا في سائر الصفات المنفية، فأوصاف الله المنفية، وأوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم

، وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ [سورة التكوير:٢٤] بالضاد، وفي القراءة الأخرى أيضًا (بظنين) متواترتان، أي: لا يتكلم بالظنون، وليس بظنين أي شحيح بخيل، لا يُبلغ ما أوحى الله إليه من الهدى والعلم، وهكذا في أوصاف الملائكة لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [سورة التحريم:٦]

أوصاف القرآن

وأوصاف القرآن، هذه أربعة، أوصاف القرآن مثل قوله -تبارك وتعالى: ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ [سورة البقرة:٢] فإذا نفى الله -تبارك وتعالى- شيئًا من هذه الأوصاف في هذه المقامات الأربع، فهذا يقتضي ثبوت كمال ضده.

ويُؤخذ أيضًا من هذه الآية وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىمَلُونَ [سورة البقرة:١٤٠] الرد على الجبرية الذين يقولون: إن العباد مجبورون على أعمالهم، فلا تُنسب إليهم إلا على سبيل المجاز، وهذا الكلام غير صحيح، وفي القرآن مئات الأدلة على أن ذلك يصدر عنهم، وأنه باختيارهم ومشيئتهم وإرادتهم، لكن وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ [سورة الإنسان:٣٠].

ويُؤخذ من قوله: قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ [سورة البقرة:١٤٠] طريق من طُرق المحاجة، فمن ادعى دعوى تخالف القرآن، أو تخالف ما جاء في الوحي الآخر، وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فإن هؤلاء يُقال: لهم: أأنتم أعلم أم الله؟ فإذا أخبر الله أنه خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء وخلقها، وأنه دحى الأرض أيضًا بعد ذلك أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا [سورة النازعات:٣١]

وهكذا حينما يقول الله تعالى: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا [سورة يس:٣٨] فإذا قالوا: الشمس ثابتة لا تتحرك، وإنما الذي يتحرك هو الأرض فقط، فنقول لهم: أأنتم أعلم أم الله؟ فالله يقول: إنها تجري، وأنتم تقولون: إنها لا تتحرك وثابتة، أأنتم أعلم أم الله؟ وهكذا، والله تعالى إلى أعلم.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٤١)}.

بعض الناس يقول إن هذه الآية مكررة فقد تقدمتها آية تقول: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَاتعالبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)} سورة البقرة.

بعض السطحيين يقولون إن في هاتين الآيتين تكرارا.. نقول إنك لم تفهم المعنى.. الآية الأولى تقول لليهود إن نسبكم إلي إبراهيم وإسحاق لن يشفع لكم عند الله بما حرفتموه وغيرتموه في التوراة.. وبما تفعلونه من غير ما شرع الله. فاعملوا أن عملكم هو الذي ستحاسبون عليه وليس نسبكم.

أما في الآية التي نحن بصددها فقد قال:وا إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كانوا هودا أو نصارى.. الله تبارك وتعالىلا يجادلهم وإنما يقول لهم لنفرض- وهذا فرض غير صحيح- إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كانوا هودا أو نصارى فهذا لن يكون عذرا لكم.. لأن لهم ما كسبوا ولكم ما كسبتم، فلا تأخذوا ذلك حجة على الله يوم القيامة.. ولا تقولوا إننا كنا نحسب أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق كانوا هودا أو نصارى أي كانوا على غير دين الإسلام لأن هذه حجة غير مقبولة..

وهل أنتم أعلم أم الله سبحانه الذي يشهد بأنهم كانوا مسلمين. إياك أن تقول إن هناك تكرارًا.. فإن السياق في الآية الأولى يقول لا شفاعة لكم يوم القيامة في نسبكم إلي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق.. والسياق في الآية الثانية يقول لا حجة لكم يوم القيامة في قولكم إنهم كانوا هودا أو نصارى.. فلن ينفعكم نسبكم إليهم ولن يقبل الله حجتكم.. وهكذا فإن المعنى مختلف تماما يمس موقفين مختلفين يوم القيامة.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)

.قال: ابن عاشور:

والذي استقر عليه فهمي أن مناسبة وقوع هذه الآية هنا مناسبةٌ بديعة وهي أن الآيات التي قبلها تكرر فيها التنويه بإبراهيم وملته، والكعبة وأن من يرغب عنها قد سفِه نفسه، فكانت

مثارًا لأن يقول المشركون، ما ولَّى محمدًا وأتباعه عن قبلتهم التي كانوا عليها بمكة أي استقبال الكعبة مع أنه يقول إنه على ملة إبراهيم ويأبى عن إتباع اليهودية والنصرانية، فكيف ترك قبلة إبراهيم واستقبل بيت المقدس؟ ولأنه قد تكررت الإشارة في الآيات السابقة إلى هذا الغرض بقوله: {ولله المشرق والمغرب} [البقرة: ١١٥].

وقوله: {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم} [البقرة: ١٢٠] كما ذكرناه هنالك، وقد علم الله ذلك منهم فأنبأ رسوله بقولهم وأتى فيه بهذا الموقع العجيب وهو أن جعله بعد الآيات المثيرة له وقبل الآيات التي أُنزلت إليه في نسخ استقبال بيت المقدس والأمر بالتوجه في الصلاة إلى جهة الكعبة،

لئلا يكون القرآن الذي فيه الأمر باستقبال الكعبة نازلًا بعد مقال:ة المشركين فيشمخوا بأنوفهم يقولون غيَّر محمد قبلته من أجل اعتراضنا عليه فكان لموضع هذه الآية هنا أفضل تمكن وأوثق ربط، وبهذا يظهر وجه نزولها قبل آية النسخ وهي قوله: {قد نرى تقلب وجهك في السماء}

لأن مقال:ة المشركين أو توقُّعَها حاصل قبل نسخ استقبال بيت المقدس وناشئ عن التنويه بملة إبراهيم والكعبة.

سؤال: فيمن نزلت هذه الآية؟

اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقيل: نزلت هذه الآية في اليهود وذلك أنهم طعنوا في تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة لأنهم لا يرون النسخ.

وقيل: نزلت في مشركي مكة وذلك أنهم قال:وا قد تردد على محمد أمره واشتاق مولده، وقد توجه إلى نحو بلدكم فلعله يرجع إلى دينكم

وقيل نزلت في المنافقين وإنما قال:وا ذلك استهزاء بالإسلام وقيل: يحتمل أن لفظ السفهاء للعموم فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود ويحتمل وقوع هذا الكلام من كلهم إذ لا فائدة في التخصيص، ولأن الأعداء يبالغون في الطعن والقدح فإذا وجدوا مقال:ا قال:وا أو مجالًا جالوا.

الإعجاز في قوله تعالى: {سَيَقُولُ السفهاء}

أما قوله: {سَيَقُولُ السفهاء} ففيه قولان. الأول- وهو اختيار القفال: أن هذا اللفظ وإن كان للمستقبل ظاهرًا لكنه قد يستعمل في الماضي أيضًا، كالرجل يعمل عملًا فيطعن فيه بعض أعدائه فيقول: أنا أعلم أنهم سيطعنون علي فيما فعلت، ومجاز هذا أن يكون القول فيما يكرر ويعاد، فإذا ذكروه مرة فسيذكرونه بعد ذلك مرة أخرى، فصح على هذا التأويل أن يقال:سيقول السفهاء من الناس ذلك، وقد وردت الأخبار أنهم لما قال:وا ذلك نزلت الآية. القول الثاني: إن الله تعالى إلى أخبر عنهم قبل أن ذكروا هذا الكلام أنهم سيذكرونه وفيه فوائد.

أحدها: أنه عليه الصلاة والسلام إذا أخبر عن ذلك قبل وقوعه، كان هذا إخبارًا عن الغيب فيكون معجزًا

. وثانيها: أنه تعالى إلى إذا أخبر عن ذلك اولا: ثم سمعه منهم، فإنه يكون تأذية من هذا الكلام أقل مما إذا سمعه منهم اولا:.

وثالثها: أن الله تعالى إلى إذا أسمعه ذلك اولا: ثم ذكر جوابه معه فحين يسمعه النبي- عليه الصلاة والسلام- منهم يكون الجواب حاضرًا، فكان ذلك أولى مما إذا سمعه ولا يكون الجواب حاضرًا.

قال: في التحرير والتنوير:

ووجه فصل هذه الآية عما قبلها بدون عطف، اختلافُ الغرض عن غرض الآيات السابقة فهي استئناف محض ليس جوابًا عن سؤال مقدر.

والأولى بقاء السين على معنى الاستقبال إذ لا داعي إلى صرفه إلى معنى المضي. وقد علمتم الداعي إلى الإخبار به قبل وقوعه منهم.

وقال: أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه:" سيقول السفهاء" ، سيقول الجهال" مـنَ النـاس" ، وهم اليهود وأهل النفاق.

وإنما سماهم الله عز وجل" سُفهاء" ، لأنهم سَفِهوا الحق. فتجاهلت أحبارُ اليهود، وتعـاظم جهالهم وأهل الغباء منهم، عن اتّباع محمد صلى الله عليه وسـلم، إذ كـان مـن العـرب ولـم يكـن من بني إسرائيل، وانحاز المنافقون إلى قول اليهود لكنهم لم يفصحوا حتى لا ينكشف امرهم

وبما قلنا في" السفهاء" -أنهم هم اليهود وأهلُ النفاق-

قال: أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه:" ما ولاهم" : يعنى أيُّ شيء صَرَفهم عن قبلتهم؟

قال: أبو جعفر: فتأويل الكلام إذًا -إذْ كان ذلك معناه: سيقول السفهاء من الناس لكم، أيها المؤمنون بالله ورسوله، - إذا حوّلتم وجوهكم عَن قبلة اليهود التي كانتْ لكـم قبلـةً قَبـلَ أمـري إياكم بتحويل وجوهكم عنها شَطْر المسجد الحرام -:

سـيقولون، أيّ شيء حـوّل وُجـوه هـؤلاء، فصرفـها عـن الموضـع الـذي كـانوا يسـتقبلونه بوجوههم في صلاتهم؟

فأعلم الله جل ثناؤه نبيَّه صلى الله عليه وسلم، مَـا اليهـودُ والمنـافقون قـائلون مـن القـول عند تحويل قبلته وقبلة أصحابه عن الشأم إلى المسجد الحـرام، وعلّمـه مـا ينبغـي أن يكـون مـن ردِّه عليهم من الجواب. فقال: له: إذا قال:وا ذلك لك يا محمد، فقل لهـم: لِلَّـهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْـرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

* * *

وكان سببُ ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس مُدة، ثم أراد الله تعالى إلى صَرْف قبلة نبيّة صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام. فأخبره عما اليهود قائلوه من القول عند صرفه وجهَه ووجهَ أصحابه شطرَه، وما الذي ينبغي أن يكون من ردِّه عليهم من الجواب.

اما المدة التي صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس، وما كان سببُ صلاته نحوه؟ وما الذي دَعا اليهودَ والمنافقون إلى قِيلِ ما قال:وا عند تحويل الله قبلةَ المؤمنين عن بيت المقدس إلى الكعبة؟

اختلف أهل العلم في المدة التي صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس بعد الهجرة.

قال: ابو جعفر - حدثنا أبو كريب قال:، حدثنا أبو بكر بن عياش، قال: البراء: صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس سَبعةَ عشر شهرًا، وكان يشتهي أن يُصرف إلى الكعبة. قال:فبينا نحن نُصلي ذاتَ يوم، فمر بنا مارٌّ فقال:ألا هلْ علمتم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد صُرف إلى الكعبة؟ قال:وقد صلينا ركعتين إلى هاهنا، وصلينا ركعتين إلى هاهنا - قال: أبو كريب:

سبب صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس قبل تحويل القبلة

اما السبب الذي كان من أجله يُصلّي رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، قبل أن يُفرض عليه التوجّه شطرَ الكعبة.

اختلف أهلُ العلم في ذلك.

فقال: بعضهم: كان ذلك باختيار من النبي صلى الله عليه وسلم

قال: ابو جعفر - حدثني المثنى بن إبراهيم قال:، حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع في قوله:" سيقولُ السفهاء من الناس مَا وَلاهم عَن قبلتهم التي كانوا عليها" ، يعنون بيتَ المقدس. قال: الربيع. قال: أبو العالية: إنّ نبيّ الله صلى الله عليه وسلم خُيّر أن يوجِّه وجهه حيث شاء، فاختار بيت المقدس لكي يتألَّف أهلَ الكتاب، فكانت قبلتهُ ستة عشر شهرًا، وهو في ذلك يقلِّب وَجهه في السماء، ثم وَجَّهه الله إلى البيت الحرام.

وقال: آخرون: بل كان فعلُ ذلك -من النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه- بفرض الله عز ذكره عليهم.

٢١٦١- حدثنا القاسم قال:، حدثنا الحسين قال:، حدثني حجاج قال:، قال: ابن جريج: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أوَّلَ ما صلى إلى الكعبة، ثم صُرف إلى بَيت المقدس. فصلَّت الأنصارُ نحو بيت المقدس قبلَ قُدومه ثلاث حِجَجٍ: وصلّى بعد قُدومه ستة عشر- شهرًا، ثم ولاه الله جل ثناؤه إلى الكعبة

القول في تأويل قوله تعالى: قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)

قال: أبو جعفر: يعني بذلك عز وجل: قُلْ يا محمد -لهؤلاء الذين قال:وا لك ولأصحابك: ما ولاكم عن قبلتكم من بيت المقدس، التي كنتم على التوجّه إليها، إلى التوجّه إلى شطر المسجد الحرام؟-

قل لهم: لله مُلك المشرق والمغرب = يعني بذلك: ملكُ ما بين قُطرَيْ مشرق الشمس، وقُطرَيْ مغربها، وما بينهما من العالم

= يَهدي من يشاء من خلقه، فيُسدده، ويوفِّقه إلى الطريق القويم، وهو" الصراط المستقيم"

-ويعني بذلك: إلى قبلة إبراهيمَ الذي جعله للناس إمامًا- ويخذُل من يشاء منهم، فيضلُّه عن سبيل الحق.

وإنّما عنى جل ثناؤه بقوله:" يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" ، قُلْ يا محمد: إنّ الله هَدانا بالتوجُّه شطرَ المسجد الحرام لقبلة إبراهيم، وأضلَّكم -أيها اليهودُ والمنافقون وجماعةُ الشرك بالله- فخذلكم عما هدانا لهُ من ذلك.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)

معنى قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)

اعلم أن في هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: الكاف في" كذلك" كاف التشبيه، والمشبه به أي شيء هو؟ وفيه وجوه:

أحدها: أنه راجع إلى معنى يهدي، أي كما أنعمنا عليكم بالهداية، كذلك أنعمنا عليكم بأن جعلناكم أمة وسطا.

وثانيها: قول أبي مسلم تقريره كما هديناكم إلى قبلة هي أوسط القبل وكذلك جعلناكم أمة وسطا.

وثالثها: أنه عائد إلى ما تقدم من قوله في حق إبراهيم عليه السلام: (ولقد اصطفيناه في الدنيا) [البقرة: ١٣٠] أي فكما اصطفيناه في الدنيا فكذلك جعلناكم أمة وسطا.

ورابعها: يحتمل عندي أن يكون التقدير: (ولله المشرق والمغرب) فهذه الجهات بعد استوائها في كونها ملكا لله وملكا له، خص بعضها بمزيد التشريف والتكريم بأن جعله قبلة فضلا منه وإحسانا فكذلك العباد كلهم مشتركون في العبودية إلا أنه خص هذه الأمة بمزيد الفضل والعبادة منه وإحسانا لا وجوبا.

وخامسها: أنه قد يذكر ضمير الشيء وإن لم يكن المضمر مذكورا إذا كان المضمر مشهورا معروفا كقوله تعالى: (إنا أنزلناه في ليلة القدر) [القدر: ١] ثم من المشهور المعروف عند كل أحد أنه سبحانه هو القادر على إعزاز من شاء وإذلال من شاء

فقوله تعالى: (وكذلك جعلناكم) أي ومثل ذلك الجعل العجيب الذي لا يقدر عليه أحد سواه جعلناكم أمة وسطا.

معنى وسطا في قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)

المسألة الثانية: اعلم أنه إذا كان الوسط اسما حركت الوسط كقوله: (أمة وسطا) والظرف مخفف تقول: جلست وسط القوم، واختلفوا في تفسير الوسط وذكروا أمورا

أحدها: أن الوسط هو العدل [ص: ٨٩] والدليل عليه الآية والخبر والشعر والنقل والمعنى، أما الآية فقوله تعالى: (قال: أوسطهم) [القلم: ٢٨] أي أعدلهم، وأما الخبر فما روى القفال عن الثوري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم:" أمة وسطا، قال:عدلا" وقال: عليه الصلاة والسلام:" خير الأمور أوسطها" أي أعدلها، وقيل: كان النبي صلى الله عليه وسلم أوسط قريش نسبا. أي أعلاها وأشرفها

وقال: عليه الصلاة والسلام:" عليكم بالنمط الأوسط

وأما الشعر فقول زهير:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي العظائم

وأما النقل فقال: الجوهري في" الصحاح" : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) أي عدلا وهو الذي قال:ه الأخفش والخليل وقطرب،

وأما المعنى فمن وجوه:

أحدها: أن الوسط حقيقة في البعد عن الطرفين ولا شك أن طرفي الإفراط والتفريط رديئان فالمتوسط في الأخلاق يكون بعيدا عن الطرفين فكان معتدلا فاضلا.

وثانيها: إنما سمي العدل وسطا لأنه لا يميل إلى أحد الخصمين، والعدل هو المعتدل الذي لا يميل إلى أحد الطرفين.

وثالثها: لا شك أن المراد بقوله: (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) طريقة المدح لهم لأنه لا يجوز أن يذكر الله تعالى إلى وصفا ويجعله كالعلة في أن جعلهم شهودا له ثم يعطف على ذلك شهادة الرسول إلا وذلك مدح فثبت أن المراد بقوله: (وسطا) ما يتعلق بالمدح في باب الدين، ولا يجوز أن يمدح الله الشهود حال حكمه عليهم بكونهم شهودا إلا بكونهم عدولا، فوجب أن يكون المراد في الوسط العدالة.

ورابعها: أن أعدل بقاع الشيء وسطه، لأن حكمه مع سائر أطرافه على سواء وعلى اعتدال، والأطراف يتسارع إليها الخلل والفساد والأواسط محمية محوطة فلما صح ذلك في الوسط صار كأنه عبارة عن المعتدل الذي لا يميل إلى جهة دون جهة.

القول الثاني: أن الوسط من كل شيء خياره قالوا: وهذا التفسير أولى من الأول لوجوه:

الأول: أن لفظ الوسط يستعمل في الجمادات قال: صاحب" الكشاف" : اكتريت جملا من أعرابي بمكة للحج فقال:أعطني من سطا تهنئة أراد من خيار الدنانير ووصف العدالة لا يوجد في الجمادات فكان هذا التفسير أولى.

الثاني: أنه مطابق لقوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس) [آل عمران: ١١٠].

القول الثالث: أن الرجل إذا قال:فلان أوسطنا نسبا فالمعنى أنه أكثر فضلا وهذا وسط فيهم كواسطة القلادة، وأصل هذا أن الأتباع يحوشون الرئيس فهو في وسطهم وهم حوله فقيل وسط لهذا المعنى.

القول الرابع: يجوز أن يكونوا وسطا على معنى أنهم متوسطون في الدين بين المفرط والمفرط والغالي والمقصر في الأشياء لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا ابنا وإلها ولا قصروا كتقصير اليهود في قتل الأنبياء وتبديل الكتب وغير ذلك مما قصروا فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

هدايات قوله تعالى: (وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

هذه الآية الكريمة تبين لنا مدى الامانة والمسئولية التى شرف الله بها امة محمد صلى الله عليه وسلم مع نبيها يوم العرض الاكبر،

ولتعرف قدر هذا التشريف وقدر هذه المسئولية والأمانة نقرا قول الله تعالى إلى

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ،

هل ادركت اى عظمة ستنالها امة محمد صلى الله علبه وسلم ان تكون ممن اجتباهم الله للشهادة على الامم ولتصديق الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم وبما جاؤاو به من الرسالات إلى اقوامهم

لأن الله تعالى إلى يقول: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ

الطبيعى ان الرسل سيقولون الحق ويعلنونها بصراحة شديدة انهم بلغوا الرسالة وادوا الامانة

الا ان الكافرين من اقوامهم وهم للأسف الشديد الكثرة والغالبية العظمى سينكرون ذلك الاقرار من نبيهم

كما فى الحديث سيسال الله تعالى إلى نوح عليه السلام وهو سبحانه وتعالىاعلم به وبقومه ولكن لان العذاب شديد وينبغى الا يعترض احد على الحساب و العذاب ويعترض بانه لم يعلم بيوم القيامة ولا بيوم الحساب ولم يبلغه احد بذلك،

فعدل الله يقتضى ان لا يعذب احد دون ان يعلمه بيوم الحساب فان كان لديه علم وارسل اليه رسول او بلغه الدين بأي وسيلة فلا حجة له

اما من لم يصله الرسول ولم يعلم بالدين ولا بيوم الحساب فهذا امره إلى الله

نعود إلى سيدنا نوح عليه السلام فيساله ربه حل وعلا كما فى الحديث الشريف

- يُدْعَى نُوحٌ يَومَ القِيامَةِ، فيَقولُ: لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ يا رَبِّ، فيَقولُ: هلْ بَلَّغْتَ؟ فيَقولُ: نَعَمْ، فيُقال: لِأُمَّتِهِ: هلْ بَلَّغَكُمْ؟ فيَقولونَ: ما أتانا مِن نَذِيرٍ، فيَقولُ: مَن يَشْهَدُ لَكَ؟ فيَقولُ: مُحَمَّدٌ وأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أنَّه قدْ بَلَّغَ: {وَيَكونَ الرَّسُولُ علَيْكُم شَهِيدًا} فَذلكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: {وَكَذلكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وسَطًا لِتَكُونُوا شُهَداءَ علَى النَّاسِ ويَكونَ الرَّسُولُ علَيْكُم شَهِيدًا} والوَسَطُ: العَدْلُ.

الراوي: أبو سعيد الخدري | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري

الصفحة أو الرقم: ٤٤٨٧ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

وهذا طبيعي لانه لابد من شاهد ليقيم الحجة اما ان يثبت بان نوح عليه السلام قد بلغ الرسالة وادى الامانة وان قومه هم الذين كذبوا وعاندوا وانكروا

واما العكس وحاشا لله ولأنبيائه ذلك

فحين يصر قوم نوح عليه السلام وكذلك كل الكافرين من اقوام الانبياء

فجميع الانبياء يطلبون شهادة محمد رسول الله وامته

ولكن هنا سؤال

من اعلمهم بان محمد وامته لديهم ما يثبت حقهم وقد بعثوا بعدهم بقرون عديدة ولم يعاصروهم؟

سبحان الله

نجد الإجابة فى قول الله تعالى إلى

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قال: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قال:وا أَقْرَرْنَا ۚ قال: فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ

معنى هذا ان الله تعالى إلى اخبر جميع الانبياء بان ما عليهم الا البلاغ وان يبذلوا جهدهم فى تبليغ الرساله واداء الامانة

وكانهم سالوا الله تعالى إلى حين كذبهم قومهم ياربنا وانت اعلم بنا نخشى ان ينكر قومنا جهدنا

فطمانهم الله تعالى إلى بانه سبحانه سيرسل رسولا اخر الزمان اسمه، محمد صلى الله عليه وسلم، وينزل عليه كتاب وهو القران الكريم وسيحفظ الله تعالى إلى هذا القران وينزل فيه جهد الانبياء السابقين ومافعلوه مع اقوامهم ومافعله اقوامهم معهم

وفى هذا يقولتعالى إلى

، هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي

وحفظ الله في القران الكريم ما كان انزله على انبياءه السابقين من علم وعقيدة واحكام وبالت إلى اصبح لدى امة محمد صلى الله عليه وسلم رصيد كاف للشهادة على جميع الامم ولتصديق جميع الانبياء بما فى القران الكريم

فمثلا حين يكذب قوم نوح عليه السلام سيدنا نوح ويقول ليس لى شاهد الا محمد وامته

فيتقدم النبيى محمد صلى الله عليه وسلم والشهداء من امته ويتلون سورة نوح وما جاء فى القران عن سيدنا نوح فى غير هذه السورة المباركة

اذن فالحمد لله ان حفظ لنا القران الكريم فلولا ذلك لضاعت الامانات ولاختلط الامر ولضاع جهد الانبياء سدى

كما ان ذلك الحفظ مكننا من معرفة ما

وقعت فيه امم الانبياء من نقص او زيادة فى الكتب الاولى لانه اصبح لدينا كتاب ينطق بالحق وبه الحق وفيه الحق

ومن ثم اصبح بإذن الله الامر يسير جدا أن نبين كذب الأقوم وفى الدنيا قبل الاخرة

وسنبين بإذن الله ما اوحى الله بهتعالى إلى إلى الانبياء الذين تم ذكرهم فى القران الكريم والمنهج الذي ارسلهم الله تعالى إلى به وهل اصبح منهجهم سليم كما كان ام ان اقوامهم عبثوا به وافسدوه بعد انتقال: انبياءهم إلى جوار ربهم جل وعلا

وهذا يدعونا اولا: قبل ان نذكر ما قام به الانبياء وكيف قابلتهم اممهم من رفض وعصيان راينا ان نذكر حضراتكم بالأنبياء الذين ذكروا فى القران الكريم

وترتيب بعثتهم

ثم بإذن الله نتحدث عن اخطر الامم على انفسهم وعلى البشر وهم اليهود والنصارى ومافعلوه فى كتبهم من تغيير وتبديل وتحريف سيجعلهم فى حرج شديد يوم القيامة لان كل الامم سيكون لها سؤال واحد وموقف واحد وهو هل بلغكم نبيكم الرسالة وادى اليكم الأمانة

اما بنوا اسرائيل فلهم مئات الاسئلة لانهم أخطاءوا فى حق الله تعالى إلى وأساءوا إلى انبياءه صلوات الله وسلامه عليهم

ولذا فكل نبي ان رسالة الله تعالى إلى عما كتبه بنوا اسرائيل عنه سيكون فى ذهول لان ما كتبه بنوا إسرائيل لايقبله عقل ولادين ومن ثم فينبغى على بنى اسرائيل ان يعدوا لهذه الاسئلة جوابا

ونحن المسلمين سنشهد للأنبياء بما جاء عندنا فى القران الكريم ونشهد لهم بانهم براءء مما ذكره اليهود والنصارى فى كتبهم

وحتى لايكون الكلام مرسلا فسنذكر لحضراتكم نموذجا من الاتهامات التى اتهم بها بنوا اسرائيل انبياء الله ظلما وعدوانا وكيف براءهم الله تعالى إلى فى القران الكريم وليكن بإذن الله سيدنا ادم عليه السلام

ولكن اولا: نقدم لحضراتكم عدد الانبياء وترتيب بعثتهم

اولا:،

ذُكر الله تعالى إلى في سورة الأنعام ثمانية عشر نبي ورسول وهم:سيدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا

ويحيى وعيسى- واليـاس وإسـماعيل واليسـع ويـونس ولـوط صـلوات الله وسـلامه علـيهم اجمعين

فقال تعالى:

الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى- وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ

أمـــا بقيـــة الأنبيـــاء الســـبعة فقـــد ذكـــروا فـــي ســـور متفرقـــة وهـــم ســـيدنا آدم وهود وصالح وشعيب وإدريس

وذو الكفل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين

سيدنا آدم: ذُكر في سورة آل عمران (إن الله اصطفى آدم ونوحاً).

سيدنا هود: ذُكر في سورة هود (و إلى عاد أخاهم هوداً).

سيدنا صالح: ذُكر في سورة هود (و إلى ثمود أخاهم صالحاً).

سيدنا شعيب: ذُكر في سورة هود (و إلى مدين أخاهم شعيباً).

سيدنا إدريس و سيدنا ذو الكفل: ذُكرا في سورة الأنبياء (وإدريس وذا الكفل).

وسيدنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم: ذُكر في سورة آل عمران (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل)،

هذا عن عدد الانبياء الذين ذكرهم الله تعالى إلى واسماءهم

اما عن ترتيب بعثتهم والله اعلم فنجتهد راينا ونذكر ترتيبهم كالاتي

اولا: سيدنا ادم عليه السلام وهذا لاخلاف فى انه اول الانبياء ومن بعده ادريس عليه السلام ثم نبى الله نوح عليه السلام، ممن ذكرهم الله تعالى إلى فى القران الكريم

ثانيا: سيدنا ادريس عليه السلام

ثالثا: سيدنا نوح عليه السلام

رابعا: سيدنا هود فقد كان بعد سيدنا نوح عليهما السلام لقول الله تعالى إلى أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

خامسا: سيدنا صالح وقد كان بعد سيدنا هود لقول الله تعالى إلى وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَ

كُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَاتعالشَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

سادسا: سيدنا ابراهيم وكان معه سيدنا لوط عليه السلام، فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ،

سابعا: سيدنا لوط ومن بعده نبي الله شعيب علبهما السلام لقول الله تعالى إلى وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ،

ثامنا: سيدنا شعيب

ثم

تاسعا: سيدنا اسماعيل عليه السلام لأنه الابن البكر لنبي الله ابراهيم ويكبر نبي الله اسحاق بأربعة عشر سنة

عاشرا: سيدنا اسحاق عليه السلام ومن بعده نبي الله يعقوب وهو ابنه كما نعلم

حادى عشر سيدنا يعقوب عليه السلام ومن بعده ابنه نبي الله يوسف

ثانى عشر سيدنا يوسف عليه السلام ومن بعده نبي الله ايوب عليه السلام ثم ذو الكفل لانه فى اغلب الاقوال ابنه او شاب صالح من قومهتعالىهد وتكفل للقيام بامر قومه من بعده

ثالث عشر سيدنا ايوب عليه السلام

رابع عشر سيدنا ذو الكفل عليه السلام

ثم

خامس عشر سيدنا موسي عليه السلام واخاه نبي الله هارون كما نعلم

سادس عشر سيدنا هارون عليه السلام

ثم كان فى بنى اسرائيل انبياء لم يذكرهم القران الكريم ولم يذكر منهم الا

سابع عشر سيدنا الياس عليه السلام

ثامن عشر و سيدنا اليسع عليه السلام

تاسع عشر و سيدنا داود عليه السلام وابنه نبي الله سليمان عليه السلام

عشرون سيدنا سليمان عليه السلام ومن بعده نبى الله يونس عليه السلام

حادى وعشرون سيدنا يونس عليه السلام

ولم يذكر القران الكريم انبياء من بعد يونس عليه السلام إلى سيدنا زكريا عليه السلام وابنه نبي الله يحي عليه السلام وابن خالته سيدنا عيسي عليه السلام

ثانى وعشرون سيدنا زكريا عليه السلام

ثالث وعشرون سيدنا يحي عليه السلام

رابع وعشرون سيدنا عيسي عليه السلام

وبعد فترة من انقطاع الرسل والانبياء من الله تعالى إلى على البشرية بان ارسل اليها خير رسله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وختم به الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين

خامس وعشرون سيد الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

لقد ذكر فى الكتاب المقدس انبياء كثيرين ولكن لا نذكرهم ولا نرفضهم فالله اعلم بالحقيقة لاننا نخشي ان نصدق بنى اسرائيل فى كذب او نكذبهم فى صدق كما اخبرنا بذلك المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم

ولعل سائل يسال فلماذا لم نسكت عن الاتهامات التى ذكروها فى حق الانبياء كما سكتنا عن ذكر الانبياء الاخرين

نقول الاجابة بسيطة لاننا سنتحدث عن الانبياء الذين جاء ذكرهم عندنا وعندهم وبهذا يحق لنا ان نقارن وان ننصف الانبياء وننتصر لهم مما ذكره بنوا اسرائيل

سيدنا ادم عليه السلام وبماذا اتهمه بنوا اسرائيل فى الكتاب المقدس

وكما راينا فى سورة المائدة الحوار والسؤال الذى وجهه الحق تبارك وتعالىلسيدنا عيسي- عليه السلام وهو اعلم به، وَإِذْ قال: اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قال: سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚتعالىتَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ

فرغم ان الله تعالى إلى يعلم ان سيدنا عيسي عليه السلام برئ من هذه التهمه الا أنه تعالى إلى وجه اليه السؤال،

لعل بنوا اسرائيل يرتدعون فى الدنيا ويفيفون حين يصل إلى مسامعهم هذا الحوار وايضا ليسمع الناس من سيدنا عيسي عليه السلام نفسه انه ابدا لم يقل يوما انه اله من دون الله

وبهذا تكون الحجة قد قامت على بنى اسرائيل مرتين فى الدنيا من خلال القران الكريم

وفى الاخرة يوم العرض الاكبر وساعتها يستحقون العذاب الاليم

ونحن بدورنا نحاول ان نقتدى بالقران الكريم وننبه بنى اسرائيل فى الدنيا قبل ان نشهد علبهم فى الاخرة ونقول لهم....

ماذا لو سال الله تعالى إلى نبي الله موسي عليه السلام

ياموسي هل اخبرتك فى التوراة.....

.....بانى اسكنت ادم الجنة ليعملها ويحفظها

حيث قال:وا فى سفر التكوين

وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا،

وهل اخبرتك

.....بانى وضعته فى

الجنة جاهلا وعاريا

حيث قال:وا فى سفر التكوين ابضا

وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً، ١٧وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ».

وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ

وهل اخبرتك

.....بانه اختبا منى فلم اعلم بمكانه ولا بخطاه

حيث قال:وا فى سفر التكوين

وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الإِلهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَاخْتَبَأَ آدَمُ وَامْرَأَتُهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الإِلهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. ٩فَنَادَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ وَقَالَ: لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». ١٠فَقَالَ:«سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشِيتُ، لأَنِّي عُرْيَانٌ فَاخْتَبَأْتُ». ١١فَقَالَ:«مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ

الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لاَ تَأْكُلَ مِنْهَا؟" ١٢فَقَالَ: آدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». ١٣فَقَالَ: الرَّبُّ الإِلهُ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟" فَقَالَ:تِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّتْنِي فَأَكَلْتُ».

وهل اخبرتك

.....بانى طردته من الجنة بعدما اصبح عارفا بكل شيئ فخشيت ان ياكل من شجرة الحياة و ينافسنى فى الخلود؟

لعلك عزيزى القارئ دهشت من هذه العبارات فقد كنت مثلك حتى قراتها فى كتابهم المقدس فى سفر التكوين

ونحن نعلم ونؤمن بان سيدنا موسي عليه السلام لم يبلغ قومه هذه الترهات كما نؤمن بان الله تعالى إلى لم يوحى بها لسيدنا موسي عليه السلام

انما هى من افتراءاتهم التى افتروا بها على الله تعالى إلى وانبياءه صلوات الله وسلامه علبهم

تدرى عزيزى القارئ لماذا؟

ليلبسوا على الناس دينهم. تخيل انهم افتروا هذا الكذب ليوهموا الناس بان ادم عليه السلام انما اهبط إلى الارض مطرودا لم يغفر له وانه اخطا فى حق الله

وبما ان الله غير محدود فجزاء هذه الخطيئة امرا غير محدود

وبما ان البشر كلهم محدودي القدرة والامكانيات فظل الله، حاشاه، فترة طويلة من الزمن يفكر كيف ياخذ حقه من ادم

فلم يجد، الاله، امامه بدا من ان ينزل بنفسه، حاشاه ويلتحم بامرأة هى مريم. ليخرج منها الاله المتناس وبهذا يستطيع ان يقدم للفداء فالجزء الألوهية الذى به يتحمل الصلب والقتل ليغفر للجزء البشرى

فوق ان هذا الكلام لايعقل ولايقبله عقل ولا دين ولايقبل احد ان الله تعالى إلى يتجسد او يقنل او يصلب إلى اخر هذه الامور

فما يساوى ادم وذريته لكى يقتل الاله نفسه من اجل خطا ارتكبه ادم

وماذنب الاله فى ان يرتكب انسانا خطيئة ويفديه اله بنفسه

طبعا هذه امور عجيبة وغريبه ومما يؤكد كذبهم وغرابة الامر وانه لم يحدث ان المصلوب عندهم صرخ وهو على الصليب قائلا كما جاء في إنجيل متى:" ونحو الساعة الثالثة صرخ يسوع صرخة شديدة قال:إيلى إيلى لما شبقتنى؟، أى إلهى لماذا تركتنى،

فهذا يعنى ان الجزء الالهى هرب وقت الصلب وبالت إلى لم يحدث مافكر فيه الاله وان الامر فى النهاية تحمله البشر

ومادام الامر كذلك فلما لم يتحمل ادم نتيجة ما ارتكب بدلا من هذا الامر الغريب

هل رأيتم لماذا اصبح من الضرورى ان ننتصر للأنبياء وننصفهم من كذب بنى اسرائيل وافتراءاتهم

ولقد بينا آراؤهم حول سيدنا ادم عليه السلام فما هى الحقيقة

وبينا اراءهم وافتراءاتهم ومن ثم وجب علينا ان نبين الحقيقة كما جاءت فى القران الكريم عن سيدنا ادم عليه السلام ولماذا اسكنه الله تعالى إلى الجنه ولماذا اهبط إلى الارض وهل غفر الله تعالى إلى له ام لا وما الدرس المستفاد؟

ولانه كما يقال: وبضدها تضح الاشياء رايت ان اسرد القصة كنا جاءت فى القران الكريم مقارن اياها

بما حاء فى العهد القديم

وكما وضحنا من قبل افتراءهم وكذبهم وزعمهم أن الرب جل وعلا، حاشاه لم يعلم بما حدث من آدم وزوجته إلا بعد أن أخبراه جل وعلا بما بدر منهم

ودليل ذلك ما اوردوه فى العهد القديم عن سؤال الرب لادم" من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التى نهيتك الا تاكل منها"

فإن قال:وا بأن السؤال قد يكون تقريرى اى أن الرب أراد أن ينطق آدم عليه السلام بما بدر منه نقول لهم بأن القرآن الكريم عبر عن ذلك بطريقة أكثر بلاغة وأوضح وأبعد عن الشك

فقال: سبحانه وتعالى (فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشيطان لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) الأعراف/٢٢

الا ان الأحبار ارادوا أن يبينوا لأبنائهم أن الحق جل وعلا، حاشاه، أصيب بذهول حين علم أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة

تدرى لماذا؟ لأنهم ذكروا أن الرب جل وعلا حين أسكن آدم الجنة لم يخبره بالحقيقة التى أخبر عنها القرآن الكريم حين قال: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَاتعالىرَى)طه/١١٨

ولن يحظى بذلك إلا إذا اتبع أوامر ربه حين قال: سبحانه وتعالى(قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ (البقرة ٣٥/

ففى القرآن الكريم ينبه الحق جل وعلا آدم عليه السلام بأنه سيجلب على نفسه الشقاء إن اقترب من الشجرة وأكل منها وعصى ربه سبحانه وتعالىلأنه فى الجنة فى النعيم المقيم الذى لايبذل جهدا للحصول عليه

فإن أخطأ وأكل من الشجرة سينزل إلى الأرض ويعمل فيها ويكد للحصول على ما يسد رمقه هو وابنائه ولذا قال: الحق سبحانه وتعالى) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) طه/١١٧

وذكر القران ذلك لأكثر من فائد:

حين يبين الحق سبحانه وتعالىنهيا لعباده فلا ينهاهم عن ارتكابه أو الوقوع فيه فحسب بل ينهاهم جل وعلا عن الاقتراب إلى المنكر فيقول سبحانه وتعالى(وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ (الانعام ١٥١

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم سبب ذلك حين قال::كراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه)

كما بين القرآن الكريم من أول وهله لآدم عليه السلام ما ينفعه وما يضره ولم يكذب عليه أو يخدعه بالإضافة إلى ذلك بين القرآن الكريم أن الفترة التى قضاها آدم عليه السلام فى الجنة إنما كانت فترة إعداد

وليتعلم آدم عليه السلام وبالتجربة ثواب من يطع الله سبحانه وتعالىوجزاء من يعص الحق سبحانه وتعالى

لأن الله جل وعلا إنما خلق آدم لإعمار الأرض فقال: سبحانه وتعالى(يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَأَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيها) هود/٦١

ثم إن لهم ميعاد قال: عنه سبحانه (وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ البقرة /٢٨١

بخلاف ما ذكر فى العهد القديم بهذا الخصوص فقالوا: أن الرب جل وعلا، حاشاه، خدع آدم عليه السلام حين قال:" من جميع شجر الجنة تأكل اكلا أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت "

فذكروا أن الرب جل وعلا حدد نوع الشجرة حتى لايأكل آدم منها ويصبح عارفا لكل شى ولذلك حين أكل من الشجرة غضب الرب لا لأنه عصى اوامره بل لأنه اصبح مصدر خطر

حتى زعموا أن الرب جل وعلا قال:" هوذا الانسان اصبح كواحد منا عارفا الخير والشر ' ولذلك سرعان ما فكر الرب، حاشاه فى طريقة يتخلص بها من آدم عليه السلام مبررا ذلك ' والأن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضا ويأكل ويحيا إلى الأبد '

فسارع الرب بإخراجه من الجنة' أخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الارض التى اخذ منها فطرد الإنسان'

مما شجع اليهود على إرساء مبدأ من أشد المبادئ خطورة بناء على ما قام به الرب فقال:وا فى) البروتوكول السادس(وفى الوقت نفسه سنعمل بكل وسيله ممكنه لطرد كل ذكاء اممى من الارض

أرايت عزيزى القارئ كيف رسم الأجداد من اليهود كتبة العهد القديم الطريق للأحفاد لاستئصال كوادر الأرض ونرى هذا بين الحين والأخر بما يقومون به من اغتيالات) قاتلهم الله)

زعموا أن الرب جل وعلا إنما وضع آدم عليه السلام فى الجنة لا ليتعلم كما ذكرنا ولكن ليعملها وليحفظها فقال:وا " ووضع الرب الإله آدم فى الجنة ليعملها وليحفظها"

وذكروا ذلك ليبينوا لأبنائهم إن هناك امورا قد يوكلها الرب ل

بعض خلقه ليتولوا حفظها لأنه فى شغل دائم ولا يستطيع متابعة كل شى حاشاه وتعالىعن ذلك علوا كبيرا

وأكدوا ذلك فقال:وا إن الرب دائما فى حاجة إلى حاخاماتهم بدليل أنهم ذكروا بعد نزول آدم عليه السلام إلى الأرض 'واقام شرقى جنة عدن الكرويم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة"

كما أراد الكهنة والأحبار ان يبينوا لأبنائهم أن المرأة هى سبب كل الشرور فهى فى نظرهم أول من تشككت فى كلام الرب حين سالت الحية" فقال:ت المرأة للحية من ثمر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال: الله لاتاكلا منها ولاتمساها لئلا تموتا "

ثم ذكروا أن آدم عليه السلام ما أكل من الشجرة إلا بعد أن أغوته حواء" فقال: المراة التى اعطيتنى هى التى أغرتنى فاكلت منها"

وما قال:وا ذلك إلا ليقللوا من مكانة المراة فجعلوا ذلك سببا فى عبوديتها للرجل فزعموا أن الرب جل وعلا بعد هذه الواقعه قال:" تكثيرا أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين اولا:د و إلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك"

ومن ثم فهم أول من أهان المرأة ولولا أن القرآن الكريم أخبرنا بمكانة المراة من الرجل فقال: سبحانه وتعالى) وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)البقرة / ٢٢٨

ووعد الحق سبحانه وتعالىالجميع نساء ورجال بقوله جل وعلا (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ) ال عمران /١٩٥ لو لا ذلك لظلت المرأة ترزخ تحت نير الذل والعبودية

كما زعموا أن الحية استطاعت أن تكشف ما حاول الرب إخفاءه عن آدم عليه السلام فقال:وا إن الحية " قال:ت الحية للمرأة لن تموتا بل الله عارف اته يوم تأكلان منها تتفتح اعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر "

وصدق الحق جل وعلا حين قال:" كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً) الكهف/٥ وهذا يفسر لنا سبب اتخاذهم الحية شعارا لهم فهم يحاولون تقليدها بكل السبل فى ليونتها إذا أرادوا الوصول إلى غرض ما وفى خداعها وتربصها بمن حولها للإنقضاض عليه حين تحين لها الفرصة.

كما زعموا ان الرب جل وعلا، حاشاه، قد يخطى

وصدق الحق جل وعلا حين قال:) لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ) التوبة/١١٠

لأن أخطاء بنى إسرائيل وافتراتهم إنما سجلوها فى كتبهم لتزال شاهدة على سوء صنيعهم فهم الأن لا يستطيعون التنصل منها أو إلغائها لأنهم حينئذ سيدمرون دستورهم

كما أن الإبقاء عليها يعرضهم لكثير من التساؤلات ومن ثم فهم يقاتلون بضراوة ليشغلوا الرآى العام عن هذه النصوص وليس هذا فحسب بل نراهم يلقون التهم جزافا ولاحول ولا قوة الا بالله

وباذن الله تعالى إلى نبين فى المقال: القادم ما افتراه بنوا اسرائيل على الله تعالى إلى ورسله صلوات الله وسلامه عليهم

ولأنهم يرتكبون العديد من الأخطاء فى حاضرهم واعمالهم أرادوا تبرير ذلك لأبنائهم فوضعوا نصوص فى العهد القديم والجديد تخبر أن الرب جل وعلا وهو رب العالمين حاشاه قد يخطى ويندم على فعل أقدم عليه من قبل و بهذا الكذب والافتراء استطاعوا اقناع ابناءهم بقبول ما يفعلونه مع البشر

كما أرادوا أن يبينوا لأبنائهم إن غيرهم من البشر لا يساوون شيئا عند الله جل وعلا ولكى يقنعوا اولا:دهم بهذا الهراء اختلقوا قصصا كذبوا فبها على الله تعالى إلى فمما افتروه انهم زعموا ان الله سبحانه وتعالىقرر أن يتخلص من البشر ولو أبادهم تماما

كل هذا ليثبتوا انه لا حرج إن هم ايضا ساهموا فى إبادة الجنس البشرى وإنما هم بذلك يقلدون الله جل وعلا لأنه سبحانه فى فكرهم إله بنى إسرائيل وليس لكل العالمين

ولتوضيح ما سبق سجلوا فى كتبهم هذا الكلام" وراى الرب ان شر الانسان قد كثر فى الارض وان كل تصور افكار قلبه انما هو شرير كل يوم فحزن الرب انه عمل الانسان فى الارض وتاسف فى قلبه سفر التكوين

" نرى فى هذا النص:

ـ زعموا قاتلهم الله أن الرب جل وعلا فوجئ بالشر الذى قام به بنوا آدم عليه السلام وهذا محال لأن الحق جل وعلا يقول) وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ: ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء) يونس /٦١

وهذا حقيقى لأن من البديهى أن يعلم الحق سبحانه وتعال

ى كل ما يصدر من خلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) ٭الملك / ١٤

إنما زعموا أن الرب أدرك أنه لافائدة من بقاء الإنسان على الأرض لأنه لم يكن على المستوى الائق ولم يقم بما هو مطلوب منه وبهذا اوهموا اولا:دهم ان الله تعالى إلى حاشاه،، يتابع افعاله فيصحح ما فسد منها

وبهذا استطاع احبار اليهود ان يشوهوا الكتب المنزلة من عند الله فاستحقوا اللعن والطرد من رحمة الله

تخيل انهم يقولون ذلك فى حق الله تعالى إلى فما بالك بالأنبياء او من دونهم ولذلك كان من الضروري ان يرسل الله تعالى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وينزل عليه القران الكريم وينزل فيه الاخبار صادقة لتمكننا من الشهادة للأنبياء بإذن الله

ـولم يكتفوا بذلك بل زعموا أن الرب جل وعلا حاشاه حزن وندم لما رأى شر الإنسان وفساده فى تزايد مستمر وهذا محال لأن الحق سبحانه وتعاليقول (إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (الزمر/٧ ثم لو أراد الله سبحانه وتعالىهلاك الدنيا ومن فيها فمن يحول بين الله جل وعلا وبين ذلك) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً)النساء/١٣٣

وما ذلك على الله بعزيز. إذن فما أخبر به بنوا إسرائيل أن الرب حزن وتأسف وشعر بالندم لخلقه الإنسان ما هو إلا من عند بنى إسرائيل ومن حقدهم الأعمى للبشر ورغبتهم الجامحة فى إبادة البشر وإن لم يجدوا إلا بنى جنسهم لحارب بعضهم بعضا

وهذه حقيقة ان يحاربوا انفسهم ان لم يجدوا من يحاربوه وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ · ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) البقرة/ ٨٤/٨٥

فهم يسيئون إلى انفسهم أفلا يسيئون إلى الأخرين ولكن المحزن هنا هو افترائهم على ذات الحق جل وعلا وهذا الظن السيء هو الذى عجل بانتقام الحق سبحانه وتعالىمنهم فقال: (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ) فصلت/٢٣

ولم يكتف بنوا إسرائيل بذلك اى إنهم نسبوا الحزن لله جل وعلا بل زعموا أن الرب قال:" امحو عن وجه الارض الانسان الذى خلقته '

وبهذه النصوص الكاذبة غرس الكهنة والأحبار فى كتبهم نصوصا ليصلوا لأبنائهم فكرة إبادة الأخر ولذا قال:وا فى فى البروتوكول الخامس عشر" ' (ولكى ترد كل الجماعات الأممية على أعقابها نستخدم معها إجراءات لا رحمة فيها بمثل هذه الاجراءات ستعرف الأمم ان سلطتنا لايمكن ان يعتدى عليها ويجب الا يعتد بكثرة الضحايا الذين سنضحى بهم للوصول إلى النجاح فى المستقبل لأننا لمتعالتد بالضحايا من ذرية اولئك البهائم من الأمميين وعقل الأممي لكونه ذا طبيعة بهيمية محضه فهو غير قادر على تحليل أي شى وملاحظته"

ولذا فلا عحب ان صار ابنائهم على هذا النهج الغريب حتى قال:وا فى التلمود" تقرب إلى الله بقتل الصالح من غير اليهود" وهذا يفسر لنا سبب قيام اليهود بين الحين والأخر بتصفية جسدية للعديد من الشخصيات البارزة فى العا لم وبخاصة المسلمين منهم كما يفسر لنا ما يقومون به من احتلال وتشريد لأهل البلاد التى يغتصبونها الْحَيَاةِ.

لعلك عزيزى القارئ دهشت من هذه العبارات فقد كنت مثلك حتى قراتها فى كتابهم المقدس فى سفر التكوين

ونحن نعلم ونؤمن بان سيدنا موسي عليه السلام لم يبلغ قومه هذه الترهات كما نؤمن بان الله تعالى إلى لم يوحى بها لسيدنا موسي عليه السلام

انما هى من افتراءاتهم التى افتروا بها على الله تعالى إلى وانبياءه صلوات الله وسلامه علبهم

تدرى عزيزى القارئ لماذا؟

ليلبسوا على الناس دينهم. تخيل انهم افتروا هذا الكذب ليوهموا الناس بان ادم عليه السلام انما اهبط إلى الارض مطرودا لم يغفر له وانه اخطأ فى حق الله

وبما ان الله غير محدود فجزاء هذه الخطيئة امرا غير محدود

وبما ان البشر كلهم محدودي القدرة والامكانيات فظل الله، حاشاه، فترة طويلة من الزمن يفكر كيف ياخذ حقه من ادم

فلم يجد، الاله، امامه بدا من ان ينزل بنفسه، حاشاه ويلتحم بامرأة هى مريم. ليخرج منها الاله المتانس وبهذا يستطيع ان يقدم للفداء فالجزء الالوهى الذى به يتحمل الصلب والقتل ليغفر للجزء البشرى

فوق ان هذا الكلام لايعقل ولايقبله عقل ولا دين ولايقبل احد ان الله تعالى إلى يتجسد او يقتل او يصلب إلى اخر هذه الامور

فما يساوى ادم وذريته لكى يقتل الاله نفسه من اجل خطا ارتكبه ادم

وماذنب الاله فى ان يرتكب انسانا خطيئة ويفديه اله بنفسه

طبعا هذه امور عجيبة وغريبه ومما يؤكد كذبهم وغرابة الامر وانه لم يحدث ان المصلوب عندهم صرخ وهو على الصليب قائلا كما جاء في إنجيل متى:" ونحو الساعة الثالثة صرخ يسوع صرخة شديدة قال:إيلى إيلى لما شبقتنى؟، أى إلهى لماذا تركتنى،

فهذا يعنى ان الجزء الالهى هرب وقت الصلب وبالت إلى لم يحدث مافكر فيه الاله وان الامر فى النهاية تحمله البشر

ومادام الامر كذلك فلما لم يتحمل ادم نتيجة ما ارتكب بدلا من هذا الامر الغريب

هل رأيتم لماذا اصبح من الضرورى ان ننتصر للأنبياء وننصفهم من كذب بنى اسرائيل وافتراءاتهم

ولقد بينا آراؤهم حول سيدنا ادم عليه السلام فما هى الحقيقة

وبينا اراءهم وافتراءاتهم ومن ثم وجب علينا ان نبين الحقيقة كما جاءت فى القران الكريم عن سيدنا ادم عليه السلام ولماذا اسكنه الله تعالى إلى الجنة ولماذا اهبط إلى الارض وهل غفر الله تعالى إلى له ام لا وما الدرس المستفاد؟

ولأنه كما يقال: وبضدها تضح الاشياء رأيت ان اسرد القصة كنا جاءت فى القران الكريم مقارن اياها

بما جاء فى العهد القديم

وكما وضحنا من قبل افتراءهم وكذبهم وزعمهم أن الرب جل وعلا، حاشاه لم يعلم بما حدث من آدم وزوجته إلا بعد أن أخبراه جل وعلا بما بدر منهم

ودليل ذلك ما اوردوه فى العهد القديم عن سؤال الرب لادم" من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التى نهيتك الا تأكل منها"

فإن قال:وا بأن السؤال قد يكون تقريرى أي أن الرب أراد أن ينطق آدم عليه السلام بما بدر منه نقول لهم بأن القرآن الكريم عبر عن ذلك بطريقة أكثر بلاغة وأوضح وأبعد عن الشك

فقال: سبحانه وتعالى (فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشيطان لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ) الأعراف/٢٢

الا ان الأحبار ارادوا أن يبينوا لأبنائهم أن الحق جل وعلا، حاشاه، أصيب بذهول حين علم أن آدم عليه السلام أكل من الشجرة

تدرى لماذا؟ لأنهم ذكروا أن الرب جل وعلا حين أسكن آدم الجنة لم يخبره بالحقيقة التى أخبر عنها القرآن الكريم حين قال: (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَاتعالىَ)طه/١١٨

ولن يحظى بذلك إلا إذا اتبع أوامر ربه حين قال: سبحانه وتعالى(قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ (البقرة ٣٥/

ففى القرآن الكريم ينبه الحق جل وعلا آدم عليه السلام بأنه سيجلب على نفسه الشقاء إن إقترب من الشجرة وأكل منها وعصى ربه سبحانه وتعالىلأنه فى الجنة فى النعيم المقيم الذى لايبذل جهدا للحصول عليه

فإن أخطأ وأكل من الشجرة سينزل إلى الأرض ويعمل فيها ويكد للحصول على ما يسد رمقه هو وابنائه ولذا قال: الحق سبحانه وتعالى) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) طه/١١٧

وذكر القران ذلك لأكثر من فائد:

حين يبين الحق سبحانه وتعالىنهيا لعباده فلا ينهاهم عن ارتكابه أو الوقوع فيه فحسب بل ينهاهم جل وعلا عن الاقتراب إلى المنكر فيقول سبحانه وتعالى(وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ (الانعام ١٥١

وبين الرسول صلى الله عليه وسلم سبب ذلك حين قال::كراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه) كما بين القرآن الكريم من أول وهله لآدم عليه السلام ما ينفعه وما يضره ولم يكذب عليه أو يخدعه بالإضافة إلى ذلك بين القرآن الكريم أن الفترة التى قضاها آدم عليه السلام فى الجنة إنما كانت فترة إعداد

وليتعلم آدم عليه السلام وبالتجربة ثواب من يطع الله سبحانه وتعالىوجزاء من يعص الحق سبحانه وتعالى

لأن الله جل وعلا إنما خلق آدم لإعمار الأرض فقال: سبحانه وتعالى(يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَأَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فيها) هود/٦١

ثم إن لهم ميعاد قال: عنه سبحانه (وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ البقرة /٢٨١

بخلاف ما ذكر فى العهد القديم بهذا الخصوص فقالوا: أن الرب جل وعلا، حاشاه، خدع آدم عليه السلام حين قال:" من جميع شجر الجنة تأكل اكلا أما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تاكل منها موتا تموت "

فذكروا أن الرب جل وعلا حدد نوع الشجرة حتى لايأكل آدم منها ويصبح عارفا لكل شى ولذلك حين أكل من الشجرة غضب الرب لا لأنه عصى اوامره بل لأنه اصبح مصدر خطر

حتى زعموا أن الرب جل وعلا قال:" هوذا الانسان اصبح كواحد منا عارفا الخير والشر ' ولذلك سرعان ما فكر الرب، حاشاه فى طريقة يتخلص بها من آدم عليه السلام مبررا ذلك ' والأن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضا ويأكل ويحيا إلى الأبد '

فسارع الرب بإخراجه من الجنة' أخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الارض التى اخذ منها فطرد الإنسان'

مما شجع اليهود على إرساء مبدأ من أشد المبادئ خطورة بناء على ما قام به الرب فقال:وا فى) البروتوكول السادس(وفى الوقت نفسه سنعمل بكل وسيله ممكنه لطرد كل ذكاء أممي من الارض

أرأيت عزيزى القارئ كيف رسم الأجداد من اليهود كتبة العهد القديم الطريق للأحفاد لاستئصال كوادر الأرض ونرى هذا بين الحين والأخر بما يقومون به من اغتيالات) قاتلهم الله)

زعموا أن الرب جل وعلا إنما وضع آدم عليه السلام فى الجنة لا ليتعلم كما ذكرنا ولكن ليعملها وليحفظها فقال:وا " ووضع الرب الإله آدم فى الجنة ليعملها وليحفظها"

وذكروا ذلك ليبينوا لأبنائهم إن هناك امورا قد يوكلها الرب ل

بعض خلقه ليتولوا حفظها لأنه فى شغل دائم ولا يستطيع متابعة كل شى حاشاه وتعالىعن ذلك علوا كبيرا

وأكدوا ذلك فقال:وا إن الرب دائما فى حاجة إلى حاخاماتهم بدليل أنهم ذكروا بعد نـزول آدم عليه السلام إلى الأرض 'واقـام شرقى جنـة عـدن الكـرويم ولهيـب سـيف متقلـب لحراسـة طريـق شجرة الحياة"

كما أراد الكهنة والأحبار ان يبينوا لأبنائهم أن المرأة هى سبب كل الشرور فهى فى نظـرهم أول من تشككت فى كلام الرب حين سالت الحية" فقال:ت المرأة للحية من ثمر الجنـة نأكـل وأمـا ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال: الله لا تأكلا منها ولاتمساها لئلا تموتا "

ثم ذكروا أن آدم عليه السلام ما أكل من الشجرة إلا بعد أن أغوته حواء" فقال: المراة الـتى أعطيتني هى التى أغرتنى فأكلت منها"

وما قال:وا ذلك إلا ليقللوا من مكانة المرأة فجعلوا ذلك سببا فى عبوديتها للرجـل فزعمـوا أن الرب جل وعلا بعد هذه الواقعة قال:" تكثيرا أكثر أتعاب حبلـك بـالوجع تلـدين اولا:د و إلى رجلـك يكون اشتياقك وهو يسود عليك"

ومن ثم فهم أول من أهان المرأة ولولا أن القرآن الكـريم أخبرنـا بمكانـة المـرأة مـن الرجـل فقال: سبحانه وتعالى) وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)البقرة / ٢٢٨

ووعد الحق سبحانه وتعالىالجميع نساء ورجال بقوله جل وعلا (فَاسْتَجَابَ لَهُـمْ رَبُّهُـمْ أَنِّـي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَـرٍ أَوْ أُنـثَى بَعْضُـكُم مِّـن بَعْـضٍ) ال عمـران /١٩٥ لـو لا ذلـك لظلـت المرأة ترزخ تحت نير الذل والعبودية

كما زعموا أن الحية استطاعت أن تكشف ما حاول الرب إخفاءه عن آدم عليه السلام فقال:وا إن الحية " قال:ت الحية للمرأة لن تموتا بل الله عارف اته يوم تأكلان منها تتفتح اعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر "

وصدق الحق جل وعلا حين قال:" كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً) الكهف/٥ وهذا يفسر لنا سبب اتخاذهم الحية شعارا لهم فهم يحاولون تقليدها بكل السبل فى ليونتها إذا أرادوا الوصول إلى غرض ما وفى خداعها وتربصها بمن حولها للانقضاض عليه حين تحين لها الفرصة.

كما زعموا ان الرب جل وعلا، حاشاه، قد يخطى

وصدق الحق جل وعلا حين قال:) لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ) التوبة/١١٠

لأن أخطاء بنى إسرائيل وافتراتهم إنما سجلوها فى كتبهم لتزال شاهدة على سوء صنيعهم فهم الأن لا يستطيعون التنصل منها أو إلغائها لأنهم حينئذ سيدمرون دستورهم

كما أن الإبقاء عليها يعرضهم لكثير من التساؤلات ومن ثم فهم يقاتلون بضراوة ليشغلوا الرآى العام عن هذه النصوص وليس هذا فحسب بل نراهم يلقون التهم جزافا ولاحول ولا قوة الا بالله

وبإذن الله تعالى إلى نبين فى المقال: القادم ما افتراه بنوا اسرائيل على الله تعالى إلى ورسله صلوات الله وسلامه عليهم

ولأنهم يرتكبون العديد من الأخطاء فى حاضرهم واعمالهم أرادوا تبرير ذلك لأبنائهم فوضعوا نصوص فى العهد القديم والجديد تخبر أن الرب جل وعلا وهو رب العالمين حاشاه قد يخطى ويندم على فعل أقدم عليه من قبل و بهذا الكذب والافتراء استطاعوا اقناع ابناءهم بقبول ما يفعلونه مع البشر

كما أرادوا أن يبينوا لأبنائهم إن غيرهم من البشر لايساوون شيئا عند الله جل وعلا ولكى يقنعوا اولا:دهم بهذا الهراء اختلقوا قصصا كذبوا فبها على الله تعالى إلى فمما افتروه انهم زعموا ان الله سبحانه وتعالىقرر أن يتخلص من البشر ولو أبادهم تماما

كل هذا ليثبتوا انه لا حرج إن هم ايضا ساهموا فى إبادة الجنس البشرى وإنما هم بذلك يقلدون الله جل وعلا لأنه سبحانه فى فكرهم إله بنى إسرائيل وليس لكل العالمين

ولتوضيح ما سبق سجلوا فى كتبهم هذا الكلام" ورأى الرب ان شر الانسان قد كثر فى الارض وان كل تصور افكار قلبه انما هو شرير كل يوم فحزن الرب انه عمل الانسان فى الارض وتأسف فى قلبه سفر التكوين

" نرى فى هذا النص:

ـ زعموا قاتلهم الله أن الرب جل وعلا فوجئ بالشر الذى قام به بنوا آدم عليه السلام وهذا محال لأن الحق جل وعلا يقول) وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ: ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء) يونس /٦١

وهذا حقيقى لأن من البديهي أن يعلم الحق سبحانه وتعال

ى كل ما يصدر من خلقه (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) ٱالملك / ١٤

إنما زعموا أن الرب أدرك أنه لافائدة من بقاء الإنسان على الأرض لأنه لم يكن على المستوى اللائق ولم يقم بما هو مطلوب منه وبهذا اوهموا اولا:دهم ان الله تعالى إلى حاشاه،، يتابع افعاله فيصحح ما فسد منها

سبب استحقاق اليهود للطرد واللعن

وبهذا استطاع احبار اليهود ان يشوهوا الكتب المنزلة من عند الله فاستحقوا اللعن والطرد من رحمة الله

تخيل انهم يقولون ذلك فى حق الله تعالى إلى فما بالك بالأنبياء او من دونهم ولذلك كان من الضرورى ان يرسل الله تعالى إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وينزل عليه القران الكريم وينزل فيه الاخبار صادقة لتمكننا من الشهادة للأنبياء باذن الله

ـولم يكتفوا بذلك بل زعموا أن الرب جل وعلا حاشاه حزن وندم لما رآ ى شر الإنسان وفساده فى تزايد مستمر وهذا محال لأن الحق سبحانه وتعالىيقول (إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (الزمر/٧ ثم لو أراد الله سبحانه وتعالىهلاك الدنيا ومن فيها فمن يحول بين الله جل وعلا وبين ذلك) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً)النساء/١٣٣

وما ذلك على الله بعزيز. إذن فما أخبر به بنوا إسرائيل أن الرب حزن وتأسف وشعر بالندم لخلقه الإنسان ما هو إلا من عند بنى إسرائيل ومن حقدهم الأعمى للبشر ورغبتهم الجامحة فى إبادة البشر وإن لم يجدوا إلا بنى جنسهم لحارب بعضهم بعضا

وهذه حقيقة ان يحاربوا انفسهم ان لم يجدوا من يحاربوه وفى هذا يقول الحق سبحانه وتعالى(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ · ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ) البقرة/ ٨٤/٨٥

فهم يسيئون إلى انفسهم أفلا يسيئون إلى الأخرين ولكن المحزن هنا هو افترائهم على ذات الحق جل وعلا وهذا الظن السئ هو الذى عجل بانتقام الحق سبحانه وتعالىمنهم فقال: (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ) فصلت/٢٣

ولم يكتف بنوا إسرائيل بذلك اى إنهم نسبوا الحزن لله جل وعلا بل زعموا أن الرب قال:" امحو عن وجه الارض الانسان الذى خلقته '

وبهذه النصوص الكاذبة غرس الكهنه والأحبار فى كتبهم نصوصا ليصلوا لأبنائهم فكرة إبادة الأخر ولذا قال:وا فى فى البروتوكول الخامس عشر" ' (ولكى ترد كل الجماعات الأممية على أعقابها نستخدم معها إجراءات لارحمة فيها بمثل هذه الاجراءات ستعرف الأمم ان سلطتنا لايمكن ان يعتدى عليها ويجب الا يعتد بكثرة الضحايا الذين سنضحى بهم للوصول إلى النجاح فى المستقبل لاننا لمتعالتد بالضحايا من ذرية اولئك البهائم من الاممين وعقل الأممى لكونه ذا طبيعه بهيميه محضه فهو غير قادر على تحليل اى شى وملاحظته"

ولذا فلا عحب ان صار ابنائهم على هذا النهج الغريب حتى قال:وا فى التلمود" تقرب إلى الله بقتل الصالح من غير اليهود" وهذا يفسر لنا سبب قيام اليهود بين الحين والأخر بتصفية جسدية للعديد من الشخصيات البارزة فى العا لم وبخاصة المسلمين منهم كما يفسر لنا ما يقومون به من احتلال وتشريد لأهل البلاد التى يغتصبونها

ما سبق كان نموذجا واحد مما اخطأ فيه بنوا إسرائيل فى حق انبياءهم ومما يستوجب علينا انصافهم

ولأننا بصدد التفسير فاكتفينا بذكر نموذج واحد والله المستعان

اما قوله تعالى: (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم).

اعلم أن قوله: (وما جعلنا) معناه ما شرعنا وما حكمنا كقوله: (ما جعل الله من بحيرة) [المائدة: ١٠٣] أي: ما شرعها ولا جعلها دينا، وقوله: (كنت عليها) أي: كنت معتقدا لاستقبالها، كقول القائل: كان لفلان على فلان دين، وقوله: (كنت عليها) ليس بصفة للقبلة، إنما هو ثاني مفعولي جعل، يريد: (وما جعلنا القبلة) الجهة التي كنت عليها.

ثم هاهنا وجهان:

الأول: أن يكون هذا الكلام بيانا للحكمة في جعل القبلة، وذلك لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان يصلي بمكة إلى الكعبة ثم أمر بالصلاة إلى بيت المقدس بعد الهجرة تأليفا لليهود، ثم حول إلى الكعبة، فنقول: (وما جعلنا القبلة) الجهة: (التي كنت عليها) اولا:، يعني: وما رددناك إليها إلا امتحانا للناس وابتلاء.

الثاني: يجوز أن يكون قوله: (التي كنت عليها) لسانا للحكمة في جعل بيت المقدس قبلة، يعني أن أصل أمرك أن تستقبل الكعبة وأن استقبالك بيت المقدس كان أمرا عارضا لغرض، وإنما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها قبل وقتك هذا، وهي بيت المقدس ؛ لنمتحن الناس وننظر من يتبع الرسول ومن لا يتبعه وينفر عنه.

وهاهنا وجه ثالث ذكره أبو مسلم، فقال:لولا الروايات لم تدل الآية على قبلة من قبل الرسول - عليه الصلاة والسلام - عليها ؛ لأنه قد يقال:كنت بمعنى صرت كقوله تعالى: (كنتم خير أمة) [آل عمران: ١١٠] وقد يقال:كان في معنى لم يزل كقوله تعالى: (وكان الله عزيزا حكيما) [النساء: ١٥٨] فلا يمتنع أن يراد بقوله: (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها) أي: التي لم تزل عليها وهي الكعبة إلا كذا وكذا.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)

نحن نعلم أن قد للتحقيق.. ونرى.. فعل مضارع مما يدل على أن الحدث في زمن التكلم.. الحق سبحانه وتعالىيعطينا صورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.. أنه يحب ويشتاق أن يتجه إلي الكعبة بدلا من بيت المقدس.. وكان عليه الصلاة والسلام قد اعتاد أن يأتيه الوحي من علو.. فكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتجه ببصره إلي السماء مكان إيتاء الوحي.. ولا يأتي ذلك إلا إذا كان قلبه متعلقا بأن يأتيه الوحي بتغيير القبلة.. فكأن هذا أمر شغله. إن الله سبحانه يحيط رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قد رأى تقلب وجه رسوله الكريم في السماء وأجابه ليتجه إلي القبلة التي يرضاها.. فهل معنى ذلك أن القبلة التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي بيت المقدس لم يكن راضيا عنها؟ نقول لا.. وإنما الرضا دائما يتعلق بالعاطفة، وهناك فرق بين حب

العاطفة وحب العقل.. ولذلك لا يقول أحد إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن راضيا عن قبلة بيت المقدس.. وإنما كان يتجه إلي بيت المقدس وفي قلبه عاطفة تتجه إلي الكعبة.. هذا يدل على الطاعة والالتزام.

الله يقول لرسوله عليه الصلاة والسلام: {فلنولينك قبلة ترضاها} أي تحبها بعاطفتك.. ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان يتطلع إلي هذا التغيير، فكأن عواطفه صلى الله عليه وسلم اتجهت لتضع مقدمات التحويل. قال: الله تعالى إلى: {فول وجهك شطر المسجد الحرام}.. والمراد بالوجه هو الذات كلها وكلمة شطر معناها الجهة

وقوله تعالى: {فول وجهك شطر المسجد الحرام}.. أي اجعل وجهك جهة المسجد الحرام أو اجعل المسجد الحرام في نصف الدائرة التي أمامك.. وفي الزمن الماضي كانت العبادات تتم في أماكن خاصة.. إلي أن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل الله له الأرض كلها مسجدا. إن المسجد هو مكان السجود ونظرًا لأن السجود هو منتهى الخضوع لله فسمى المكان الذي نصلي فيه مسجدا.. ولكن هناك فرق بين مكان تسجد فيه ومكان تجعله مقصورا على الصلاة لله ولا تزاول فيه شيئا آخر. المسجد مخصص للصلاة والعبادة.. أما المكان الذي تسجد فيه وتزاول حركة حياتك فلا يسمى مسجدًا إلا ساعة تسجد فيه.. والكعبة بيت الله. باختيار الله لذلك فإن الله يدافع عنها. وجميع مساجد الأرض بيوت الله باختيار خلق الله لذلك ترك الدفاع عنها لخلق الله ولذلك أيضا كان بيت الله باختيار الله قبلة لبيوت الله باختيار خلق الله.

وقوله تعالى: {وحيثما كنتم} يعني أينما كنتم.

{فولوا وجوهكم شطره}.. لأن الآية نزلت وهم في مسجد بني سلمة بالمدينة فتحول المسلمون إلي المسجد الحرام.. وحتى لا يعتقد أحد أن التحويل في هذا المسجد فقط والي الوقت الذي نزلت فيه الآية فقط قال تعالى: {وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره}.. وقوله جل جلاله: {وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون}.. أي أن الذين أوتوا الكتاب ويحاولون التشكيك في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم.. يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم ويعرفون أوصافه التي ذكرت في التوراة والإنجيل.. ويعلمون أنه صاحب القبلتين.. ولو لم يتجه الرسول صلى الله عليه وسلم من بيت المقدس إلي الكعبة.. لقال:وا إن التوراة والإنجيل تقولان إن الرسول الخاتم محمدًا صلى الله عليه وسلم يصلي إلي قبلتين فلماذا لم تتحقق؟ ولكان هذا أدعى إلي التشكيك.

إذن فالذين أوتوا الكتاب يعلمون أنه الحق من ربهم.. لأنهم في التوراة أن الرسول الذي سيجيئ وسيتجه إلي بيت المقدس ثم يتجه إلي البيت الحرام.. فكأن هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب تثبيت لإيمانهم بالرسول عليه الصلاة والسلام وليس سببا في زعزعة اليقين. وقوله تعالى: {وما الله بغافل عما يعملون}.. يريد الحق تبارك وتعالىأن يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشكيكهم لا يقدم ولا يؤخر.. فموقفهم ليس لطلب الحجة ولكن للمكابرة.. فهم لا يريدون حجة ولا دليلا إيمانيًا.. ولكنهم يريدون المكابرة

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥)

اتباع القبلة مظهر إيماني في الدين، فمادمت آمنت بدينك فاتبع قبلتك.. لا أؤمن بدينك لا اتبع قبلتك. وقوله تعالى: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ} ساعة تسمع (ولئن) واو ولام وإن.. هذا قسم. فكأن الحق تبارك وتعالىأقسم أنه لو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه ولا اتبعوا قبلته.. لماذا؟ لأنهم لا يبحثون عن دليل ولا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد.. ولو كانوا يريدون دليلا أو اقتناعا لوجدوه في كتبهم التي أنبأتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه النبي الخاتم وأعطتهم أوصافه.. فكأن الدليل عندهم ولكنهم يأخذون الأمر سفها وعنادا ومكابرة.وقوله تعالى: {وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ}.. فكأنه حين جاءت الآية بتغير القبلة أعلمنا الله أن

المسلمين لن يعودوا مرة أخرى إلى الاتجاه نحو بين المقدس ولن يحولهم الله إلى جهة ثالثة.. ولكي يعلمنا الله سبحانه وتعالىأن اليهود والنصارى سيكونون في جانب ونحن سنكون في جانب آخر.. وأنه ليس هناك التقاء بيننا وبينهم. قال: سبحانه: {وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ}.. فالخلاف في القبلة مستمر إلى يوم القيامة.وقول الحق: {وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظالمين}.. حين يخاطب اللهُ سبحانه وتعالىرسوله وحبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه الآية.. وهو يعلم أن محمدا الرسول المعصوم لا يمكن أن يتبع أهواءهم.. نقول إن المقصود بهذه الآية هي أمة محمد صلى الله عليه وسلم.إن الله يخاطب أمته في شخصه قائلا: {وَلَئِنِ اتبعت أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ العلم إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظالمين}..

ما هي أهواء أهل الكتاب؟ هي أن يهادنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يقول إن ما حرفوه في كتبهم أنزله الله.. وهكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعا.. فكأن الله سبحانه وتعاليريد أن يلفت أمة محمد عليه الصلاة والسلام.. إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب وما حرفوه سيكون من الظالمين مهما كانت درجته من الإيمان.. وإذا كان الله تبارك وتعالىلن يقبل هذا من رسوله وحبيبه فكيف يقبله من أي فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم؟إن الخطاب هنا يمس قمة من قمم الإيمان التي تفسد العقيدة كلها.. والله سبحانه وتعاليريدنا أن نعرف أنه لا يتسامح فيها ولا يقبلها حتى لو حدثت من رسوله ولو أنها لن تحدث.. ولكن لنعرف أنها مرفوضة تماما من الله على أي مستوى من مستويات الإيمان حتى في مستوى القمة فتبتعد أمة محمد عن مثل هذا الفعل تماما.

وسبحان الله فبالبحث فى كتبهم تبين لنا صدق الله تعالى إلى فى قوله جل وعلا، وما بعضهم بتابع قبلة بعض

فلقد شرح ذلك اكبر علماءهم وهو البابا شنودة الثالث: فى كتاب له بعنوان اللاهوت المُقارن (الجزء الأول)، الكُلّيّة الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس – صـ١٧. [الكنيسة كبناء: البعض يتطرَّف فيُنكر الكنيسة كبناء، على اعتبار أنَّ الله مالئ السَّماء والأرض، لا يسكن مكاناً، ولكن عُمُوماً توجد كنائس للبروتستانت، ولكنَّها بلا هياكل، ولا حجاب، ولا تتقيَّد بمنارات أو قباب، وبلا أيقونات. كل ما فيها منبر للوعظ ومقاعد، كالجمعيات التي تتخصَّص في الوعظ عندنا. لا اتجاه إلى الشَّرق: كنائس البروتستانت لا تتَّجه إلى الشَّرق، مثل كنائسنا، كذلك إذا وقفوا للصلاة، لا يتَّجهون إلى الشَّرق، بل في أي اتجاه، حسب موضع كلّ منهم.]

ويضيف البابا شنودة الثالث:فى كتابه اللاهوت المُقارن (الجزء الأول)، الكُلّيّة الإكليريكية للأقباط الأرثوذكس – صـ١٤٦. [الاتِّجاه إلى الشَّرق: إنَّنا نبني كنائسنا مُتَّجِهة إلي الشَّرق. ونُصلِّي ونحن مُتَّجِهون إلي الشَّرق، لأنَّ الشَّرق يُوجِّه قُلُوبنا إلي تأمُّلات نعتزّ بها، حتى أصبح بالنِّسبة إلينا رمزاً. وأيضاً من أجل أهمية الشَّرق في فكر الله كذلك، فإن كان الله قد اهتمّ به، فلنهتمّ به نحن أيضاً.]

وقوله تعالى إلى، الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)

الله تبارك وتعالىيقول إن الذين جاءهم الكتاب قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفونه.. يعرفون ماذا؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة؟ أم يعرفون أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثه ورسالته التي يحاولون أن يشككوا فيها؟ الله سبحانه وتعالىيشرح لنا ذلك في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين} [البقرة: ٨٩].

فكأن اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم.. ومكتوب في التوراة والإنجيل أنه الحق ومطلوب منهم أن يؤمنوا به.. إن كعب الأحبار كان جالسا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان موجودا فسأله عمر أكنتمتعالمرفونه يا كعب؟ أي أكنتمتعالمرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ورسالته وأوصافه؟ فقال: كعب وهو من أحبار اليهود.. أعرف كمعرفتي

لابني، ومعرفتي لمحمد أشد.. فلما سألوه لماذا؟ قال: لأن ابني أخاف أن تكون امرأتي خانتني فيه أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فأوصافه مذكورة بالدقة في التوراة بحيث لا نخطئه.

إذا فأهل الكتاب يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرفون زمنه ورسالته.. والذين أسلموا منهم وآمنوا فعلوا ذلك عن اقتناع، أما الذين لم يؤمنوا وكفروا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفوا ولكنهم كتموا ما يعرفونه.. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالىعنهم: {وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

. وساعة تقول كتم الشيء.. فكأن الشيء بطبيعته كان يجب أن يبرز وينتشر.. والحق بطبيعته لابد أن يبرز وينتشر ولكن إنكار الحق وكتمه يحتاج إلى مجهود.

إن الذين يحققون في القضايا الدقيقة يحاولون أن يمنعوا القوة أن تكتم الحق.. فيجعلون من يحققون معه لا ينام حتى تنهار قواه فينطق بالحقيقة.. لأن النطق بالحق لا يحتاج إلى مجهود، أما كتم الحق فهو الذي يحتاج إلى مجهود وقوة، وعدم النطق بالحق عملية شاقة.. ولكن الله سبحانه وتعالىيقول: {لَيَكْتُمُونَ الحق وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.. أي أنهم ليسوا جاهلين ولكنهم على علم بالحقيقة.. والحق من الله فهل يستطيع هؤلاء كتمانه؟

ولقد ذكر رحمت الله الهندى في مقدمة كتابه اظهار الحق ما نصه (ولما غير الربانيون والأحبار كتاب التوراة راعوا ان تكون نصوص النبوءات عن محمد صلى الله عليه وسلم نبى الاسلام واضحة للدارسين وخافية عن غير الدارسين)

طبعا لا يستطيعون كتمان الحق، لابد أن يظهر.. فإذا انتشر الكذب والباطل فهو كالألم الذي يحدث في الجسد.. الناس تكره الألم ولكن الألم من جنود الشفاء لأنه يجعلك تحس أن هناك شيئا أصابه مرض فتتجه إليه بأسباب العافية.

إن أخطر الأمراض هي التي لا يصاحبها ألم ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد فات وقت العلاج.. والحق دائما غالب على أمره ولذلك لا توجد معركة بين حقين.. أما الباطل فتوجد معركة بين باطل وباطل. وبين حق وباطل. لأنه لا يوجد إلا حق واحد أما الباطل فكثير.

والمعارك بين الحق والباطل تنتهي بهزيمة الباطل بسرعة.. ولكن الذي يطول هو معركة بين باطلين.. ولذلك فإن معارك العصر الحديث تطول وتتعب الدنيا.. فمعارك الحرب العالمية الثانية مثلا لازالت آثارها ممتدة حتى الآن في الحرب الباردة وغير ذلك من الحروب الصغيرة.. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

وقصة حيى بن اخطب اكبر دليل على معرفتهم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم

تروي أم المؤمنين صفية بنت حيى بن أخطب زعيم يهود بني قريظة فتقول:" كنت أحب ولد أبي إليه، و إلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قال:ت: فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيى بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب، مغلسين، الغلس: ظلام آخر الليل.،

قال:ت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قال:ت: فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى. قال:ت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إليّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قال:ت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيى بن أخطب: أهو هو؟ قال:نعم والله!

قال:أتعرفه وتثبته؟ قال:نعم. قال:فما في نفسك منه؟ قال:عداوته والله ما بقيت"

وبهذا يتضح لنا ان كبار اليهود رفضوا الاعتراف بسيدنا محمد صلى الله علبه وسلم جحودا وعنادا ولم يكتفوا بذلك بل اضلوا من وراءهم من اليهود

{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)}

الحق من الله سبحانه وتعالى.. ومادام من الله فلا تكونن من الذين يشكون في أن الحق سينتصر.. ولكن الحق لابد من قوة تحميه.. وكما يقول الشاعر:

السيف إن يزهى بجوهره *** وليس يعمل إلا في يدي بطل

فما فائدة أن يكون معك سيف بتار.. دون أن توجد اليد القوية التي ستضرب به.. ونحن غالبا نكون مضيعين للحق لأننا لا نوفر له القوة التي ينتصر بها.

وقوله تعالى: {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الممترين}.. الممتري هو الذي يشك في حدوث الشيء.. والشك معناه أنه ليست هناك نسبة تتغلب على نسبة.. أي أن الاحتمالين متساويان.. ولكن الحق من الله ولا توجد نسبة تقابله.. ولذلك لا يجب أن نشك ولا ندخل في جدل عقيم حول انتصار الحق.

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)

شاء الله سبحانه أن يجعل الإنسان مختارا.. ومن هنا فإن له الاختيار في أن يؤمن أو لا يؤمن.. أن ينصر الحق أو ينصر الباطل.. أن يفعل الخير أو يفعل الشر.. كل هذه اختبارات شاء الله أن يعطيها للإنسان في الدنيا بحيث يستطيع أن يفعل أو لا يفعل.. ولكن هذا لن يبقى إلى الأبد. إن هذا الاختيار موجود في الحياة الدنيا.

ولكن بشرية الإنسان تنتهي ساعة الاحتضار فعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصبح الإنسان مقهورا وليس مختارا.. فهو لا يملك شيئا لنفسه ولا يستطيع أن يقول لن أموت الآن.. انتهت بشريته وسيطرته على نفسه حتى أعضاؤه تشهد عليه.. ففي الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التي يتجه إليها، هذا يختار الكفر وهذا يختار الإيمان.. هذا يختار الطاعة وهذا يختار المعصية، فمادام للإنسان اختيار فكل واحد له وجهة مختلفة عن الآخر.. والذي يهديه الله يتجه إلى الخيرات وكأنه يتسابق إليها.. لماذا؟ لأنه لا يعرف متى يموت ولذلك كلما تسابق إلى خير كان ذلك حسنة أضافها لرصيده.

إن المطلوب من المؤمنين في الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله.. لأنه كما يقول عز وجل: {أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ الله جَمِيعاً}.. أي أنه ليس هناك مكان تستطيعون أن تختفوا فيه عن علم الله تبارك وتعالىبل هو يعرف أماكنكم جميعا واحدا واحدا وسيأتي بكم جميعا مصداقا لقوله تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجبال وَتَرَى الأرض بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً} [الكهف: ٤٧].

وقوله سبحانه: {ففروا إلى الله إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} [الذاريات: ٥٠].

أي أن الحق جل جلاله يريدنا أن نعرف يقينا أننا لا نستطيع أن نفر من علمه. ولا من قدره ولا من عذابه.. وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو أن نفر إلى الله.. وأنه لا منجاة من الله إلا إليه.. ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله.. ولا يظن أنه لن يكون موجودا يوم القيامة أو أنه لن يحاسب أو أنه يستطيع أن يختفي.

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في منعة من الله وأنهم لن يلاقوه.. نقول لهم إنكم ستفاجأون في الآخرة حينتعالىرفون أن الحساب حق والجنة حق والنار حق. ستفاجأون بما سيحدث لكم.. ومن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيلقى الخزي والعذاب الأليم.. إن الله ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع في الخيرات لننجوا من عذابه، ويقول لنا لن يفلت واحد منكم ولا ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدي الله للحساب.. ولذلك ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.. أي أن الله سبحانه وتعالىلا يعجزه شيء ولا يخرج عن طاعته شيء.. إنه سبحانه على كل شيء قدير.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىمَلُونَ (١٤٩)

لابد أن نتأمل كم مرة أكد القرآن الكريم قضية تحويل القبلة.. أكدها ثلاث مرات متقاربة.. لأن تحويل القبلة أحدث هزة عنيفة في نفوس المؤمنين.. والحق سبحانه وتعالىيريد أن يُذهب هذا الأثر ويؤكد تحويل القبلة تأكيدا إيمانيا.

لقد جاء بثلاث آيات التي هي أقل الجمع.. واحدة للمتجه إلى الكعبة وهو داخل المسجد.. والثانية للمتجه وهو خارج المسجد.. والثالثة للمتجه من الجهات جميعا.

قوله تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجد الحرام}.. هو رد على المنافقين واليهود والنصارى الذين حاولوا التشكيك في الإسلام.. بأن واجهوا المسلمين بقضية تغيير

القبلة.. على أساس أنها قضية ما كان يجب أن تتم لأنه ليس فيها زيادة في التكليف ولا مشقة زائدة تزيد ثواب المؤمن.. فالجهد الذي يبذله المؤمن في الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو نفس

الجهد الذي يبذله في الاتجاه إلى البيت الحرام.. فأنت إذا اتجهت في صلاتك يمينا أو شمالا أو شرقا أو غربا فإن ذلك لا يضيف إليك مشقة. فما هو سبب التغيير؟.

نقول لهم إن هذه ليست حجة للتشكيك في تحويل القبلة لأن الاتجاه إلى المسجد الحرام هو طاعة الله.. ومادام الله سبحانه وتعالىقد قال: فعلينا أن نطيع طاعة إيمانية.. يقول المولى جل جلاله: {وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّه بِغَافِلٍ عَمَّاتعالىمَلُونَ}.. أي أن ما فعلتموه من تحويل القبلة هو حق جاءكم من الله تبارك وتعالى.. والله عز وجل ليس غافلا عن عملكم بحيث تكونون قد اتجهتم إلى البيت الحرام. بل الله يعلم ما تبدون وما تكتمون.. فاطمئنوا أنكم على الحق وولوا وجوهكم تجاه المسجد الحرام.. واعملوا أن الله سبحانه محيط بكم في كل ماتعالىملون.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)

الحق تبارك وتعالىيؤكد لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتوجه هو والمسلمون إلى المسجد الحرام.. سواء كانوا في المدينة أو في خارج المدينة أو في أي مكان على الأرض.. وتلك هي قبلتهم في كل صلاة بصرف النظر عن المكان الذين يصلون فيه.

وقوله تعالى: {لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}.. الناس هنا المقصود بهم المنافقون واليهود والنصارى.. حجة في ماذا؟ لأن المسلمين كانوا يتجهون إلى بيت المقدس فاتجهوا إلى المسجد الحرام.. وليس لبيت المقدس قدسية في ذاته ولا للمسجد الحرام قدسية في ذاته كما قلنا.. ولكن نحن نطيع الأمر من الآمر الأعلى وهو الله.. إن الله تبارك وتعالىأطلق على المنافقين واليهود والنصارى كلمة (ظلموا) ووصفهم بأنهم الذين ظلموا.. فمن هو الظالم؟ الظالم هو من ينكر الحق أو يغير وجهته. أو ينقل الحق إلى باطل والباطل إلى حق.. والظلم هو تجاوز الحد وكأنه سبحانه وصفهم بأنهم ق تجاوزوا الحق وأنكروه يقول سبحانه: {فَلاَ تَخْشَوْهُمْ} أي لا تخشوا الذين ظلموا: {واخشوني وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.. أي أن الخشية لله وحده والمؤمن لا يخشى بشرا.. لأنه يعلم أن القوة لله جميعا.. ولذلك فإنه يقدم على كل عمل بقلب لا يهاب أحدا إلا الحق.

وقوله سبحانه: {وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.. تمام النعمة هو الإيمان. وتمام النعمة هو تنفيذ مطلوبات الإيمان.. فإذا هدانا الله للإيمان فهذا من تمام نعمة علينا. ولكي يكونُ الإيمان صحيحا ومقبولا فلابد أن أؤدي مطالبه والمداومة على تنفيذ تكليفات الله لنا، فلا نجعل التكليف ينقطع. لأن التكليف نعمة بغيرها لا تصلح حياتنا ولا تتو إلى نعم التكليف من الله سبحانه وتعالىإلا إذا أقبلنا على منهج الله بعشق.. وأنت حينما تأتي إلى المنهج قد يكون شاقا، ولكن إذا تذكرت ثواب كل طاعة فإنك ستخشع وتعشق التكليف.. لأنكتعالىرف العمل الصالح بثوابه والعمل في المعصية بعقابه.. ولذلك قال: الله تبارك وتعالى: {واستعينوا بالصبر والصلاة وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ٤٥-٤٦].

إذن الخاشعون هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب والمعصية بالعقاب والعذاب، لأن الذي ينصرف عن الطاعة لمشقتها عزل الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة، والذي يذهب إلى المعصية عزل المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة.. فمن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان.. ولذلك في حجة الوداع نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة: {اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً} [المائدة: ٣].

وكان ذلك إخبارا بتمام رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن الأحكام التكليفية قد انتهت.. ولكن الذين يستثقلون التكليف تجدهم يقولون لك لقد عم الفساد والله لا يكلف نفسا إلا وسعها.. كأنه يحكم بأن هذا في وسعه وهذا ليس في وسعه وعلى ضوئه يأخذ التكليف.. نقول له أَكَلَّفَ الله أم لم يُكلِّف، إن كان قد كَلّف فيكون التكليف في وسعك.. لأنه سبحانه حين يجد مشقة يأمر التخفيف مثل إباحة قصر الصلاة للمسافر وإباحة الإفطار في رمضان للمريض والمسافر فهو سبحانه قد حدد ما في وسعك.

قوله تعالى: {وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.. الهداية هي الطريق المستقيم الموصل إلى الغاية وهو أقصر الطرق، وغاية هذه الحياة هي أن تصل إلى نعيم الآخرة.. الله أعطاك في الدنيا الأسباب لتحكم حركة حياتك ولكن هذه ليست غاية الحياة.. بل الغاية أن نذهب إلى حياة بلا أسباب وهذه هي عظمة قدرة الله سبحانه وتعالى.. والله جل جلاله يأتي ليعلمنا في الآخرة أنه خلقنا لنعيش في الدنيا بالأسباب وفي الآخرة لنعيش في كنفه بلا أسباب.

إذن قوله تعالى: {وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.. أي لعلكم تنتبهون وتعرفون الغاية المطلوبة منكم.. ولا يظن أحدكم أن الحياة الدنيا هي الغاية أو هي النهاية أو هي الهدف.. فيعمل من أجل الدنيا فيأخذ منها ما يستطيع حلالا أو حراما باعتبارها المتعة الوحيدة المخلوقة له.. نقول لا، إنه في هذه الحالة يكون قد ضل ولم يهتد لأنه لو اهتدى لعرف أن الحياة الحقيقية للإنسان هي في الآخرة. ولعرف أن نعيم الآخرة الذي لا تفوته ولا يفوتك.. يجب أن يكون هدفنا في الحياة الدنيا فنعمل ما نستطيع لنصل إلى النعيم بلا أسباب في الجنة.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُواتعالىلَمُونَ (١٥١)

الله جل جلاله بعد أن حدثنا عن الهداية إلى منهجه و إلى طريقه. حدثنا عن نعمته علينا بإرسال رسول يتلو علينا آيات الله. ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي ستأتي على يديه قمة النعم وهو القرآن والدين الخاتم.

قوله تعالى: {رَسُولاً مِّنْكُمْ} أي ليس من جنس آخر. ولكنه صلى الله عليه وسلم رسول منكمتعالىرفونه قبل أن يكلف بالرسالة وقبل أن يأتي بالحجة.. لماذا؟ لأنه معروف بالخلق العظيم وبالقول الكريم والأمانة وبكل ما يزيد الإنسان رفعة وعلوا واحتراما.. إن أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم هم أولئك الذين يعرفونه أكثر من غيرهم.. كأبي بكر الصديق وزجته صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب.. هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا لأنهم أخذوا الإيمان من معرفتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلف بالرسالة.. فهم لم يعرفوا عنه كذبا قط. فقال:وا إن الذي لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله فآمنوا.. فالله سبحانه وتعالىمن رحمته أنه أرسل إليهم رسولا منهم أميا ليعلمه ربه.. ولذلك قال: الحق تبارك وتعالى: {لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨].

الحق سبحانه يقول: {يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ}.. الآيات هي القرآن الكريم والتزكية هي التطهير ولابد أن يكون هناك دنس ليطهرهم منه.. فيطهرهم من عبادة الأصنام ومن وأد البنات والخمر والميسر والربا.. ومعنى التزكية أيضا سلب الضار فكأنه جاءهم بالنفع وسلب منهم الضر.

وقوله تعالى: {وَيُعَلِّمُكُمُ الكتاب والحكمة}.. الكتاب على إطلاقه ينصرف إلى القرآن الكريم والحكمة هي وضع الشيء في موضعه.. والكتاب يعطيك التكليف إما أن يأمرك بشيء وإما أن ينهاك عن شيء.

إذن فهي دائرة بين الفعل والترك.. والحكمة أن تفعل الفعل الذي يحقق لك خيرا ويمنع عنك الشر. وهي مأخوذة من الحكمة أو الحديدة التي توضع في فم الجواد لتحكم حركته في السير والوقوف، وتصبح كل حركة تؤدي الغرض منها والحكمة أيضا هي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى: {واذكرن مَا يتلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله والحكمة} [الأحزاب: ٣٤].

وقوله سبحانه: {وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْتعالىلَمُونَ} لأنكم أمة أمية. فإن بهرتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونهم بالإشعاعات الإيمانية التي تجعلكم متفوقين عليهم.. فكل ما يأتيكم من السماء هو فوق كل حضارات الأرض.. لذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما عمر لولا الإسلام.

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

قوله تعالى: (فاذكروني) أي كل هذه النعم والفضل عليكم يجب ألا تنسوها.. أنتعاليشوا دائما في ذكر من أنعم عليكم.. فالله سبحانه وتعاليريد من عباده الذكر وهم كلما ذكروه سبحانه وشركوه شكرهم وزادهم.. والله سبحانه وتعاليقول في حديث قدسي: (أنا عند حسن ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة).

هذه هي رغبة الكريم في أن يعطي بشرط أن نكون أهلا للعطاء لأنه يريد أن يعطيك أكثر وأكثر.. فقوله تعالى: (اذكروني) أي اذكروا الله في كل شيء. في نعمه. في عطائه. في ستره. في

رحمته. في توبته. يقول بعض الصالحين: سمعت فيمن سمع عن حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك إذا ما أقبلت على شرب الماء فقسمه ثلاثا.. أول جرعة قبل باسم الله واشربها، ثم قل الحمد لله وابدأ شرب الجرعة الثانية وقل باسم الله وبعد الانتهاء منها قل الحمد لله.. ثم قل باسم الله واشرب الجرعة الثالثة واختمها بقولك الحمد لله. فمادام هذه الماء في جوفك فلن تحدثك ذرة من جسدك بمعصية الله. جربها يوما في نفسك وقل باسم الله واشرب، وقل الحمد لله وكررها ثلاث مرات فإنك تكون قد استقبلت النعمة بذكر المنعم وأبعدت عن نفسك حولك وقوتك، وأنهيت النعمة بحمد الله. ولكن لماذا الماء؟ لأن الماء في الجوف أشبع من أي شيء آخر.

قوله تعالى: {واشكروا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} الشكر على النعمة يجعل الله سبحانه وتعاليزيدك منها. واقرأ قوله تبارك وتعالى: {لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: ٧].

وشكر الله يذهب الغرور عن نفسك فلا تفتنك الأسباب وتقول أوتيته على علم مني. {وَلاَ تَكْفُرُونِ} أي لا تستروا نعم الله بل اجعلوها دائما على ألسنتكم.. فإن كل نعمة من نعم الله لو استقبلت بقولك (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) لا ترى في النعمة مكروها أبدا لأنك حصنت النعمة بسياج المنعم.. أعطيت لله حقه في نعمته فإن لم تفعل وتركتها كأنها منك وأنت موجدها ونسيت المنعم وهو الله سبحانه وتعالى فإن النعمة تتركك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)

الله سبحانه وتعالى يطالبنا أن نستعين بالصبر والصلاة.على ماذا؟ على كل ما يطلبه منا الله.. على تكليفاته ومنهجه نستعين على ذلك بالصبر والصلاة.. ولكن لماذا الصبر؟ لأن الصبر هو منع النفس من أي شيء يحدث وهو يأخذ ألوانا شتى حسب تسامي الناس في العبادة.

فمثلا سئل الإمام علي رضي الله عنه عن حق الجار؟ قال:تعالسلمون أنك لا تؤذيه؟ قال:وا نعم.. قال: وأن تصبر على أذاه.. فكأنه ليس مطلوبا منك فقط ألا تؤذي جارك بل تصبر على أذاه.. والصبر هو الذي يعينك على أن تفعل ما أمرك الله به ولا تفعل ما نهاك عنه.

إن الله منعك من أشياء هي من شهوات النفس وأمرك بأشياء فيها مشقة وهذه محتاجة إلى الصبر.. وأنت أن أخذت منهج الله تعالىبدأ ستأخذه فيما بعد عادة. يقول أحد الصالحين في دعائه: اللهم إني أسألك ألا تكلني إلى نفسي. فإني أخشى. يا رب ألا تثيبني على الطاعة لأنني أصبحت أشتهيها فسبحانك أمرتنا أن نحارب شهواتنا.. انظر إلى الطاعة من كثرة حب الله أصبحت مرغوبة محببة إلى النفس.. رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول لبلال ساعة الآذان: (أرحنا بها يا بلال). ولم يقل كما يقول بعض الناس والعياذ بالله أرحنا منها؛ ذلك أن هناك من يقول لك أن الصلاة تكون على كتفي مثل الجبل وأرتاح، نقول له أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها؛ لأنك وقفت بين يدي الله المكلف، ومادام الإنسان واقفا أمام ربه فكل أمر شاق يصبح سهلا.

يقول أحد العابدين: أنا لا أواجه الله بعبوديتي ولكن أواجهه بربوبيته فأرتاح لأنه ربي ورب العالمين.. الذي له أب يعينه لا يحمل هما فما بالك بالذي له رب يعينه وينصره.

قول الحق سبحانه: {إِنَّ اللَّه مَعَ الصابرين} أي أنه يطلب منك أن تواجه الحياة في معية الله؛ فأنت لو واجهت المشكلات في معية من تثق في قوته تواجه الأمور بشجاعة فما بالك إذا كنت في معية الله وكل شيء في الوجود خاضع لله، أيجرؤ شيء أن يقف أمامك وأنت مع الله؟

إن الأحداث لا تملأ الخلق بالفزع والهلع إلا ساعة الانفلات من حضانة ربهم.. وإنما من يعيش في حضانة ربه لا يجرؤ عليه الشيطان فالشيطان خناس.. ما معنى خناس؟ إذا سهوت عن الله اجترأ عليك وإذا ذكرت الله خنس وضعف؛ فهو لا قوة له.. وهو لا يدخل مع الله سبحانه وتعالى في معركة، وإنما يدخل مع خلق الله الذين ينسون الله ويبتعدون عنه يقول القرآن الكريم: {قال: فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين} [ص: ٨٢-٨٣].

ومادام الله سبحانه وتعالى مع الصابرين فلابد أن نعشق الصبر.. وكيف لا نعشق ما يجعل الله معنا؟ يقول الحق جل جلاله في الحديث القدسي: (يا ابن آدم مرضت فلم تعدني قال:يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال:أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده) يقول بعض الصالحين: اللهم إني استحي أن أسألك الشفاء والعافية حتى لا يكون ذلك زهدا في معيتي لك.. إذن لابد أن نعشق الصبر لأنه يجعلنا دائماً في معية الله.

الله سبحانه وتعالى يقول: {إِنَّ اللَّه مَعَ الصابرين}.. ونحن نريد أن يكون الله سبحانه معنا دائما.. إن هذه الآية لا تجعل الإنسان ييأس مهما لقى في حركة حياته من المشقة.

معنى قوله تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ)

الحق جل جلاله يعلم أن أحداث الإيمان وخصوم الإيمان سيواجهون المسلمين بمشقة عنيفة.. لا تهددهم في أموالهم فقط ولكن تهددهم في نفوسهم، فأراد الله عز وجل أن يعطي المؤمنين مناعة ضد هذه الأحداث.. وأوصاهم بالصبر والصلاة يواجهون بها كل حدث يهزهم بعنف.. قال: لهم إن المسألة قد تصل إلى القتل.. إلى الاستشهاد في سبيل الله. وأراد أن يطمئنهم بأن الشهادة هي أعلى مرتبة إيمانية يستطيع الإنسان المؤمن أن يصل إليها في الدنيا فقال: سبحانه: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ الله أَمْوَاتٌ}.

إن القتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان.. فأنت تصاب في مالك أو في ولدك أو في رزقك أو في صحتك، أما أن تصاب في نفسك فتقتل فهذه هي المصيبة الكبرى.. والله سبحانه سَمَّى الموتَ مصيبة واقرأ قوله تعالى: {إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأرض فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الموت} [المائدة: ١٠٦].

الله تبارك وتعالىأراد أن يفهم المؤمنون أن الذي يقتل في سبيل الله لا يموت.. وإنما يعطيه الله لونا جديدا من الحياة فيه من النعم ما لا يعد ولا يحصى.. يقول جل جلاله: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ الله أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}.

ما هو مظهر الحياة التي يعيشونها؟ الحياة عندنا مظهرها الحركة، والذي قتل في سبيل الله ما هي حركته؟ حركته بالنسبة لغير المؤمنين خصوم الإسلام والإيمان بأنه لن يسلب منه الحياة.. لأنه سيذهب إلى حياة أسعد والموت ينقله إلى خير مما هو يعيش فيه.. فإذا كان الكفار قد قتلوه فهم لم يسلبوه شيئا وإنما نقلوه إلى نعمة أكبر مما كان يعيش فيها.. أما بالنسبة للمؤمنين فإنه سيحمي لهم منهج الله ليصل إليهم إلى أن تقوم الساعة.

إن كل المعارك التي يستشهد فيها المؤمنون إنما هي سلسلة متصلة لحماية حركة الإيمان في الوجود.. وعظمة الحياة ليست في أن أتحرك أنا ولكن أن اجعل مَن بعدي يتحرك.. والمؤمن حين يستشهد يبقى أثره في الوجود لكل حركة من متحرك بعده.. فكل حركة لحماية الإيمان تستشهد به وبما فعله وتأخذ من سلوكه الإيماني دافعا لتقاتل وتستشهد. فكأن الحركة متصلة والعملية متصلة.. أما الكافر فإن الحياة تنتهي عنده بالموت ولكن تنتظره حياة

أخرى حينما يبعث الله الناس جميعا ثم يأتي بالموت فيموت.. وحين يموت الموت تصبح الحياة بلا موت إما في الجنة وإما في النار.

الله سبحانه وتعاليريدنا أن نعلم أن من يقتل في سبيل الله هو حي عند ربه ينتقل من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة مباشرة.

ولا يكتب عليه الموت في حياة البرزخ حتى يوم القيامة مثل من يموت ميتة طبيعية ولا يموت شهيدا.. ولأن هذه الحياة حياة الشهداء أخفى الله سبحانه عنا تفاصيلها لأنها من حياة الآخرة.. وهي غيب عنا قال: تبارك وتعالى: {وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ}.. ومادمنا لا نشعر بها فلابد أن تكون حياة أعلى من حياتنا الدنيوية.

الذي استشهد في عرف الناس سلب نفسه الحياة ولكنه في عرف الله أخذ حياة جديدة.. ونحن حين نفتح قبر أحد الشهداء نجد جسده كما هو فنقول إنه ميت أمامنا.. لابد أن تتنبه إنك لحظة فتحت عليه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة والله سبحانه قال:{أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ} ولم يقل أحياء في عالم الشهادة.. فهو حي مادام في عالم الغيب ولكن أن تفتح وتكشف تجده جسدا في قبره لأنه انتقل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.. أما كيف؟ قلنا إن الغيب ليس فيه كيف.. لذلك لنتعالىرف وليس مطلوبا منك أنتعالىرف.

إننا حين نجري عملية جراحية لمريض يعطيه الطبيب (البنج) لكي يفقده الوعي والحس ولكن لا يعطيه له ليموت ثم يبدأ يجري العملية فلا يشعر المريض بشيء من الألم.

فالمادة لا تحس لأنها هي التي أجريت عليها العملية والجسد لازال فيه الحياة من نبض وتنفس ولكنه لا يحس.. ولكن النفس الواعية التي غابت هي التي تحس بالألم.

أنت عندما يكون هناك ألم في جسدك وتنام ينقطع الإحساس بالألم فكأن الألم ليس مسألة عضوية ولكنه مرتبط بالوعي.. فعند النوم تنتقل إلى عالم آخر قوانينه مختلفة.. والعلماء فحصوا مخ الإنسان وهو نائم فوجدوا أنه لا يستطيع أن يعمل أكثر من سبع ثوان يرى فيها رؤيا يظل يحكيها ساعات.. فإذا قال: الحق تبارك وتعالى: (إنهم أحياء عند ربهم).. فلابد أن نأخذ هذه الحياة على أنها بقدرات الله ومن عنده.. والله عز وجل أراد أن يقرب لنا مسألة البعث والقيامة مثل مسألة النوم.

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: {اللَّه يَتَوَفَّى الأنفس حِينَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التي قضى عَلَيْهَا الموت وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى} [الزمر: ٤٢].

فكأن الحق جل جلاله يعطي الشهداء حياة دائمة خالدة لأنهم ماتوا في سبيله.. ومادامتعالى إلى قال:(لا تشعرون) فلا تحاول أن تدركها بشعورك وحسك لأنك لن تدركها على أن الشهيد لابد أن يقتل في سبيل الله وليس لأي غرض دنيوي.. وإنما لتكون كلمة الله هي العليا

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قال:وا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)

عرف أن مجرد الابتلاء ليس شرا، ولكن الشر هو أن تسقط في الابتلاء، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان، ولم يقل أحد: إن الامتحانات شر، إنها تصير شراً من وجهة نظر الذي لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح، أما الذي بذل الجهد وفاز بالمركز الأول، فالامتحانات خير بالنسبة له، إذن فقوله الحق: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} أي سنصنع لكم امتحاناً يصفي البطولة للعقيدة الجديدة.

والحق سبحانه قد ذكر لنا قبل هذه الآية قمة الابتلاءات؛ وهي أن ينال الإنسان الاستشهاد في سبيل الله، وذكر ثواب الشهيد، وهو البقاء على هيئة من الحياة عند ربه، وكان ذلك مقدمة للابتلاءات الأقل، فقمة الابتلاء في حدود إدراكنا هي فقد الحياة، وأراد الحق أن يعطي المؤمنون مناعة فيما دون الحياة، مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات. وكل ما دون حياة الفرد هو أمر ترفي بالنسبة لفقد الحياة نفسها، فمن لم يفقد حياته، فستأتي له ابتلاءات فيما دون حياته وهي ابتلاءات الخوف والجوع ونقص الأموال، ونقص في عدد الأخوة المؤمنين، وكذلك نقص في الثمرات، وكل هذه أشياء يحبها الإنسان، ويأتي التكليف ليطلب من المؤمن أن يترك بعضا مما يحب، وتلك الابتلاءات تدخل في نطاق بقاء التكليف.

أنواع الابتلاءات التي يتعرض لها المؤمن

وأول تلك الابتلاءات هو الخوف، والخوف هو انزعاج النفس وعدم اطمئنانها من توقع شيء ضار، فالنفس لها ملكات متعددة، وعندما يصيبها الخوف، فهيتعالاني من عدم الانسجام، والخوف خورٌ لا ضرورة له، لأنك إذا كنت تريد أن تؤمن نفسك من أمر يُخيفك، فأنت تحتاج إلى أن تجتهد بأسبابك لتعوق هذا الذي يُخيفك، أما إن استسلمت للانزعاج، فلن تستطيع مواجهة الأمر المخيف بكل ملكاتك، لأنك ستواجهه ببعض من الملكات الخائرة المضطربة، بينما أنت تحتاج إلى استقرار الملكات النفسية ساعة الخوف؛ حتى تستطيع أن تمد نفسك بما يؤمنك من هذا الخوف. أما إن زاد انزعاجك عن الحد، فأنت بذلك تكون قد أعنت مصدر الخوف على نفسك؛ لأنك لن تواجه الأمر بجميع قواك، ولا بجميع تفكيرك.

إذن فالذي يخاف من الخوف؛ نقول له: أنت معين لمصدر الخوف على نفسك، وخوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف، ولذلك لابد لك من أن تنشغل بما يمنع الأمر المخوف، ودع الأمر المخوف إلى أن يقع، فلاتعالش في فزعه قبل أن يأتيك، فآفة الناس أنهم يعيشون في المصائب قبل وقوعها، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب. إن المصيبة قد تأتي مثلا بعد شهر، فلماذا تطيل من عمر المصيبة بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع؛ تكون قد قصرت مسافتها. ولك أنتعالرف أن الحق سبحانه وتعالساعة تأتي المصيبة فهو برحمته ينزل معه اللطف، فكأنك إن عشت في المصيبة قبل أن تقع، فأنتتعاليش في المصيبة وحدها معزولة عن اللطف المصاحب لها، لكن لو ظللت صابراً محتسباً قادراً على مواجهة أي أمر صعب، فأنت لنتعاليش في المصيبة بدون اللطف.

لقد كانت الدعوة إلى الله بالإسلام ما زالت وليدة، لذلك كان لابد من إعداد القدوة المؤمنة إعداداً قوياً، وكان الخوف متوقعاً، لأن خصوم الدعوة يكيدون لها ويُبَيتون، وهذا هو الابتلاء. وما المراد من المؤمن حين يواجه ابتلاء الخوف؟ إن عليه أن يجعل من الخوف ذريعة لاستكمال الأسباب التي تمنع وقوع الأمر المخوف، فإن صنع ذلك يكون قد نجح في هذا الابتلاء.

ونأتي إلى الابتلاء الثاني في هذه الآية الكريمة، وهو الجوع. إن الجوع شهوة غالبة إلى الطعام، وهو ضروري لاستبقاء الحياة، ومن رحمة الحق سبحانه وتعالىبالإنسان أن ضمن له في ذاته غذاء يدخره من وقت رخائه لينفعه وقت شدته. فالإنسان يحتفظ بالغذاء الزائد على صورة

شحم ولحكم، وحين يجوع ولا يجد طعاماً، فهو يأخذ من هذا الشحم، فإذا انتهى الشحم، فهو يأخذ من اللحم، وإذا انتهى اللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم، من أجل أن يستبقى الإنسان الحياة.

والإنسان مكون من أجهزة متعددة، وسيد هذه الأجهزة المخ، ومادامت الحياة موجودة في خلايا المخ فإن كل شيء فيك جاهز للعمل، لكن إذا ماتت هذه الخلايا، انتهى كل شيء، وذلك هو السبب في أن يقال:إن فلاناً مات ثم أعطوه دواء معينا فعادت إليه الحياة. إنهم يتناسون الحقيقة العلمية المؤكدة، وهي أن الحياة لا تغادر الإنسان إلا إذا توقف المخ عن العمل، ولذلك فهناك إنسان قد يتوقف قلبه فيعالجه الأطباء بصدمة كهربيةتعاليد تشغيل القلب، أو يشقون الصدر لتدليك القلب. لكن إذا ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت. فأجهزة الجسم كلها في خدمة ذلك السيد وهو المخ.

ومن العجيب أنك تجد سيد الإنسان وهو المخ في قمته، والحيوانات كذلك مخها في قمتها، أما النبات فسيده في جذوره، فالورق يذبل اولا:، ثم تحف الأغصان الرفيعة، ثم الجذع، ويجف الجذر في النهاية عندما لا يأتيه بعض الماء، وعندما يأتي بعض الماء إلى الجذور في الوقت المناسب فهيتعالىود إلى الاخضرار، وتنمو وتعود إليها الحياة، وكذلك المخ في الإنسان، فساعة ينهي الإنسان مخزونه من شحمه ومن لحمه ويتغذى على العظام، فإنقاذه يأتي من إيصال الغذاء إلى المخ. ولذلك قال:ت المرأة العربية التي لم تكنتعالىرف التشريح: (نحن مرت علينا سنون، سنة أذابت الشحم، وسنة مَحَقَتْ اللحم، وسنة محت العظم).

ويجب أن نفهم أن الجوع يُحسّن لنا كل رزق في الحياة؛ فإنك إن كنت جوعان صار كل طعام شهياً، والذي يرغم الناس على إعداد ألوان مختلفة من الأطعمة؛ إنما هو عدم الجوع؛ فالإنسان يريد أن يُشهّي لنفسه ليأكل، لكنه لو كان جوعان لكفاه أي طعام، ولذلك قالوا: (طعام الجائع هنئ وفراش المتعب وطئ).

فساعة يكون الإنسان متعبا فهو ينام على أرض خشنة؛ ويستغرق في النوم، وإن لم يكن الإنسان متعبا، فهو يظل يتقلب في الفراش حتى ولو كان من الديباج.

إذن فابتلاء الجوع هو أن تصبر على الضروري من الطعام الذي يقيم لك الحياة، وأنت تأكله كوقود لحركة الحياة، ولا تأكله التذاذا، وحين يقتات الإنسان ليضمن لنفسه وقود الحياة فأي طعام يكفيه. ولذلك شرع الله الصوم لنصبر على أذى الجوع، لأن المؤمنين قد تضطرهم معركة ما لأن يعيشوا فيها ساعات طويلة دون طعام، فإن لم يكونوا مدربين على تحمل قسط من الجوع فسيخورون ويتعبون.

إذن فالحق سبحانه وتعالىيريد أن يعد المؤمن إعدادا كافيا كاملا، فالمؤمن يواجه الخوف فيستعد، ويواجه الجوع فيأخذ من قوت الحياة بقدر الضرورة.

ولذلك تجد أن المجتمعات تواجه متاعب الاقتصاد بالتقشف، ولكن بعض المجتمعات لا تستطيع ذلك، فتجد الناس في تلك المجتمعات لا تتقشف، ولهذا نقول لمن يعيش حياة الترف: أنت لاتعالبد نفسك الإعداد اللازم لمواجهة تقلبات الزمن.

وأقول كما قال: إبراهيم بن أدهم:

وإذا غلا شيء عليّ تركته *** فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

إن أي شيء إذا غلا سعره، لا يشتريه، ويتركه، فيكون أرخص شيء لأنه لن يدفع فيه مالا ليشتريه.

وأما الابتلاء الثالث وهو نقص الأموال فمصدره أن المؤمنين سينشغلون عن حياتهم بأمر الدعوة، وإذا ما شغلوا عن حركة الحياة لمواجهة العدو فسيضطرون إلى التضحية بحركة الحياة التي تنتج المال ولذلك تنقص الأموال، لأن حركتهم في الحياة توجهت إلى مقاومة خصوم الله. وكذلك سيواجهون العدو مقاتلين؛ وقد يستشهد منهم عدد. وأخيراً يواجهون نقص الثمرات، والثمرات هي الغاية من كل عمل.

والحق سبحانه وتعالىحين يعدنا هذا الإعداد، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى، لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات: صبر على الخوف، وصبر على الجوع، وصبر على نقص الأموال، وصبر على نقص الأنفس، وصبر على نقص الثمرات.

إذن فالمهم أن ينجح المؤمن في كل هذه الابتلاءات؛ حتى يواجه الحياة صلبا؛ ويواجه الحياة قويا. ويعلم أن الحياة معبر، ولا يشغله المعبر عن الغاية؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: {الذين إِذَآ أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قال:واْ إِنَّا للَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}

{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قال:وا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦)}

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم، وهي مأخوذة من إصابة الهدف. والمؤمن يستقبل المصيبة واثقا أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها، ولذلك عندما فرح الكفار بما يصيب المسلمين في بعض المعارك، أنزل الله ذلك القول الحق للمؤمنين: {قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا} [التوبة: ٥١].

أي قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء الحمقى من الكافرين: إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله.

وعندما نتأمل قوله الحق: {مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} أي أن المسألة ستكون لحسابنا، وسنأخذ عليها حسن الثواب من الله، ولم يقل الحق: كتب الله علينا، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب من الله.

وأي أمر يصيب الإنسان، إما أن يكون له دخل فيه، وعند ذلك لا يصح أن يجزع لأنه هو الذي جاء بالأمر المؤلم لنفسه، وإما أن تكون مصيبة لا دخل له بها، وحدثت له من غيره مثلا، وعند ذلك عليه أن يبحث عن سببها: أعدلا أم ظلما؟ إن كانت عدلا فهي قد جبرت الذنب، وإن كانت ظلما فسوف يقتص الله له ممن ظلمه. وعلى هذا فالمؤمن في كلتا الحالتين رابح.

إذن فالمؤمن يستقبل كل مصيبة متوقعا أن يأتي له منها خير. وعلى كل مؤمن أن يقيم نفسه تقييما حقيقيا، (هل لي على الله حق؟ أنا مملوك الله وليس لي حق عنده، فما يجريه علي فهو يجريه في ملكه هو). ومن لا يعجبه ذلك فليتأب على أي مصيبة؛ ويقول لها: (لا تصيبيني)، ولن تستطيع درء أي مصيبة ومادمنا لا نستطيع أن نمنع وقوع المصائب والأحداث، فلنقبلها كمؤمنين لأن الحق سبحانه وتعاليريد بنسبتنا إليه أن يعزنا ويكرمنا. إنه يدعونا أن نقول: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}. إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا. ولابد لنا هنا أن نأتي بمثال ولله المثل الأعلى هل رأيت إنسانا يفسد ملكه؟ أبداً.

إن صاحب الملك يعمل كل ما يؤدي إلى الصلاح في ملكه، وإن رأى الناس في ظاهر الأمر أنه فساد، فما بالنا بالله سبحانه وتعالىونحن ملك له، وهو سبحانه لا يُعرِّض ملكه أبداً للضرر، وإنما يقيمه على الحكمة والصلاح.

{إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} أي نحن مملوكون لله، ونحن راجعون إليه، وحتى إن كان في مصائب الدنيا ظلم لنا وقع علينا من إنسان، فسوف نأخذ ثواب ما ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله، إذن فنحن لله ابتداء بالملكية، ونحن لله نهاية في المرجع؛ هو سبحانه ملك القوسين؛ الابتداء والانتهاء، ولذلك علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أي مصيبة تصيب الإنسان أن يسترجع؛ أي أن يقول: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}.

وزادنا أيضا أن نقول: (اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها) إنك إذا ما قلتها عند أي مصيبة تصيبك فلابد أن تجد فيما يأتي بعدها خيراً منها، وحتى إن نسى الإنسان أن يقول ذلك عند وقوع المصيبة، ثم تذكرها وقال:ها فله جزاؤها، كأنه قال:ها ساعة المصيبة.

وهناك قصة عن أم سلمة رضي الله عنها؛ حين مات أبو سلمة زوجها وكان ملء السمع والبصر وجزعت عليه أم سلمة، فقيل لها قولي: ما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:ت: وما علمكم؟ قالوا: (إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها) فقال:ت ما قيل لها، فإذا بها بعد انقضاء عدتها يذهب إليها النبي خاطبا، فقيل لها: أوجد خير من أبي سلمة أم لم يوجد؟ قال:ت: ما كنت لأتسامى أي أتوقع مثل هذا الموقف.

فإذن، كل مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها.

وماذا يكون حال الذين يقولون هذا الدعاء؟. هاهو ذا الحق سبحانه وتعاليقول: {أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ...}

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)

فلننظر إلى غاية الغايات التي يدربنا الله عليها لنحمل الدعوة، ولنحمي منهج الحق، ولنهدم دولة المبطلين، هذه غاية؛ لكنها ليست الغاية النهائية، فالغاية النهائية أننا نفعل ذلك لنأخذ رحمات الله وبركاته في الآخرة.

إذن، فالغاية النهائية في كل إيمان وفي كل عمل هي ابتغاء مرضاة الله ورحمته.

وكما قال: المرحوم الشيخ سيد قطب رحمة الله عليه: إياك أن يشغلك عن صلوات الله وتحياته وبركاته شيء ولو انتصار العقيدة نفسه.

كأن انتصار العقيدة وسيلة لتنال بها الصلوات والرحمة من ربك، فكل شيء ما عدا ذلك وسيلة تسلم إلى غاية، وغاية المؤمن أن يكون من الذين يشملهم قول الله: {أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأولئك هُمُ المهتدون} [البقرة: ١٥٧].

ونحن نعرف أن الصلاة في اللغة هي الدعاء، للناس صلاة، وللملائكة صلاة، ولله صلاة، فهو القائل: {هو الذي يصلي عليكم وملائكته} [الأحزاب: ٤٣].

وكلنا نعيش برحمات الله، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله، ويأخذ أسباب حياته برحمة الله، والنعم والخيرات التي يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله، والمؤمن يأخذ نعم الدنيا برحمة الله ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان، والاطمئنان نعمة كبرى، فمن يعش في هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة، فهذا لون عظيم من الاطمئنان.

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة. والصلاة من الملائكة استغفار.

والصلاة من المؤمنين دعاء.

والدعاء حين تدعوه لمحمد صلى الله عليه وسلم بالخير وبالرحمة وبالبركة وهو دعاء لك، لماذا؟ لأن كل منزلة ينالها رسول الله عائدة لأمته وللعالم أجمع.

فمن الذي يشفع عند الله في يوم الحشر ليعجل الله بالفصل بين الخلائق؟. إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إذن فكل خير يناله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خير لأمته، فإذا دعوت له فكأنك تدعو لنفسك إنك عندما تصلي عليه مرة يصلي الله عليك عشراً.

أليس في ذلك خير لك؟

{أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وأولئك هُمُ المهتدون} [البقرة: ١٥٧].

والمهتدون هم الذين التزموا الطريق الموصل للغاية، والغاية هي صلوات من ربهم ورحمة، وأنت الآن متمتع بنعم الله بأسباب الله، وعند الله في الآخرة سوف تتمتع بإذن الله بنعم الله وبلقاء الله.

شبهة وجوابها: المسلمين يسعون بين الصفا والمروة مثل الجاهلية التي كانت تسعى بين الصفا والمروة

بعد ذلك يقول الحق: {إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله...} إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

يقول الله سبحانه: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ [البقرة:١٥٨] الصفا والمروة جبلان معروفان في مكة في طرفي المسعى (من شعائر الله) أي: من معالم دينه، فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا [البقرة:١٥٨] فكأن السائل يستشكل: كيف يقال:فَلا جُنَاحَ مع أن العبد مأمور بذلك وفرض عليه أن يسعى؟!

والجواب عن ذلك: أن المسلمين تحرجوا من السعي بين الصفا والمروة؛ لأن الجاهلية كانت تسعى بين الصفا والمروة، وكان على المروة صنم وعلى الصفا صنم، فتحرج الناس من ذلك فأنزل الله الآية، وأنه لا جناح على المسلمين لأنهم يسعون ليس كسعي الجاهلية، يسعون لله

وإن كان الجاهلية يفعلون ذلك لكن عمل الجاهلية غير عمل المسلمين، فالجاهلية يتقربون لأصنامهم وأوثانهم بقربات كثيرة، والمسلمون يتقربون إلى الله بسعيهم وطوافهم وصلواتهم وغير ذلك،

فبين سبحانه أنه لا جناح على المسلمين في طوافهم بين الصفا والمروة وإن كان ذلك من عمل الجاهلية، لكن العمل الذي يفعله المسلمون لله وحده واتباعًا لنبيه عليه الصلاة والسلام وليس كعمل الجاهلية، فهو واجب وفرض عليهم ولا جناح عليهم فيه ولا حرج عليهم فيه وإن كانت الجاهلية فعلته. نعم

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)}

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ)، نَزَلَتْ فِي عُلَمَاءِ اليهود حين كَتَمُوا صِفَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَآيَةَ الرَّجْمِ وَغَيْرَهُمَا من سائر الْأَحْكَامِ الَّتِي كَانَتْ فِي التَّوْرَاةِ، (أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ)، وَأَصْلُ اللَّعْنِ الطَّرْدُ وَالْبُعْدُ، (وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)، أَيْ: يَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يَلْعَنَهُمْ وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُمْ

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)

إلا الذين تابوا أي: رجعوا عن هذا الإجرام، وهو الكتمان للبينات والهدى التي بيّنها الله -تبارك وتعالى- وأصلحوا في أنفسهم، وأصلحوا ما أفسدوه، أو بدلوه، أو كتموه فبينوه كل ذلك داخل في هذا الإصلاح، فأولئك أقبل توبتهم، وأُجازيهم بالمغفرة، وأنا التواب الذي يقبل التوبة عن عباده، الرحيم بهم؛ إذ وفقتهم للتوبة، وقبلتها منهم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)

إن الذين كفروا وبقوا على هذا الكفر، واستمروا عليه إلى وفاتهم، هؤلاء عليهم لعنة الله، وهو طردهم من رحمته، والملائكة تلعنهم، وجميع الناس يلعنونهم خَالِدِينَ فِيهَا أي: لهم الدوام الأبدي السرمدي، والمذكور قبله هو اللعن.

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)

قوله تعالى: (وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ)، سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قالوا: يَا مُحَمَّدُ صِفْ لَنَا رَبَّكَ وَانْسُبْهُ، فَأَنْزَلَ الله تعالى إلى هَذِهِ الْآيَة

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ)، ذَكَرَ السَّمَاوَاتِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ وَالْأَرْضَ بِلَفْظِ الْوَاحِدِ لِأَنَّ كُلَّ سماء مِنْ جِنْسٍ آخَرَ، وَالْأَرْضُونَ كُنُهَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وَهُوَ التُّرَابُ، فَالْآيَةُ فِي السَّمَاوَاتِ: سَمْكُهَا وَارْتِفَاعُهَا مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ وَلَا عِلَاقَةٍ، وما يرى فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَالْآيَةُ فِي الْأَرْضِ: مَدُّهَا وَبَسْطُهَا وسعتها وما يرى فِيهَا مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَالْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْجَوَاهِرِ وَالنَّبَات

قوله تعالى: وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ، أَيْ:تعالىاقُبْهُمَا فِي الذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ يَخْلُفُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، إِذَا ذَهَبَ أَحَدُهُمَا جَاءَ الْآخَرُ خَلْفَهُ، أَيْ: بَعْدَهُ،

نَظِيرُهُ قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً) [الْفُرْقَانِ: ٦٢]، قال: عَطَاءٌ: أَرَادَ اخْتِلَافَهُمَا فِي النُّورِ وَالظُّلْمَةِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَاللَّيْلُ جَمْعُ لَيْلَةٍ، وَاللَّيَالِي جَمْعُ الْجَمْعِ، وَالنَّهَارُ جمع نُهُرٌ، وَقَدَّمَ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ فِي الذِّكْرِ لِأَنَّهُ أَقْدَمُ مِنْهُ، قال: الله تعالى إلى: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ) [يس: ٣٧]،

وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ، يَعْنِي: السُّفُنَ وَاحِدُهُ وَجَمْعُهُ سَوَاءٌ، فَإِذَا أُرِيدَ بِهِ الْجَمْعُ يُؤَنَّثُ، وَفِي الْوَاحِدِ يُذَكَّرُ، قال: الله تعالى إلى فِي الْوَاحِدِ وَالتَّذْكِيرِ: (إِذْ أَبَقَ إلى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) [الصَّافَّاتِ: ١٤٠]

، وَقال: فِي الْجَمْعِ وَالتَّأْنِيثِ: (حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ) [يُونُسَ: ٢٢]، (وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ الْآيَةُ في الفلك): تسخيرها وجريها عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَهِيَ مُوقَرَةٌ لَا تَرْسُبُ تَحْتَ الْمَاءِ،

(بِما يَنْفَعُ النَّاسَ)، يَعْنِي: رُكُوبَهَا وَالْحَمْلَ عَلَيْهَا فِي التِّجَارَاتِ وَالْمَكَاسِبِ وَأَنْوَاعِ الْمَطَالِبِ، (وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ)، يَعْنِي: الْمَطَرَ، قِيلَ: أَرَادَ بِالسَّمَاءِ السَّحَابَ، يَخْلُقُ اللَّهُ الْمَاءَ فِي السَّحَابِ ثُمَّ من السحاب ينزل [إلى الأرض]،

وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ السَّمَاءَ الْمَعْرُوفَةَ، يَخْلُقُ اللهُ تعالى إلى الْمَاءَ فِي السَّمَاءِ ثُمَّ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إلى السَّحَابِ ثُمَّ مِنَ السَّحَابِ يَنْزِلُ إلى الْأَرْضِ، (فَأَحْيا بِهِ)، أَيْ: بِالْمَاءِ (الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها)، أي: بعد يبسها وَجُدُوبَتِهَا، (وَبَثَّ فِيها)، أَيْ: فَرَّقَ فِيهَا (مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ)

، قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ الرِّيحِ بِغَيْرِ أَلِفٍ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْأَلِفِ، وَكُلُّ رِيحٍ فِي الْقُرْآنِ لَيْسَ فِيهَا أَلِفٌ وَلَا لَامٌ، اخْتَلَفُوا فِي جَمْعِهَا وَتَوْحِيدِهَا إِلَّا فِي الذَّارِيَاتِ: (الرِّيحَ الْعَقِيمَ) [الذَّارِيَاتِ: ٤١]، اتَّفَقُوا عَلَى تَوْحِيدِهَا، وَفِي الْحَرْفِ الْأَوَّلِ مِنْ سُورَةِ الرُّومِ: (الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ) [الرُّومِ: ٤٦]، اتَّفَقُوا عَلَى جَمْعِهَا، وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ سَائِرَهَا عَلَى الْجَمْعِ، والقراء مختلفون فيها، والريح تذكر وتؤنث،

وَتَصْرِيفُهَا أَنَّهَا تَتَصَرَّفُ إلى الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ، وَالْقَبُولِ وَالدَّبُورِ وَالنَّكْبَاءِ، وَقِيلَ: تَصْرِيفُهَا أَنَّهَا تَارَةً تَكُونُ لَيِّنًا، وتارة تكون عاصفا، وتارة النكباء المزاج المختلفة، وتارة تكون حارّا، وتارة باردا،

قال: ابْنُ عَبَّاسٍ: أَعْظَمُ جُنُودِ اللَّهِ الرِّيحُ وَالْمَاءُ، وَسُمِّيَتِ الرِّيحُ رِيحًا لِأَنَّهَا تُرِيحُ النُّفُوسَ، قال: شُرَيْحٌ الْقَاضِي: مَا هَبَّتْ رِيحٌ إِلَّا لِشِفَاءِ سَقِيمٍ أَوْ لِسَقَمِ صَحِيحٍ، وَالْبِشَارَةُ فِي ثَلَاثٍ مِنَ الرِّيَاحِ: فِي الصَّبَا وَالشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ، أَمَّا الدَّبُّورُ فَهِيَ الرِّيحُ الْعَقِيمُ، لَا بِشَارَةَ فِيهَا،

وَقِيلَ: الرِّيَاحُ ثَمَانِيَةٌ، أَرْبَعَةٌ لِلرَّحْمَةِ، وَأَرْبَعَةٌ لِلْعَذَابِ، فأما التي للرحمة: فالمبشرات وَالنَّاشِرَاتُ وَالذَّارِيَاتُ وَالْمُرْسَلَاتُ، وَأَمَّا الَّتِي لِلْعَذَابِ: فَالْعَقِيمُ وَالصَّرْصَرُ فِي الْبَرِّ وَالْعَاصِفُ وَالْقَاصِفُ فِي الْبَحْرِ،

(وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ)، أَيِ: الْغَيْمِ الْمُذَلَّلِ، سُمِّيَ سَحَابًا لِأَنَّهُ يَنْسَحِبُ، أَيْ: يَسِيرُ فِي سُرْعَةٍ كَأَنَّهُ يَسْحَبُ أَيْ يَجُرُّ، (بَيْنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، فَيَعْلَمُونَ أَنَّ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ خَالِقًا وَصَانِعًا، قال: وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: ثَلَاثَةٌ لَا يُدْرَى مِنْ أَيْنَ تَجِيءُ: الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ والسحاب

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العقاب

هذه الآية الكريمة فيها الذم والعيب لمن اتخذ الأنداد من دون الله، يقول سبحانه: وَمِنَ النَّاسِ[البقرة:١٦٥] يعني: بعض الناس، وهذا على سبيل الذم والعيب والتنفير.

كيف يكون اتخاذ الأنداد من دون الله تعالى

مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا[البقرة:١٦٥] والأنداد: هم الأمثال والنظراء يعني في دعائهم إياهم، واستغاثتهم بهم، وذبحهم لهم، ونذرهم لهم، اتخاذهم أنداد في هذا المعنى، وإلا فهم يعلمون أنهم لا يخلقون، ولا يرزقون، ولا ينفعون، ولا يضرون، فلم يتخذوهم أندادًا لله في النفع، والضر، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، لا، هم يعلمون أن هذا لله وحده.

لكن اتخذوهم أندادًا في العبادات في دعائهم إياهم، ذبحهم لهم، نذرهم لهم، طلبهم الشفاعة، طلبهم النصر إلى غير هذا كما قال: سبحانه في الآية الأخرى عن المشركين أنهم قالوا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى اللَّهِ زُلْفَى[الزمر:٣] وقال: عنهم أيضًا في سورة يونس أنهم قالوا: هَـؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ[يونس:١٨] قال:وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ[يونس:١٨] هذا وجه اتخاذهم أنداد، يطلبوا منهم الشفاعة والقربة إلى الله بدعائهم إياهم، وذبحهم لهم، ونذرهم لهم، ونحو ذلك.

والمحبة، قالوا: يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ[البقرة:١٦٥] يحبون أندادهم حبًا يجعلهم يعبدونهم مع الله، حب عبادة لجهلهم، وضلالهم، ثم قال:وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ[البقرة:١٦٥] يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ[البقرة:١٦٥] يعني كما يحب المؤمنون الله، أو كما يحبون الله أي: ساووهم في ذلك.

ثم قال: سبحانه: وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ[البقرة:١٦٥] يعني: أشد حبًا لله من هؤلاء لأندادهم؛ لأن حبهم لله خالص، وحب هؤلاء مشترك.

فالمؤمن أشد حبًا لله من هؤلاء المشركين في حبهم لأندادهم، وأشد حبًا منهم لله أيضًا؛ لأن محبة المشركين لله مشتركة مبعضة، ومحبة المسلمين لله وحده كاملة ليس فيها نقص، ولا شركة.

فالحاصل أن المشركين وإن أحبوا الله لكن محبتهم ناقصة، محبتهم ضعيفة؛ لأنهم شركوا فيها حب الأنداد التي عبدوها من دون الله.

أما المؤمنون فهم أحب لله، وأكمل حباً لله من أولئك لأندادهم، ومن أولئك لحبهم لله، فهم يحبون الله حباً أكمل من حب المشركين لله، وأكمل من حب المشركين لأندادهم أيضًا.

وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا[البقرة:١٦٥] الذين ظلموا يعني: أشركوا، الظلم هنا الشرك وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا[البقرة:١٦٥] يعني: يوم القيامة، يعني: إذا لقوا الله جل وعلا، ووقفوا بين يديه لعلموا أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا[البقرة:١٦٥] حين يرون العذاب يعلمون حينئذ أن القوة لله جميعًا، وأنهم قد ضلوا عن سواء السبيل، وقد أخطئوا في اتخاذهم الأنداد، وذلك حين يرون العذاب يوم القيامة، حين يقدموا للعذاب يوم القيامة؛ بسبب كفرهم وشركهم، لعلموا أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا[البقرة:١٦٥] وعرفوا أنهم في باطل في الدنيا، وفي غفلة، وفي جهل عظيم وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ[البقرة:١٦٥] يعني وعرفوا ذلك أيضًا.

فالحاصل أن المشركين في غفلة، وضلال، وجهل، ولهذا أشركوا بالله، واتخذوا الأنداد مع الله، أما المؤمنون فلبصيرتهم، وعلمهم بالله؛ أخلصوا العبادة لله وحده، وصارت محبتهم لله أكمل محبة، وأتم محبة، ليس فيها شركة، ولا نقص، والله المستعان.

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)

باعوا دينهم بدنياهم و دنيا غيرهم

أطاعوهم في معصية الله

أغروهم بالتمادي في العصيان و الظلم

تملقوهم على حساب الدين

طمعوا في دنياهم فبذلوا آخرتهم و يالفداحة الخسارة

و فجاة...انتهت الدنيا...و جاء الحساب...و كان هذا المشهد العصيب...

قال تعالى: واصفا تلك اللحظات الشداد:

{إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ. وَقَالَ: الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}. [البقرة ١٦٦-١٦٧].

قال: العلامة السعدي رحمه الله: وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل، التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم، وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها، انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبدا، فهل بعد هذا الخسران خسران؟

ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضرتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف منتعالىلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه،

فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقا، لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربه، غير منقطع كما قال تعالى: { الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نزلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ }.

وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعيهم، بأن يتركوا الشرك بالله، ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيهات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا، فهم كذبة، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأماني يتمنونها، حنقا وغيظا على المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قضي الأمر { إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ }.

وَقال: الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

(وَقال: الَّذِينَ اتَّبَعُوا)، يَعْنِي: الْأَتْبَاعَ (لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً)، أَيْ: رَجْعَةً إلى الدُّنْيَا، فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ، أَيْ: مِنَ الْمَتْبُوعِينَ، (كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا): الْيَوْمَ، (كَذلِكَ)، أَيْ: كَمَا أَرَاهُمُ الْعَذَابَ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ، وقيل: كتبرّؤ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، (يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ): نَدَامَاتٍ (عَلَيْهِمْ)، جَمْعُ حَسْرَةٍ، قِيلَ: يُرِيهِمُ اللَّهُ مَا ارْتَكَبُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ فَيَتَحَسَّرُونَ لِمَ تحملوها، وَقِيلَ: يُرِيهِمْ مَا تَرَكُوا مِنَ الْحَسَنَاتِ، فَيَنْدَمُونَ عَلَى تَضْيِيعِهَا،

وَقال: ابْنُ كَيْسَانَ: إِنَّهُمْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ وعبدوا الْأَوْثَانَ رَجَاءَ أَنْ تُقَرِّبَهُمْ إلى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمَّا عُذِّبُوا عَلَى مَا كَانُوا يَرْجُونَ ثَوَابَهُ تَحَسَّرُوا وَنَدِمُوا، قال: السُّدِّيُّ: تُرْفَعُ لَهُمُ الْجَنَّةُ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَ إلى بيوتهم وقصورهم فِيهَا لَوْ أَطَاعُوا اللَّهَ فَيُقال: لهم: تلك مساكنكم لو أَطَعْتُمُ اللَّهَ، ثُمَّ تُقَسَّمُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فَذَلِكَ حِينَ يَنْدَمُونَ وَيَتَحَسَّرُونَ (وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ) بكفرهم وموتهم عليه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاتعلَمُونَ(١٦٩)

يقول الله -تبارك وتعالى- مخاطبًا الناس: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاتعلَمُونَ[سورة البقرة:١٦٨، ١٦٩] يا أيها الناس كلوا مما في الأرض من رزق الله -تبارك وتعالى- حلالاً قد أباحه لكم، طيبًا؛ وذلك أنه لا تبعة فيه، وهو أيضًا طاهر غير نجس، نافع غير ضار، ولا تتبعوا طُرق الشيطان ومسالكه التي يغوي بها: بالمنكر والفاحشة، ويصد عن سبيل الله -تبارك وتعالى- ويتلاعب بكثير من الناس في أبواب التحليل والتحريم، فيحرمون ما أحل الله -تبارك وتعالى- أو يحلون ما حرمه، أو يقعون في شيء من محدثات الأمور من البدع والمخالفات.

إِنَّـهُ لَكُـمْ عَـدُوٌّ ظـاهر العـداوة مُبِـينٌ مكـاشر بالعـداوة، هـذا العـدو إِنَّمَـا يَـأْمُرُكُمْ بِالسُّـوءِ وَالْفَحْشَاءِ فجاء بهذه الصيغة والأداة التيتعالىد ثاني أقوى صيغة من صيغ الحصر. عنـد اللغـويين والأصوليين (إنما) يعني: هو لا يأمركم بشيء آخر، فلا يمكن أن يأمرك بمعروف، أو خير، أو فضـيلة، أو صلة، أو نحو ذلـك إِنَّمَـا يَـأْمُرُكُمْ بِالسُّـوءِ وَالْفَحْشَـاءِ وَأَنْ تَقُولُـوا عَـلَى اللَّهِ مَـا لاتعلَمُونَ[سـورة البقرة:١٦٩] أن تقولوا على الله ما لاتعالىلمون في أبواب الاعتقاد والشرك ونسبة الأنـداد والاولا:د والزوجات، وكذلك أن تقول على الله ما لاتعالىلمون في الحلال والحـرام والتشر.يع، ومـا إلى ذلـك من الكذب على الله -تبارك وتعالى- والقول عليه وعلى كتابه ودينه بلا علم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قال:وا بَلْ نَتَّبِـعُ مَـا أَلْفَيْنَـا عَلَيْـهِ آبَاءَنَـا أَوَلَـوْ كَـانَ آبَـاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْـمَعُ إِلَّا دُعَـاءً وَنِـدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)

معنى قوله تعالى: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله)

قيل هذه قصة مستأنفة والهاء والميم في لهم كناية عن غير مذكور. روي عـن ابـن عبـاس قال:دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهـود إلى الإسـلام فقـال: رافـع بـن خارجـة ومالـك بـن عوف قال:وا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أي ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا خيرا وأعلم منا فـأنزل الله تعالى إلى هذه الآية،

وقيل الآية متصلة بما قبلها وهي نازلة في مشر.كي العـرب وكفـار قـريش والهـاء والمـيم عائدة إلى قوله" ومن الناس من يتخـذ مـن دون الله أنـدادا" (١٦٥ - البقـرة (قـال:وا بـل نتبـع مـا ألفينا) أي ما وجدنا (عليه آباءنا) من عبادة الأصنام وقيل معناه وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله في تحليل ما حرموه على أنفسهم من الحرث والأنعام والبحـيرة، والسـائبة والهـاء والمـيم عائـدة إلى الناس في قوله تعالى إلى (يا أيها الناس كلوا (قال:وا بل نتبع) قرأ الكسائي: بل نتبـع بإدغـام اللام في النون وكذلك يدغم لام هل وبل في التاء والثاء والزاي والسين والصـاد والطـاء، والظـاء ووافق حمزة في التاء والثاء والسين (ما ألفينا) ما وجدنا (عليه آباءنا) من التحريم والتحليل

قال تعالى: (أولو كان آباؤهم) أي كيف يتبعون آباءهم وآباؤهم (لا يعقلون شيئا) والواو في" أولو" واو العطف ويقال: لها واو التعجب دخلت عليها ألف الاستفهام للتوبيخ والمعنى أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالا لا يعقلون شيئا لفظه عام ومعناه الخصوص أي لا يعقلون شيئا من أمور الدين لأنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا (ولا يهتدون) ثم ضرب الله مثلا فقال: جل ذكره

معنى قوله تعالى: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع)

والنعيق والنعق صوت الراعي بالغنم معناه مثلك يا محمد ومثل الكفار في وعظهم ودعائهم إلى الله عز وجل كمثل الراعي الذي ينعق بالغنم

وقيل مثل واعظ الكفار وداعيهم معهم كمثل الراعي ينعق بالغنم وهي لا تسمع (إلا دعاء) صوتا (ونداء) فأضاف المثل إلى الذين كفروا لدلالة الكلام عليه

كما في قوله تعالى إلى" واسأل القرية" (٨٢ - يوسف) معناه كما أن البهائم تسمع صوت الراعي ولا تفهم ولاتعالىقل ما يقال: لها كذلك الكافر لا ينتفع [ص: ١٨٢] بوعظك إنما يسمع صوتك وقيل معناه ومثل الذين كفروا في قلة عقلهم وفهمهم عن الله وعن رسوله كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفقه من الأمر والنهي إلا الصوت فيكون المعنى للمنعوق به والكلام خارج عن الناعق وهو فاش في كلام العرب يفعلون ذلك ويقبلون الكلام لإيضاح المعنى عندهم يقولون فلان يخافك كخوف الأسد أي كخوفه من الأسد وقال تعالى: " ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة" (٧٦ - القصص) وإنما العصبة تنوء بالمفاتيح

وقيل معناه مثل الذين كفروا في دعاء الأصنام التي لا تفقه ولاتعالىقل كمثل الناعق بالغنم فلا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه في غناء من الدعاء والنداء كذلك الكافر ليس له من دعاء الآلهة وعبادتها إلا العناء والبلاء كما قال تعالى: " إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم" (١٤ - فاطر).

وقيل معنى الآية ومثل الذين كفروا في دعاء الأوثان كمثل الذي يصيح في جوف الجبال فيسمع صوتا يقال: له الصدى لا يفهم منه شيئا فمعنى الآية كمثل الذي ينعق بما لا يسمع منه الناعق إلا دعاء ونداء (صم) تقول العرب لمن لا يسمع ولا يعقل كأنه أصم (بكم) عن الخير لا يقولونه (عمي) عن الهدى لا يبصرونه (فهم لا يعقلون).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُتعالىبْدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)

نادَى الله عَزَّ وَجَلَّ عباده المؤمنين: يا أيها الذين آمنوا بالله ربًّا وإلهًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، كلوا من طيبات ما رزقناكم، واشكروا الله رَبَّكم على ما أنعم عليكم من حلال اللحوم، ولا تُحرموها كما حرَّمها مُقلدة المشركين،

أصول المُحرمات الأربعة

فأنه تعالى إلى لَمْ يُحَرِّم عليكم إلا أكْلَ المَيْتَة والدَّمَ، ولَحْمَ الخِنْزيرِ، وما أُهِلَّ به لغيره تعالى إلى، ومع هذا مَن ألجأتْه الضرورة، فخاف على نفسه الهلاك، فأكل، فلا إثم عليه، بشرط ألا يكون في سَفَره باغيًا على المسلمين، ولا عادِيًا بطريق يقطعها عليهم؛ لأن الله غفور لأوليائه التائبين، رحيم بهم، لا يتركهم في ضِيقٍ ولا حَرَجٍ

أخرج مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(يا أيها الناس إنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَاتعالىمَلُونَ عَلِيمٌ) [المؤمنون: ٥١]، وقال:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُتعالىبْدُونَ) [البقرة: ١٧٢]، ثم ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إلى السماء: يا رَب، يا رَب، ومَطْعَمه حَرام، ومَشْرَبه حرام، ومَلْبَسه حرام، وغُذِي بالحرام، فَأَنَّى يُسْتَجابُ لَهُ؟

ثم بَيَّنَ الله لهم واسْتَثْنَى من ذلك أشياءَ مُحَرَّمَة، وذَكَرها لهم وهي المَيْتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ بِه لِغَيْرِ اللهِ.

فالمَيْتَة بفتح الميم: الحيوان تزول حياته دون ذبح شرعي، وفي القرآن: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ) [المائدة: ٣].

والمِيتَة بكسر الميم: الحال التي تقع على الموت، يقال:مات فلان مِيتَة رَضِيَّة.

والمَوْت: ضد الحياة، والمُوات بضم الميم: الموت الذي يقع على الدواب، والمَوات بفتح الميم: الأرض التي لم تُزرَع، ولاتعالمر، ولا جَرَى عليها مِلك لأحد)

والمَيْت والمَيْتة بفتح الميم وسكون الياء: هو ما مات قَطْعًا، وانتهتْ حياتُه.

والمَيِّت والمَيِّتَة بتشديد الياء، هو ما لم يمُت بعدُ، ولكنَّه آيِلٌ أمْرُه إلى المَوْت، هكذا يرى أرباب اللغة، واستشهدوا بقوله تعالى:(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) [الزمر: ٣٠]، وهذا دليل على إطلاق مَيِّت بالتشديد على مَن لَمْ يَمُتْ بَعْدُ، كما استشهدوا بقول الشاعر الجاهِلِي عدي بن الرَّعْلاء الغسَّاني:

ليس مَن ماتَ فاسْتَراحَ بِمَيِّتٍ إنَّما المَيِّتُ مَيِّتُ الأحْياءِ

إنَّما المَيِّتُ مَن يَعِيشُ كَئِيبًا كاسِفًا بالُه قَليلَ الرَّجاءِ

والمَيْتة: ما مات من الحيوان حتف أنفه بدون تذكية، وأذِن النبي صلى الله عليه وسلم في أكل السَّمَك والجَراد، وهما من المَيْتة، لحديث: (أُحِلَّ لنا مَيْتتانِ: الحُوتُ، والجَرَادُ، ودمان: الكَبِدُ والطُّحالُ)، وحَرَّمَ أكْلَ كُلِّ ذِي نابٍ مِنَ السِّباعِ، وَذِي مِخْلَبٍ مِن الطيور، لحديث: (نَهَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذي ناب من السّباع، وذي مِخْلَبٍ مِن الطُّيور).

والدم؛ الدمُ المَسْفُوح السائل لا المُختلط باللحم.

الخِنْزِير: حيوان خَبيث معروف يأكل العذرة، ولا يَغار على أُنْثَاه.

ما أُهِلَّ بِه لغير اللَّهِ: رفع الصوت باسم مَن تُذْبَح له مِن الآلِهَة

الإهْلال: هو رَفْعُ الصَّوْت عند رؤية الهِلال، ثم استعمل لكل صوت، وبه شُبِّه إهْلال الصَّبِي، وقوله: (وما أُهِلَّ به لِغَيْرِ اللَّهِ)؛ أي: ما ذُكِر عليه غير اسم الله، وهو ما كان يُذْبَح لأجل الأصْنام، وقيل: الإهلال والتَّهْليل أن يقول: (لا إله إلا الله)، ومنه الإهلال بالحَجِّ

فهذه أصول المُحرمات الأربعة، وأما المُنخنقة، والمَوْقُوذة، والمُتَرَدية، والنَّطِيحَة، وما أكل السَّبُع، وما ذُبِح على النُّصُب؛ فهي متفرعة من تلك الأصول،

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)

قال: أبو جعفر: يعنيتعالى إلى ذكره بقوله:" أولئك" ، - هؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب في شأن محمد صلى الله عليه وسلم بالخسيس من الرشوة يعطونها، فيحرفون لذلك آيات الله ويغيرون معانيها" ما يأكلون في بطونهم" - بأكلهم ما أكلوا من الرشى على ذلك والجعالة، وما أخذوا عليه من الأجر" إلا النار" - يعني: إلا ما يوردهم النار ويصليهموها،

كما قال تعالى: ذكره: (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) [سورة النساء: ١٠] معناه: ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار بأكلهم. فاستغنى بذكر" النار" وفهم السامعين معنى الكلام، عن ذكر" ما يوردهم، أو يدخلهم" . وبنحو الذي قلنا في ذلك قال: جماعة من أهل التأويل

وأما قوله:" ولا يكلمهم الله يوم القيامة" ، يقول: ولا يكلمهم بما يحبون ويشتهون، فأما بما يسوءهم ويكرهون، فإنه سيكلمهم. لأنه قد أخبرتعالى إلى ذكره أنه يقول لهم - إذا قالوا: (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال: اخسئوا فيها ولا تكلمون) الآيتين [سورة المؤمنون: ١٠٧ - ١٠٨].

وأما قوله:" ولا يزكيهم" ، فإنه يعني: ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم،" ولهم عذاب أليم" ، يعني: موجع

معنى قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)، يذكر الله لنا حيثية الحكم عليهم؛ ولماذا لا يكلمهم؛ ولماذا لا يزكيهم، ولماذا يكون لهم في الآخرة عذاب أليم؟ إنّهم قد بدلوا الضلالة بالهدى؛ والعذاب بالمغفرة. وعندما ترى فظاعة العقاب فلا تستهوله، ولكن انظر إلى فظاعة الجرم. إن الناس حين يفصلون الجريمة عن العقاب فهم يعطفون على المجرم؛ لأنهم لا يرون المجرم إلا حالة عقابه ومحاكمته ونسوا جريمته،

ولذلك فساعة ترى عقوبة ما وتستفظعها؛ فعليك استحضار الجرم الذي أوجب تلك العقوبة. ولذلك نجد الناس غالباً ما يعطفون على كل المجرمين الذين يحاكمون وتصدر عليهم عقوبات صارمة، لأن الجريمة مر عليها وقت طويل، ولم نرها، وآثارها وتبعاتها انتهت. ولم يبق إلا المجرم؛ فيعطفون عليه،

ولذلك فمن الخطأ أن تطول الإجراءات في المحاكمات، بل لابد من محاكمة المجرم من فور وقوع الجريمة وهي ساخنة؛ حتى لا يعطف عليه الجمهور، لأنتعالىطيف قلب الجمهور عليه يجعل العقوبة قاسية.

{ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ } ونعرف أن" الباء" تدخل على المتروك، فالضلالة هنا أُخِذَتْ وترك الهدى، واستبدلوا العذاب بالمغفرة، وماداموا قد أخذوا الضلالة بدلا من الهدى، والعذاب بدلا من المغفرة، فالعدالة أن يأخذوا العذاب الأليم.

وبعد ذلك يقول الحق: { فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ } هذا تبشيع للعقاب حتى يُنَّفر منه الناس. ويريد منا الله أن نتعجب، كيف يجوز للضال أن يترك الهدى ويأخذ الضلال، وبعد ذلك تكون النتيجة أن يأخذ العذاب ويترك المغفرة. فما الذي يعطيه الأمل في أن يصبر على النار؟، هل عنده صبر إلى هذا الحد يجعله يقبل على الذنب الذي يدفعه إلى النار؟. وما الذي جعله يصبر على هذا العذاب؟ أعنده قوة تُصَبِّره على النار؟ وما هذه القوة؟.

وكأن الحق يقول: أنت غير مدرك لما ينتظرك من الجزاء وإلا ما الذي يصبرك على هذه النار؟ إنك تتمادى في طغيانك وضلالك، وتنسى أن النار ستكون من نصيبك؛ فإذا كنت متيقناً أن النار من نصيبك؛ فكيف أخذت أماناً من صبرك على النار. فالنار أمر لا يصبر عليه إنسان أبداً.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ

قال: ابو جعفر: أما قوله:" ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق" ، فإنه اختلف في المعني ب" ذلك"

فقال: بعضهم: معني" ذلك" ، فعلهم هذا الذي يفعلون من جراءتهم على عذاب النار، في مخالفتهم أمر الله، وكتمانهم الناس ما أنزل الله في كتابه، وأمرهم ببيانه لهم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأمر دينه من أجل أن الله تباركتعالى إلى" نزل الكتاب بالحق" ، وتنزيله الكتاب بالحق هو خبره عنهم في قوله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) [سورة البقرة: ٦ - ٧] فهم - مع ما أخبر الله عنهم من أنهم لا يؤمنون - لا يكون منهم غير اشتراء الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة. [ص: ٣٣٥]

وقال: آخرون: معناه:" ذلك" معلوم لهم بأن الله نزل الكتاب بالحق لأنا قد أخبرنا في الكتاب أن ذلك لهم، والكتاب حق.

كأن قائلي هذا القول كان تأويل الآية عندهم: ذلك العذاب الذي قال: الله تعالى إلى ذكره فما أصبرهم عليه معلوم أنه لهم. لأن الله قد أخبر في مواضع من تنزيله أن النار للكافرين، وتنزيله حق، فالخبر عن" ذلك" عندهم مضمر.

وقال: آخرون: معنى" ذلك" ، أن الله وصف أهل النار، فقال: "فما أصبرهم على النار" ، ثم قال:هذا العذاب بكفرهم. و" هذا" هاهنا عندهم، هي التي يجوز مكانها" ذلك" ، كأنه قال:فعلنا ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق فكفروا به. قال:فيكون" ذلك" - إذا كان ذلك معناه - نصبا، ويكون رفعا بالباء.

قال: أبو جعفر: وأولى الأقوال بتأويل الآية عندي: أن الله تعالى إلى ذكره أشار بقوله:" ذلك" ، إلى جميع ما حواه قوله:" إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب" ، إلى قوله:" ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق" ، من خبره عن أفعال أحبار اليهود وذكره ما أعد لهمتعالى إلى ذكره من العقاب

على ذلك، فقال:هذا الذي فعلته هؤلاء الأحبار من اليهود بكتمانهم الناس ما كتموا من أمر محمد صلى الله عليه وسلم وعلمهم به، طلبا منهم لعرض من الدنيا خسيس - وبخلافهم أمري وطاعتي وذلك - من تركي تطهيرهم وتزكيتهم وتكليمهم، وإعدادي لهم العذاب الأليم - بأني أنزلت كتابي بالحق، فكفروا به واختلفوا فيه.

فيكون في" ذلك" حينئذ وجهان من الإعراب: رفع ونصب. والرفع ب" الباء" ، والنصب بمعنى: فعلت ذلك بأني أنزلت كتابي بالحق، فكفروا به واختلفوا فيه. وترك ذكر" فكفروا به واختلفوا" ، اجتزاء بدلالة ما ذكر من الكلام عليه. [ص: ٣٣٦]

من هم الذين اختلفوا في الكتاب

وأما قوله:" وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد" ، يعني بذلك اليهود والنصارى. اختلفوا في كتاب الله، فكفرت اليهود بما قص الله فيه من قصص عيسى ابن مريم وأمه. وصدقت النصارى ببعض ذلك، وكفروا ببعضه، وكفروا جميعا بما أنزل الله فيه من الأمر بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم. فقال: لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إن هؤلاء الذين اختلفوا فيما أنزلت إليك يا محمد لفي منازعة ومفارقة للحق بعيدة من الرشد والصواب، كما قال: الله تعالى إلى ذكره: (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق) [سورة البقرة: ١٣٧] كما:

٢٥١٢ - حدثني موسى قال:حدثنا عمرو قال:حدثنا أسباط، عن السدي:" وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد" ، يقول: هم اليهود والنصارى. يقول: هم في عداوة بعيدة

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

والمعنى ليس الخير عند الله-تعالى إلى- في التوجه في الصلاة إلى جهة المشرق والمغرب فقط إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، وإنما الخير كل الخير هو إيمان من آمن بالله وصدَّق به معبودًا وحدَه لا شريك له، وآمن بيوم البعث والجزاء، وبالملائكة جميعًا، وبالكتب المنزلة كافة، وبجميع النبيين من غير تفريق،

وأعطى المال تطوُّعًا -مع شدة حبه- ذوي القربى، واليتامى المحتاجين الذين مات آباؤهم وهم دون سن البلوغ، والمساكين الذين أرهقهم الفقر،

والمسافرين المحتاجين الذين بَعُدوا عن أهلهم ومالهم، والسائلين الذين اضطروا إلى السؤال لشدة حاجتهم، وأنفق في تحرير الرقيق والأسرى، وأقام الصلاة، وأدى الزكاة المفروضة،

والـذين يوفـون بـالعهود، ومـن صـبر فـي حـال فقـره ومرضـه، وفـي شـدة القتـال. أولئـك المتصفون بهذه الصفات هم الـذين صـدقوا فـي إيمـانهم، وأولئـك هـم الـذين اتقـوا عقـاب الله فتجنبوا معاصيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)

الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحـدي: (يـا أيهـا الَّـذِينَ آمَنُـوا كُتِـبَ عَلَـيْكُمُ الْقِصَـاصُ فِـي الْقَتْلَى) نزلت في حَيَّيْنِ من العرب أحدهما أشرف من الآخر فقتل الأوضع من الأشرف قتلى فقال: الأشرف: لنقـتلنَّ الحـرَّ بالعبـد والـذَّكر بـالأنثى ولَنُضـاعِفَنَّ الجـراح فـأنزل الله تعـالى إلى هـذه الآيـة وقوله: (كُتب): أُوجب وفُرض (عليكم القصـاص) اعتبـار المماثلـة والتَّسـاوي بـين القـتلى حـتى لا يجوز أن يقتل حرٌّ بعبدٍ أو مسلمٌ بكافرٍ فاعتبارُ المماثلةِ واجبٌ وهو قوله: (الحرُّ بالحرِّ والعبـدُ بالعبـدِ والأنثى بالأنثى) ودلَّ قوله في سورة المائدة: (أنَّ النَّفس بـالنَّفس) عـلى أنَّ الـذَّكر يُقتـل بـالأنثى فيقتل الحرُّ بالحرَّة (فمن عفي له) أَيْ: تُرك له (من) دم (أخيه) المقتـول (شيءٌ) وهـو أن يعفـو بعض الأولياء فيسقط القود (فاتباع بالمعروف) أَيْ: فعلى العافي الـذي هـو ولي الـدَّم أن يتبـع القاتل بالمعروف وهو أن يطالبه بالمال من غير تشـدُّد وأذىً وعـلى المطلـوب منـه المـال (أداءٌ) تأدية المال إلى العافي (بإحسانٍ) وهو ترك المطل والتَّسويف (ذلك تخفيـفٌ مـن ربكـم ورحمـة) هو أنَّ الله تعالى إلى خَيَّرَ هذه الأمَّة بين القصاص والدية والعفو ولم يكـن ذلـك إلاَّ لهـذه الأُمَّـة (فمن اعتدى) أَيْ: ظلم بقتل القاتل بعد أخذ الدية (فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

شبهة وجوابها: كيف يكون في القصاص حياة

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

قوله تعالى إلى (ولكم في القصاص حياة) أي بقاء وذلك أن القاصد للقتل إذا علم أنه إذا قتل [ص: ١٩٢] يقتل يمتنع عن القتل فيكون فيه بقاؤه وبقاء من هم بقتله وقيل في المثل القتل قلل القتل وقيل في المثل القتل أنفى للقتل" وقيل معنى الحياة سلامته من قصاص الآخرة فإنه إذا اقتص منه حيا في الآخرة وإذا لم يقتص منه في الدنيا اقتص منه في الآخرة (يا أولي الألباب لعلكم تتقون) أي تنتهون عن القتل مخافة القود

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)

سبب نزول قوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ)

كان أهل الجاهليَّة يُوصون بمالهم للبعداء رياءً وسُمعةً ويتركون أقاربهم فقراء فأنزل الله تعالى إلى هذه الآية (كتب عليكم) فُرض عليكم وأُوجب (إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ) أَيْ: أسبابه ومُقدِّماته (إِنْ ترك خيراً) مالاً (الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف) يعني: لا يزيد على الثلث (حقاً) أي: حقَّ ذلك حقًّاً (على المتقين) الذين يتَّقون الشِّرك وهذه الآية منسوخة بآية المواريث ولا تجب الوصية على أحدٍ (ولا تجوز الوصية للوارث).

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١)

تفسير السعدي: فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على

ولما كان الموصي قد يمتنع من الوصية، لما يتوهمه أن من بعده، قد يبدل ما وصى به قال تعالى: فَمَنْ بَدَّلَهُ أي: الإيصاء للمذكورين أو غيرهم بَعْدَمَا سَمِعَهُ [أي:] بعدما عقله، وعرف طرقه وتنفيذه، فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المغير.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقال:ة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجور في وصيته، عَلِيمٌ بنيته، وعليم بعمل الموصى إليه، فإذا اجتهد الموصي، وعلم الله من نيته ذلك، أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل، فإن الله عليم به، مطلع على ما فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢)

(فمن خاف) أَيْ: علم (من موصٍ جنفاً) خطأً في التوصية من غير عمدٍ وهو أن يُوصي لبعض ورثته أو يوصي بماله كلّه خطأً (أو إثماً) أَيْ: قصدا للميل فخاف من الوصية وفعل ما لا يجوز مُتعمّداً (فأصلح) بعد موته بين ورثته وبين المُوصى لهم (فلا إثم عليه) أَيْ: إنَّه ليس بمبدلٍ يأثم بل هو متوسطٌ للإصلاح وليس عليه إثمٌ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣)

قوله تعالى إلى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) أي فرض وأوجب والصوم والصيام في اللغة الإمساك يقال: صام النهار إذا اعتدل وقام قائم الظهيرة لأن الشمس إذا بلغت كبد السماء وقفت وأمسكت عن السير سويعة.

معاني الصيام وصوره عند الأمم الأخرى

ومنه قوله تعالى:" فقولي إني نذرت للرحمن صوما" (٢٦ - مريم) أي صمتا لأنه إمساك عن الكلام.

وفي الشريعة الإسلامية هو الصوم وهو الإمساك عن الأكل، والشرب والجماع مع النية في وقت مخصوص (كما كتب على الذين من قبلكم) الأنبياء والأمم واختلفوا في هذا التشبيه

قال: سعيد بن جبير: كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة كما كان في ابتداء الإسلاموقال: جماعة من أهل العلم أراد أن صيام رمضان كان واجبا على النصارى كما فرض علينا فربما كان يقع في الحر الشديد والبرد الشديد وكان يشق عليهم في أسفارهم ويضرهم في معايشهم فاجتمع رأي علمائهم ورؤسائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف فجعلوه في الربيع وزادوا فيه عشرة أيام كفارة لما صنعوا فصار أربعين ثم إن ملكهم اشتكى فمه فجعل لله عليه إن هو برئ من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعا فبرئ فزاد فيه أسبوعا.

ثم مات ذلك الملك ووليهم ملك آخر فقال: أتموه خمسين يوما وقال: مجاهد: أصابهم موتان فقال:وا زيدوا في صيامكم فزادوا عشرا قبل وعشرا بعد قال: الشعبي: لو صمت السنة كلها لأفطرت اليوم الذي يشك فيه فيقال: من شعبان ويقال: من رمضان وذلك أن النصارى فرض عليهم شهر رمضان فصاموا قبل الثلاثين يوما وبعدها يوما ثم لم يزل القرن الآخر يستن بسنة القرن الذي قبله حتى صاروا إلى خمسين يوما فذلك قوله تعالى إلى (كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) يعني بالصوم لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات وقيل لعلكم تحذرون عن الشهوات من الأكل والشرب، والجماع

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْتعالىلَمُونَ (١٨٤)

تفسير البغوي" معالم التنزيل" : (أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ)، قِيلَ: كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَاجِبًا، وَصَوْمُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، فَصَامُوا كَذَلِكَ مِنَ الرَّبِيعِ إلى شَهْرِ رَمَضَانَ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ نُسِخَ بِصَوْمِ رَمَضَانَ، قال: ابْنُ عَبَّاسٍ: أَوَّلُ مَا نُسِخَ بَعْدَ الْهِجْرَةِ أَمْرُ الْقِبْلَةِ وَالصَّوْمِ، وَيُقال:نَزَلَ صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ قَبْلَ بَدْرٍ بِشَهْرٍ وَأَيَّامٍ، قال: مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: كَانَتْ غَزْوَةُ بَدْرٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِسَبْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا مِنَ الهجرة، حدثنا أَبُو الْحَسَنِ الشِّيرَزِيُّ أَخْبَرَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الهاشمي أخبرنا أبو مُصْعَبٍ، عَنْ مَالِكٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قال:تْ: كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ يَوْمًا تَصُومُهُ قريش في الجاهلية، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلّم يصومه فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ صَامَهُ وَأَمَرَ النَّاسَ بِصِيَامِهِ، فَلَمَّا فُرِضَ رَمَضَانُ كَانَ هُوَ الْفَرِيضَةَ، وَتُرِكَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ، فَمَنْ شَاءَ صَامَهُ وَمَنْ شَاءَ تَرَكَهُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ: شَهْرُ رَمَضَانَ، وَهِيَ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ، وَنَصَبَ أَيَّاماً عَلَى الظَّرْفِ، أَيْ: فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ، وَقِيلَ: عَلَى التَّفْسِيرِ، وَقِيلَ: عَلَى هُوَ خَبَرُ مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، فَمَنْ كانَ (مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ)، أَيْ: فَأَفْطَرَ (فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)، أَيْ: فعليه عدّة من أيام أخر، وَالْعَدَدُ وَالْعِدَّةُ وَاحِدٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، أَيْ: غَيْرِ أَيَّامِ مَرَضِهِ وَسَفَرِهِ، وأُخَرَ فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ، لَكِنَّهَا لَا تَنْصَرِفُ، فَلِذَلِكَ نُصِبَتْ، قوله تعالى: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ)، اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ وَحُكْمِهَا، فَذَهَبَ أَكْثَرُهُمْ إلى أَنَّ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عُمَرَ وَسَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ وَغَيْرِهِمَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ مُخَيَّرِينَ بَيْنَ أَنْ يصوموا وبين أن يفطروا ثمّ يفتدوا، خَيَّرَهُمُ اللّه تعالى إلى لِئَلَّا يَشُقَّ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَمْ يَتَعَوَّدُوا الصَّوْمَ، ثُمَّ نَسَخَ التَّخْيِيرَ وَنَزَلَتِ العزيمة لِقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) [البقرة: ١٨٥]،

وَقال: قَتَادَةُ: هِيَ خَاصَّةٌ فِي حَقِّ الشَّيْخِ الْكَبِيرِ الَّذِي يُطِيقُ الصَّوْمَ، وَلَكِنْ يَشُقُّ عَلَيْهِ، رُخِّصَ لَهُ فِي أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْدِيَ، ثُمَّ نُسِخَ، وَقال: الْحَسَنُ: هَذَا فِي الْمَرِيضِ الَّذِي بِهِ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْمَرَضِ وَهُوَ مُسْتَطِيعٌ لِلصَّوْمِ، خُيِّرَ بَيْنَ أَنْ يصوم وبين أن يفطر أو يفدي، ثُمَّ نُسِخَ بِقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)، وَثَبَتَتِ الرُّخْصَةُ لِلَّذِينِ لَا يُطِيقُونَ، وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إلى أَنَّ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ، وَمَعْنَاهُ: وَعَلَى الَّذِينَ كَانُوا يُطِيقُونَهُ فِي حَالِ الشَّبَابِ فعجزوا عنه في حال الْكِبَرِ فَعَلَيْهِمُ الْفِدْيَةُ بَدَلَ الصَّوْمِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ بِضَمِّ الْيَاءِ

وَفَتْحِ الطَّاءِ وَتَخْفِيفِهَا وَفَتْحِ الْوَاوِ وَتَشْدِيدِهَا، أَيْ: يُكَلَّفُونَ الصَّوْمَ، وَتَأْوِيلُهُ: عَلَى الشَّيْخِ الْكَبِيرِ وَالْمَرْأَةِ الْكَبِيرَةِ لَا يَسْتَطِيعَانِ الصَّوْمَ، وَالْمَرِيضِ الَّذِي لَا يُرْجَى زَوَالُ مَرَضِهِ، فَهُمْ يُكَلَّفُونَ الصَّوْمَ وَلَا يُطِيقُونَهُ، فَلَهُمْ أَنْ يُفْطِرُوا وَيُطْعِمُوا مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَجَعَلَ الْآيَةَ مُحْكَمَةً، قوله تعالى: (فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ)، قَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ مُضَافًا، وَكَذَلِكَ فِي المائدة: (كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ) [المائدة: ٩٥]، أَضَافَ الْفِدْيَةَ إلى الطَّعَامِ، وَإِنْ كَانَ وَاحِدًا لِاخْتِلَافِ اللَّفْظَيْنِ كَقوله تعالى: (وَحَبَّ الْحَصِيدِ) [ق: ٩]، وَقَوْلِهِمْ: المسجد الْجَامِعِ، وَرَبِيعُ الْأَوَّلِ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ: فِدْيَةٌ، وكَفَّارَةٌ منوّنة، وطَعامُ، رفع، وقرأ مِسْكِينٍ بِالْجَمْعِ هُنَا، أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ، وَالْآخَرُونَ عَلَى التَّوْحِيدِ، فَمَنْ جَمَعَ نَصَبَ النُّونَ، وَمَنْ وَحَّدَ خَفَضَ النُّونَ وَنَوَّنَهَا، وَالْفِدْيَةُ: الْجَزَاءُ، وَيَجِبُ أَنْ يُطْعِمَ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مسكينا مدّا من الطعام بِمُدِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَطْلٌ وَثُلُثٌ مِنْ غَالِبِ قُوتِ الْبَلَدِ، هَذَا قَوْلُ فُقَهَاءِ الْحِجَازِ، وَقال: بَعْضُ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْعِرَاقِ: عَلَيْهِ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفُ صَاعٍ لِكُلِّ يَوْمٍ يُفْطِرُ، وَقال: بَعْضُهُمْ: نِصْفُ صَاعٍ مِنَ قمح أَوْ صَاعٌ مِنْ غَيْرِهِ، وَقال: بَعْضُ الْفُقَهَاءِ: مَا كَانَ الْمُفْطِرُ يَتَقَوَّتُهُ يَوْمَهُ الَّذِي أَفْطَرَهُ، وَقال: ابْنُ عَبَّاسٍ: يُعْطِي كُلَّ مِسْكِينٍ عَشَاءَهُ وَسَحُورَهُ، (فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ)، أَيْ: زَادَ عَلَى مِسْكِينٍ وَاحِدٍ فَأَطْعَمَ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينَيْنِ فَأَكْثَرَ، قال:هُ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ وَطَاوُسٌ، وَقِيلَ: مَنْ زَادَ عَلَى الْقَدْرِ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ فَأَعْطَى صَاعًا وَعَلَيْهِ مُدٌّ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، (وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ)، فمن ذَهَبَ إلى النَّسْخِ قال: مَعْنَاهُ: الصَّوْمُ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْفِدْيَةِ، وَقِيلَ: هَذَا فِي الشَّيْخِ الْكَبِيرِ لَوْ تَكَلَّفَ الصَّوْمَ، وَإِنْ شَقَّ عَلَيْهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْدِيَ، (إِنْ كُنْتُمْتعالمُونَ)، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا رُخْصَةَ لِمُؤْمِنٍ مُكَلَّفٍ فِي إِفْطَارِ رَمَضَانَ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ، أَحَدُهُمْ: يَجِبُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ وَالْكَفَّارَةُ، وَالثَّانِي: عَلَيْهِ الْقَضَاءُ دُونَ الْكَفَّارَةِ، وَالثَّالِثُ: عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ دُونَ الْقَضَاءِ، أَمَّا الَّذِي عَلَيْهِ الْقَضَاءُ وَالْكَفَّارَةُ: فَالْحَامِلُ وَالْمُرْضِعُ إِذَا خَافَتَا

عَلَى وَلَدَيْهِمَا فَإِنَّهُمَا تُفْطِرَانِ وتقضيان، وعليهما مع القضاء الكفارة وهو قَوْلُ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَبِهِ قال: مُجَاهِدٌ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقال: قَوْمٌ: لَا فِدْيَةَ عَلَيْهِمَا، وَبِهِ قال: الْحَسَنُ وَعَطَاءٌ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالزُّهْرِيُّ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْأَوْزَاعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَأَصْحَابُ الرَّأْيِ، وَأَمَّا الَّذِي عَلَيْهِ الْقَضَاءُ دُونَ الْكَفَّارَةِ: فَالْمَرِيضُ وَالْمُسَافِرُ وَالْحَائِضُ وَالنُّفَسَاءُ، وَأَمَّا الَّذِي عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ دُونَ الْقَضَاءِ فَالشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْمَرِيضُ الَّذِي لَا يُرْجَى زَوَالُ مَرَضِهِ.

شهر رمضان وعلاقته بالقرآن الكريم

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ [سورة البقرة:١٨٥] أُنزل فيه القرآن باعتبار أن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، فهذا محمله عند طائفة من أهل العلم، أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ أي: إلى السماء الدنيا، وبعضهم يقول: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ أي: أبتدئ إنزاله على النبي ﷺ في شهر رمضان، وإلا فمعلومٌ أن القرآن أُنزل في شهور العام، ولم يقتصر نزوله على شهر رمضان، فهذان قولان مشهوران، وقد جمع بعض أهل العلم بين القولين: بأن القرآن نزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا في رمضان، في ليلة القدر، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ [سورة الدخان:٣] إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [سورة القدر:١] فالليلة المُباركة هي ليلة القدر، وهي من شهر رمضان، كما قال: هنا: شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ فهذا جمع بين القولين: أنه نزل جملة إلى السماء الدنيا في رمضان في ليلة القدر، وأبتدئ إنزاله أيضًا على النبي ﷺ كذلك في رمضان.

وأما قول من قال: بغير ذلك، فلا حاجة لذكره، يعني: هناك من فسر الآية بغير هذا، ولا حاجة إلى إيراده، لكن شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هداية للناس يهديهم إلى الحق والطريق الواضح المستقيم، وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ [سورة البقرة:١٨٥] جعله الله بينات تكشف عن الحق وتُجليه، ولا تجعل فيه لبسًا، فهو في غاية الوضوح.

وكذلك أيضًا بَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى هداية في التعريف بالمعبود، وبراهين وحدانيته، وما إلى ذلك مما يُحتاج إليه في هداية الخلق، فهو مُضمن بهذا القرآن، وكذلك الفرقان فهو يفرق بين الحق والباطل، ويفصل بين الحق والباطل؛ ولهذا كان من أسمائه الفرقان، فهو الفارق بين معدن الحق، ومعدن الباطل، يفرق بين الهدى الذي جاء به الرسول ﷺ والضلال الذي يتقوله أهل الجهالة والضلالة.

يقول الله -تبارك وتعالى: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ [سورة البقرة:١٨٥] وشهود الشهر: أن يُدرك الشهر فيدخل عليه رمضان وهو مُقيم صحيح غير معذور، فهنا يجب عليه الصوم فَلْيَصُمْهُ وهذا على قول طائفة من أهل العلم نسخ؛ لقوله تعالى إلى في الآية التي قبلها: وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ [سورة البقرة:١٨٤] على القول بأن المراد بقوله: وَعَلَى الَّذِينَ

يُطِيقُونَهُ [سورة البقرة:١٨٤] يعني: يُطيقون الصيام، لكن كان على التخيير في أول شرع الصوم من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكينًا، وهذا هو الأقرب، والله تعالى إلى أعلم.

فهنا حتم الصوم فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ولم يُرخص للقادرين بالفطر، وإنما يجب على الجميع الصيام، وكان ذلك من التدريج في فرض هذه العبادة، ثم بقيت الرُخصة للمريض والمسافر، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ [سورة البقرة:١٨٥] المرض -كما ذكرنا في الليلة الماضية- الذي يحصل معه مشقة مُعتبرة غير مُعتادة بسبب الصوم، فالشريعة جاءت بالتوسعة والرحمة والتيسير، وكذلك فيما لو كان الصوم يُؤدي إلى تأخر البُرء فإنه يجوز له أن يُفطر.

وقلنا: إن السفر يُباح به القصر ولو كان مريحًا، بصرف النظر عن الأولى والأفضل، يعني هي رخصة، لكن أيهما أفضل؟ هل الصوم في السفر أفضل أم الفطر؟ من أهل العلم من أطلق، فقال:الصوم رُخصة، والله يُحب أن تؤتى رُخصه كما يُحب أن تؤتى عزائمه، إلى غير ذلك مما يستدل به من يقول بأن الفطر مُطلقًا أفضل، بل بالغ بعض الظاهرية كأبي محمد بن حزم -رحمه الله- فقال:إن الصوم لا يُجزئه في السفر؛ لأن الله أوجبه على من شهد الشهر، ولم يكن مريضًا، أو على سفر، أما من كان مريضًا، أو على سفر، فقال:فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، يعني: لا ينفعه صومه، وهذا الكلام غير صحيح، والذي عليه الجماهير من السلف فمن بعدهم هو أنه إن صام في السفر أجزأه، لكن يبقى أيهما أفضل؟

فالبعض أطلق بأن الصوم أفضل، وقالوا: هذا مُبادرة إلى إبراء الذمة، وأسهل على المُكلف أنه يصوم مع الناس، ويكون في وقت شريف، وهو رمضان؛ لأنه لن يقضي في وقت مثله، اللهم إلا إذا قضى في عشر من ذي الحجة لشرفها.

وبعضهم فصل -وهذا قريب- فقالوا: إن كان الصوم لا يشق عليه فالصوم أفضل؛ للأسباب التي سبقت، وقالوا: النبي ﷺ كان يصوم" وما فينا صائم إلا ما كان من النبي ﷺ، وابن رواحة" [١]، وهذا في التطوع في السفر، مع أنه قال:ليس من البر الصيام في السفر[٢]، لكن قالوا: هذا قال:ه في مناسبة، وهو أنه وجد رجلاً يُظللونه، فسأل عنه، قالوا: صائم، يعني: كأنه أُغمي عليه، أو أُجهد فلحقه مشقة غير مُحتملة، فقال:ليس من البر الصيام في السفر[٣].

وكذلك لما كان النبي ﷺ يتهيأ لفتح مكة، وكان في رمضان، فأفطر النبي ﷺ لما قيل له: إن الصوم شق على الناس، أو يُشق عليهم، وسيلقون عدوهم، فأفطر ﷺ للتقوي على ذلك، فلما بلغه أن بعضًا بقي على صومه، قال:أولئك العُصاة[٤]، فهذا في حالة خاصة، وهي أنهم سيواجهون عدوًا محتملاً في المعركة، وإلا فهؤلاء يقولون: إن لم يشق عليه الصوم فالصوم أفضل في السفر: لأنه إبراءً للذمة، وفي وقت شريف، ويصوم مع الناس، ويكون أسهل له.

وإن كان الصوم يشق عليه مشقة مُحتملة فالفطر أفضل، وإن كان الصوم يشق عليه مشقة غير مُحتملة، أو يحصل معه الهلاك، أو المرض، كإنسان يُغمى عليه، أو نحو هذا، قالوا: يحرم عليه الصوم في هذه الحالة؛ لأن الإنسان لا يجوز له أن يتصرف بتصرفات تُؤدي به إلى التلف، أو العِلة، والمرض، وما جعل الله علينا العسر في هذه الشريعة، هذا معنى يُسر الشريعة، وليس معنى ذلك أن الإنسان يخرج ويتعدى حدود الله ويفعل ما يحلو له من الحرام، ويقول: الدين يُسر، فليس هذا هو المراد، فمن فعل ذلك فقد ظلم نفسه.

ثم قال: الله هنا: فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ [سورة البقرة:١٨٤] ولم يُحدد، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ [سورة البقرة:١٨٥] هذه الإرادة هي إرادة شرعية، وليست بإرادة كونية؛ لأنها لو كانت إرادة كونية لحصل المراد قطعًا، ولم يلحق أحد مشقة، ولا عُسر، لكن نحن نشاهد بعض الناس يتجشم الصوم في السفر، وفي المرض، ويلحقه مشقة كبيرة جدًا، وربما تخرج نفسه وهو مُصر على أن لا يُفطر، فهذا لحقه مشقة، فلو كانت الإرادة كونية فإن مقتضاها يجب أن يتحقق في الكون ويقع ولا تتخلف، لكن الإرادة الشريعة أرادها دينًا وشرعًا، فشرع لنا ما فيه اليُسر والسهولة والتخفيف، فهذه إرادة شرعية، يُحب الله مُقتضاها، ولكن لا يلزم تحقق ذلك، مثل أن الله أراد منا الصيام، وأراد منا الصلاة، فمن الناس من يصوم، ومن الناس من لا يصوم، هذه إرادة شرعية، لكن الإرادة الكونية يجب أن تتحقق.

ثم قال: الله -تبارك وتعالى: وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ [سورة البقرة:١٨٥] عدة الصوم، تصوموا شهر رمضان، إما في إبانه، وإما بأن تقضوا ما أفطرتم من أيامه بعد ذلك، فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ [سورة البقرة:١٨٤].

وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ [سورة البقرة:١٨٥] تكبروه فهو أكبر من كل شيء عَلَى مَا هَدَاكُمْ هداكم إلى الإيمان والإسلام، وجعلكم من خير أمة أخرجت للناس، هداكم إلى الصيام هداية إرشاد، فبيّن لكم

شرائع الدين، وبيّن لكم ميقات الشهر الكريم، فهذه كلها هداية إرشاد، وبيّن لكم تفاصيل الصيام، وأحكام الصوم، وكذلك هداية التوفيق، حيث وفقكم للإسلام، وهدى قلوبكم إلى طاعته، والاستجابة لمرضاته، ووفقكم لصيام الشهر، وقد حُرم منه من حُرم: إما لعجز عن ذلك، أو لكونه لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يُراعِ حدود الله، وأنتم وفقكم وهداكم هداية توفيق للصوم، فهذه نعمة عظيمة يفرح بها أهل الإيمان، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [سورة البقرة:١٨٥] تشكرون على هذه النِعم والهدايات التي حُرم منها الكثيرون، هذا المعنى العام للآية.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

وإذا سألك أيها النبي عبادي عني فقل لهم: إني قريب منهم، أجيب دعوة الداعي إذا دعاني، فليستجيبوا لي بالإيمان والطاعة والانقياد والإذعان؛ وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون، يعني: يهتدون إلى ما فيه نفعهم وصلاحهم في دنيهم ودنياهم.

فمن الهدايات التي تُؤخذ من هذه الآية: أن آية الدعاء جاءت في وسط آيات الصيام، فبعدها حديث عن الصيام، وقبلها حديث عن الصوم، فهذا يدل -والله تعالى إلى أعلم- كما ذكر جمع من أهل العلم بأن الدعاء في رمضان له مزية، وأن الدعاء مع الصيام له مزية؛ ولهذا قال: النبي ﷺ: للصائم دعوة مُستجابة[١]، ولاحظ دعوة هنا نكرة في سياق الإثبات، والنكرة في سياق الإثبات بمعنى المُطلق، يعني غير مُحددة بوقت معين، فطالما أنه صائم فمنذ أن يُمسك إلى أن يُفطر له دعوة مستجابة.

فالدعاء -كما هو معلوم- له أحوال يُستجاب بها كالصوم، وله أوقات كالأسحار، وبين الأذان والإقامة، وله أيضًا مواضع وأماكن حري أن يُستجاب للدعاء فيها، كما لا يخفى، فهنا دلت هذه الآية على أن رمضان له مزية، فالآيات تتحدث عن رمضان وعن الصيام، وكذلك الصوم ولو كان في غير رمضان ثلاث دعوات لا ترد دعوة الوالد، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر[٢] يعني: في أي وقت دعا في أول النهار، أو في وسطه، أو في آخره، لكن بالحديث: وللصائم فرحتان: فرحة حين يفطر، وفرحة حين يلقى ربه[٣]، هذه فرحة وليست دعوة.

وأما ما ورد: للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة[٤] فإن ذلك لا يصح فيه الحديث عن رسول الله ﷺ، فالرواية ضعيفة، وإنما وقت الصوم هو وقت للدعاء، حري بأن يُجاب دعاء الصائم، والله -تبارك وتعالى- هنا لم يُقيد الدعاء في حال الصيام، بل ذكر أنه قريب، ولم يقل: وإذا دعاك عبادي الصائمون، فإني قريب أُجيب دعوة الداعي إذا دعان، وإنما قال:وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ [سورة البقرة:١٨٦] فقربه -تبارك وتعالى- من الصائمين ومن غير الصائمين في رمضان وفي سائر شهور العام، وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي [سورة البقرة:١٨٦].

وتأمل هذه النسبة وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي [سورة البقرة:١٨٦] فأضافهم إليه، فهذا يقتضي التشريف، فهؤلاء أهل العبودية الخاصة، وهم أهل الإيمان، وأهل الاستجابة والطاعة، فأضافهم إليه، فهذه الإضافة تقتضي تشريفًا وخصيصة لهؤلاء؛ لأن العبودية كما نعلم عبودية خاصة، وهي لأهل الإيمان، وعبودية عامة، وهي لجميع الخلق، فكل من في السماوات والأرض عبد لله -تبارك وتعالى، ومملوك له، والعبودية كما نعلم منها عبودية قهر، فهذه لجميع الخلائق حتى الكفار، والعبودية الثاني هي عبودية اختيار وهذه عبودية أهل الإيمان الذين سلكوا طريق الإيمان والطاعة والعبادة.

ولاحظ هذا التعبير وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ [سورة البقرة:١٨٦] فإني قريب، فكان هذا هو الجواب، فالله -تبارك وتعالى- قريب يسمع دعوتك، ولو كنت تُناجيه بحيث لا يسمعك من بجوارك، وهو قريب -تبارك وتعالى- قُربًا خاصًا من الداعين، فقُربه -تبارك وتعالى- من البعد منه ما هو قُرب عام، ومنه ما هو قُرب خاص، فالله -تبارك وتعالى- ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له[٥].

وكذلك أيضًا ينزل عشية عرفة، والعشي يكون من بعد زوال الشمس، يعني: من بعد الظهر، هذا وقت العشي، وقربه -تبارك وتعالى- الخاص من الداعين الذين يسألونه، فلا تحتاج المسألة إلى أن تنتظر، أو إلى أن تترقب طويلاً، أو نحو ذلك، وإنما عليك أن ترفع يديك وتدعو فهو قريب من الداعين، فالله -تبارك وتعالى- قريب ممن دعاه، فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ [سورة البقرة:١٨٦] وقد جاء عن بعض السلف:" مفتاح البحار السُفن، ومفتاح الأرض الطُرق، ومفتاح السماء الدعاء" [٦]، يعني: إذا أراد الإنسان أن يسلك طريقًا في البحر، فالسُفن هي معوله، وإذا

أراد أن يسلك طريقًا في البر، فالطُرق توصله إلى مطلوبه، وإذا أراد أن يطرق باب السماء، فإن ذلك لا يتوصل إليه بسفينة ولا بطائرة، ولا يتوصل إليه بمزاولا:ت يعملها العبد ليصعد، وإنما يكون ذلك بدعائه وسؤاله -تبارك وتعالى، فهذا قُربه الخاص، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن.

وقد تكلمنا على هذا الاسم الكريم في الكلام على الأسماء الحسنى، وقلنا: إن مما يدخل في معنى الباطن: القُرب، فهو الظاهر ليس فوقه شيء، وهو الباطن ليس دونه شيء، فهو أقرب إلى العبد من عُنق راحلته، كما قال: النبي ﷺ لما رفع أصحابه أصواتهم بالذكر عندما صعدوا على مُرتفع كبروا بأصوات مرتفعة، وإذا نزلوا سبحوا بأصوات مرتفعة، فأمرهم أن يربأوا على أنفسهم، وعلَّل ذلك بقوله: أيها الناس اربعوا على أنفسكم؛ فإنكم ما تدعون أصم ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته[٧].

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ [سورة البقرة:١٨٦] كما قال: الله تعالى: فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ [سورة هود:٦١] يُجب من دعاه، وإذا عرف العبد هذا فإنه يُبادر إلى الإقبال على الله ، ويرفع حاجته إلى الله -تبارك وتعالى- مُباشرة، وقد قال: بعض السلف:" متى أطلق الله لسانك بالدعاء والطلب، فاعلم أنه يُريد أن يُعطيك" وذلك لصدق الوعد بإجابة من دعاه، ألم يقل الله تعالى إلى: فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ [سورة البقرة:١٨٦] فهذا وعد وخبر حق.

ويُؤخذ أيضًا من قوله: فَإِنِّي قَرِيبٌ أنه في الجواب لم يقل: فقل لهم: إني قريب، وإنما قال:فَإِنِّي قَرِيبٌ [سورة البقرة:١٨٦] فجاء الجواب مُباشرة من الله دون ذكر واسطة، ودون أن يقول: فقل لهم، وهذا كله يدل على شدة قُربه -تبارك وتعالى- من الداعين، فاختصر الكلام في ذلك، فتولى إجابتهم عن سؤالهم بنفسه مُباشرة دون أن يجعل واسطة، كالرسول ﷺ، فيقول له: فقل لهم، أو فقل لعبادي: إني قريب من الداعين، وإنما مُباشرة فَإِنِّي قَرِيبٌ فهذا يدل على أنه ليس بين الله -تبارك وتعالى- وبين خلقه واسطة في الدعاء، مُباشرة يتوجه إليه العبد بالدعاء.

والمشركون كانوا يتوجهون إلى معبوداتهم وأصنامهم، ويقولون: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [سورة الزمر:٣] فكانوا يتوجهون إلى هذه الوسائط، ويقولون: إنها تُقربنا إلى الله، وتوصل حاجتنا إلى الله -تبارك وتعالى، وهذا لا شك أنه خلل في الاعتقاد، فالله ليس بينه وبين عباده واسطة، فإذا أذنب العبد مُباشرة يتوجه إلى الله، ويستغفر ويتوب، والله تعالى إلى يتوب على من تاب، فليس هناك وسائط، كما عند النصارى يأتي التائب لدى القسيس، ويجلس على كرسي، يُقال: له: كُرسي الاعتراف، وهذا موجود في غُرفة صغيرة يمثُل أمامه، ثم يذكر بالتفاصيل الجنايات والأعمال والمُقارفات والمزاولا:ت التي عملها، ثم بعد ذلك يُعطيه صك الغُفران، فهذا كله من الضلال والانحراف.

أما الله -تبارك وتعالى- فيكفي أن تتوجه إليه بالاستغفار والتوبة، أو السؤال والدعاء، ولا تحتاج إلى عمل كثير، حتى تحصل على وقت لتُناجيه فيه، وإنما تستطيع أن تُناجيه في أي وقت، وفي أي مكان في المسجد، أو في بيتك، أو في مكان عملك، أو في الصحراء والخلاء، أو بين الناس.

ثم تأمل قوله: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي [سورة البقرة:١٨٦] جاء كله بضمير المُتكلم، وقوله: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ [سورة البقرة:١٨٦] جاء بطريق الالتفات؛ لأن قبله: وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ [سورة البقرة:١٨٥] فلم يقل: ولتكبروني؛ ثم قال:وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي [سورة البقرة:١٨٦] فهنا في مقام الدعاء ناسب أن يكون بضمير المتكلم فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ [سورة البقرة:١٨٦] ولا شك أيضًا هناك أنه أظهر في مقام يصح فيه الإضمار، فناسب مع التكبير ذكر اسم الله مُظهرًا، والله تعالى إلى أعلم.

وأيضًا لم يقل: إني مجيب، أو فإني أُجيب دعوة الداعي لكوني قريب، وإنما قال:فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ [سورة البقرة:١٨٦] فإذا سألك عبادي عني في توجههم ودعائهم وسؤالهم، ونحو ذلك، فالعبد لا شك أنه يغتبط بقُرب ربه -تبارك وتعالى- منه أعظم من غِبطته بإجابة دعائه، فحينما يُقال: لك: أيهما أعظم في نظرك أن يكون الله قريب منك، أو تُستجاب لك هذه الدعوة والمسألة؟ لا شك أن قُرب الله -تبارك وتعالى- من العبد أشرف وأعظم، وما حال عبد ربه قريب منه؟! وكيف تكون ألطافه به وحفظه ورعايته وكلاءته، وما إلى ذلك، فما أرحمه من رب! وما أعظمه وأكرمه!

فهذا الذي نعبده -أيها الأحبة- يتعرف إلينا بهذه الأوصاف فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ [سورة البقرة:١٨٦] فقد يسعى العبد لمُقابلة إنسان آخر له شأن، وربما يحتاج إلى مُدة حتى يُحدد معه موعدًا لكثرة أشغاله وأعباءه، ونحو ذلك، ولكثرة الطالبين لمُقابلته، ربما ينتظر أسبوعًا أو شهورًا حتى يُحدد له هذا الموعد، لكن الله -تبارك وتعالى- مُباشرة.. ارفع يديك، وقل: يا رب بقلب حاضر، ولا تحتاج إلى وسائط من المخلوقين، ولا تحتاج إلى أن تنتظر حتى يؤذن لك بالمُناجاة والدعاء.

وأيضًا هنا قال:وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ فهو أقرب إليك مما تطلب، وتسأل وتحتاج، وهذا القُرب لم يُحدده مثلاً من قوم عند بيته الحرام، فيحتاج الناس إلى أن يسافروا إلى هناك من أجل الدعاء، وإنما في كل مكان في البر والبحر، وليس من الضرورة أن يذهب الإنسان إلى البيت الحرام من أجل أن يدعو إن كانت له حاجة، وإنما من مكانه وموضعه، لكن يحتاج العبد إلى صحة الاعتقاد بأن الله يُجيب دعوة الداعي، ويحتاج إلى إحضار قلب، وأن يدعو وهو مؤقن بالإجابة، ولا يدعو كالمُختبر لربه، المُجرب أو اليائس، أو الذي يقول كما قال: النبي ﷺ: يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي[٨]، فهذا استعجال.

وبعضهم يقول: ما رأينا شيء من هذا الدعاء -نسأل الله العافية، وهذا سوء ظن بالله - تبارك وتعالى، ومن ظن أن الله لا يُجيب دعاء الداعين، وسؤال السؤالين، فقد أساء الظن بربه وخالقه ومليكه ، وتقدست أسماؤه، فيحتاج إلى أن يُحسن الظن، وأخبر النبي ﷺ بقوله: ما من رجل يدعو الله بدعاء إلا استجيب له، فإما أن يعجل في الدنيا، وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، أو يستعجل[٩]، فهذا الإنسان المُصاب، والمريض، الذي تدعو له، أو يدعو لنفسه، قد تقول: ما برأ، فالله ادخرها له في الآخرة، أو دُفع عنه من الشر مثل ذلك، وقد تتضاعف عليه علته وبليته، ونحو ذلك.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى:(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ)، فَالرَّفَثُ كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ، قال: ابْنُ عباس: إن الله حيى كريم يكني، كلما ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمُبَاشَرَةِ وَالْمُلَامَسَةِ وَالْإِفْضَاءِ وَالدُّخُولِ وَالرَّفَثُ، فَإِنَّمَا عَنَى بِهِ الْجِمَاعَ، وَقال: الزَّجَّاجُ: الرَّفَثُ كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ لِكُلِّ مَا يُرِيدُهُ الرِّجَالُ مِنَ النِّسَاءِ، قال: أَهْلُ التَّفْسِيرِ: كَانَ فِي ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ إِذَا أَفْطَرَ الرَّجُلُ حَلَّ لَهُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْجِمَاعُ إلى أَنْ يُصَلِّيَ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، أَوْ يَرْقُدَ قَبْلَهَا، فَإِذَا صَلَّى الْعِشَاءَ أَوْ رَقَدَ قَبْلَهَا حَرُمَ عَلَيْهِ الطعام والشراب وَالنِّسَاءُ إلى اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ، ثُمَّ: إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّه عنه واقع أهله بعد ما صَلَّى الْعِشَاءَ فَلَمَّا اغْتَسَلَ أَخَذَ يَبْكِي وَيَلُومُ نَفْسَهُ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقال:يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَعْتَذِرُ إلى اللَّهِ وَإِلَيْكَ مِنْ نَفْسِي- هَذِهِ الْخَاطِئَةِ، إِنِّي رَجَعْتُ إلى أهلي بعد ما صَلَّيْتُ الْعِشَاءَ فَوَجَدْتُ رَائِحَةً طَيِّبَةً فَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي- فَجَامَعْتُ أَهْلِي، فَقال: النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا كُنْتَ جَدِيرًا بِذَلِكَ يا عمر»، فقام رجال فاعترفوا بِمِثْلِهِ، فَنَزَلَ فِي عُمَرَ وَأَصْحَابِهِ: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ، أَيْ: أُبِيحُ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ: (هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ)، أَيْ: سَكَنٌ لَكُمْ، (وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ)، أَيْ: سَكَنٌ لَهُنَّ، دَلِيلُهُ قوله تعالى: (وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها) [الْأَعْرَافِ: ١٨٩]، وَقِيلَ: لا يسكن شيء إلى شَيْءٍ كَسُكُونِ أَحَدِ الزَّوْجَيْنِ إلى الْآخَرِ،

وَقِيلَ: سُمِّيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ لِبَاسًا لِتَجَرُّدِهِمَا عِنْدَ النَّوْمِ وَاجْتِمَاعِهِمَا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، حَتَّى يَصِيرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ كَالثَّوْبِ الَّذِي يَلْبَسُهُ، وَقال: الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُنَّ فِرَاشٌ لكم، وأنتم لحاف لهن، وقال: أَبُو عُبَيْدَةَ وَغَيْرُهُ: يُقال: لِلْمَرْأَةِ هِيَ لِبَاسُكَ وَفِرَاشُكَ وَإِزَارُكَ، وَقِيلَ: اللِّبَاسُ اسْمٌ لِمَا يُوَارِي الشَّيْءَ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا سِتْرًا لِصَاحِبِهِ عَمَّا لَا يَحِلُّ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ تَزَوَّجَ فَقَدْ أَحْرَزَ ثُلُثَيْ دينه»، (عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ)، أَيْ: تَخُونُونَهَا وَتَظْلِمُونَهَا بِالْمُجَامَعَةِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، قال: الْبَرَاءُ: لَمَّا نَزَلَ صَوْمُ رَمَضَانَ، كَانُوا لَا يقربون النساء في رَمَضَانَ كُلَّهُ، وَكَانَ رِجَالٌ يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّه تعالى إلى: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ، (فَتابَ عَلَيْكُمْ): تَجَاوَزَ عَنْكُمْ،(وَعَفا عَنْكُمْ): مَحَا ذُنُوبَكُمْ، (فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ): جَامِعُوهُنَّ حَلَالًا، سُمِّيَتِ الْمُجَامَعَةُ: مُبَاشَرَةً، لملاصقة بشرة كل واحد منهما صاحبه، (وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)، أَيْ: فَاطْلُبُوا مَا قَضَى اللَّهُ لَكُمْ، وَقِيلَ: مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، يَعْنِي: الْوَلَدَ، قال:هُ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ، قال: مُجَاهِدٌ: ابْتَغُوا الْوَلَدَ إِنْ لَمْ تَلِدْ هَذِهِ فَهَذِهِ، وَقال: قَتَادَةُ: وَابْتَغُوا الرُّخْصَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ، بِإِبَاحَةِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

وَقال: مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: (وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ)، يَعْنِي: لَيْلَةَ الْقَدْرِ، قَوْلُهُ: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ)، نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ اسْمُهُ أَبُو صِرْمَةَ بْنُ قَيْسِ بْنِ صِرْمَةَ، وَقال: عِكْرِمَةُ: أَبُو قَيْسِ بْنُ صِرْمَةَ، وَقال: الْكَلْبِيُّ: أَبُو قَيْسٍ صرمة بن أنس بن صرمة، وَذَلِكَ أَنَّهُ ظَلَّ نَهَارَهُ يَعْمَلُ فِي أَرْضٍ لَهُ وَهُوَ صَائِمٌ، فَلَمَّا أَمْسَى۔ رَجَعَ إلى أَهْلِهِ بِتَمْرٍ، وَقال: لِأَهْلِهِ قَدِّمِي الطَّعَامَ، فَأَرَادَتِ الْمَرْأَةُ أَنْ تُطْعِمَهُ شَيْئًا سخنا فَأَخَذَتْتعالىعَمَلُ لَهُ سَخِينَةً،

وَكَانَ في ابتداء الأمر مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ وَنَامَ حَرُمَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ، فَلَمَّا فَرَغَتْ من طعامه إذا هِيَ بِهِ قَدْ نَامَ، وَكَانَ قد أعيا وكلّ من العمل، فَأَيْقَظَتْهُ فَكَرِهَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ ورسوله وأبى أَنْ يَأْكُلَ فَأَصْبَحَ صَائِمًا مَجْهُودًا، فَلَمْ يَنْتَصِفِ النَّهَارُ حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهِ فَلَمَّا أَفَاقَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«يَا أبا قيس ما لك أصبحت طليحا»، فذكر له حاله فَاغْتَمَّ لِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا)، يَعْنِي فِي لَيَالِي الصَّوْمِ (حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ)، يَعْنِي: بَيَاضَ النَّهَارِ مِنْ سَوَادِ اللَّيْلِ: سُمِّيَا خَيْطَيْنِ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَبْدُو فِي الِابْتِدَاءِ مُمْتَدًّا كَالْخَيْطِ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أخبرنا محمد بن يوسف أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَخْبَرَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ أَخْبَرَنَا أَبُو غَسَّانَ مُحَمَّدُ بْنُ مُطَرِّفٍ، ثَنَا أَبُو حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قال:أُنْزِلَتْ: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ، وَلَمْ يَنْزِلْ قَوْلُهُ: مِنَ الْفَجْرِ، فَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلِهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، وَلَا يَزَالُ يَأْكُلُ ويشرب حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ الله تعالى إلى بَعْدَهُ: (مِنَ الْفَجْرِ)، فَعَلِمُوا إِنَّمَا يَعْنِي بِهِمَا: اللَّيْلَ والنهار،

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أخبرنا حجاج بْنُ مِنْهَالٍ أَخْبَرَنَا هُشَيْمٌ أَخْبَرَنَا حُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قال:لَمَّا نَزَلَتْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ عَمَدْتُ إلى عِقال: أَسْوَدَ وَ إلى عِقال: أَبْيَضَ فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وسادتي فجعلت أنظر إليهما في اللَّيْلِ فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ إلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَقال:«إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»،

أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرَخْسِيُّ أَخْبَرَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إِنَّ بِلَالًا يُنَادِي بِلَيْلٍ فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُنَادِيَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ»، قال:وكان ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ رَجُلًا أَعْمَى لَا يُنَادِي حَتَّى يُقال: لَهُ: أصبحت أصبحت، وَاعْلَمْ أَنَّ الْفَجْرَ فَجْرَانِ: كَاذِبٌ وَصَادِقٌ، فَالْكَاذِبُ: يَطْلُعُ اولا: مُسْتَطِيلًا كذنب السرحان ويصعد إلى السَّمَاءِ، فَيَطْلُوعِهِ لَا يَخْرُجُ اللَّيْلُ وَلَا يَحْرُمُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَى الصَّائِمِ، ثُمَّ يَغِيبُ فَيَطْلُعُ بَعْدَهُ الْفَجْرُ الصَّادِقُ مُسْتَطِيرًا يَنْتَشِرُ سَرِيعًا فِي الْأُفُقِ، فَبِطُلُوعِهِ يَدْخُلُ النَّهَارُ وَيَحْرُمُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ عَلَى الصَّائِمِ

أَخْبَرَنَا أَبُو عُثْمَانَ سَعِيدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الضَّبِّيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْجِرَاحِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَحْبُوبِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ أَخْبَرَنَا هَنَّادٌ وَيُوسُفُ بْنُ عِيسَى، قال:ا: أَخْبَرَنَا وَكِيعٌ عَنْ أَبِي هِلَالٍ عَنْ سَوَادَةَ بْنِ حَنْظَلَةَ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قال:قال: رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ سُحُورِكُمْ أَذَانُ بِلَالٍ وَلَا الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيلُ، وَلَكِنِ الْفَجْرُ الْمُسْتَطِيرُ فِي الْأُفُقِ»، قوله تعالى: (ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إلى اللَّيْلِ)، فَالصَّائِمُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ الصَّادِقِ وَيَمْتَدُّ إلى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَإِذَا غَرَبَتْ حَصَلَ الْفِطْرُ،

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَخْبَرَنَا الْحُمَيْدِيُّ أخبرنا سفيان الثوري أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ قال:سَمِعَتْ أَبِي يَقُولُ: سَمِعْتُ عَاصِمَ بْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنْ أَبِيهِ قال:قال: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»، قوله تعالى: (وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ)، العكوف هو الإقامة على الشيء، وَالِاعْتِكَافُ فِي الشَّرْعِ: هُوَ الْإِقَامَةُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عِبَادَةِ الله تعالى إلى، وَهُوَ سُنَّةٌ، وَلَا يَجُوزُ فِي غَيْرِ الْمَسْجِدِ وَيَجُوزُ فِي جَمِيعِ الْمَسَاجِد

، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ،

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّه تعالى إلى، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَالْآيَةُ نَزَلَتْ فِي

نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا يَعْتَكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ، فَإِذَا عَرَضَتْ لِلرَّجُلِ مِنْهُمُ الْحَاجَةُ إلى أَهْلِهِ خَرَجَ إِلَيْهَا فَجَامَعَهَا ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَرَجَعَ إلى الْمَسْجِدِ، فَنُهُوا عن ذلك ليلا أو نهارا حَتَّى يَفْرَغُوا مِنَ اعْتِكَافِهِمْ، فَالْجِمَاعُ حَرَامٌ فِي حَالِ الِاعْتِكَافِ، وَيَفْسُدُ بِهِ الِاعْتِكَافُ، أَمَّا مَا دُونَ الْجِمَاعِ مِنَ الْمُبَاشَرَاتِ كَالْقُبْلَةِ وَاللَّمْسِ بِالشَّهْوَةِ فَمَكْرُوهٌ، وَلَا يَفْسُدُ بِهِ الِاعْتِكَافُ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَهُوَ أَظْهَرُ قَوْلَيِ الشَّافِعِيِّ، كَمَا لَا يَبْطُلُ بِهِ الْحَجُّ، وَقال:تْ طَائِفَةٌ: يَبْطُلُ بِهَا اعْتِكَافُهُ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ، وَقِيلَ: إِنْ أَنْزَلَ بَطَلَ اعْتِكَافُهُ، وَإِنْ لَمْ يُنْزِلْ فَلَا، كَالصَّوْمِ. وَأَمَّا اللَّمْسُ الَّذِي لَا يُقْصَدُ بِهِ التَّلَذُّذُ فَلَا يَفْسُدُ بِهِ الِاعْتِكَافُ،

لِمَا: أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرَخْسِيُّ أَخْبَرَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ، أَخْبَرَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مُصْعَبٍ عَنْ مَالِكٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قال:تْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اعْتَكَفَ أَدْنَى إِلَيَّ رَأْسَهُ فَأُرَجِّلُهُ وَكَانَ لَا يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ، قوله تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ): يعني: تلك الأحكام التي ذكرت في الصيام والاعتكاف حدود، أَيْ: مَا مَنَعَ اللَّهُ عَنْهَا، قال: السُّدِّيُّ: شُرُوطُ اللَّهِ، وَقال: شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ: فَرَائِضُ اللَّهِ وَأَصْلُ الْحَدِّ فِي اللُّغَةِ الْمَنْعُ، وَمِنْهُ يُقال: لِلْبَوَّابِ: حَدَّادٌ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ الدُّخُولِ، وَحُدُودُ اللَّه ما يمنع النَّاسَ مِنْ مُخَالَفَتِهَا، (فَلا تَقْرَبُوها)، فَلَا تَأْتُوهَا (كَذلِكَ)، هَكَذَا (يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، لِكَيْ يَتَّقُوهَا فَيَنْجُوا مِنَ الْعَذَابِ.

طرق آكل المال بالباطل

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تعلَمُونَنَفْسَهُ،

تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ) يعني بالحرام، بِالرِّبَا وَالْقُمَارِ وَالْغَصْبِ وَالسَّرِقَةِ وَالْخِيَانَةِ وَنَحْوَهَا، وَقِيلَ: هُوَ الْعُقُودُ الْفَاسِدَةُ (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً)، قَرَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ تِجارَةً نُصِبَ عَلَى خَبَرِ كَانَ، أَيْ: إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأَمْوَالُ تِجَارَةً، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِالرَّفْعِ، أَيْ: إِلَّا أَنْ تَقَعَ تِجَارَةٌ، (عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ)، أَيْ بطيب نَفْسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، وَقِيلَ: هُوَ أَنْ يُجِيزَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَبَايِعَيْنِ صَاحِبَهُ بَعْدَ الْبَيْعِ، فَيَلْزَمُ وَإِلَّا فَلَهُمَا الْخِيَارُ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا لِمَا أَخْبَرَنَا أَبُو الْحَسَنِ السَّرَخْسِيُّ أَخْبَرَنَا زَاهِرُ بْنُ أَحْمَدَ أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الْهَاشِمِيُّ أَنَا أَبُو مُصْعَبٍ

عَنْ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«الْمُتَبَايِعَانِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ عَلَى صَاحِبِهِ، مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا إِلَّا بَيْعَ الْخِيَارِ»، (وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)

، قال: أبو عبيدة: لَا تُهْلِكُوهَا، كَمَا قال:(وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ) [الْبَقَرَةِ: ١٩٥]، وَقِيلَ:(لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ) بِأَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ نَفْسَهُ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَطِيبُ أَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَحْمَدَ الْخَلَّالُ أَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْأَصَمُّ أَنَا الربيع أَنَا الشَّافِعِيُّ أَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ: أَنَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

حَدَّثَنَا أَبُو الْفَضْلِ زِيَادُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَنَفِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاذٍ الشَّاهُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُزَنِيُّ أَنَا أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَمَّادٍ الْقَاضِي أَنَا أَبُو مُوسَى الزَّمِنُ أَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ أَخْبَرَنَا أَبِي قال: سَمِعْتُ الْحَسَنَ: أَخْبَرَنَا جُنْدَبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:قال: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَرَجَ بِرَجُلٍ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَرَابٌ فَجَزِعَ مِنْهُ فَأَخْرَجَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، فَقال: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ»،

وَقال: الْحَسَنُ: وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ يَعْنِي: إِخْوَانَكُمْ، أَيْ: لَا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، (إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ أَنَا شُعْبَةُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُدْرِكٍ قال:سَمِعْتُ أَبَا زُرْعَةَ بْنَ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ عَنْ جَدِّهِ قال:قال: لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «اسْتَنْصَتَ النَّاسَ» ثُمَّ قال:«لَا تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩)

الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (يسألونك عن الأهلة) سأل معاذ بن جبلٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زيادة القمر ونقصانه فأنزل الله تعالى إلى: (يسألونك عن الأهلة) وهي جمع هلال (قل هي مواقيت للناس والحج) أخبر الله عنه أنَّ الحكمة في زيادته ونقصانه زوال الالتباس عن أوقات النَّاس فِي حجِّهم ومَحِلِّ دُيونِهم وعِدَدِ نسائهم وأجور أُجرائهم ومُدَد حواملهم وغير ذلك (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا) كان الرَّجل في الجاهلية إذا أحرم

نقب من بيته نقباً من مؤخره يدخل فيه ويخرج فأمرهم الله بتر ك سنَّة الجاهليَّة وأعلمهم أنَّ ذلك ليس ببرٍّ (ولكن البرَّ) برُّ (من اتقى) مخالفة الله (وأتوا البيوت من أبوابها) الآية.

معنى قوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَاتعالتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

♦ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (وقاتلوا في سبيل الله) الآية نزلت هذه الآية في صلح الحديبية وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمَّا انصرف من الحديبية إلى المدينة المنورة حين صدَّه المشركون عن البيت صالحهم على أن يرجع عامة القابل ويُخَلُّوا له مكَّة ثلاثة أيَّام فلمَّا كان العام القابل تجهزَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا أن لا تفي لهم قريشٌ وأن يصدُّوهم عن البيت ويقاتلوهم وكره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالهم في الشَّهر الحرام في الحرم فأنزل الله تعالى إلى: (وقاتلوا في سبيل الله) أَيْ: في دين الله وطاعته {(الذين يقاتلونكم) يعني: قريشاً (ولاتعالتدوا) ولا تظلموا فتبدؤوا في الحرم بالقتال

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١)

معنى قوله تعالى: (واقتلوهم حيث ثقفتموهم)

قيل نسخت الآية الأولى بهذه الآية وأصل الثقافة الحذق والبصر بالأمور، ومعناه واقتلوهم حيث بصرتم مقاتلتهم وتمكنتم من قتلهم (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) وذلك أنهم أخرجوا المسلمين من مكة فقال: أخرجوهم من ديارهم كما أخرجوكم من دياركم [ص: ٢١٤] (والفتنة أشد من القتل) يعني شركهم بالله عز وجل أشد وأعظم من قتلكم إياهم في الحرم والإحرام (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم) قرأ حمزة والكسائي: (ولا تقتلوهم حتى يقتلوكم فإن قتلوكم) بغير ألف فيهن من القتل على معنى ولا تقتلوا بعضهم تقول العرب قتلنا بني فلان وإنما قتلوا بعضهم وقرأ الباقون بالألف من القتال وكان هذا في ابتداء الإسلام كان لا يحل بدايتهم بالقتال في البلد الحرام ثم صار منسوخا بقوله تعالى إلى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) هذا قول قتادة وقال: مقاتل بن حيان قوله (واقتلوهم حيث ثقفتموهم) أي حيث أدركتموهم في الحل والحرم صارت هذه الآية منسوخة بقوله تعالى إلى (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) ثم نسختها آية السيف في (براءة) فهي ناسخة منسوخة وقال: مجاهد وجماعة هذه الآية محكمة ولا يجوز الابتداء بالقتال في الحرم (كذلك جزاء الكافرين)

فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢)(فإن انتهوا) عن القتال والكفر (فإن الله غفور رحيم) أي غفور لما سلف رحيم بالعباد

معنى قوله تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : (وَقاتِلُوهُمْ)، يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ، (حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ)، أَيْ: شِرْكٌ، يَعْنِي قَاتِلُوهُمْ حَتَّى يُسْلِمُوا فَلَا يُقْبَلُ مِنَ الْوَثَنِيِّ إِلَّا الْإِسْلَامُ فَإِنْ أبى قتل، وَيَكُونَ الدِّينُ، أي: الطاعة والعبادة لِلَّهِ وحده، فلا يعبد شيء دونه، قال: نَافِعٌ: جَاءَ رَجُلٌ إلى ابْنِ عُمَرَ فِي فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَقال:مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَخْرُجَ؟ قال:يَمْنَعُنِي أَنَّ اللَّه حَرَّمَ دَمَ أَخِي، قال:أَلَا تَسْمَعُ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وجلّ في قوله: (وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا) [الحجرات: ٩]، فقال:يَا ابْنَ أَخِي لَأَنْ أُعَيَّرَ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَلَا أُقَاتِلَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعَيَّرَ بِالْآيَةِ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً)[النِّسَاءِ: ٩٣]... قال:أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ؟ قال:قَدْ فَعَلْنَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ كَانَ الْإِسْلَامُ قَلِيلًا، وَكَانَ الرَّجُلُ يُفْتَنُ فِي دِينِهِ إِمَّا يَقْتُلُونَهُ أَوْ يُعَذِّبُونَهُ، حَتَّى كَثُرَ الْإِسْلَامُ فَلَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ، وكان الدين لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قال:قال: رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ: كَيْفَ تَرَى فِي قِتَالِ الْفِتْنَةِ؟ فَقال:هَلْ تَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَاتِلُ الْمُشْرِكِينَ، وَكَانَ الدخول عليهم فتنة، وليس لكم غنيّ عن الْمُلْكِ، (فَإِنِ انْتَهَوْا): عَنِ الْكُفْرِ وَأَسْلَمُوا، (فَلا عُدْوانَ)، فَلَا سَبِيلَ (إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ)، قال:هُ ابْنُ عَبَّاسٍ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قوله تعالى: (أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ) [القصص: ٢٨]، أي: فلا سبيل عليّ، وَقال: أَهْلُ الْمَعَانِي: الْعُدْوَانُ: الظُّلْمُ، أَيْ: فَإِنْ أَسْلَمُوا فَلَا نَهْبَ وَلَا أَسْرَ وَلَا قَتْلَ، إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ بَقُوا عَلَى الشِّرْكِ، وَمَا يُفْعَلُ بِأَهْلِ الشِّرْكِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ لَا يَكُونُ ظُلْمًا، وَسَمَّاهُ عُدْوَانًا عَلَى طَرِيقِ المجازات وَالْمُقَابَلَةِ، كَمَا قال:فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ [البقرة: ١٩٤]، وَكَقوله تعالى: (وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها) [الشُّورَى: ٤٠]، وَسُمِّيَ الْكَافِرُ ظَالِمًا لِأَنَّهُ يَضَعُ الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ موضعها.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : (الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ): نزلت هذه الآية فِي عُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مُعْتَمِرًا فِي ذِي الْقِعْدَةِ فَصَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنِ الْبَيْتِ بِالْحُدَيْبِيَةِ، فَصَالَحَ أَهْلَ مَكَّةَ عَلَى أَنْ يَنْصَرِفَ عَامَهُ ذَلِكَ وَيَرْجِعَ الْعَامَ المقبل فَيَقْضِيَ عُمْرَتَهُ، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَهُ ذَلِكَ، وَرَجَعَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ فِي ذِي الْقِعْدَةِ، وَقَضَى عُمْرَتَهُ سَنَةَ سَبْعٍ مِنَ الْهِجْرَةِ، فَذَلِكَ مَعْنَى قوله تعالى: الشَّهْرُ الْحَرامُ، يَعْنِي ذَا الْقِعْدَةِ الَّذِي دَخَلْتُمْ فيه مكة، وقضيتم فيه عمرتكم سنة سبع من الهجرة، (بِالشَّهْرِ الْحَرامِ)، يَعْنِي: ذَا الْقِعْدَةِ الَّذِي صُدِدْتُمْ فِيهِ عَنِ الْبَيْتِ سَنَةَ سِتٍّ، (وَالْحُرُماتُ قِصاصٌ): جَمْعُ حُرْمَةٍ، وَإِنَّمَا جَمَعَهَا لِأَنَّهُ أَرَادَ حُرْمَةَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْبَلَدِ الْحَرَامِ وَحُرْمَةَ الْإِحْرَامِ، وَالْقِصَاصُ: الْمُسَاوَاةُ وَالْمُمَاثَلَةُ، وَهُوَ أَنْ يُفْعَلَ بِالْفَاعِلِ مِثْلُ مَا فَعَلَ، وَقِيلَ: هَذَا فِي أمر القتال، معناه: إن بدؤوكم بِالْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَقَاتِلُوهُمْ فِيهِ، فَإِنَّهُ قِصَاصٌ بِمَا فَعَلُوا فِيهِ، (فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ)، وقاتلوه (بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ)، سُمِّيَ الْجَزَاءُ بِاسْمِ الِابْتِدَاءِ عَلَى ازْدِوَاجِ الْكَلَامِ كَقوله تعالى: وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها، (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

معنى قوله تعالى: (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، أَرَادَ بِهِ الْجِهَادَ وَكُلَّ خَيْرٍ هُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكِنَّ إِطْلَاقَهُ يَنْصَرِفُ إِلَى الْجِهَادِ، وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ، قِيلَ: الْبَاءُ فِي قوله تعالى: بِأَيْدِيكُمْ زَائِدَةٌ، يُرِيدُ: وَلَا تُلْقُوا أَيْدِيَكُمْ، أَيْ: أَنْفُسَكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ عَبَّرَ بالأيدي عن الأنفس، كقوله تعالى: (فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) [الشُّورَى: ٣٠]، أَيْ: بِمَا كَسَبْتُمْ، وَقِيلَ: الْبَاءُ فِي مَوْضِعِهَا، وفيه حذف، أي: (ولا تُلْقُوا أَنْفُسَكُمْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)، أَيِ الْهَلَاكِ، وَقِيلَ: التَّهْلُكَةُ كُلُّ شَيْءٍ يَصِيرُ عَاقِبَتُهُ إِلَى الْهَلَاكِ، أَيْ: وَلَا تَأْخُذُوا فِي ذَلِكَ، وَقِيلَ: التَّهْلُكَةُ مَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ عَنْهُ، وَالْهَلَاكُ مَا لَا يُمْكِنُ الِاحْتِرَازُ عَنْهُ، وَالْعَرَبُ لَا تَقُولُ لِلْإِنْسَانِ: أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَّا فِي الشر، وَاخْتَلَفُوا فِي ت

-أُوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقال: بَعْضُهُمْ: هَذَا فِي الْبُخْلِ فِي تـرك الْإِنْفَـاقِ، يَقُـولُ: وَلَا تُلْقُـوا بِأَيْـدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ بِتَرْكِ الْإِنْفَاقِ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ، وَهُـوَ قَـوْلُ حُذَيْفَـةَ وَالْحَسَنِ- وَقَتَـادَةَ وَعِكْرِمَـةَ وَعَطَـاءٍ، وَقال: ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، أَنْفِقْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَإِنْ لَـمْ يَكُـنْ لَـكَ إِلَّا سَـهْمٌ أَوْ مِشْـقَصٌ وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنِّي لَا أَجِدُ شَيْئًا، وَقال: السدي فيها: أَنْفِـقْ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ، وَلَـوْ عِقـال:ا وَلَا تُلْقُـوا بِأَيْدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ، وَلَا تَقُلْ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ، وَقال: سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَمُقَاتِلُ بْـنُ حَيَّـانَ: لَمَّـا أَمَرَ اللَّه تعالى إِلى بالإنفاق قال: رجال: أُمِرْنَا بِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّه تعـالى إِلى، وَلَـوْ أَنْفَقْنَـا أَمْوَالَنَـا بَقِينَا فُقَرَاءَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَقال: مجاهد فيها: لا يمنعكم مِنْ نَفَقَةٍ فِي حَقِّ خِيفَةُ الْعَيْلَـةِ: أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الصَّالِحِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ الْحِيرِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْـنُ عَـلِيِّ بْـنِ دُحَـيْمٍ الشَّـيْبَانِيُّ، أَخْبَرَنَـا أَحْمَـدُ بْـنُ حَـازِمِ بْـنِ أَبِـي غَـرَزَةَ، أَخْبَرَنَـا أَبُـو غَسَّـانَ، أَخْبَرَنَـا خَالِـدُ بْـنُ عَبْـدِ اللَّه الْوَاسِطِيُّ، أَخْبَرَنَا وَاصِلٌ مَوْلَى أَبِي عُيَيْنَةَ عَنْ بَشَّارِ بْنِ أَبِـي سَـيْفٍ، عَـنِ الْوَلِيـدِ بْـنِ عَبْـدِ الـرحمن عـن عياض بن غطيف قال:أَتَيْنَا أَبَا عُبَيْدَةَ نَعُودُهُ قال:سَمِعْتُ رَسُـولَ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ يَقُـولُ: «مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً فَاضِلَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَبِسَبْعِمِائَةٍ، وَمَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً عَلَى أَهْلِـهِ فَالْحَسَـنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا».

وَقال: زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: كَانَ رِجَالٌ يَخْرُجُونَ فِي الْبُعُوثِ بِغَيْرِ نَفَقَةٍ، فَإِمَّا أَنْ يَقْطَعَ بِهِمْ وإما أن يكونوا عِيَالًا، فَأَمَرَهُمُ اللّٰه تعالى إلى بِالْإِنْفَاقِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ يُنْفِقُهُ، فَلَا يَخْرُجُ بِغَيْرِ نَفَقَةٍ وَلَا قُوتٍ فَيُلْقِي بِيَدِهِ إلى التَّهْلُكَةِ، فَالتَّهْلُكَةُ: أَنْ يَهْلِكَ مِنَ الجوع والعطش أو من المشي، وقيل: نزلت الآية في ترك الجهاد، قال: أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ: نَزَلَتْ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللّٰه تعالى إلى لَمَّا أَعَزَّ دِينَهُ وَنَصَرَ رَسُولَهُ، قُلْنَا فِيمَا بَيْنَنَا: إِنَّا قَدْ تَرَكْنَا أَهْلَنَا وَأَمْوَالَنَا حَتَّى فَشَا الْإِسْلَامُ وَنَصَرَ اللَّهُ نبيّه فلو رجعنا إلى أهلنا وَأَمْوَالِنَا فَأَقَمْنَا فِيهَا فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا، فَأَنْزَلَ اللّٰه تعالى إلى: وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ، والتهلكة الْإِقَامَةُ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَتَرْكُ الْجِهَادِ، فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى كَانَ آخِرُ غَزْوَةٍ غَزَاهَا بِقُسْطَنْطِينِيَّةَ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ، فَتُوُفِّيَ هُنَاكَ وَدُفِنَ فِي أَصْلِ سُورِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وهم يستسقون به، وَرَوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال:قال: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»، وَقال: مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَعَبِيدَةُ السَّلْمَانِيُّ: الْإِلْقَاءُ إلى التَّهْلُكَةِ هُوَ الْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللّٰه تعالى إلى، قال: أَبُو قِلَابَةَ: هُوَ الرَّجُلُ يُصِيبُ الذَّنْبَ فَيَقُولُ قَدْ هَلَكْتُ لَيْسَ لِي تَوْبَةٌ، فَيَيْأَسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَيَنْهَمِكُ فِي الْمَعَاصِي، فَنَهَاهُمُ اللّٰه تعالى إلى عَنْ ذَلِكَ، قال: اللّٰه تعالى إلى: (إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) [يوسف: ٨٧]، (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إلى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦)

الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (وأتموا الحج والعمرة لله) بمناسكها وحدودها وسننها وتأدية كلّ ما فيهما (فإن أحصرتم) حُبستم ومُنعتم دون تمامهما (فما استيسر) فواجبٌ عليكم ما تيسَّر (من الهدي) وهو ما يُهدى إلى بيت الله سبحانه أعلاه بدنةٌ وأوسطه بقرة وأدناه شاةٌ فعليه ما تيسَّر من هذه الأجناس (ولا تحلقوا رؤوسكم) أَيْ: لا تَحِلُّوا من إحرامكم (حتى يبلغ الهدي محلَّه) حتى يُنحر الهدي بمكَّة في بعض الأقوال وهو مذهب أهل العراق وفي قول غيرهم: مَحِلُّه حيث يَحِلُّ ذبحه ونحره وهو حيث أُحصر وهو مذهب الشَّافعي (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى من رأسه) يعني الهوام تقع في الشَّعر وتكثر فحلق (فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ) وهو صيام ثلاثة أيَّام (أو صدقة) وهي إطعام ستة مساكين لكلِّ مسكينٍ مُدَّان (أو نسك) ذبيحةٍ (فإذا أمنتم) أَيْ: من العدوِّ أو كان حجٌّ ليس فيه خوفٌ من عدوٍّ (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج) أَيْ: قدم مكَّة مُحرماً واعتمر في أشهر الحجِّ وأقام حلالا بمكة حتى ينشئ منها الحجَّ عامَه ذلك واستمتع بمحظورات الإحرام لأنَّه حلَّ بالعمرة فمن فعل هذا (ف) عليه (ما استيسر من الهدي فمن لم يجد) ثمن الهدي (فصيام ثلاثة أيام في) أشهر (الحج وسبعة إذا رجعتم) أَيْ: بعد الفراغ من الحجِّ (تلك عشرة كاملة ذَلِكَ) أَيْ: ذلك الفرض الذي أُمرنا به من الهدي أو الصِّيام (لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) أَيْ: لمَنْ لم يكن من أهل مكَّة.

العبادة التي بَسَطَ الله تعالى تفاصيلها وأحوالها، مع تغيير ما أدخله أهل الجاهلية فيها

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)

لما كان التقرب إلى الله سبحانه لا يتم بترك المعاصي فحسب، بل لا بد أيضًا من فعل ما أمَرَ به سبحانه؛ فالشرع في مبتداه ومنتهاه قائم على أمر ونهي، وفعل وكفٍّ؛ بيَّنتعالى إلى في هذه الآية وما يليها من آيات فرائض الحج وآدابه على الجملة، وما يجب أن يُراعى في أدائه، وأشار إلى بعض أركانه وشعائره.

وقد ظهرت عناية الله تعالى إلى بهذه العبادة العظيمة، إذ بَسَطَ تفاصيلها وأحوالها، مع تغيير ما أدخله أهل الجاهلية فيها. البداية مع قوله تعالى: {الحج أشهر معلومات} وللمفسرين فيه أقوال، نختار منها:

الأول: أن يكون ذلك تمهيداً لقوله سبحانه: {فلا رفث} تهويناً لمدة ترك الرفث والفسوق والجدال، لصعوبة ترك ذلك على الناس، ففي الموطأ أن عائشة رضي الله عنها قال:ت لـ عروة بن الزبير رضي الله عنه: (يا ابن أختي! إنما هي عَشْر ليالٍ، فإن تَخَلَّج في نفسك شيء فدعه)تعالني بذلك: إن حَدَّثَتْكَ نفسك بفعل شيء لا يجوز حال الإحرام، فدعه إلى أن تحلَّ من إحرامك، وذلك كالصيد، وإتيان الزوجة، وشِبْه ذلك.

الثاني: أن الإحرام للحج لا يكون إلا في هذه الأشهر، وهي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة؛ ففي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:من السُّنَّة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج. وهذا القول مروي عن كثير من الصحابة والتابعين، وللفقهاء فيه تفصيل، نُمسك عن الخوض فيه هنا.

الثالث: أن الآية تقرير لما كانوا عليه في الجاهلية منتعالبين أشهر الحج.

معنى قوله تعالى: {فمن فرض فيهن الحج}

معنى {فرض} نوى وحَزَم وعزم؛ فنيَّة الحج هي العزم عليه، وهو" الإحرام" قال: الطبري: أجمعوا على أن المراد من الفرض هنا الإيجاب؛ وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال:{فمن فرض فيهن الحج} يقول: من أحرم بحج أو عمرة.

وقوله جلَّ من قائل: {فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج}

قال: أهل اللغة: {لا} في الآية للجنس، مبالغة في النهي عن تلك الأمور، حتى جُعلت كأن الحاج قد نُهيَ عنها، فانتهى. و(الرفث) الجماع، أي: فلا جماع؛ لأنه يفسده. وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج، وعليه حج من قابل والهدي. وقال: بعض العلم: (الرفث) الإفحاش للمرأة بالكلام، كقوله: إذا أحللنا فعلنا بك كذا، من غير كناية.

ولما كان المقصود من الحج الذل والخضوع لله سبحانه، والتقرب إليه ما أمكن بأنواع القربات، والتنزه عن مقارفة السيئات، حتى يكون الحج مبروراً وبالتالي مقبولاً، أرشد سبحانه عباده إلى الطريق الموصل لذلك؛ فنهى سبحانه عما يفسد هذه العبادة، ويبعدها عن مقصدها الذي شُرعت لأجله، وأمرتعالى إلى بكل خير يقرِّب إليه، وخاصة في هاتيك البقاع الشريفة.

والمعنى: من أحرم بالحج أو العمرة، فَلْيَتَجنَّبِ الرفث، وهو الجماع، بدليل قوله تعالى: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم} (البقرة:١٨٧) وكذلك يَحْرُمتعالىاطي دواعي الجماع، كالمباشرة، والتقبيل، والتكلم بذلك.

معنى قوله تعالى: (ولا فسوق)

(الفسوق) اسم عام يشمل جميع المعاصي، كالصيد حال الإحرام، والسباب، والغيبة، والنميمة، ونحو ذلك؛ وفي الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام: (سِباب المسلم فسوق، وقتاله كفر) متفق عليه. وهذا عام في كل زمان ومكان، ويكون في الحج آكد.

وفي" الصحيحين" من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قوله صلى الله عليه وسلم: (من حج البيت فلم يرفث، ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه).

معنى قوله تعالى: (ولا جدال في الحج)

(الجدال) مصدر جادله، إذا خاصمه خصاماً شديداً، قال تعالى: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن} (العنكبوت:٤٦). وللعلماء قولان في معنى الآية:

الأول: أنه لا مجادلة في وقت الحج في مناسكه، وهذا نكير لِمَا كانت عليه العرب في جاهليتها؛ إذ كانوا يقفون مواقف مختلفة في الحج يتجادلون، كلهم يدعي أن موقفه هو موقف إبراهيم عليه السلام؛ فكانت هذه الآية بياناً للأمر وتحديداً له. وحاصل هذا القول، النهي عن التنازع في مناسك الحج، وهذا اختيار الطبري.

القول الثاني: أن المراد بـ (الجدال) هنا المخاصمة، فعن عبد الله بن مسعود قال:{ولا جدال في الحج} قال:أن تماري صاحبك حتى تغضبه.

واتفق أهل العلم على أن مدارسة العلم والمناظرة فيه ليست من الجدال المنهي عنه؛ واتفقوا كذلك على أن المجادلة في إنكار المنكر وإقامة حدود الدين، ليست من الجدال المنهي عنه، وإنما المنهي عنه ما يفضي إلى المنازعة والمغاضبة والمشاتمة، مما ينافي حرمة الحج.

معنى قوله تعالى: {وما تفعلوا من خير يعلمه الله}

المعنى: لا تفعلوا ما نُهيتم عنه، وافعلوا ما أُمرتم به من الخير، فما تفعلوا من خير أو شر يعلمه الله، فإنه سبحانه وتعالىلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وفي الآية حث على فعل الخيرات بعد النهى عن فعل المنكرات.

وقوله سبحانه: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} (التزود) إعداد الزاد، وهو الطعام الذي يحمله المسافر لأجل سفره. و(التزود) هنا استعارة؛ للاستكثار من فعل الخير استعداداً ليوم الجزاء، شُبِّه بإعداد المسافر الزاد لسفره، من باب إطلاق اسم السفر والرحيل على الموت. وفي الآية بيان أن التقوى أفضل ما يتزود به العبد لسفره، سواء في ذلك سفر الدنيا أم سفر الآخرة.

ولا مانع من حمل (التزود) في الآية على معناه الحقيقي، وعلى هذا يكون المعنى: تزودوا بإعداد الزاد لسفر الحج، وَلْيَكُن في حسابكم أن خير زادكم هو التقوى. اللهم زودنا التقوى في سفرنا، ومن الخير ما ترضى

ليس عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨)

♦ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (وليس عليكم جناح) كان قومٌ يزعمون أنَّه لا حَجَّ لتاجرٍ ولا جَمَّالٍ فأعلمَ الله تعالى إلى أنه لا حرج في ابتغاء الرِّزق بقوله: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ ربكم) أَيْ: رزقاً بالتجّارة في الحجِّ (فإذا أفضتم) أَيْ: دفعتم وانصرفتم من (من عرفات فَاذْكُرُوا اللَّهَ) بالدُّعاء والتَّلبية (عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ واذكروه كما هداكم) أَيْ: ذكراً مثلَ هدايته إيَّاكم أَيْ: يكون جزاءً لهدايته إيَّاكم (وإن كنتم من قبله) أَيْ: وما كنتم من قبل هُدَاه إلاَّ ضالّين.

معنى قوله تعالى: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

♦ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (ثمَّ أفيضوا من حيث أفاض الناس) يعني: العرب وعامّة النَّاس إلاَّ قريشاً وذلك أنَّهم كانوا لا يقفون بعرفات وإنَّما يقفون بالمزدلفة ويقولون نحن أهل حرم الله فلا نخرج منه فأمرهم الله أن يقفوا بعرفاتٍ كما يقف سائر النَّاس حتى تكون الإفاضة معهم منها (فإذا قضيتم مناسككم) أَيْ: فرغتم من عبادتكم التي أمرتم بها في الحجِّ (فَاذْكُرُوا اللَّهَ كذكركم آباءَكم) كانت العرب إذا فرغوا من حجِّهم ذكروا مفاخر آبائهم فأمرهم الله عز وجل بذكره {أو أشدَّ ذكراً} يعني: وأشدَّ ذكراً (فمن الناس) وهم المشركون كانوا يسألون المال والإبل والغنم ولا يسألون حظّاً في الآخرة لأنهم لم يكونوا مؤمنين بها.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (فَإذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ)، أَيْ: فَرَغْتُمْ مِنْ حَجِّكُمْ وَذَبَحْتُمْ نَسَائِكَكُمْ، أَيْ: ذَبَائِحَكُمْ، يُقال:نَسَكَ الرَّجُلُ يَنْسُكُ نُسُكًا إِذَا ذَبَحَ نَسِيكَتَهُ، وَذَلِكَ بَعْدَ

رَمْيِ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ وَالِاسْتِقْرَارِ بِمِنًى، (فَاذْكُرُوا اللَّهَ): بِالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، (كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ)، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ إِذَا فَرَغَتْ مِنَ الْحَجِّ وَقَفَتْ عِنْدَ الْبَيْتِ فَذَكَرَتْ مَفَاخِرَ آبَائِهَا، فأمرهم

الله بذكره، وقال:(فَاذْكُرُونِي)[البقرة: ١٥٢]، فإني الَّذِي فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكُمْ وَبِآبَائِكُمْ وَأَحْسَنْتُ إِلَيْكُمْ وَإِلَيْهِمْ، قال: ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٌ: مَعْنَاهُ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِ الصِّبْيَانِ الصِّغَارِ الْآبَاءَ، وَذَلِكَ أَنَّ الصَّبِيَّ أَوَّلُ مَا يَتَكَلَّمُ يلهج بذكر أبيه لا يذكر غَيْرِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ: فَاذْكُرُوا اللَّهَ لَا غَيْرَ، كَذِكْرِ الصَّبِيِّ أَبَاهُ، (أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً)، وَسُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنْ قَوْلِهِ: فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ، فَقِيلَ: قَدْ يَأْتِي عَلَى الرَّجُلِ الْيَوْمُ لا يَذْكُرُ فِيهِ أَبَاهُ، قال: ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ كَذَلِكَ وَلَكِنْ أَنْ تَغْضَبَ لِلَّهِ إِذَا عُصِيَ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِكَ لِوَالِدَيْكَ إِذَا شُتِمَا، وَقوله تعالى: أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً، يعني: بل أشدّ، أي: أكثر ذِكْرًا، (فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا)، أَرَادَ بِهِ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا لَا يَسْأَلُونَ اللَّه تعالى إلى فِي الْحَجِّ إِلَّا الدُّنْيَا، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ أَعْطِنَا غَنَمًا وَإِبِلًا وَبَقَرًا وَعَبِيدًا، وَكَانَ الرَّجُلُ يقوم فيقول: اللهمّ إِنَّ أَبِي كَانَ عَظِيمَ الْقُبَّةِ كَبِيرَ الْجَفْنَةِ كَثِيرَ الْمَالِ، فَأَعْطِنِي مثل ما أعطيته، قال: قَتَادَةُ: هَذَا عَبْدٌ نِيَّتُهُ الدُّنْيَا لَهَا أَنْفَقَ وَلَهَا عَمِلَ وَنَصَبَ، (وَما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ): من حظّ ونصيب.

معنى قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ)، يَعْنِي: الْمُؤْمِنِينَ، وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى الْحَسَنَتَيْنِ، قال: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً امْرَأَةٌ صَالِحَةٌ، وَفِي الْآخِرَةِ حسنة الجنة والحور العين، أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْحَنِيفِيُّ أَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ الطُّوسِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ خَلَّادٍ أَنَا الْحَارِثُ بْنُ أَبِي أُسَامَةَ أَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُقْرِي، أَخْبَرَنَا حَيْوَةُ وَابْنُ لَهِيعَةَ قال:ا: أَخْبَرَنَا شُرَحْبِيلُ بْنُ شَرِيكٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«الدُّنْيَا كُلُّهَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»، وَقال: الْحَسَنُ: فِي الدُّنْيا حَسَنَةً الْعِلْمُ وَالْعِبَادَةُ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً الْجَنَّةُ، وَقال: السُّدِّيُّ وَابْنُ حيان: «فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً» رِزْقًا حَلَالًا وَعَمَلًا صَالِحًا، «وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً» الْمَغْفِرَةُ وَالثَّوَابُ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«أَغْبَطُ أَوْلِيَائِي عِنْدِي مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنَ الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه فِي السِّرِّ وَكَانَ غَامِضًا فِي النَّاسِ لَا يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا فَصَبَرَ عَلَى ذلك- ثم نفر بيده - فقال:هكذا عُجِّلَتْ مَنِيَّتُهُ، قَلَّتْ بَوَاكِيهِ، قَلَّ تُرَاثُهُ»، وَقال: قَتَادَةُ: فِي الدُّنْيا عَافِيَةً وَفِي الْآخِرَةِ عَافِيَةً، وَقال: عَوْفٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: مَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَالْقُرْآنَ وَأَهْلًا وما لا فَقَدْ أُوتِيَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، عَنْ أَنَسِ بْنِ مالك قال:رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا قَدْ صَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقال:«هَلْ كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟" فَقال:يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كنت معاقبي بِهِ فِي الْآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقال:«سُبْحَانَ اللَّهِ لا تستطيعه ولا تطيقه، هلّا قلت: اللهم آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن السائب أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِيمَا بَيْنَ رُكْنِ بَنِي جُمَحَ وَالرُّكْنِ الْأَسْوَدِ: (رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذابَ النَّارِ).

معنى قوله تعالى: (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ): حَظٌّ (مِمَّا كَسَبُوا): مِنَ الْخَيْرِ والدعاء بالثواب وَالْجَزَاءِ، (وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)، يَعْنِي: إذا حاسب عبده فَحِسَابُهُ سَرِيعٌ لَا يَحْتَاجُ إلى عَقْدِ يَدٍ وَلَا وَعْيِ صَدْرٍ ولا إلى رَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ، قال: الْحَسَنُ: أَسْرَعُ مِنْ لَمْحِ الْبَصَرِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إتْيَانُ الْقِيَامَةِ قَرِيبٌ لِأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ لَا مَحَالَةَ فَهُوَ قَرِيبٌ، قال: الله تعالى إلى: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) [الشورى: ١٧].

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْتعالىجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

هذه الآية الكريمة في أيام التشريق؛ في النفْر الأول والنفْر الثاني، يقول الله سبحانه: وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ [البقرة:٢٠٣] ؛ هذه أيام التشريق يوم: الحادي عشر- والثاني عشر- والثالث عشر، ليس منها يوم العيد وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ [البقرة:٢٠٣].

يوم العيد داخل في العشر التي فيها الذكر؛ العشر- مأمور فيها بالذكر والأيام المعدودات مأمور فيها بالذكر أيضًا، كلها ثلاثة عشر يومًا، كلها مشروع فيها الذكر من أولها إلى آخرها؛ من اليوم الأول من شهر ذي الحجة إلى اليوم الثالث عشر كلها أيام ذكر وتكبير وتهليل.

ويشرع للمسلمين فيها التكبير والتهليل في الليل والنهار، وفي المساجد، وفي الطرق، وفي البيوت، وفي كل مكان.

وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنتعالىجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ؛ يعني: الثاني عشر- فلا إثم عليه، وَمَن تَأَخَّرَ: الثالث عشر فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ؛ ذكرهم سبحانه بمجمعهم هذا في عرفات وفي مزدلفة وفي منى، أنه يحشر-هم يوم القيامة، فهم محشورون إلى الله يوم القيامة حشرًا عظيمًا، لا يبقى منهم أحد، كما قال تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ [التغابن:٩]، فكل الناس محشورون يوم القيامة جميعًا، ومجزيون بأعمالهم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

فهذا الحشر في منى وعرفات ومزدلفة هذا الجمع يذكر العاقل بيوم القيامة، وجمع الخلائق في يوم القيامة، لعلّه يستعد لذلك اليوم العظيم.

والحجاج فيهم من يريد النفير والتعجل وفيهم من لا يريد ذلك، فمنتعالىجل من اليوم الثاني عشر بعد الزوال وبعد الرمي فلا بأس، ومن تأخر حتى يرمي اليوم الثالث عشر بعد الزوال فلا بأس، وهو أفضل؛ لأن الرسول ﷺ تأخر ولم ينفر إلا في اليوم الثالث عشر. عليه الصلاة والسلام فالحجاج مخيرون؛ من شاء نفر في اليوم الثاني عشر بعد رمي الجمرات الثلاث فينفر إلى مكة. ثم هو بالخيار: إن أحب السفر طاف للوداع قبل أن يسافر، وإن أحب أن يبقى في مكة أيامًا.

فإذا عزم على السفر طاف للوداع عند السفر، وليس يوم العيد منها. فبعض الناس يغلط؛ ينفر في اليوم الحادي عشر، ويقول: هذا هو اليوم الثاني، هذا غلط عظيم، يوم العيد لا يحسب منها، أولها الحادي عشر، يقول النبي ﷺ: أيام منى ثلاثة؛ فمنتعالىجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه[١]؛ يعني: الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر[٢].

معنى قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧)

قوله تعالى: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) قال: الكلبي ومقاتل وعطاء: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، واسمه أبي وسمي الأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رجلا حلو الكلام حلو المنظر وكان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجالسه ويظهر الإسلام ويقول إني لأحبك ويحلف بالله على ذلك وكان منافقا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدني مجلسه فنزل قوله تعالى إلى (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) أي تستحسنه ويعظم في قلبك ويقال: في الاستحسان أعجبني كذا وفي الكراهية والإنكار عجبت من كذا (ويشهد الله على ما في قلبه) يعني قول المنافق والله إني بك مؤمن ولك محب (وهو ألد الخصام) أي شديد

الخصومة يقال: لددت يا هذا وأنت تلد لدا ولدادة فإذا أردت أنه غلب على خصمه قلت لده يلده لدا، يقال: رجل ألد وامرأة لداء وقوم لد قال: الله تعالى إلى:" وتنذر به قوما لدا" (٩٧ - مريم. قال:

الزجاج: اشتقاقه من لديدي العنق وهما صفحتاه، وتأويله أنه في أي وجه أخذ من يمين أو شمال في أبواب الخصومة غلب [ص: ٢٣٦] والخصام مصدر خاصمه خصاما ومخاصمة قال:ه أبو عبيدة: وقال: الزجاج: هو جمع خصم يقال:خصم وخصام وخصوم مثل بحر وبحار وبحور قال: الحسن: ألد الخصام أي كاذب القول قال: قتادة: شديد القسوة في المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة.

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل أخبرنا أبو عاصم عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"إن أبغض الرجال إلى الله تعالى إلى الألد الخصم"

(وإذا تولى) أي أدبر وأعرض عنك (سعى في الأرض) أي عمل فيها وقيل: سار فيها ومشى- (ليفسد فيها) قال: ابن جريج قطع الرحم وسفك دماء المسلمين (ويهلك الحرث والنسل) وذلك أن الأخنس كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلة فأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم

قال: مقاتل: خرج إلى الطائف مقتضيا مالا له على غريم فأحرق له كدسا وعقر له أتانا والنسل: نسل كل دابة والناس منهم وقال: الضحاك: (وإذا تولى) أي ملك الأمر وصار واليا (سعى في الأرض) قال: مجاهد: في قوله عز وجل (وإذا تولى سعى في الأرض) قال: إذا ولي فعمل بالعدوان والظلم أمسك الله المطر وأهلك الحرث والنسل (والله لا يحب الفساد) أي لا يرضى بالفساد قال: سعيد بن المسيب: قطع الدرهم من الفساد في الأرض.

قوله (وإذا قيل له اتق الله) أي خف الله (أخذته العزة بالإثم) أي حملته العزة وحمية الجاهلية على الفعل بالإثم أي بالظلم والعزة التكبر والمنعة وقيل معناه (أخذته العزة) للإثم الذي في قلبه فأقام الباء مقام اللام.

قوله (فحسبه جهنم) أي كافيه (ولبئس المهاد) أي الفراش، قال: عبد الله بن مسعود: إن من أكبر الذنب عند الله أن يقال:للعبد اتق الله فيقول: عليك بنفسك.

وروي أنه قيل لعمر بن الخطاب: اتق الله فوضع خده على الأرض تواضعا لله عز وجل.

قوله تعالى: (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) أي لطلب رضا الله تعالى إلى (والله رءوف بالعباد) روي عن ابن عباس والضحاك: أن هذه الآية نزلت في سرية الرجيع وذلك أن كفار قريش بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة: إنا قد أسلمنا فابعث إلينا نفرا من علماء أصحابك يعلموننا دينك وكان ذلك مكرا منهم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خبيب بن عدي الأنصاري ومرثد بن أبي مرثد الغنوي وخالد بن بكير وعبد الله بن طارق بن شهاب البلوي وزيد بن الدثنة وأمر عليهم عاصم بن [ص: ٢٣٧] ثابت بن أبي الأفلح الأنصاري قال: أبو هريرة: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة عينا وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري فساروا فنزلوا ببطن الرجيع بين مكة والمدينة ومعهم تمر عجوة فأكلوا فمرت عجوز فأبصرت النوى فرجعت إلى قومها بمكة وقال:ت: قد سلك هذا الطريق أهل يثرب من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فركب سبعون رجلا منهم معهم الرماح حتى أحاطوا بهم قال: أبو هريرة رضي الله عنه: ذكروا لحي من هذيل يقال: لهم بنو لحيان فنفروا لهم بقريب من مائة رجل رام فاقتفوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم التمر في منزل نزلوه فقالوا: تمر يثرب فاتبعوا آثارهم فلما أحس بهم عاصم وأصحابه لجأوا إلى فدفد فأحاط بهم القوم فقتلوا مرثدا، وخالدا وعبد الله بن طارق ونثر عاصم بن ثابت كنانته وفيها سبعة أسهم فقتل بكل سهم رجلا من عظماء المشركين ثم قال:اللهم إني حميت دينك صدر النهار فاحم لحمي آخر النهار ثم أحاط به المشركون فقتلوه فلما قتلوه أرادوا حز رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر فأرسل الله رجلا من الدبر - وهي الزنابير - فحمت عاصما فلم يقدروا عليه فسمي حمي الدبر فقال:وا دعوه حتى تسمي فتذهب عنه فنأخذه فجاءت سحابة سوداء وأمطرت مطرا كالعزالي فبعث الله الوادي غديرا فاحتمل عاصما به فذهب به إلى الجنة وحمل خمسين من المشركين إلى النار وكان عاصم قد أعطى الله تعالى إلى عهدا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حين بلغه أن الدبر منعته يقول: عجبا لحفظ الله العبد المؤمن كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدا فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع عاصم في حياته.

وأسر المشركون خبيب بن عدي الأنصاري وزيد بن الدثنة فذهبوا بهما إلى مكة فأما خبيب فابتاعه بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ليقتلوه بأبيهم وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر فلبث خبيب عندهم أسيرا حتى أجمعوا على قتله فاستعار من بنات الحارث موسى ليستحد بها فأعارته فدرج بني لها وهي غافلة فما راع المرأة إلا خبيب قد أجلس الصبي على فخذه والموسى بيده فصاحت المرأة فقال: خبيب: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن الغدر ليس من شأننا فقال:ت المرأة بعد: والله ما رأيت أسيرا خيرا من خبيب والله لقد وجدته يوما يأكل قطفا من عنب في يده وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمرة إن كان إلا رزقا رزقه الله خبيبا ثم إنهم خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل وأرادوا أن يصلبوه فقال: لهم خبيب: دعوني أصلي ركعتين، فتركوه فكان خبيب هو أول من سن لكل مسلم قتل صبرا الصلاة فركع ركعتين ثم قال:لولا أن يحسبوا أن ما بي جزع لزدت اللهم احصهم [ص: ٢٣٨] عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا ثم أنشأ يقول:

فلست أبالي حين أقتل مسلما على أي شق كان في الله مصرعي وذلك في ذات الإله وإن يشأ

يبارك على أوصال شلو ممزع

فصلبوه حيا فقال: اللهم: إنكتعالىلم أنه ليس أحد حولي يبلغ سلامي رسولك فأبلغه سلامي ثم قام أبو سروعة عقبة بن الحارث فقتله.

ويقال:كان رجل من المشركين يقال: له سلامان أبو ميسرة معه رمح فوضعه بين ثديي خبيب فقال: له خبيب: اتق الله فما زاده ذلك إلا عتوا فطعنه، فأنفذه وذلك قوله عز وجل (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) يعني سلامان. وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف فبعثه مع مولى له يسمى نسطاس إلى التنعيم ليقتله بأبيه واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب فقال: له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدا عندنا الآن بمكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك؟ فقال:والله ما أحب أن محمدا صلى الله عليه وسلم الآن في مكانه الذي هو فيه يصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي. فقال: أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا ثم قتله النسطاس. فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الخبر قال: لأصحابه أيكم (ينزل) خبيبا عن خشبته وله الجنة؟ فقال: الزبير: أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد بن الأسود فخرجا يمشيان بالليل ويكمنان بالنهار حتى أتيا التنعيم ليلا وإذا حول الخشبة أربعون رجلا من المشركين نائمون نشاوى، فأنزلاه فإذا هو رطب ينثني لم يتغير منه شيء بعد أربعين يوما ويده على جراحته وهي تبض دما اللون لون الدم والريح ريح المسك فحمله الزبير على فرسه وسارا فانتبه الكفار وقد فقدوا خبيبا فأخبروا قريشا فركب منهم سبعون فلما لحقوهما قذف الزبير خبيبا فابتلعته الأرض فسمي بليع الأرض.

فقال: الزبير: ما جرأكم علينا يا معشر قريش ثم رفع العمامة عن رأسه وقال:أنا الزبير بن العوام وأمي صفية بنت عبد المطلب وصاحبي المقداد بن الأسود أسدان رابضان يدافعان عن شبليهما فإن شئتم ناضلتكم وإن شئتم نازلتكم وإن شئتم انصرفتم فانصرفوا إلى مكة وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عنده فقال: يا محمد إن الملائكة لتباهي بهذين من أصحابك فنزل في الزبير والمقداد بن الأسود (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) حين شريا أنفسهما لإنزال خبيب عن خشبته.

وقال: أكثر المفسرين: نزلت في صهيب بن سنان الرومي حين أخذه المشركون في رهـط مـن المؤمنين [ص: ٢٣٩] فعذبوهم فقال: لهم صهيب إني شيخ كبير لا يضرـكم أمـنكم كنـت أم مـن غيركم فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني؟ ففعلوا وكان شرط عليهم راحلة ونفقة فأقـام بمكة ما شاء الله ثم خرج إلى المدينة فتلقاه أبو بكر وعمر في رجال فقال: له أبو بكر ربح بيعـك يـا أبا يحيى فقال: له صهيب: وبيعك فلا تتحسر قال: صـهيب: مـا ذاك؟ فقال:قـد أنـزل الله فيـك وقـرأ عليه هذه الآية.

وقال: سعيد بن المسيب وعطاء: أقبل صهيب مهاجرا نحو النبي صلى الله عليه وسلم فاتبعه نفر من مشركي قريش فنزل عن راحلته ونثـل مـا كـان فـي كنانتـه ثـم قال:يـا معشرـ قـريش لقـد علمتم إني لمن أرماكم رجلا والله لا أضع سهما مما في كنانتي إلا في قلب رجـل مـنكم وايـم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي فـي يـدي ثـم افعلـوا مـا شئتم وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وخليتم سبيلي قالوا: نعـم. ففعـل ذلـك فـأنزل الله هـذه الآية.

وقال: الحسن: أتدرون فيمن نزلت هذه الآية؟ نزلت في المسلم يلقى الكافر فيقـول لـه: قـل لا إله إلا الله فيأبى أن يقولها فقال: المسلم والله لأشرين نفسي لله. فتقدم فقاتـل وحـده حـتى قتل.

وقيل نزلت الآية في الأمر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر قـال: ابـن عبـاس: أرى مـن يشرـي نفسه ابتغاء مرضاة الله يقوم فيأمر هذا بتقوى الله فإذا لم يقبل وأخذتـه العـزة بـالإثم قال:وأنـا أشري نفسي لله فقاتله فاقتتل الـرجلان لـذلك وكـان عـلي إذا قـرأ هـذه الآيـة يقـول: اقتـتلا ورب الكعبة وسمع عمر بن الخطاب إنسانا يقرأ هذه الآية (ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله) فقال: عمر (إنا لله وإنا إليه راجعون) قام رجل يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فقتل.

أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا عبد الرحمن بن شريح أخبرنا أبو القاسم البغوي أخبرنا علي بن الجعد أخبرني حماد بن سلمة عن أبي غالب عن أبي أمامـة أن رجـلا قال:يـا رسـول الله أي الجهـاد أفضل؟ قال:أفضل الجهاد من قال: كلمة حق عند سلطان جائر.

معنى قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)

قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) قرأ أهل الحجاز والكسائي السلم هاهنا بفتح السين وقرأ الباقون بكسرها وفي سورة الأنفال" وإن جنحوا للسلم" بالكسر وقرأ أبو بكر والباقون بالفتح وفي سورة محمد صلى الله عليه وسلم بالكسر حمزة وأبو بكر.

نزلت هذه الآية في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام النضيري وأصحابه وذلك أنهم كانوا يعظمون السبت ويكرهون لحمان الإبل وألبانها بعدما أسلموا وقالوا: يا رسول الله إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنقم بها في صلاتنا بالليل فأنزل الله تعالى إلى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة) أي في الإسلام قال: مجاهد في أحكام أهل الإسلام وأعمالهم) (كافة) أي جميعا وقيل: ادخلوا في الإسلام إلى منتهى شرائعه كافين عن المجاوزة إلى غيره وأصل السلم من الاستسلام والانقياد ولذلك قيل للصلح سلم قال: حذيفة بن اليمان في هذه الآية: الإسلام ثمانية أسهم فعد الصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة، والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال:قد خاب من لا سهم له.

معنى قوله تعالى: (ولا تتبعوا خطوات الشيطان)

أي آثاره فيما زين لكم من تحريم السبت ولحوم الإبل وغيره (إنه لكم عدو مبين)

أخبرنا محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو العباس الطحان أخبرنا أبو أحمد محمد بن قريش أخبرنا علي بن عبد العزيز المكي أخبرنا أبو عبيد القاسم بن سلام أخبرنا هشيم أخبرنا مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أتاه عمر فقال:إنا نسمع أحاديث من يهود فتعجبنا أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: "أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي" . [ص: ٢٤١]

(فإن زللتم) أي ضللتم وقيل: ملتم يقال:زلت قدمه تزل زلا وزللا إذا دحضت قال: ابن عباس: يعني الشرك قال: قتادة: قد علم الله أنه سيزل زالون من الناس فتقدم في ذلك وأوعد فيه ليكون له به الحجة عليهم (من بعد ما جاءتكم البينات) أي الدلالات الواضحات (فاعلموا أن الله عزيز) في نقمته) (حكيم) في أمره فالعزيز: هو الغالب الذي لا يفوته شيء والحكيم: ذو الإصابة في الأمر.

قوله تعالى إلى (هل ينظرون) أي هل ينظر التاركون الدخول في السلم والمتبعون خطوات الشيطان يقال:نظرته وانتظرته بمعنى واحد فإذا كان النظر مقرونا بذكر الله أو بذكر الوجه أو إلى

لم يكن إلا بمعنى الرؤية (إلا أن يأتيهم الله في ظلل) جمع ظلة (من الغمام) السحاب الأبيض الرقيق سمي غماما لأنه يغم أي يستر وقال: مجاهد: هو غير السحاب ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم: قال: مقاتل: كهيئة الضباب أبيض قال: الحسن: في سترة من الغمام فلا ينظر [إليه] أهل الأرض) (والملائكة) قرأ أبو جعفر بالخفض عطفا على الغمام تقديره: مع الملائكة تقول العرب: أقبل الأمير في العسكر أي مع العسكر وقرأ الباقون بالرفع على معنى: إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام والأولى في هذه الآية وما شاكلها أن يؤمن الإنسان بظاهرها ويكل علمها إلى الله تعالى إلى ويعتقد أن الله عز اسمه منزه عن سمات الحدث على ذلك مضت أئمة السلف وعلماء السنة.

قال: الكلبي: هذا من المكتوم الذي لا يفسر. وكان مكحول والزهري والأوزاعي ومالك وابن المبارك وسفيان الثوري والليث بن سعد وأحمد وإسحاق يقولون فيها وفي أمثالها: أمروها

كما جاءت بلا كيف قال: سفيان بن عيينة: كل ما وصف الله بـه نفسـه فـي كتابـه فتفسـيره قراءته والسكوت عليه ليس لأحد أن يفسره إلا الله تعالى إلى ورسوله.

قوله تعالى: (وقضي الأمر) أي وجب العذاب وفرغ من الحساب وذلك فصل) (الله) القضـاء بالحق بين الخلق يوم القيامة (و إلى الله ترجع الأمور) قرأ ابن عـامر وحمـزة والكسـائي ويعقـوب بفتح التاء وكسر الجيم وقرأ الباقون بضم التاء وفتح الجيم.

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَـةَ اللَّهِ مِـنْ بَعْـدِ مَـا جَاءَتْـهُ فَـإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢١١)

تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (سَلْ بَـنِي إِسْرائِيـلَ)، أَيْ: سَـلْ يَـا مُحَمَّـدُ يَهُـودَ الْمَدِينَةِ: (كَمْ آتَيْناهُمْ): أَعْطَيْنَا آبَاءَهُمْ وأسلافهم، (مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ)، قرأ أهل الحجـاز وقتيبـة بتشـديد الياء والباء، والباقون بتشديد الياء، دَلَالَةٍ وَاضِحَةٍ عَلَى نُبُوَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مِثْلَ الْعَصَـا وَالْيَـدِ الْبَيْضَاءِ وَفَلْقِ الْبَحْرِ وَغَيْرِهَا، وَقِيلَ: معناه الدلالات التي آتاهم الله فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ عَـلَى نُبُـوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (وَمَنْ يُبَـدِّلْ)، يعـني: يُغَـيِّرْ (نِعْمَـةَ اللَّهِ): كِتَـابَ اللَّهِ، وَقِيـلَ: عَهْـدَ اللَّهُ، وَقِيلَ: مَنْ يُنْكِرُ الدَّلَالَةَ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (مِنْ بَعْدِ مَـا جاءَتْـهُ فَـإِنَّ اللَّهَ شَـدِيدُ الْعِقابِ)

معنى قوله تعالى: (زين للذين كفروا الحياة الدنيا)

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

(زين للذين كفروا الحياة الدنيا) الأكثرون على أن المزين هو الله تعالى إلى والتزيين من الله تعالى إلى هو أنه خلق الأشياء الحسنة والمناظر العجيبة فنظر الخلق إليها بأكثر من قدرها فأعجبتهم ففتنوا بها وقال: الزجاج: زين لهم الشيطان قيل نزلت هذه الآية في مشركي العرب أبي جهل وأصحابه كانوا يتنعمون بما بسط الله لهم في الدنيا من المال ويكذبون بالمعاد (ويسخرون من الذين آمنوا) أي يستهزئون بالفقراء من المؤمنين.

قال: ابن عباس: أراد بالذين آمنوا عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وصهيبا وبلالا وخبابا وأمثالهم وقال: مقاتل: نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وأصحابه كانوا يتنعمون في الدنيا ويسخرون من ضعفاء المؤمنين وفقراء المهاجرين ويقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد أنه يغلب بهم وقال: عطاء: نزلت في رؤساء اليهود من بني قريظة والنضير وبني قينقاع سخروا من فقراء المهاجرين فوعدهم الله أن يعطيهم أموال بني قريظة والنضير بغير قتال (ويسخرون من الذين آمنوا) لفقرهم (والذين اتقوا) يعني هؤلاء الفقراء (فوقهم يوم القيامة) لأنهم في أعلى عليين وهم في أسفل السافلين.

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري أخبرنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزار أخبرنا أبو بكر محمد بن زكريا العذافري أخبرنا إسحاق الدبري أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد قال:قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم" وقفت على باب الجنة فرأيت أكثر أهلها المساكين ووقفت على باب النار فرأيت أكثر أهلها النساء وإذا أهل الجد محبوسون إلا من كان منهم من أهل النار فقد أمر به إلى النار" . [ص: ٢٤٣] أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل ثنا إسحاق بن إبراهيم حدثني عبد العزيز بن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال:مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لرجل عنده جالس: ما

رأيك في هذا؟ فقال:رجل من أشراف الناس: هذا والله حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع قال:فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر رجل آخر فقال: له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأيك في هذا؟ فقال:يا رسول الله إن هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال: أن لا يسمع لقوله فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خير من ملء الأرض مثل هذا" .

(والله يرزق من يشاء بغير حساب) قال: ابن عباس: يعني كثيرا بغير مقدار لأن كل ما دخل عليه الحساب فهو قليل يريد: يوسع على من يشاء ويبسط لمن يشاء من عباده وقال: الضحاك: يعني من غير تبعة يرزقه في الدنيا ولا يحاسبه في الآخرة وقيل: هذا يرجع إلى الله تعالى إلى معناه: يقتر على من يشاء ويبسط لمن يشاء ولا يعطي كل أحد بقدر حاجته بل يعطي الكثير من لا يحتاج إليه ولا يعطي القليل من يحتاج إليه فلا يعترض عليه ولا يحاسب فيما يرزق ولا يقال: لم أعطيت هذا وحرمت هذا؟ ولم أعطيت هذا أكثر مما أعطيت ذاك؟ وقيل معناه لا يخاف نفاد خزائنه فيحتاج إلى حساب ما يخرج منها لأن الحساب من المعطي إنما يكون بما يخاف من نفاد خزائنه.

معنى قوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة)

أي على دين واحد قال: مجاهد: أراد آدم وحده كان أمة واحدة قال: سمي الواحد بلفظ الجمع لأنه أصل النسل وأبو البشر ثم خلق الله تعالى إلى حواء ونشر منهما الناس فانتشروا وكانوا مسلمين إلى أن قتل قابيل هابيل فاختلفوا (فبعث الله النبيين) قال: الحسن وعطاء: كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمة واحدة على ملة الكفر أمثال البهائم فبعث الله نوحا وغيره من النبيين. وقال: قتادة وعكرمة: كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى ثم اختلفوا في زمن نوح فبعث الله إليهم نوحا فكان أول نبي بعث ثم بعث بعده النبيين.

وقال: الكلبي: هم أهل سفينة نوح كانوا مؤمنين ثم اختلفوا بعد وفاة نوح.

وروي عن ابن عباس قال:كان الناس على عهد إبراهيم عليه السلام أمة واحدة كفارا كلهم فبعث الله إبراهيم وغيره من النبيين وقيل: كان العرب على دين إبراهيم إلى أن غيره عمرو بن لحي. وروي عن [ص: ٢٤٤] أبي العالية عن أبي بن كعب قال:كان الناس حين عرضوا على آدم وأخرجوا من ظهره وأقروا بالعبودية أمة واحدة مسلمين كلهم ولم يكونوا أمة واحدة قط غير ذلك اليوم ثم اختلفوا بعد آدم نظيره في سورة يونس" وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين" (١٩ - يونس) وجملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر والمذكورون في القرآن باسم العلم ثمانية وعشرون نبيا) (مبشرين) بالثواب من آمن وأطاع) (ومنذرين) محذرين بالعقاب من كفر وعصى (وأنزل معهم الكتاب) أي الكتب تقديره وأنزل مع كل واحد منهم الكتاب) (بالحق) بالعدل والصدق (ليحكم بين الناس) قرأ أبو جعفر) (ليحكم) بضم الياء وفتح الكاف هاهنا وفي أول آل عمران وفي النور موضعين لأن الكتاب لا يحكم في الحقيقة إنما) (الحكم) به وقراءة العامة بفتح الياء وضم الكاف أي ليحكم الكتاب ذكره على سعة الكلام كقوله تعالى إلى" هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق" (٢٩ - الجاثية). وقيل معناه ليحكم كل نبي بكتابه (فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه) أي في الكتاب (إلا الذين أوتوه) أي أعطوا الكتاب.

معنى قوله تعالى: (من بعد ما جاءتهم البينات)

يعني أحكام التوراة والإنجيل قال: الفراء: ولاختلافهم معنيان:

أحدهما: كفر بعضهم بكتاب بعض قال: الله تعالى إلى:" ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض" (١٥٠ - النساء) والآخر: تحريفهم كتاب الله قال: الله تعالى إلى:" يحرفون الكلم عن مواضعه" (٤٦ - النساء) وقيل الآية راجعة إلى محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه اختلف فيه أهل الكتاب (من بعد ما جاءتهم البينات) صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتبهم) (بغيا) ظلما وحسدا (بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه) أي لما اختلفوا فيه (من الحق بإذنه) بعلمه وإرادته فيهم. قال: ابن زيد في هذه الآية: اختلفوا في القبلة فمنهم من يصلي إلى المشرق ومنهم من يصلي إلى المغرب ومنهم من يصلي إلى بيت المقدس فهدانا الله إلى الكعبة واختلفوا في الصيام فهدانا الله لشهر رمضان واختلفوا في الأيام فأخذت اليهود السبت والنصارى الأحد فهدانا الله للجمعة واختلفوا في إبراهيم عليه السلام فقال:ت اليهود كان يهوديا وقال:ت النصارى كان نصرانيا فهدانا الله للحق من ذلك واختلفوا في عيسى فجعلته

اليهود لفرية وجعلته النصارى إلها وهدانا الله للحق فيه (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم).

معنى قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ)، قال: قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ حِينَ أَصَابَ الْمُسْلِمِينَ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْجَهْدِ وَشِدَّةِ الْخَوْفِ وَالْبَرْدِ وَضِيقِ الْعَيْشِ وَأَنْوَاعِ الْأَذَى كَمَا قال: الله تعالى إلى: (وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ) [الْأَحْزَابِ: ١٠]، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي حَرْبِ أُحُدٍ، وَقال: عَطَاءٌ: لَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ الْمَدِينَةَ، اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الضُّرُّ لِأَنَّهُمْ خَرَجُوا بِلَا مَالٍ وَتَرَكُوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَيْدِي الْمُشْرِكِينَ، وَآثَرُوا رِضَا اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَظْهَرَتِ الْيَهُودُ الْعَدَاوَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَسَرَّ قَوْمٌ النِّفَاقَ، فَأَنْزَلَ الله تعالى إلى تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ أَمْ حَسِبْتُمْ، معناه: أَحَسِبْتُمْ وَالْمِيمُ صِلَةٌ قال:هُ الْفَرَّاءُ، وَقال: الزَّجَّاجُ: بَلْ حَسِبْتُمْ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَظَنَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تدخلوا الجنّة، (وَلَمَّا يَأْتِكُمْ)، أي: ولم يَأْتِكُمْ وَمَا صِلَةٌ (مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا)، شَبَّهَ الَّذِينَ مَضَوْا، (مِنْ قَبْلِكُمْ): من النَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، (مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ): الْفَقْرُ وَالشِّدَّةُ وَالْبَلَاءُ، (وَالضَّرَّاءُ): الْمَرَضُ وَالزَّمَانَةُ، (وَزُلْزِلُوا)، أَيْ: حُرِّكُوا بِأَنْوَاعِ الْبَلَايَا والرزايا وَخُوِّفُوا، (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ)، مَا زَالَ الْبَلَاءُ بِهِمْ حَتَّى استبطؤوا النصر من عند الله، قال: الله تعالى إلى: (أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)، قَرَأَ نَافِعٌ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ بِالرَّفْعِ، مَعْنَاهُ: حَتَّى قال: الرَّسُولُ، وَإِذَا كَانَ الْفِعْلُ الَّذِي يَلِي حَتَّى فِي مَعْنَى الْمَاضِي، وَلَفْظُهُ لَفْظُ الْمُسْتَقْبَلِ، فلك فيه وجهان: الرَّفْعُ وَالنَّصْبُ، فَالنَّصْبُ عَلَى ظَاهِرِ الْكَلَامِ لِأَنَّ حَتَّى تَنْصِبُ الْفِعْلَ المستقبل، والرفع مَعْنَاهُ الْمَاضِي، وحَتَّى لَاتعالعَمَلُ في الماضي.

معنى قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ)

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)

قال: أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: يسألك أصحابك يا محمد، أي شيء ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟، وعلى من ينفقونه فيما ينفقونه ويتصدقون به؟ فقل لهم: ما أنفقتم من أموالكم وتصدقتم به، فأنفقوه وتصدقوا به واجعلوه لآبائكم وأمهاتكم وأقربيكم، ولليتامى منكم، والمساكين، وابن السبيل، فإنكم ما تأتوا من خير وتصنعوه إليهم فإن الله به عليم، وهو محصيه لكم حتى يوفيكم أجوركم عليه يوم القيامة، ويثيبكم على ما أطعتموه بإحسانكم عليه. [ص: ٢٩٢]

و" الخير" الذي قال: جل ثناؤه في قوله:" قل ما أنفقتم من خير" ، هو المال الذي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من النفقة منه، فأجابهم الله عنه بما أجابهم به في هذه الآية.

وفي قوله:" ماذا" ، وجهان من الإعراب.

أحدهما: أن يكون" ماذا" بمعنى: أي شيء؟ فيكون نصبا بقوله:" ينفقون" .

فيكون معنى الكلام حينئذ: يسألونك أي شيء ينفقون؟، ولا ينصب ب" يسألونك" . والآخر منهما الرفع. وللرفع في" ذلك" وجهان: أحدهما أن يكون" ذا" الذي مع" ما" بمعنى" الذي" ، فيرفع" ما" ب" ذا" و" ذا" ل" ما" ، و" ينفقون" من صلة" ذا" ، فإن العرب قد تصل" ذا" و" هذا" ، كما قال: الشاعر:

عدس! ما لعباد عليك إمارة أمنت وهذا تحملين طليق!

ف" تحملين" من صلة" هذا" .

فيكون تأويل الكلام حينئذ: يسألونك ما الذي ينفقون؟

والآخر من وجهي الرفع أن تكون" ماذا" بمعنى أي شيء، فيرفع" ماذا" ، [ص: ٢٩٣] وإن كان قوله:" ينفقون" واقعا عليه، إذ كان العامل فيه، وهو" ينفقون" ، لا يصلح تقديمه قبله، وذلك أن الاستفهام لا يجوز تقديم الفعل فيه قبل حرف الاستفهام، كما قال: الشاعر

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

وكما قال: الآخر:

وقال:واتعالرفها المنازل من منى وما كل من يغشى منى أنا عارف

فرفع" كل" ولم ينصبه" بعارف" ، إذ كان معنى قوله:" وما كل من يغشى- منى أنا عارف" جحود معرفة من يغشى منى فصار في معنى ما أحد. وهذه الآية [نزلت] - فيما ذكر - قبل أن يفرض الله زكاة الأموال.

ذكر من قال: ذلك:

٤٠٦٨ - حدثني موسى بن هارون، قال:حدثنا عمرو بن حماد، قال:حدثنا [ص: ٢٩٤] أسباط، عن السدي:" يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين" ، قال:يوم نزلت هذه الآية لم تكن زكاة، وإنما هي النفقة ينفقها الرجل على أهله، والصدقة يتصدق بها فنسختها الزكاة.

٤٠٦٩ - حدثنا القاسم، قال:حدثنا الحسين، قال:حدثني حجاج، قال:قال: ابن جريج: سأل المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يضعون أموالهم؟ فنزلت:" يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل" ، فذلك النفقة في التطوع، والزكاة سوى ذلك كله قال:وقال: مجاهد: سألوا فأفتاهم في ذلك:" ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين" وما ذكر معهما.

٤٠٧٠ - حدثنا محمد بن عمرو، قال: حدثنا أبو عاصم، قال:حدثني عيسى، قال:سمعت ابن أبي نجيح في قول الله:" يسألونك ماذا ينفقون" ، قال:سألوه فأفتاهم في ذلك:" فللوالدين والأقربين" وما ذكر معهما.

٤٠٧١ - حدثني يونس، قال:أخبرنا ابن وهب، قال:قال: ابن زيد وسألته عن قوله:" قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين" قال:هذا من النوافل، قال:يقول: هم أحق بفضلك من غيرهم.

قال: أبو جعفر: وهذا الذي قال:ه السدي: من أنه لم يكن يوم نزلت هذه الآية زكاة، وإنما كانت نفقة ينفقها الرجل على أهله، وصدقة يتصدق بها، ثم نسختها الزكاة قول ممكن أن يكون كما قال:، وممكن غيره. ولا دلالة في الآية على صحة ما قال: ؛ لأنه ممكن أن يكون قوله:" قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين" الآية، حثا من الله جل ثناؤه على الإنفاق على من كانت نفقته غير واجبة من الآباء والأمهات والأقرباء، ومن سمي معهم في هذه الآية، وتعريفا من [ص: ٢٩٥] الله عباده مواضع الفضل التي تصرف فيها النفقات، كما قال: في الآية الأخرى: (وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة) [سورة البقرة: ١٧٧]. وهذا القول الذي قلناه في قول ابن جريج الذي حكيناه.

كيف يكون القتال من البأساء

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاتعلَمُونَ(٢١٦)

المناسبة أن القتال من البأساء التي في قوله ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء فقد كلفت به الأمم قبلنا، فقد كلفت بنو إسرائيل بقتال الكنعانيين مع موسى عليه السلام، وكلفوا بالقتال مع طالوت وهو شاول مع داود، وكلف ذو القرنين بتعذيب الظالمين من القوم الذين كانوا في جهة المغرب من الأرض.

ولفظ كتب عليكم من صيغ الوجوب وقد تقدم في آية الوصية، و" ال" في القتال للجنس، ولا يكون القتال إلا للأعداء فهو عام عموما عرفيا، أي كتب عليكم قتال عدو الدين.

والخطاب للمسلمين، وأعداؤهم يومئذ المشركون، لأنهم خالفوهم في الدين وآذوا الرسول والمؤمنين، فالقتال المأمور به هو الجهاد لإعلاء كلمة الله، وقد كان النبيء صلى الله عليه وسلم غير مأذون في القتال في أول ظهور الإسلام، ثم أذن له في ذلك بقوله تعالى إلى أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، ثم نزلت آية قتال المبادئين بقتال المسلمين في قوله تعالى وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم كما تقدم آنفا.

هذه الآية نزلت في واقعة سرية عبد الله بن جحش كما يأتي، وذلك في الشهر السابع عشر من الهجرة، فالآية وردت في هذه السورة مع جملة التشريعات والنظم التي حوتها كقوله: كتب عليكم الصيام، كتب عليكم القصاص، كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت.

فعلى المختار يكون قوله: كتب عليكم القتال خبرا عن حكم سبق لزيادة تقريره ولينتقل منه إلى قوله: وهو كره لكم الآية، أو إعادة لإنشاء وجوب القتال زيادة في تأكيده، أو إنشاء أنفا لوجوب القتال إن كانت هذه أول آية نزلت في هذا المعنى بناء على أن قوله تعالى إلى أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا إذن في القتال وإعداد له وليست بموجبة له.

معنى الكره في قوله تعالى: (وهو كره لكم)

وقوله: وهو كره لكم، حال لازمة وهي يجوز اقترانها بالواو، ولك أن تجعلها جملة ثانية معطوفة على جملة: كتب عليكم القتال، إلا أن الخبر بهذا لما كان معلوما للمخاطبين [ص: ٣٢٠]تعالين أن يكون المراد من الإخبار لازم الفائدة، أعني كتبناه عليكم ونحن عالمون أنه شاق عليكم، وربما رجح هذا الوجه بقوله تعالى إلى بعد هذا: والله يعلم وأنتم لاتعالملمون.

والكره بضم الكاف: الكراهية ونفرة الطبع من الشيء ومثله الكره بالفتح على الأصح، وقيل: الكره بالضم المشقة ونفرة الطبع، وبالفتح هو الإكراه وما يأتي على الإنسان من جهة غيره من الجبر على فعل ما بأذى أو مشقة، وحيث قرئ بالوجهين هنا وفي قوله تعالى إلى حملته أمه كرها ووضعته كرها ولم يكن هنا ولا هنالك معنى للإكراهتعالين أن يكون بمعنى الكراهية وإباية الطبع كما قال: الحماسي العقيلي:

بكره سراتنا يا آل عمرو نغاديكم بمرهفة النصال

رووه بضم الكاف وبفتحها.

على أن قوله تعالى إلى بعد ذلك وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم الوارد مورد التذييل: دليل على أن ما قبله مصدر بمعنى الكراهية ليكون جزئيا من جزئيات أن تكرهوا شيئا.

وقد تمحل صاحب الكشاف لحمل المفتوح في هذه الآية والآية الأخرى على المجاز. وقرره الطيبي والتفتازاني بما فيه تكلف، وإذ هو مصدر فالإخبار به مبالغة في تمكن الوصف من المخبر عنه كقول الخنساء:

فإنما هي إقبال وإدبار

أي تقبل وتدبر، وقيل: الكره اسم للشيء المكروه كالخبر.

فالقتال كريه للنفوس، لأنه يحول بين المقاتل وبين طمأنينته ولذاته ونومه وطعامه وأهله وبيته، ويلجئ الإنسان إلى عداوة من كان صاحبه ويعرضه لخطر الهلاك أو ألم الجراح، ولكن فيه دفع المذلة الحاصلة من غلبة الرجال واستضعافهم، وفي الحديث لا تمنوا لقاء العدو فإذا لقيتم فاصبروا، وهو إشارة إلى أن القتال من الضرورات التي لا يحبها الناس إلا إذا كان تركها يفضي إلى ضر عظيم قال: العقيلي:

ونبكي حين نقتلكم عليكم ونقتلكم كأنا لا نبالي

[ص: ٣٢١] ومعلوم أن كراهية الطبع لا تنافي تلقي التكليف به برضا لأن أكثر التكليف لا يخلو عن مشقة.

ثم إن كانت الآية خبرا عن تشريع مضى، يحتمل أن تكون جملة وهو كره حكاية لحالة مضت وتلك في أيام قلة المسلمين، فكان إيجاب القتال ثقيلا عليهم، وقد كان من أحكامه أن يثبت الواحد منهم لعشرة من المشركين أعدائهم، وذلك من موجبات كراهيتهم القتال، وعليه فليس يلزم أن تكون تلك الكراهية باقية إلى وقت نزول هذه الآية، فيحتمل أن يكون نزلت في شأن صلح الحديبية وقد كانوا كرهوا الصلح واستحبوا القتال، لأنهم يومئذ جيش كثير فيكون تذكيرا لهم بأن الله أعلم بمصالحهم، فقد أوجب عليهم القتال حين كانوا يكرهونه وأوجب عليهم الصلح في وقت أحبوا فيه القتال، فحذف ذلك لقرينة المقام، والمقصود الإفضاء إلى قوله وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم لتطمئن أنفسهم بأن الصلح الذي كرهوه هو خير لهم، كما تقدم في حوار عمر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع أبي بكر، ويكون في الآية احتباك، إذ الكلام على القتال، فتقدير السياق: كتب عليكم القتال وهو كره لكم ومنعتم منه وهو حب لكم، وعسى أن تكرهوا القتال وهو خير لكم وعسى أن تحبوه وهو شر لكم، وإن كانت الآية إنشاء

تشريع فالكراهية موجودة حين نزول الآية فلا تكون واردة في شأن صلح الحديبية، وأول الوجهين أظهرهما عندي ليناسب قوله عقبه: يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه.

وقوله وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم تذييل احتيج إليه لدفع الاستغراب الناشئ عن قوله: كتب عليكم القتال وهو كره لكم، لأنه إذا كان مكروها فكان شأن رحمة الله بخلقه ألا يكتبه عليهم فذيل بهذا لدفع ذلك.

وجملة وعسى: معطوفة على جملة كتب عليكم القتال، وجملة وهو خير لكم: حالية من شيئا على الصحيح من مجيء الحال من النكرة، وهذا الكلام تلطف من الله تعالى إلى لرسوله والمؤمنين، وإن كان سبحانه غنيا عن البيان والتعليل، لأنه يأمر فيطاع. ولكن في بيان الحكمة تخفيف من مشقة التكليف، وفيهتعالىويد المسلمين بتلقي الشريعة معللة مذللة فأشار إلى أن حكمة التكليفتعالىتمد المصالح ودرء المفاسد، ولاتعالىتمد ملاءمة الطبع ومنافرته، إذ يكره الطبع شيئا وفيه نفعه وقد يحب شيئا وفيه هلاكه، وذلك باعتبار العواقب والغايات، [ص: ٣٢٢] فإن الشيء قد يكون لذيذا ملائما ولكن ارتكابه يفضي إلى الهلاك، وقد يكون كريها منافرا وفي ارتكابه صلاح.

وشأن جمهور الناس الغفلة عن العاقبة والغاية أو جهلهما، فكانت الشرائع وحملتها من العلماء والحكماء تحرض الناس على الأفعال والتروك باعتبار الغايات والعواقب.

الحكمة في جعل الأشياء النافعة مكروهة والأشياء الضارة محبوبة

فإن قلت: ما الحكمة في جعل أشياء كثيرة نافعة مكروهة، وأشياء كثيرة ضارة محبوبة، وهلا جعل الله تعالى إلى النافع كله محبوبا والضار كله مكروها فتنساق النفوس للنافع باختيارها وتجتنب الضار كذلك فنكفى كلفة مسألة الصلاح والأصلح التي تناظر فيها الأشعري مع شيخه الجبائي وفارق الأشعري من أجلها نحلة الاعتزال؟ قلت: إن حكمة الله تعالى إلى بنت نظام العالم على وجود النافع والضار والطيب والخبيث من الذوات والصفات والأحداث، وأوكل للإنسان سلطة هذا العالم بحكم خلقه الإنسان صالحا للأمرين، وأراه طريقي الخير والشر كما قدمناه عند قوله تعالى إلى كان الناس أمة واحدة، وقد اقتضت الحكمة أن يكون النافع أكثر من الضار ولعل وجود الأشياء الضارة كونه الله لتكون آلة لحمل ناس على اتباع النافع كما قال تعالى: فيه بأس شديد ومنافع للناس، وقد أقام نظام هذا العالم على وجود المتضادات، وجعل الكمال الإنساني حاصلا عند حصول جميع الصفات النافعة فيه، بحيث إذا اختلت بعض الصفات النافعة منه

انتقصت بقية الصفات النافعة منه أو اضمحلت، وجعل الله الكمال أقل من النقص لتظهر مراتب النفوس في هذا العالم ومبالغ العقول البشرية فيه، فاكتسب الناس وضيعوا وضروا ونفعوا فكثر الضار وقل النافع بما كسب الناس وفعلوا قال تعالى: قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث.

وكما صارت الذوات الكاملة الفاضلة أقل من ضدها صارت صفات الكمال عزيزة المنال، وأحيطت عزتها ونفاستها بصعوبة منالها على البشر وبما يحف بها من الخطر والمتاعب، لأنها لو كانت مما تنساق لها النفوس بسهولة لاستوى فيها الناس فلم تظهر مراتب الكمال ولم يقع التنافس بين الناس في تحصيل الفضائل واقتحام المصاعب لتحصيلها قال: أبو الطيب:

ولا فضل فيها للشجاعة والندى وصبر الفتى لولا لقاء شعوب. فهذا سبب صعوبة الكمالات على النفوس.

تولد الفضائل من النواقص

[ص: ٣٢٣] ثم إن الله تعالى إلى جعل نظام الوجود في هـذا العـالم بتولـد الشيـء مـن بـين شيئين وهو المعبر عنه بالازدواج، غير أن هذا التولد يحصل فـي الـذوات بطريقـة التولـد المعروفـة قال تعالى: ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنـين) وأمـا حصـوله فـي المعـاني، فإنمـا يكـون بحصول الصفة من بين معنى صفتين أخريين متضادتين تتعادلان في نفس فينشـأ عنتعالىادلهمـا صفة ثالثة.

والفضائل جعلت متولدة من النقائص؛ فالشجاعة مـن التهـور والجـبن، والكـرم مـن السرـف والشح، ولا شك أن الشيء المتولد من شيئين يكون أقل مما تولد منه، لأنه يكون أقل من الثلـث، إذ ليس كلما وجد الصفتان حصل منهما تولد صفة ثالثة، بـل حـتى يحصـل التعـادل والتكـافؤ بـين تينك الصفتين المتضادتين وذلك عزيز الحصول ولا شك أن هاته الندرة قضت بقلة اعتيـاد النفـوس هاته الصفات، فكانت صعبة عليها لقلة اعتيادها إياها.

ووراء ذلك فالله حدد للناس نظاما لاستعمال الأشياء النافعـة والضـارة فيمـا خلقـت لأجلـه، فالتبعة في صورة استعمالها على الإنسان وهذا النظام كله تهيئة لمراتب المخلوقات في العـالم الأبدي عالم الخلود وهو الدار الآخرة كما يقال: (الدنيا مزرعة الآخرة) وبهذا تكمل نظرية النقض

الذي نقض بـه الشـيخ الأشـعري عـلى شـيخه الجبـائي أصـلهم فـي وجـوب الصـلاح والأصـلح فيكون بحث الأشعري نقضا وكلامنا هذا سندا وانقلابا إلى استدلال.

وجملة والله يعلم وأنتم لاتعلمون تذييل للجميع، ومفعولا (يعلم) و (تعالىلمون) محذوفان دل عليهما ما قبله أي والله يعلم الخير والشر، وأنتم لاتعالىلمونهما، لأن الله يعلم الأشياء على ما هي عليه والناس يشتبه عليهم العلم فيظنون الملائم نافعا والمنافر ضارا.

تعليم المسلمين تلقي أمر الله تعالى إلى باعتقاد أنه الصلاح والخير

والمقصود من هذا تعليم المسلمين تلقي أمر الله تعالى إلى باعتقاد أنه الصلاح والخير، وأن ما لم تتبين لنا صفته من الأفعال المكلف بها نوقن بأن فيه صفة مناسبة لحكم الشرع فيه فنطلبها بقدر الإمكان عسى أن ندركها، لنفرع عليها ونقيس ويدخل تحت هذا مسائل مسالك العلة، لأن الله تعالى إلى لا يجري أمره ونهيه إلا على وفق علمه.

دد يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧)

قوله تعالى: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) سبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم [ص: ٢٤٧] بعث عبد الله بن جحش وهو ابن عمة النبي صلى الله عليه وسلم أخت أبيه في جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه إلى المدينة وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين: سعد بن أبي وقاص الزهري وعكاشة بن محصن الأسدي وعتبة بن غزوان السلمي وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسهيل بن بيضاء وعامر بن ربيعة وواقد بن عبد الله وخالد بن بكير وكتب لأميرهم عبد الله بن جحش كتابا وقال له:" سر على اسم الله ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين فإذا نزلت فافتح الكتاب واقرأه على أصحابك ثم امض لما أمرتك ولا تستكرهن أحدا من أصحابك على السير معك فسار عبد الله يومين ثم نزل وفتح الكتاب فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: فسر على بركة الله بمن معك من أصحابك حتى تنزل بطن نخلة فترصد بها عير قريش لعلك تأتينا منها بخير فلما نظر في الكتاب قال:سمعا وطاعة ثم قال: لأصحابه ذلك وقال:إنه نهاني أن أستكره أحدا منكم فمن كان يريد الشهادة فلينطلق ومن كره فليرجع ثم مضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد حتى كان بمعدن فوق الفرع

بموضع من الحجاز يقال: له بحران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما يعتقبانه فتخلفا في طلبه ومضى ببقية أصحابه حتى نزلوا بطن نخلة بين مكة والطائف.

فبينما هم كذلك إذ مرت عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة الطائف فيهم عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان فلما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هابوهم فقال: عبد الله بن جحش: إن القوم قد ذعروا منكم فاحلقوا رأس رجل منكم وليتعرض لهم فحلقوا رأس عكاشة فوق ثم أشرفوا عليهم فقالوا: قوم عمار لا بأس عليكم فأمنوهم وكان ذلك في آخر يوم من جمادى الآخرة وكانوا يرون أنه من جمادى وهو من رجب فتشاور القوم وقالوا: لئن تركتموهم الليلة ليدخلن الحرم وليمتنعن منكم فأجمعوا أمرهم في مواقعة القوم فرمى واقد بن عبد الله السهمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله فكان أول قتيل من المشركين [وهو أول قتيل في الهجرة وأدى النبي صلى الله عليه وسلم دية ابن الحضرمي إلى ورثته من قريش. قال: مجاهد وغيره: لأنه كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش عهد وادع أهل مكة سنتين أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه]

واستأسر الحكم وعثمان فكانا أول أسيرين في الإسلام وأفلت نوفل فأعجزهم واستاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقال:ت قريش: قد استحل محمد الشهر الحرام فسفك فيه الدماء وأخذ الحرائب وعير بذلك أهل مكة من كان فيها من المسلمين وقالوا: يا معشر الصباة [ص: ٢٤٨] استحللتم الشهر الحرام وقاتلتم فيه!

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لابن جحش وأصحابه: ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ شيئا من ذلك فعظم ذلك على أصحاب السرية وظنوا أنهم قد هلكوا وسقط في أيديهم وقالوا: يا رسول الله إنا قد قتلنا ابن الحضرمي ثم أمسينا فنظرنا إلى هلال رجب فلا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى؟ وأكثر الناس في ذلك فأنزل الله تعالى إلى هذه الآية فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العير فعزل منها الخمس فكان أول خمس في الإسلام وقسم الباقي بين أصحاب السرية وكان أول غنيمة في الإسلام وبعث أهل مكة في فداء أسيريهم، فقال: بل نقفهم حتى يقدم سعد وعقبة وإن لم يقدما قتلناهما بهما فلما قدما فاداهما فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقتل يوم بئر معونة شهيدا وأما عثمان بن عبد الله فرجع إلى مكة فمات بها كافرا وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فوقع في الخندق مع فرسه فتحطما جميعا فقتله الله فطلب المشركون جيفته بالثمن فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذوه فإنه خبيث الجيفة خبيث الدية فهذا سبب نزول هذه الآية

معنى قوله تعالى: (يسألونك عن الشهر الحرام)

يعني رجبا سمي بذلك لتحريم القتال فيه

(قتال فيه) أي عن قتال فيه) (قل) يا محمد (قتال فيه كبير) عظيم تم الكلام هاهنا ثم ابتدأ فقال: (وصد عن سبيل الله) أي فصدكم المسلمين عن الإسلام (وكفر به) أي كفركم بالله (والمسجد الحرام) أي المسجد الحرام وقيل: وصدكم عن المسجد الحرام (وإخراج أهله) أي إخراج أهل المسجد (منه أكبر) وأعظم وزرا (عند الله والفتنة) أي الشرك الذي أنتم عليه (أكبر من القتل) أي من قتل ابن الحضرمي في الشهر الحرام فلما نزلت هذه الآية كتب عبد الله بن أنيس إلى مؤمني مكة إذا عيركم المشركون بالقتال في الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر وإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ومنعهم المسلمين عن البيت الحرام ثم قال:(ولا يزالون) يعني مشركي مكة وهو فعل لا مصدر له مثل عسى) (يقاتلونكم) يا معشر المؤمنين (حتى يردوكم) يصرفوكم (عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت) جزم بالنسق (وهو كافر فأولئك حبطت) بطلت) (أعمالهم) حسناتهم (في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون).

معنى قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قال: أبو جعفر: يعني بذلك جل ذكره: إن الذين صدقوا بالله وبرسوله وبما جاء به وبقوله:" والذين هاجروا" الذين هجروا مساكنة المشركين في أمصارهم [ص: ٣١٨] ومجاورتهم في ديارهم، فتحولوا عنهم، وعن جوارهم وبلادهم، إلى غيرها هجرة..... لما انتقل عنه إلى ما انتقل إليه. وأصل المهاجرة:" المفاعلة" من هجرة الرجل الرجل للشحناء تكون بينهما، ثم تستعمل في كل من هجر شيئا لأمر كرهه منه، وإنما سمي المهاجرون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم" مهاجرين" ، لما وصفنا من هجرتهم دورهم ومنازلهم كراهة منهم النزول بين أظهر المشركين وفي سلطانهم، بحيث لا يأمنون فتنتهم على أنفسهم في ديارهم - إلى الموضع الذي يأمنون ذلك.

وأما قوله:" وجاهدوا" فإنه يعني: وقاتلوا وحاربوا.

وأصل" المجاهدة ()المفاعلة" من قول الرجل:" قد جهد فلان فلانا على كذا" - إذا كربه وشق عليه -" يجهده جهدا" . فإذا كان الفعل من اثنين، كل واحد منهما يكابد من صاحبه شدة ومشقة، قيل:" فلان يجاهد فلانا" - يعني أن كل واحد منهما يفعل بصاحبه ما يجهده ويشق عليه -" فهو يجاهده مجاهدة وجهادا" .

وأما" سبيل الله" ، فطريقه ودينه. [ص: ٣١٩]

معنى قوله: (والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله)

أي والذين تحولوا من سلطان أهل الشرك هجرة لهم، وخوف فتنتهم على أديانهم، وحاربوهم في دين الله ليدخلوهم فيه وفيما يرضي الله" أولئك يرجون رحمة الله" ، أي: يطمعون أن يرحمهم الله فيدخلهم جنته بفضل رحمته إياهم. " والله غفور" ، أي ساتر ذنوب عباده بعفوه عنها، متفضل عليهم بالرحمة.

وهذه الآية أيضا ذكر أنها نزلت في عبد الله بن جحش وأصحابه.

ذكر من قال: ذلك:

٤١٠٢ - حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال:حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه، أنه حدثه رجل، عن أبي السوار يحدثه عن جندب بن عبد الله قال:لما كان من أمر عبد الله بن جحش وأصحابه وأمر ابن الحضرمي ما كان، قال: بعض المسلمين: إن لم يكونوا أصابوا في سفرهم - أظنه قال:وزرا -، فليس لهم فيه أجر. فأنزل الله:" إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم" .

٤١٠٣ - حدثنا ابن حميد قال:حدثنا سلمة عن ابن إسحاق قال:حدثني الزهري ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قال:أنزل الله عز وجل القرآن بما أنزل من الأمر، وفرج الله عن المسلمين في أمر عبد الله بن جحش وأصحابه - يعني: في قتلهم ابن الحضرمي - فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل الله عز وجل فيهم:" إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم يسألونك عن" . فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء.

٤١٠٤ - حدثنا بشر بن معاذ قال:حدثنا يزيد قال:حدثنا سعيد عن قتادة قال:أثنى الله على أصحاب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أحسن الثناء فقال: "إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمه الله والله غفور رحيم" ، هؤلاء خيار هذه الأمة. ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وأنه من رجا طلب، ومن خاف هرب.

أسباب نزول قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩)

قال: السيوطي في أسباب النزول: روى أحمد من حديث أبي هريرة قال:قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنهما فأنزل الله: (يسألونك عن الخمر والميسر) الآية، فقال: الناس: ما حرم علينا إنما قال:(إثم كبير) وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب فخلط في قراءته، فأنزل الله آية أغلظ منها (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) (٤: ٤٣) الآية، ثم نزلت آية أغلظ من ذلك [ص: ٢٥٦] (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان) - إلى قوله: (فهل أنتم منتهون) (٥: ٩٠ - ٩١) قالوا: انتهينا ربنا. وقال: (الجلال) في تفسير آية البقرة: إنها لما نزلت شربها قوم وامتنع آخرون حتى نزلت آية المائدة. وهو مخالف للإطلاق الذي نقلناه آنفا عن كتاب أسباب النزول له. وروى أحمد وأبو داود والترمذي - وصححه - والنسائي وغيرهم عن عمر أنه قال:((اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فإنها تذهب بالمال والعقل)) فنزلت هذه الآية، فدعي عمر فقرئت عليه فقال:((اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا)) فنزلت الآية التي في سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فكان ينادي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قام إلى الصلاة: ((أن لا يقربن الصلاة سكران)) فدعي عمر فقرئت عليه، فقال:((اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا)) فنزلت الآية التي في المائدة، فدعي عمر فقرئت عليه. فلما بلغ (فهل أنتم منتهون) قال: عمر: ((انتهينا انتهينا))

التدرج في تحريم الخمر

ولا يتوقف فهم معنى الآيات على شيء من هذه الروايات، ويظهر من مجموعها أن القطع بتحريم الخمر والنهي عنها كان بعد تمهيد بالذم والنهي عن السكر في حال قرب الصلاة، وأوقات الصلوات متقاربة فمن ينهى عن قرب الصلاة وهو سكران، فلا بد أن يتجنب السكر في أكثر الأوقات لئلا تحضره الصلاة وهو سكران، وهو الذي تدل عليه الجملة الحالية (وأنتم سكارى) التي قيد بها النهي كما سنبينه في تفسير الآية من سورة النساء، وفي هذا من الحكمة في التدرج بالتكليف ما لا يخفى. قال: القفال: والحكمة في وقوع

التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى إلى علم أن القوم كانوا قد ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بها كثيرا، فعلم الله أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق عليهم، فلا جرم أن استعمل في التحريم هذا التدريج وهذا الرفق. والذي كان يتبادر - لولا الروايات - أن آية سورة النساء هي التي نزلت اولا:، فكانوا يمتنعون عن الشرب في أكثر الأوقات لئلا تفوتهم الصلاة، وأما آية المائدة فلا شك أنها آخر ما نزل؛ لأنها أكدت النهي، وبينت علة التحريم بالتعيين، على أن السورة برمتها من آخر السور نزولا.

وقد ذهب بعض الأئمة إلى أن الخمر حرمت بهذه الآية، وأن ما أتى بعدها فهو من قبيل التوكيد؛ لأن لفظ الإثم يفيد المحرم. قال تعالى: (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق) (٧: ٣٣) ولكن ذهب الجمهور إلى أن التحريم كان تدريجيا كما تقدم، ووجهه الأستاذ الإمام بأنه المنقول والمعهود في حكمة التشريع، وقال:إن الإثم هو الضرر، فتحريم كل ضار لا يقتضي تحريم ما فيه مضرة من جهة ومنفعة من جهة [ص: ٢٥٧] أخرى؛ لذلك كانت هذه الآية موضعا لاجتهاد الصحابة فترك لها الخمر بعضهم وأصر على شربها آخرون، كأنهم رأوا أنه يتيسر لهم أن ينتفعوا بها مع اجتناب ضررها، فكان ذلك تمهيدا للقطع بتحريمها، ولو فوجئوا بالتحريم مع ولوع الكثيرين بها واعتقادهم منفعتها لخشي أن يخالفوا أو يستثقلوا التكليف، فكان من حكم الله أن رباهم على الاقتناع بأسرار التشريع وفوائده ليأخذه بقوة وعقل.

لفظ الخمر منقول من مصدر خمر الشيء بمعنى ستره وغطاه، يقال:خمرت الشيء إذا سترته وخمرت الجارية ألبستها الخمار، وهو النصيف الذي تغطي به وجهها، وتخمرت هي واختمرت. والوجه في النقل أن هذا الشراب يستر العقل ويغطيه، أو هو من خامره بمعنى خالطه، يقال:خامره الداء؛ أي: خالطه، وهو ما صرح به عمر في خطبة له على منبر النبي - صلى الله عليه وسلم -، أو بمعنى التغير، يقال:خمر الشيء - كعلم - إذا تغير عما كان عليه، والعصير يتغير فيكون خمرا، أو بمعنى الإدراك، من خمر العجين ونحوه فاختمر؛ أي: بلغ وقت إدراكه.

وقال: ابن الأعرابي: إنه يقال: سميت الخمر خمرا؛ لأنها تركت حتى اختمرت، واختمارها تغير رائحتها، وجميع هذه المعاني ظاهرة في هذه الأشربة المسكرة كلها كما قال: ابن عبد البر، فيصح إطلاق اسم الخمر لغة على كل مسكر، وهذا ما ذهب إليه أشهر علماء اللغة كالجوهري وأبي نصر القشيري وأبي حنيفة الدينوري والمجد صاحب القاموس. والظاهر أن هذا الإطلاق حقيقي ولا وجه للعدول عنه إلا أن يصح أن العرب كانت تسمي نوعا خاصا من المسكرات خمرا لا تطلق اللفظ على مسكر سواه، وهو ما زعمه بعض الناس، والحنفية على أن الخمر ما اعتصر من ماء العنب إذا اشتد وقذف بالزبد، زاد بعضهم ثم سكن، وقيل إذا اشتد فقط. ويرده أن الصحابة - وهم صميم العرب - فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غيره؛ بل قال: أهل الأثر: إن الخمر حرمت بالمدينة ولم يكن شرابهم يومئذ إلا نبيذ البسر والتمر، فهو الذي تناوله نص القرآن ابتداء. وأخرج أبو داود: ((نزل تحريم الخمر يوم نزل وهو من خمسة: من العنب والتمر والحنطة والشعير والذرة، والخمر ما خامر العقل)) وكأن هذا كل ما يعرف، ولا شك أن غيره مثله، والأحاديث الصحيحة صريحة في ذلك، ومنها حديث الصحيحين وأبي داود والترمذي والنسائي: ((كل مسكر خمر)) وروي بزيادة: ((وكل خمر حرام)) وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء يجلدون كل من سكر، ويعبرون عن ذلك بحد الخمر أو عقوبته، يقول المخصصون: إن ما ورد في الحديث اصطلاح شرعي لا لغوي، ونقول: إن الذي أنزل عليه الذكر ليبين للناس ما نزل عليهم قد بين لهم أن الخمر التي نهى الله عنها في كتابه هي كل مسكر، فلا فرق في حكمها بين [ص: ٢٥٨] مسكر وآخر، وهذا البيان قطعي متواتر لأن العمل عليه، وفي حديث أبي داود وغيره ((ما أسكر كثيره فقليله حرام)).

حقيقة الميسر وكيفيته في الجاهلية

وأما الميسر فهو القمار، واشتقاقه من يسر إذا وجب، أو من اليسر بمعنى السهولة؛ لأنه كسب بلا مشقة ولا كد، أو من اليسار وهو الغنى؛ لأنه سببه للرابح. أو من اليسر بمعنى التجزئة والاقتسام، يقال:يسروا الشيء إذا اقتسموه، قال: الأزهري: الميسر الجزور - الجمل - كانوا يتقامرون عليه، سمي ميسرا؛ لأنه يجزأ أجزاء، فكأنه موضع التجزئة، وكل شيء جزأته فقد يسرته، والياسر الجازر أي: لأنه يجزئ لحم الجزور، ثم صار يقال: للمتقامرين جازرون؛ لأنهم سبب الجزر والتجزئة، هذا هو الأصل.

وأما كيفيته عند العرب فهي أنه كان لهم عشرة قداح (جمع قدح بالكسر) وتسمى الأزلام والأقلام، وهي الفذ، والتوءم، والرقيب، والحلس (ككتف) والمسبل، والمعلى، والنافس، والمنيح، والسفيح، والوغد، لكل واحد من السبعة الأولى نصيب معلوم من جزور ينحرونها ويجزئونها عشرة أجزاء أو ثمانية وعشرين جزءا، وليس للثلاثة الأخيرة شيء، فللفذ سهم، وللتوءم سهمان، وللرقيب ثلاثة، وللحلس أربعة، وللنافس خمسة، وللمسبل ستة، وللمعلى سبعة وهو أعلاها؛ ولذلك يضرب به المثل لمن كان أكبر حظا أو نجاحا من غيره في كل شيء مفيد له، فيقال:صاحب القدح المعلى، وكانوا يجعلون هذه الأزلام في الربابة، وهي الخريطة، ويضعونها على يد عدل يجلجلها ويدخل يده فيخرج منها واحدا باسم رجل، ثم واحدا باسم رجل إلخ، فمن خرج له قدح من ذوات الأنصباء أخذ النصيب الموسوم به ذلك القدح، ومن خرج له قدح لا نصيب له لم يأخذ شيئا، وغرم ثمن الجزور كله، وكانوا يدفعون تلك الأنصباء إلى الفقراء ولا يأكلون منها، ويفتخرون بذلك ويذمون من لم يدخل فيه، ويسمونه البرم - بالتحريك - وهو في الأصل ثمر العضاه لا ينتفع به، وقد نظم بعضهم هذه الأسماء فقال::

كل سهام الياسرين عشرة فأودعوها صحفا منشرة لها فروض ولها نصيب الفذ والتوءم والرقيب والحلس يتلوهن ثم النافس وبعده مسبلهن السادس ثم المعلى كاسمه المعلى صاحبه في الياسرين الأعلى والوغد والسفيح والمنيح غفل فما فيها يرى ربيح

[ص: ٢٥٩] وقد اختلفوا: هل الميسر ـ ذلك النوع من القمار بعينه، أم يطلق على كل مقامرة؟ ولكن لا خلاف بين الفقهاء في أن كل قمار محرم إلا ما أباح الشرع من الرهان في السباق والرماية ترغيبا فيهما للاستعداد للجهاد، وليس منها سباق الخيل المعروف في عصرنا؛ فإنه من شر القمار الذي ترجع جميع أنواعه إلى كونها من أكل أموال الناس بالباطل

أحكام اليتيم

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

♦ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (ويسألونك عن اليتامى) كانت العرب في الجاهليَّة يُشدِّدون في أمر اليتيم ولا يُؤاكلونه وكانوا يتشاءمون بملابسة أموالهم فلمَّا جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك؟ فأنزل الله تعالى إلى هذه الآية وقوله: (قل إصلاح لهم خير) يعني: الإصلاح لأموالهم من غير أجرةٍ خيرٌ وأعظم أجرًا (وإن تخالطوهم) تشاركوهم في أموالهم وتخلطوها بأموالكم فتصيبوا من أموالهم عوضًا عن قيامكم بأمورهم (فإخوانكم) أَي: فهم إخوانكم والإخوانُ يُعين بعضهم بعضًا ويُصيب بعضهم من مال بعضٍ (والله يعلم المفسد) لأموالهم (من المصلح) لها فاتقُّوا الله في مال اليتيم ولا تجعلوا مخالطتكم إيَّاهم ذريعةً إلى إفساد أموالهم وأكلها بغير حقٍّ (ولو شاء الله لأعنتكم) لضيَّق عليكم وآثمكم في مخالطتكم ومعناه: التَّذكير بالنِّعمة في التَّوسعة (إنَّ اللَّه عزيزٌ) في ملكه (حكيم) فيما أمر به.

معنى قوله تعالى: (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ)

يقول تعالى: (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ)، سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: أن أبا مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيُّ- وقال: مقاتل: هو أبو مرثد الغنوي، وقال: عطاء: أبو مرثد كناز بن الحصين، وكان شجاعا- بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مَكَّةَ لِيُخْرِجَ مِنْهَا نَاسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ سِرًّا، فَلَمَّا قَدِمَهَا سَمِعَتْ بِهِ امْرَأَةٌ مُشْرِكَةٌ يُقَالُ: لَهَا عِنَاقٌ، وَكَانَتْ خَلِيلَتَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَتَتْهُ وَقَالَ:تْ: يَا أَبَا مَرْثَدٍ أَلَا تَخْلُو، فقال: لَهَا: وَيْحَكِ يَا عَنَاقُ إِنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ذلك، فقال:ت: فَهَلْ لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ بِي؟ قال:نَعَمْ وَلَكِنْ أَرْجِعُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْتَأْمِرُهُ، فَقال:تْ: أَبِي تَتَبَرَّمُ؟ ثُمَّ اسْتَغَاثَتْ عَلَيْهِ فَضَرَبُوهُ ضَرْبًا شَدِيدًا ثُمَّ خَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ بِمَكَّةَ وَانْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ بِالَّذِي كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ عَنَاقَ وَمَا لَقِيَ بسببها، فقال:يا رسول الله أتحل لِي أَنْ أَتَزَوَّجَهَا؟ فَأَنْزَلَ الله تعالى إِلَى: (وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ)، وَقِيلَ: الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ فِي حق الكتابيات لقوله تعالى: (وَالْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ) [المائدة: ٥]، وبخبر رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم وبإجماع الأمة، روى الحسن عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:قال: رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم: «نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا»، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ أَطْلَقْتُمُ اسْمَ الشرك على من لم يُنْكِرْ إِلَّا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: أَبُو الْحَسَنِ بْنُ فَارِسٍ: لِأَنَّ مَنْ يَقُولُ الْقُرْآنُ كَلَامُ غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ..

وَقال: قَتَادَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: أَرَادَ بِالْمُشْرِكَاتِ الْوَثَنِيَّاتِ، فَإِنَّ عُثْمَانَ تَزَوَّجَ نَائِلَةَ بِنْتَ فُرَافِصَةَ وَكَانَتْ نَصْرَانِيَّةً فَأَسْلَمَتْ تَحْتَهُ، وَتَزَوَّجَ طَلْحَةُ بن عبيد اللَّهِ نَصْرَانِيَّةً، وَتَزَوَّجَ حُذَيْفَةُ يَهُودِيَّةً، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خَلِّ سَبِيلَهَا، فَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَتَزْعُمُ أَنَّهَا حَرَامٌ؟ فَقال:لَا أَزْعُمُ أَنَّهَا حَرَامٌ وَلَكِنِّي أَخَافُ أن تتعاطوا المومسات منهن، (وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ): بِجَمَالِهَا وَمَالِهَا، نَزَلَتْ فِي خَنْسَاءَ وَلِيدَةٍ سَوْدَاءَ كَانَتْ لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قال: حُذَيْفَةُ: يَا خَنْسَاءُ قَدْ ذُكِرْتِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى عَلَى سَوَادِكِ وَدَمَامَتِكِ فأعتقها وتزوّجها، وقال: السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ سَوْدَاءَ فَغَضِبَ عَلَيْهَا وَلَطَمَهَا، ثُمَّ فَزِعَ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلّم فأخبره بِذَلِكَ، فَقال: لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا هِيَ يَا عبد الله»؟ فقال:هِيَ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتُحْسِنُ الْوُضُوءَ وَتُصَلِّي، فَقال: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلّم: «هَذِهِ مُؤْمِنَةٌ»، قال: عَبْدُ اللَّهِ: فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَأُعْتِقَنَّهَا ولأتزوجنّها، ففعل فَطَعَنَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقالوا: أَتَنْكِحُ أَمَةً؟ وَعَرَضُوا عَلَيْهِ حُرَّةً مُشْرِكَةً، فَأَنْزَلَ اللَّه تعالى إلى هذه الآية: (وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا)، هَذَا إِجْمَاعٌ: لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمَةِ أَنْ تَنْكِحَ الْمُشْرِكَ، (وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ)، يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ يَدْعُونَ إلى النَّارِ، أَيْ: إلى الْأَعْمَالِ الْمُوجِبَةِ للنار، وَاللَّهُ يَدْعُوا إلى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ، أَيْ: بقضائه وقدره وَإِرَادَتِهِ، وَيُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ، أَيْ: أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيهِ، لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، يَتَّعِظُونَ.

أحكام جاهلية في التعامل مع المرأة الحائض

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)

♦ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (ويسألونك عن المحيض) (ذكر المفسرون أنَّ العرب كانت إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يَسَّاكَنُوا معها في بيت كفعل المجوس) فسأل أبو الدحداح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف نصنع بالنِّساء إذا حضن؟ فنزلت هذه الآية والمحيض: الحيض (قل هو أذىً) أَيْ: قذرٌ ودمٌ (فاعتزلوا النساء في المحيض) أَيْ: مجامعتهنَّ إذا حضن (ولا تقربوهنَّ) أَيْ: ولا تجامعوهنَّ (حتى يَطَّهَّرْنَ) أي: يغتسلن ومَنْ قرأ (يَطْهُرْنَ) بالتَّخفيف أَيْ: ينقطع عنهنَّ الدم أي: توجد طهارة وهي الغسل (فإذا تطهَّرن) اغتسلن (فأتوهنَّ) أَيْ: جامعوهنَّ (مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ) بتجنُّبه في الحيض - وهو الفرج - (إنَّ الله يحب التوابين) من الذُّنوب و(المتطهرين) بالماء من الأحداث والجنابات.

تفسير قوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ)

يقول تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

♦ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (نساؤكم حرثٌ لكم) أَيْ: مزرع ومنب للولد (فأتوا حرثكم أنى شئتم) أَيْ: كيف شئتم ومن أين شئتم بعد أن يكون في صِمام واحدٍ فنزلت هذه الآية تكذيباً لليهود وذلك أنَّ المسلمين قالوا: إنَّا نأتي النِّساء باركاتٍ وقائماتٍ ومستلقياتٍ ومن بين أيديهم ومن خلفهنَّ بعد أن يكون المأتي واحداً فقال:ت اليهود: ما أنتم إلاَّ أمثال البهائم لكنَّا

نأتيهنَّ على هيئةٍ واحدةٍ وإنَّا لنجد في التَّوراة أنَّ كلَّ إتيانٍ يؤتى النِّساء غير الاستلقاء دنسٌ عند الله فأكذب الله تعالى إلى اليهود (وقدموا لأنفسكم) أَي: العمل لله بما يحبُّ ويرضى (واتقوا الله)فيما حدَّ لكم من الجماع وأمرِ الحائض (واعلموا أنكم ملاقوه) أَيْ: راجعون إليه (وبشر المؤمنين) الذين خافوه وحذروا معصيته.

معنى قوله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم)

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

قوله تعالى: (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) نزلت في عبد الله بن رواحة كان بينه وبين ختنه على أخته بشير بن النعمان الأنصاري شيء فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين خصمه وإذا قيل له فيه قال:قد حلفت بالله أن لا أفعل فلا يحل لي إلا أن تبر بيميني فأنزل الله هذه الآية.

وقال: ابن جريج: نزلت في أبي بكر الصديق حين حلف أن لا ينفق على مسطح حين خاض في حديث الإفك، والعرضة: أصلها الشدة والقوة ومنه قيل للدابة التي تتخذ للسفر عرضة لقوتها عليه ثم قيل لكل ما يصلح لشيء هو عرضة له حتى قال:وا للمرأة هي عرضة النكاح إذا صلحت له والعرضة كل ما يعترض فيمنع عن الشيء ومعنى الآية) (لا تجعلوا) الحلف بالله سببا مانعا لكم من البر والتقوى يدعى أحدكم إلى صلة رحم أو بر فيقول حلفت بالله أن لا أفعله فيعتل بيمينه في ترك البر) (أن تبروا) معناه أن لا تبروا كقوله تعالى إلى" يبين الله لكم أن تضلوا" (١٧٦ - النساء) أي لئلا تضلوا (وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم) [ص: ٢٦٣]

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من حلف بيمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير" .

معنى قوله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم)

اللغو كل مطرح من الكلام لا يعتد به واختلف أهل العلم في اللغو في اليمين المذكورة في الآية فقال: قوم: هو ما يسبق إلى اللسان على عجلة لصلة الكلام من غير عقد وقصد كقول القائل: لا والله وبلى والله وكلا والله.

أخبرنا عبد الوهاب بن محمد الكسائي أنا عبد العزيز بن أحمد الخلال أخبرنا أبو العباس الأصم أنا الربيع أنا الشافعي أنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قال:ت: لغو اليمين قول الإنسان: لا والله وبلى والله ورفعه بعضهم و إلى هذا ذهب الشعبي وعكرمة وبه قال: الشافعي.

ويروى عن عائشة: أيمان اللغو ما كانت في الهزل والمراء، والخصومة والحديث الذي لا يعقد عليه القلب وقال: قوم: هو أن يحلف عن شيء يرى أنه صادق فيه ثم يتبين له خلاف ذلك وهو قول الحسن والزهري وإبراهيم النخعي وقتادة ومكحول، وبه قال: أبو حنيفة رضي الله عنه وقال:وا لا كفارة فيه ولا إثم عليه وقال: علي: هو اليمين على الغضب وبه قال: طاووس وقال: سعيد بن جبير: هو اليمين في المعصية لا يؤاخذه الله بالحنث فيها، بل يحنث ويكفر. وقال: مسروق: ليس عليه كفارة أيكفر خطوات الشيطان؟ وقال: الشعبي في الرجل يحلف على المعصية: كفارته أن يتوب منها وكل يمين لا يحل لك أن تفي بها فليس فيها كفارة ولو أمرته بالكفارة لأمرته أن يتم على قوله وقال: زيد بن أسلم: هو دعاء الرجل على نفسه تقول لإنسان

أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا وكذا [أخرجني الله من مالي إن لم آتك غدا ويقول: هو كافر إن فعل كذا]. فهذا كله لغو لا يؤاخذه الله به ولو آخذهم به لعجل لهم العقوبة" ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم" (١١ - يونس) وقال:" ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير" (١١ - الإسراء).

معنى قوله تعالى: (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم)

أي عزمتم وقصدتم إلى اليمين وكسب القلب العقد والنية (والله غفور رحيم) واعلم أن اليمين لا تنعقد إلا بالله أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته: فاليمين بالله أن يقول: والذي أعبده والذي أصلي له والذي نفسي- بيده ونحو ذلك واليمين بأسمائه كقوله والله والرحمن، ونحوه واليمين بصفاته كقوله: وعزة الله وعظمة الله وجلال الله وقدرة الله [ص: ٢٦٤] ونحوها فإذا حلف بشيء منها على أمر في المستقبل فحنث يجب عليه الكفارة وإذا حلف على أمر ماض أنه كان ولم يكن أو على أنه لم يكن وقد كان إن كان عالما به حالة ما حلف فهو اليمين الغموس وهو من الكبائر وتجب فيه الكفارة عند بعض أهل العلم عالما كان أو جاهلا وبه قال: الشافعي ولا تجب عند بعضهم وهو قول أصحاب الرأي وقال:وا إن كان عالما فهو كبيرة ولا كفارة لها كما في سائر الكبائر وإن كان جاهلا فهو يمين اللغو عندهم ومن حلف بغير الله مثل أن قال:والكعبة وبيت الله ونبي الله أو حلف بأبيه ونحو ذلك فلا يكون يمينا، فلا تجب عليه الكفارة إذا حلف وهو يمين مكروهة قال: الشافعي: وأخشى أن يكون معصية.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت.

معنى قوله تعالى: (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر)

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

قوله تعالى: (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر) يؤلون أي يحلفون والألية: اليمين والمراد من الآية: اليمين على ترك وطء المرأة قال: قتادة: كان الإيلاء طلاقا لأهل الجاهلية وقال: سعيد بن المسيب: كان ذلك من ضرار أهل الجاهلية كان الرجل لا يحب امرأته ولا يريد أن يتزوجها غيره فيحلف أن لا يقربها أبدا فيتركها لا أيما ولا ذات بعل وكانوا عليه في ابتداء الإسلام فضرب الله له أجلا في الإسلام واختلف أهل العلم فيه: فذهب أكثرهم إلى أنه إن حلف أن لا يقرب زوجته أبدا أو سمى مدة أكثر من أربعة أشهر يكون موليا فلا يتعرض لها قبل مضي أربعة أشهر وبعد مضيها يوقف ويؤمر [ص: ٢٦٥] بالفيء أو بالطلاق بعد مطالبة المرأة والفيء هو الرجوع عما قال:ه بالوطء إن قدر عليه وإن لم يقدر فبالقول فإن لم يفئ ولم يطلق طلق عليه السلطان واحدة وذهب إلى الوقوف بعد مضي المدة عمر وعثمان وعلي وأبو الدرداء وابن عمر قال: سليمان بن يسار: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يقول بوقف المولي. وإليه ذهب سعيد بن جبير وسليمان بن يسار ومجاهد وبه قال: مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وقال: بعض أهل العلم: إذا مضت أربعة أشهر تقع عليها طلقة بائنة وهو قول ابن عباس وابن مسعود وبه قال: سفيان الثوري وأصحاب الرأي.

وقال: سعيد بن المسيب والزهري: تقع طلقة رجعية ولو حلف أن لا يطأها أقل من أربعة أشهر لا يكون موليا بل هو حالف فإذا وطئها قبل مضي تلك المدة تجب عليه كفارة اليمين ولو حلف أن لا يطأها أربعة أشهر لا يكون موليا عند من يقول بالوقف بعد مضي المدة لأن بقاء

المدة شرط للوقف وثبوت المطالبة بالفيء أو الطلاق وقد مضت المدة. وعند من لا يقول بالوقف يكون موليا ويقع الطلاق بمضي المدة.

ومدة الإيلاء: أربعة أشهر في حق الحر والعبد جميعا عند الشافعي رحمه الله لأنها ضربت لمعنى يرجع إلى الطبع وهو قلة صبر المرأة عن الزوج فيستوي فيه الحر والعبد كمدة العنة.

وعند مالك رحمه الله وأبي حنيفة رحمه الله تتنصف مدة العنة بالرق غير أن عند أبي حنيفة تتنصف برق المرأة وعند مالك برق الزوج كما قال:ا في الطلاق.

قوله تعالى: (تربص أربعة أشهر) أي انتظار أربعة أشهر والتربص: التثبت والتوقف (فإن فاءوا) رجعوا عن اليمين بالوطء (فإن الله غفور رحيم) وإذا وطئ خرج عن الإيلاء وتجب عليه كفارة اليمين عند أكثر أهل العلم وقال: الحسن وإبراهيم النخعي وقتادة: لا كفارة عليه لأن الله تعالى إلى وعد بالمغفرة فقال: (فإن الله غفور رحيم) وذلك عند الأكثرين في إسقاط العقوبة لا في الكفارة ولو قال: لزوجته: إن قربتك فعبدي حر أو صرت طالقا أو لله علي عتق رقبة أو صوم أو صلاة فهو مول لأن المولي من يلزمه أمر بالوطء ويوقف بعد مضي المدة فإن فاء يقع الطلاق أو العتق المعلق به وإن التزم في الذمة تلزمه كفارة اليمين في قول وفي قول يلزمه ما التزم في ذمته من الإعتاق والصلاة والصوم

معنى قوله تعالى: (وإن عزموا الطلاق)

أي حققوه بالإيقاع (فإن الله سميع) (عليم) بنياتهم وفيه دليل على أنها لا تطلق بعد مضي المدة ما لم يطلقها زوجها لأنه شرط فيه العزم وقال:(فإن الله سميع عليم) فدل على أنه يقتضي مسموعا والقول هو الذي يسمع.

قوله تعالى: (والمطلقات) أي المخليات من حبال أزواجهن) (يتربصن) ينتظرن (بأنفسهن ثلاثة قروء) فلا يتزوجن والقروء: جمع قرء مثل فرع وجمعه القليل أقرؤ والجمع الكثير أقراء واختلف أهل [ص: ٢٦٦] العلم في القروء فذهب جماعة إلى أنها الحيض وهو قول عمر وعلي وابن مسعود وابن عباس وبه قال: الحسن ومجاهد وإليه ذهب الأوزاعي والثوري وأصحاب الرأي واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: للمستحاضة:" دعي الصلاة أيام أقرائك" وإنما تدع المرأة الصلاة أيام حيضها. وذهب جماعة إلى أنها الأطهار وهو قول زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وعائشة وهو قول الفقهاء السبعة والزهري وبه قال: ربيعة ومالك والشافعي واحتجوا بأن ابن عمر رضي الله عنه لما طلق امرأته وهي حائض قال: النبي صلى الله عليه وسلم لعمر:" مره فليراجعها حتى تطهر ثم إن شاء أمسك وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء" .

فأخبر أن زمان العدة هو الطهر، ومن جهة اللغة قول الشاعر:

ففي كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيم عزائكا

مورثة مالا وفي الحي رفعة لما ضاع فيها من قروء نسائكا

وأراد به أنه كان يخرج إلى الغزو ولم يغش نساءه فتضيع أقراؤهن وإنما تضيع بالسفر زمان الطهر لا زمان الحيضة وفائدة الخلاف تظهر في أن المعتدة إذا شرعت في الحيضة الثالثة تنقضي عدتها على قول من يجعلها أطهارا وتحسب بقية الطهر الذي وقع فيه الطلاق قرءا قال:ت عائشة رضي الله عنها: إذا طعنت المطلقة في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها. ومن ذهب إلى أن الأقراء هي الحيض يقول لا تنقضي عدتها ما لم تطهر من الحيضة الثالثة وهذا الاختلاف من حيث أن اسم القرء يقع على الطهر والحيض جميعا يقال:أقرأت المرأة: إذا حاضت وأقرأت: إذا طهرت فهي مقرئ واختلفوا في أصله فقال: أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة: هو الوقت لمجيء الشيء وذهابه يقال:رجع فلان لقرئه ولقارئه أي لوقته الذي يرجع فيه وهذا قارئ الرياح أي وقت هبوبها قال: مالك بن الحارث الهذلي:

كرهت العقر عقر بني شليل إذا هبت لقارئها الرياح

أي لوقتها والقرء يصلح للوجهين لأن الحيض يأتي لوقت والطهر مثله وقيل: هو من القرأ وهو الحبس والجمع تقول العرب: ما قرأت الناقة سلا قط أي لم تضم رحمها على ولد ومنه قريت الماء في المقراة وهي الحوض أي جمعته بترك همزها فالقرء هاهنا احتباس الدم واجتماعه فعلى هذا يكون الترجيح [ص: ٢٦٧] فيه للطهر لأنه يحبس الدم ويجمعه والحيض يرخيه ويرسله.

أحكام المطلقة

وجملة الحكم في العدد: أن المرأة إذا كانت حاملا فعدتها بوضع الحمل سواء وقعت الفرقة بينها وبين الزوج بالطلاق أو بالموت لقوله تعالى إلى" واولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن" (٤ - الطلاق) فإن لم تكن حاملا نظر: إن وقعت الفرقة بينهما بموت الزوج فعليها أنتعالتد بأربعة أشهر وعشر سواء مات الزوج قبل الدخول أو بعده وسواء كانت المرأة ممن تحيض أو لا تحيض لقول الله تعالى إلى:" والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا" (٢٣٤ - البقرة) وإن وقعت الفرقة بينهما في الحياة نظر فإن كان الطلاق قبل الدخول بها فلا عدة عليها لقول الله تعالى إلى:" يا أيها آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدةتعالتدونها" (٤٩ - الأحزاب).

وإن كان بعد الدخول نظر: إن كانت المرأة ممن لم تحض قط أو بلغت في الكبر سن الآيسات فعدتها ثلاثة أشهر لقول الله تعالى إلى:" واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن" (٤ - الطلاق).

وإن كانت ممن تحيض فعدتها ثلاثة أقراء لقوله تعالى: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) وقوله (يتربصن بأنفسهن) لفظه خبر ومعناه أمر وعدة الأمة إن كانت حاملا بوضع الحمل كالحرة وإن كانت حائلا ففي الوفاة عدتها شهران وخمس ليال وفي الطلاق إن كانت ممن تحيض فعدتها قرءان وإن كانت ممن لا تحيض فشهر ونصف: وقيل شهران كالقرأين في حق من تحيض. قال: عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ينكح العبد امرأتين ويطلق طلقتين وتعتد الأمة بحيضتين فإن لم تكن تحيض فشهرين أو شهرا ونصفا.

وقوله عز وجل: (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن) قال: عكرمة: يعني الحيض وهو أن يريد الرجل مراجعتها فتقول: قد حضت الثالثة وقال: ابن عباس وقتادة: يعني الحمل ومعنى الآية: لا يحل للمرأة كتمان ما خلق الله في رحمها من الحيض والحمل لتبطل حق الزوج من الرجعة والولد (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) معناه أن هذا من فعل المؤمنات وإن كانت المؤمنة والكافرة في هذا الحكم سواء كما تقول: أد حقي إن كنت مؤمنا يعني أداء الحقوق من فعل المؤمنين.

معنى قوله تعالى: (وبعولتهن)

يعني أزواجهن جمع بعل كالفحولة جمع فحل سمي الزوج بعلا لقيامه بأمور زوجته وأصل البعل السيد والمالك (أحق بردهن) أولى برجعتهن إليهم) (في ذلك) أي إن أرادوا بالرجعة الصلاح وحسن العشرة لا الإضرار كما كانوا يفعلونه في الجاهلية كان الرجل يطلق امرأته فإذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم تركها مدة، ثم طلقها ثم إذا قرب انقضاء عدتها راجعها ثم بعد مدة طلقها يقصد بذلك تطويل العدة عليها) (ولهن) أي للنساء على الأزواج مثل [ص: ٢٦٨] الذي عليهن للأزواج بالمعروف قال: ابن عباس في معناه: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما تحب امرأتي أن تتزين لي لأن الله تعالى إلى قال:(ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف)

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الحسن المروزي أخبرنا أبو سهل محمد بن عمر بن طرفة السجزي أنا أبو سليمان الخطابي أخبرنا أبو بكر بن داسة أنا أبو داود السجستاني أنا موسى بن إسماعيل أنا حماد أنا أبو قزعة سويد بن حجير الباهلي عن حكيم بن معاوية القشيري عن أبيه قال:قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال:"أن تطعمها إذا طعمت وأن تكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت

أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر الجرجاني أخبرنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي أنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان أنا مسلم بن الحجاج أنا أبو بكر بن أبي شيبة أنا حاتم بن إسماعيل المدني عن جعفر بن محمد عن أبيه أنه قال:دخلنا على جابر بن عبد الله فقلت: أخبرني عن حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فسرد قصة حجة الوداع إلى أن ذكر خطبته يوم عرفة قال:"فاتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده: كتاب الله وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال: بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات.

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أنا أحمد بن الحسن الحيري أنا حاجب بن أحمد الطوسي أنا محمد بن يحيى أنا يعلى بن عبيد أنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال:قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائكم" . [ص: ٢٦٩]

قوله تعالى: (وللرجال عليهن درجة) قال: ابن عباس: بما ساق إليها من المهر وأنفق عليها من المال وقال: قتادة: بالجهاد وقيل بالعقل وقيل بالشهادة وقيل بالميراث وقيل بالدية وقيل بالطلاق لأن الطلاق بيد الرجال وقيل بالرجعة وقال: سفيان وزيد بن أسلم: بالإمارة وقال: القتيبي: وللرجال عليهن درجة معناه فضيلة في الحق (والله عزيز حكيم)

أخبرنا أحمد بن عبد الله الصالحي أخبرنا أبو سعيد محمد بن موسى الصيرفي، أنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار أخبرنا أحمد بن محمد بن عيسى البرتي أنا حذيفة أنا سفيان عن الأعمش عن أبي ظبيان أن معاذ بن جبل خرج في غزاة بعثه النبي صلى الله عليه وسلم فيها ثم رجع فرأى رجالا يسجد بعضهم لبعض فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: النبي صلى الله عليه وسلم: لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها.

معنى قوله تعالى: (الطلاق مرتان)

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَاتعالىتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩)

♦ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (الطلاق مرتان) كان طلاقُ الجاهلية غير محصورٍ بعددٍ فحصر الله الطلاق بثلاثٍ فذكر في هذه الآية طلقتين وذكر الثَّالثة في الآية الأخرى وهي قوله: (فَإِنْ طَلَّقَهَا فلا تحلُّ له من بعد) الآية وقيل: المعنى في الآية: الطَّلاق الذي يُملك فيه الرَّجعة مرَّتان (فإمساك بمعروف) يعني: إذا راجعها بعد الطَّلقتين فعليه إمساكٌ بما أمر الله تعالى إلى (أو تسريحٌ بإحسان) وهو أَنْ يتركها حتى تَبِينَ بانقضاء العِدَّة ولا يراجعها ضراراً (وَلا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا) لا يجوز للزَّوج أن يأخذ من امرأته شيئاً ممَّا أعطاها من المهر ليطلِّقها إلاَّ في الخُلع وهو قوله (إلا أَنْ يخافا) أي: يعلما (أن لا يُقيما حدود الله) والمعنى: إنَّ المرأة إذا خافت أنتعالىصي الله في أمر زوجها بُغضاً له وخاف الزَّوج إذا لم تطعه امرأته أن يعتدي عليها حلَّ له أن يأخذ الفدية منها إذا دعت إلى ذلك (فإنْ خفتم) أيُّها الولاة والحكَّام (أن لا يقيما حدود الله) يعني: الزَّوجين (فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) المرأة لا جُناح عليها فيما أعطته ولا على الرَّجل فيما أخذ (تلك حدود الله) يعني: ما حدَّه من شرائع الدِّين

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (فَإِنْ طَلَّقَها)، يَعْنِي: الطَّلْقَةَ الثَّالِثَةَ، (فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ)، أَيْ: مِنْ بَعْدِ الطَّلْقَةِ الثَّالِثَةِ، (حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ)، أَيْ: غَيْرَ الْمُطَلِّقِ فَيُجَامِعُهَا، وَالنِّكَاحُ يَتَنَاوَلُ الْوَطْءَ وَالْعَقْدَ جَمِيعًا، نَزَلَتْ فِي تَمِيمَةَ، وَقِيلَ: فِي عَائِشَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَتِيكٍ الْقُرَظِيِّ، كَانَتْ تَحْتَ ابْنِ عَمِّهَا رِفَاعَةَ بْنِ وَهْبِ بْنِ عَتِيكٍ الْقُرَظِيِّ فَطَلَّقَهَا ثَلَاثًا، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ

بْنُ مُحَمَّدٍ الْخَطِيبُ، أَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ أَحْمَدَ الْخَلَّالُ، أَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْأَصَمُّ أَنَا الرَّبِيعُ أَنَا الشَّافِعِيُّ، أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ سَمِعَهَا تَقُولُ: جَاءَتِ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ إِلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:تْ: إِنِّي كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ الْقُرَظِيِّ فَطَلَّقَنِي فَبَتَّ طَلَاقِي وَتَزَوَّجْتُ بَعْدَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَإِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ:«أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلى رِفَاعَةَ؟" قَالَ:تْ: نَعَمْ، قَالَ:«لَا، حَتَّى يَذُوقَ عسيلتك وتذوقي عسيلته»، وَرُوِيَ أَنَّهَا لَبِثَتْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ رَجَعَتْ إِلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:تْ: إِنَّ زَوْجِي قَدْ مَسَّنِي، فَقَالَ: لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَذَبْتِ بِقَوْلِكِ الْأَوَّلِ فَلَنْ نُصَدِّقَكِ فِي الْآخَرِ»، فَلَبِثَتْ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ:تْ: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْجِعُ إِلى زَوْجِي الْأَوَّلِ فَإِنَّ زَوْجِي الْآخَرَ قَدْ مَسَّنِي وَطَلَّقَنِي، فَقَالَ: لَهَا أَبُو بَكْرٍ: قَدْ شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَتَيْتِهِ وَقَالَ: لَكِ مَا قَالَ:، فَلَا تَرْجِعِي إِلَيْهِ، فَلَمَّا قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَتْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ:تْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَهَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا ترجعي إليه لَئِنْ رَجَعْتِ إِلَيْهِ لَأَرْجُمَنَّكِ، قوله تعالى: (فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا)، يَعْنِي: فَإِنْ طلّقها الزوج الثاني بعد ما جَامَعَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا، يَعْنِي: عَلَى الْمَرْأَةِ وَعَلَى الزَّوْجِ الْأَوَّلِ أَنْ يَتَرَاجَعَا، يَعْنِي: بِنِكَاحٍ جَدِيدٍ، إِنْ ظَنَّا، أَيْ: عَلِمَا، وَقِيلَ: رَجَوَا، لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَعْلَمُ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ،

(أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ)، أَيْ: يَكُونُ بَيْنَهُمَا الصَّلَاحُ وَحُسْنُ الصُّحْبَةِ، وَقال: مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ إِنْ عَلِمَا أن نكاحهما على غير دلسة، وَأَزَادَ بِالدَّلْسَةِ: التَّحْلِيلَ، وَهُوَ مَذْهَبُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ، قالوا: إِذَا تَزَوَّجَتِ الْمُطَلَّقَةُ ثَلَاثًا زَوْجًا آخَرَ لِيُحَلِّلَهَا لِلزَّوْجِ الْأَوَّلِ فَإِنَّ النِّكَاحَ فَاسِدٌ، وَذَهَبَ جماعة إلى أنه إذا لم يشترط فِي النِّكَاحِ مَعَ الثَّانِي أَنَّهُ يُفَارِقُهَا، فَالنِّكَاحُ صَحِيحٌ وَيَحْصُلُ بِهِ التَّحْلِيلُ، وَلَهَا صَدَاقُ مِثْلِهَا غَيْرَ أَنَّهُ يُكْرَهُ إِذَا كَانَ فِي عَزْمِهَا ذَلِكَ.

-خْبَرَنَا أَبُو الْفَرَجِ الْمُظَفَّرُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ التَّمِيمِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ حَمْزَةُ بْنُ يُوسُفَ السَّهْمِيُّ أَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَدِيٍّ الْحَافِظُ، أَنَا الْحَسَنُ بْنُ الْفَرَجِ أَخْبَرَنَا عَمْرُو بن خالد الحراني، أنا عُبَيْدُ اللَّهِ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ هُوَ الْجَزَرِيُّ، عَنْ أَبِي وَاصِلٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال:«لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ»، وَقال: نَافِعٌ: أَتَى رَجُلٌ ابْنَ عُمَرَ فَقال: لَهُ: إِنَّ رَجُلًا طَلَّقَ امْرَأَتَهُ ثَلَاثًا، فَانْطَلَقَ أَخٌ له من غير مؤامرة، فَتَزَوَّجَهَا لِيَحِلَّهَا لِلْأَوَّلِ، فَقال:لَا إِلَّا نِكَاحَ رَغْبَةٍ، كُنَّا نَعُدُّ هَذَا سِفَاحًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، يَعْنِي: يَعْلَمُونَ مَا أَمَرَهُمُ اللَّه تعالى إلى به.

تفسير قوله تعالى: (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ)

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٣١)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ) أَيْ: قاربن انقضاء عدتهنّ (فأمسكوهنّ بمعروف) أَيْ: راجعوهنّ بإشهادٍ على الرَّجعة وعقد لها لا بالوَطْء كما يقول أبو حنيفة (أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ) أَي: اتركوهنّ حتى تنقضي عدتهنّ ويكنّ أملك بأنفسهنّ (وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضراراً) أَيْ: لا تُراجعوهنّ مضارَّةً وأنتم لا حاجة بكم إليهنّ (لتعتدوا) عليهنّ بتطويل العِدَّة (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ) الاعتداء (فقد ظلم نفسه) ضرَّها وأثم بينه وبين الله عزَّ وجل (ولا تتخذوا آيات الله هزواً) كان الرَّجل يُطلِّق في الجاهليَّة ويقول: إنَّما طلَّقت وأنا لاعبٌ فيرجع فيها فأنزل الله تعالى إلى هذه الآية (واذكروا نعمة الله عليكم) بالإسلام (وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ) يعني:

القرآن (والحكمة) مواعظ القرآن الْجَوْهَرِيُّ، أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ الْكُشْمِيهَنِيُّ أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ ابن حبيب بن أردك هو عبد الرحمن بن حبيب وابن ماهك هو يوسف بن ماهك، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنِ ابْنِ مَاهَكَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ: الطَّلَاقُ والنكاح والرجعة»، وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ: بِالْإِيمَانِ، وَما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ، يَعْنِي: الْقُرْآنَ، وَالْحِكْمَةِ، يَعْنِي: السُّنَّةَ، وَقِيلَ: مَوَاعِظُ الْقُرْآنِ، يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَاتعالىضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاتعلَمُونَ(٢٣٢)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : (وَإِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)، نَزَلَتْ فِي جَمِيلَةَ بِنْتِ يَسَارٍ أُخْتِ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ الْمُزَنِيِّ كَانَتْ تَحْتَ أبي البداح بن عَاصِمِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَجْلَانَ، فَطَلَّقَهَا، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمَلِيحِيُّ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّعِيمِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو: حَدَّثَنِي أَبِي حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ عَنْ يُونُسَ عَنِ الْحَسَنِ. قال:حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بن يسار قال:زَوَّجْتُ أُخْتًا لِي مِنْ رَجُلٍ فَطَلَّقَهَا حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا جَاءَ يَخْطُبُهَا، فَقُلْتُ لَهُ: زَوَّجْتُكَ وَفَرَشْتُكَ وَأَكْرَمْتُكَ فَطَلَّقْتَهَا! ثُمَّ جِئْتَ تخطبها؟ ألا وَاللَّهِ لَاتعالودُ إِلَيْكَ أَبَدًا، وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّه تعالى إلى: (فَلاتعالىضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ)، فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قال:فزوّجها إِيَّاهُ، قوله تعالى: (فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ)، أَيِ: انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ (فَلاتعالىضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ)، أَيْ: لَا تَمْنَعُوهُنَّ عَنِ النِّكَاحِ، وَالْعَضْلُ: الْمَنْعُ، وَأَصْلُهُ الضِّيقُ وَالشِّدَّةُ، يُقال:عَضَلَتِ الْمَرْأَةُ: إِذَا نَشِبَ وَلَدُهَا فِي بَطْنِهَا فَضَاقَ عَلَيْهِ الْخُرُوجُ، وَالدَّاءُ العضال الذي لا يطاق علاجه، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَلِي عَقْدَ النِّكَاحِ، إِذْ لَوْ كَانَتْ تَمْلِكُ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ عَضْلٌ، وَلَا لِنَهْيِ الْوَلِيِّ عَنِ الْعَضْلِ مَعْنًى، وَقِيلَ: الْآيَةُ خِطَابٌ مَعَ الْأَزْوَاجِ لِمَنْعِهِمْ مِنَ الْإِضْرَارِ لِأَنَّ ابْتِدَاءَ الْآيَةِ خِطَابٌ مَعَهُمْ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ، (إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ)، بِعَقْدٍ حَلَالٍ وَمَهْرٍ جَائِزٍ، ذلِكَ، أَيْ: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ مِنَ النَّهْيِ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَإِنَّمَا قال: ذَلِكَ مُوَحَّدًا وَالْخِطَابُ لِلْأَوْلِيَاءِ، لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي مُخَاطَبَةِ الْجَمْعِ ذَلِكُمْ، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى تَوَهَّمُوا أَنَّ الْكَافَ مِنْ نَفْسِ الْحَرْفِ وَلَيْسَ بِكَافِ خِطَابٍ، فَقال:وا ذَلِكَ، فَإِذَا قال:وا هَذَا

كَانَتِ الْكَافُ موحدة مستوية فِي الِاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمُؤَنَّثِ وَالْمُذَكَّرِ، قِيلَ: هُوَ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلِذَلِكَ وَحَّدَ ثُمَّ رَجَعَ إلى خِطَابِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقال:(ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ)، أَيْ: خَيْرٌ لَكُمْ، وَأَطْهَرُ: لِقُلُوبِكُمْ مِنَ الريبة وذلك أنه كَانَ فِي نَفْسِ كُلِّ وَاحِدٍ منهما علاقة حيث لَمْ يؤمن أَنْ يَتَجَاوَزَ ذَلِكَ إلى غَيْرِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمَا، وَلَمْ يؤمن مِنَ الْأَوْلِيَاءِ أَنْ يَسْبِقَ إلى قُلُوبِهِمْ مِنْهُمَا مَا لَعَلَّهُمَا أَنْ يَكُونَا بَرِيئَيْنِ مِنْ ذَلِكَ فَيَأْثَمُونَ، (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاتعلَمُونَ)، أَيْ: يَعْلَمُ مِنْ حُبِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ مَا لاتعلَمُونَأَنْتُمْ.

معنى قوله تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ اولا:دَهُنَّ)

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ اولا:دَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا اولا:دَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَاتعالىمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

قوله تعالى: (والوالدات يرضعن اولا:دهن) يعني: المطلقات اللاتي لهن اولا:د من أزواجهن يرضعن خبر بمعنى الأمر وهو أمر استحباب لا أمر إيجاب لأنه لا يجب عليهن الإرضاع إذا كان يوجد من ترضع الولد لقوله تعالى إلى في سورة الطلاق:" فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن" (- الطلاق) فإن رغبت الأم في الإرضاع فهي أولى من غيرها (حولين كاملين) أي سنتين وذكر الكمال للتأكيد كقوله تعالى:" تلك عشرة كاملة" (١٩٦ - البقرة) وقيل إنما قال: كاملين لأن العرب قد تسمي بعض الحول حولا وبعض الشهر شهرا كما قال: الله تعالى إلى: (الحج أشهر معلومات) (١٩٧ - البقرة) وإنما هو شهران وبعض الثالث وقال:(فمنتعالىجل في يومين فلا إثم عليه) (٢٠٣ - البقرة) وإنما يتعجل في يوم وبعض يوم ويقال: أقام فلان بموضع كذا حولين وإنما أقام به حولا وبعض آخر فبين الله تعالى إلى أنهما حولان كاملان أربعة وعشرون شهرا واختلف أهل العلم في هذا الحد فمنهم من قال:هو حد لبعض المولودين فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها إذا وضعت لستة أشهر فإنها ترضعه حولين كاملين وإن وضعته لسبعة أشهر فإنها ترضعه ثلاثة وعشرين شهرا وإن وضعت لتسعة أشهر فإنها ترضعه أحدا وعشرين شهرا وإن وضعت لعشرة أشهر فإنها ترضعه عشرين شهرا كل ذلك تمام ثلاثين شهرا لقوله تعالى: (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) (١٥ - الأحقاف).

وقال: قوم: هو حد لكل مولود بأي وقت ولد لا ينقص رضاعه عن حولين إلا باتفاق الأبوين فأيهما أراد الفطام قبل تمام الحولين ليس له ذلك إلا أن يجتمعا عليه لقوله تعالى: (فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور) وهذا قول ابن جريج والثوري ورواية الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل: المراد من الآية: بيان أن الرضاع الذي تثبت به الحرمة ما يكون في الحولين فلا يحرم ما يكون بعد الحولين قال: قتادة: فرض الله على الوالدات إرضاع حولين كاملين ثم أنزل

التخفيف فقال:(لمن أراد أن يتم الرضاعة) أي هذا منتهى الرضاعة وليس فيها دون ذلك حد محدود وإنما هو على مقدار صلاح الصبي وما يعيش به (وعلى المولود له) يعني الأب) (رزقهن) طعامهن) (وكسوتهن) لباسهن) (بالمعروف) أي على قدر الميسرة (لا تكلف نفس إلا وسعها) أي طاقتها (لا تضار والدة بولدها) قرأ ابن كثير [ص: ٢٧٨] وأهل البصرة برفع الراء نسقا على قوله) (لا تكلف) وأصله تضارر فأدغمت الراء في الراء وقرأ الآخرون تضار بنصب الراء وقالوا: لما أدغمت الراء في الراء حركت إلى أخف الحركات وهو النصب ومعنى الآية (لا تضار والدة بولدها) فينزع الولد منها إلى غيرها بعد أن رضيت بإرضاعه (ولا مولود له بولده) أي لا تلقيه المرأة إلى أبيه بعدما ألفها تضاره بذلك وقيل معناه (لا تضار والدة) فتكره على إرضاعه إذا كرهت إرضاعه وقبل الصبي من غيرها لأن ذلك ليس بواجب عليها (ولا مولود له بولده) فيحتمل أنتعالطى الأم أكثر مما يجب لها إذا لم يرتضع من غيرها.

فعلى هذين القولين أصل الكلمة لا تضارر بفتح الراء الأولى على الفعل المجهول والوالدة والمولود له مفعولان ويحتمل أن يكون الفعل لهما وتكون تضار بمعنى تضارر بكسر الراء الأولى على تسمية الفاعل والمعنى (لا تضار والدة) فتأبى أن ترضع ولدها ليشق على أبيه (ولا مولود له) أي لا يضار الأب أم الصبي فينزعه منها ويمنعها من إرضاعه وعلى هذه الأقوال يرجع الإضرار إلى الوالدين يضار كل واحد منهما صاحبه بسبب الولد ويجوز أن يكون الضرار راجعا إلى الصبي أي لا يضار كل واحد منهما الصبي فلا ترضعه الأم حتى يموت أو لا ينفق الأب أو ينتزعه من الأم حتى يضر بالصبي فعلى هذا تكون الباء زائدة ومعناه (لا تضار والدة بولدها) ولا أب بولده وكل هذه الأقاويل مروية عن المفسرين.

من هو الوارث في قوله تعالى: (وعلى الوارث مثل ذلك)

اختلفوا في هذا الوارث فقال: قوم: هو وارث الصبي معناه: وعلى وارث الصبي الذي لو مات الصبي وله مال ورثه مثل الذي كان على أبيه في حال حياته ثم اختلفوا في أي وارث هو من ورثته فقال: بعضهم: هو عصبة الصبي من الرجال مثل: الجد والأخ وابن الأخ والعم وابن العم وهو قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى إلى عنه وبه قال: إبراهيم والحسن. ومجاهد وعطاء وهو مذهب سفيان قالوا: إذا لم يكن للصبي ما ينفق عليه أجبرت عصبته الذين يرثونه على أن يسترضعوه وقيل: هو وارث الصبي من كان من الرجال والنساء: وهو قول قتادة وابن أبي ليلى ومذهب أحمد وإسحاق وقالوا: يجبر على نفقته كل وارث على قدر ميراثه عصبة كانوا أو غيرهم.

وقال: بعضهم هو من كان ذا رحم محرم من ورثة المولود فمن ليس بمحرم مثل ابن العم والمولى فغير مراد بالآية وهو قول أبي حنيفة رحمه الله وذهب جماعة إلى أن المراد بالوارث هو الصبي نفسه الذي هو وارث أبيه المتوفى تكون أجرة رضاعه ونفقته في ماله فإن لم يكن له مال فعلى الأم ولا يجبر على نفقة الصبي إلا الوالدان وهو قول مالك والشافعي رحمهما الله وقيل هو الباقي من والدي المولود بعد وفاة الآخر عليه مثل ما كان على الأب من أجرة الرضاع والنفقة والكسوة.

وقيل: ليس المراد منه النفقة بل معناه وعلى الوارث ترك المضارة وبه قال: الشعبي والزهري (فإن أرادا) يعني الوالدين) (فصالا) فطاما قبل الحولين (عن تراض منهما) أي اتفاق الوالدين [ص: ٢٧٩]) (وتشاور) أي يشاورون أهل العلم به حتى يخبروا أن الفطام في ذلك الوقت لا يضر بالولد والمشاورة استخراج الرأي (فلا جناح عليهما) أي لا حرج عليهما في الفطام قبل الحولين (وإن أردتم أن تسترضعوا اولا:دكم) أي لاولا:دكم مراضع غير أمهاتهم إذا أبت أمهاتهم يرضعنهم أوتعالىذر لعلة بهن أي: انقطاع لبن أو أردن النكاح (فلا جناح عليكم إذا سلمتم) إلى أمهاتهم (ما آتيتم) ما سميتم لهن من أجرة الرضاع بقدر ما أرضعن وقيل إذا سلمتم أجور المراضع إليهن بالمعروف قرأ ابن كثير (ما آتيتم) وفي الروم" وما أتيتم من ربا" (٣٩ - الروم) بقصر الألف ومعناه ما فعلتم يقال:أتيت جميلا إذا فعلته فعلى هذه القراءة يكون التسليم بمعنى الطاعة والانقياد لا بمعنى تسليم الأجرة يعني إذا سلمتم لأمره وانقدتم لحكمه وقيل إذا سلمتم للاسترضاع عن تراض واتفاق دون الضرار (واتقوا الله واعلموا أن الله بماتعالىملون بصير)

معنى قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم)

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَاتعالىمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)

قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم) أي يموتون وتتوفى آجالهم وتوفى واستوفى بمعنى واحد ومعنى التوفي أخذ الشيء وافيا (ويذرون أزواجا) يتركون أزواجا) (يتربصن) ينتظرن (بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا) أي يعتددن بترك الزينة والطيب والنقلة على فراق أزواجهن هذه المدة إلا أن يكن حوامل فعدتهن بوضع الحمل وكانت عدة الوفاة في الابتداء حولا كاملا لقوله تعالى:" والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج" ٢٤٠ - البقرة) ثم نسخت بأربعة أشهر وعشرا.

وقال: ابن أبي نجيح عن مجاهد: كانت هذه العدة يعني أربعة أشهر وعشرا واجبة عند أهل زوجها فأنزل الله تعالى إلى: (متاعا إلى الحول) فجعل لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت وهو قول الله عز وجل:" غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن" (٢٤٠ - البقرة) فالعدة كما هي واجبة عليها.

وقال:عطاء قال:ابن عباس رضي الله عنهما: نسخت هذه الآية عدتها عند أهله وسكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت قال: عطاء: ثم جاء الميراث فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت ولا سكنى لها ويجب عليها الإحداد في عدة الوفاة وهي أن تمتنع من الزينة والطيب فلا يجوز لها تدهين رأسها بأي دهن سواء كان فيه طيب أو لم يكن ولها تدهين جسدها بدهن لا طيب فيه فإن كان فيه طيب فلا يجوز ولا يجوز لها أن تكتحل بكحل فيه طيب أو فيه زينة كالكحل الأسود ولا بأس بالكحل الفارسي [ص: ٢٨٠] الذي لا زينة فيه فإن اضطرت إلى كحل فيه زينة فرخص فيه كثير من أهل العلم منهم سالم بن عبد الله وسليمان بن يسار وعطاء والنخعي وبه قال: مالك وأصحاب الرأي وقال: الشافعي رحمه الله: تكتحل به ليلا وتمسحه بالنهار.

قالت أم سلمة: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين توفي أبو سلمة وقد جعلت علي صبرا فقال: "إنه يشب الوجه فلا تجعليه إلا بالليل وتنزعيه بالنهار" .

ولا يجوز لها الخضاب ولا لبس الوشي والديباج والحلي ويجوز لها لبس البيض من الثياب ولبس الصوف والوبر ولا تلبس الثوب المصبوغ للزينة كالأحمر والأخضر الناضر والأصفر ويجوز ما صبغ لغير زينة كالسواد والكحلي وقال: سفيان: لا تلبس المصبوغ بحال.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر محمد بن عمر بن حزم عن حميد بن نافع عن زينب بنت أبي سلمة أنها أخبرته بهذه الأحاديث الثلاثة قال:ت زينب: دخلت على أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره فدهنت به جارية ثم مست به بطنها ثم قال:ت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر" لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا" .

وقال:ت زينب: ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفي أخوها عبد الله فدعت بطيب فمست به ثم قال:ت: والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر" لا يحل لامرأة أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا" قال:ت زينب: وسمعت أمي أم سلمة تقول:

جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:ت: يا رسول الله إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفتكحلها؟ فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا" ثم قال:"إنما هي أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن في الجاهلية ترمي بالبعرة على رأس الحول" قال: حميد: فقلت لزينب: وما ترمي بالبعرة على رأس الحول؟ [ص: ٢٨١] فقال:ت زينب: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها دخلت حفشا أي بيتا صغيرا ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبا ولا شيئا حتى تمر بها سنة ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفتض به أي تمسح فقلما تفتض بشيء إلا مات ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي بها ثم تراجع بعد ذلك ما شاءت من طيب أو غيره، وقال: مالك: تفتض أي تمسح جلدها.

وقال: سعيد بن المسيب: الحكمة في هذه المدة أن فيها ينفخ الروح في الولد ويقال:إن الولد يرتكض أي يتحرك في البطن لنصف مدة الحمل أربعة أشهر وعشر. قريبا من نصف مدة الحمل وإنما قال: عشرا بلفظ المؤنث لأنه أراد الليالي لأن العرب إذا أبهمت العدد بين الليالي والأيام غلبت عليها الليالي فيقولون صمنا عشرا والصوم لا يكون إلا بالنهار.

وقال: المبرد: إنما أنث العشر لأنه أراد المدد أي عشر مدد كل مدة يوم وليلة وإذا كان المتوفى عنها زوجها حاملا فعدتها بوضع الحمل عند أكثر أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم

وروي عن علي وابن عباس رضي الله عنهم أنها تنتظر آخر الأجلين من وضع الحمل أو أربعة أشهر وعشرا وقال: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى أراد بالقصرى سورة الطلاق" واولا:ت الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن (٤ - الطلاق) نزلت بعد قوله تعالى إلى" يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا" في سورة البقرة فحمله على النسخ وعامة الفقهاء خصوا الآية بحديث سبيعة وهو ما أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن المسور بن مخرمة أن سبيعة نفست بعد وفاة زوجها بليال فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنته أن تنكح فأذن لها فنكحت. قوله تعالى إلى (فإذا بلغن أجلهن) أي انقضت عدتهن (فلا جناح عليكم) خطاب للأولياء (فيما فعلن في أنفسهن) أي من اختيار الأزواج دون العقد فإن العقد إلى الولي وقيل فيما فعلن من التزين [ص: ٢٨٢] للرجال زينة لا ينكرها الشرع (بالمعروف والله بماتعالىملون خبير) والإحداد واجب على المرأة في عدة الوفاة أما المعتدة عن الطلاق نظر فإن كانت رجعية فلا إحداد عليها في العدة لأن لها أن تضع ما يشوق قلب الزوج إليها ليراجعها وفي البائنة بالخلع والطلقات الثلاثة قولان: أحدهما: عليها الإحداد كالمتوفى عنها زوجها وهو قول سعيد بن المسيب وبه قال: أبو حنيفة والثاني: لا إحداد عليها وهو قول عطاء وبه قال: مالك.

معنى قوله تعالى: (وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ)

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَاتعالىعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ)، أَيِ: النِّسَاءِ الْمُعْتَدَّاتِ، وَأَصْلُ التَّعْرِيضِ: هُوَ التَّلْوِيحُ بالشيء، والتعريض في الكلام بما يَفْهَمُ بِهِ السَّامِعُ مُرَادَهُ مِنْ غَيْرِ تَصْرِيحٍ، وَالتَّعْرِيضُ بِالْخِطْبَةِ مُبَاحٌ فِي الْعِدَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: رُبَّ رَاغِبٍ فِيكِ، مَنْ يَجِدُ مِثْلَكِ، إِنَّكِ لَجَمِيلَةٌ، وَإِنَّكِ لَصَالِحَةٌ، وَإِنَّكِ عَلَيَّ لَكَرِيمَةٌ، وَإِنِّي فِيكِ لَرَاغِبٌ، وَإِنَّ مِنْ غَرَضِي أَنْ أتزوج بك، وَإِنْ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكِ بِالْحَلَالِ أَعْجَبَنِي، وَلَئِنْ تَزَوَّجْتُكِ لَأُحْسِنَنَّ إِلَيْكِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَقُولَ أَنْكِحِينِي، وَالْمَرْأَةُ تُجِيبُهُ بِمِثْلِهِ إِنْ رَغِبَتْ فِيهِ، وَقال: إِبْرَاهِيمُ: لَا بَأْسَ أن يهدي إليها وَيَقُومَ بِشَغْلِهَا فِي الْعِدَّةِ إِذَا كانت من شأنه، رُوِيَ أَنَّ سُكَيْنَةَ بِنْتَ حَنْظَلَةَ بَانَتْ مِنْ زَوْجِهَا فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الباقر في عِدَّتِهَا وَقال:يَا بِنْتَ حَنْظَلَةَ أَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتِ قَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَقَّ جَدِّي عَلَيَّ وَقِدَمِي فِي الْإِسْلَامِ! فَقال:تْ سُكَيْنَةُ: أَتَخْطُبُنِي وَأَنَا فِي الْعِدَّةِ وَأَنْتَ ممن يؤخذ عَنْكَ! فَقال:إِنَّمَا أَخْبَرْتُكِ بِقَرَابَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ وَهِيَ فِي عِدَّةِ زَوْجِهَا أَبِي سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَنْزِلَتَهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ مُتَحَامِلٌ عَلَى يَدِهِ، حَتَّى أَثَّرَ الْحَصِيرُ فِي يَدِهِ مِنْ شِدَّةِ تَحَامُلِهِ عَلَى يَدِهِ، وَالتَّعْرِيضُ بِالْخِطْبَةِ جَائِزٌ فِي عِدَّةِ الْوَفَاةِ، أَمَّا الْمُعْتَدَّةُ عَنْ فُرْقَةِ الحياة ينظر إِنْ كَانَتْ مِمَّنْ لَا يَحِلُّ لِمَنْ بَانَتْ مِنْهُ نِكَاحُهَا، كَالْمُطَلَّقَةِ ثلاثا، والمبانة باللّعان والرضاع، فإنه يَجُوزُ خِطْبَتُهَاتعالىرِيضًا، وَإِنْ كَانَتْ ممن يحل لِلزَّوْجِ نِكَاحُهَا كَالْمُخْتَلِعَةِ وَالْمَفْسُوخِ نِكَاحُهَا، يَجُوزُ لِزَوْجِهَا خِطْبَتُهَاتعالىرِيضًا وَتَصْرِيحًا، وَهَلْ يَجُوزُ لِلْغَيْرِتعالىرِيضًا؟ فِيهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: يَجُوزُ كَالْمُطَلَّقَةِ ثَلَاثًا،

وَالثَّانِي: لَا يَجُوزُ لِأَنَّ الْمُعَاوَدَةَ ثابتة لِصَاحِبِ الْعِدَّةِ كَالرَّجْعِيَّةِ لَا يَجُوزُ للغيرتعالىريضا بالخطبة، وقوله تعالى: (مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ)، الْخِطْبَةُ الْتِمَاسُ النِّكَاحِ وَهِيَ مَصْدَرُ خَطَبَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ يَخْطُبُ خِطْبَةً، وَقال: الْأَخْفَشُ: الْخِطْبَةُ الذِّكْرُ وَالْخِطْبَةُ التَّشَهُّدُ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ ذِكْرِ النِّسَاءَ عِنْدَهُنَّ أَوْ أَكْنَنْتُمْ: أضمرتم، فِي أَنْفُسِكُمْ، من نِكَاحَهُنَّ، يُقال:أَكْنَنْتُ الشَّيْءَ وَكَنَنْتُهُ لُغَتَانِ، وَقال: ثَعْلَبٌ: أَكْنَنْتُ الشَّيْءَ أَيْ: أَخْفَيْتُهُ فِي نَفْسِي، وَكَنَنْتُهُ سترته، قال: السُّدِّيُّ: هُوَ

أَنْ يَدْخُلَ فَيُسَلِّمَ وَيُهْدِيَ إِنْ شَاءَ وَلَا يَتَكَلَّمُ بِشَيْءٍ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ: بِقُلُوبِكُمْ، وَلكِنْ لَا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا، اخْتَلَفُوا فِي السِّرِّ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، فقال: قوم: هو الزنا وكان الرَّجُلُ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ أجل الزنية وهو يعرض بِالنِّكَاحِ، وَيَقُولُ لَهَا: دَعِينِي فَإِذَا وفيت عِدَّتَكِ أَظْهَرْتُ نِكَاحَكِ، هَذَا قَوْلُ

الْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَإِبْرَاهِيمَ وَعَطَاءٍ، وَرِوَايَةُ عَطِيَّةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عنهما، وقال: زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: أَيْ لَا يَنْكِحُهَا سِرًّا فَيُمْسِكُهَا فَإِذَا حَلَّتْ أَظْهَرَ ذَلِكَ، وَقال: مُجَاهِدٌ: هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ لَا تَفُوتِينِي بِنَفْسِكِ فَإِنِّي نَاكِحُكِ، وَقال: الشَّعْبِيُّ وَالسُّدِّيُّ: لَا يَأْخُذُ مِيثَاقَهَا أَنْ لَا تَنْكِحَ غَيْرَهُ، وَقال: عِكْرِمَةُ: لَا

يَنْكِحُهَا وَلَا يَخْطُبُهَا فِي الْعِدَّةِ، قال: الشَّافِعِيُّ: السِّرُّ هُوَ الْجِمَاعُ، وَقال: الْكَلْبِيُّ: أَيْ لَا تَصِفُوا أَنْفُسَكُمْ لَهُنَّ بِكَثْرَةِ الْجِمَاعِ، فَيَقُولُ: آتِيكِ الْأَرْبَعَةَ وَالْخَمْسَةَ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، وَيُذْكَرُ السِّرُّ وَيُرَادُ بِهِ الْجِمَاعُ، قال: امْرُؤُ الْقَيْسِ: أَلَا زَعَمَتْ بَسْبَاسَةُ الْقَوْمِ أَنَّنِي... كَبِرْتُ وأَلّا يحسن السرّ أمثالي وإنما قيل للزنا والجماع: سرا لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي خَفَاءٍ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، قوله تعالى: (إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً)، هو مَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّعْرِيضِ بِالْخِطْبَةِ. قوله تعالى: (وَلاتعالىزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ)، أَيْ: لَا تُحَقِّقُوا الْعَزْمَ عَلَى عقد النِّكَاحِ فِي الْعِدَّةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ، أَيْ: حَتَّى تَنْقَضِيَ الْعِدَّةُ، وَسَمَّاهَا اللَّهُ: كِتَابًا، لِأَنَّهَا فَرْضٌ مِنَ اللَّهِ كَقوله تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ)، أَيْ: فُرِضَ عَلَيْكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ، أَيْ: فَخَافُوا اللَّهَ، (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ)، لَا يُعَجِّلُ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى مَنْ خالف أمره ونهيه.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : وقوله تعالى: (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً)، أَيْ: ولم تمسوهن ولم تفرضوا، نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ وَلَمْ يُسَمِّ لَهَا مَهْرًا، ثُمَّ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يَمَسَّهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَقَالَ: لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَتِّعْهَا وَلَوْ بِقَلَنْسُوَتِكَ»، قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ «مَا لَمْ تَمَاسُّوهُنَّ»، بِالْأَلْفِ هَاهُنَا وَفِي الْأَحْزَابِ عَلَى الْمُفَاعَلَةِ، لِأَنَّ بَدَنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُلَاقِي بَدَنَ صَاحِبِهِ كَمَا قال: الله تعالى إلى: (مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا) [الْمُجَادَلَةِ: ٤]، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ تَمَسُّوهُنَّ بِلَا أَلِفٍ، لِأَنَّ الْغِشْيَانَ يَكُونُ من فعل الرجال، دَلِيلُهُ قوله تعالى: (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) [آل عمران: ٤٧]، (أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً)، أَيْ: تُوجِبُوا لَهُنَّ صَدَاقًا، فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْوَجْهُ فِي نَفْيِ الْجُنَاحِ عَنِ الْمُطَلِّقِ؟ قِيلَ: الطَّلَاقُ قَطْعُ سبب الوصلة، وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «أَبْغَضُ الْحَلَالِ إلى الله تعالى إلى الطَّلَاقُ»، فَنَفَى الْجُنَاحَ عَنْهُ إِذَا كَانَ الْفِرَاقُ أَرْوَحَ مِنَ الْإِمْسَاكِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا سَبِيلَ لِلنِّسَاءِ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ الْمَسِيسِ، وَالْفَرْضِ بِصَدَاقٍ وَلَا نَفَقَةٍ، وَقِيلَ: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي

تَطْلِيقِهِنَّ قَبْلَ الْمَسِيسِ فِي أَيِّ وَقْتٍ شِئْتُمْ حَائِضًا كَانَتِ الْمَرْأَةُ أَوْ طَاهِرًا لِأَنَّهُ لَا سُنَّةَ وَلَا بِدْعَةَ فِي طَلَاقِهِنَّ قَبْلَ الدُّخُولِ بِهَا، بِخِلَافِ الْمَدْخُولِ بِهَا، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ تَطْلِيقُهَا فِي حَالِ الْحَيْضِ، (وَمَتِّعُوهُنَّ)، أَيْ: أَعْطُوهُنَّ مِنْ مَالِكُمْ مَا يَتَمَتَّعْنَ بِهِ، وَالْمُتْعَةُ وَالْمَتَاعُ: مَا يُتَبَلَّغُ بِهِ مِنَ الزَّادِ، عَلَى الْمُوسِعِ، أَيْ: عَلَى الْغَنِيِّ، قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ، أَيِ: الْفَقِيرِ، قَدَرُهُ، أَيْ: إِمْكَانُهُ وَطَاقَتُهُ، قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَحَفْصٌ قَدَرُهُ بِفَتْحِ الدَّالِّ فِيهِمَا، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِسُكُونِهِمَا، وَهُمَا لُغَتَانِ، وَقِيلَ: الْقَدْرُ بِسُكُونِ الدَّالِ: الْمَصْدَرُ، وَبِالْفَتْحِ: الِاسْمُ، مَتاعاً نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَيْ: مَتِّعُوهُنَّ، مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ، أَيْ: بِمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ غَيْرِ ظُلْمٍ، حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ، وَبَيَانُ حُكْمِ الْآيَةِ: أَنَّ مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا مَهْرًا، ثُمَّ طَلَّقَهَا قبل المسيس يجب عليه الْمُتْعَةُ بِالِاتِّفَاقِ، وَإِنْ طَلَّقَهَا بَعْدَ الْفَرْضِ قَبْلَ الْمَسِيسِ فَلَا مُتْعَةَ لَهَا، عَلَى قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ، وَلَهَا نِصْفُ الْمَهْرِ الْمَفْرُوضِ،

وَاخْتَلَفُوا فِي الْمُطَلَّقَةِ بَعْدَ الدُّخُولِ بِهَا فَذَهَبَ جماعة إلى أنها لَا مُتْعَةَ لَهَا، لِأَنَّهَا تَسْتَحِقُّ الْمَهْرَ، وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِ الرَّأْيِ، وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إلى أَنَّهَا تَسْتَحِقُّ الْمُتْعَةَ لِقوله تعالى: (وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) [الْبَقَرَةِ: ٢٤١]، وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَبِهِ قال: عَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الشَّافِعِيُّ، لِأَنَّ اسْتِحْقَاقَهَا الْمَهْرَ بِمُقَابَلَةِ مَا أُتْلِفَ عَلَيْهَا مِنْ منفعة البضع، ولها الْمُتْعَةُ عَلَى وَحْشَةِ الْفِرَاقِ، فَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ لَا مُتْعَةَ إِلَّا لِوَاحِدَةٍ، وَهِيَ الْمُطَلَّقَةُ قَبْلَ الْفَرْضِ وَالْمَسِيسِ، وَعَلَى الْقَوْلِ الثَّانِي: لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ مُتْعَةٌ إِلَّا لِوَاحِدَةٍ وَهِيَ الْمُطَلَّقَةُ بَعْدَ الْفَرْضِ قَبْلَ الْمَسِيسِ، قال: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ مُتْعَةٌ إِلَّا الَّتِي فُرِضَ لَهَا وَلَمْ يَمَسَّهَا زَوْجُهَا، فَحَسْبُهَا نِصْفُ الْمَهْرِ، قال: الزُّهْرِيُّ: مُتْعَتَانِ يَقْضِي بِإِحْدَاهُمَا السُّلْطَانُ وَلَا يقضي بالأخرى، بل يلزمه فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله تعالى إلى، فَأَمَّا الَّتِي يَقْضِي بِهَا السُّلْطَانُ فَهِيَ الْمُطَلَّقَةُ قَبْلَ الْفَرْضِ وَالْمَسِيسِ، وَهُوَ قوله تعالى: حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ، وَالَّتِي تَلْزَمُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وبين الله تعالى إلى فلا يَقْضِي بِهَا السُّلْطَانُ، فَهِيَ الْمُطَلَّقَةُ بَعْدَ الْمَسِيسِ، وَهُوَ قوله تعالى: (حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)، وَذَهَبَ الْحَسَنُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ إلى أَنَّ لِكُلِّ مُطَلَّقَةٍ مُتْعَةً سَوَاءٌ كَانَ قَبْلَ الْفَرْضِ وَالْمَسِيسِ أَوْ بَعْدَ الْفَرْضِ قَبْلَ الْمَسِيسِ لِقوله تعالى: (وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) [الْبَقَرَةِ: ٢٤١]، وَلِقوله تعالى إلى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ: (فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا) [الْأَحْزَابِ: ٤٩]، وَقال:ا: مَعْنَى قوله تعالى: (لَا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً)، أَيْ: أَوْ لَمْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً، وَقال: بَعْضُهُمْ: الْمُتْعَةُ غَيْرُ وَاجِبَةٍ وَالْأَمْرُ بِهَا أَمْرُ ندب واستحباب، روي أَنَّ رَجُلًا طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَقَدْ دَخَلَ بِهَا فَخَاصَمَتْهُ إلى شُرَيْحٍ فِي الْمُتْعَةِ،

فَقال: شُرَيْحٌ: لَا تَأْبَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا تَأْبَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَلَمْ يُجْبِرْهُ عَلَى ذَلِكَ، وَاخْتَلَفُوا فِي قَدْرِ الْمُتْعَةِ، فَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَعْلَاهَا خَادِمٌ، وَأَوْسَطُهَا ثَلَاثَةُ أَثْوَابٍ: دِرْعٌ وَخِمَارٌ وَإِزَارٌ، وَدُونَ ذَلِكَ وِقَايَةٌ، أَوْ شَيْءٌ مِنَ الْوَرِقِ، وَبِهِ قال: الشَّعْبِيُّ وَالزُّهْرِيُّ وَهَذَا مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ، قال:أَعْلَاهَا عَلَى الْمُوسِعِ: خَادِمٌ، وَأَوْسَطُهَا: ثَوْبٌ، وَأَقَلُّهَا: أَقَلُّ مَا لَهُ ثَمَنٌ وَحَسْنـ ثَلَاثُونَ دِرْهَمًا، وَطَلَّقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ امْرَأَتَهُ وتممها بجارية سَوْدَاءَ، أَيْ: مَتَّعَهَا، وَمَتَّعَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امْرَأَةً لَهُ بِعَشَرَةِ آلافِ دِرْهَمٍ، فَقال:ثْ: مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقٍ، وَقال: أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَبْلَغُهَا إِذَا اخْتَلَفَ الزَّوْجَانِ قَدْرُ نِصْفِ مَهْرِ مِثْلِهَا لَا يُجَاوَزُ. وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُعْتَبَرُ حَالُ الزَّوْجِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَمِنْ حُكْمِ الْآيَةِ أَنَّ مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً بَالِغَةً بِرِضَاهَا عَلَى غَيْرِ مَهْرٍ يَصِحُّ النِّكَاحُ، وَلِلْمَرْأَةِ مُطَالَبَتُهُ بِأَنْ يَفْرِضَ لَهَا صَدَاقًا، فَإِنْ دَخَلَ بِهَا قَبْلَ الْفَرْضِ فَلَهَا عَلَيْهِ مَهْرُ مِثْلِهَا، وَإِنْ طَلَّقَهَا قَبْلَ الْفَرْضِ وَالدُّخُولِ فَلَهَا الْمُتْعَةُ، وَإِنْ مَاتَ أَحَدُهُمَا قبل الفرض والدخول، فاختلف أَهْلُ الْعِلْمِ فِي أَنَّهَا هَلْ تَسْتَحِقُّ الْمَهْرَ أَمْ لَا؟ فَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إلى أَنَّهُ لَا مَهْرَ لَهَا، وَهُوَ قَوْلُ عَلِيٍّ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، كَمَا لَوْ طَلَّقَهَا قَبْلَ الْفَرْضِ وَالدُّخُولِ، وَذَهَبَ قَوْمٌ إلى أَنَّ لَهَا الْمَهْرَ لِأَنَّ الْمَوْتَ كَالدُّخُولِ في تقرير المسمى، فكذلك فِي إِيجَابِ مَهْرِ الْمِثْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْعَقْدِ مُسَمًّى، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ واحتجّوا بما: رُوِيَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَلَمْ يَفْرِضْ لَهَا صداقا ولم يَدْخُلْ بِهَا حَتَّى مَاتَ، فَقال: ابْنُ مَسْعُودٍ: لَهَا صَدَاقُ نِسَائِهَا وَلَا وَكْسَ وَلَا شَطَطَ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ وَلَهَا الْمِيرَاثُ، فَقَامَ مَعْقِلُ بْنُ سِنَانٍ الْأَشْجَعِيُّ فَقال:قَضَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَرْوَعَ بِنْتِ وَاشِقٍ امْرَأَةٍ مِنَّا مِثْلَ مَا قَضَيْتَ فَفَرِحَ بِهَا ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقال: الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَإِنْ ثَبَتَ حَدِيثُ بَرْوَعَ بِنْتِ وَاشِقٍ فَلَا حُجَّةَ فِي قَوْلِ أَحَدٍ دُونَ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ فَلَا مَهْرَ لَهَا وَلَهَا الْمِيرَاثُ، وَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ فِي حَدِيثِ بَرْوَعَ: لَا يُقْبَلُ قَوْلُ أَعْرَابِيٍّ مِنْ أَشْجَعَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْتعالىٰوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَاتعالىٰمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

وقوله تعالى: (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) هذا في المطلقة بعد الفرض قبل المسيس فلها نصف المفروض وإن مات أحدهما قبل المسيس فلها كمال المهر المفروض والمراد بالمس المذكور في الآية: الجماع واختلف أهل العلم فيما لو خلا الرجل بامرأته ثم طلقها قبل أن يدخل بها فذهب قوم إلى أنه لا يجب لها إلا نصف الصداق ولا عدة عليها لأن الله تعالى إلى أوجب بالطلاق قبل المسيس نصف المهر ولم يوجب العدة وهو قول ابن عباس رضي الله عنه وابن مسعود وبه قال: الشافعي رحمه الله.

وقال: قوم: يجب لها كمال المهر وعليها العدة لما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال:إذا أرخيت الستور فقد وجب الصداق ومثله عن زيد بن ثابت وحمل بعضهم قول عمر على وجوب تسليم الصداق إليها إذا سلمت نفسها لا على تقدير الصداق وقيل هذه الآية ناسخة للآية التي في سورة الأحزاب" فما لكم عليهن من عدةتعالىتدونها فمتعوهن" (٤٩ - الأحزاب) فقد كان للمطلقة قبل المسيس متاع فنسخت بهذه الآية وأوجب للمطلقة المفروض لها قبل المسيس نصف المفروض ولا متاع لها.

وقوله تعالى إلى (وقد فرضتم لهن فريضة) أي سميتم لهن مهرا (فنصف ما فرضتم) أي لها نصف المهر المسمى (إلا أن يعفون) يعني النساء أي إلا أن تترك المرأة نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج.

تفسير قوله تعالى: (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح)

اختلفوا فيه: فذهب بعضهم إلى أن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي وبه قال: ابن عباس رضي الله عنه معناه: إلا أنتعالىفو المرأة بترك نصيبها إلى [ص: ٢٨٧] الزوج إن كانت ثيبا من أهل العفو أو يعفو وليها فيترك نصيبها إن كانت المرأة بكرا أو غير جائزة الأمر فيجوز عفو وليها وهو قول علقمة وعطاء والحسن والزهري وربيعة وذهب بعضهم إلى أنه إنما يجوز عفو الولي إذا كانت المرأة بكرا فإن كانت ثيبا فلا يجوز عفو وليها وقال: بعضهم: الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج وهو قول علي وبه قال: سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والشعبي وشريح ومجاهد

وقتادة وقالوا: لا يجوز لوليها ترك الشيء من الصداق بكرا كانت أو ثيبا كما لا يجوز له ذلك قبل الطلاق بالاتفاق وكما لا يجوز له أن يهب شيئا من مالها وقالوا: معنى الآية إلا أنتعالىفو المرأة بترك نصيبها فيعود جميع الصداق إلى الزوج أو يعفو الزوج بترك نصيبه فيكون لها جميع الصداق فعلى هذا التأويل وجه الآية: الذي بيده عقدة النكاح نكاح نفسه في كل حال قبل الطلاق أو بعده (وأنتعالىفوا أقرب للتقوى) موضعه رفع بالابتداء أي فالعفو أقرب للتقوى أي إلى التقوى والخطاب للرجال والنساء جميعا لأن المذكر والمؤنث إذا اجتمعا كانت الغلبة للمذكر معناه: وعفو بعضكم عن بعض أقرب للتقوى (ولا تنسوا الفضل بينكم) أي إفضال بعضكم على بعض بإعطاء الرجل تمام الصداق أو ترك المرأة نصيبها حثهما جميعا على الإحسان (إن الله بماتعالىملون بصير).

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُواتعالىلَمُونَ (٢٣٩)

قوله تعالى: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) أي واظبوا وداوموا على الصلوات المكتوبات بمواقيتها وحدودها وإتمام أركانها ثم خص من بينها الصلاة الوسطى بالمحافظة عليها دلالة على فضلها والوسطى تأنيث الأوسط ووسط الشيء: خيره وأعدله واختلف العلماء من الصحابة ومن بعدهم في الصلاة الوسطى فقال: قوم: هي صلاة الفجر وهو قول عمر وابن عمر وابن عباس ومعاذ وجابر وبه قال: عطاء وعكرمة ومجاهد، وإليه مال مالك والشافعي، لأن الله تعالى إلى قال:(وقوموا لله قانتين) والقنوت طول القيام وصلاة الصبح

مخصوصة بطول القيام وبالقنوت لأن الله تعالى إلى خصها في آية أخرى من بين الصلوات فقال: الله:" وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا" (٧٨ - الإسراء) يعني تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار فهي مكتوبة في ديوان الليل وديوان النهار ولأنها بين صلاتي جمع وهي لا تقصر ولا تجمع إلى غيرها.

وذهب قوم إلى أنها صلاة الظهر وهو قول زيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري وأسامة بن زيد، لأنها في وسط النهار وهي أوسط صلاة النهار في الطول. [ص: ٢٨٨]

أخبرنا عمر بن عبد العزيز أخبرنا أبو القاسم بن جعفر الهاشمي أنا أبو علي اللؤلئي أنا أبو داود أنا محمد بن المثنى أنا محمد بن جعفر أنا شعبة، حدثني عمرو بن أبي حكيم قال:سمعت الزبرقان يحدث عن عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منها فنزلت: (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى).

وذهب الأكثرون إلى أنها صلاة العصر رواه جماعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قول علي وعبد الله بن مسعود وأبي أيوب وأبي هريرة وعائشة رضوان الله عليهم وبه قال: إبراهيم النخعي وقتادة والحسن.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أخبرنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن زيد بن أسلم عن القعقاع بن حكيم عن أبي يونس مولى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما أنه قال:أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفا وقال:ت: إذا بلغت هذه الآية فآذني (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فلما بلغتها آذنتها فأملت علي (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)" صلاة العصر..."]

معنى قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم)

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠)

قوله تعالى: (والذين يتوفون منكم) يا معشر الرجال (ويذرون) أي يتركون (أزواجا) أي زوجات (وصية لأزواجهم) قرأ أهل البصرة وابن عامر وحمزة وحفص وصية بالنصب على معنى [ص: ٢٩١] فليوصوا وصية وقرأ الباقون بالرفع أي كتب عليكم الوصية (متاعا إلى الحول) متاعا نصب على المصدر أي متعوهن متاعا وقيل: جعل الله ذلك لهن متاعا والمتاع نفقة سنة لطعامها وكسوتها وسكنها وما تحتاج إليه (غير إخراج) نصب على الحال وقيل بنزع حرف على الصفة أي من غير إخراج نزلت هذه الآية في رجل من أهل الطائف يقال: له حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة وله اولاد ومعه أبواه وامرأته فمات فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبي صلى الله عليه وسلم والديه واولاده من ميراثه ولم يعط امرأته شيئا وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة

زوجها حولا كاملا وكانت عدة الوفاة في ابتداء الإسلام حولا كاملا وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول وكانت نفقتها وسكناها واجبة في مال زوجها تلك السنة ما لم تخرج ولم يكن لها الميراث فإن خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها وكان على الرجل أن يوصي بها فكان كذلك حتى نزلت آية الميراث فنسخ الله تعالى إلى نفقة الحول بالربع والثمن ونسخ عدة الحول بأربعة أشهر وعشر.

معنى قوله تعالى: (فإن خرجن)

يعني من قبل أنفسهن قبل الحول من غير إخراج الورثة (فلا جناح عليكم) يا أولياء الميت (في ما فعلن في أنفسهن من معروف) يعني التزين للنكاح ولرفع الجناح عن الرجال وجهان:

أحدهما: لا جناح عليكم في قطع النفقة إذا خرجن قبل انقضاء الحول.

والآخر: لا جناح عليكم في ترك منعهن من الخروج لأن مقامها في بيت زوجها حولا غير واجب عليها خيرها الله تعالى إلى بين أن تقيم حولا ولها النفقة والسكنى وبين أن تخرج فلا نفقة ولا سكنى إلى أن نسخه بأربعة أشهر وعشر. (والله عزيز حكيم).

معنى قوله تعالى: (وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)

قال: أبو جعفر: يعني -تعالى إلى ذكره - بذلك: ولمن طلق من النساء على مطلقها من الأزواج،" متاع" . يعني بذلك: ما تستمتع به من ثياب وكسوة أو نفقة أو خادم، وغير ذلك مما يستمتع به. وقد بينا فيما مضى قبل معنى ذلك، واختلاف أهل العلم فيه، والصواب من القول من ذلك عندنا، بما فيه الكفاية من إعادته.

وقد اختلف أهل العلم في المعنية بهذه الآية من المطلقات. فقال: بعضهم: عني بها الثيبات اللواتي قد جومعن. قالوا: وإنما قلنا ذلك، لأن [الحقوق اللازمة للمطلقات] غير المدخول بهن في المتعة، قد بينها الله [ص: ٢٦٣] -تعالى إلى ذكره - في الآيات قبلها، فعلمنا بذلك أن في هذه الآية بيان أمر المدخول بهن في ذلك.

ذكر من قال: ذلك:

٥٥٩٠ - حدثني محمد بن عمرو قال:حدثنا أبو عاصم قال:حدثنا عيسى بن ميمون، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء في قوله:" وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين" قال:المرأة الثيب يمتعها زوجها إذا جامعها بالمعروف.

٥٥٩١ - حدثني المثنى قال:حدثنا أبو حذيفة قال:حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد مثله وزاد فيه: ذكره شبل، عن ابن أبي نجيح، عن عطاء.

وقال: آخرون: بل في هذه الآية دلالة على أن لكل مطلقة متعة، وإنما أنزلها الله -تعالى إلى ذكره - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - لما فيها من زيادة المعنى الذي فيها على ما سواها من آي المتعة، إذ كان ما سواها من آي المتعة إنما فيه بيان حكم غير الممسوسة إذا طلقت، وفي هذه بيان حكم جميع المطلقات في المتعة.

ذكر من قال: ذلك:

٥٥٩٢ - حدثنا ابن بشار قال:حدثنا عبد الوهاب قال:حدثنا أيوب، عن سعيد بن جبير في هذه الآية:" وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين" قال:لكل مطلقة متاع بالمعروف حقا على المتقين.

٥٥٩٣ - حدثنا المثنى قال:حدثنا حبان بن موسى قال:أخبرنا ابن المبارك قال:أخبرنا يونس، عن الزهري - في الأمة يطلقها زوجها وهي حبلى - قال::تعالتد في بيتها. وقال:لم أسمع في متعة المملوكة شيئا أذكره، وقد قال: الله -تعالى إلى ذكره -:" متاع بالمعروف حقا على المتقين" ولها المتعة حتى تضع.

[ص: ٢٦٤] ٥٥٩٤ - حدثني المثنى قال:حدثنا حبان بن موسى قال:أخبرنا ابن المبارك قال:أخبرنا ابن جريج، عن عطاء قال:قلت له: أللأمة من الحر متعة؟ قال:لا. قلت: فالحرة عند العبد؟ قال:لا وقال: عمرو بن دينار: نعم،" وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين" .

وقال: آخرون: إنما نزلت هذه الآية، لأن الله -تعالى إلى ذكره - لما أنزل قوله: (ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين) [سورة البقرة: ٢٣٦]، قال: رجل من المسلمين: فإنا لا نفعل إن لم نرد أن نحسن. فأنزل الله:" وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين" فوجب ذلك عليهم.

ذكر من قال: ذلك:

٥٥٩٥ - حدثني يونس بن عبد الأعلى قال:أخبرنا ابن وهب قال:قال: ابن زيد في قوله:" ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين" فقال: رجل: فإن أحسنت فعلت، وإن لم أرد ذلك لم أفعل! فأنزل الله:" وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين" .

قال: أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك ما قال:ه سعيد بن جبير، من أن الله -تعالى إلى ذكره - أنزلها دليلا لعباده على أن لكل مطلقة متعة. لأن الله -تعالى إلى ذكره - ذكر في سائر آي القرآن التي فيها ذكر متعة النساء، خصوصا من النساء، فبين في الآية التي قال: فيها: (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة) [سورة البقرة: ٢٣٦]، وفي قوله: (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) [سورة الأحزاب: ٤٩]، [ص: ٢٦٥] ما لهن من المتعة إذا طلقن قبل المسيس، وبقوله: (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن) [سورة الأحزاب: ٢٨]، حكم المدخول بهن، وبقي حكم الصبايا إذا طلقن بعد الابتناء بهن، وحكم الكوافر والإماء. فعم الله -تعالى إلى ذكره - بقوله:" وللمطلقات متاع بالمعروف" ذكر جميعهن، وأخبر بأن لهن المتاع، كما خص المطلقات الموصوفات بصفاتهن في سائر آي القرآن، ولذلك كرر ذكر جميعهن في هذه الآية.

وأما قوله: (حقا على المتقين)، فإنا قد بينا معنى قوله:" حقا" ووجه نصبه، والاختلاف من أهل العربية في قوله: (حقا على المحسنين) [سورة البقرة: ٢٣٦]، ففي ذلك مستغنى عن إعادته في هذا الموضع.

فأما" المتقون" : فهم الذين اتقوا الله في أمره ونهيه وحدوده، فقاموا بها على ما كلفهم القيام بها خشية منهم له، ووجلا منهم من عقابه. وقد تقدم بيان تأويل ذلك نصا بالرواية.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْتعالىتَعْقِلُونَ (٢٤٢) قال: أبو جعفر: يقول -تعالى إلى ذكره - كما بينت لكم ما يلزمكم لأزواجكم ويلزم أزواجكم لكم، أيها المؤمنون، وعرفتكم أحكامي والحق الواجب لبعضكم على بعض [ص: ٢٦٦] في هذه الآيات، فكذلك أبين لكم سائر الأحكام في آياتي التي أنزلتها على نبيي محمد - صلى الله عليه وسلم - في هذا الكتاب، لتعقلوا - أيها المؤمنون بي وبرسولي - حدودي، فتفهموا اللازم لكم من فرائضي، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، وعاجلكم وآجلكم، فتعلموا به ليصلح ذات بينكم، وتنالوا به الجزيل من ثوابي في معادكم.

معنى قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

قوله تعالى: (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم) قال: أكثر أهل التفسير: كانت قرية يقال: لها: داوردان قبل واسط بها وقع الطاعون فخرجت طائفة منها وبقيت طائفة فهلك أكثر من بقي في القرية وسلم الذين خرجوا فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين فقال: الذين بقوا: أصحابنا كانوا أحزم منا لو صنعنا كما صنعوا لبقينا ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن إلى أرض لا وباء بها فوقع الطاعون من قابل فهرب عامة أهلها وخرجوا حتى نزلوا واديا أفيح فلما نزلوا المكان الذي يبتغون فيه النجاة ناداهم ملك من أسفل الوادي وآخر من أعلاه: أن موتوا فماتوا جميعا.

أخبرنا أبو الحسن السرخسي أنا زاهر بن أحمد أخبرنا أبو إسحاق الهاشمي أنا أبو مصعب عن مالك عن ابن شهاب عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام فلما جاء سرغ بلغه أن الوباء قد وقع بالشام فأخبره عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه" فرجع عمر من سرغ

قال: الكلبي ومقاتل والضحاك: إنما فروا من الجهاد وذلك أن ملكا من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوهم فعسكروا ثم جبنوا وكرهوا الموت فاعتلوا وقال:وا لملكهم: إن الأرض التي تأتيها بها الوباء فلا نأتيها حتى ينقطع منها الوباء فأرسل الله عليهم الموت فخرجوا من ديارهم فرارا من الموت فلما رأى الملك ذلك قال:اللهم رب يعقوب وإله موسى قد ترى معصية عبادك فأرهم آية في أنفسهم حتى يعلموا أنهم لا يستطيعون الفرار منك فلما خرجوا قال: لهم الله تعالى إلى: موتوا عقوبة لهم فماتوا جميعا وماتت دوابهم كموت رجل واحد فأتى عليهم ثمانية أيام حتى انتفخوا وأروحت أجسادهم فخرج إليهم الناس فعجزوا [ص: ٢٩٣] عن دفنهم فحظروا عليهم حظيرة دون السباع وتركوهم فيها.

واختلفوا في مبلغ عددهم قال: عطاء الخراساني: كانوا ثلاثة آلاف وقال: وهب: أربعة آلاف وقال: مقاتل والكلبي: ثمانية آلاف وقال: أبو روق: عشرة آلاف وقال: السدي: بضعة وثلاثون ألفا وقال: ابن جريج: أربعون ألفا وقال: عطاء بن أبي رباح: سبعون ألفا وأولى الأقاويل: قول من قال: كانوا زيادة على عشرة آلاف لأن الله تعالى إلى قال:" وهم ألوف" والألوف جمع الكثير وجمعه القليل آلاف ولا يقال: لما دون عشرة آلاف ألوف قالوا: فأتت على ذلك مدة وقد بليت أجسادهم وعريت عظامهم فمر عليهم نبي يقال: له حزقيل بن بودى ثالث خلفاء بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام

وذلك أن القيم بأمر بني إسرائيل كان بعد موسى يوشع بن نون ثم كالب بن يوقنا ثم حزقيل وكان يقال: له ابن العجوز لأن أمه كانت عجوزا فسألت الله الولد بعد ما كبرت وعقمت فوهبه الله تعالى إلى لها

فلما مر حزقيل على أولئك الموتى وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم متعجبا فأوحى الله تعالى إلى إليه تريد أن أريك آية؟ قال: نعم: فأحياهم الله وقيل: دعا حزقيل ربه أن يحييهم فأحياهم.

وقال: مقاتل والكلبي: هم كانوا قوم حزقيل أحياهم الله بعد ثمانية أيام وذلك أنه لما أصابهم ذلك خرج حزقيل في طلبهم فوجدهم موتى فبكى وقال:يا رب كنت في قوم يحمدونك ويسبحونك ويقدسونك ويكبرونك ويهللونك فبقيت وحيدا لا قوم لي فأوحى الله تعالى إلى إليه: أني جعلت حياتهم إليك قال: حزقيل: احيوا بإذن الله فعاشوا.

معنى الرؤية في قوله تعالى: (ألم تر)

أي ألم تعلم بإعلامي إياك وهو من رؤية القلب.

قال: أهل المعاني: هوتعالىجيب يقول هل رأيت مثلهم؟ كما تقول: ألم تر إلى ما يصنع فلان؟ وكل ما في القرآن ألم تر ولم يعاينه النبي صلى الله عليه وسلم فهذا وجهه (إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف) جمع ألف وقيل مؤتلفة قلوبهم جمع آلف مثل قاعد وقعود والصحيح أن المراد منه العدد (حذر الموت) أي خوف الموت (فقال: لهم الله موتوا) أمر تحويل كقوله" كونوا قردة خاسئين" (٦٥ - البقرة (ثم أحياهم) بعد موتهم (إن الله لذو فضل على الناس) قيل هو على العموم في حق الكافة في الدنيا وقيل على الخصوص في حق المؤمنين (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أما الكفار فلم يشكروا وأما المؤمنون فلم يبلغوا غاية الشكر.

(وقاتلوا في سبيل الله) أي في طاعة الله أعداء الله (واعلموا أن الله سميع عليم) قال: أكثر أهل التفسير: هذا خطاب للذين أحيوا أمروا بالقتال في سبيل الله فخرجوا من ديارهم فرارا من الجهاد فأماتهم الله ثم أحياهم وأمرهم أن يجاهدوا: وقيل: الخطاب لهذه الأمة أمرهم بالجهاد.

قوله تعالى: (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا) القرض اسم لكل ما يعطيه الإنسان ليجازى عليه فسمى الله تعالى إلى عمل المؤمنين له على رجاء ما وعدهم من الثواب قرضا لأنهم يعملونه لطلب ثوابه

قال: الكسائي: القرض ما أسلفت من عمل صالح أو سيئ وأصل القرض في اللغة القطع سمي به القرض لأنه يقطع من ماله شيئا يعطيه ليرجع إليه مثله وقيل في الآية اختصار مجازه: من ذا الذي يقرض عباد الله والمحتاجين من خلقه كقوله تعالى:" إن الذين يؤذون الله ورسوله" (٥٧ - الأحزاب) أي يؤذون عباد الله كما جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن الله تعالى إلى يقول يوم القيامة: يابن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال:يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال:استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي" .

قوله تعالى: (يقرض الله) أي ينفق في طاعة الله (قرضا حسنا) قال: الحسين بن علي الواقدي: يعني محتسبا طيبة بها نفسه وقال: ابن المبارك: من مال حلال وقيل لا يمن به ولا يؤذي (فيضاعفه له) قرأ ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب" فيضعفه" وبابه بالتشديد ووافق أبو عمرو في سورة الأحزاب وقرأ الآخرون" فيضاعفه" بالألف مخففا وهما لغتان ودليل التشديد قوله [ص: ٢٩٥] (أضعافا كثيرة) لأن التشديد للتكثير

(وإليه ترجعون) أي إلى الله تعالىودون فيجزيكم بأعمالكم

(٢٤٥) أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦)

المقصود بالملأ في قوله تعالى: (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل)

والملأ من القوم: وجوههم وأشرافهم وأصل الملأ الجماعة من الناس ولا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والإبل والخيل والجيش وجمعه أملاء (من بعد موسى) أي من بعد موت موسى (إذ قال:وا لنبي لهم) واختلفوا في ذلك النبي فقال: قتادة هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليه السلام وقال: السدي: اسمه شمعون وإنما سمي شمعون لأن أمه دعت الله أن يرزقها غلاما فاستجاب الله دعاءها فولدت

غلاما فسمته سمعون تقول سمع الله تعالى إلى دعائي والسين تصير شينا بالعبرانية وهو شمعون بن صفية بن علقمة من ولد لاوي بن يعقوب، وقال: سائر المفسرين: هو إشمويل وهو بالعبرانية إسماعيل بن يال بن علقمة، وقال: مقاتل: هو من نسل هارون وقال: مجاهد: هو إشمويل وهو بالعبرانية إسماعيل بن يال بن علقمة. [ص: ٢٩٦]

وقال: وهب وابن إسحاق والكلبي وغيرهم: كان سبب مسألتهم إياه ذلك لما مات موسى عليه السلام خلف بعده في بني إسرائيل يوشع بن نون، يقيم فيهم التوراة وأمر الله تعالى إلى حتى قبضه الله تعالى إلى ثم خلف فيهم كالب كذلك حتى قبضه الله تعالى إلى ثم خلف حزقيل حتى قبضه الله ثم عظمت الأحداث في بني إسرائيل ونسوا عهد الله حتى عبدوا الأوثان فبعث الله إليهم إلياس نبيا فدعاهم إلى الله تعالى إلى وكانت الأنبياء من بني إسرائيل من بعد موسى يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة ثم خلف من بعد إلياس اليسع فكان فيهم ما شاء الله ثم قبضه الله .

وخلف فيهم الخلوف وعظمت الخطايا فظهر لهم عدو يقال: له البلشاثا وهم قوم جالوت كانوا يسكنون ساحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة فظهروا على بني إسرائيل وغلبوا على كثير من أرضهم وسبوا كثيرا من ذراريهم وأسروا من أبناء ملوكهم أربعين وأربعمائة غلام فضربوا عليهم الجزية وأخذوا توراتهم ولقي بنو إسرائيل منهم بلاء وشدة ولم يكن لهم نبي يدير أمرهم وكان سبط النبوة قد هلكوا فلم يبق منهم إلا امرأة حبلى فحبسوها في بيت رهبة أن تلد جارية فتبدلها بغلام لما ترى من رغبة بني إسرائيل في ولدها وجعلت المرأة تدعو الله أن يرزقها غلاما فولدت غلاما فسمته إشمويل تقول: سمع الله تعالى إلى دعائي فكبر الغلام فأسلمته ليتعلم التوراة في بيت المقدس وكفله شيخ من علمائهم وتبناه فلما بلغ الغلام أتاه جبريل وهو نائم إلى جنب الشيخ وكان لا يأتمن عليه أحدا فدعاه جبريل بلحن الشيخ يا إشمويل فقام الغلام فزعا إلى الشيخ فقال:يا أبتاه دعوتني؟ فكره الشيخ أن يقول لا فيفزع الغلام فقال: يا بني ارجع فنم فرجع الغلام فنام ثم دعاه الثانية فقال: الغلام: يا أبت دعوتني؟ فقال: ارجع فنم فإن دعوتك الثالثة فلا تجبني (فرجع الغلام فنام) فلما كانت الثالثة ظهر له جبريل فقال: له: اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك فإن الله عز وجل قد بعثك فيهم نبيا فلما أتاهم كذبوه وقالوا: استعجلت بالنبوة ولم تنلك وقال:وا له: إن كنت صادقا فابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله آية من نبوتك وإنما كان قوام أمر بني إسرائيل بالاجتماع على الملوك وطاعة الملوك لأنبيائهم فكان الملك هو الذي يسير بالجموع والنبي يقيم له أمره ويشير عليه برشده

ويأتيه بالخبر من ربه قال: وهب بن منبه: بعث الله تعالى إلى إشمويل نبيا فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال ثم كان من أمر جالوت والعمالقة ما كان فقال:وا لإشمويل: (ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) جزم على جواب الأمر فلما قال:وا له ذلك (قال: هل عسيتم) استفهام شك.

قرأ نافع: عسيتم بكسر السين كل القرآن وقرأ الباقون بالفتح وهي اللغة الفصيحة بدليل قوله تعالى: (عسى ربكم) (إن كتب) فرض (عليكم القتال) مع ذلك الملك (ألا تقاتلوا) أن لا تفوا بما تقولوا معه (قال:وا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله) فإن قيل فما وجه دخول أن في هذا الموضع والعرب لا تقول ما لك أن لا تفعل وإنما يقال: ما لك لا تفعل؟ قيل: دخول أن وحذفها لغتان صحيحتان [ص: ٢٩٧] فالإثبات كقوله تعالى:" ما لك أن لا تكون مع الساجدين" (٣٢ - الحجر) والحذف كقوله تعالى:" ما لكم لا تؤمنون بالله" (٨ - الحديد) وقال: الكسائي: معناه وما لنا في أن لا نقاتل فحذف" في" وقال: الفراء: أي وما يمنعنا أن لا نقاتل في سبيل الله كقوله تعالى:" ما منعك أن لا تسجد" (١٢ - الأعراف) وقال: الأخفش:" أن" هاهنا زائدة معناه: وما لنا لا نقاتل في سبيل الله (وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أي أخرج من غلب عليهم من ديارهم ظاهر الكلام العموم وباطنه الخصوص لأن الذين قال:وا لنبيهم: ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله كانوا في ديارهم وأوطانهم وإنما أخرج من أسر منهم ومعنى الآية أنهم قال:وا مجيبين لنبيهم: إنما كنا نزهد في الجهاد إذ كنا ممنوعين في بلادنا لا يظهر علينا عدونا فأما إذا بلغ ذلك منا فنطيع ربنا في الجهاد ونمنع نساءنا واولا:دنا.

قال: الله تعالى إلى: (فلما كتب عليهم القتال تولوا) أعرضوا عن الجهاد وضيعوا أمر الله (إلا قليلا منهم) الذين عبروا النهر مع طالوت واقتصروا على الغرفة على ما سيأتي إن شاء الله تعالى إلى (والله عليم بالظالمين).

وَقال: لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قال:وا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قال: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : (وَقال: لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا)، وَذَلِكَ أَنَّ إِشْمَوِيلَ سَأَلَ اللهَ تعالى إلى أَنْ يَبْعَثَ لَهُمْ مَلِكًا فَأَتَى بِعَصَا وَقَرْنٍ فِيهِ دُهْنُ الْقُدْسِ، وَقِيلَ لَهُ: إِنَّ صَاحِبَكُمُ الَّذِي يَكُونُ طُولُهُ طُولُ هَذِهِ الْعَصَا، وَانْظُرْ هَذَا الْقَرْنَ الَّذِي فِيهِ الدُّهْنُ،

فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْكَ رَجُلٌ فَنَشَّ الدُّهْنُ الَّذِي فِي الْقَرْنِ فَهُوَ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَادَّهِنْ بِهِ رَأْسَهُ وَمَلِّكْهُ عَلَيْهِمْ،

وَكَانَ طَالُوتُ اسْمُهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ شَاوِلُ بْنُ قَيْسٍ مِنْ اولاد بِنْيَامِينَ بْنِ يَعْقُوبَ، سُمِّيَ طَالُوتَ لِطُولِهِ، وَكَانَ أَطْوَلَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ بِرَأْسِهِ وَمَنْكِبَيْهِ، وَكَانَ رَجُلًا دَبَّاغًا يَعْمَلُ الْأَدِيمَ، قال:هُ وَهْبٌ، وَقال: السُّدِّيُّ: كَانَ رَجُلًا سَقَّاءً يَسْقِي عَلَى حِمَارٍ لَهُ مِنَ النِّيلِ، فَضَلَّ حِمَارُهُ فخرج في طلبه، وَقال: وَهْبٌ: بَلْ ضَلَّتْ حُمُرٌ لِأَبِي طَالُوتَ فَأَرْسَلَهُ وَغُلَامًا لَهُ في طلبها فمرّا ببيت أشمويل عليه السلام، فَقال: الْغُلَامُ لِطَالُوتَ: لَوْ دَخَلْنَا عَلَى هَذَا النَّبِيِّ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ الْحُمُرِ لِيُرْشِدَنَا وَيَدْعُوَ لَنَا لكان حسنًا، فَدَخَلَا عَلَيْهِ فَبَيْنَمَا هُمَا عِنْدَهُ يذكران له شأن دابتهما؛ إِذْ نَشَّ الدُّهْنُ الَّذِي فِي الْقَرْنِ، فَقَامَ إِشْمَوِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَاسَ طَالُوتَ بِالْعَصَا فَكَانَتْ طُولَهُ، فَقال: لِطَالُوتَ: قَرِّبْ رَأْسَكَ فَقَرَّبَهُ فَدَهَنَهُ بِدُهْنِ الْقُدْسِ، ثُمَّ قال: لَهُ: أَنْتَ مَلِكُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي أَمَرَنِي اللَّه تعالى إِلى أَنْ أملكك عليهم، فقال: طالوت له: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ سِبْطِي أَدْنَى أَسْبَاطِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَيْتِي أَدْنَى بُيُوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قال:بَلَى، قال:فَبِأَيِّ آيَةٍ؟

قال:بِآيَةِ أَنَّكَ تَرْجِعُ وَقَدْ وَجَدَ أَبُوكَ حُمُرَهُ، فَكَانَ كَذَلِكَ، ثُمَّ قال: لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا، قال:وا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا، أَيْ: مِنْ أَيْنَ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا؟ وَنَحْنُ أَحَقُّ: أَوْلَى بِالْمُلْكِ مِنْهُ؟ وَإِنَّمَا قال:وا ذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ سبطان، سبط النبوّة وسبط المملكة، فَكَانَ سِبْطُ النُّبُوَّةِ سِبْطَ لَاوِي بْنِ يَعْقُوبَ، وَمِنْهُ كَانَ مُوسَى وهارون عليهما السلام، وَسِبْطُ الْمَمْلَكَةِ سِبْطُ يَهُوذَا بْنِ يَعْقُوبَ، وَمِنْهُ كَانَ دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ عليهما السلام، وَلَمْ يَكُنْ طَالُوتُ مِنْ أَحَدِهِمَا، وإنما كَانَ مِنْ سِبْطِ بِنْيَامِينَ بْنِ يَعْقُوبَ، وَكَانُوا عَمِلُوا ذَنْبًا عَظِيمًا، كانوا ينكحون النساء على ظَهْرِ الطَّرِيقِ نَهَارًا، فَغَضِبَ اللَّه تعالى إِلى عَلَيْهِمْ وَنَزَعَ الْمُلْكَ وَالنُّبُوَّةَ عنهم، وكانوا يسمّون سِبْطَ الْإِثْمِ، فَلَمَّا قال: لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ذَلِكَ، أَنْكَرُوا عَلَيْهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ سِبْطِ الْمَمْلَكَةِ عندهم، وَمَعَ ذَلِكَ قالوا: هُوَ فَقِيرٌ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قال: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ: اخْتَارَهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً: فَضِيلَةً وَسَعَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي وَقْتِهِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَتَاهُ الْوَحْيُ حِينَ أُوتِيَ الْمُلْكَ، وَقال: الْكَلْبِيُّ: وَزادَهُ بَسْطَةً فَضِيلَةً وَسَعَةً فِي الْعِلْمِ بِالْحَرْبِ، وَفِي الْجِسْمِ بِالطُّولِ، وَقِيلَ: الْجِسْمُ بِالْجَمَالِ، وَكَانَ طَالُوتُ أَجْمَلَ رَجُلٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ في وقته وَأَعْلَمَهُمْ، وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ، قِيلَ: الْوَاسِعُ ذُو السَّعَةِ وَهُوَ الَّذِي

يُعْطِي عَنْ غِنًى، وَالْعَلِيمُ الْعَالِمُ، وَقِيلَ: الْعَالِمُ بِمَا كَانَ، وَالْعَلِيمُ بِمَا يَكُونُ، فَقال:وا لَـهُ: فَمَـا آيَةُ مُلْكِهِ فَقال: لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التابوت).

وَقال: لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَـكِينَةٌ مِـنْ رَبِّكُـمْ وَبَقِيَّـةٌ مِمَّـا تَـرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : فَذَلِكَ قولـه تعـالى: (وَقـال: لَهُـمْ نَبِـيُّهُمْ إِنَّ آيَـةَ مُلْكِـهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ)، وَكَانَتْ قِصَّـةُ التَّـابُوتِ أَنَّ الله تعـالى إلى أَنْـزَلَ تَابُوتًـا عَـلَى آدَمَ فِيـهِ صُـورَةُ الْأَنْبِيَـاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَكَانَ مِنْ عُودِ الشِّمْشَاذِ نَحْوًا مِـنْ ثَلَاثَـةِ أَذْرُعٍ فِي ذِرَاعَـيْنِ، فَكَـانَ عِنْـدَ آدَمَ إلى أَنْ مَاتَ، ثُمَّ بَعْدَ ذلك عند شيث، ثم توارثه اولاد آدَمَ إلى أَنْ بَلَغَ إِبْـرَاهِيمَ، ثُـمَّ كَـانَ عِنْـدَ إِسْـمَاعِيلَ لِأَنَّـهُ كَانَ أَكْبَرَ وَلَدِهِ، ثُمَّ عِنْدَ يَعْقُوبَ ثُمَّ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ إلى أَنْ وَصَـلَ إلى مُـوسَى، فَكَـانَ مُـوسَى يَضَعُ فِيهِ التَّوْرَاةَ، وَمَتَاعًا مِنْ مَتَاعِهِ، فَكَانَ عِنْدَهُ إلى أَنْ مَاتَ موسى عليه السلام، ثم تداوله أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ إلى وَقْتِ إشمويل، وكان فيه ما ذِكْرُ الله تعالى إلى: فِيهِ سَـكِينَةٌ مِـنْ رَبِّكُـمْ، اخْتَلَفُـوا فِي السَّكِينَةِ مَا هِيَ؟ قال: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رِيحٌ خَجُوجٌ هَفَّافَةٌ لَهَـا رَأْسَـانِ، وَوَجْـهٌ كَوَجْهِ الْإِنْسَانِ، وَعَنْ مُجَاهِـدٍ: شَيْءٌ يُشْـبِهُ الْهِـرَّةَ لَـهُ رَأْسٌ كَـرَأْسِ الْهِـرَّةِ وَذَنَـبٌ كَـذَنَبِ الْهِـرَّةِ وَلَـهُ جَنَاحَانِ، وَقِيلَ: لَهُ عَيْنَانِ لَهُمَا شُعَاعٌ وَجَنَاحَانِ مِـنْ زُمُـرُّدٍ وَزَبَرْجَـدٍ فَكَـانُوا إِذَا سَـمِعُوا صَـوْتَهُ تيقّنـوا بالنصرة، وَكَانُوا إِذَا خَرَجُوا وَضَعُوا التَّابُوتَ قُدَّامَهُمْ، فَإِذَا سَارَ سَارُوا، وَإِذَا وَقَـفَ وَقَفُـوا، وَعَـنِ ابْـنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:هِيَ طَسْتٌ مِنْ ذَهَبٍ مِنَ الْجَنَّةِ، كَانَ يَغْسِلُ فِيهِ قُلُوبَ الْأَنْبِيَاءِ علـيهم السلام، وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قال:هي روح من الله تتكلم إِذَا اخْتَلَفُـوا فِـي شَيْءٍ تُخْـبِرُهُمْ بِبَيَـانِ مَـا يُرِيدُونَ،

وَقَالَ: عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: هِيَ مَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْآيَاتِ فَيَسْكُنُونَ إِلَيْهَا، وقال: قتادة والكلبي:السكينة فعلية مِنَ السُّكُونِ أَيْ: طُمَأْنِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، فَفِي أَيِّ مَكَانٍ كَانَ التَّابُوتُ اطْمَأَنُّوا إِلَيْهِ وَسَكَنُوا، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَآلُ هارُونَ، يَعْنِي: مُوسَى وَهَارُونَ أَنْفُسَهُمَا، كَانَ فِيهِ لَوْحَانِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَرُضَاضِ الْأَلْوَاحِ الَّتِي تَكَسَّرَتْ، وَكَانَ فِيهِ عَصَا مُوسَى وَنَعْلَاهُ، وَعِمَامَةُ هَارُونَ وَعَصَاهُ، وَقَفِيزٌ مِنَ الْمَنِّ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَكَانَ التَّابُوتُ عِنْدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانُوا إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ تَكَلَّمَ وَحَكَمَ بَيْنَهُمْ، وَإِذَا حَضَرُوا الْقِتَالَ قَدَّمُوهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَيَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَلَمَّا عصوا وأفسدوا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْعَمَالِقَةَ فَغَلَبُوهُمْ عَلَى التَّابُوت

وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لِعَيْلَى الْعَالِمِ الَّذِي رَبَّى إِشْمَوِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْنَانِ شَابَّانِ وَكَانَ عَيْلَى حَبْرَهُمْ وَصَاحِبَ قُرْبَانِهِمْ، فَأَحْدَثَ ابْنَاهُ فِي الْقُرْبَانِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لِعَيْلَى مَنُوطُ الْقُرْبَانِ الَّذِي كَانُوا يَتُوطُونَهُ بِهِ كُلَّابَيْنِ، فَمَا أَخْرَجَا كَانَ لِلْكَاهِنِ الَّذِي يَتُوطُهُ فَجَعَلَ ابْنَاهُ كَلَالِيبَ، وَكَانَ النِّسَاءُ يُصَلِّينَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَيَتَشَبَّثَانِ بِهِنَّ، فَأَوْحَى اللَّه تعالى إلى إِشْمَوِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ انْطَلِقْ إلى عَيْلَى فَقُلْ لَهُ: مَنَعَكَ حُبُّ الْوَلَدِ مِنْ أَنْ تَزْجُرَ ابْنَيْكَ عَنْ أَنْ يُحْدِثَا في قرباني وقدسي شيئا، وَأَنْ يَعْصِيَانِي فَلَأَنْزِعَنَّ الْكَهَانَةَ مِنْكَ ومن ولدك ولأهلكنّك وإياهما، فَأَخْبَرَ إِشْمَوِيلُ عَيْلَى بِذَلِكَ فَفَزِعَ فَزَعًا شَدِيدًا، فَسَارَ إِلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِمَّنْ حَوْلَهُمْ فَأَمَرَ ابْنَيْهِ أَنْ يَخْرُجَا بِالنَّاسِ فَيُقَاتِلَا ذَلِكَ الْعَدُوَّ، فَخَرَجَا وَأَخْرَجَا مَعَهُمَا التَّابُوتَ فَلَمَّا تهيّؤوا لِلْقِتَالِ جَعَلَ عَيْلَى يَتَوَقَّعُ الْخَبَرَ مَاذَا صَنَعُوا، فَجَاءَهُ رَجُلٌ وَهُوَ جالس على كرسيه فقال:أَنَّ النَّاسَ قَدِ انْهَزَمُوا وَأَنَّ ابْنَيْكَ قَدْ قُتِلَا، قال:فَمَا فَعَلَ التَّابُوتُ؟

قال:ذَهَبَ بِهِ الْعَدُوُّ فَشَهِقَ وَوَقَعَ عَلَى قَفَاهُ من كرسيه ومات، فخرج أَمْرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَفَرَّقُوا إلى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ طَالُوتَ مَلِكًا، فسألوا الْبَيِّنَةَ فَقال: لَهُمْ نَبِيُّهُمْ: إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ، وَكَانَتْ قِصَّةُ التَّابُوتِ أَنَّ الَّذِينَ سَبَوُا التَّابُوتَ أَتَوْا بِهِ قَرْيَةً مِنْ قُرَى فِلَسْطِينَ يُقال: لَهَا ازْدَوَدُ، وَجَعَلُوهُ فِي بَيْتِ صَنَمٍ لَهُمْ وَوَضَعُوهُ تَحْتَ الصَّنَمِ الْأَعْظَمِ فَأَصْبَحُوا مِنَ الْغَدِ وَالصَّنَمُ تَحْتَهُ فَأَخَذُوهُ وَوَضَعُوهُ فَوْقَهُ وَسَمَّرُوا قَدَمِي الصَّنَمِ عَلَى التَّابُوتِ فَأَصْبَحُوا وَقَدْ قُطِعَتْ يَدُ الصَّنَمِ وَرِجْلَاهُ، وَأَصْبَحَ مُلْقًى تَحْتَ التَّابُوتِ، وَأَصْبَحَتْ أَصْنَامُهُمْ مُنَكَّسَةً فَأَخْرَجُوهُ مِنْ بَيْتِ الصَّنَمِ وَوَضَعُوهُ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ مَدِينَتِهِمْ، فَأَخَذَ أَهْلَ تِلْكَ النَّاحِيَةِ وَجَعٌ فِي أَعْنَاقِهِمْ حَتَّى هَلَكَ أَكْثَرُهُمْ، فَقال: بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ إِلَهَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يَقُومُ لَهُ شَيْءٌ فَأَخْرِجُوهُ إلى قَرْيَةِ كَذَا، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَى أَهْلِ تِلْكَ الْقَرْيَةِ فَأْرًا فَكَانَتِ الْفَأْرَةُ تَبِيتُ مَعَ الرَّجُلِ منهم، فيصبح ميتا وقد أَكَلَتْ مَا فِي جَوْفِهِ، فَأَخْرَجُوهُ إلى الصَّحْرَاءِ فَدَفَنُوهُ فِي مَخْرَأَةٍ لَهُمْ،

فَكَانَ كُلُّ مَنْ تَبَرَّزَ بها أخذه الباسور والقولنج فتحيّروا في أمرهم وفي الأماكن لهم التابوت، فَقال:تْ لَهُمُ امْرَأَةٌ كَانَتْ عِنْدَهُمْ مِنْ سَبْيِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ اولاد:دِ الْأَنْبِيَاءِ: لَا تَزَالُونَ تَرَوْنَ مَا تَكْرَهُونَ مَا دَامَ هَذَا التَّابُوتُ فِيكُمْ فَأَخْرِجُوهُ عَنْكُمْ، فَأَتَوْا بِعَجَلَةٍ، بِإِشَارَةِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ، وَحَمَلُوا عَلَيْهَا التَّابُوتَ، ثُمَّ عَلَّقُوهَا عَلَى ثَوْرَيْنِ وَضَرَبُوا جَنُوبَهُمَا، فَأَقْبَلَ الثَّوْرَانِ يَسِيرَانِ، وَوَكَّلَ اللَّه تعالى إلى بِهِمَا أَرْبَعَةً مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَسُوقُونَهُمَا، فَأَقْبَلَا حَتَّى وَقَفَا عَلَى أَرْضِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَكَسَرَا نَيْرَيْهِمَا وَقَطَعَا

حِبَالَهُمَا وَوَضَعَا التَّابُوتَ فِي أَرْضٍ فِيهَا حصاد لبني إِسْرَائِيلَ وَرَجَعَا إلى أَرْضِهِمَا، فَلَمْ يُرَعْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا بِالتَّابُوتِ، فَكَبَّرُوا وَحَمِدُوا اللَّهَ،

فَذَلِكَ قوله تعالى: (تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ)، أَيْ: تَسُوقُهُ، وَقال: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: جَاءَتِ الْمَلَائِكَةُ بِالتَّابُوتِ تَحْمِلُهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ حَتَّى وَضَعَتْهُ عِنْدَ طَالُوتَ، وَقال: الْحَسَنُ: كَانَ التَّابُوتُ مَعَ الملائكة، فِي السَّمَاءِ فَلَمَّا وَلِيَ طَالُوتُ الملك حملته الملائكة وضعته بَيْنَهُمْ، وَقال: قَتَادَةُ: بَلْ كَانَ التَّابُوتُ فِي التِّيهِ خَلَّفَهُ مُوسَى عبد يُوشَعَ بْنِ نُونٍ فَبَقِيَ هُنَاكَ، فَحَمَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ حَتَّى وَضَعَتْهُ فِي دَارِ طَالُوتَ فَأَقَرُّوا بِمُلْكِهِ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً: لَعِبْرَةً، لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قال: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قال:وا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قال: الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ)، أَيْ: خَرَجَ بِهِمْ، وَأَصْلُ الْفَصْلِ: الْقَطْعُ، يَعْنِي: قَطَعَ مُسْتَقَرَّهُ شَاخِصًا إلى غَيْرِهِ، فَخَرَجَ طَالُوتُ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِالْجُنُودِ وَهُمْ يَوْمَئِذٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مُقَاتِلٍ، وَقِيلَ: ثَمَانُونَ أَلْفًا لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْهُ إِلَّا كَبِيرٌ لِهَرَمِهِ أَوْ مَرِيضٌ لِمَرَضِهِ، أَوْ مَعْذُورٌ لِعُذْرِهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوُا التَّابُوتَ لَمْ يَشُكُّوا فِي النَّصْرِ فَتَسَارَعُوا إلى الْجِهَادِ،

فَقال: طَالُوتُ: لَا حَاجَةَ لِي فِي كل ما أرى من القوم، لا يخرج معي رجل يبني بِنَاءً لَمْ يَفْرَغْ مِنْهُ، وَلَا صَاحِبُ تِجَارَةٍ يَشْتَغِلُ بِهَا، وَلَا رَجُلٌ عَلَيْهِ دَيْنٌ وَلَا رَجُلٌ تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَلَمْ يَبْنِ بِهَا، ولا يتبعني إلا الشاب النَّشِيطَ الْفَارِغَ، فَاجْتَمَعَ لَهُ ثَمَانُونَ ألفا من شَرَطَهُ، وَكَانَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ فَشَكَوْا قِلَّةَ الْمَاءِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ، فَقالوا: إِنَّ الْمِيَاهَ قَلِيلَةٌ لَا تَحْمِلُنَا فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْرِيَ لَنَا نَهْرًا، قال: طَالُوتُ: إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ: مُخْتَبِرُكُمْ لِيَرَى طَاعَتَكُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ، بِنَهَرٍ، قال: ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ: هُوَ نَهْرُ فِلَسْطِينَ، وَقال: قَتَادَةُ: نَهْرٌ بَيْنَ الْأُرْدُنِ وَفِلَسْطِينَ عَذْبٌ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي، أي: مِنْ أَهْلِ دِينِي وَطَاعَتِي، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ: لم يَشْرَبْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ،

قَرَأَ أَهْلُ الْحِجَازِ وَأَبُو عَمْرٍو غُرْفَةً بِفَتْحِ الغين، وقرأ الآخرون بالضم وَهُمَا لُغَتَانِ، قال: الْكِسَائِيُّ: الْغُرْفَةُ بِالضَّمِّ الَّذِي يَحْصُلُ فِي الْكَفِّ مِنَ الْمَاءِ إِذَا غُرِفَ، وَالْغَرْفَةُ بِالْفَتْحِ: الِاغْتِرَافُ، فَالضَّمُّ اسْمٌ وَالْفَتْحُ مَصْدَرٌ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ، نُصِبَ عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ، وَاخْتَلَفُوا فِي الْقَلِيلِ الَّذِينَ لَمْ يَشْرَبُوا من النهر، فَقال: السِّدِّيُّ: كَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ، وَقال: غَيْرُهُ: ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ- وهو الصحيح

، لِمَا أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النُّعِيمِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَجَاءٍ أَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ قال:كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَتَحَدَّثُ أَنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ بَدْرٍ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الذين جاوزوا معه النَّهْرَ وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ إِلَّا مؤمن وهم بضعة عشر- وثلاثمائة، وروي: ثَلَاثِمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلى النَّهْرِ وَقَدْ أُلْقِيَ عَلَيْهِمُ الْعَطَشُ، فَشَرِبَ مِنْهُ الْكُلُّ إِلَّا هَذَا الْعَدَدَ الْقَلِيلَ فَمَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً كَمَا أَمَرَ اللَّهُ قَوِيَ قَلْبُهُ وَصَحَّ إِيمَانُهُ، وَعَبَرَ النَّهْرَ سَالِمًا وَكَفَتْهُ تِلْكَ الْغُرْفَةُ الْوَاحِدَةُ لِشُرْبِهِ وَحَمْلِهِ وَدَوَابَّهُ، وَالَّذِينَ شَرِبُوا وَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ اسْوَدَّتْ شِفَاهُهُمْ وَغَلَبَهُمُ الْعَطَشُ، فَلَمْ يَرْوُوا وَبَقُوا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ وَجَبُنُوا عَنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، فَلَمْ يُجَاوِزُوا وَلَمْ يَشْهَدُوا الْفَتْحَ، وَقِيلَ: كُلُّهُمْ جَاوَزُوا وَلَكِنْ لَمْ يَحْضُرِ الْقِتَالَ إِلَّا القليل الَّذِينَ لَمْ يَشْرَبُوا، (فَلَمَّا جاوَزَهُ)، يَعْنِي: النَّهْرَ هُوَ، يَعْنِي: طَالُوتَ، (وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ)، يَعْنِي: الْقَلِيلَ، (قال:وا)، يَعْنِي: الَّذِينَ شَرِبُوا وَخَالَفُوا أَمْرَ اللَّهِ وَكَانُوا أَهْلَ شَكٍّ وَنِفَاقٍ،(لَا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ)، قال: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالسُّدِّيُّ: فَانْحَرَفُوا وَلَمْ يُجَاوِزُوا، (قال: الَّذِينَ يَظُنُّونَ): يستيقنون (أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ)، وهم الَّذِينَ ثَبَتُوا مَعَ طَالُوتَ، كَمْ مِنْ فِئَةٍ: جماعة، وهو جَمْعٌ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لفظه، وجمعه فئات وفؤون فِي الرَّفْعِ، وَفِئِينَ فِي الْخَفْضِ وَالنَّصْبِ، (قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ): بقضائه وقدره وَإِرَادَتِهِ، (وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ): بِالنَّصْرِ والمعونة.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قال:وا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

تفسير قوله تعالى: (فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ)

(فهزموهم بإذن الله) في الهزيمة قولان: أحدهما: أنها ليست من فعلهم وإنما أضيفت إليهم مجازا. والثاني: أنهم لما ألجئوا إليها صاروا سببا لها، فأضيفت إليهم لمكان الإلجاء. ويحتمل قوله: بإذن الله وجهين: أحدهما: بأمر الله لهم بقتالهم.

الثاني: بمعونة الله لهم على قتالهم. وقتل داود جالوت حكي أن جالوت خرج من صفوف عسكره يطلب امبارزة؟ فلم يخرج إليه أحد، فنادى طالوت في عسكره: من قتل جالوت فله شطر ملكي وأزوجه ابنتي، فجاء داود وقد أخذ ثلاثة أحجار، وكان قصيرا يرعى الغنم، وقد ألقى الله في نفسه أنه سيقتل جالوت، فقال: لطالوت: أنا أقتل جالوت، فازدراه طالوت حين رآه، وقال: له: هل جربت نفسك بشيء؟ قال:نعم، قال:بماذا؟ قال:وقع ذئب في غنمي فضربته، ثم أخذت رأسه فقطعته في جسمه، فقال: طالوت: الذئب ضعيف، فهل جربت نفسك في غيره؟ قال:نعم، دخل الأسد في غنمي، فضربته ثم أخذت بلحييه فشققتها، أفترى هذا أشد من الأسد، قال:لا، وكان عند طالوت درع سابغة لا تستوي إلا على من يقتل جالوت، فأخبره بها وألقاها عليه فاستوت، وسار إلى جالوت فرماه بحجر فوقع بين عينيه وخرج من قفاه، فأصاب جماعة من عسكره فقتلهم وانهزم القوم عن آخرهم، وكانوا على ما حكاه عكرمة تسعين ألفا. واختلفوا، هل كان داود عند قتله جالوت نبيا؟ ذهب بعضهم أنه كان نبيا، لأن هذا الفعل الخارج عن العادة، لا يكون إلا من نبي، وقال: الحسن: لم يكن نبيا، لأنه لا يجوز أن يولى من ليس بنبي على نبي. قال: ابن السائب: وإنما كان [ص: ٣٢٠]

راعيا فعلى هذا يكون ذلك من توطئة لنبوته من بعد. ثم إن طالوت ندم على ما بذله لداود من مشاطرته ملكه وتزويجه ابنته، واختلفوا هل كان ندمه قبل تزويجه ومشاطرته، أم بعد، على قولين: أحدهما: أن طالوت وفى بشرطه، وزوج داود بابنته، وخلطه في ملكه بنفسه ثم حسده، فندم، وأراد قتله، فعلمت بنته بأنه يريد قتل زوجها، وكانت من أعقل النساء، فنصبت له زق خمر بالمسك، وألقت عليه

ليلا ثياب داود، فأقبل طالوت، وقال: لها: أين زوجك؟ فأشارت إلى الزق، فضربه بالسيف، فانفجر منه الخمر وسطع ريح المسك، فقال:يرحمك الله يا داود طبت حيا وميتا، ثم أدركته الندامة، فجعل ينوح عليه ويبكي، فلما نظرت الجارية إلى جزع أبيها، أخبرته الخبر، ففرح، وقاسم داود على شطر ملكه، وهذا قول الضحاك، فعلى هذا يكون طالوت على طاعته حين موته، لتوبته من معصيته. والقول الثاني: أنه ندم قبل تزويجه على شرطه وبذله، وعرض داود للقتل، وقال: له: إن بنات الملوك لا بد لهن من صداق أمثالهن، وأنت رجل جريء، فاجعل صداقها قتل ثلاثمائة من أعدائنا، وكان يرجو بذلك أن يقتل، فغزا داود وأسر ثلاثمائة، فلم يجد طالوت بدا من تزويجه، فزوجه بها، وزاد ندامة فأراد قتله، وكان يدس عليه حتى مات، وهذا قول وهب بن منبه، فعلى هذا مات طالوت على معصيته لأنه لم يتب من ذنبه. وروى مكحول، عن معاذ بن جبل قال:قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الملوك قد قطع الله أرحامهم فلا يتواصلون حبا للملك حتى إن الرجل منهم ليقتل الأب والابن والأخ والعم، إلا أهل التقوى وقليل ما هم، ولزوال جبل عن موضعه أهون من زوال ملك لم ينقض)

. وآتاه الله الملك والحكمة يعني داود، يريد بالملك السلطان وبالحكمة النبوة وكان ذلك عند موت طالوت بعد سبع سنين من قتل جالوت على ما حكاه ابن السائب. [ص: ٣٢١]

ويحتمل وجها ثانيا:: أن الملك الانقياد إلى طاعته، والحكمة: العدل في سيرته ويكون ذلك بعد موت طالوت عند تفرده بأمور بني إسرائيل. وعلمه مما يشاء فيه وجهان: أحدهما: صنعة الدروع والتقدير في السرد. والثاني: كلام الطير وحكمة الزبور. ويحتمل ثالثا:: أنه فعل الطاعات والأمر بها، واجتناب المعاصي والنهي عنها، فيكون على الوجه الأول مما يشاء داود، وعلى الثاني: مما يشاء الله، وعلى الثالث مما يشاء الله ويشاء داود. ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض في الدفع قولان: أحدهما: أن الله يدفع الهلاك عن البر بالفاجر، قال:ه علي كرم الله وجهه. والثاني: يدفع بالمجاهدين عن القاعدين قال:ه ابن عباس. وقوله تعالى: لفسدت الأرض فيه وجهان: أحدهما: لفسد أهل الأرض. والثاني: لعم الفساد في الأرض. وفي هذا الفساد وجهان: أحدهما: الكفر. والثاني: القتل.

معنى قوله تعالى: (تلك الرسل)

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)

♦ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي: (تلك الرسل) أَيْ: جماعة الرُّسل (فضلنا بعضهم على بعض) أَيْ: لم نجعلهم سواءً في الفضيلة وإن استووا في القيام بالرِّسالة (منهم مَنْ كلَّم الله) وهو موسى عليه السَّلام (ورفع بعضهم درجات) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم أُرسل إلى النَّاس كافَّةً (وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القدس) مضى تفسيره (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بعدهم) أَيْ: من بعد الرُّسل (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البينات) من بعد ما وضحت لهم البراهين (وَلَكِنِ اختلفوا فمنهم مَنْ آمن) ثبت على إيمانه (ومنهم مَنْ كفر) كالنَّصارى بعد المسيح اختلفوا فصاروا فِرقًا ثمَّ تحاربوا (ولو شاء الله ما اقتتلوا) كرَّر ذكر المشيئة باقتتالهم تكذيبًا لمن زعم أنَّهم فعلوا ذلك من عند أنفسهم لم يجري به قضاءٌ من الله (ولكنَّ الله يفعل ما يريد) فيوفِّقُ مَنْ يشاء فضلًا ويخذل من يشاء عدلًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

قال: أبو جعفر: يعني -تعالى إلى ذكره - بذلك: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا في سبيل الله مما رزقناكم من أموالكم، وتصدقوا منها، وآتوا منها الحقوق التي فرضناها عليكم. وكذلك كان ابن جريج يقول فيما بلغنا عنه:

٥٧٦٠ - حدثنا القاسم قال:حدثنا الحسين قال:حدثني حجاج، عن ابن جريج قوله:" يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم" قال:من الزكاة والتطوع.

" من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة" يقول: ادخروا لأنفسكم عند الله في دنياكم من أموالكم بالنفقة منها في سبيل الله والصدقة على أهل المسكنة والحاجة، وإيتاء ما فرض الله عليكم فيها، وابتاعوا بها ما عنده مما أعده لأوليائه من الكرامة بتقديم ذلك لأنفسكم، ما دام لكم السبيل إلى ابتياعه، بما ندبتكم إليه، وأمرتكم به من النفقة من أموالكم" من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه" يعني من قبل مجيء يوم لا بيع فيه، يقول: لا تقدرون فيه على ابتياع ما كنتم على ابتياعه - بالنفقة من أموالكم التي رزقتكموها بما أمرتكم به أو ندبتكم إليه - في الدنيا قادرين ؛ لأنه يوم جزاء وثواب وعقاب، لا يوم عمل واكتساب وطاعة ومعصية، فيكون لكم إلى ابتياع منازل أهل الكرامة بالنفقة حينئذ أو [ص: ٣٨٣] بالعمل بطاعة الله سبيل.

ثم أعلمهم -تعالى إلى ذكره - أن ذلك اليوم - مع ارتفاع العمل الذي ينال به رضا الله أو الوصول إلى كرامته بالنفقة من الأموال إذ كان لا مال هنالك يمكن إدراك ذلك به - يوم لا مخالة فيه نافعة كما كانت في الدنيا، فإن خليل الرجل في الدنيا قد كان ينفعه فيها بالنصرة له على من حاوله بمكروه وأراده بسوء، والمظاهرة له على ذلك. فآيسهم -تعالى إلى ذكره - أيضا من ذلك ؛ لأنه لا أحد يوم القيامة ينصر أحدا من الله، بل (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) كما قال: الله -تعالى إلى ذكره - وأخبرهم - أيضا - أنهم يومئذ - مع فقدهم السبيل إلى ابتياع ما كان لهم إلى ابتياعه سبيل في الدنيا بالنفقة من أموالهم، والعمل بأبدانهم، وعدمهم النصراء من الخلان، والظهراء من الإخوان - لا شافع لهم يشفع عند الله كما كان ذلك لهم في الدنيا، فقد كان بعضهم يشفع في الدنيا لبعض بالقرابة والجوار والخلة، وغير ذلك من

الأسباب، فبطل ذلك كله يومئذ، كما أخبر -تعالى إلى ذكره - عن قيل أعدائه من أهل الجحيم في الآخرة إذا صاروا فيها: (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١]

وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عام والمراد بها خاص، وإنما معناه:" من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة" لأهل الكفر بالله ؛ لأن أهل [ص: ٣٨٤] ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض. وقد بينا صحة ذلك بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وكان قتادة يقول في ذلك بما: -

٥٧٦١ - حدثنا به بشر قال:حدثنا يزيد قال:حدثنا سعيد، عن قتادة في قوله:" يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة" قد علم الله أن ناسا يتحابون في الدنيا، ويشفع بعضهم لبعض، فأما يوم القيامة فلا خلة إلا خلة المتقين.

وأما قوله:" والكافرون هم الظالمون" فإنه يعني -تعالى إلى ذكره - بذلك: والجاحدون لله المكذبون به وبرسله" هم الظالمون" يقول: هم الواضعون جحودهم في غير موضعه، والفاعلون غير ما لهم فعله، والقائلون ما ليس لهم قوله.

وقد دللنا على معنى" الظلم" بشواهده فيما مضى قبل بما أغنى عن إعادته.

قال: أبو جعفر: وفي قوله -تعالى إلى ذكره - في هذا الموضع:" والكافرون هم الظالمون" دلالة واضحة على صحة ما قلناه، وأن قوله:" ولا خلة ولا شفاعة" إنما هو مراد به أهل الكفر، فلذلك أتبع قوله ذلك:" والكافرون هم الظالمون" . فدل بذلك على أن معنى ذلك: حرمنا الكفار النصرة من الأخلاء، والشفاعة من الأولياء والأقرباء، ولم نكن لهم في فعلنا ذلك بهم ظالمين، إذ كان ذلك جزاء منا لما سلف منهم من الكفر بالله في الدنيا، بل الكافرون هم الظالمون أنفسهم بما أتوا من الأفعال التي أوجبوا لها العقوبة من ربهم. [ص: ٣٨٥]

كيف صرف الوعيد إلى الكفار، والآية مبتدأة بذكر أهل الإيمان؟

قيل له: إن الآية قد تقدمها ذكر صنفين من الناس: أحدهما أهل كفر، والآخر أهل إيمان، وذلك قوله:" ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر" . ثم عقب الله -تعالى إلى ذكره - الصنفين بما ذكرهم به بحض أهل الإيمان به على ما يقربهم إليه من النفقة في طاعته وفي جهاد أعدائه من أهل الكفر به، قبل مجيء اليوم الذي وصف صفته. وأخبر فيه عن حال أعدائه

من أهل الكفر به، إذ كان قتال أهل الكفر به في معصيته، ونفقتهم في الصد عن سبيله، فقال: -تعالى إلى ذكره -: يا أيها الذين آمنوا أنفقوا أنتم مما رزقناكم في طاعتي، إذ كان أهل الكفر بي ينفقون في معصيتي من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه فيدرك أهل الكفر فيه ابتياع ما فرطوا في ابتياعه في دنياهم ولا خلة لهم يومئذ تنصرهم مني، ولا شافع لهم يشفع عندي فتنجيهم شفاعته لهم من عقابي. وهذا يومئذ فعلي بهم جزاء لهم على كفرهم، وهم الظالمون أنفسهم دوني ؛ لأني غير ظلام لعبيدي. وقد: -

٥٧٦٢ - حدثني محمد بن عبد الرحيم قال:حدثني عمرو بن أبي سلمة قال:سمعت عمر بن سليمان يحدث عن عطاء بن دينار أنه قال:الحمد لله الذي قال:"والكافرون هم الظالمون" ولم يقل:" الظالمون هم الكافرون" .

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

قوله عز وجل: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أخبرنا أبو منصور محمد بن سمعان أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن عبد الجبار الرياني أنا حميد بن زنجويه أنا ابن أبي شيبة أنا عبد الأعلى عن الجريري عن أبي السليل عن عبد الله بن رباح الأنصاري عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال:قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم" أبا المنذر أي آية من كتاب الله أعظم؟" قلت (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) قال: فضرب في صدري ثم قال:"ليهنك العلم" ثم قال:"والذي نفس محمد بيده إن لهذه الآية لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش" .

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل قال: عثمان بن الهيثم أبو عمرو: أخبرنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة قال:فخليت سبيله [ص: ٣١١]

فأصبحت فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم" يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟" قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال:"أما إنه قد كذبك وسيعود" فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيعود فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:دعني فإني محتاج وعلي عيال ولا أعود، فرحمته فخليت سبيله فأصبحت فقال:لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يا أبا هريرة ما فعل أسيرك" قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال:"أما إنه قد كذبك وسيعود" فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات إنك تزعم لاتعالبود ثمتعالبود قال:دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت: ما هي؟ قال:إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال: لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال: ما هي؟ قلت: قال: لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وقال:لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص الناس على الخير فقال: النبي صلى الله عليه وسلم:" أما إنه قد صدقك وهو كذوبتعالبلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة" قلت: لا قال:" ذاك شيطان

أخبرنا عبد الواحد المليحي أخبرنا أبو منصور السمعاني أخبرنا أبو جعفر الرياني أخبرنا حميد بن زنجويه أخبرنا يحيى بن يحيى أخبرنا أبو معاوية، عن عبد الرحمن بن أبي بكر هو المليكي عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من قرأ حين يصبح آية الكرسي وآيتين من أول" حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم" (٢ - غافر) حفظ في يومه ذلك حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ في ليلته تلك حتى يصبح" . [ص: ٣١٢]

قوله تعالى: (الله) رفع بالابتداء وخبره في (لا إله إلا هو الحي) الباقي الدائم على الأبد وهو من له الحياة والحياة صفة الله تعالى إلى (القيوم) قرأ عمر وابن مسعود" القيام" وقرأ علقمة" القيم" وكلها لغات بمعنى واحد قال: مجاهد (القيوم) القائم على كل (شيء) وقال: الكلبي: القائم على كل نفس بما كسبت وقيل هو القائم بالأمور. وقال: أبو عبيدة: الذي لا يزول

معنى قوله تعالى: (لا تأخذه سنة ولا نوم)

السنة: النعاس وهو النوم الخفيف والوسنان بين النائم واليقظان يقال: منه وسن يسن- وسنا وسنة والنوم هو الثقيل المزيل للقوة والعقل قال: المفضل الضبي: السنة

في الرأس والنوم في القلب فالسنة أول النوم وهو النعاس وقيل: السنة في الرأس والنعاس في العين والنوم في القلب فهو غشية ثقيلة تقع على القلب تمنع المعرفة بالأشياء نفى الله تعالى إلى عن نفسه النوم لأنه آفة وهو منزه عن الآفات ولأنه تغير ولا يجوز عليه التغير.

أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشريحي أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي أخبرنا عبد الله بن حامد أخبرنا محمد بن جعفر أخبرنا علي بن حرب أخبرنا أبو معاوية أخبرنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى قال:قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال: "إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ولكنه يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" . ورواه المسعودي عن عمرو بن مرة وقال:حجابه النار.

(له ما في السماوات وما في الأرض) ملكا وخلقا (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) بأمره (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) قال: مجاهد وعطاء والسدي: (ما بين أيديهم) أمر الدنيا (وما

خلفهم) أمر الآخرة وقال: الكلبي: (ما بين أيديهم) يعني الآخرة لأنهم يقدمون عليها (وما خلفهم) الدنيا لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم وقال: ابن جريج: ما بين أيديهم ما مضى. أمامهم وما خلفهم ما يكون بعدهم وقال: مقاتل: ما بين أيديهم، ما كان قبل خلق الملائكة وما خلفهم أي ما كان بعد خلقهم وقيل: ما بين أيديهم أي ما قدموه من خير أو شر وما خلفهم ما هم فاعلوه (ولا يحيطون بشيء من علمه) أي من علم الله (إلا بما شاء) أن يطلعهم عليه يعني لا يحيطون بشيء من علم الغيب إلا بما شاء مما أخبر به الرسل كما قال: الله تعالى إلى: (فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى. من رسول) (٣٦ - الجن) قوله تعالى: (وسع كرسيه السماوات والأرض) أي ملأ وأحاط به واختلفوا في الكرسي فقال: الحسن: هو العرش نفسه [ص: ٣١٣] وقال: أبو هريرة رضي الله عنه: الكرسي موضوع أمام العرش ومعنى قوله:" وسع كرسيه السماوات والأرض" أي سعته مثل سعة السماوات والأرض وفي الأخبار أن السماوات والأرض في جنب الكرسي كحلقة في فلاة والكرسي في جنب العرش كحلقة في فلاة. ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس.

وقال: علي ومقاتل: كل قائمة من الكرسي طولها مثل السماوات السبع والأرضين السبع وهو بين يدي العرش ويحمل الكرسي أربعة أملاك لكل ملك أربعة وجوه وأقدامهم في الصخرة التي تحت الأرض السابعة السفلى مسيرة خمسمائة عام ملك على صورة سيد البشر. آدم عليه السلام وهو يسأل للآدميين الرزق والمطر من السنة إلى السنة وملك على صورة سيد الأنعام وهو الثور وهو يسأل للأنعام الرزق من السنة إلى السنة وعلى وجهه غضاضة منذ عبد العجل وملك على صورة سيد السباع وهو الأسد يسأل للسباع الرزق من السنة إلى السنة [وملك على صورة سيد الطير وهو النسر يسأل الرزق للطير من السنة إلى السنة] وفي بعض الأخبار أن ما بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجابا من ظلمة وسبعين حجابا من نور غلظ كل حجاب مسيرة خمسمائة عام لولا ذلك لاحترق حملة الكرسي من نور حملة العرش.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:أراد بالكرسي علمه وهو قول مجاهد ومنه قيل لصحيفة العلم كراسة وقيل: كرسيه ملكه وسلطانه والعرب تسمي الملك القديم كرسيا، (ولا يئوده) أي لا يثقله ولا يشق عليه يقال:آدني الشيء أي أثقلني (حفظهما) أي حفظ السماوات والأرض (وهو العلي) الرفيع فوق خلقه والمتعالي عن الأشياء والأنداد وقيل: العلي بالملك والسلطنة (العظيم) الكبير الذي لا شيء أعظم منه.

قوله تعالى: (لا إكراه في الدين) قال: سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت المرأة من الأنصار تكون مقلاة - (المقلاة من النساء) لا يعيش لها ولد - وكانت تنذر لئن عاش لها ولد لتهودنه [ص: ٣١٤] فإذا عاش ولدها جعلته في اليهود فجاء الإسلام وفيهم منهم فلما أجليت بنو النضير كان فيهم عدد من اولاد الأنصار فأرادت الأنصار استردادهم وقالوا: هم أبناؤنا وإخواننا فنزلت هذه الآية (لا إكراه في الدين) فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم" خيروا أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فأجلوهم معهم" .

وقال: مجاهد: كان ناس مسترضعين في اليهود من الأوس فلما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجلاء بني النضير قال: الذين كانوا مسترضعين فيهم: لنذهبن معهم ولندينن بدينهم فمنعهم أهلوهم فنزلت (لا إكراه في الدين).

وقال: مسروق: كان لرجل من الأنصار من بني سالم بن عوف ابنان فتنصرا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ثم قدما المدينة في نفر من النصارى يحملون الطعام فلزمهما أبوهما

وقال:لا أدعكما حتى تسلما فتخاصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر فأنزل الله تعالى إلى (لا إكراه في الدين) فخلى سبيلهما.

وقال: قتادة وعطاء: نزلت في أهل الكتاب إذا قبلوا الجزية وذلك أن العرب كانت أمة أمية لم يكن لهم كتاب فلم يقبل منهم إلا الإسلام فلما أسلموا طوعا أو كرها أنزل الله تعالى إلى: (لا إكراه في الدين) فأمر بقتال أهل الكتاب إلى أن يسلموا أو يقروا بالجزية فمن أعطى منهم الجزية لم يكره على الإسلام وقيل كان هذا في الابتداء قبل أن يؤمر بالقتال فصارت منسوخة بآية السيف وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه (قد تبين الرشد من الغي) أي الإيمان من

الكفر والحق من الباطل (فمن يكفر بالطاغوت) يعني الشيطان وقيل: كل ما عبد من دون الله تعالى إلى فهو طاغوت، وقيل كل ما يطغي الإنسان فاعول من الطغيان زيدت التاء فيه بدلا من لام الفعل كقولهم حانوت وتابوت فالتاء فيها مبدلة من هاء التأنيث (ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة) أي تمسك واعتصم بالعقد الوثيق المحكم في الدين والوثقى تأنيث الأوثق، وقيل العروة الوثقى السبب الذي يوصل إلى رضا الله تعالى إلى: (لا انفصام لها) لا انقطاع لها (والله سميع) قيل: لدعائك إياهم إلى الإسلام (عليم) بحرصك على إيمانهم.

معنى قوله تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

يقول تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

قوله تعالى: لا إكراه في الدين فيه مسألتان: الأولى: قوله تعالى: لا إكراه في الدين الدين في هذه الآية المعتقد والملة بقرينة قوله: قد تبين الرشد من الغي. والإكراه الذي في الأحكام من الإيمان والبيوع والهبات وغيرها ليس هذا موضعه، وإنما يجيء في تفسير قوله: إلا من أكره. وقرأ أبو عبد الرحمن" قد تبين الرشد من الغي" وكذا روي عن الحسن. والشعبي، يقال:رشد يرشد رشدا، ورشد يرشد رشدا: إذا بلغ ما يحب. وغوى ضده، عن النحاس. وحكى ابن عطية عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قرأ" الرشاد" بالألف. وروي عن الحسن أيضا" الرشد" بضم الراء والشين." الغي" مصدر من غوى يغوي إذا ضل في معتقد أو رأي، ولا يقال: الغي في الضلال على الإطلاق.

الثانية: اختلف العلماء في معنى هذه الآية على ستة أقوال:

(الأول) قيل إنها منسوخة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أكره العرب على دين الإسلام وقاتلهم ولم يرض منهم إلا بالإسلام، قال:ه سليمان بن موسى، قال:نسختها يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين. وروي هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين.

(الثاني) ليست بمنسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يكرهون على الإسلام إذا أدوا الجزية، والذين يكرهون أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام فهم الذين نزل فيهم يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين. هذا قول الشعبي وقتادة والحسن والضحاك. والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال:سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز [ص: ٢٥٦] نصرانية: أسلمي أيتها العجوز تسلمي، إن الله بعث محمدا بالحق. قال:ت: أنا عجوز كبيرة والموت إلي قريب! فقال: عمر: اللهم اشهد، وتلا لا إكراه في الدين.

(الثالث) ما رواه أبو داود عن ابن عباس قال:نزلت هذه في الأنصار، كانت تكون المرأة مقلاتا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله تعالى إلى: لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي. قال: أبو داود: والمقلات التي لا يعيش لها ولد. في رواية: إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنكرههم عليه فنزلت: لا إكراه في الدين من شاء التحق بهم ومن شاء دخل في الإسلام. وهذا قول سعيد بن جبير والشعبي ومجاهد إلا أنه قال:كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع. قال: النحاس: قول ابن عباس في هذه الآية أولى الأقوال لصحة إسناده، وأن مثله لا يؤخذ بالرأي.

(الرابع) قال: السدي: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال: له أبو حصين كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكيا أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يردهما فنزلت: لا إكراه في الدين ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب، وقال:(أبعدهما الله هما أول من كفر) فوجد أبو الحصين في نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم حين لم يبعث في طلبهما فأنزل الله جل ثناؤه فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم الآية ثم إنه نسخ لا إكراه في الدين فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة (براءة). والصحيح في سبب قوله تعالى: فلا وربك لا يؤمنون حديث الزبير مع جاره الأنصاري في السقي، على ما يأتي في (النساء) بيانه إن شاء الله تعالى إلى.

(وقيل) معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مجبرا مكرها، وهو القول الخامس.

(وقول سادس) وهو أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا إذا كانوا كبارا، وإن كانوا [ص: ٢٥٧] مجوسا صغارا أو كبارا أو وثنيين فإنهم يجبرون على الإسلام ؛ لأن من سباهم لا ينتفع بهم مع كونهم وثنيين، ألا ترى أنه لا تؤكل ذبائحهم ولا توطأ نساؤهم، ويدينون بأكل الميتة والنجاسات وغيرهما، ويستقذرهم المالك لهم ويتعذر عليه الانتفاع بهم من جهة الملك فجاز له الإجبار. ونحو هذا روى ابن القاسم عن مالك. وأما أشهب فإنه قال:هم على دين

من سباهم، فإذا امتنعوا أجبروا على الإسلام، والصغار لا دين لهم فلذلك أجبروا على الدخول في دين الإسلام لئلا يذهبوا إلى دين باطل. فأما سائر أنواع الكفر متى بذلوا الجزية لم نكرههم على الإسلام سواء كانوا عربا أم عجما قريشا أو غيرهم. وسيأتي بيان هذا وما للعلماء في الجزية ومن تقبل منه في (براءة) إن شاء الله تعالى إلى.

قوله تعالى: فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله جزم بالشرط. والطاغوت مؤنثة من طغى يطغى. - وحكى الطبري يطغو - إذا جاوز الحد بزيادة عليه. ووزنه فعلوت، ومذهب سيبويه أنه اسم مذكر مفرد كأنه اسم جنس يقع للقليل والكثير. ومذهب أبي علي أنه مصدر كرهبوت وجبروت، وهو يوصف به الواحد والجمع، وقلبت لامه إلى موضع العين وعينه موضع اللام كجبذ وجذب، فقلبت الواو ألفا لتحركها وتحرك ما قبلها فقيل طاغوت، واختار هذا القول النحاس. وقيل: أصل طاغوت في اللغة مأخوذة من الطغيان يؤدي معناه من غير اشتقاق، كما قيل: لآل من اللؤلؤ. وقال: المبرد: هو جمع. وقال: ابن عطية: وذلك مردود. قال: الجوهري: والطاغوت الكاهن والشيطان، وكله رأس في الضلال، وقد يكون واحدا، قال: الله تعالى إلى: يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به. وقد يكون جمعا، قال: الله تعالى إلى: أولياؤهم الطاغوت والجمع الطواغيت. (ويؤمن بالله) عطف. فقد استمسك بالعروة الوثقى جواب الشرط، وجمع الوثقى الوثق مثل الفضلى والفضل، فالوثقى فعلى من الوثاقة، وهذه الآية تشبيه. واختلفت عبارة المفسرين في الشيء المشبه به، فقال: مجاهد: العروة الإيمان. وقال: السدي: الإسلام. وقال: ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك، لا إله إلا الله، وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد. ثم قال:لا انفصام لها قال: مجاهد: أي لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، أي لا يزيل عنهم اسم الإيمان حتى يكفروا. والانفصام: الانكسار من غير بينونة. والقصم: كسر ببينونة، وفي صحيح الحديث فيفصم عنه الوحي وإن جبينه ليتفصد عرقا أي يقلع. قال: الجوهري: فصم الشيء كسره من غير أن يبين، تقول: [ص: ٢٥٨] فصمته فانفصم، قال: الله تعالى إلى: لا انفصام لها وتفصم مثله، قال:ه ذو الرمة يذكر غزالا يشبهه بدملج فضة:

كأنه دملج من فضة نبه في ملعب من جواري الحي مفصوم. وإنما جعله مفصوما لتثنيه وانحنائه إذا نام. ولم يقل" مقصوم" بالقاف فيكون بائنا باثنين. وأفصم المطر: أقلع. وأفصمت عنه الحمى ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حسن في الصفات" سميع" من أجل النطق" عليم" من أجل المعتقد.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

قال: أبو جعفر: يعني -تعالى إلى ذكره - بقوله:" الله ولي الذين آمنوا" نصيرهم وظهيرهم، يتولاهم بعونه وتوفيقه" يخرجهم من الظلمات" يعني بذلك:

يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. وإنما عنى ب" الظلمات" في هذا الموضع الكفر. وإنما جعل" الظلمات" للكفر مثلا ؛ لأن الظلمات حاجبة للأبصار عن إدراك الأشياء وإثباتها، وكذلك الكفر حاجب أبصار القلوب عن إدراك حقائق الإيمان والعلم بصحته وصحة أسبابه. فأخبر -تعالى إلى ذكره - عباده أنه ولي المؤمنين، ومبصرهم حقيقة الإيمان وسبله وشرائعه وحججه، وهاديهم، فموفقهم لأدلته المزيلة عنهم الشكوك، بكشفه عنهم دواعي الكفر، وظلم سواتره [عن] أبصار القلوب. [ص: ٤٢٥]

ثم أخبر -تعالى إلى ذكره - عن أهل الكفر به، فقال: "والذين كفروا" يعني الجاحدين وحدانيته" أولياؤهم" يعني نصراؤهم وظهراؤهم الذين يتولونهم" الطاغوت" يعني الأنداد والأوثان الذين يعبدونهم من دون الله" يخرجونهم من النور إلى الظلمات" يعني ب" النور" الإيمان، على نحو ما بينا" إلى الظلمات" ويعني ب" الظلمات" ظلمات الكفر وشكوكه الحائلة دون أبصار القلوب ورؤية ضياء الإيمان وحقائق أدلته وسبله.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال: أهل التأويل:

ذكر من قال: ذلك:

٥٨٥٦ - حدثنا بشر بن معاذ قال:حدثنا يزيد قال:حدثنا سعيد، عن قتادة قوله:" الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" يقول: من الضلالة إلى الهدى" والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت" الشيطان:" يخرجونهم من النور إلى الظلمات" يقول: من الهدى إلى الضلالة.

٥٨٥٧ - حدثني المثنى قال:حدثنا إسحاق قال:حدثنا أبو زهير، عن جويبر، عن الضحاك:" الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان" والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات" يخرجونهم من الإيمان إلى الكفر.

٥٨٥٨ - حدثت عن عمار قال:حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، في قوله -تعالى إلى ذكره -:" الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" يقول: من الكفر إلى الإيمان" والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات" يقول: من الإيمان إلى الكفر. [ص: ٤٢٦]

٥٨٥٩ - حدثنا ابن حميد قال:حدثنا جرير، عن منصور، عن عبدة بن أبي لبابة، عن مجاهد أو مقسم في قول الله:" الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات" قال:كان قوم آمنوا بعيسى، وقوم كفروا به، فلما بعث الله محمدا - صلى الله عليه وسلم - آمن به الذين كفروا بعيسى، وكفر به الذين آمنوا بعيسى أي: يخرج الذين كفروا بعيسى إلى الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم -" والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت" آمنوا بعيسى، وكفروا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - قال:"يخرجونهم من النور إلى الظلمات" .

٥٨٦٠ - حدثنا المثنى قال:حدثنا الحجاج بن المنهال قال:حدثنا المعتمر بن سليمان قال:سمعت منصورا، عن رجل، عن عبدة بن أبي لبابة قال: في هذه الآية:" الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" إلى" أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون" قال:هم الذين كانوا آمنوا بعيسى ابن مريم، فلما جاءهم محمد - صلى الله عليه وسلم - كفروا به، وأنزلت فيهم هذه الآية.

قال: أبو جعفر: وهذا القول الذي ذكرناه عن مجاهد وعبدة بن أبي لبابة [ص: ٤٢٧] يدل على أن الآية معناها الخصوص، وأنها - إذ كان الأمر كما وصفنا - نزلت فيمن كفر من النصارى بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وفيمن آمن بمحمد - صلى الله عليه وسلم - من عبدة الأوثان الذين لم يكونوا مقرين بنبوة عيسى، وسائر الملل التي كان أهلها يكذب بعيسى.

فإن قال: قائل: أوكانت النصارى على حق قبل أن يبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - فكذبوا به؟

قيل: من كان منهم على ملة عيسى ابن مريم - صلى الله عليه وسلم - فكان على حق، وإياهم عنى الله -تعالى إلى ذكره - بقوله: (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) [النساء: ١٣٦].

فإن قال: قائل: فهل يحتمل أن يكون قوله:" والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات" أن يكون معنيا به غير الذين ذكر مجاهد وعبدة: أنهم عنوا به من المؤمنين بعيسى، أو غير أهل الردة والإسلام؟.

قيل: نعم يحتمل أن يكون معنى ذلك: والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يحولون بينهم وبين الإيمان، ويضلونهم فيكفرون، فيكون تضليلهم إياهم حتى يكفروا إخراجا منهم لهم من الإيمان، يعني صدهم إياهم عنه، وحرمانهم إياهم خيره، وإن لم يكونوا كانوا فيه قبل، كقول الرجل:" أخرجني والدي من ميراثه" إذا ملك ذلك في حياته غيره، فحرمه منه حظه ولم يملك ذلك القائل هذا [ص: ٤٢٨] الميراث قط فيخرج منه، ولكنه لما حرمه، وحيل بينه وبين ما كان يكون له لو لم يحرمه، قيل:" أخرجه منه" وكقول القائل:" أخرجني فلان من كتيبته" يعني لم يجعلني من أهلها، ولم يكن فيها قط قبل ذلك. فكذلك قوله:" يخرجونهم من النور إلى الظلمات" محتمل أن يكون إخراجهم إياهم من الإيمان إلى الكفر على هذا المعنى، وإن كان الذي قال:ه مجاهد وغيره أشبه بتأويل الآية.

فإن قال: لنا قائل: وكيف قال:"والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور" فجمع خبر" الطاغوت" بقوله:" يخرجونهم ()والطاغوت" واحد؟

قيل: إن" الطاغوت" اسم لجماع وواحد، وقد يجمع" طواغيت" . وإذا جعل واحده وجمعه بلفظ واحد، كان نظير قولهم:" رجل عدل، وقوم عدل ()ورجل فطر وقوم فطر" وما أشبه ذلك من الأسماء التي تأتي موحدا في اللفظ واحدها وجمعها، وكما قال: العباس بن مرداس:

فقلنا أسلموا إنا أخوكم فقد برئت من الإحن الصدور

أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ: أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ: إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ)، مَعْنَاهُ: هَلِ انْتَهَى إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ خَبَرُ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ، أَيْ خَاصَمَ وَجَادَلَ، وَهُوَ نُمْرُودُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ التَّاجَ عَلَى رَأْسِهِ وَتَجَبَّرَ فِي الْأَرْضِ وَادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ؟ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ، أَيْ: لِأَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ فَطَغَى، أَيْ: كَانَتْ تِلْكَ الْمُحَاجَّةُ مِنْ بَطَرِ الْمَلِكِ وَطُغْيَانِهِ، قَالَ: مُجَاهِدٌ: مَلَكَ الْأَرْضَ أَرْبَعَةٌ: مُؤْمِنَانِ وَكَافِرَانِ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنَانِ: فَسُلَيْمَانُ وَذُو الْقَرْنَيْنِ، وَأَمَّا الْكَافِرَانِ: فَنُمْرُودُ وَبُخْتَنَصَّرُ،

وَاخْتَلَفُوا فِي وَقْتِ هَذِهِ الْمُنَاظَرَةِ، قال: مُقَاتِلٌ: لَمَّا كَسَّرَ إِبْرَاهِيمُ الْأَصْنَامَ سَجَنَهُ نُمْرُودُ، ثُمَّ أَخْرَجَهُ لِيَحْرِقَهُ بِالنَّارِ، فَقال: لَهُ: مَنْ رَبُّكَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ؟ فَقال:رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَقال: آخَرُونَ:

كَانَ هَذَا بَعْدَ إِلْقَائِهِ فِي النَّارِ وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ قَحَطُوا عَلَى عَهْدِ نُمْرُودَ، وَكَانَ النَّاسُ يَمْتَارُونَ مِنْ عِنْدِهِ الطَّعَامَ، فَكَانَ إِذَا أَتَاهُ الرَّجُلُ فِي طَلَبِ الطَّعَامِ سَأَلَهُ مِنْ رَبُّكَ فَإِنْ قال: أَنْتَ بَاعَ مِنْهُ الطَّعَامَ، فَأَتَاهُ إِبْرَاهِيمُ فِيمَنْ أَتَاهُ، فَقال: لَهُ نُمْرُودُ: مَنْ رَبُّكَ؟ قال:(رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)، فَاشْتَغَلَ بِالْمُحَاجَّةِ وَلَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا، فَرَجَعَ إِبْرَاهِيمُ فَمَرَّ عَلَى كَثِيبٍ مِنْ رَمْلٍ أَعْفَرَ فَأَخَذَ مِنْهُ تَطْيِيبًا لِقُلُوبِ أَهْلِهِ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا أَتَى أَهْلَهُ وَوَضَعَ مَتَاعَهُ نَامَ فَقَامَتِ امْرَأَتُهُ إلى مَتَاعِهِ فَفَتَحَتْهُ فَإِذَا هُوَ أَجْوَدُ طعام رأته فأخذته سارة، فَصَنَعَتْ لَهُ مِنْهُ فَقَرَّبَتْهُ إِلَيْهِ، فَقال:مِنْ أَيْنَ هَذَا؟ قال:تْ: مِنَ الطَّعَامِ الَّذِي جِئْتَ بِهِ، فَعَرَفَ أَنَّ اللَّهَ رَزَقَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ، قال: الله تعالى إلى: (إِذْ قال: إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)، وَهَذَا جَوَابُ سُؤَالٍ غَيْرِ مَذْكُورٍ تَقْدِيرُهُ: قال: لَهُ مَنْ ربك؟ قال: إِبْرَاهِيمُ: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)، قَرَأَ حَمْزَةُ: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ بِإِسْكَانِ الْيَاءِ وَكَذَلِكَ (حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ) [الأعراف: ٣٣]، (وعَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ) [الأعراف:١٤٦]، (وقُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ) [إبراهيم: ٣١]، (وآتَانِيَ الْكِتَابَ) [مريم: ٣٠]، (ومَسَّنِيَ الضُّرُّ) [الأنبياء: ٨٣]، (وعِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) [الأنبياء: ١٠٥]، (وعِبَادِيَ الشَّكُورُ) [سبأ: ١٣]، (ومَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ) [ص: ٤١]، (وإِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ) [الزمر: ٣٨]، (وإِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ) [الْمُلْكِ: ٢٨]، أَسْكَنَ الْيَاءَ فِيهِنَّ حَمْزَةُ، وَوَافَقَ ابْنُ عَامِرٍ وَالْكِسَائِيُّ فِي (لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) [إبراهيم: ٣١]، وابن عامر في (آيَاتِيَ الَّذِينَ) [الأعراف: ١٤٦]، وفتحها الآخرون، قال: نمرود لإبراهيم أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ، قَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ أَنَا بِإِثْبَاتِ الْأَلِفِ وَالْمَدِّ فِي الْوَصْلِ إِذَا تَلَتْهَا أَلِفٌ مَفْتُوحَةٌ أَوْ مَضْمُومَةٌ، وَالْبَاقُونَ بِحَذْفِ الْأَلِفِ، وَوَقَفُوا جَمِيعًا بِالْأَلِفِ،

قال: أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: دَعَا نُمْرُودُ بِرَجُلَيْنِ فَقَتَلَ أَحَدَهُمَا وَاسْتَحْيَا الْآخَرَ فَجَعَلَ القتل إماتة، وترك القتل إحياء، فَانْتَقَلَ إِبْرَاهِيمُ إلى حُجَّةٍ أُخْرَى ليعجزه، فَإِنَّ حُجَّتَهُ كَانَتْ لَازِمَةً لِأَنَّهُ أَرَادَ بِالْإِحْيَاءِ إِحْيَاءَ الْمَيِّتِ فَكَانَ له أن يقول فأحيى مَنْ أَمَتَّ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فانتقل إلى حجّة أخرى أَوْضَحَ مِنَ الْأُولَى قال: إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ، أَيْ: تَحَيَّرَ وَدَهِشَ وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ بُهِتَ وَكَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يُعَارِضَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ لَهُ: سَلْ أَنْتَ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، قِيلَ: إِنَّمَا لَمْ يَقُلْهُ لِأَنَّهُ خَافَ أَنْ لَوْ سأله ذَلِكَ، دَعَا إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ فَكَانَ زِيَادَةً فِي فَضِيحَتِهِ وَانْقِطَاعِهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ اللَّهَ صَرَفَهُ عَنْ تِلْكَ الْمُعَارَضَةِ إِظْهَارًا لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ أَوْ مُعْجِزَةً لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قال: أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قال: كَمْ لَبِثْتَ قال: لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قال: بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قال: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

قوله تعالى: (أو كالذي مر على قرية) وهذه الآية منسوقة على الآية الأولى تقديره (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم) و إلى الذي مر على قرية وقيل: تقديره: هل رأيت الذي حاج إبراهيم في ربه وهل رأيت الذي مر على قرية؟ واختلفوا في ذلك المار فقال: قتادة وعكرمة والضحاك: هو عزير بن شرخيا، وقال: وهب بن منبه: هو أرميا بن حلقيا، وكان من سبط هارون وهو الخضر. وقال: مجاهد: هو كافر شك في البعث واختلفوا في تلك القرية فقال: وهب وعكرمة وقتادة: هي بيت المقدس، وقال: الضحاك: هي الأرض المقدسة وقال: الكلبي: هي دير سابر أباد، وقال: السدي: مسلم باذ، وقيل دير هرقل وقيل: هي الأرض التي أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف وقيل: هي قرية العنب وهي على فرسخين من بيت المقدس (وهي خاوية) ساقطة يقال:خوي البيت بكسر الواو يخوي خوى مقصورا إذا سقط وخوى البيت بالفتح خواء ممدودا إذا خلا (على عروشها) سقوفها واحدها عرش وقيل: كل بناء عرش ومعناه: أن السقوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها.

(قال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها) وكان السبب في ذلك على ما روى محمد بن إسحاق بن منبه أن الله تعالى إلى بعث إرمياء إلى ناشية بن أموص ملك بني إسرائيل يسدده في ذلك ويأتيه بالخبر من الله عز وجل فعظمت الأحداث في بني إسرائيل وركبوا المعاصي فأوحى الله تعالى إلى إلى إرمياء: أن ذكر قومك نعمي وعرفهم أحداثهم وادعهم إلي فقال: إرمياء إني ضعيف إن لم تقوني عاجز إن لم تبلغني مخذول إن لم تنصرني فقال: الله عز وجل: أنا ألهمك فقام إرمياء فيهم ولم يدر ما يقول فألهمه الله في الوقت خطبة بليغة طويلة بين لهم فيها ثواب الطاعة وعقاب المعصية وقال: في آخرها عن الله تعالى إلى: وإني [ص: ٣١٨] أحلف بعزتي لأقيضن لهم فتنة يتحير فيها الحكيم ولأسلطن عليهم جبارا فارسيا ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرحمة يتبعه عدد مثل سواد الليل المظلم ثم أوحى الله إلى إرمياء إني مهلك بني إسرائيل بيافث

ويافث من أهل بابل وهم من ولد يافث بن نوح عليه السلام فلما سمع إرمياء ذلك صاح وبكى وشق ثيابه ونبذ الرماد على رأسه فلما سمع الله تضرعه وبكاءه ناداه: يا أرمياء أشق عليك ما أوحيت إليك قال:نعم يا رب أهلكني قبل أن أرى في بني إسرائيل ما لا أسر به فقال: الله تعالى إلى: وعزتي لا أهلك بني إسرائيل حتى يكون الأمر في ذلك من قبلك ففرح إرمياء بذلك وطابت نفسه فقال:لا والذي بعث موسى بالحق لا أرضى بهلاك بني إسرائيل، ثم أتى الملك فأخبره بذلك وكان ملكا صالحا فاستبشر وفرح فقال:إن يعذبنا ربنا فبذنوب كثيرة وإن عفا عنا فبرحمته.

ثم إنهم لبثوا بعد الوحي ثلاث سنين لم يزدادوا إلا معصية وتماديا في الشر وذلك حين اقترب هلاكهم فقل الوحي ودعاهم الملك إلى التوبة فلم يفعلوا فسلط الله عليهم بختنصر فخرج في ستمائة ألف راية يريد أهل بيت المقدس، فلما فصل سائرا أتى الملك الخبر فقال: لإرمياء: أين ما زعمت أن الله أوحى إليك؟ فقال: إرمياء: إن الله لا يخلف الميعاد وأنا به واثق، فلما قرب الأجل بعث الله إلى إرمياء ملكا قد تمثل له رجلا من بني إسرائيل فقال: له إرمياء: من أنت؟ قال:أنا رجل من بني إسرائيل أتيتك أستفتيك في أهل رحمي وصلت أرحامهم ولم آت إليهم إلا حسنا ولا يزيدهم إكرامي إياهم إلا إسخاطا لي فأفتني فيهم قال:أحسن فيما بينك وبين الله وصلهم وأبشر بخير. فانصرف الملك فمكث أياما ثم أقبل إليه في صورة ذلك الرجل فقعد بين يديه فقال:أنا الذي أتيتك في شأن أهلي فقال: له إرمياء: أما طهرت أخلاقهم لك بعد؟ قال:يا نبي الله والذي بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلا رحمة إلا قدمتها إليهم وأفضل فقال: له النبي إرمياء عليه السلام: ارجع فأحسن إليهم اسأل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلحهم فقام الملك فمكث أياما وقد نزل بختنصر وجنوده حول بيت المقدس بأكثر من الجراد ففزع منهم بنو إسرائيل فقال: ملكهم لإرمياء: يا نبي الله أين ما وعدك الله؟ قال:إني بربي واثق ثم أقبل الملك إلى إرمياء وهو قاعد على جدار بيت المقدس يضحك ويستبشر بنصر ربه عز وجل الذي وعده فقعد بين يديه فقال:أنا الذي أتيتك في شأن أهلي مرتين فقال: النبي: ألم يأن لهم أن يفيقوا من الذي هم فيه؟ فقال: الملك: يا نبي الله كل شيء كان يصيبني منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه فاليوم رأيتهم في عمل لا يرضي الله: فقال: النبي: على أي عمل رأيتهم؟ قال:على عمل عظيم من سخط الله فغضب الله وأتيتك لأخبرك وإني أسألك بالله الذي بعثك بالحق نبيا إلا ما دعوت الله عليهم ليهلكهم فقال: إرمياء: يا مالك السماوات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم وإن كانوا

على عمل لا ترضاه فأهلكهم فلما خرجت الكلمة من فم إرمياء أرسل الله صاعقة من السماء في بيت المقدس فالتهب مكان القربان وخسف بسبعة أبواب من أبوابها فلما رأى ذلك إرمياء صاح وشق ثيابه ونبذ الرماد على [ص: ٣١٩] رأسه وقال:يا مالك السماوات أين ميعادك الذي وعدتني؟ فنودي أنه لم يصبهم ما أصابهم إلا بفتياك ودعائك فاستيقن النبي عليه السلام أنها فتياه وأن ذلك السائل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فطار إرمياء حتى خالط الوحوش.

ودخل بختنصر وجنوده بيت المقدس ووطئ الشام وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم وخرب بيت المقدس، ثم أمر جنوده أن يملأ كل رجل منهم ترسه ترابا فيقذفه في بيت المقدس، ففعلوا حتى ملئوه ثم أمرهم أن يجمعوا من كان في بلدان بيت المقدس فاجتمع عندهم صغيرهم وكبيرهم من بني إسرائيل، فاختار منهم سبعين ألف صبي فقسمهم بين الملوك الذين كانوا معه فأصاب كل رجل منهم أربعة غلمة وكان من أولئك الغلمان دانيال وحنانيا وفرق من بقي من بني إسرائيل ثلاث فرق فثلثا قتلهم وثلثا سباهم وثلثا أقرهم بالشام، وكانت هذه الواقعة الأولى التي أنزلها الله في بني إسرائيل بظلمهم فلما ولى عنهم بختنصر راجعا إلى بابل ومعه سبايا بني إسرائيل أقبل إرمياء على حمار له معه عصير عنب في ركوة وسلة تين حتى غشى إيلياء فلما وقف عليها ورأى خرابها قال:(أنى يحيى هذه الله بعد موتها).

وقال: الذي قال: إن المار كان عزيرا: وإن بختنصر لما خرب بيت المقدس وقدم بسبي بني إسرائيل ببابل كان فيهم عزير ودانيال وسبعة آلاف من أهل بيت داود فلما نجا عزير من بابل ارتحل على حمار له حتى نزل دير هرقل على شط دجلة فطاف في القرية فلم ير فيها أحدا وعامة شجرها حامل فأكل من الفاكهة واعتصر من العنب فشرب منه وجعل فضل الفاكهة في سلة وفضل العصير في زق فلما رأى خراب القرية وهلاك أهلها قال:(أنى يحيى هذه الله بعد موتها) قال:هاتعالىجبا لا شكا في البعث.

رجعنا إلى حديث وهب قال:ثم ربط إرمياء حماره بحبل جديد فألقى الله تعالى إلى عليه النوم فلما نام نزع الله منه الروح مائة عام وأمات حماره وعصيره وتينه عنده فأعمى الله عنه العيون فلم يره أحد وذلك ضحى ومنع الله السباع والطير لحمه فلما مضى من موته سبعون سنة أرسل الله ملكا إلى ملك من ملوك فارس يقال: له نوشك فقال:إن الله يأمرك أن تنفر بقومك فتعمر بيت المقدس وإيلياء حتى يعود أعمر ما كان فانتدب الملك بألف قهرمان مع كل قهرمان ثلاثمائة ألف عامل وجعلوا يعمرونه فأهلك الله بختنصر ببعوضة دخلت دماغه ونجى الله من بقي من بني إسرائيل، ولم يمت ببابل وردهم جميعا إلى بيت المقدس ونواحيه وعمروها ثلاثين

سنة وكثروا حتى عادوا على أحسن ما كانوا عليه فلما مضت المائة أحيا الله منه عينيه وسائر جسده ميت ثم أحيا جسده وهو ينظر إليه ثم نظر إلى حماره فإذا عظامه متفرقة بيض تلوح فسمع صوتا من السماء: أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعي فاجتمع بعضها إلى بعض واتصل بعضها ببعض ثم نودي أن الله يأمرك أن تكتسي لحما وجلدا [ص: ٣٢٠] فكانت كذلك ثم نودي: إن الله يأمرك أن تحيا فقام بإذن الله ونهق وعمر الله إرمياء فهو الذي يرى في الفلوات فذلك قوله تعالى: (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) أي أحياه (قال: كم لبثت) أي: كم مكثت؟ يقال:لما أحياه الله بعث إليه ملكا فسأله كم لبثت؟ (قال: لبثت يوما) وذلك أن الله تعالى إلى أماته ضحى في أول النهار وأحياه بعد مائة عام في آخر النهار قبل غيبوبة الشمس فقال:لبثت يوما وهو يرى أن الشمس قد غربت ثم التفت فرأى بقية من الشمس فقال: (أو بعض يوم) بل بعض يوم (قال:) الملك (بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك) يعني التين (وشرابك) يعني العصير (لم يتسنه) أي لم يتغير فكان التين كأنه قطف في ساعته والعصير كأنه عصر في ساعته.

قال: الكسائي: كأنه لم تأت عليه السنون. وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب لم يتسن بحذف الهاء في الوصل وكذلك" فبهداهم اقتده" (٩٠ - الأنعام) وقرأ الآخرون بالهاء فيهما وصلا ووقفا فمن أسقط الهاء في الوصل جعل الهاء صلة زائدة وقال:أصله يتسنى فحذف الياء بالجزم وأبدل منه هاء في الوقف وقال: أبو عمرو: هو من التسنن بنونين: وهو التغير كقوله تعالى:" من حمإ مسنون" (٢٦ - الحج) أي متغير فعوضت من إحدى النونين ياء كقوله تعالى:" ثم ذهب إلى أهله يتمطى" (٣٣ - القيامة) أي يتمطط وكقوله" وقد خاب من دساها" (١٠ - الشمس) وأصله دسيتها ومن أثبت الهاء في الحالين جعل الهاء أصلية لام الفعل وهذا على قول من جعل

أصل السنة السنهة وتصغيرها سنيهة والفعل من السانهة وإنما قال:لم يتسنه ولم يثنه مع أنه أخبر عن شيئين رد التغيير إلى أقرب اللفظين وهو الشراب واكتفى بذكر أحد المذكورين لأنه في معنى الآخر (وانظر إلى حمارك) فنظر فإذا هو عظام بيض فركب الله تعالى إلى العظام بعضها على بعض فكساه اللحم والجلد وأحياه وهو ينظر (ولنجعله آية للناس) قيل الواو زائدة مقحمة. وقال: الفراء أدخلت الواو فيه دلالة على أنها شرط لفعل بعدها معناه ولنجعلك آية أي: عبرة ودلالة على البعث بعد الموت قال:ه أكثر المفسرين وقال: الضحاك وغيره: إنه عاد إلى قريته شابا واولا:ده واولا:د اولا:ده شيوخ وعجائز وهو أسود الرأس واللحية.

معنى قوله تعالى: (وانظر إلى العظام كيف ننشزها)

قرأ أهل الحجاز والبصرة ننشرها بالراء معناه نحييها يقال:أنشر الله الميت إنشارا ونشرة ونشورا قال: الله تعالى إلى:" ثم إذا شاء أنشره" (٢٢ - عبس) وقال: في اللازم" وإليه النشور" (١٥ - الملك) وقرأ الآخرون بالزاي أي نرفعها من الأرض ونردها إلى مكانها من الجسد ونركب بعضها على بعض وإنشاز الشيء رفعه وإزعاجه يقال:أنشزته فنشز أي رفعته فارتفع.

واختلفوا في معنى الآية فقال: الأكثرون: أراد به عظام حماره وقال: السدي: إن الله تعالى إلى أحيا عزيرا ثم قال: له: انظر إلى حمارك قد هلك وبليت عظامه فبعث الله تعالى إلى ريحا فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل وقد ذهبت بها الطير والسباع فاجتمعت فركب بعضها في بعض وهو ينظر فصار حمارا من [ص: ٣٢١] عظام ليس فيها لحم ولا دم (ثم نكسوها لحما) ثم كسا العظام لحما ودما فصار حمارا لا روح فيه ثم أقبل ملك يمشي حتى أخذ بمنخر الحمار فنفخ فيه فقام الحمار ونهق بإذن الله. وقال: قوم أراد به عظام هذا الرجل وذلك أن الله تعالى إلى لم يمت حماره بل أماته هو فأحيا الله عينيه ورأسه وسائر جسده ميت ثم قال:انظر إلى حمارك فنظر فرأى حماره قائما واقفا كهيئته يوم ربطه حيا لم يطعم ولم يشرب مائة عام ونظر إلى الرمة في عنقه جديدة لم تتغير وتقدير الآية: (وانظر إلى حمارك) وانظر إلى عظامك كيف ننشزها وفي الآية تقديم وتأخير وتقديرهما: وانظر إلى حمارك وانظر إلى العظام كيف ننشزها ولنجعلك آية للناس.

وقال: قتادة عن كعب والضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما والسدي عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما أحيا الله تعالى إلى عزيرا بعد ما أماته مائة سنة ركب حماره حتى أتى محلته فأنكره الناس وأنكر الناس ومنازله فانطلق على وهم حتى أتى منزله فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت عرفته وعقلته فقال: لها عزير: يا هذه هذا منزل عزير؟ قال:ت: نعم هذا منزل عزير وبكت وقال:ت: ما رأيت أحدا من كذا وكذا سنة يذكر عزيرا قال:فإني أنا عزير قال:ت: سبحان الله فإن عزيرا قد فقدناه من مائة سنة لم نسمع له بذكر قال:فإني أنا عزير كان الله أماتني مائة سنة ثم بعثني قال:ت: فإن عزيرا كان رجلا مستجاب الدعوة ويدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية فادع الله أن يرد لي بصري حتى أراك فإن كنت عزيرا عرفتك فدعا ربه ومسح بيده على عينيها فصحتا وأخذ بيدها وقال:قومي بإذن الله تعالى

فأطلق الله رجليها فقامت صحيحة فنظرت إليه فقال:ت: أشهد أنك عزير فانطلقت إلى بني إسرائيل وهم في أنديتهم ومجالسهم وابن لعزير شيخ كبير ابن مائة سنة وثماني عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ في المجلس فنادت هذا عزير قد جاءكم، فكذبوها فقال:ت: أنا فلانة مولاتكم دعا لي ربه فرد علي بصري وأطلق رجلي وزعم أن الله كان أماته مائة سنة ثم بعثه فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال: ولده: كان لأبي شامة سوداء مثل الهلال بين كتفيه فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير.

وقال: السدي والكلبي: لما رجع عزير إلى قومه وقد أحرق بختنصر التوراة ولم يكن من الله عهد بين الخلق فبكى عزير على التوراة فأتاه ملك بإناء فيه ماء فسقاه من ذلك الماء فمثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل وقد علمه الله التوراة وبعثه نبيا فقال:أنا عزير فلم يصدقوه فقال:إني عزير قد بعثني الله إليكم لأجدد لكم توراتكم قالوا: أملها علينا فأملاها عليهم عن ظهر قلبه فقالوا: ما جعل الله التوراة في صدر رجل بعدما ذهبت إلا أنه ابنه فقالوا: عزير ابن الله وستأتي القصة في سورة (براءة) إن شاء الله تعالى إلى. [ص: ٣٢٢]

قوله تعالى: (فلما تبين له) ذلك عيانا (قال: أعلم) قرأ حمزة والكسائي مجزوما موصولا على الأمر على معنى قال: الله تعالى إلى له اعلم وقرأ الآخرون" أعلم" بقطع الألف ورفع الميم على الخبر عن عزير أنه قال: لما رأى ذلك أعلم (أن الله على كل شيء قدير)

وَإِذْ قال: إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قال: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قال: بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قال: فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

معنى قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى)

قال: الحسن وقتادة وعطاء الخراساني وابن جريج: كان سبب هذا السؤال من إبراهيم عليه السلام أنه مر على دابة ميتة قال: ابن جريج: كانت جيفة حمار بساحل البحر قال: عطاء: في بحيرة طبرية، قالوا: فرآها وقد توزعتها دواب البحر والبر فكان إذا مد البحر جاءت الحيتان ودواب البحر فأكلت منها فما وقع منها يصير في البحر فإذا جزر البحر ورجع جاءت السباع فأكلن منها فما سقط منها يصير ترابا فإذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها فما سقط منها قطعتها الريح في الهواء فلما رأى ذلك إبراهيم عليه السلامتعالىجب منها وقال:يا رب قد علمت لتجمعنها من بطون السباع وحواصل الطير وأجواف دواب البحر فأرني كيف تحييها لأعاين فأزداد يقينا فعاتبه الله تعالى إلى (قال: أولم تؤمن قال: بلى) يا رب علمت وآمنت (ولكن ليطمئن قلبي) أي ليسكن قلبي إلى المعاينة والمشاهدة أراد أن يصير له علم اليقين عين اليقين لأن الخبر ليس كالمعاينة.

وقيل كان سبب هذا السؤال من إبراهيم أنه لما احتج على نمرود فقال:" ربي الذي يحيى ويميت" (٢٥٨ - البقرة) قال: نمرود أنا أحيى وأميت فقتل أحد الرجلين وأطلق الآخر فقال: إبراهيم: إن الله تبارك وتعالىقصد إلى جسد ميت فيحييه فقال: له نمرود: أنت عاينته فلم يقدر أن يقول نعم فانتقل إلى حجة أخرى ثم سأل ربه أن يريه إحياء الموتى. (قال: أولم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي) بقوة حجتي فإذا قيل أنت عاينته فأقول نعم قد عاينته.

وقال: سعيد بن جبير لما اتخذ الله تعالى إلى إبراهيم خليلا سأل ملك الموت ربه أن يأذن له فيبشر إبراهيم بذلك فأذن له فأتى إبراهيم ولم يكن في الدار فدخل داره وكان إبراهيم عليه السلام أغير الناس إذا خرج أغلق بابه فلما جاء وجد في داره رجلا فثار عليه ليأخذه وقال: له: من أذن لك أن تدخل داري؟ فقال:أذن لي رب هذه الدار فقال: إبراهيم: صدقت وعرف أنه ملك فقال:من أنت؟ قال:أنا ملك الموت جئت أبشرك بأن الله تعالى إلى قد اتخذك خليلا فحمد الله عز وجل وقال:فما علامة ذلك؟ قال:أن يجيب الله دعاءك ويحيى الله الموتى بسؤالك فحينئذ قال: إبراهيم: (رب أرني كيف تحيى الموتى قال: أولم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي) أنك اتخذتني خليلا وتجيبني إذا دعوتك. [ص: ٣٢٣]

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف أخبرنا محمد بن إسماعيل، أخبرنا أحمد بن صالح، أنا ابن وهب، أخبرنا يونس عن ابن شهاب عن أبي

سلمة بن عبد الرحمن وسعيد بن المسيب، عن أبي هريرة رضي الله تعالى إلى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيف تحيى الموتى قال: أولم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي ورحم الله لوطا لقد كان يأوي إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي" .

وأخرج مسلم بن الحجاج هذا الحديث عن حرملة بن يحيى عن وهب بهذا الإسناد مثله وقال:"نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: رب أرني كيف تحيى الموتى" .

حكى محمد بن إسحاق بن خزيمة عن أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني أنه قال: على هذا الحديث لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا وقال: أبو سليمان الخطابي: ليس في قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفي الشك عنهما يقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى إلى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك وقال: ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله:" لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي" وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لمتعالىرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال وقيل: لما نزلت هذه الآية قال: قوم: شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه.

قوله (أولم تؤمن) معناه قد آمنت فلم تسأل؟ شهد له بالإيمان كقول جرير:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

يعني أنتم كذلك ولكن ليطمئن قلبي بزيادة اليقين.

الإعجاز في قوله تعالى: (قال: فخذ أربعة من الطير)

قال: مجاهد وعطاء وابن جريج: أخذ طاووسا وديكا وحمامة، وغرابا وحكي عن ابن عباس رضي الله عنه: ونسرا بدل الحمامة.

وقال: عطاء الخراساني: أوحى إليه أن خذ بطة خضراء وغرابا أسود وحمامة بيضاء وديكا أحمر (فصرهن إليك) قرأ أبو جعفر وحمزة، (فصرهن إليك) بكسر الصاد أي قطعهن ومزقهن يقال: صار [ص: ٣٢٤] يصير صيرا إذا قطع وانصار الشيء انصيارا إذا انقطع.

قال: الفراء: هو مقلوب من صريت أصري صريا إذا قطعت وقرأ الآخرون (فصرهن) بضم الصاد ومعناه أملهن إليك ووجههن يقال:صرت الشيء أصوره إذا أملته ورجل أصور إذا كان مائل العنق وقال: عطاء: معناه اجمعهن واضممهن إليك يقال:صار يصور صورا إذا اجتمع ومنه قيل لجماعة النخل صور ومن فسره بالإمالة والضم قال: فيه إضمار معناه فصرهن إليك ثم قطعهن فحذفه اكتفاء بقوله: (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) لأنه يدل عليه وقال: أبو عبيدة: فصرهن معناه قطعهن أيضا والصور القطع.

قوله تعالى: (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) قرأ عاصم برواية أبي بكر (جزءا) مثقلا مهموزا والآخرون بالتخفيف والهمز وقرأ أبو جعفر مشددة الزاي بلا همز وأراد به بعض الجبال.

قال: بعض المفسرين: أمر الله إبراهيم أن يذبح تلك الطيور وينتف ريشها، ويقطعها ويخلط ريشها ودماءها ولحومها بعضها ببعض، ففعل ثم أمره أن يجعل أجزاءها على الجبال.

واختلفوا في عدد الأجزاء والجبال فقال: ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة: أمر أن يجعل كل طائر أربعة أجزاء ويجعلها على أربعة أجبل على كل جبل ربعا من كل طائر وقيل: جبل على جانب الشرق وجبل على جانب الغرب وجبل على جانب الشمال وجبل على جانب الجنوب.

وقال: ابن جريج والسدي: جزأها سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل وأمسك رءوسهن ثم دعاهن:تعالالين بإذن الله تعالى إلى فجعلت كل قطرة من دم طائر تطير إلى القطرة الأخرى وكل ريشة تطير إلى الريشة الأخرى وكل عظم يصير إلى العظم الآخر وكل بضعة تصير إلى الأخرى

وإبراهيم ينظر حتى لقيت كل جثة بعضها بعضا في الهواء بغير رأس ثم أقبلن إلى رءوسهن سعيا فكلما جاء طائر مال برأسه فإن كان رأسه دنا منه وإن لم يكن تأخر حتى التقى كل طائر برأسه

فذلك قوله تعالى إلى (ثم ادعهن يأتينك سعيا) قيل المراد بالسعي الإسراع والعدو، وقيل المراد به المشي دون الطيران كما قال: الله تعالى إلى" فاسعوا إلى ذكر الله" (٩ - الجمعة) أي فامضوا والحكمة في المشي دون الطيران كونه أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطير وإن أرجلها غير سليمة والله أعلم. وقيل السعي بمعنى الطيران (واعلم أن الله عزيز حكيم)

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)

قوله تعالى: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) فيه إضمار تقديره مثل صدقات الذين ينفقون أموالهم (كمثل) زارع (حبة) وأراد بسبيل الله الجهاد وقيل جميع أبواب الخير (أنبتت) [ص: ٣٢٥] أخرجت (سبع سنابل) جمع سنبلة (في كل سنبلة مائة حبة) فإن قيل فما رأينا سنبلة فيها مائة حبة فكيف ضرب المثل به؟ قيل: ذلك متصور غير مستحيل وما لا يكون مستحيلا جاز ضرب المثل به وإن لم يوجد معناه: (في كل سنبلة مائة حبة) فما حدث من البذر الذي كان فيها كان مضاعفا إليها وكذلك تأوله الضحاك فقال:كل سنبلة أنبتت مائة حبة (والله يضاعف لمن يشاء) قيل: معناه يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء وقيل: معناه يضاعف على هذا ويزيد لمن يشاء ما بين سبع إلى سبعين إلى سبعمائة إلى ما شاء الله من الأضعاف مما لا يعلمه إلا الله (والله واسع) غني يعطي عن سعة (عليم) بنية من ينفق ماله.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢)

قال: أبو جعفر: يعني -تعالى إلى ذكره - بذلك: المعطي ماله المجاهدين في سبيل الله معونة لهم على جهاد أعداء الله. يقول -تعالى إلى ذكره -: الذين يعينون المجاهدين في سبيل الله بالإنفاق عليهم وفي حمولاتهم، وغير ذلك من مؤنهم، ثم لم يتبع نفقته التي أنفقها عليهم منا عليهم بإنفاق ذلك عليهم، ولا أذى لهم. فامتنانه به عليهم بأن يظهر لهم أنه قد اصطنع إليهم - بفعله وعطائه الذي أعطاهموه تقوية لهم على جهاد عدوهم - معروفا، ويبدي ذلك إما بلسان أو فعل. وأما" الأذى" فهو شكايته إياهم بسبب ما أعطاهم وقواهم من النفقة في

سبيل الله، أنهم لم يقوموا بالواجب عليهم في الجهاد، وما أشبه ذلك من القول الذي يؤذي به من أنفق عليه.

وإنما شرط ذلك في المنفق في سبيل الله، وأوجب الأجر لمن كان غير مان ولا مؤذ من أنفق عليه في سبيل الله ؛ لأن النفقة التي هي في سبيل الله: ما ابتغي به وجه الله وطلب به ما عنده. فإذا كان معنى النفقة في سبيل الله هو ما وصفنا فلا وجه لمن المنفق على من أنفق عليه ؛ لأنه لا يد له قبله ولا صنيعة يستحق بها [ص: ٥١٨] عليه - إن لم يكافئه - عليها المن والأذى، إذ كانت نفقته ما أنفق عليه احتسابا وابتغاء ثواب الله وطلب مرضاته، وعلى الله مثوبته، دون من أنفق ذلك عليه.

وبنحو المعنى الذي قلنا في ذلك قال: جماعة من أهل التأويل.

ذكر من قال: ذلك:

٦٠٣٤ - حدثنا بشر قال:حدثنا يزيد قال:حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم)، علم الله أن أناسا يمنون بعطيتهم، فكره ذلك وقدم فيه فقال:(قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم).

٦٠٣٥ - حدثني يونس قال:أخبرنا ابن وهب قال:قال: ابن زيد: قال: للآخرين يعني: قال: الله للآخرين، وهم الذين لا يخرجون في جهاد عدوهم: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) قال:فشرط عليهم. قال:والخارج لم يشرط عليه قليلا ولا كثيرا - يعني بالخارج: الخارج في الجهاد الذي ذكر الله في قوله: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة) الآية. قال: ابن زيد: وكان أبي يقول: إن آذاك من يعطي من هذا شيئا أو يقوي في سبيل الله، فظننت أنه يثقل عليه سلامك، فكف سلامك عنه. قال: ابن زيد: فنهى عن خير الإسلام. قال:وقال:ت امرأة لأبي: يا أبا أسامة تدلني على رجل يخرج في سبيل الله حقا، فإنهم لا يخرجون إلا [ص: ٥١٩] ليأكلوا الفواكه ! ! عندي جعبة وأسهم فيها. فقال: لها: لا بارك الله لك في جعبتك، ولا في أسهمك، فقد آذيتيهم قبل أنتعالطيهم ! قال:وكان رجل يقول لهم: اخرجوا وكلوا الفواكه !

٦٠٣٦ - حدثني المثنى قال:حدثنا إسحاق قال:حدثنا أبو زهير، عن جويبر، عن الضحاك قوله: (لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى) قال:أن لا ينفق الرجل ماله خير من أن ينفقه ثم يتبعه منا وأذى.

وأما قوله: (لهم أجرهم عند ربهم)، فإنه يعني للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله على ما بين." والهاء والميم" في" لهم" عائدة على" الذين" .

معنى قوله: (لهم أجرهم عند ربهم)

لهم ثوابهم وجزاؤهم على نفقتهم التي أنفقوها في سبيل الله، ثم لم يتبعوها منا ولا أذى.

وقوله: (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، يقول: وهم مع ما لهم من الجزاء والثواب على نفقتهم التي أنفقوها على ما شرطنا (لا خوف عليهم) عند مقدمهم على الله وفراقهم الدنيا، ولا في أهوال القيامة، وأن ينالهم من مكارهها أو يصيبهم فيها من عقاب الله (ولا هم يحزنون) على ما خلفوا وراءهم في الدنيا.

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣)

قال: أبو جعفر: يعني -تعالى إلى ذكره - بقوله: (قول معروف) قول جميل، ودعاء الرجل لأخيه المسلم (ومغفرة) يعني: وستر منه عليه لما علم من خلته وسوء حالته. (خير) عند الله (من صدقة) يتصدقها عليه (يتبعها أذى) يعني يشتكيه عليها، ويؤذيه بسببها كما: -

٦٠٣٧ - حدثني المثنى قال:حدثنا إسحاق قال:حدثنا أبو زهير، عن [ص: ٥٢١] جويبر، عن الضحاك: (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) يقول: أن يمسك ماله خير من أن ينفق ماله ثم يتبعه منا وأذى.

وأما قوله: (غني حليم) فإنه يعني:" والله غني" عما يتصدقون به (حليم) حين لا يعجل بالعقوبة على من يمن بصدقته منكم، ويؤذي فيها من يتصدق بها عليه.

وروي عن ابن عباس في ذلك ما: -

٦٠٣٨ - حدثنا به المثنى قال:حدثنا عبد الله بن صالح قال:حدثني معاوية، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: (الغني) الذي كمل في غناه، (والحليم)، الذي قد كمل في حلمه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: بالمن والأذى قد تقدم معناه وعبرتعالى إلى عن عدم القبول وحرمان الثواب بالإبطال، والمراد الصدقة التي يمن بها ويؤذي، لا غيرها. والعقيدة أن السيئات لا تبطل الحسنات ولا تحبطها، فالمن والأذى في صدقة لا يبطل صدقة غيرها.

قال: جمهور العلماء في هذه الآية: إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمن أو يـؤذي بها فإنها لا تقبل. وقيل: بل قد جعل الله للملك عليها أمارة فهو لا يكتبها، وهـذا حسن.. والعـرب تقول لما يمن به: يد سوداء. ولما يعطى عن غير مسألة: يد بيضـاء. ولمـا يعطـى عـن مسـألة: يـد خضراء. وقال: بعض البلغاء: من من بمعروفه سقط شكره، ومن أعجب بعمله حبط أجـره. وقـال: بعض الشعراء:

وصاحب سلفت منه إلي يد أبطأ عليه مكافاتي فعاداني لما تيقن أن الدهر حاربني

أبدى الندامة فيما كان اولا:ني

وقال: آخر:

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن ليس الكريم إذا أسدى بمنان

وقال: أبو بكر الوراق فأحسن:

أحسن من كل حسن في كل وقت وزمن

صنيعة مربوبة خالية من المنن

[ص: ٢٨٤] وسمع ابن سيرين رجلا يقول لرجل: فعلت إليك وفعلت فقال: له: اسكت فـلا خـير في المعروف إذا أحصي. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر - ثم تلا - لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى.

الثانية: قال: علماؤنا رحمة الله عليهم: كره مالك لهذه الآية أن يعطي الرجل صـدقته الواجبـة أقاربه لئلا يعتاض منهم الحمد والثناء، ويظهر منته عليهم ويكافئوه عليهـا فـلا تخلـص لوجـه الله تعالى إلى. واستحب أن يعطيها الأجانب، واستحب أيضا أن يولي غـيره تفريقهـا إذا لـم يكـن الإمـام عدلا، لئلا تحبط بالمن والأذى والشـكر والثنـاء والمكافـأة بالخدمـة مـن المعطـى. وهـذا بخـلاف صدقة التطوع السر ؛ لأن ثوابها إذا حبط سلم من الوعيد وصار في حكم من لم يفعل، والواجـب إذا حبط ثوابه توجه الوعيد عليه لكونه في حكم من لم يفعل.

الثالثة: قوله تعالى: كالذي ينفق ماله رئاء الناس الكاف في موضع نصب، أي إبطال" كالذي" فهي نعت للمصدر المحذوف. ويجوز أن تكون موضع الحال. مثل الله تعالى إلى الذي يمن ويؤذي بصدقته بالذي ينفق ماله رئاء الناس لا لوجه الله تعالى إلى، وبالكافر الذي ينفق ليقال: جواد وليثنى عليه بأنواع الثناء. ثم مثل هذا المنفق أيضا بصفوان عليه تراب فيظنه الظان أرضا منبتة طيبة، فإذا أصابه وابل من المطر أذهب عنه التراب وبقي صلدا، فكذلك هذا المرائي. فالمن والأذى والرياء تكشف عن النية في الآخرة فتبطل الصدقة كما يكشف الوابل عن الصفوان، وهو الحجر الكبير الأملس. وقيل: المراد بالآية إبطال الفضل دون الثواب، فالقاصد بنفقته الرياء غير مثاب كالكافر ؛ لأنه لم يقصد به وجه الله تعالى إلى فيستحق الثواب. وخالف صاحب المن والأذى القاصد وجه الله المستحق ثوابه - وإن كرر عطاءه - وأبطل فضله. وقد قيل: إنما يبطل من ثواب صدقته من وقت منه وإيذائه، وما قبل ذلك يكتب له ويضاعف، فإذا من وآذى انقطع التضعيف ؛ لأن الصدقة تربى لصاحبها حتى تكون أعظم من الجبل، فإذا خرجت من يد صاحبها خالصة على الوجه المشروع ضوعفت، فإذا جاء المن بها والأذى وقف بها هناك وانقطع زيادة التضعيف عنها، والقول الأول أظهر والله أعلم. والصفوان جمع واحده صفوانة، قال:ه الأخفش. قال:وقال: بعضهم: صفوان واحد، مثل حجر. وقال: الكسائي: صفوان واحد وجمعه صفوان وصفي وصفي، وأنكره المبرد وقال:إنما صفي جمع صفا كقفا وقفي، ومن هذا المعنى الصفواء والصفا، وقد تقدم. وقرأ سعيد بن المسيب والزهري" صفوان" بتحريك الفاء، وهي لغة. وحكى قطرب (صفوان). قال: النحاس: صفوان وصفوان يجوز أن يكون جمعا ويجوز أن يكون واحدا، إلا أن الأولى به أن يكون واحدا لقوله عز وجل: [ص: ٢٨٥] عليه تراب فأصابه وابل وإن كان يجوز تذكير الجمع إلا أن الشيء لا يخرج عن بابه إلا بدليل قاطع، فأما ما حكاه الكسائي في الجمع فليس بصحيح على حقيقة النظر، ولكن (صفوان) جمع صفا، وصفا بمعنى صفوان، ونظيره ورل وورلان وأخ وإخوان وكرا وكروان، كما قال: الشاعر:

لنا يوم وللكروان يوم تطير البائسات ولا نطير

والضعيف في العربية (كروان) جمع (كروان)، وصفي وصفي جمع صفا مثل عصا. والوابل: المطر الشديد. وقد وبلت السماء تبل، والأرض موبولة. قال: الأخفش: ومنه قوله تعالى: أخذناه أخذا وبيلا ؛ أي شديدا. وضرب وبيل، وعذاب وبيل أي شديد. والصلد: الأملس من الحجارة. قال:

الكسائي: صلد يصلد صلدا بتحريك اللام فهو صلد بالإسكان، وهو كل ما لا ينبت شيئا، ومنه جبين أصلد، وأنشد الأصمعي لرؤبة:

براق أصلاد الجبين الأجله

قال: النقاش: الأصلد الأجرد بلغة هذيل.

ومعنى لا يقدرون يعني المرائي والكافر والمان على شيء أي على الانتفاع بثواب شيء من إنفاقهم وهو كسبهم عند حاجتهم إليه، إذا كان لغير الله فعبر عن النفقة بالكسب ؛ لأنهم قصدوا بها الكسب. وقيل: ضرب هذا مثلا للمرائي في إبطال ثوابه ولصاحب المن والأذى في إبطال فضله، ذكره الماوردي.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَاتعالىمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ)، أَيْ: طَلَبَ رِضَا اللَّه تعالى إلى، وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، قال: قَتَادَةُ: احْتِسَابًا، وَقال: الشَّعْبِيُّ وَالْكَلْبِيُّ: تَصْدِيقًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ، أَيْ: يُخْرِجُونَ الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا أَنْفُسُهُمْ عَلَى يقين بالثواب من الله، وَتَصْدِيقٍ بِوَعْدِ اللَّهِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا أَخْرَجُوا خَيْرٌ لَهُمْ مِمَّا تَرَكُوا، وَقِيلَ: عَلَى يَقِينٍ بِإِخْلَافِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَقال: عَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ: يتثبتون أين يَضَعُونَ أَمْوَالَهُمْ، قال: الْحَسَنُ: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ تَثَبَّتَ، فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ أَمْضَى، وَإِنْ خالطه شَكٌّ أَمْسَكَ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ التَّثْبِيتُ بِمَعْنَى التَّثَبُّتِ كَقوله تعالى: (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا) [الْمُزَّمِّلِ: ٨]، أَيْ: تَبَتُّلًا، كَمَثَلِ جَنَّةٍ، أَيْ: بُسْتَانٍ، قال: الْمُبَرِّدُ وَالْفَرَّاءُ: إِذَا كَانَ فِي الْبُسْتَانِ نَخْلٌ فَهُوَ جَنَّةٌ وَإِنْ كَانَ فِيهِ كَرْمٌ فَهُوَ فِرْدَوْسٌ، بِرَبْوَةٍ، قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ بِرَبْوَةٍ و إِلى رَبْوَةٍ [المؤمنون: ٥٠] فِي سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ بِفَتْحِ الرَّاءِ، وَقَرَأَ الْآخَرُونَ بِضَمِّهَا، وَهِيَ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ الْمُسْتَوِي الَّذِي تَجْرِي فِيهِ الْأَنْهَارُ فَلَا يَعْلُوهُ الْمَاءُ وَلَا يَعْلُو عَنِ الْمَاءِ، وَإِنَّمَا جَعَلَهَا بِرَبْوَةٍ لِأَنَّ النَّبَاتَ عَلَيْهَا أَحْسَنُ وَأَزْكَى، أَصابَها وابِلٌ مَطَرٌ شَدِيدٌ كَثِيرٌ، فَآتَتْ أُكُلَها:

ثَمَرَهَا، قَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو بِالتَّخْفِيفِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالتَّثْقِيلِ، وَزَادَ نَافِعٌ وَابْنُ كَثِيرٍ تَخْفِيفَ «أُكُلِهِ» و«الأكل» وَخَفَّفَ أَبُو عَمْرٍو «رُسُلَنَا، وَرُسُلَكُمْ، وَرُسُلَهُمْ، وَسُبُلَنَا» ضِعْفَيْنِ، أَيْ: أَضْعَفَتْ فِي الْحَمْلِ، قال: عَطَاءٌ: حَمَلَتْ في سنة مِنَ الرِّيعِ مَا يَحْمِلُ غَيْرُهَا فِي سَنَتَيْنِ، وَقال: عِكْرِمَةُ: حَمَلَتْ فِي السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وابِلٌ فَطَلٌّ، أَيْ: فَطَشٌّ وَهُوَ الْمَطَرُ الضَّعِيفُ الْخَفِيفُ، وَيَكُونُ دَائِمًا،

قال: السُّدِّيُّ: هُوَ النَّدَى. هو مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللّٰه تعالى إلى لِعَمَلِ الْمُؤْمِنَ الْمُخْلِصِ، فَيَقُولُ: كَمَا أَنَّ هذه الجنّة تربع فِي كُلِّ حَالٍ وَلَا تَخَلَّفُ سَوَاءٌ قَلَّ الْمَطَرُ أَوْ كَثُرَ، كَذَلِكَ يُضْعِفُ اللَّهُ صَدَقَةَ الْمُؤْمِنَ الْمُخْلِصِ الَّذِي لَا يَمُنُّ وَلَا يؤذي بها؛ سَوَاءٌ قَلَّتْ نَفَقَتُهُ أَوْ كَثُرَتْ، وَذَلِكَ أَنَّ الطَّلَّ إِذَا كَانَ يَدُومُ يَعْمَلُ عَمَلَ الْوَابِلِ الشَّدِيدِ، (وَاللَّهُ بِماتعالىمَلُونَ بَصِيرٌ).

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ)، هَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى)، قَوْلُهُ (أَيَوَدُّ) يَعْنِي: أَيُحِبُّ أحدكم أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ، أَيْ: بُسْتَانٌ، مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ، لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ، اولا:دٌ صِغَارٌ ضعاف عجزة، فَأَصابَها إِعْصارٌ، وهو الرِّيحُ الْعَاصِفُ الَّتِي تَرْتَفِعُ إلى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا عَمُودٌ وَجَمْعُهُ أَعَاصِيرُ، فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِعَمَلِ الْمُنَافِقِ وَالْمُرَائِي، يَقُولُ: عَمَلُهُ فِي حُسْنِهِ كَحُسْنِ الجنة وينتفع بِهِ كَمَا يَنْتَفِعُ صَاحِبُ الْجَنَّةِ بِالْجَنَّةِ، فَإِذَا كَبِرَ أَوْ ضَعُفَ وصار له اولا:د ضعاف أصاب جَنَّتَهُ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ، فَصَارَ أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا وَضَعُفَ عَنْ إِصْلَاحِهَا لِكِبَرِهِ وَضَعْفِ اولا:دِهِ عَنْ إِصْلَاحِهَا لِصِغَرِهِمْ، وَلَمْ يَجِدْ هُوَ مَا يَعُودُ بِهِ عَلَى اولا:دِهِ وَلَا اولا:دُهُ مَا يَعُودُونَ بِهِ عَلَيْهِ، فَبَقُوا جَمِيعًا مُتَحَيِّرِينَ عَجَزَةً لَا حِيلَةَ بِأَيْدِيهِمْ، كَذَلِكَ يُبْطِلُ اللَّهُ عَمَلَ هَذَا الْمُنَافِقِ وَالْمُرَائِي حِينَ لَا مُغِيثَ لَهُمَا وَلَا تَوْبَةَ وَلَا إِقَالَةَ، قال: عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: قال: عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فِيمَنْ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ: أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ؟ قالوا: اللَّهُ

أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقال:قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ، فَقال: ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقال: عُمَرُ رَضِيَ اللَّه عنه: يا ابْنُ أَخِي قُلْ وَلَا تُحَقِّرْ نَفْسَكَ، قال: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ضَرَبْتَ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قال: عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيّ عمل؟ قال: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنهما: لعمل منافق ومراء، قال: عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ، (كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

تقدَّمتعالىريفُ الإنفاق في الآية رقم" ٢٥٤" من سورة" البقرة" عند تفسيرِ النداءِ السابع.

(الطَّيِّبُ): ضدُّ الخَبيث، و(طاب) يطيب (طِيبة) بكسرِ الطاءِ، و(تَطْيابًا) بفتحِ التاء؛ (مختار الصحاح).

وتقدم معنى الطيِّبات في الآية رقم" ١٧٢" من سورة" البقرة" عند تفسير النداء الثالث.

(ولا تيمَّموا): يممْتُ كذا وتَيَمَّمْتُه: قصدته، قال تعالى: (فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا) [النساء: ٤٣]، وتيمَّمتُه برمحي: قصدتُه دون غيره[١].

(الخَبيث): ما يُكْرَه رداءةً وخساسة، محسوسًا كان أو معقولاً، وأصلُه من الرَّدِيءِ الدِّخْلَةِ الجاري مجرى خَبَث الحديد، وذلك يتناول الباطل من الاعتقاد، والكذب في المقال:، والقبيح في الفِعال، كما قال تعالى: (وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) [الأعراف: ١٥٧]؛ أي: ما لا يُوافِقُ النفسَ من المحظورات.

وقال تعالى: (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) [آل عمران: ١٧٩]؛ أي: الأعمال الخبيثة من الأعمال الصالحة، والنفوس الخبيثة من النفوس الزكية، وقال:(وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّب) [النساء: ٢]؛ أي: الحرام بالحلال.

وقال تعالى: (قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ) [المائدة: ١٠٠]؛ أي: الكافرُ والمؤمن، والأعمالُ الفاسدة والأعمالُ الصالحة.

وقال تعالى: (وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَة) [إبراهيم: ٢٦]؛ إشارة إلى كل كلمة قبيحة؛ من كفر، وكذب، ونميمة، ويقال:خَبيثٌ مُخْبِث؛ أي: فاعل الخبث[٢].

(إلا أن تُغْمِضوا فيه): الغُمْض: النوم العارض؛ تقول: ما ذقتُ غُمْضًا ولا غِماضًا، وغَمَّضَ عينَه وأَغْمَضها: وضع إحدى جَفْنَتَيْه على الأخرى، ثم يُستعار للتغافل والتساهل، قال تعالى: (وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيه) [البقرة: ٢٦٧] [٣].

يقال:أغمض الرجل في أمر كذا: إذا تساهل فيه ورضي ببعض حقِّه وتجاوز، وما في تفسير الآية فهو مأخوذٌ من تغميضِ العين؛ لعدم رؤية العيب والرَّداءة[٤].

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)

فقوله -تعالى إلى -: الشيطان يعدكم الفقر معناه أنه يخيل إليكم بوسوسته أن الإنفاق يذهب بالمال ويفضي إلى سوء الحال، فلا بد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لما يولده الزمن من الحاجات، وهذا هو معنى قوله -تعالى إلى -: ويأمركم بالفحشاء فإن الأمر هنا عبارة عما تولده الوسوسة من الإغراء، والفحشاء البخل، وهي في الأصل كل ما فحش ؛ أي اشتد قبحه، وكان البخل عند العرب من أفحش الفحش، قال: طرفة:

[ص: ٦٣] أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

والله يعدكم بما أنزله من الوحي وبما أودعه في النفوس الزكية من الإلهام الصحيح، والعقل الرجيح، وفي الفطر السليمة من حب الخير، والرغبة في البر مغفرة منه وفضلا فإنه جعل الإنفاق كفارة لكثير من الخطايا وسببا يفضل به المرء قومه ويسودهم أو يسود فيهم بما يجذب إليه من قلوب من يكون سببا في رزقهم، وهذا الفضل من الجاه بالحق - هكذا قال: الأستاذ الإمام - والمأثور عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الفضل هو ما يخلفه الله -تعالى إلى - على المنفق من الرزق، ويؤيده قوله -تعالى إلى -: وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين [٣٤: ٣٩] وفي حديث الصحيحين ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا أي تلفا لماله، بأن يذهب حيث لا يفيده. ومعنى هذا الدعاء عندي: أن من سنة الله أن يخلف على المنفق بما يسهل له من أسباب الرزق ويرفع من شأنه في القلوب، وأن يحرم البخيل من مثل ذلك، وعلى هذا يكون وعد الله -تعالى إلى - بشيئين: أحدهما لخير الآخرة وهو المغفرة، والثاني لخير الدنيا وهو الخلف الذي يعطيه، وأقول: إن من هذا الخلف الرزق المعنوي وهو الجاه الذي هو عبارة عن ملك القلوب،

فيدخل فيه ما قال:ه الأستاذ الإمام - رحمه الله تعالى إلى - والله واسع عليم فهو إذا وعد أنجز لسعة فضله، ثم إنه يعلم أين يضع مغفرته وفضله، بمثل هذا يفسرون هذه الأسماء في هذه المواضع. وأقول: إن اسم عليم يفيد هنا أنه - سبحانه - يعلم غيب العبد ومستقبله والشيطان لا يعلم ذلك فوعده تغرير لا يعبأ به العاقل النحرير.

ومن مباحث اللفظ في الآية: استعمال الوعد في الخير والشر وهو شائع لغة، ثم جرى عرف الناس أن يخصوا الوعد بالخير والإيعاد بالشر، فإذا ذكروا الوعد مع الشر أرادوا به التهكم، على أن ما يعد به الشيطان من الفقر هو على تقدير الإنفاق، ويلزمه الوعد بالغنى مع البخل الذي يأمر به.ثم قال:يؤتي الحكمة من يشاء فيبين لنا بعد ذكر ما يعد هو - جل شأنه - به وما يعد به الشيطان ما نحن في أشد الحاجة إليه للتمييز بين ما يقع في النفس مع الإلهام الإلهي والوسواس الشيطاني، وتلك هي الحكمة.

فسر الأستاذ الحكمة هنا بالعلم الصحيح يكون صفة محكمة في النفس حاكمة [ص: ٦٤] على الإرادة توجهها إلى العمل، ومتى كان العمل صادرا عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح النافع المؤدي إلى السعادة. وكم من محصل لصور كثيرة من المعلومات خازن لها في دماغه ليعرضها في أوقات معلومة لا تفيده هذه الصور التي تسمى علما في التمييز بين الحقائق والأوهام، ولا في التزييل بين الوسوسة والإلهام ؛ لأنها لم تتمكن في النفس تمكنا يجعل لها سلطانا على الإرادة، وإنما هي تصورات وخيالات تغيب عند العمل، وتحضر عند المراء والجدل.

قال: الأستاذ الإمام ما معناه: والمراد بإيتائه الحكمة من يشاء - إعطاؤه آلتها العقل كاملة مع توفيقه لحسن استعمال هذه الآلة في تحصيل العلوم الصحيحة ؛ فالعقل هو الميزان القسط الذي توزن به الخواطر والمدركات، ويميز بين أنواع التصورات والتصديقات، فمتى رجحت فيه كفة الحقائق طاشت كفة الأوهام، وسهل التمييز بين الوسوسة والإلهام.

أقول: وهذا القول يتفق مع ما روي عن ابن عباس من" أن الحكمة هي الفقه في القرآن" أي معرفة ما فيه من الهدى، والأحكام بعللها وحكمها؛ لأن هذا الفقه هو أجل الحقائق المؤثرة في النفس الماحية لما يعرض لها من الوساوس حتى لا تكون مانعة من العمل الصالح. ولا شك أن من فقه ما ورد في الإنفاق وفوائده وآدابه من الآيات لا يكون وعد الشيطان له بالفقر وأمره إياه بالبخل مانعا له منه، ولكن الفقه في القرآن لا يكون إلا بكمال العقل وحسن استعماله في الفهم والبحث عن فوائد الأحكام وعللها ودلائل المسائل وبراهينها، فالخبر: فسر الحكمة بالأخص، رعاية للمقام. والأستاذ الإمام فسرها بالأعم بيانا لشمول هداية القرآن، فالآية بإطلاقها رافعة لشأن الحكمة بأوسع معانيها هادية إلى استعمال العقل في أشرف ما خلق له. ومن رزئ بالتقليد كان محروما من ثمرة العقل وهي الحكمة، محروما من الخير الكثير الذي أوجبه الله لصاحب الحكمة بقوله: ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا فيكون كالكرة تتقاذفه وسوسة شياطين الجن وجهالة شياطين الإنس، يتوهم أنه قد يستغني بعقول الناس عن عقله، وبفقه الناس عن فقه القرآن، بدعوى أنه جمع كل ما أوجبه القرآن مع زيادة في البيان، وقد يجد في فقه الناس أن الله لم يوجب عليه غير الزكاة التي لا تجب إلا بعد أن يحول الحول وهو مالك للنصاب، وأنه إذا هو وهب امرأته ماله قبل انقضاء الحول بيوم أو يومين ثم استوهبها إياه بعد دخول الحول الجديد بيوم أو يومين لم تجب عليه الزكاة، ويمكن على هذا أن يملك ألوفا من الدنانير وتمر عليه السنون والأحوال لا ينفق منها شيئا في سبيل الله ويكون مؤمنا عاملا بفقه الناس، ولكنه إذا عرض نفسه على القرآن وفقه ما أنزل الله فيه من غير تقليد ولا غرور بعظمة شهرة المحتالين المحرفين فإنه يعلم أنه يكون بهذا المنع عدوا لله -تعالى إلى - ولكتابه، محروما من الخير الكثير الذي أتاه الله -تعالى إلى - لأهله.

[ص: ٦٥] قرأنا واطلعنا على كثير من كتب الفقه التي هي عمدة المقلدين المنسوبين إلى المذاهب الأربعة، فلم نر في شيء منها عشر معشار ما جاء في القرآن الكريم من الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله، وبيان فوائده ومنافعه وكونه من أكبر آيات الإيمان والتنفير من الإمساك والبخل وبيان كونه من آيات الكفر، ولكنها تطيل فيما لم يعن به كتاب الله من بيان النصاب في كل ما تجب به الزكاة والحول، وغير ذلك من المسائل التي تستقصي كل شيء إلا ما

ينفذ إلى القلب فيجذبه إلى الرب بعد أن ينقذه من وساوس الشياطين، ويزج به في وجدان الدين، وهذا ما عابه الإمام الغزالي على هذا العلم الذي سموه فقها. وقال:إنه ليس من فقه القرآن في شيء، فهل يصح مع هذا أن يقال:إنه يمكن الاستغناء به عن فهم القرآن وفقه حكمه وأسراره؟ ألم تر أن أوسع الناس معرفة به هم في الغالب أشدهم بخلا وحرصا، حتى لا تكاد ترى أحدا منهم مشتركا في جمعية خيرية أو منفقا في مصلحة عامة أو خاصة، بل منهم الذين يحتالون ويعلمون الناس الحيل لمنع الزكاة المعينة التي أجمعوا على أنها من أركان الإسلام. ومنهم من يصف الجمعيات الخيرية بالبدعة ويلمز أهلها في عملهم، يعتذر بذلك عن نفسه أنه لم يقبض يده عن مساعدتهم إلا تمسكا بالشرع ومحافظة على أحكامه، فإذا قيل لهؤلاء: إن صح ما تزعمون فلم لا تنشئون جمعيات خيرية لخدمة الأمة وإعلاء شأن الملة؟ شكوا من كل أحد إلا من أنفسهم، على أنهم لو فعلوا لأسرع الجماهير إلى تلبيتهم ؛ لأن السواد الأعظم من المسلمين لا يزال يعتقد بأنهم هم المحافظون على الدين، أفرأيت من لا يعمل الخير ولا يأمر به، بل يصد عنه يكون قد أوتي الحكمة التي قال: الله فيمن أوتيها إنه: أوتي خيرا كثيرا أو يكون قد أوتي فقه القرآن الذي هو أخص ما فسرت به الحكمة؟ لا نعني بما تقدم أن علم الأحكام المعروف بالفقه لا حاجة إليه بالمرة، وإنما نعني أنه لا يستغنى به عن فهم القرآن حتى في الأحكام.

ثم أقول إيضاحا للمقام: إن الله جعل الخير الكثير مع الحكمة في قرن، فهما لا يفترقان كما لا يفترق المعلول عن علته التامة، فالحكمة: هي العلم الصحيح المحرك للإرادة إلى العمل النافع الذي هو الخير. وآلة الحكمة هي العقل السليم المستقل بالحكم في مسائل العلم، فهو لا يحكم إلا بالدليل، فمتى حكم جزم فأمضى وأبرم، فكل حكيم عليم عامل مصدر للخير الكثير ؛ ولذلك قال تعالى: وما يذكر إلا أولو الألباب أي وقد جرت سنته -تعالى إلى - بأنه لا يتعظ بالعلم ويتأثر به تأثرا يبعث على العمل إلا أصحاب العقول الخالصة من الشوائب، والقلوب السليمة من المعايب، وهو تذييل يؤيد ما تقدم في تفسير الحكمة، فنسأله -تعالى إلى - أن يجعلنا من أولي الألباب المؤيدين بالحكمة وفصل الخطاب،

ثم قال تعالى: :يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)

ص: ٣٠٠] قوله تعالى: يؤتي الحكمة من يشاء أي يعطيها لمن يشاء من عباده. واختلف العلماء في الحكمة هنا، فقال: السدي: هي النبوة. ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبه ومقدمه ومؤخره. وقال: قتادة ومجاهد: الحكمة هي الفقه في القرآن. وقال: مجاهد: الإصابة في القول والفعل. وقال: ابن زيد: الحكمة العقل في الدين. وقال: مالك بن أنس: الحكمة المعرفة بدين الله والفقه فيه والاتباع له. وروى عنه ابن القاسم أنه قال:الحكمة التفكر في أمر الله والاتباع له. وقال: أيضا: الحكمة طاعة الله والفقه في الدين والعمل به. وقال: الربيع بن أنس: الحكمة الخشية. وقال: إبراهيم النخعي: الحكمة الفهم في القرآن، وقال:ه زيد بن أسلم. وقال: الحسن: الحكمة الورع.

قلت: وهذه الأقوال كلها ما عدا قول السدي والربيع والحسن قريب بعضها من بعض ؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في قول أو فعل، فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه حكمة، وكل ما ذكر من التفضيل فهو حكمة. وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقيل للعلم حكمة ؛ لأنه يمتنع به، وبه يعلم الامتناع من السفه وهو كل فعل قبيح، وكذا القرآن والعقل والفهم. وفي البخاري: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وقال: هنا: ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وكرر ذكر الحكمة ولم يضمرها اعتناء بها، وتنبيها على شرفها وفضلها حسب ما تقدم بيانه عند قوله تعالى: فبدل الذين ظلموا قولا. وذكر الدارمي أبو محمد في مسنده: حدثنا مروان بن محمد حدثنا رفدة الغساني قال:أخبرنا ثابت بن عجلان الأنصاري قال:كان يقال:إن الله ليريد العذاب بأهل الأرض فإذا سمعتعالىليم المعلم الصبيان الحكمة صرف ذلك عنهم. قال: مروان: يعني بالحكمة القرآن.

قوله تعالى: ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب يقال:إن من أعطي الحكمة والقرآن فقد أعطي أفضل ما أعطي من جمع علم كتب الأولين من [ص: ٣٠١] الصحف وغيرها ؛ لأنه قال: لأولئك: وما أوتيتم من العلم إلا قليلا. وسمى هذا خيرا كثيرا ؛ لأن هذا هو جوامع الكلم. وقال: بعض الحكماء: من أعطي العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه، ولا

يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم، فإنما أعطي أفضل ما أعطي أصحاب الدنيا ؛ لأن الله تعالى إلى سمى الدنيا متاعا قليلا فقال:قل متاع الدنيا قليل وسمى العلم والقرآن خيرا كثيرا. وقرأ الجمهور (ومن يؤت) على بناء الفعل للمفعول. وقرأ الزهري ويعقوب" ومن يؤت" بكسر التاء على معنى ومن يؤت الله الحكمة، فالفاعل اسم الله عز وجل. ومن مفعول أول مقدم، والحكمة مفعول ثان. والألباب: العقول، واحدها لب وقد تقدم.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)

قال: أبو جعفر: يعني بذلك - جل ثناؤه -: وأي نفقة أنفقتم - يعني: أي صدقة تصدقتم - أو أي نذر نذرتم - يعني" بالنذر" ما أوجبه المرء على نفسه تبررا في طاعة الله، وتقربا به إليه - من صدقة أو عمل خير" فإن الله يعلمه" [ص: ٥٨١] أي إن جميع ذلك بعلم الله، لا يعزب عنه منه شيء، ولا يخفى عليه منه قليل ولا كثير، ولكنه يحصيه أيها الناس عليكم حتى يجازيكم جميعكم على جميع ذلك.

فمن كانت نفقته منكم وصدقته ونذره ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من نفسه، جازاه بالذي وعده من التضعيف، ومن كانت نفقته وصدقته رئاء الناس ونذوره للشيطان، جازاه بالذي أوعده من العقاب وأليم العذاب كالذي: -

٦١٩٣ - حدثني محمد بن عمرو قال:حدثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قول الله - عز وجل -:" وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه" ويحصيه.

٦١٩٤ - حدثني المثنى قال:حدثنا أبو حذيفة قال:حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد مثله.

ثم أوعد - جل ثناؤه - من كانت نفقته رياء ونذوره طاعة للشيطان فقال: "وما للظالمين من أنصار" يعني: وما لمن أنفق ماله رئاء الناس وفي معصية الله، وكانت نذوره للشيطان وفي طاعته" من أنصار" وهم جمع" نصير" كما" الأشراف" جمع" شريف" . ويعني بقوله:" من أنصار" من ينصرهم من الله يوم القيامة، فيدفع عنهم عقابه يومئذ بقوة وشدة بطش، ولا بفدية.

سبب تسمية الله المنفق رياء الناس، والناذر في غير طاعته ظالما

وقد دللنا على أن" الظالم" هو الواضع للشيء في غير موضعه.

وإنما سمى الله المنفق رياء الناس، والناذر في غير طاعته ظالما ؛ لوضعه إنفاق ماله في غير موضعه، ونذره في غير ما له وضعه فيه، فكان ذلك ظلمه. [ص: ٥٨٢]

قال: أبو جعفر: فإن قال: لنا قائل: فكيف قال:"فإن الله يعلمه" ولم يقل:" يعلمهما" وقد ذكر النذر والنفقة.

قيل: إنما قال:"فإن الله يعلمه" لأنه أراد: فإن الله يعلم ما أنفقتم أو نذرتم، فلذلك وحد الكناية.

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَاتعالىلَمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

قال: أبو جعفر: يعني بقوله - جل ثناؤه -:" إن تبدوا الصدقات" إنتعالىلنوا الصدقات فتعطوها من تصدقتم بها عليه" فنعما هي" يقول: فنعم الشيء هي" وإن تخفوها" يقول: وإن تستروها فلمتعالىلنوها" وتؤتوها الفقراء" يعني: وتعطوها الفقراء في السر" فهو خير لكم" يقول: فإخفاؤكم إياها خير لكم من إعلانها. وذلك في صدقة التطوع كما: -

٦١٩٥ - حدثنا بشر قال:حدثنا يزيد قال:حدثنا سعيد، عن قتادة قوله:" إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم" كل مقبول إذا كانت النية صادقة، وصدقة السر أفضل. وذكر لنا أن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.

٦١٩٦ - حدثني المثنى قال:حدثنا إسحاق قال:حدثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع، في قوله:" إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم" قال:كل مقبول إذا كانت النية صادقة، [ص: ٥٨٣] والصدقة في السر أفضل. وكان يقول: إن الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.

٦١٩٧ - حدثني المثنى قال:حدثنا عبد الله قال:حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس قوله إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم" فجعل الله صدقة

السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا

وجعل صدقة الفريضة: علانيتها أفضل من سرها، يقال: بخمسة وعشرين ضعفا، وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها.

٦١٩٨ - حدثني عبد الله بن محمد الحنفي قال:حدثنا عبد الله بن عثمان قال:حدثنا عبد الله بن المبارك قال:سمعت سفيان يقول في قوله:" إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم" قال:يقول: هو سوى الزكاة..

وقال: آخرون: إنما عنى الله - عز وجل - بقوله:" إن تبدوا الصدقات فنعما هي" إن تبدوا الصدقات على أهل الكتابين من اليهود والنصارى فنعما هي، وإن تخفوها وتؤتوها فقراءهم فهو خير لكم. قالوا: وأما ما أعطى فقراء المسلمين من زكاة وصدقة تطوع فإخفاؤه أفضل من علانيته.

ذكر من قال: ذلك:

٦١٩٩ - حدثني يونس قال:أخبرنا ابن وهب قال:حدثني عبد الرحمن بن شريح، أنه سمع يزيد بن أبي حبيب يقول: إنما نزلت هذه الآية:" إن تبدوا الصدقات فنعما هي" في الصدقة على اليهود والنصارى. [ص: ٥٨٤]

٦٢٠٠ - حدثني عبد الله بن محمد الحنفي قال:أخبرنا عبد الله بن عثمان قال:أخبرنا ابن المبارك قال:أخبرنا ابن لهيعة قال:كان يزيد بن أبي حبيب يأمر بقسم الزكاة في السر. قال: عبد الله: أحب أنتعالىطى في العلانية يعني الزكاة.

قال: أبو جعفر: ولم يخصص الله من قوله:" إن تبدوا الصدقات فنعما هي" [شيئا دون شيء]، فذلك على العموم إلا ما كان من زكاة واجبة، فإن الواجب من الفرائض قد أجمع الجميع على أن الفضل في إعلانه وإظهاره سوى الزكاة التي ذكرنا اختلاف المختلفين فيها مع إجماع جميعهم على أنها واجبة، فحكمها في أن الفضل في أدائها علانية، حكم سائر الفرائض غيرها.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِتعابرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

قال: أبو عبدالرحمن النَّسائي: أنبأنا محمد بن عبدالسلام بن عبدالرحيم: أنبأنا الْفِرْيَابِيُّ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ إِيَاسٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قال:كَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَرْضَخُوا لِأَنْسَابِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَسَأَلُوا، فَرَخَّصَ لَهُمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ.

وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو حُذَيْفَةَ، وَابْنُ المبارك، وأبو أحمد الزّبيدي، وأبو داود الحضرمي.

الشيخ: المعروف: الحثري، بالحاء والثاء، الحضرمي غلط، حطّ نسخة: الحثري.

عَنْ سُفْيَانَ -وَهُوَ الثَّوْرِيُّ- بِهِ.

وَقال: ابْنُ أبي حاتم.

الشيخ:..... وأن يجعلنا وإيَّاكم من الْهداة المهتدين، وأن يرزقنا جميعًا العلم النافع، والعمل الصالح، والاستقامة على..... العلم النافع من القول والعمل.

وهذا الحديثُ يدل على أنَّ الناس كانوا -يعني المسلمين- في أول الإسلام هابوا أن يرضخوا..... من المشركين يعني..... خافوا أن يكون هذا من المودّة والمحبّة لهم، فبين اللهُ جلَّ وعلا أنَّ هذا لا يمنع: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، فهم لا يهتدون، لا يمنع من الإحسان إليهم، وترغيبهم في الخير، وتأليف قلوبهم ولو لم يهتدوا، فهذا معنى.....: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ [الممتحنة:٨]، وأنه لم ينهانا عن..... أن نبرّهم ونُقسط إليهم؛ لأنَّ في هذا تأليفًا لهم، ودعوةً لهم إلى الخير، وإن كانوا كفَّارًا، ما داموا ليسوا حربًا لنا، ما بيننا وبينهم حربٌ، بل إمَّا مُستأمنون، وإما نحن ضُعفاء بينهم..... حتى يفتح اللهُ.

ولما قدمت أمّ أسماء بنت أبي بكر؛ لأنَّ أسماء أختٌ لعائشة من أبيها، أمّها غير أمّ عائشة، قدمت المدينةَ في صُلح الحُديبية -المدّة التي صالح فيها النبيُّ أهلَ مكّة على وضع الحرب- استأذنت أسماءُ النبيَّ ﷺ قال:ت: هل أصل أمّي؛ لأنها قدمت تطلب الرّفد؟ قال:نعم صليها، وهي كافرة على دين قومها، فوصلتها وأحسنت إليها، والله جلَّ وعلا جعل في الزكاة حقًّا للمُؤلّفة قلوبهم، قال تعالى: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ [التوبة:٦٠]، وهكذا في بيت المال.

والمؤلّف قلبُه هو الكافر الذي يُرجى إسلامه، أو ضعيف الإسلام يُعطى حتى يقوى إيمانه، أو كافر يُعطى حتى يُدفع شرّه، فلا مانع من..... من أقارب، أو أصدقاء، أو جيران، والإحسان إليهم مدّة الهدنة، أو مدّة الصلح الذي بيننا وبينهم، أو مدّة العهد والذّمة، أو إذا كنت فقيرًا بينهم -بين قومٍ كُفَّارٍ- وأنت لا تأمنهم على نفسك؛ ترضخ من مالك، وتُحسِن إليهم؛ لدفع شرّهم، ودعوتهم إلى الخير، كما كان الناسُ قبل الهجرة: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، الهداية بيد الله، ولكن الإحسانَ إليهم ومُواساتهم والرِّفق بهم من أسباب دخولهم الإسلام، ومن أسباب كفِّ شرّهم.

أنبأنا أَحْمَدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عَطِيَّةَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ -يَعْنِي الدَّشْتَكِيَّ- حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ: حَدَّثَنَا أَشْعَثُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ جَعْفَرِ ابْنِ أَبِي الْمُغِيرَةِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِأَلّا يُتَصَدَّقَ إِلَّا عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ إلى آخِرِهَا، فَأَمَرَ بِالصَّدَقَةِ بَعْدَهَا عَلَى كُلِّ مَنْ سَأَلَكَ مِنْ كُلِّ دِينٍ، وَسَيَأْتِي عِنْدَ قوله تعالى: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ، حديث أسماء بنت الصّديق في ذلك.

الشيخ:..... الآية: وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ [البقرة:٢٧٢]، إذا أعطيتُموهم لهذا الأمر أعطيتُم أنسابَكم الكفَّار وقت الهدنة..... لوجه الله هو لأنفسكم: إما لدفع شرٍّ، وإما لجلب خيرٍ: وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تنبيهًا للمؤمنين أن تكون النَّفقةُ لله، وابتغاء مرضاته، سواء كان لدفع الشَّر، أو لجلب الخير، يقصد وجه الله بكونه يُعطيه لجذبه للإسلام، أو لدفع شرِّه، أو لإسلام نظيره، أو لأسبابٍ أخرى.....: وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ [البقرة:٢٧٢]، لكن هذا الخير الذي تُنفقونه يعود إليكم، ولا تنقصونه، بل..... لكم، سواء كان مصروفًا في المسلمين، أو مصروفًا في الكفَّار الذين أذن الله..... والإحسان إليهم.

وَقَوْلُهُ: وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ كَقَوْلِهِ: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ [فصلت:٤٦]، وَنَظَائِرُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ.

وَقَوْلُهُ: وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ قال: الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: نَفَقَةُ الْمُؤْمِنِ لِنَفْسِهِ، وَلَا يُنْفِقُ الْمُؤْمِنُ إِذَا أَنْفَقَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ.

وَقال: عَطَاءٌ الخراساني: يعني: إذا أعطيتَ لِوَجْهِ اللَّهِ فَلَا عَلَيْكَ مَا كَانَ عَمَلُهُ.

وَهَذَا مَعْنًى حَسَنٌ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُتَصَدِّقَ إِذَا تَصَدَّقَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَلَا عَلَيْهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِمَنْ أَصَابَ: أَلِبَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، أَوْ مُسْتَحِقٍّ أو غيره، وهو مُثَابٌ عَلَى قَصْدِهِ، وَمُسْتَنَدُ هَذَا تَمَامُ: وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ، وَالْحَدِيثُ الْمُخَرَّجُ فِي" الصَّحِيحَيْنِ" مِنْ طَرِيقِ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال:قال: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قال: رَجُلٌ: لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحَ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى زَانِيَةٍ، فَقال:اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ! لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ، فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ الليلةَ على غنيٍّ، قال:اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى غَنِيٍّ! لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بصدقةٍ، فخرج فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَارِقٍ، فَقال:اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، عَلَى زَانِيَةٍ! وَعَلَى غَنِيٍّ! وَعَلَى سَارِقٍ! فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ.

الشيخ: لعله أُتِيَ في النوم، يعني: لعله أُتي في النوم، يعني: بُشِّر في النّوم.

ج: يعني أنه ماتعالىمّد السَّارق، ولاتعالىمّد الزانية، ولاتعالىمّد الغني، وإنما وضعها يظنّه مستحقًّا، فبان الأول أنها امرأة زانية، وأنَّ الثاني غنيّ، وأنَّ الثالث سارق، فأُتِيَ، نعم.

فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ أَنْ يَسْتَعِفَّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ.

وَقَوْلُهُ: لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ [البقرة:٢٧٣] يعني: المهاجرين الذين انْقَطَعُوا إلى اللَّهِ، وَ إلى رَسُولِهِ، وَسَكَنُوا الْمَدِينَةَ، وَلَيْسَ لَهُمْ سَبَبٌ يَرْدُونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ما يُغنيهم.

لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ [البقرة:٢٧٣] يَعْنِي: سَفَرًا لِلتَّسَبُّبِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ، وَالضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ هُوَ السَّفَرُ، قال: الله تعالى إلى: وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ [النساء:١٠١]، وَقال تعالى: عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ [المزمل:٢٠].

وَقَوْلُهُ: يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ [البقرة:٢٧٣] أَيِ: الْجَاهِلُ بِأَمْرِهِمْ وَحَالِهِمْ يَحْسَبُهُمْ أَغْنِيَاءَ مِنْتعالىتَّعَفِّفِهِمْ فِي لِبَاسِهِمْ وَحَالِهِمْ وَمَقال:هِمْ.

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى الْحَدِيثُ الْمُتَّفَقُ عَلَى صِحَّتِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال:قال: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالْأُكْلَةُ وَالْأُكْلَتَانِ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا. رَوَاهُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْضًا.

الشيخ: يعني هذا المسكين كمال المسكنة، الفقير مسكين، ما عنده شيء إلا اللّقمة، وحده مسكين، فقير، لكن أولى منه بالمسكنة وأحقّ بالصّدقة مَن ذكر أنّه لا يجد غنًى يُغنيه، ما عنده شيء، ولا يُفطن له فيُتصدّق عليه؛ لتعفّفه، ولا يقوم فيسأل الناس؛ حياءً، هذا أحقّ بالصّدقة، وإن كان كلٌّ منهم: الذي ما عنده شيء مسكين، والذي سأل مسكين، لكن هذا الذي يتعفّف ولا يُفطن له ولا يسأل أحقّ بالعناية والمواساة والإحسان.

وهذا مثل قوله ﷺ: ليس الشّديد بالصّرعة، إنما الشّديد الذي يملك نفسه عند الغضب، الصّرعة: الذي يصرع الناس يُسمّى: صرعة، لكن أولى من جهة الاسم وأحقّ الذي يملك نفسه عند الغضب، هو أولى باسم الصّرعة، فهو القوي الذي يملك نفسه حتى قهرها عند الغضب.

تفسير قَوْلُهُ تعالى: (تعرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ)

قَوْلُهُ تعالى: (تعرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) [البقرة:٢٧٣] أَيْ: بِمَا يَظْهَرُ لِذَوِي الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ [الفتح:٢٩]، وَقال:وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ [محمد:٣٠]، وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي السُّنَنِ: اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ [الحجر:٧٥].

وقوله: لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا [البقرة:٢٧٣] أَيْ: لَا يُلِحُّونَ فِي الْمَسْأَلَةِ وَيُكَلِّفُونَ النَّاسَ مَا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَإِنْ سأل وله ما يُغنيه عن المسألة فَقَدْ أَلْحَفَ فِي الْمَسْأَلَةِ.

قال: الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ: حَدَّثَنَا شَرِيكُ ابْنُ أَبِي نَمِرٍ: أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَسَارٍ وَعَبْدَالرَّحْمَنِ ابْنَ أَبِي عَمْرَةَ الْأَنْصَارِيَّ قال:ا: سَمِعْنَا أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قال: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللُّقْمَةُ واللُّقمتان، إنما المسكينُ الذي يتعفّف، اقرؤوا إن شئتُم –يعني- قوله: لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا.

وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ الْمَدِينِيِّ، عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ ابْنِ أَبِي نَمِرٍ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ وَحْدَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، بِهِ.

السر في تقديم الليل على النهار والسر على العلانية

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

كل ما تقدم من الآيات في الإنفاق كان في الترغيب فيه وبيان فوائدها في أنفس المنفقين وفي المنفق عليهم، وفي الأمة التي يكفل أقوياؤها ضعفاءها، وأغنياؤها فقراءها، ويقوم فيها القادرون بالمصالح العامة، وفي آداب النفقة، وفي المستحق لها وأحق الناس بها، ونحو ذلك من الأحوال إلا ما يتعلق بالزمان. فقد ذكره الله -تعالى إلى - في قوله: الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية وفيه بيان عموم الأوقات مع عموم الأحوال من الإظهار والإخفاء، وفي تقديم الليل على النهار والسر على العلانية إيذان بتفضيل صدقة السر.

السر البلاغي في الجمع بين السر والعلانية

ولكن الجمع بين السر- والعلانية يقتضي- أن لكل منهما موضعا تقتضيه الحال وتفضله المصلحة لا يحل غيره محله، وتقدم وجه كل في تفسير إن تبدوا الصدقات [٢:٢٧١] وهؤلاء الذين ينفقون أموالهم في كل وقت وكل حال لا يقبضون أيديهم مهما لاح لهم طريق للإنفاق هم الذين بلغوا نهاية الكمال في الجود والسخاء وطلب مرضاة الله -تعالى إلى -، وقد ورد أن الآية نزلت في الصديق الأكبر - عليه الرضوان - إذ أنفق أربعين ألف دينار. قيل: اتفق أن كان عشرة منها بالليل، وعشرة بالنهار، وعشرة بالسر-، وعشرة بالعلانية، ونقل الألوسي عن السيوطي أن خبر تصدقه بأربعين ألفا رواه ابن عساكر في تاريخه عن عائشة، ولكن ليس فيه أن الآية نزلت في ذلك. وأخرج عبد الرازق وابن جرير وغيرهما بسند ضعيف عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنها نزلت في علي - كرم الله وجهه - كانت له أربعة دراهم فأنفق بالليل درهما، وبالنهار درهما، وسرا درهما، وعلانية درهما.

وفي رواية الكلبي: فقال: له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ما حملك على هذا؟ قال:حملني أن أستوجب على الله الذي وعدني، فقال: رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ألا إن ذلك لك والعبارة تدل على أنه أنفق ذلك بعد نزول الآية. وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن المسيب أنها نزلت في [ص: ٧٨] عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف إذ أنفقا في جيش العسرة. وأخرج الطبراني وابن أبى حاتم: أنها نزلت في أصحاب الخيل، وفي إسناد هذه الرواية مجهولان فلم يصح في سبب نزولها شيء. ومعناها عام: أي الذين ينفقون أموالهم في كل وقت وكل حال، لا يحصرون الصدقة في الأيام الفاضلة أو رءوس الأعوام ولا يمتنعون عن الصدقة في العلانية إذا اقتضت الحال العلانية، وإنما يجعلون لكل وقت حكمة ولكل حال حكمها ؛ إذ الأوقات والأحوال لا تقصد لذاتها، وقوله: فلهم أجرهم عند ربهم يشعر أن هذا الأجر عظيم، وفي إضافتهم إلى الرب ما فيها من التكريم، ولا خوف عليهم يوم يخاف البخلاء الممسكون من تبعة بخلهم ولا هم يحزنون وقد تقدم تفسير مثل هذا الوعد الكريم.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قالوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تعلمُونَ (٢٨٠)

تفسير قوله تعالى: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

[ص: ٧٩] نزلت هذه الآيات في تحريم الربا الذي كان معروفا في الجاهلية، يأتيه اليهود والمشركون، وهي من آخر القرآن نزولا كما سيأتي. وذكرت في النظم بعد آيات الصدقة التي كان آخرها آية الكاملين في السخاء والجود الذين ينفقون في عامة الأوقات والأحوال، لما بينهما من التناسب بالتضاد، فالمتصدق يعطي المال بغير عوض يقابله، والمرابي يأخذ المال بغير عوض يقابله وإننا نذكر تفسير الآيات ثم نفيض الكلام في مسألة الربا وحكمة تحريمه ؛ لأن لهذه المسألة شأنا كبيرا في حياة الأمة السياسية والاجتماعية في هذا العصر، ويزعم بعض المتفرنجين من المسلمين أن تحريم الربا هو العقبة الكئود في طريق مجاراة المسلمين للأمم الغربية في الثروة التي هي مناط العزة والقوة.

المراد بالأكل في قوله تعالى: (الذين يأكلون الربا)

قوله تعالى: الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس تنفير من الربا وتبشيع لحال آكله. والمراد بالأكل: الأخذ لأجل التصرف، وأكثر مكاسب الناس تنفق في الأكل، ومن تصرف في شيء من مال غيره يقال: أكله وهضمه، أي أنه تصرف فيه تمام التصرف حتى لا مطمع في رده. والربا في اللغة: الزيادة، يقال:ربا الشيء يربو إذا زاد على ما كان عليه، ومنه الرابية، والربوة لما علا من الأرض فزاد على ما حوله. وتعريف الربا للعهد، أي لا تأكلوا الربا الذي عهدتم في الجاهلية. وذكر ابن جرير في تفسير الآية وتفسير آية آل عمران كيفية ذلك قال:وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم أن الرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول له الذي عليه المال: أخر عني دينك وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة، فنهاهم الله - عز وجل - في إسلامهم عنه، اهـ. وذكر وقائع للجاهلية في ذلك سننقلها عنه في موضعها.

وأما قيام آكلي الربا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، فقد قال: ابن عطية في تفسيره: المراد: تشبيه المرابي في الدنيا بالمتخبط المصروع، كما يقال: لمن يصرع بحركات مختلفة قد جن. أقول: وهذا هو المتبادر، ولكن ذهب الجمهور إلى خلافه، وقالوا: إن المراد بالقيام: القيام من القبر عند البعث، وأن الله -تعالى إلى - جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين. ورووا ذلك عن ابن عباس وابن مسعود، بل روى الطبراني من حديث عوف بن مالك مرفوعا:" إياك والذنوب التي لا تغفر: الغلول فمن غل شيئا أتى به يوم القيامة، والربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنونا يتخبط" أقول: والمتبادر إلى جميع الأفهام ما قال:ه ابن عطية ؛ لأنه إذا ذكر القيام انصرف إلى النهوض المعهود [ص: ٨٠] في الأعمال، ولا قرينة تدل على أن المراد به البعث. وهذه الروايات لا يسلم منها شيء من قول في سنده وهي لم تنزل مع القرآن ولا جاء المرفوع منها مفسرا للآية، ولولاها لما قال: أحد بغير المتبادر الذي قال:ه ابن عطية إلا من لم يظهر له صحته في الواقع. وكان الوضاعون الذين يختلقون الروايات يتحرون في بعضها ما أشكل عليهم ظاهره من القرآن فيضعون له رواية يفسرونه بها وقلما يصح في التفسير شيء، كما قال: الإمام أحمد.

أما ما قال:ه ابن عطية ظاهر في نفسه، فإن أولئك الذين فتنهم المال واستعبدهم حتى ضريت نفوسهم بجمعه وجعلوه مقصودا لذاته وتركوا لأجل الكسب به، جميع موارد الكسب الطبيعي، تخرج نفوسهم عن الاعتدال الذي عليه أكثر الناس، ويظهر ذلك في حركاتهم وتقلبهم في أعمالهم، كما تراه في حركات المولعين بأعمال البورصة والمغرمين بالقمار يزيد فيهم النشاط والانهماك في أعمالهم، حتى يكون خفةتعالىقبها حركات غير منتظمة، وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط الممسوس، فإن التخبط من الخبط وهو ضرب غير منتظم، وكخبط العشواء، وبهذا يمكن الجمع بين ما قال:ه ابن عطية وما قال:ه الجمهور، ذلك بأنه إذا كان ما شنع به على المرابين من خروج حركاتهم عن النظام المألوف هو أثر اضطراب نفوسهم وتغير أخلاقهم كان لا بد أن يبعثوا عليه، فإن المرء يبعث على ما مات عليه، لأنه يموت على ما عاش عليه، وهناك تظهر النفس الخسيسة في أقبح مظاهرها، كما تتجلى صفات النفس الزكية في أبهى مجاليها.

ثم إن التشبيه مبني على أن المصروع الذي يعبر عنه بالممسوس يتخبطه الشيطان، أي أنه يصرع بمس الشيطان له وهو ما كان معروفا عند العرب وجاريا في كلامهم مجرى المثل.

قال: البيضاوي في التشبيه:" وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع، والخبط: ضرب على غير اتساق كخبط العشواء" . اهـ. وتبعه أبو السعود كعادته، فذكر عبارته بنصها، فالآية على هذا لا تثبت أن الصرع المعروف يحصل بفعل الشيطان حقيقة ولا ننفي ذلك، وفي المسألة خلاف بين العلماء، أنكر المعتزلة وبعض أهل السنة أن يكون للشيطان في الإنسان غير ما يعبر عنه بالوسوسة، وقال: بعضهم: إن سبب الصرع مس الشيطان كما هو ظاهر التشبيه - وإن لم يكن نصا فيه - وقد ثبت عند أطباء هذا العصر أن الصرع من الأمراض العصبية التيتعالالج كأمثالها بالعقاقير وغيرها من طرق العلاج الحديثة، وقد يعالج بعضها بالأوهام، وهذا ليس برهانا قطعيا على أن هذه المخلوقات الخفية التي يعبر عنها بالجن يستحيل أن يكون لها نوع اتصال بالناس المستعدين للصرع، فتكون من أسبابه في بعض الأحوال، والمتكلمون يقولون: إن الجن أجسام حية خفية لا ترى، وقد قلنا في (المنار) غير مرة: إنه يصح أن يقال:إن الأجسام الحية الخفية التي عرفت في هذا العصر بواسطة [ص: ٨١] النظارات المكبرة، وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعا من الجن، وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض. قلنا ذلك في تأويل ما ورد من أن الطاعون من وخز الجن، على أننا نحن المسلمين لسنا في حاجة إلى النزاع فيما أثبته العلم وقرره الأطباء أو إضافة شيء إليه مما لا دليل في العلم عليه لأجل تصحيح بعض الروايات الأحادية، فنحمد الله -تعالى إلى - على أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم.

قال تعالى: ذلك بأنهم قال:وا إنما البيع مثل الربا أي ذلك الأكل للربا مسبب عن استحلالهم له وجعله كالبيع وما هو كالبيع ؛ فإن البيع معاوضة بين شيئين، وأما الربا الذي كانوا يأكلونه فهو زيادة عن دينهم يزيدونها عند تأخير الأجل لا يقابلها شيء، وما يؤخذ بغير مقابل فهو من الباطل ؛ لذلك حرم الله الربا دون البيع فقال:وأحل الله البيع وحرم الربا ولو كانا متساويين لما اختلف حكمهما عند أحكم الحاكمين، فكل ما فيه معاوضة صحيحة خالية من أكل أموال الناس بالباطل الذي لا يقابله عوض فهي بيع حلال، وإنما تحرم الزيادة التي يأخذها صاحب المال لأجل التأخير في الأجل، وهي لا معاوضة فيها ولا مقابل لها فهي ظلم، وسيأتي في آية أخرىتعالليل تحريم الربا بكونه ظلما. هذا ما يظهر لنا في معنى هذه العبارة، وترى مفسرينا قد بنوا كلامهم

فيها على تسليم كون البيع مثل الربا إذ جعلوا تحريم الربا بمعنى الأمر التعبدي، وقالوا: إن معناه أن الله -تعالى إلى - رد عليهم بأن أحل هذا وحرم هذا، فيجب أن يطاع.

ويظهر من عبارة ابن جرير أن هذا القول الذي أسند إليهم على ظاهره، قال:"هذا الذي ذكرنا أنه يصيبهم يوم القيامة من قبح حالهم، ووحشة قيامهم من قبورهم، وسوء ما حل بهم من أجل أنهم كانوا في الدنيا يكذبون ويفترون، ويقولون إنما البيع الذي أحله الله لعباده مثل الربا، وذلك أن الذين كانوا يأكلون الربا من أهل الجاهلية كان إذا حل مال أحدهم على غريمه، يقول الغريم الحق: زدني في الأجل وأزيدك في مالك، فكان يقال: لهما إذا فعلا ذلك: هذا ربا لا يحل، فإذا قيل لهما ذلك قال:ا: سواء علينا زدنا في أول البيع أو عند محل المال، فكذبهم الله -تعالى إلى - في قيلهم فقال:وأحل الله البيع - ثم قال: في تفسير هذا ما نصه - يعني - جل ثناؤه -: وأحل الله الأرباح في التجارة والشراء والبيع وحرم الربا، يعني الزيادة التي يزاد رب المال بسبب زيادته غريمه في الأجل وتأخيره دينه عليه. يقول - عز وجل -: وليست الزيادتان اللتان إحداهما من وجه البيع والأخرى من وجه تأخير المال والزيادة في الأجل سواء ؛ وذلك أني حرمت إحدى الزيادتين وهي التي من وجه تأخير المال والزيادة في الأجل، وأحللت الأخرى منهما وهي التي من وجه الزيادة على رأس المال الذي ابتاع به البائع سلعته التي يبيعها فيستفضل فضلها، فقال: الله [ص: ٨٢] - عز وجل -: ليست الزيادة من وجه البيع نظير الزيادة من وجه الربا ؛ لأني أحللت البيع وحرمت الربا، والأمر أمري، والخلق خلقي، أقضي فيهم ما أشاء، وأستعبدهم بما أريد، ليس لأحد منهم أن يعترض في حكمي" . اهـ.

أقول: أما ما قال:ه في بيان الفرق بين الزيادتين فهو الصواب، وما ذكره في معنى الربا هو الذي كان معهودا عندهم، وهو ما يسميه الفقهاء ربا النسيئة - كما تقدم - وأما قوله:

إنهم كان يقال: لهم: هذا ربا محرم، وكانوا يجيبون بما حكى الله عنهم فليست الآية نصا فيه، إذ الحكاية عن الأحوال بالأقوال من الأساليب المعروفة عند العرب، ويتوقف جعل القول على حقيقته على إثبات اعتقاد العرب بتحريم الربا، أو على جعل الآية خاصة باليهود ؛ فإن الربا محرم في شريعتهم، وهم أشد الخلق مراباة وكانوا يستحلون أكل أموال العرب بكل نوع من أنواع الباطل قال:وا ليس علينا في الأميين سبيل [٣: ٧٥] وإنما حرم علينا أكل أموال إخوتنا الإسرائيليين، ولا دليل على التخصيص، بل الآيات نزلت في وقائع لغيرهم - كما سيأتي - ثم إن ما علل به كون إحدى الزيادتين ليست كالأخرى وهو أن الله حرمها، يقال: فيه: إنها ليست مثلها في الواقع ونفس الأمر كما بين هو، ولا في النفع والضر كما سنبين ؛ ولذلك حرمها الله -تعالى إلى - ، فما حرم الله -تعالى إلى - شيئا إلا لأنه ضار في نفسه، ولا أحل شيئا إلا وهو نافع في نفسه.

تفسير قوله تعالى: (فمن جاءه موعظة من ربه)

ثم قال تعالى: فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف تقدم الكلام في معنى الوعظ، وكون أحكام القرآن مقرونة بالمواعظ في تفسير (آية ٢٣٢) أي فمن بلغه تحريم الله - تعالى إلى - للربا ونهيه عنه فترك الربا فورا بلا تراخ ولا تردد، انتهاء عما نهى الله عنه فله ما كان أخذه فيما سلف من الربا لا يكلف رده إلى من أخذه منهم، بل يكتفي منه بألا يضاعف عليهم بعد البلاغ شيئا وأمره إلى الله يحكم فيه بعدله، ومن العدل ألا يؤاخذ بما أكل من الربا قبل التحريم وبلوغه الموعظة من ربه، ولكن العبارة تشعر بأن إباحة أكل ما سلف رخصة للضرورة، وتومئ إلى أن رد ما أخذ من قبل النهي إلى أربابه الذين أخذ منهم من أفضل العزائم، ألم تر أنه عبر عن إباحة ما سلف باللام، ولم يقل كما قال: بعد ذكر كفارة صيد المحرم عفا الله عما سلف [٥: ٩٥] وأنه عقب هذه الإباحة بإبهام الجزاء وجعله إلى الله، والمعهود في أسلوبه أن يصل مثل ذلك بذكر المغفرة والرحمة، كما قال: في آخر آية محرمات النساء: وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما [٤: ٢٣] أباح أكل ما سلف قبل التحريم وأبهم جزاء آكله، لعله يغص بأكل ما في يده منه فيرده إلى صاحبه، ولكنه صرح بأشد الوعيد على من أكل شيئا بعد النهي

فقال:ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون أي ومن عاد إلى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد [ص: ٨٣] تحريمه فأولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم الذي لا ينهاهم إلا عما يضر بهم في أفرادهم أو جميعهم هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه فيكونون خالدين فيها. وقد أول الخلود المفسرون لتتفق الآية مع المقرر في العقائد والفقه

من كون المعاصي لا توجب الخلود في النار، فقال: أكثرهم: إن المراد ومن عاد إلى تحليل الربا واستباحته اعتقادا، ورده بعضهم بأن الكلام في أكل الربا وما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم فيه قبل التحريم، فهو ليس بمعنى استباحة المحرم، فإذا كان الوعيد قاصرا على الاعتقاد بحله لا يكون هناك وعيد على أكله بالفعل. والحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون والفقهاء يجب إرجاع كل قول في الدين إليه، ولا يجوز تأويل شيء منه ليوافق كلام الناس، وما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد بالخلود في آية قتل العمد، وليس هناك شبهة في اللفظ على إرادة الاستحلال، ومن العجيب أن يجعل الرازي الآية هنا حجة على القائلين بخلود مرتكب الكبيرة في النار انتصارا لأصحابه الأشاعرة، وخير من هذا التأويل تأويل بعضهم للخلود بطول المكث،

ماهو الإيمان الذي يعصم صاحبه من النار

أما نحن فنقول: ما كل ما يسمى إيمانا يعصم صاحبه من الخلود في النار ؛ الإيمان إيمانان: إيمان لا يعدو التسليم الإجمالي بالدين الذي نشأ فيه المرء أو نسب إليه، ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه، وإيمان: هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان، متمكنة في العقل بالبرهان، مؤثرة في النفس بمقتضى الإذعان، حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح في الأعمال، بحيث يكون صاحبها خاضعا لسلطانها في كل حال، إلا ما لا يخلو عنه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان، وليس الربا من المعاصي التي تنسى أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة والطيش، كالحدة وثورة الشهوة، أو يقع صاحبها منها في غمرة النسيان كالغيبة والنظرة، فهذا هو الإيمان الذي يعصم صاحبه بإذن الله من الخلود في سخط الله، ولكنه لا يجتمع مع الإقدام على كبائر الإثم والفواحش عمدا ؛ إيثارا لحب المال واللذة على دين الله وما فيه من الحكم والمصالح، وأما الإيمان الأول فهو صوري فقط، فلا قيمة له عند الله -تعالى إلى - لأنه - تعالى إلى - لا ينظر إلى الصور والأقوال، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال كما ورد في الحديث. والشواهد على هذا الذي قررناه في كتاب الله -تعالى إلى - كثيرة جدا وهو مذهب السلف

الصالح، وإن جهله كثير ممن يدعون اتباع السنة حتى جرءوا الناس على هدم الدين، بناء على أن مدار السعادة على الاعتراف بالدين وإن لم يعمل به، حتى صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات مع الاعتراف بأنها من كبائر ما حرم كما بلغنا عن بعض كبرائنا أنه قال:إنني لا أنكر أنني آكل الربا ولكنني مسلم، أعترف بأنه حرام، وقد فاته أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد وبأنه يرضى أن يكون محاربا لله ولرسوله، وظالما لنفسه وللناس كما سيأتي في آية أخرى، فهل يعترف بالملزوم أم ينكر الوعيد المنصوص فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض؟ نعوذ بالله من الخذلان.

[ص: ٨٤] ثم يبين الله -تعالى إلى - الفرق بين الربا والصدقة، إذ جاء الكلام عنه بعد الكلام عنها ببيان أثرهما فقال:يمحق الله الربا ويربي الصدقات فسروا محق الله الربا بإذهاب بركته وإهلاكه أو إهلاك المال الذي يدخل فيه، وقد اشتهر هذا حتى عرفه العامة فهم يذكرون دائما ما يحفظون من أخبار آكلي الربا الذين ذهبت أموالهم وخربت بيوتهم. وفي حديث ابن مسعود عند أحمد وابن ماجه والحاكم وأخرجه ابن جرير في التفسير" إن الربا وإن كثر فعاقبته تصير إلى قل" وقال: الضحاك: إن هذا المحق في الآخرة بأن يبطل ما يكون منه مما يتوقع نفعه، فلا يبقى لأهله منه شيء.

وقال: الأستاذ الإمام: ليس المراد بهذا المحق محق الزيادة في المال ؛ فإن هذا مكابرة للمشاهدة والاختبار، وإنما المراد به ما يلاقي المرابي من عداوة الناس وما يصاب به في نفسه من الوساوس وغيرها، أما عداوة الناس فمن حيث هو عدو المحتاجين وبغيض المعوزين، وقد تفضي العداوة والبغضاء إلى مفاسد ومضرات، واعتداء على الأموال والأنفس والثمرات وقد ظهر أثر ذلك في الأمم التي فشا فيها الربا إذ قام الفقراء فيها يعادون الأغنياء ويتألب العمال عليهم حتى صارت هذه المسألة أعقد المسائل عندهم، وأما ما يصاب به في نفسه من الوساوس والأوهام فهو ما لا يعرفه إلا من راقب هؤلاء العابدين وتلا أخبارهم. ولا أذكر عنه مثالا على ذلك، وما الأمثال فيه بقليلة: فمنهم من يشغله المال عن طعامه وشرابه وعن أهله وولده حتى يقصر في حق نفسه وحقوقهم تقصيرا يفضي إلى الخسر أو المهانة والذل، ومنهم من يركب لذلك الصعب ويقتحم الخطر حتى يكون من الهالكين.

وأقول: المحق في اللغة: محو الشيء والذهاب به، كمحاق القمر، وكل ما لا يحسن ـ المرء عمله فقد محقه - كما في الأساس - فلعل المراد بمحق الربا محو ما يطلب الناس بزيادة المال من اللذة وبسطة العيش والجاه والمكانة، وزيادة الربا تذهب بذلك لاشتغال المرابي غالبا عن اللذة وخفض المعيشة بولهه في ماله ولمقت الناس إياه وكراهتهم له كما علم مما تقدم، فهو لم يحسن التصرف في التوصل إلى ثمرة المال، وأما إرباء الصدقات فهو زيادة فائدتها وثمرتها في الدنيا وأجرها في الآخرة، كما تقدم في تفسير آيات الصدقة ومضاعفة الله إياها، فمعنى يمحق الله الربا ويربي الصدقات أن سنته قضت في عابد المال الذي لا يرحم معوزا ولا ينظر معسرا إلا بمال يأخذه ربا بدون مقابل أن يكون محروما من الثمرة الشريفة للثروة، وهي كون صاحبها ناعما عزيزا شريفا عند الناس. لكونه مصدرا لخيرهم والتفضل عليهم وإعانتهم على زمنهم، كما يكون محروما في الآخرة من ثواب المال، فهو في عدم انتفاعه بماله هذا الضرب من الانتفاع كمن محق ماله وهلك، وقضت سنته في المتصدق أن يكون انتفاعه بماله أكبر من ماله - وقد تقدم شرح ذلك فلا نعيده - وفي حديث أبي هريرة عند الشيخين [ص: ٨٥] أنه - صلى الله عليه وسلم - قال:من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا طيبا - فإن الله - تعالى إلى - يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل والحديث من باب التمثيل كما هو ظاهر.

مالمقصود بالكفار في قوله تعالى: (والله لا يحب كل كفار أثيم)

قال تعالى: والله لا يحب كل كفار أثيم قالوا: لا يحب لا يرضى، والكفار: المستحل للربا، والأثيم: المقيم على الإثم. وأقول: إن حب الله للعبد شأن من شئونه يعرف باستعمال العبد إتمام حكم الله في صلاح عباده، ونفي هذا الحب يعرف بضد ذلك، والكفار هنا: هو المتمادي على كفر إنعام الله عليه بالمال إذ لا ينفق منه في سبيله ولا يواسي به المحتاجين من عباده، والأثيم: هو الذي جعل المال آلة لجذب ما في أيدي الناس إلى يده فافترص إعسارهم لاستغلال اضطرارهم.

ثم قال تعالى: إن الذين آمنوا أي صدقوا تصديق إذعان بما جاء من عند الله في هذه المسألة كغيرها وعملوا الصالحات أي الأعمال التي تصلح بها نفوسهم وشأن من يعيش معهم، ومنها مواساة المحتاجين، والرحمة بالبائسين، وإنظار المعسرين، ومن سنة القرآن أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح في مقام الوعد ؛ لأن الإيمان الحقيقي المقرون بالإذعان يتبعه العمل الصالح حتما لا يتخلف عنه، وهذا برهان على ما قلناه في تفسير الآية السابقة.

وأقاموا الصلاة التي تذكر المؤمن بالله -تعالى إلى - فتزيد في إيمانه وحبه ومراقبته له حتى تسهل عليها، ويكون ترك أكل أموال الناس بالربا أسهل.

وذكر الصلاة والزكاة بعد الأعمال الصالحة التي تشملهما ؛ لأنهما أعظم أركان العبادة النفسية والمالية، فمن أتى بهما كاملتين سهل عليه كل عمل صالح لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون تقدم نظير هذا الجزاء قريبا فلا حاجة لإعادة التذكير بمعناه. وجملة الآيةتعالىريض بآكل الربا - كأنه يقول: لو كان من هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلخ ؛ لكف عنه ولكنه كفار أثيم - وتمهيد لما بعدها وهو:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إلى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً

حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى)، قال: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ الرِّبَا أَبَاحَ السَّلَمَ، وَقال:أَشْهَدُ أن السّلم الْمَضْمُونَ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى قَدْ أَحَلَّهُ الله تعالى إلى فِي كِتَابِهِ وأذن فيه، ثم قرأ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَاكْتُبُوهُ، قَوْلُهُ: (إِذا تَدايَنْتُمْ)، أَيْ:تعالاماَمَلْتُمْ بِالدَّيْنِ، يُقال:دَايَنْتُهُ إِذَا عَامَلْتُهُ بِالدَّيْنِ، وَإِنَّمَا قال: بِدَيْنٍ بعد قوله: إِذا تَدايَنْتُمْ لِأَنَّ الْمُدَايَنَةَ قَدْ تَكُونُ مجازاة، وقد تَكُونُ مُعَاطَاةً فَقَيَّدَهُ بِالدَّيْنِ لِيَعْرِفَ الْمُرَادَ مِنَ اللَّفْظِ، وَقِيلَ ذَكَرَهُ تَأْكِيدًا؛ كَقوله تعالى: (وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ) [الْأَنْعَامِ: ٣٨]، إلى أَجَلٍ مُسَمًّى، الْأَجَلُ: مُدَّةٌ مَعْلُومَةُ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، وَالْأَجَلُ يَلْزَمُ فِي الثَّمَنِ والبيع وفي السَّلَمِ حَتَّى لَا يَكُونَ لِصَاحِبِ الْحَقِّ الطَّلَبُ قَبْلَ مَحَلِّهِ، وَفِي الْقَرْضِ لَا يَلْزَمُ الْأَجَلُ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَاكْتُبُوهُ، أَيِ: اكْتُبُوا الَّذِي تَدَايَنْتُمْ بِهِ بَيْعًا كَانَ أَوْ سَلَمًا أَوْ قَرْضًا،

وَاخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْكِتَابَةِ فَقال: بعضهم: هي واجبة، وَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُ أَمْرُ اسْتِحْبَابٍ، فَإِنْ تُرِكَ فَلَا بَأْسَ كَقوله تعالى: (فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ) [الْجُمُعَةِ: ١٠]، وَقال: بَعْضُهُمْ: كَانَتْ كِتَابَةُ الدَّيْنِ وَالْإِشْهَادِ وَالرَّهْنِ فَرْضًا ثُمَّ نُسِخَ الْكُلُّ بِقَوْلِهِ: (فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ) [البقرة: ٢٨٣]، وَهُوَ قَوْلُ الشَّعْبِيِّ، ثُمَّ بَيَّنَ كَيْفِيَّةَ الْكِتَابَةِ فَقال: جَلَّ ذِكْرُهُ: (وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ)، أَيْ: لِيَكْتُبْ كِتَابَ الدَّيْنِ بَيْنَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ، أَيْ: بِالْحَقِّ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ وَلَا تَقْدِيمِ أَجَلٍ وَلَا تأخيره، (وَلا يَأْبَ)، أَيْ: لَا يَمْتَنِعْ، (كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ)، وَاخْتَلَفُوا فِي وُجُوبِ الْكِتَابَةِ عَلَى الْكَاتِبِ وَتَحَمُّلِ الشَّهَادَةِ عَلَى الشَّاهِدِ، فَذَهَبَ قَوْمٌ إلى وُجُوبِهَا إِذَا طُولِبَ، وَهُوَ قول مجاهد، وقال: الحسن: يجب إِذَا لَمْ يَكُنْ كَاتِبٌ غَيْرُهُ، وَقال: قَوْمٌ: هُوَ عَلَى النَّدْبِ وَالِاسْتِحْبَابِ، وَقال: الضَّحَّاكُ: كَانَتْ عَزِيمَةً وَاجِبَةً عَلَى الْكَاتِبِ وَالشَّاهِدِ، فَنَسَخَهَا قوله تعالى: وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ، (كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ)، أَيْ: كَمَا شَرَعَهُ اللَّهُ وَأَمَرَهُ، (فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ)، يَعْنِي: الْمَطْلُوبُ يُقِرُّ عَلَى نَفْسِهِ بِلِسَانِهِ لِيَعْلَمَ مَا عَلَيْهِ، وَالْإِمْلَالُ وَالْإِمْلَاءُ لُغَتَانِ فَصِيحَتَانِ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ جَاءَ بِهِمَا الْقُرْآنُ، فَالْإِمْلَالُ هَا هُنَا، وَالْإِمْلَاءُ قوله تعالى: (فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) [الْفُرْقَانِ: ٥]،

(وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ)، يعني: المملي، (وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا)، أَيْ: لا يَنْقُصْ مِنْهُ أَيْ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ شَيْئًا، (فَإِنْ كانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا)، أَيْ: جَاهِلًا بِالْإِمْلَاءِ، قال:هُ مُجَاهِدٌ، وَقال: الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ: طِفْلًا صَغِيرًا، وَقال: الشافعي: السفيه المبذر المفسد لما له أَوْ

فِي دِينِهِ، قَوْلُهُ: (أَوْ ضَعِيفًا)، أَيْ: شَيْخًا كَبِيرًا، وَقِيلَ: هُوَ ضَعِيفُ الْعَقْلِ لِعَتَهٍ أَوْ جُنُونٍ، (أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ)، لِخَرَسٍ أَوْ عَيٍّ أَوْ عُجْمَةٍ أَوْ حَبْسٍ أَوْ غيبة لا يمكنه حضور الكتابة أَوْ جَهْلٌ بِمَا لَهُ وَعَلَيْهِ، (فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ)، أَيْ: قَيِّمُهُ، (بِالْعَدْلِ)، أَيْ: بِالصِّدْقِ وَالْحَقِّ، وَقال: ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمُقَاتِلٌ: أَرَادَ بِالْوَلِيِّ صَاحِبَ الْحَقِّ، يَعْنِي: إِنْ عَجَزَ مَنْ عَلَيْهِ الْحَقُّ من الإملال فيملل وَلِيُّ الْحَقِّ وَصَاحِبُ الدَّيْنِ بِالْعَدْلِ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِّهِ، (وَاسْتَشْهِدُوا)، أَيْ: وَأَشْهِدُوا (شَهِيدَيْنِ)، أَيْ: شَاهِدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ، يَعْنِي: الْأَحْرَارَ الْمُسْلِمِينَ دُونَ الْعَبِيدِ وَالصِّبْيَانِ وَالْكُفَّارِ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَأَجَازَ شُرَيْحٌ وَابْنُ سِيرِينَ شَهَادَةَ الْعَبِيدِ، (فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ)، أَيْ: لَمْ يَكُنِ الشَّاهِدَانِ رَجُلَيْنِ،(فَرَجُلٌ وَامْرَأَتانِ)، أَيْ: فَلْيَشْهَدْ رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ، وَأَجْمَعَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ شَهَادَةَ النِّسَاءِ جَائِزَةٌ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْأَمْوَالِ حتى يثبت بِرَجُلٍ وَامْرَأَتَيْنِ، وَاخْتَلَفُوا فِي غَيْرِ الْأَمْوَالِ، فَذَهَبَ جَمَاعَةٌ إلى أَنَّهُ يجوز شهادتين مَعَ الرِّجَالِ فِي غَيْرِ الْعُقُوبَاتِ، وَهُوَ قَوْلُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَأَصْحَابِ الرَّأْيِ،

وَذَهَبُ جَمَاعَةٌ إلى أَنَّ غَيْرَ الْمَالِ لَا يَثْبُتُ إِلَّا بِرَجُلَيْنِ عَدْلَيْنِ، وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أَنَّ مَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ النِّسَاءُ غَالِبًا كَالْوِلَادَةِ وَالرَّضَاعِ وَالثُّيُوبَةِ وَالْبَكَارَةِ وَنَحْوِهَا يَثْبُتُ بِشَهَادَةِ رجل وامرأتين، وشهادة أَرْبَعِ نِسْوَةٍ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ شَهَادَةَ النِّسَاءِ غَيْرُ جَائِزَةٍ فِي العقوبات. قوله تعالى: (مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ)، يَعْنِي: مَنْ كَانَ مَرْضِيًّا فِي دِيَانَتِهِ وَأَمَانَتِهِ. وَشَرَائِطُ قَبُولِ الشَّهَادَةِ سَبْعَةٌ: الْإِسْلَامُ، وَالْحُرِّيَّةُ، وَالْعَقْلُ، وَالْبُلُوغُ، وَالْعَدَالَةُ، وَالْمُرُوءَةُ، وَانْتِفَاءُ التُّهْمَةِ، فَشَهَادَةُ الْكَافِرِ مَرْدُودَةٌ، لِأَنَّ الْمَعْرُوفِينَ بِالْكَذِبِ على النَّاسِ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُمْ، فَالَّذِي يَكْذِبُ عَلَى اللَّه تعالى إلى أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَرْدُودَ الشَّهَادَةِ، وَجَوَّزَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ شَهَادَةَ أَهْلِ الذِّمَّةِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ الْعَبِيدِ، وَأَجَازَهَا شُرَيْحٌ وَابْنُ سِيرِينَ، وَهُوَ قَوْلُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَا قَوْلَ لِلْمَجْنُونِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ شهادة، ولا يجوز شَهَادَةُ الصِّبْيَانِ، سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه عن ذلك فقال:لَا يَجُوزُ لِأَنَّ اللَّه تعالى إلى يَقُولُ: مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ، وَالْعَدَالَةُ شَرْطٌ، وَهِيَ أَنْ يَكُونَ الشَّاهِدُ مُجْتَنِبًا لِلْكَبَائِرِ غَيْرَ مُصِرٍّ عَلَى الصَّغَائِرِ، وَالْمُرُوءَةُ شَرْطٌ، وَهِيَ مَا يَتَّصِلُ بِآدَابِ النَّفْسِ مِمَّا يُعْلَمُ أَنَّ تَارِكَهُ قَلِيلُ الْحَيَاءِ، وَهِيَ حُسْنُ الْهَيْئَةِ وَالسِّيرَةِ وَالْعِشْرَةِ وَالصِّنَاعَةِ، فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ يَظْهَرُ من نفسه شيئا مما يَسْتَحِي أَمْثَالُهُ مِنْ إِظْهَارِهِ فِي الْأَغْلَبِ يُعْلَمُ بِهِ قِلَّةُ مُرُوءَتِهِ، وَتُرَدُّ شَهَادَتُهُ، وَانْتِفَاءُ

التُّهْمَةِ شَرْطٌ حَتَّى لَا تُقْبَلَ شَهَادَةُ الْعَدُوِّ عَلَى الْعَدُوِّ، وَإِنْ كَانَ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ عَلَى غَيْرِهِ لِأَنَّهُ مُتَّهَمٌ فِي حَقِّ عَدُوِّهِ، وَلَا تُقْبَلُ شَهَادَةُ الرَّجُلِ لِوَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَإِنْ كَانَ مَقْبُولَ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمَا، وَلَا تقبل شهادة من يجرّ إلى نفسه بشهادته نَفْعًا، كَالْوَارِثِ يَشْهَدُ عَلَى رَجُلٍ بقتل مُوَرِّثُهُ، أَوْ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِشَهَادَتِهِ ضَرَرًا كَالْمَشْهُودِ عَلَيْهِ يَشْهَدُ بجرح من شهد عَلَيْهِ لِتَمَكُّنِ التُّهْمَةِ فِي شَهَادَتِهِ، أَخْبَرَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بن الحسين الْمَرْوَزِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بن محمد بن سراج الطَّحَّانُ، أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ مُحَمَّدُ بْنُ قُرَيْشِ بْنِ سُلَيْمَانَ، أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ أَخْبَرَنَا مَرْوَانُ الْفَزَارِيُّ، عَنْ شيخ من أهل الجزيرة يُقَال: لَهُ يَزِيدُ بْنُ زِيَادٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَرْفَعُهُ: «لا يجوز شَهَادَةُ خَائِنٍ وَلَا خَائِنَةٍ، وَلَا ذِي غَمْرٍ عَلَى أَخِيهِ وَلَا ظَنِينٍ فِي وَلَاءٍ وَلَا قَرَابَةٍ، وَلَا الْقَانِعِ مَعَ أَهْلِ الْبَيْتِ»، قوله تعالى: (أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما)، قَرَأَ حَمْزَةُ أَنْ تَضِلَّ بِكَسْرِ الْأَلِفِ، فَتُذَكِّرَ بِرَفْعِ الرَّاءِ، وَمَعْنَاهُ الْجَزَاءُ وَالِابْتِدَاءُ، وَمَوْضِعُ تَضِلَّ جَزْمٌ بالجزاء، إلّا أنه لا نسق بالتضعيف فَتُذَكِّرَ رُفِعَ، لِأَنَّ مَا بَعْدَ فَاءِ الْجَزَاءِ مُبْتَدَأٌ، وَقِرَاءَةُ الْعَامَّةِ بِفَتْحِ

الْأَلِفِ وَنَصْبِ الرَّاءِ عَلَى الاتّصال بالكلام الأوّل، وتَضِلَّ مَحَلُّهُ نَصْبٌ بِـأَنْ فَتُـذَكِّرَ مَنْسُـوقٌ عَلَيْـهِ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ كَيْ تُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْـرى، وَمَعْـنَى «تضـل» تَنْسَى، يُرِيـدُ إِذَا نَسِـيَتْ إِحْدَاهُمَا شَهَادَتَهَا تُذَكِّرُهَا (الْأُخْرَى)، فَتَقُولُ: أَلَسْنَا حَضَرْنَا مَجْلِسَ كَذَا وَسَمِعْنَا كَذَا؟ قَرَأَ ابْـنُ كَثِـيرٍ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ فَتُذَكِّرَ مُخَفَّفًا، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ مُشَدَّدًا «وذكر" و «اذكر" بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَهُمَا مُتَعَدِّيَانِ، مِنَ الذِّكْرِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النِّسْيَانِ، وَحُكِيَ عَنْ سُفْيَانَ بْـنِ عُيَيْنَـةَ أَنَّـهُ قـال:هُوَ مِـنَ الـذِّكْرِ أَيْ: تَجْعَـلُ إِحْـدَاهُمَا الْأُخْـرَى ذِكْـرًا، أَيْ: تَصِـيرُ شَـهَادَتُهُمَا كَشَـهَادَةِ ذِكْـرٍ، وَالْأَوَّلُ أَصَـحُّ لِأَنَّـهُ مَعْطُـوفٌ عَـلَى النِّسْيَانِ. قوله تعالى: وَلا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا مَـا دُعُـوا، قِيـلَ: أَرَادَ بِـهِ إِذَا مَـا دُعُـوا لِتَحَمُّـلِ الشَّـهَادَةَ، سَمَّاهُمْ شُهَدَاءَ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ، وَهُوَ أَمْرُ إِيجَابٍ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَقال: قَوْمٌ: تَجِـبُ الْإِجَابَةُ إِذَا لَمْ يكن غيرهم، فإن وجد غيرهم فهم مخيّرون، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ، وَقال: قَوْمٌ: هُوَ أَمْـرُ نَدْبٍ وَهُوَ مُخَيَّرٌ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَقال: بَعْضُهُمْ: هَذَا فِي إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ وَأَدَائِهَا، فَمَعْنَى الْآيَةِ: (وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا) لِأَدَاءِ الشَّهَادَةِ الَّتِي تَحَمَّلُوهَا، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَـةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَقال: الشَّعْبِيُّ: الشَّاهِدُ بِالْخِيَـارِ مَـا لَـمْ يَشْـهَدْ، وَقـال: الْحَسَنُ: الْآيَـةُ فِـي الْأَمْـرَيْنِ جَمِيعًا فِي التَّحَمُّلِ والإقامة إذا كان فارغا (وَلا تَسْئَمُوا)، أَيْ: وَلَا تَمَلُّوا (أَنْ تَكْتُبُوهُ)، الهاء رَاجِعَـةٌ إِلى الْحَقِّ، (صَغِيرًا)، كَانَ الْحَقُّ، (أَوْ كَبِيرًا)، قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا، (إلى أَجَلِهِ)، إلى مَحَلِّ الْحَقِّ، (ذلِكُـمْ)، أَيِ: الْكِتَابُ،

معنى قوله تعالى: (أَقْسَطُ)

أَعْدَلُ (عِنْدَ اللَّهِ)، لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِهِ، وَاتِّبَاعُ أَمْرِهِ أَعْدَلُ مِنْ تَرْكِهِ، (وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ)، لِأَنَّ الْكِتَابَةَ تُذَكِّرُ الشُّهُودَ، (وَأَدْنى): وَأَحْرَى وَأَقْرَبُ إلى، (أَلَّا تَرْتابُوا): تَشُكُّوا فِي الشَّهَادَةِ، (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً)، قرأها عَاصِمٌ بِالنَّصْبِ عَلَى خَبَرِ كَانَ وأضمر الاسم مجازًا إِلَّا أَنْ تَكُونَ التِّجَارَةُ تِجَارَةً أَوِ الْمُبَايَعَةُ تِجَارَةً، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بالرفع، وله وجهان، أحدهما: أن يجعل الْكَوْنَ بِمَعْنَى الْوُقُوعِ، مَعْنَاهُ: إِلَّا أَنْ تَقَعَ تِجَارَةٌ، وَالثَّانِي: أَنْ يجعل الِاسْمَ فِي التِّجَارَةِ وَالْخَبَرَ فِي الْفِعْلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ:(تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ)، تَقْدِيرُهُ: (إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً دَائِرَةً بَيْنَكُمْ)، وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً يَدًا بِيَدٍ تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ لَيْسَ فِيهَا أَجَلٌ، (فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها)، يَعْنِي: التِّجَارَةَ، (وَأَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ)، قال: الضَّحَّاكُ: هُوَ عَزْمٌ مِنَ اللَّه تعالى إلى، وَالْإِشْهَادُ وَاجِبٌ فِي صَغِيرِ الْحَقِّ وَكَبِيرِهِ ونقده ونسئه، وَقال: أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْأَمْرُ فِيهِ إلى الأمانة كقوله تعالى: (فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا) [البقرة: ٢٨٣] الْآيَةَ، وَقال: الْآخَرُونَ: هُوَ أَمْرُ نَدْبٍ، قوله تعالى: (وَلا يُضَارَّ كاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ). هَذَا نَهْيٌ لِلْغَائِبِ، وَأَصْلُهُ: يُضَارِرْ، فَأُدْغِمَتْ إِحْدَى الرّاءين فِي الْأُخْرَى وَنُصِبَتْ لِحَقِّ التَّضْعِيفِ لِاجْتِمَاعِ السَّاكِنَيْنِ، وَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قال:أَصْلُهُ يُضَارِرْ بِكَسْرِ الرَّاءِ الْأُولَى، وَجَعْلِ الْفِعْلِ لِلْكَاتِبِ والشهيد، معناه: ولا يضارر الْكَاتِبُ فَيَأْبَى أَنْ يَكْتُبَ وَلَا الشَّهِيدُ فَيَأْبَى أَنْ يَشْهَدَ، وَلَا يُضَارَّ الْكَاتِبُ فَيَزِيدُ أَوْ يَنْقُصُ أَوْ يُحَرِّفُ مَا أُمْلِيَ عَلَيْهِ وَلَا الشَّهِيدُ فَيَشْهَدُ بِمَا لَمْ يستشهد عليه، وهذا قول طاوس وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ. وَقال: قَوْمٌ: أَصْلُهُ يُضَارَرْ بِفَتْحِ الرَّاءِ عَلَى الْفِعْلِ الْمَجْهُولِ، وَجَعَلُوا الْكَاتِبَ وَالشَّهِيدَ مَفْعُولَيْنِ، وَمَعْنَاهُ: أَنْ يَدْعُوَ الرَّجُلُ الْكَاتِبَ أَوِ الشَّاهِدَ وَهُمَا عَلَى شُغْلٍ مُهِمٍّ فَيَقُولَانِ: نَحْنُ عَلَى شُغْلٍ مُهِمٍّ فَاطْلُبْ غَيْرَنَا، فَيَقُولُ الدَّاعِي: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكُمَا أَنْ تُجِيبَا وَيَلِحَّ عَلَيْهِمَا فَيَشْغَلُهُمَا عَنْ حَاجَتِهِمَا فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ، وَأَمَرَ بِطَلَبِ غَيْرِهِمَا، وَإِنْ تَفْعَلُوا مَا نَهَيْتُكُمْ عنه من الضّرار، (فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ)، أَيْ: مَعْصِيَةٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْأَمْرِ، (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

معنى قوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ)

(وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَاتعالىمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" : (وَإِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كاتِبًا فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ)، قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ. وَأَبُو عَمْرٍو «فَرُهُنٌ» بِضَمِّ الْهَاءِ وَالرَّاءِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ فَرِهانٌ وَهُوَ جَمْعُ: رَهْنٍ، مِثْلُ: بَغْلٍ وَبِغَالٍ وَجَبَلٍ وَجِبَالٍ، وَالرُّهُنُ: جَمْعُ الرِّهَانِ: جَمْعُ الْجَمْعِ، قال:هُ الْفَرَّاءُ وَالْكِسَائِيُّ، وَقال: أبو عبيدة وَغَيْرُهُ: هُوَ جَمْعُ الرَّهْنِ أَيْضًا مِثْلُ: سَقْفٍ وَسُقُفٍ، وَقال: أَبُو عَمْرٍو: وَإِنَّمَا قَرَأْنَا «فَرُهُنٌ» لِيَكُونَ فرقا بينها وَبَيْنَ رِهَانِ الْخَيْلِ، وَقَرَأَ عِكْرِمَةُ: «رهن» بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِ الْهَاءِ، وَالتَّخْفِيفُ وَالتَّثْقِيلُ فِي الرَّهْنِ لُغَتَانِ، مِثْلُ: كُتْبٍ وَكُتُبٍ وَرُسْلٍ وَرُسُلٍ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ولم تجدوا آلات الكتابة، فَارْتَهِنُوا مِمَّنْ تُدَايِنُونَهُ رُهُونًا لِتَكُونَ وثيقة بِأَمْوَالِكُمْ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ الرَّهْنَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْقَبْضِ، وَقَوْلُهُ: فرهن مَقْبُوضَةٌ، أَيِ: ارْتَهِنُوا وَاقْبِضُوا حَتَّى لَوْ رَهَنَ وَلَمْ يُسَلِّمْ فَلَا يُجْبَرُ الرَّاهِنُ عَلَى التَّسْلِيمِ، فَإِذَا سَلَّمَ لَزِمَ مِنْ جِهَةِ الرَّاهِنِ، حَتَّى لَا يَجُوزَ لَهُ أَنْ يَسْتَرْجِعَهُ مَا دَامَ شَيْءٌ مِنَ الْحَقِّ بَاقِيًا، وَيَجُوزُ فِي الْحَضَرِ الرَّهْنُ مَعَ وُجُودِ الْكَاتِبِ، وَقال: مُجَاهِدٌ: لَا يَجُوزُ الرَّهْنُ إِلَّا فِي السَّفَرِ عِنْدَ عَدَمِ الْكَاتِبِ لِظَاهِرِ الْآيَةِ، وَعِنْدَ الْآخَرِينَ: خَرَجَ الْكَلَامُ فِي الْآيَةِ عَلَى الْأَعَمِّ الْأَغْلَبِ لَا عَلَى سَبِيلِ الشَّرْطِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رَهَنَ دِرْعَهُ عِنْدَ أَبِي الشَّحْمِ الْيَهُودِيِّ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فِي السَّفَرِ وَلَا عِنْدَ عَدَمِ كَاتِبٍ، (فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)، وَفِي حَرْفِ أُبَيٍّ، «فَإِنِ ائْتَمَنَ»، يَعْنِي: فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ أَمِينًا عِنْدَ صَاحِبِ الْحَقِّ فَلَمْ يَرْتَهِنْ مِنْهُ شَيْئًا لِحُسْنِ ظَنِّهِ بِهِ، (فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ)، أَيْ: فَلْيَقْضِهِ عَلَى الْأَمَانَةِ، (وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ) فِي أَدَاءِ الْحَقِّ، ثُمَّ رَجَعَ إلى خِطَابِ الشُّهُودِ فقال:(وَلا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ)، إِذَا دُعِيتُمْ إلى إِقَامَتِهَا نَهَى عَنْ كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ وَأَوْعَدَ عَلَيْهِ فَقال:(وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)، أَيْ: فاجر قلبه، قيل: ما وعد عَلَى شَيْءٍ كَإِيعَادِهِ عَلَى كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ، قال:فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَأَرَادَ بِهِ مَسْخَ الْقَلْبِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ، (وَاللَّهُ بِماتعالىمَلُونَ) من بيان الشهادة وكتمانها، (عَلِيمٌ)

تفسير الآية: (لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

♦ تفسير البغوي" معالم التنزيل" :(لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ)، مُلْكًا وَأَهْلُهَا لَهُ عَبِيدٌ وَهُوَ مَالِكُهُمْ،

سبب نزول الآية: (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

(وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَقال: قَوْمٌ: هِيَ خَاصَّةٌ ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي وَجْهِ خُصُوصِهَا، فَقال: بَعْضُهُمْ: هِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْآيَةِ الْأُولَى نَزَلَتْ فِي كِتْمَانِ الشهادة، معناه: وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أيها الشهود من كِتْمَانِ الشَّهَادَةِ أَوْ تُخْفُوا الْكِتْمَانَ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّعْبِيِّ وَعِكْرِمَةَ، وَقال: بَعْضُهُمْ: نَزَلَتْ فيمن يتولّى الكافرين من دُونَ الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي: وَإِنْتعالىلِنُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ وِلَايَةِ الكفار أو تسرّوه يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ، وَهُوَ قَوْلُ مُقَاتِلٍ، كَمَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) [آل عمران:٢٨] إلى أَنْ قال:(قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ) [آلِ عِمْرَانَ: ٢٩]، وَذَهَبَ الْأَكْثَرُونَ إلى أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِيهَا، فَقال: قَوْمٌ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِالْآيَةِ الَّتِي بعدها، والدليل عليه ما: أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجُرْجَانِيُّ أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْغَافِرِ بْنُ مُحَمَّدٍ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى الْجُلُودِيُّ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سُفْيَانَ أَنَا مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمِنْهَالِ الضَّرِيرُ وَأُمَيَّةُ بْنُ بِسِطَامٍ الْعَيْشِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ، قال:ا: أَخْبَرَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ أَنَا رَوْحٌ وَهُوَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنِ الْعَلَاءِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّهِ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَ(إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) الْآيَةَ، قال:اشتدّ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَوْا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقال:وا:- أي: لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم- كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا،

قال: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قال: أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، فَلَمَّا قَرَأَهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَثَرِهَا آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقال:وا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ فأنزل اللَّهُ: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَها لَها مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لَا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا، قال:«نَعَمْ»، رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْرًا كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا، قال:«نَعَمْ»، رَبَّنا وَلا تُحَمِّلْنا مَا لَا طاقَةَ لَنا بِهِ، قال:«نَعَمْ»، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ، قال:«نعم»، وَرَوَى سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِمَعْنَاهُ، وَقال: فِي كُلِّ ذَلِكَ: «قَدْ فَعَلْتُ» بَدَلَ قَوْلِهِ «نَعَمْ»، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ وَقَتَادَةُ وَالْكَلْبِيُّ، أَخْبَرَنَا الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَاضِي أَخْبَرَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يوسف الأصفهاني، أَخْبَرَنَا أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْفَقِيهُ، أَخْبَرَنَا يَعْقُوبُ بْنُ يُوسُفَ الْقَزْوِينِيُّ أَخْبَرَنَا الْقَاسِمُ بْنُ الْحَكَمِ الْعُرَنِيُّ أَخْبَرَنَا مِسْعَرُ بْنُ كِدَامٍ، عَنْ قَتَادَةَ عَنْ زُرَارَةَ بْنِ أَوْفَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:«إنّ الله تَجاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ أَوْتعالمَلْ بِهِ»، وَقال: بَعْضُهُمْ: الْآيَةُ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ لِأَنَّ النَّسْخَ لَا يَرِدُ عَلَى الْإِخْبَارِ، إِنَّمَا يَرِدُ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَقَوْلُهُ: يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ خَبَرٌ لَا يَرِدُ عَلَيْهِ النَّسْخُ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِهَا فَقال: قَوْمٌ: قَدْ أَثْبَتَ اللَّه تعالى إلى لِلْقَلْبِ كَسْبًا فَقال:(بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) [الْبَقَرَةِ: ٢٢٥]، فَلَيْسَ لِلَّهِ عَبْدٌ أَسَرَّ عَمَلًا أو أعلنه من حركة في جوارحه أو همّة في قلبه إلا يجزه اللَّهُ بِهِ وَيُحَاسِبُهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يغفر بما يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ بِمَا يَشَاءُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الْحَسَنِ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قوله تعالى: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا) [الْإِسْرَاءِ:٣٦]، وَقال: الْآخَرُونَ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحَاسِبُ خَلْقَهُ بِجَمِيعِ مَا أَبْدَوْا مِنْ أَعْمَالِهِمْ أَوْ أَخْفَوْهُ وَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ، غَيْرَ أَنَّ مُعَاقَبَتَهُ عَلَى مَا أخفوه مما لم يعملوه بِمَا يَحْدُثُ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ النَّوَائِبِ وَالْمَصَائِبِ،

وَالْأُمُورِ الَّتِي يحزنون عليها، وَهَذَا قَوْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قال:ثْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقال:«يَا عَائِشَةُ هَذِهِ مُعَاتَبَةُ اللَّهِ الْعَبْدَ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْحُمَّى وَالنَّكْبَةِ حَتَّى الشوكة يشاكها وَالْبِضَاعَةِ يَضَعُهَا فِي كُمِّهِ فَيَفْقِدُهَا فيفزع لها فيجدها في جيبه، حَتَّى إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَخْرُجُ مِنْ ذُنُوبِهِ كَمَا يَخْرُجُ التِّبْرُ الْأَحْمَرُ من الكير»، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ أَحْمَدَ الْمَلِيحِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو مَنْصُورٍ

السَّمْعَانِيُّ أَخْبَرَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّيَّانِيُّ أَخْبَرَنَا حُمَيْدُ بْنُ زَنْجُوَيْهِ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ حَدَّثَنِي اللَّيْثُ حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ أَبِي حَبِيبٍ عن سعد بْنِ سِنَانٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قال:«إِذَا أَرَادَ اللَّهُ ب

ـعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»،

وَقال: بَعْضُهُمْ: (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ)، يَعْنِي: مَا فِي قُلُوبِكُمْ مِمَّا عَزَمْتُمْ عَلَيْهِ (أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)، وَلَا تُبْدُوهُ وَأَنْتُمْ عَازِمُونَ عَلَيْهِ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ، فَأَمَّا مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُكُمْ مِمَّا لَمْتعالىزِمُوا عَلَيْهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَها، وَلَا يُؤَاخِذُكُمْ بِهِ، دَلِيلُهُ قوله تعالى: (لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ) [البقرة: ٢٢٥]، قال: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: قلت لسفيان: أيؤاخذ الله الْعَبْدَ بِالْهِمَّةِ؟ قال:إِذَا كَانَ عَزْمًا أُخِذَ بِهَا، وَقِيلَ مَعْنَى الْمُحَاسَبَةِ: الْإِخْبَارُ وَالتَّعْرِيفُ، وَمَعْنَى الْآيَةِ: وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَتَعْمَلُوا بِهِ أَوْ تُخْفُوهُ مِمَّا أَضْمَرْتُمْ وَنَوَيْتُمْ، يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ويخبركم بِهِ وَيُعَرِّفْكُمْ إِيَّاهُ، ثُمَّ يَغْفِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ إِظْهَارًا لِفَضْلِهِ، وَيُعَذِّبُ الْكَافِرِينَ إِظْهَارًا لِعَدْلِهِ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ الضَّحَّاكِ، وَيُرْوَى ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،

يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ قال:يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ، وَلَمْ يَقُلْ: يُؤَاخِذْكُمْ بِهِ، وَالْمُحَاسِبَةُ غَيْرُ الْمُؤَاخَذَةِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ ما: أَخْبَرَنَا أَبُو طَاهِرٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الزَّرَّادُ أَخْبَرَنَا أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ الْخُزَاعِيُّ أَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْهَيْثَمُ بْنُ كُلَيْبٍ أَنَا عِيسَى بْنُ أَحْمَدَ الْعَسْقَلَانِيُّ أَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ أَنَا هَمَّامُ بْنُ يَحْيَى عَنْ قَتَادَةَ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ قال:كُنْتُ آخِذًا بِيَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقال:كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النّجوى؟ قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللّٰه تعالى إلى يُدْنِي الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ يَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ فَيَقُولُ: أَيْ عَبْدِي! أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ، ثُمَّ يقول: أَيْ عَبْدِي أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قال:فَإِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ غَفَرْتُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكفار وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللّٰه على الظالمين»، قوله تعالى: فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ، رَفَعَ الرَّاءَ والباء أَبُو جَعْفَرٍ وَابْنُ عَامِرٍ وَعَاصِمٌ وَيَعْقُوبُ، وَجَزَمَهُمَا الْآخَرُونَ فَالرَّفْعُ عَلَى الِابْتِدَاءِ وَالْجَزْمُ عَلَى النَّسَقِ، رَوَى طاوس عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى الذَّنَبِ الصَّغِيرِ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ،(وَاللَّهُ عَلَى كل شيء قدير).

مسائل العقيدة الكبرى

آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

تضمنت الآيات أركان الإيمان وقد ورد في فضلها ما رواه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((منْ قَرَأَ بالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورةِ البقَرةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ))" متفقٌ عَلَيْهِ." وقد تضمنت ثلاثة مسائل كبرى في العقيدة:

المسألة الأولى في الإيمان: أن تؤمن بالله: أي توحده توحيد الربوبية (وهو أن تؤمن بأن الله ربك ورب الخلق جميعا وخالقهم ورازقهم وحده لا شريك له وهو مدبر أمورهم)، وتوحيد الألوهية (وهو أنتعالىبد الله وحده لا شريك له ولاتعالىتقد الضر والنفع لأحد سواه ولا تتوسل إليه إلا بأسمائه وصفاته ولا تدعوا أحدا من دونه ولاتعالىتقد التصرف في الكون لأحد سواه) وبالملائكة أي بوجودهم وأنهم مخلوقات نورانية لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ((لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ))" التحريم، ٦" فهم مخلوقات خلقوا لعبادة الله وحده وتعظيمه وتقديسه ولكل منهم ما يؤمر به وينفذه بقدر الله من تصريف هذا الكون والله غني عنهم فهو المتصرف وحده في الكون حقيقة وحكما وبالرسل أنهم أرسلوا من عند الله جميعا فبلغوا وصدقوا لا نفرق بينهم في الإيمان وأن نقول ((سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)): أي أن نكون سامعين لأوامر الله ونواهيه طائعين لها راضين بالعبودية والانقياد له مؤمنين بأن المصير إليه أي مؤمنين باليوم الأخر وقد دل على مضمون هذه المسألة حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سأل جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ما الإيمان؟ قال: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))" الصحيحين"

المسألة الثانية أن الله لم يكلفنا فيما شرع لنا فوق طاقتنا وما هو ليس بوسعنا فأوامره ونواهيه التي شرع في طاقة البشر ووسعهم لذا يقول ((لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)) وهذه الآية تفسرها أية أخرى في سورة الحج ((وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ))" الحج، ٧٨" : أي ما جعل عليكم في الدين (وهو ما شرع) من حرج: أي تضيق دليل على سماحة شرعة الله ((أَحَبُّ الدِّينِ إلى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ))" صحيح البخاري" .

المسألة الثالثة أن كل نفس لها ما كسبت من الخير وعليها ما اكتسبت من الشر فذلك قوله تعالى إلى ((لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)) وهذا التفسير يتوافق مع قوله تعالى إلى ((فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)))

خاتمة سورة البقرة

ثم تختم الآيتين بهذا الدعاء لندعوا به ((رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ))

((وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا): الإصر العهد المؤكد الذي يثبط ناقضه عن الخيرات

والثواب قال تعالى: ((قال: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي))" أل عمران، ٨١" : أي عهدي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْتعالىعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ))" الصحيحين"



نبذة عن المؤلف:.

الدكتور: أحمد إسماعيل بدر زيد

- دكتوراه في التاريخ الإسلامي
- ماجستير في مقارنة الأديان
- ليسانس آداب وتربية قسم لغة إنجليزية
- تأليف عشرات الكتب في مقارنة الأديان ومقاومة الإلحاد
- تقديم ما يقرب من تسعين خطبة بعنوان: سلسلة تصحيح المفاهيم
- محاضر في قناة وسط الدلتا الفضائية المصرية
- أستاذ محاضر في أكاديمية نبراس اليقين للدراسات.